

الجزء الثاني

الدكتور

شاكر مصطفى

الناشر

وكالة المطبوعات

٢٧ شارع فهد السالم – الكويت

دولة بني العباس

الجزء الثاني

الدكتور
شاكر مصطفى

الناشر
وكالة المطبوعات
٢٧ شارع فهد السالم - الكويت

مُقَدّمَة

ما كان في خاطري أن يكون هذا الكتاب « دولة بني العباس » منذ وضعته إلا جزءاً واحداً متكاملا . أما وقد شاء الطبع والنشر أن يكون جزءين تسهيلا للقراءة والتناول فهذا هو الجزء الثاني من الكتاب ، يتمم سابقه ويلحق بأبحاثه . وقد شاء هذا التقسيم أن يكون ثبت المصادر والمراجع ، وثبت الاعلام ملحقين بهذا الجزء شاملين لمباحث الجزءين معاً . وإني لأرجو ، إن تيسرت لهذا الكتاب طبعة أخرى مقبلة ، أن تكون أكثر أناقة وكمالا بما يرفدها من نقد الزملاء الكرام .

والكمال لله من قبل ومن بعد .

شاكر

دمشق ١٩٧٤

الفصل الأوّل

السّياسة الدّينية

الملامح العامة للسياسة الدينية العباسية

ليس المقصود من هذا العنوان بالطبع دراسة التيارات الدينية والفرق وآرائها وعلوم الدين والفقهاء وما الى ذلك في العصر العباسي الأول وإنما نريد فقط الى معرفة موقف الخلفاء والسياسة العباسية من تلك التيارات والفرق وبيان تصرفات الخلفاء وعمالهم تجاه كل أولئك وهي سياسة وتصرفات يجب أن نسجل مسبقاً أنها كانت الأمر الوحيد الباقي الى اليوم في المسلمين من ذلك العصر العباسي البعيد .

والفلك العام الذي كانت سياسة العباسيين الدينية تدور فيه ، في عصرهم الأول يمكن أن يتلخص في عدد من النقاط :

أ ـ اتبع العباسيون الأوائل في الحكم سياسة اسلامية مقابل السياسة العربية التي أخذ معظم الأمويين بها الناس . وكان هذا يعني أن الدين كان الدستور والمصدر للعمل السياسي والاداري وأن شعوب الدولة الاسلامية ، بما فيها العرب أضحت على مسافة واحدة ، أو أضحت متساوية القرب والبعد السياسي من الخلفاء . كما يعني في

الوقت نفسه أن أساس الرابطة الجامعة في الدولة قد تحول من الاشتراك في الأصل العربي مع الحكام الى الاشتراك في العقيدة الواحدة مع المحكومين .

على أننا يجب أن نسرع الى القول بأن هذه السياسة الاسلامية لم تكن من ابتكار العباسيين وإن برزت على أيديهم ولكنها كانت قد فرضت نفسها منذ أواخر العهد الأموي تحت ضغط عدد من الظروف «ولو لم تتغير الدولة (الأموية) لكان مقدراً ـ كما قال المستشرق جب ـ للتطور الذي بدأ في ظل الأمويين نحو إقامة نظم ملكية مركزية ونحو صهر العرب ذوي السيادة والتميز حتى ذلك العهد ، في نطاق الامة الاسلامية عامة ، أن يستمر استمراراً طبيعياً إلا إن تغير الدولة أسرع بإنجاز ذلك التطور وجعل وجهته واضحة محددة[1] ..» .

ب ـ حل العباسيون ، باستلامهم الخلافة ، محل الأمويين في الصراع مع الفرق الدينية الأخرى الطامعة بالحكم . ولكنهم ـ دون الأمويين ـ كانوا أقوى موقفاً بسبب صلة القربى المباشرة التي تربطهم بصاحب الرسالة . وقد أدى ذلك الى عدد من النتائج الهامة لعل أبرزها بقاء هذا البيت في الحكم خمسة قرون وارتباطه في نظر الكثير من المتأخرين بنظام الكون نفسه .

ح ـ أن السياسة العباسية الدينية لم تكن نابعة من منطلق عقائدي بقدر ما كانت ذات هدف سياسي . كان اصطناع الطابع الديني

(١) جب ـ دراسات في حضارة الاسلام الترجمة العربية ـ بيروت ١٩٦٤، ص ١٣

احد الوسائل السياسية لدى الخلفاء العباسيين لدعم نظام الحكم • وضمان بقاء البيت العباسي على رأسه • كانت مظاهر الاعمال الدينية تستخدم كلها في هذا السبيل من نشر للاسلام وجهاد وحج واتخاذ ألقاب وبلورة لعقيدة رسمية سنية للدولة كما كانت تصب جميعاً في القناة السياسية •

د ــ وبالمقابل فإنه بالرغم من أن شعار العباسيين في الثورة إنما كان يتلخص في أمرين :

البيعة للرضا من آل محمد والعمل بكتاب الله وسنة نبيه فإن شيئاً أساسياً لم يتغير في سياسة العباسيين العملية عما كان في العهد الأموي سوى ما تم من ازدياد التعاون مع الشعوب غير العربية في المشرق (الموالي من انباط العراق والشام والايرانيين والترك) وهذا قد يعني أن العباسيين اعتبروا وصولهم للحكم تحقيقاً للشعار الأول كما اعتبروا قبولهم للشعوب الأخرى ونشر الاسلام بينها تحقيقاً للشعار الثاني • وكانت المظاهر الدينية ــ فيما عدا ذلك ــ هي التي تغطي الفجوة مابين واقع الحكم العباسي والاتهامات التي كان يرمي بها الحكم الأموي •

هـ ــ وأخيراً فقد وضع العباسيون عملياً نظرية سياسية سنية عباسية في الخلافة كانت نتيجة الواقع العملي والممارسة السياسية أكثر مما كانت نتيجة الفكر النظري والاستلهام الديني وتقوم هذه النظرية على أسس ستة :

١ ــ ابراز القرابة من الرسول والحق في إرثه كأساس للشرعية في

الحكم وقد أخذوا هذا المبدأ عن العلويين واستخدموه بدوره ضـد العلويين •

٢ ـ القيام بأمر الدين كتطبيق عملي لتلك القرابة مقابل ماأخذوه على الامويين من إهمال كتاب الله وسنة رسوله •

٣ ـ تمثيل «الجماعة» الاسلامية في الحكم • وقد أخذوا هنـا المبدأ عن الأمويين واستخدموه أيضاً ضد الأمويين انفسهم وضد غيرهم (من العلويين والخوارج) •

٥ ـ التعايش مع أهل الذمة كرعايا في الدولة الاسلامية باعتبارهم جماعات يعترف بها الاسلام ولكن ضمن حدود ذلك الاعتراف •

٦ ـ رفض الحركات المارقة والزندقة ومحاربتها باعتبارها تهديداً للدين الاسلامي ولنظام حكمه (الخلافة) في وقت معـاً • وإذا كانت النقاط الأربعة الأولى هي الوجه الايجابي لسياسة العباسيين الدينية فإن النقطتين الأخيرتين هما وجهها السلبي الدفاعي • وسوف نبحثهما على حدة في فصلين تاليين •

وقد كان لكل أساس من هذه الأسس شكله النظري الفكري ومجاله التطبيقي العملي في الحكم ولقد يختلط الشكل والتطبيق أو يسبق أحدهما الآخر لكن الخط العام في النظرية كلها إنما هو دعم الدين الاسلامي والدفاع عنه وجعل الخلافة هي الصورة السياسية له• أما أبرز الواضعين لهذه النظرية فهو دون شك أبو جعفر المنصور الذي أقام حدودها وخطوطها الأساسية ولم يضف عليها الخلفاء الذين جاؤوا من بعده الا بعض التفاصيل والتزيين والتأكيد • وسنبحث تباعاً اذن هذه الأسس :

١ ـ القربى من الرسول وحق الارث:

اعتبر العباسيون ان من البديهيات المسلمة أنتكون قيادة المسلمين بعد الرسول من أهل بيت الرسول • تلك هي الركيزة الأولى لنظريتهم في الخلافة وشعار «آل محمد» كان حصان طرواده الذي دخل العباسيون عن طريقه الى المنصب رافضين بصورة مسبقة الآراء الأخرى من خارجة وأموية أو سنية عامة وإذا كان هذا الشعار يعطيهم الشيء الكثير من الحرمة والقدسية المستخدمتين من صاحب الرسالة نفسه ومن الصفة الإلهية لرسالته فإنهم اختطفوا الكثير من الأسلحة العلوية الدينية وصعدوا صلة القرابة تلك ليجعلوا منها الأساس الشرعي المتين لأسرتهم وحقها في الرئاسة الأولى للمسلمين • والمحور الذي داروا حوله في هذا المجال هو إخراج العلويين من الحق في إرث الرسول وبالمقابل توكيد شرعية الحق العباسي دينياً والدفاع عنه •

وإذا لم يكن صعباً على العباسيين بعد أن وصلوا الى الخلافة وقتلوا مروان بن محمد ومزقوا الكتلة الأموية في الشام سحقاً وقتلا وهربا أن يؤكدوا شرعية حكمهم ضد أنصار الأسرة الأموية بالقوةوالواقع الفعلي وباتهام بني أمية «بالظلم» «والباطل» واتباع الشيطان والاستئثار بالفيء ••• الخ • فقد كان من الصعب جداً عليهم أن يفصلوا أنفسهم عن العلويين ويثبتوا أفضليتهم على هؤلاء وجدارتهم بحق الخلافة

(١) الطبري ج٨ ص ١٧٣ (٣/٥٢٩)
(٢) المصدر نفسه ص ١٧٧ (٣/٥٣٤) .
(٣) ابن طيفور تاريخ بغداد ص ٣٠ .

دونهم لا لاشتراك هؤلاء معهم في القرابة مع صاحب الرسالة فقط ولكن أيضاً لسابقة هؤلاء في الجهاد ضد الأمويين لإثبات الحق العلوي وغياب بني العباس عن هذا الجهاد •

وبقدر ماكان مفاجئاً للناس أن يظهر «أبو العباس» كخليفة دون غيره من آل محمد كان صعباً على هذا الخليفة وأنصاره إبعاد الفرع الآخر من آل البيت عن المقام الأول في الدولة بشكل مقنع يرضى بـه الناس ويقطع في الوقت نفسـه دعـوى العلويين • وتكشف الخطبة الأولى لأبي العباس يوم خلافته وخطبة داوود بن علي معه أن العباسيين لم يفرقوا بينهم وبين أولاد عمهم العلويين بل ادعوا أنهم إنما ثاروا لهم : «إنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهـم (الامويين) حقنـا والغضب لبني عمنـا •••»(١) •

وإذا لم ينازع العلويون أبا العباس في خلافته فلأنه لم يطل به العهد سوى أربع سنوات ولأن تشيع العباسية كان موصولا بتشيع العلوية لم ينفصلا بعد حتى تصور الكثيرون أن الذي جاء إنمـا هو الحكم «الهاشمي» وأخيراً لأن أبا العباس ظل على تألف قلوب العلويين وصلة الرحم فيهم بالصلات ولم يكن يستريب إلا بمحمد ذي النفس الزكية وأخيه ابراهيم ولكنه كان يضبط أمرهما عن طريق أبيهما عبد الله

---

(١) هذا هو نص الطبري (٨ص ٤٢٥ ــ ٣/٤٢٨ ــ ٢٩ الى ٣٣)لكن رواية البلاذري في انساب الأشراف تخالف النص في شيء هام بالنسبة للعلاقة العباسية العلوية الاولى هو قوله : « ... وخصنا بعم رسول الله ... ثم جعلنا ورثته وعصبته » . والنص لدى الطبري يقول : « وخصنا برحم رسول الله » ولا يرد فيه أنه جعلنا ورثته وعصبتة . انظر مخطوط انساب الأشراف (مخطوط الرباط رقم ٦٨ ج٣ ورقة ٣٩ ظهر) .

المحض وقد فعل ذلك اكثر من مرة حتى أخذ عليه العهد ألا يرى منهما شيئاً يكرهه ما كانا في الدنيا[1] ...

وقد عبر الشاعر السيد الحميري وهو علوي الهوى عن هذا الموقف الذي اختلط فيه الأمر العباسي بالعلوي قال :

دونكموها يا بني هاشم　　فجددوا من عهدها الدارسا
قد ساسها من قبلكم ساسة　　لم يتركوا رطباً ولا يابساً

وقال :

جزعت أمية من ولاية هاشم　　وبكت ، ومنهم قد بكى الاسلام!

فلما جاء المنصور وانتصر على عمه وغيره أيقن العلويون أنه لا أمل لهم في الخلافة مع استئثار ابناء عمهم فيها وإذا كان أبو جعفر ينصح أخاه أبا العباس بالتشدد مع آل أبي طالب فيأبى ذلك فقد كان طبيعياً أن ينفذ رأيه هذا والحكم في يده ، لذلك سجل المؤرخون «أن المنصور أول هاشمي أوقع الفرقة بين بني هاشم ... حتى قيل عباسي وطالبي ... »[2] ولعل السبب هو أن المنصور التمس شرعية الحكم من طريق الفقه الاسلامي فأعلن أن الخلافة إنما جاءت العباسيين لأنها حقهم الشرعي عن طريق العباس عم النبي ووارثه الوحيد حسب النصوص القرآنية مع ابنته فاطمة . وأصدق الشهود على هذا الموقف السياسي الجديد تلك المكاتبات التي دارت بين المنصور ومحمد ذي النفس الزكية

---

(١) الاصفهاني ـ مقاتل الطالبيين ص ١٧٧ .
(٢) انظر اليعقوبي ـ مشاكلة الناس لزمانهم ص٢٢ ـ ٢٣ والسيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص ٢٧٠ .

عند ثورته فكلها تأكيد على حق العباس بالخلافة •

وحين قال الثائر العلوي : «إن ابانا علياً كان الوصي وكان الامام فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء» ؟ وإنا بنو أم رسول الله في الجاهلية وبنو بنته في الاسلام ••• فوالدنا من النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ومن السلف أولهم اسلاماً •••» أجابه المنصور « إنما جل فخرك بقرابة النساء لتضل بـه الحفاة والغوغاء ولم يجعل الله النساء كالعمومة والأباء ولا كالعصبة والأولياء ••••» : وأما قولك أنكم بنو رسول الله فإن الله تعالى يقول : ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكنكم بنو ابنته وانها لقرابةقريبة ولكنها لاتحوز الميراث ولا ترث الولاية ولا تجوز لها الامامة فكيف تورث بها ؟ »[1] •

ويقول المنصور في كتاب آخر : «••• ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد النبي صلى الله عليـه وسلم غيره (أبي العباس) فكان وارثه من عمومته ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بني هاشم فلم ينله إلا ولده • فالسقاية سقايته • وميراث النبي له والخلافة في ولده فلم يبق شرف ولا فضل ولا إسلام في دنيا ولا آخرة إلاوالعباس وارثه وموروثه • فكيف تفخر علينا وقد علناكم في الكفر وفديناكم من الأسر وحزنا عليكم مكارم الآباء وورثنا دونكم خاتم الأنبيـاء وطلبنا بثأركم فأدركنا من ما عجزتم عنه ولم تدركوا لأنفسكم •••» •

وما من شك في أن هذه المكاتبات لم تتردد بين الطرفين ولم تكتب

(١) البلاذري ـ انساب الأشراف ج ٣ الورقة ١١ وجه وظهـر .. وانظر الطبري ج٨ ص ٥٦٦ ـ ٥٧١ (٣/٢٠٨ ـ ٢١٦) •

لإقناع الخصم وإنما كتبت ونشرت في الناس بغرض دعائي يثبت به كل من الطرفين دعواه وبشكل شرعي ديني في الخلافة على أن أهم ما أورده المنصور إنما هو الحجة الفقهية التي تكشف أن العباس (العم) هو دون علي (ابن العم) الوارث الوحيد للرسول وللإمامة في المسلمين عند وفاة صاحب الرسالة •

وقد استعر الجدل النظري الفقهي على ما يظهر في تلك الفترة حول هذا الأمر بالذات « ••• حتى كان زمان المهدي فردهم المهدي إلى إثبات الإمامة للعباس بن عبد المطلب وقال لهم : إن الامامة كانت للعباس عم النبي فإنه كان أولى الناس به وأقربهم إليه ثم من بعده عبد الله بن العباس ثم بعده علي بن عبد الله ثم من بعده محمد بن علي ثم من بعده ابراهيم بن محمد ثم أبو العباس ثم أبو جعفر ثم المهدي ثم مدها في ولد المهدي •••»[١] •

وهذا يعني أن العباسيين زمن أبي جعفر كانوا يقولون بإرث الكيسانية أي بالإمامة للعلويين حتى محمد بن الحنفية ثم بانتقال الامامة لمحمد بن علي ثم أولاده • «بهذا كان يقول علي بن عبد الله وولده الى أيام المهدي » ولكن المهدي أوجد خطاً جديداً في الدفاع العباسي إتباعا لرأي أبيه إذ ألغى الارث الكيساني كله ورد الإمامة مباشرة بعد الرسول وعن طريق الشرعية الفقهية الى العباس نفسه • وحول هذه النقطة بالذات قامت المشادة التي استمرت قروناً بعد ذلك بين البيتين العباسي والعلوي وكانت من أهم نقاط الاختلاف بين الفقه

---

(١) اخبار الدولة العباسية ـ لمؤلف مجهول(نشر الدوري والمطلبي). ص ١٦٥ (في المخطوطة الأصلية ورقة ٧٤ وجه) .

السني والشيعي وإنا لنجد أصداء هذه المشادة بعد نصف قرن من ظهورها لدى الخليفة المأمون نفسه يذكر ابن قتيبة الدينوري أن المأمون قال يوما لعلي بن موسى الرضى (الذي صار ولي عهده فترة من الوقت) بم تدعون هذا الأمر ؟ قال : بقرابة على من النبي صلى الله عليه وسلم وبقرابة فاطمة رضي الله عنهما فقال المأمون : إن لم يكن هاهنا شيء إلا القرابة ففي خلف رسول الله ••• من أهل بيته من هو أقرب إليه من على ومن هو في القرابة مثله وإن كان بقرابة فاطمة من رسول الله فإن الحق بعد فاطمة للحسن والحسين وليس لعلي في هذا الأمر حق وهما حيان • وإذا كان الأمر على ذلك فإن علياً قد ابتزهما جميعاً وهما حيان صحيحان واستولى علي على ما لا يجب له• فما أحار علي بن موسى نطقاً •••»[1]

ومع ذلك يذكر المؤرخون تحول المأمون الى الهوى العلوي ، منطقياً وعن طريق الفكر الجدلي لا عن ميل قلبي صادق مرتين الأولى حين أعطى ولاية العهد لعلي الرضا ولكنه سرعان ما تخلص منه سنة٢٠٢ والثانية سنة ٢١١ حين أظهر القول بخلق القرآن وتفضيل علي[2] ويحفظ لنا ابن عبد ربه محضرا كاملا لمجلس جدل عقده المأمون مع أربعين فقيها وملأه بالدفاع المنطقي عن فضل علي • وطريقة ايراد ذلك الجدل تكشف أنه موضوع ومن عمل فكر ساهر جدلي • على أنه لم يكن لهذا كله من أثر عملي فيتغيير السياسةالعباسية[3] زمن المأمون عما كانت عليه قبله •

---

(١) الدينوري — عيون الأخبار ج٢ ص١٤٠ — ١٤١ ويروي ابن عبد ربه في العقد الفريد (ج٥ ص١٠٢) الحادثة ذاتها .

(٢) الأزدي — تاريخ الموصل ص٣٧٣ .

(٣) في العقد الفريد (ج٥ ص١٩٥—١٠٢) فصل من عدة صفحات بعنوان : «احتجاج المأمون على الفقهاء في فضل علي» يورد فيهجدلا منطقيا تزعمه المأمون ضد الفقهاء الذين جمعهم وأثبت لهم بالمنطق فضل علي ثم

وبالرغم من أن أصداء هذا الجدل الفقهي والنظري السياسي قد امتدت في الناس وانعكست في الفقه وعلم الكلام وكتب الادب والنسب وفي ولاء الناس فانا نكتفي بأن نذكر ملامحها في الشعر . صحافة تلك الأيام ، ووسيلة الاذاعة المتاحة للحزبين المتنافسين : وفي هذا المجال نقرأ لشعراء العباسيين الكثير مما كتب عن قناعة بهم أو زلفى إليهم أو بتأثير المال والجاه ومن ذلك : شعر مروان ابن ابي حفصة السياسي (بعد العهد الاموي ومروان بن محمد وكان مختصاً في الأصل به) يقول :

يا ابن الذي ورث النبي محمداً	دون الأقارب من ذوي الأرحام
الوحي بين بني البنات وبينكم	قطع الخصام فلات حين خصام
ما للنساء مع الرجال فريضة	نزلت بذلك سورة الأنعام
أنى يكون وليس ذاك بكائن	لبني العموم وراثة الأعمام ؟

ويقول :

هل تطمسون من السماء نجومها	بأكفكم أو تسترون هلالها ؟
أو تجحدون مقالة من ربكم	جبريل بلغها النبي فقالها
شهدت من الأنفال آخر آية	بتراثهم فأردتم إبطالها !

ثم جاءت بعد ذلك جوقة واسعة من الشعراء كلها ضربت على الوتر نفسه وكررته على أشكال وأنغام شتى . قال أبان بن عبد الحميد اللاحقي :

نشدت بحق الله من كان مسلماً	أعم بما قد قلته العجم والعرب°
أعم رسول الله أقرب زلفة	إليه أم ابن العم في رتبة النسب ؟
وأيهما أولى به وبعهده	ومن ذا له حق التراث بماوجب ؟

اورد ابن عبد ربه بعد ذلك خبر اعطاء ولاية العهد من قبل المأمون لعلي الرضى . ولعل هذه المناقشة ـ إن صحت ـ إنما كانت قبيل ولاية العهد هذه أو سنة ٢١١

فإن كـان عباس أحـق بتلكمُ ... وكـان علي بعد ذاك على سبب
فأبنـاء عبـاس هـمُ يرثونـه ... كما العم لابن العم بالارث قد حجب!

وقال منصور النميري :

يا ابن الأئمـة من بعد النبي ويا ابـن الأوصياء أقر الناس أو دفعوا
ان الخلافة كانت ارث والـدكم ... من دون يتم وعنـد الله متسـع
لولا عدي وتيم لم تكن وصلت ... إلـى أميـة تمريهـا وتـرتضع
ومـا لآل عـلي في إمـارتكم ... ومـالهم أبـداً في إرثكم طمـع
يا أيها الناس لا تغرب حلومـكم ... ولا تقدمكم إلـى اكنافها البدع
العم أولى من ابن العم فاستمعوا ... قول النصيحة إن الحق مستمع !

ويقول ابن سكرة :

إن الخـلافة كانت ومـذ بدأت ... مرسومـة بقيّ من آل عبـاس
إذا انقضى عمر هذا قـام ذا خلفاً ... فلاحت الشمس وامتدت على الناس
فقل لمن يرتجيها غـيرهم سـفهاً ... لو شئت روحت كرب الظن باليأس !

وقد ظل الجدل طويلا في ذلك ونسمع أصداءه بعد ٧٥سنة من عهد المهـدي في قصيدة تلقى أمـام الخليفة المتوكـل يقول أبو السمط صاحبها فيها :

ملـك الخليفـة جعفر ... للـدين والدنيا سلامه
لـكم تـراث محمد ... وبعدلكم تنفى الظـلامة
يرجـو التـراث بنـو البنـات ... ومـالهم فيها قلامة
والصهر ليس بوارث ... والبنت لا ترث الإمامـة
مـا للذيـن تنحـلوا ... مـيراثكم إلا الندامـة
أخـذ الوراثة أهلهـا ... فعـلام لومكم علامة ؟

قالوا فأمر المتوكل بإعطائه ثلاثة آلاف دينار نثرت على رأسه [1] .

وأمام المتوكل نفسه أنشد شاعره مروان بن يحيى معرضاً بالعلويين:

وخليتموها وهي في غير أهلها وطالبتموها حين صارت الى الأصل ؟

وقد أجاب العلويون على شعر بشعر وعلى حجة فقهية بحجة فقهية.

وقال شاعرهم رداً على شعر ابن أبي حفصة :

لم لا يكون وإن ذلك كائن لبني العموم وراثة الأعمام

للبنت نصف كامل من ماله والعم متروك بغير سهام

ما للطليق (العباس) وللتراث وإنما صلى الطليق مخافة الصمصام [2]

وإذا كانت قصائد الدفاع عن الحق العباسي وتأكيد شرعيته تأخذ شكل الاماديح المعتادة للحكام فان قصائد الإشادة بالعلويين ورجالهم وجهادهم كانت تشكل غنائيات رثائية حارة العاطفة وتستثير الدموع ومن ذلك مثلا أشعار السيد الحميري ودعبل الخزاعي التي امتلأت تنديداً بخلفاء العباسيين ومافعلوا بأولاد رسول الله من البغي وقد يلخص ذلك قول منصور النميري (بعد تحوله عن بني العباس) :

آل النبي ومن يحبهم يتكامنون مخافة القتل

أمن النصارى واليهود وهم من أمة التوحيد في أزل

وقول دعبل :

أضر بهم ارث النبي فأصبحوا تساهم فيهم خيفة ومنون

دعتهم ذئاب من امية وانتحت عليهم دراكا أزمة وسنون

وعاثت بنو العباس في الدين عيثة تحكم فيها ظلم وخؤون

وقول التنوخي :

وقطعتم بالبغي قوم محمد ترائب أرحام له وقرائب ...

---

(1) الطبري ج ٩ ص ٢٣٠ (٣/١٤٦٥ — ١٤٦٦)

(2) يعطي العباس لقب الطليق لأنه حارب في بدر مع المشركين واسر فافتدى نفسه .

وفي الوقت نفسه بينما كان أمل العلويين يتضـاءل في التغلب على القوة العباسية كانت اتهاماتهم للعباسيين تتركز في أنهم غاصبون للحق من جهة وطغاة منحرفون جبابرة من جهة أخرى يقول محمد ذو النفس الزكية : «أما بعد أيها الناس فإنه كان من أمر هذا الطاغية عدو الله أبي جعفر ما لم يخف عليكم من بنائه القبة الخضراء التي بناها معاندا لله في ملكه وتصغيراً للكعبة الحرام • وإنما أخذ الله فرعون حين قال أنا ربكم الأعلى • وإن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجـرين الأولين والأنصار المواسين•••»[1] ويرى المعلي بن محمد البصري أن العباسيين بدلوا حكم الله ونبذوا كتابه وحرفوا فرائضه ويضيف : اللهـم العن جبابرة زماننا واشياعهم واتباعهم وأحزابهم •••» •

وقد قابل الخلفاء العباسيون (منذ المنصور حتى الواثق) إصرار العلويين على مناهضتهم بالاضطهاد القاسي الرهيب دومـاً وبالتسامح أحياناً قليلة (كما في عهد المهـدي وبعض عهد المأمـون) ولكن ذلك الاضطهاد الذي ذهب بعدد من كبـار آل البيت سجناً وقتلا في فجائع معروفة كانت له تنيجتان هامتان : ازدياد التطرف الشيعي والغلو من جهة وازدياد التكتم والباطنية والحركات السرية في هذا المذهب من جهة أخرى وقد دفع العباسيون خاصة والمسلمون عامة ثمن هذه السياسة الدينية العباسية غالياً وأحياناً غالياً جـداً • لأن كثرة البطش دفعت العلويين في نوع من الدفاع الذاتي الى المغالاة في المذهب والى أن تصبح التقية أحدى الأسس فيه وأن يتبع في انتشاره أسلوب الدعوة في السر وأن يتخذ طريقه الى النفوس سرباً •••

---

(١) الطبري ج٧ ص٥٥٨ (١٩٧/٣) •

٢ ـ القيام بأمر الدين :

حاول العباسيون تصعيد تلك القربى التي يمتون بها الى الرسول وتدعيمها وتبرير دعواهم في «الارث» النبوي وتأكيد صحة تلكالدعوى وذلك في عدد من المنطلقات والأعمال :

الأول : اعتبار الخلافة مؤسسة دينية لا رئاسة دنيوية ، وإمامة روحية لا دست حكم فحسب وقد كان هذا يعني : أن الله هو الذي يختار الخليفة كما يعني أن سلطة الخليفة مستمدة بدورها من الله ، وإذا كان الاختيار الإلهي إنما عبر عن نفسه بتمكين العباسيين من الوصول الى الحكم ومن طرد الأمويين عنه فإن السلطة الخلافية علوية تتنزل من السماء ولا علاقة لها بالأرض وأهل الأرض ، يقول شاعرهم :

وما الناس احتبوك بها ولكن حباك بنورها الملك الجليل
تراث محمد لكم وكنتم أصول الحق اذ نفى الأصول

«وتقديس» المنصب الخلافي ليس من فعل العباسيين أنفسهم ، وإذا تركنا جانباً ، وفي خلفيات الفكرة ذلك التيار القديم في الشرق الذي كان يعطي الحكام الصبغة الإلهية أو الحق الملكي المقدس سواء لدى الفراعنة أو البابليين أو الرومان أو الفرس أو الساسانيينالاخيريين ، ويجعلهم ، بحكم التراث مقبولي القدسية في الناس ، فإن «تقديس» الخلافة نفسها قد تعاون عليها قبل بني العباس كل من الأمويين والعلويين على السواء :

ـ فالأمويون منذ عهد عبد الملك لم يعد الخليفة عندهم خليفة رسول الله ولكن «خليفة الله» وظل الله في الأرض ، قام عبد الملك في

الكوفة حين أراد الشخوص إلى الشام بعد مقتل مصعب بن الزبير «فخطب الناس» فعظم عليهم حق السلطان وقال لهم هو ظل الله في الأرض وحثهم على الطاعة والجماعة وذكر ابن الزبير وخلافه وخروجه ... وحكم الله لـه (لعبد الملك) عليه ..»[1] وكتب الوليد بن يزيد سنة ١٢٥ إلى واليه يوسف بن عمر الثقفي في العراق والي نصر بن سيار يقول: «... ثم استخلف (الله) خلفاءه على منهاج نبوته حين قبض نبيه ... فتتابع خلفاء الله على ما أورثهم الله عليه من أمر أنبيائه واستخلفهم عليه منه لا يتعرض لحقهم أحد إلا صرعه الله ولا يفارق جماعتهم أحد إلا أمكنهم الله منه ... فبالخلافة أبقى الله من أبقى في الأرض من عباده وإليها صيره وبطاعة من ولاه إياها سعد من ألهمها ونصرها ... ولاصلاح إلا بالطاعة ... فمن أخذ بحظه منها كان لله ولياً ولأمره مطيعاً ومن تركها ... عصى ربه وخسر دنياه وآخرته ... فيما يحل الا بهم في الدنيا من الذلة والنقمة ...[2] ثم إن أمير المؤمنين لم يكن منذ استخلفه الله ...» .

ـ وأما العلويون فقد كانوا منذ عبد الله بن سبأ وغيره قد أدخلوا على الزعامة العلوية فكرتين من التقديس : الإمامة ووجود شيء من السر أو النور الإلهي في الإمام يرثه عنه الامام التالي له . وضمن هذا الإطار كان ما يسمى في تاريخ الدعوة العباسية بإرث الكيسانية ، وبالصحيفة الصفراء أو صحيفة العلم الباطن كما كانت تسمية محمد بن علي ثم ابنه ابراهيم «بالإمام» قبل خلافة أولاده .

وحين جاء العباسيون لم يفعلوا من جديد سوى أنهم دفعوا هذه

---

(١) البلاذري ــ انساب الاشراف ج٥ ص ٣٥٤

(٢) الطبري ج٧ ص ٢٢٠ ــ ٢٢١ (١٧٥٨/٣ ــ ١٧٥٩)

الفكرة الى نهايتها وجعلوها من المسلمات السياسية المرتبطة بعرشهم كما وطدوا الإيمان بها بين الناس فلم تعد مجرد رأي لبعض الخلفاء ولا عقيدة لإحدى الفرق ولكن ركيزة نظام قائم • وقد بدأوا ذلك منذ لحظاتهم الأولى : يخطب أبو العباس يوم استخلافه فيقول :

« ••• الحمد لله الذي اصطفى الأسلام ••• وحضنا برحم رسول الله وقرابته ووضعنا من الاسلام واهله بالموضع الرفيع فقال عز من قائل إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ••• الخ» ثم وقف داوود بن علي يقول : «•• رجع الحق الى نصابه في أهل بيت نبيكم» •• ثم دفع ابو جعفر الفكرة الى اقصاها فصار يخطب : «••• إنما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده وخازنه على فيئه أقسمه بإرادته وأعطيه بإذنه وقد جعلني الله عليه قفلا ••• فارغبوا إلى الله وسلوه أن يوفقني للرشاد وأن يلهمني الرأفة بكم والاحسان إليكم ويفتحني لإعطائكم •••»(١) • فكأنما يريد أن يقول إن الخليفة آلة إلهية للحكم وواسطة تنفيذ بيد الله في الناس •••

ومنذ تلك الفترات الأولى أضحى الأمويون : « انصار الباطل » حسب وصف أبي جعفر و «حزب الشيطان» وأضحى مروان بن محمد «خليفة الشيطان» كما قال عبد الله بن علي «وعدو الرحمن» • بينما أضحى العباسيون هم «أنصار الدين وأضحى خليفتهم خليفة الله» «وأن هذا الأمر (الخلافة) فينا وليس بخارج عنا الى يوم القيامة» وأن الدوحة العباسية هي «الشجرة المباركة أصلها ثابت وفرعها في السماء ••» • وقد استخدمت فكرة الاختيار الإلهي للخليفة وقدسية مقام الدولة

(١) الطبري ج ٨ ص ٨٩ (٣/٤٢٦)

العباسية حتى ضد العلويين أنفسهم وضد ثوراتهم . وأكثر ما استخدمت ضدهم في الثورات الآية الكريمة : « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع ايديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ...» كتب المنصور بذلك الى محمد ذي النفس الزكية كما أوصى بذلك ابنه المهدي وذكره بأن «... السلطان حبل الله المتين وعروته الوثقى ودين الله القيم ...» . وخطب المنصور أثناء ثورة ذي النفس الزكية فقال إنه : «.. لما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله وحكمه العدل وثبوا علينا حسداً منهم لنا وبغياً علينا بما فضلنا الله به عليهم واكرمنا من خلافته ميراثنا من نبيه ... » !

وقد استخدم المنصور في خطبة له بمكة بعد بناء بغداد وهزيمة ذي النفس الزكية الآية الكريمة «ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون» ثم قال :

أمر مبرم . وقول عدل . وقضاء فصل . والحمد لله الذي أثلج حجته . وبعداً للقوم الظالمين الذين اتخذوا الكعبة عرضا والفيء إرثاً... ولقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون ...»[1] وقد عبر عن هذه الفكرة نفسها الشاعر أبو الخير الناصبي بقوله :

أبى الله إلا ما ترون فما لكم غضاباً على الأقدار يا آل طالب ؟

فلما كانت أيام المهدي صار وصف «خليفة الله» هو الوصف الشائع على ألسنة الشعراء للعباسيين وإنك لتستطيع في الاماديح خاصة وفي الأهاجي المعاصرة أن تجد عشرات الدلائل على ذلك :

---

(١) الطبري ج٨ ص٩١ (٣/٤٢٩) .

يقول بشار في معرض هجاء المهدي نفسه :

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعود !

ويقول ابن المولى في المهدي :

خليفة الله • عبد الله والده

وأمه حرة تنمى لأمجاد •••

ويقول مروان بن أبي حفصة :

فإن طليق الله من أنت مطلق

وإن قتيل الله من أنت قاتله !

ويقول عبد الملك بن صالح في الرشيد :

الله قلد هاروناً سياستنا

لما اصطفاه فأحيا الدين والسننا

ويقول سلم الخاسر فيه :

بايع هارون إمام الهدى

لذى الحجى والخلق الفاضل !

ويقول الحسين بن الضحاك في المأمون :

فأنت خليفة الرحمن حقاً

جمعت سماحة وجمعت دينا

ويقول ابن أبي السمط فيه أيضاً :

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلا

بالدين والناس بالدنيا مشاغيل(١)

وقد تصاعد هذا التقديس للخلافة العباسية مع الأيام حتى صار

---

(١) انظر الطبري ج ٨ ص ٦٦٢ – ٣ (١١٥٨/٣)

من الاعتقاد الشائع ربط نظام الكون بها وحتى لقد أخاف الناس بذلك هولاكو المغول وخافوا غياب الشمس ودمار الأرض .

الثاني : اصطناع واتخاذ المظاهر الدعائية الدينية :

أ ـ فقد اتخذ العباسيون مع «ميراثهم» في الخلافة مع النبي بعض ما كان للنبي من لوازم مادية وهي : البردة والقضيب : هما الرداء الملكي وصولجان العرش . وكانت البردة هدية أبي سلمة للخلفاء العباسيين اشتراها فقدمها إليهم فكان الخليفة العباسي لا يخرج في موكبه الرسمي إلا بالبردة والقضيب . ولا سيما إن كان هذا الخروج للمظالم أو الصلاة أو الجهاد أو الأعياد وقد بلغ من إكبارها الديني أن كانت «هي الخلافة»(١) .

ب ـ وقد اتخذ العباسيون منذ الأيام الأولى لظهورهم ألقاباً دينية بجانب اسمائهم . بل اتخذوها قبل الخلافة أيضاً . فإن محمد ابن علي ثم ابنه ابراهيم كانا يدعيان من قبل انصارهما «بالامام» فلما جاء أبو العباس أعطي لقب «المهدي» من قبل بعض جماعته يقول سديف ابن ميمون مولى ابي العباس :

أنت مهدي هاشم وهداها كم أناس رجوك بعد إياس

ولعل أبا العباس لم يتخذ اللقب رسمياً فلم يشع اللقب ولعل أبا جعفر تردد في اتخاذ لقب لنفسه حتى إذا انتصر على محمد ذي النفس الزكية اتخذ لنفسه لقب «المنصور» محيياً بذلك ومستجلباً لنفسه به كل ما كان يحمل ذلك اللقب القديم من تهاويل دينية وأفكار تنبوئية وأسطورية وملاحمية منذ منصور اليمن الى المختار الثقفي الى منصور

---

(١) الطبري ج٨ ٤٨٢ (٣/٩١٧) .

خراسان الحارث بن سريج ••• ولم ينس في الوقت نفسه سلب أعدائه المبادرة إذ أخذ أيضاً لقب «المهدي» الذي سوف «يملأ الدنيا عدلا كما ملئت جوراً» فأعطاه هو نفسه لابنه وولي عهده ••• وقد كان محمد ذو النفس الزكية قد أخذ لنفسه هذا اللقب وجعله في مكاتباته مع المنصور[1] •••

ولقد يذكر بعض الكتاب أن الأمويين اتخذوا لأنفسهم ألقاباً •وروي المسعودي ذلك نقلا عن «بعض المتأخرين ممن ينحرف عن الهاشميين الطالبيين منهم والعباسيين ويتحيز الى الأمويين ويقول بإمامتهم •••» ويضيف «أنه ذكر أنه كانت لمن ملك من بني أمية ألقاب كألقاب خلفاء العباسيين وذكر في ذلك روايتين : ••» وهكذا «يعطى معاوية لقب الناصر لحق الله ويزيد : المستنصر ••• ومروان المؤمن بالله •••وسليمان ابن عبد الملك بالمهدي والداعي الى الله ••• وعمر بن عبد العزيز المعصوم بالله ••• وهشام بن عبد الملك المنصور ومروان بن محمد بالقائم بحق الله[2] ••• ولكن هذه الألقاب مزيفة دون شك وقد رفضها المسعودي نفسه قائلا : «إن الكافة على خلافه • فلو كان الأمر على ما ذكر لظهر واشتهر ••• وجاء في الأخبار المنقولة القاطعة للعذر ••• فلما لم يذكره الجمهور من حملة الأخبار ونقلة السير والاثار ولا دونه مصنفو الكتب في التاريخ •• علم أن ذلك لا أصل له •••» •

واتخاذ العباسيين للألقاب «الدينية» إنما كان رمزاً لسياستهم الدينية ولهذا لم يحد العباسيون الأوائل في ألقابهم عن معنى واحد بعد المنصور فالمهدي والهادي والرشيد والأمين والمأمون بل وألقاب وليي

---

(١) الطبري ج٧ ص ٥٦٧ (٣/٣/٩٠٣) •

(٢) المسعودي ـ التنبيه والاشراف ص ٢٨٩ـ٢٩١

العهد المؤتمن والناطق بالحق كلها أسرة واحـــدة من الألقاب تنبع من مؤدى واحد يعني الهداية الدينية وحفظها ثم اضـــاف العباسيون الى اللقب لفظ الجلالة رمزاً لهذا الانصراف الديني في معنى الخلافة : وهكذا بدأ المعتصم بالله سلسلة الألقاب المقرنة بكلمـــة الله ••• وهي السلسلة التي لم تنته حتى المستعصم بالله بل عادت فالتصق بها خلفاء العباسيين في القاهرة حتى الفتح العثماني • وهذه الصفة الدينية كانت حين ضعف هؤلاء الخلفاء هي الشيء الوحيد الباقي لهم منذ اواخـــر القرن الثالث يقول البيروني : (في مطالع القرن الرابع) : «••• والذي بقي في أيدي العباسية إنما هو أمر ديني اعتقـــادي لا ملكي دنيوي كمثـــل مالرأس الجالوت عند اليهود من أمر الرئاسة الدينية من غير ملك ولا دولة فالقائم من ولد العباس الآن إنما هو رئيس الاسلام عند أصحاب النجـــوم لا ملك •••»(١) •

حـ ــ ادعاء حيازة «العلم السري» ، علم الغيب : «ما كان وما هو كائن الى يوم القيامة» • وهذا العلم إنما كان في الأصل ــ على مايبدو ــ نوعاً من التنبؤات الملحمية والرجم بالفلك والغيب وقد رأى المنصور أن الشيعة يدعون امتلاك أئمتهم «للعلم» المتوارث عن صاحب الرسالـــة فأراد أن يعدل ذلك بادعاء موازله فادعى أن العباسيين ورثـــوا العلم السري مكتوباً في دفاتر عن طريق أبي هاشم ، الذي أعطى ذلك العلم لمحمد بن علي بن عبد الله العباسي فانتقل منه الى أولاده • وكان المنصور يحفظ تلك الدفاتر في سفط عليه قفل عهد به الى مولاه حمـــاد التركي واحتفظ بمفتاحه فإن احتاج الى شيء منه استدعى ذلك المولى بالسفط ثم أخرج المفتاح من كم قميصه • وحين ارتحل إلى مكة في الحجة التي

---

(١) البيروني ــ الآثار الباقية (طبعة سخاو) ص١٣٣

مات فيها ذكروا أنه استدعى ابنه المهدي فقال له : انظر هــذا السفط فاحتفظ به فإن فيه علم آبائك ماكان وما هو كائن الى يوم القيامة فإن احزنك أمر فانظر في الدفتر الأكبر فإن اصبت فيه ما تريد وإلا فالثاني والثالث حتى بلغ سبعة فإن ثقل عليك فالكراسة الصغيرة فإنك واجد فيها ما تريد وما أظنك تفعل ...»[1] .

ولسنا ندري بعد ذلك ما الذي كان من أمر هذه الدفاتر التي يبدو أن الخلفاء أهملوها لعدم الحاجة إليها . ولعلها هي نفسها الكتاب الذي يرد ذكره في عهد المهدي وهو في طريقه الى الروم سـنة ١٦٣ ويسميه بعض رجال الحاشية (بكتاب الدولة) ويزعمون أنهم وجدوا فيــه أن سنوات خلافة المهدي عشر فزيفوا ورقة أخرى مكان الأولى وكتبوا فيها اربعين بدلا من عشرة[2] ... لكن هذا الكتاب أضحى بعد استقرار الدولة العباسية غير ذي موضوع فلسنا نعرف له أثراً .

د ــ العناية بأهل الحجاز وبالحرمين :

وبالرغم من أن هــذه العناية بالحجازيين لهــا وجههــا الاداري السياسي لما في مدينتي الحجاز من آل البيت القابلين للتمرد ومن الأنصار ومن أولاد الصحابة ومن الفقهاء المشهورين فإن لهــا في الوقت نفسه جانبها الديني الدعائي السياسي أيضــاً باعتبار مكة والمدينــة ، بلدي الرسول ومطلع نور الاسلام . وقد اضطهد الحجاز أحيانا كثيرة أثنــاء العهد الأموي بسبب معارضته التي انتهت غالباً بالفواجع (واقعة الحرة. وهزيمة ابن الزبير . وقصة أبي حمزة الخارجي) على أن مــا خسره الحجازيون في السياسة كسبوه في العلم والدين فكانت للمدينة حاضرة

---

(١) الطبري ج٨ ص١٠٣ (٣/٤٤٣ــ٤٤٤) .
(٢) الطبري ج٨ ص١٤٦ (٣/٤٩٦ــ٤٩٧) .

«أهل الحديث» ومنبع علوم الاسلام على يد عبد الله بن عباس وتلاميذه وقد تمثل علمها في مطالع العصر العباسي في جمهرة واسعة من العلماء يأتي في طليعتهم مالك بن أنس صاحب المذهب . كما لجأ أهل البيت عامة الى المدينة فأقاموا فيها مما حرمهم في الواقع المشاركة المباشرة في تقرير مصير العالم الاسلامي يوم بدأ هذا المصير معلقاً غامضاً بعد وصول الثورة العباسية الى الكوفة وقبل مبايعة أبي العباس وهزيمة الزاب (وهنا كانت محاولة ابي سلمة الخلال) ...

وتلقى الحجازيون نجاح أبي العباس في نوع من الانتظار لما سيكون . وكان جعفر الصادق وعبد الله المحض خاصة هما وجها الحجاز عند أبي العباس ثم أبي جعفر بينما كان محمد بن عبد الله (النفس الزكية) هو الروح السياسية التي تنتظر في المدينة . ولم يكن هذا الموقف بالذي يخفى على المنصور الذي وصف أهل الحجاز بأنهم «أسرع الناس الى الفتن وأضعفهم عنها» ولقد بايع الحجازيون لأبي العباس ثم للمنصور «مكرهين» بشهادة مالك بن أنس فقيه المدينة ولم يكن بإمكان العباسيين — ومواسم الحج سنوية يجتمع إليها العالم الاسلامي في الحجاز — أن يبطشوا بقسوة بأهل الحرمين دون أن يظهر ذلك متناقضاً أشد التناقض مع ما يحرصون عليه من السمعة الدينية وما يعلنونه من العمل بالاسلام وبالكتاب والسنة وما ينشدونه من الإبقاء على حرمة آل محمد (عباسيهم وعلويهم) لدى الناس لذلك كانوا مضطرين الى اصطناع سياسة خاصة من السخاء والتودد في هذا الاقليم الاسلامي دون باقي الاقاليم .

أبو جعفر هو الذي بدأ سياسة التودد وإظهار التعظيم للحرمين ثم درج عليها المهدي والرشيد خاصة : ولعله كان في خاطره أن يظهر

احترام البيت المالك الجديد للحرمين وأهلهما مقابل الاهمال بل والعدوان الأموي أحياناً عليهما • وأبرز ما تجلى ذلك في توسعة الحرمين والبر الزائد لأهلهما • فأما توسعة الحرمين فقد كانت ضرورية بسبب تزايد اعداد الداخلين في الاسلام من الشعوب المغلوبة حتى صار البيت الحرام أضيق من أن يتسع للاعداد المتكاثرة من الحجاج «••• وشكا الناس ضيقه» كما قال اليعقوبي فانتهزها المنصور «••• وكتب الى زياد بن عبيد الله الحارثي (والي الحجاز) أن يشتري المنازل التي تلي المسجد حتى يزيد فيه ضعفه فامتنع الناس من البيع» فاستشار الخليفة جعفرا الصادق ابن محمد فقال : سلهم • أهم نزلوا على البيت أم البيت نزل عليهم ؟ فلما قالوا : نزلنا عليه • قال : فإن للبيت فناءه • فكتب أبو جعفر بهدم المنازل التي تليه ••• وأدخلت عامة دار الندوة فيه (وهذا يعني أن هذه الندوة الجاهلية كانت ما تزال قائمة) حتى زاد فيه ضعفه وكانت الزيادة مما يلي دار الندوة وباب بني جمح ولم يكن مما يلي الصفا والوادي فكان البيت في جانبه وكان ابتداء الأمر به في سنة ١٣٨ وفرغ سنة ١٨٠ •• وبني (كذلك) مسجد الخيف بمنى وصيره على ما هو عليه من السعة ولم يكن بها قبل ذلك • وحج أبو جعفر سنة ١٤٠ لينظر ما زيد في المسجد الحرام •••»[١] وليراقب ما بلغه من بدء التحرك العلوي ! •••

---

(١) اليعقوبي ج٢ ص ٣٦٩ وانظر الطبري ج ٧، ص ٥٠٠ (٣/١٢٥،١)
ويروي المقدسي البشاري في أحسن التقاسيم (ص٧٥) رواية أخرى عن سبب توسيع الكعبة وان الذي وجد الطريقة لشراء الدور هوابو حنيفة النعمان يقول : « وسمعت من بعض مشايخ القيروان ان المنصور حج فرأى صغر المسجد الحرام وشعثة وقلة معرفتهم بحرمته ورأى الأعرابي يطوف بالبيت علي بعيره ويجاويه فساءه ذلك وعزم •••» وان اصحاب الدور حين رفضوا البيع غمه ذلك واحتجب ثلاثة أيام وقد فتش عنه أبو

وتابع المهدي السياسة نفسها فقد حج سنة ١٦٠ فذكر لـه حجبة الكعبة خوفهم من سقوطها لمـا عليها من الكسوة الكثيرة فأمـر أن يكشف ما عليها من كسى الخلفاء القديمة (وكانت كلها من متاع اليمن إلا كسوة هشام بن عبد الملك فكانت من الديباج الثخين الجيد) فكشفت حتى جردت الكعبة فطلى جدرانها كلها بالخلوق من المسك والعنبر ثم كساها القباطي والديباج والخز • ثم أمر المهدي بالعمليـة الثانية من التوسعة أي توسعة مسجد الرسول في المدينة فزاد فيه مثل ما كان عليه وصار ٣٠٠ ذراع في مائتين وحمل إليه عمد الرخام والفسيفساء والذهب ورفع سقفه والبس خارج القبر «الرخام» • «وأمر بنزع المقصورة التي في المسجد» • وأراد أن ينقص منبر الرسول فيعيده الى ما كان عليه ويلقي عنه ما زاده معاوية فيه ولكنه توقف عن ذلك بسبب نصيحة مالك بن أنس خوفاً من أن يتكسر المنبر القديم لنزع المسامير منه[1] •

وأخيراً كتب اسمه عليه بدلا من اسم الوليد بن عبـد الملك الباني الأول ولم يبرح المسجد حتى جرى التبديل امامه •

حنيفة «وهو حاج ليس لـه بعد ذكر ولا ظهر للناس فقهه» فتبرع لـه بايجاد الطريق الشرعي لاجبار أ صحاب الدور على بيعها وهكذا اشتهر ! وقد اخذنا برواية اليعقوبي وهو بغدادي واهملنا هذه الرواية لأنها مـن رواية بعض اهل القيروان البعيدين ولأن الخطأ فيها واضح : فلـم يحج المنصور قبل سنة ١٤٠ وكانت التوسعة قد بدات سنة ١٣٨ وتمت ثم إن أبا حنيفة لم يكن يومذاك خامل الذكر ولكنه كان اكبر الفقهاء وقد توفي سنة ١٥٠ بعد ١٢ سنةفقط من الفتوى . وقد تابعنـا رواية اليعقوبي الـذي يجعل جعفر بن محمد (وليس غير الامام الصادق) صاحـب الحيلة الشرعيـة .

(١) انظـر اليعقوبي ج٢ ص٣٩٥–٣٩٦ والطبري ج٨ ص١٣٣ وص ١٧٨ – ١٧٩ (٣/١٨٣ و ٥٣٥) والبلاذري – فتوح البلدان ص ٦

ويبدو أن الزيادة التي أحدثها المنصور في الكعبة جعلتها **في** جانب الفناء لا وسطه كما أنها لم تكف مع ذلك تكاثر المسلمين والحجاج المتزايد في تلك الفترة فاضطر المهدي لمعاودة الزيادة من جديد بعد ربع قرن من الاولى ويقولون إن المهدي «رأى الكعبة في شق من المسجد فكره ذلك وأحب أن تكون في وسط المسجد ودعا المهندسين وسألهم عن ذلك فعظموا فيه المؤونة فأبى إلا ذلك فشرعوا في عمله ...»[1] «اشترى من الناس دورهم وأحضر الصناع والمهندسين من كل بلد وكتب الى واضح مولاه وعامله على مصر في حمل الاموال الى مكة واتخاذ الآلات وما يحتاج إليه من الذهب والفسيفساء وسلاسل القناديل ...» فعلى الفسيفساء هناك في الاروقة اسماء صناعه من الشام ومصر . وحملت الأساطين العظام من الاسكندرية في البحر الى جدة وهي ٤٨٤ أسطوانة طول كل منها عشرة أذرع ... ووسع المسجد على الشكل الذي بقي عليه قروناً بعد ذلك في مساحة تعدل ١٢٠ ألف ذراع مربعة ... وجعل له ٢٣ باباً ... فكان المهدي آخر من زاد في المسجد الحرام »[2] كما بني المسعى بين الصفا والمروة . ويبدو أن هذا العمل بدأ سنة ١٦٤ فلم يتم حتى سنة ١٧٠ في آخر خلافة الهادي .

---

(١) العيون والحدائق للمؤلف المجهول ص ٢٧٩

(٢) انظر اليعقوبي ج٢ ص ٣٩٦ خاصة والطبري ج ٨ ص ١٦٥ وهو يذكر ان البناء بدأ سنة ١٦٧ ولكنا فضلنا متابعة اليعقوبي نفسه في كتابه الآخر البلدان من أن البناء بدأ سنة ١٦٤ . (انظر البلدان ــ طبعة دي غوية الملحقة بالاعلان النفيسة ص ٣١٥) وانظر كذلك المقدسي البشاري احسن التقاسيم ص ٧٣ و ص ٧٥ .

وبقي للرشيد بعد ذلك أيضاً شيء يصنعه في الحرم المكي : حفر بئر زمزم وتوسعتها وسقيا الناس • فقد ذكروا أن الناس نالهم في الحج سنة ١٩٠ عطش شديد وغارت زمزم حتى لم يوجد فيها من الماء الا القليل فحفرت عدة أذرع فزاد الماء يسيراً ، فكان أول ما حفر في زمزم ••• [١] وكانت زبيدة زوج الرشيد في ذلك الموسم فأمرت بمد قنوات من الرصاص طولها ١٢ ميلا أجرت فيها المياه من ينابيع وبساتين اسمها المشاش الى ثلاث برك في مكة فما زال يشرب منها الناس والحجاج قروناً بعد ذلك[٢] ويعرفونها باسم قناة زبيدة •

ويقول اليعقوبي في مكان آخر : «وكانت تريد أن تتقدم الرشيد في كل شيء من جد وهزل فأما الجد فالآثار الجميلة التي ليس في الاسلام مثلها فإنها حفرت عين المشاش ••• وأنفقت عليها ألف ألف وسبع مائة ألف دينار ثم اتخذت المصانع والسقايات والمتوضئات حول المسجد الحرام وبنت دور السبيل ومصانع بمنى وفي عرفات سقايات • وحفرت آباراً في منى على طريق مكة ووقفت على ذلك ضياعاً غلتها ثلاثون ألف دينار في السنة ••»[٣] •

أما المأمون فكانت آخر زيارة عرف فيها الحرمين هي سنة ١٨٦ يوم

---

(١) اليعقوبي – ج٢ ص ٤٢٩ •
(٢) اليعقوبي – البلدان ص ٣١٦ والمقدسي – احسن التقاسيم ص ٧٤ •
(٣) اليعقوبي – مشاكلة الناس لزمانهم ص ٢٦

علق عهده مع عهد أخيه في اسطوانـــة من الفضة في الكعبة ولم يزرها بعد ذلك ولكنه عبر عن تقديسه لها حين قدم عليـــه ملك التبت وأهداه صنماً لـــه من ذهب على سرير من ذهب مرصع بالجوهر فأرسله المأمون الى الكعبة يعرف الناس هداية الله لملك التبت»[1] وقد ضرب هذا الصنم دنانير فيما بعد من قبل والي المأمون .

وقد عني الخلفاء العباسيون بجانب ذلك بالطريـــق الموصلة بين العراق والحرمين . وهي طريق المشرق كله الى الحج . ولعل هذه العناية إنما كانت أيضاً لأسباب عسكرية وسياسية كي تصبح الطريق متصلـــة مترابطة ما بين مقر حكمهم في العراق ومنبع قدسيتهم في الأرض المقدسة القلقة الولاء . فإنا نرى أبا العباس أول من يعني بذلك ويبني القصور على الطريق من القادسية الى زبالة ثم جاء أبو جعفر فأقـــام المنازل على الطريق . فلما استخلف المهدي أمر سنة ١٦١ ببناء القصور في طريق مكة أوسع من القصور التي كان بناها أبو العباس وأمر بالزيـــادة في قصور أبي العباس وترك منازل أبي جعفر على حالهـــا . وأمـــر باتخاذ المصانع في كل منهل وبتجديد الأميال والبرك وحفر الركايا مع المصانع . وقد تولى لـــه ذلك يقطين بن موسى ثم أخوه أبو موســـى واستمر العمل فيه حتى سنة ١٧١ وكان المهدي قد توفي قبل سنتين[2] بعد أن أضاف الى ذلك إقامة البريد من اليمن ومن مكة ومن المدينة الى الحضرة (بغداد) بغالا وإبلا قال الذهبي وهو أول من عمل البريـــد من الحجاز

---

(١) اليعقوبي ج٢ ص ٤٥٢ . وانظر بعد ذلك ص ٤٤٨ .

(٢) الطبري ج ٨ ص ١٣٦ (٤٨٦/٣)

الى العراق[1] .

وأما رعاية أهل الحرمين فقد كانت سياسة مقررة ترمي الى فك ارتباطهم بآل علي وضمان ولائهم لبني العباس ... والى الاشتهار في كل موسم حج بالبر والعطاء للأرض المقدسة بدأها المنصور سنة ١٤٠ بالحج ومنح عطاء كامل لأهل المدينة[2] ولكن هذه السياسة سرعان ما مرت هي في مطلع أمرها بأزمة عنيفة قاسية يوم ثورة محمد ذي النفس الزكية سنة ١٤٥ التي انتهت بفاجعة اعادت الى اذهان النـاس وقائع الأمويين معهم وبعملية إذلال للمدينة واضحة ثار لها حتى عبيـد البلد ومواليه كما نجم عنها قطع الميرة السنوية عن الحجاز مـن مصر وقطع العطاء السنوي من الدولة ... ولهذا كانت علاقات المنصور مع الحجاز متسمة بالرعاية الحذرة يتقرب من فقهاء المدينة (مالك بن أنس وجعفر الصادق وأمثالهما) وكرر الحج . وأخذ في صحابته (حاشيتـه) بعض شخصيات الحجاز القبلية وتزوج من تلك القبائل وحين شكا إليه الناس سنة ١٥٣ قرصنة بعض بحارة (الكرك) وتهديدهم جدة أسرع بإرسـال حملة بحرية تقمع عدوانهم[3] فوراً من البصرة .

ثم جاء المهدي فدشن سياسة التسامح والبر على النطاق الأوسـع في أهل الحجاز حين حج سنة ١٦٠ . ولعل أهم ما فعله أنه :

---

(١) السيوطي تاريخ الخلفاء ص ٢٧٣ .
(٢) العيون والحدائق لمؤلف مجهول ص ٢٢٧ .
(٣) الطبري ج ٨ ص ٣٣ و ٤٢ (٣٥٩/٣ و ٣٧٠ .

أ ــ أعاد العطاء الى أهل المدينة وأهل مكة وجلس بنفسه يعطيه بعد توقفه خمس عشرة سنة ، واعاد تنظيم قوائمه ومبالغه ، وبالرغم من أنه جعل أعلى العطاء لبني هاشم ثم لقريش ثم الأنصار ثم الموالي إلا أن نصيب كل رجل بعد ذلك كان مختلفاً ، وقد أصاب القرشي عامة ٣٠٠ دينار و ٧ أثواب ، أما فريضة الهذيلي فهي ١٥ ديناراً ، وقد بلغ عدد من شملهم العطاء حوالي ٨٠ الفاً وزع عليهم من المال على ماذكر الطبري في مكة والمدينة مابلغ ثلاثين ألف ألف درهم حملت مع المهدي و ٣٠٠ ألف دينار جاءته من مصر و ٢٠٠ ألف جاءته من اليمن[١] ، وفرق من الثياب ١٥٠ ألف ثوب[١] .

ب ــ أعاد العادة القديمة بتموين الحجاز بالحبوب من مصر والشام بعد قطعها .

حـ ــ اختار «٥٠٠ رجل من الأنصار ليكونوا معه حرساً له بالعراق وأنصاراً وأجرى عليهم سوى اعطياتهم أرزاقاً وأقطعهم عند قدومهم معه ببغداد قطيعة تعرف بهم» ولو لم يكن غريباً بعد هذا أن :

د ــ وافاه الحسن بن ابراهيم بن عبدالله المحض في مكة مستأمناً فأحسن المهدي صلته وجائزته وأقطعه مالا من الصوافي بالحجاز»[٣] .

هـ ــ تزوج من رقية بنت عمرو العثمانية ، تقرباً من أهل الحجاز .

---

(١) الطبري ج ٨ ص ١٣٣ (٤٨٣/٣) .
(٢و٣) المصدر نفسه .

و ـ رد على أهل بيته وغيرهم قطائعهم التي كانت مقبوضة عليهم وذلك سنة ١٦٠ ثم رد ديوانه وديوان أهل بيته الى المدينة ونقلـه من دمشق إليها سنة ١٦٨[١] .

وقد عادت الأيام السود إلى الحجاز فترة قصيرة بوصول الهادي إلى الخلافة سنة ١٦٩ وبثورة الحسين بن علي في الحجاز تلك السنة . فقد تشدد الهادي من ناحية على العلويين وقسا أشد القسوة كما ثـار هؤلاء من جهتهم فانتهوا الى فاجعة فخ والي النكال سنة ١٧٠ . لكن الرشيد الذي كان قد تسلم الخلافة تلك السنة أراد فيما يظهر إزالـة تلك الآثار بسرعة والعودة لسياسة المهدي . وبعد أن أمر أحد ابناء عمـه بإقامة الحج في السنة ذاتها «بدالـه فخرج هو بنفسه ولحقه في الطريق وأقام الحج وأعطى أهل مكة والمدينة عطايا كثيرة وفرق فيهم أموالا ثم انصرف ...»[٢] ولا شك أنه كان يرمي بهذه الحركة الى فصل أهل الحجاز عن العلويين .

ثم حجت «الخيزران سنة ١٧٢ فقسمت بالمدينة أموالا واجازت بجوائز عظيمة خصت بها نفراً من قريش والأنصار ووجوه أهلها وزوجت أيتاماً وقسمت في النساء آنية من ذهب وفضة مملوءة من أنواع الطيب وكست كسوة كثيرة ووضعت لكل قبيلة مالا يعطون ...»[٣] .

ثم كرر الرشيد حجه مرات ولا شك أن حجاتـه كانت مواسـم للهبات والاعطيات .

ويذكرون مثلا أنه حج سنة ١٧٤ فبدأ بالمدينة فقسم في اهلها مالا

---

(١) الطبري ج ٨ ص ١٣٤ و ١٦٧ (٣/٤٨٤ و ٥٢٢) .
(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٠٧ .
(٣) العيون والحدائق لمؤلف مجهول ص ٢٩١ .

عظيماً • ولم يستطع دخول مكة تلك السنة لتفشي الوباء بها[١] •

أما السنة التي كانت أعياداً في الحجاز فهي تلك التي سموها سنة الأعطيات الثلاث سنة ١٨٦ حين جاء الرشيد لتعليق عهود أولاده في الكعبة • وصل المدينة فكان الناس يقدمون عليه ، فيعيطهم عطاء ثم يدخلون إلى محمد (الأمين) فيعطيهم عطاء ثانياً ثم إلى المأمون فيعطيهم عطاء ثالثاً • وشملت الأعطية النساء والرجال ثم صار الى مكة فأعطى أهلها فكانت الثلاثة أعطية ألف ألف دينار وخمسين ألف دينار • وفرض في تلك السنة لخمس مائة من وجوه موالي المدينة ففرض لبعضهم في الشرف منهم يحيى بن مسكين وابن عثمان ومخراق مولى بني تميم وكان يقرىء القرآن بالمدينة •••»[٢] •

وأعطى الرشيد في آخر حجة حجها سنة ١٨٨ لأهل المدينة نصف العطاء فكأن ذلك كان إيذاناً بخواتيم تلك السياسة لأن الخلفاء العباسيين انقطعوا بعد ذلك عن الحج وإن لم ينقطعوا عن العناية بأرض الحرمين من بعيد ••• ولعلنا نشير الى أن السياسة الدينية كانت قد استنفدت اغراضها حوالي أواخر القرن فلم يعد ثمة مبرر للاستمرار فيها على الشكل الذي بدأت فيه •

د ـ **المظاهر الأخرى** : وثمة مظاهر أخرى اتخذتها السياسة الدينية العباسية وليس يعني ذلك أنها كانت نابعة من غرض سياسي فلقد يكون بعضها عن تقى وتدين ولكنه كان يخدم المركز السياسي للخلفاء ومن ذلك مثلا :

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٢٣٩ (٣/٦١٠) •

(٢) انظر الطبري ج ٨ ص ٢٧٥ و ٣٦٣ ـ ٣٦٤ (٣/٦٥٢ ـ ٦٥٢ و ٧٦٤) واليعقوبي ج٢ ص ٤١٥ والعيون والحدائق ص ٢٩١ •

ــ خطب أبو العباس واقفاً وكان بنو أمية يخطبون قعوداً فناداه الناس يا ابن عم رسول الله أحييت سنة رسول الله[1] .

ــ قيل للمنصور هل بقي من لذات الدنيا شيء لم تنله قال بقيت خصلة . أن أقعد في مصطبة وحولي أصحاب الحديث ... الدنسة ثيابهم . المشققة أرجلهم الطويلة شعورهم . برد الآفاق ونقلة الحديث ...»[2] .

ــ امر المهدي «بإخراج المقاصير من مساجد الجماعات وبتقصير المنابر وتصييرها على قدر منبر رسول الله[3]» .

ــ توسيع المهدي جامع البصرة فزيد في مقدمه وعن يمينه .. بسبب نمو هذه المدينة التجاري وتكاثر سكانها .

ــ ايهام الناس أن الحكم العباسي قدر مقدور مقرر من الله . وقد ظهر ذلك في أكثر من حلم ومن نبؤة ملحمية أشاعها العباسيون من ذلك أن المنصور ما إن سمع راهباً يقول إنه قرأ أن إنساناً اسمه مقلاصاً يبني مدينة في موقع بغداد حتى بادر فقال : انا والله مقلاص[4] . بهذا كنت اسمى وأنا صغير ، وذكر لأصحابه مرة أخرى حلماً نسوه كان حدثهم به أيام الأمويين بأن له الخلافة . وذكر المهدي حلماً رآه بأنه سيمحو اسم الوليد عن مسجد الرسول رجل من بني هاشم يسمى محمد بن عبد الله ابن محمد ... الخ وأن الرشيد رأى الرسول في المنام يقول له : ان هذا الأمر صائر إليك ... فاغز وحج ووسع على أهل الحرمين[5] .

---

(١) اليعقوبي ــ مشاكلة الناس لزمانهم ص ٢٢ .
(٢) السيوطي ــ تاريخ الخلفاء ص ٢٦٦ ــ ٢٦٧ .
(٣) العيون والحدائق ص ٢٧٣ . الطبري ج٨ ص ١٣٦ (٣/٤٨٦).
(٤) الطبري ج ٨ ص ٤٤ (٣/٢٧٢) .
(٥) السيوطي ــ تاريخ الخلفاء ص ٢٩٢ .

ـ منع شتم العمرين (أبي بكر وعمر) والعقوبة على ذلك بالجلد والتشهير • وقد تراجع المأمون عن ذلك لهواه العلوي فلما أمضى قاضية في بغداد بشر بن الوليد الكندي هذه العقوبة على رجل قرف بذلك ناقشه المأمون وأبان له أنه أخطأ من خمسة عشر وجهاً ••• وعددها له[1] ثم حبسه في داره حتى مات •

ـ تبادل الرسائل مع الثوار من المسلمين قبل مقاتلتهم لتحل شرعاً دماؤهم • وهذا ما كان يسمح في الوقت للعباسيين بنشر وجهة نظرهم بشكل دعائي على الناس ونجد نماذج كثيرة من هذه الرسائل لدى الطبري وخليفة بن خياط • وهي رسائل تبادلها الخلفاء تارة مع العلويين (كما في ثورة النفس الزكية) أو مع الخوارج (كما في ثورة اليشكري والسجستاني) •

ـ أمر الرشيد بكتابة الصلاة على النبي في أعلى كتبه فكان أول من صنع ذلك كما أمر المأمون بتتويجها في الأعلى بسم الله الرحمن الرحيم «فكان أول من أثبتها على عنوانات كتب الخلفاء ••»[2] •

ـ كان الرشيد يتصدق من حرماله كل يوم بالف درهم بعد زكاته كما كان يصلي مائة ركعة الى أن فارق الدنيا •••[3] وقد أقام شعائر الحج في بعض السنين ماشياً من مكة الى منى الى عرفات ••• كما حج في آخر حجاته ماشياً من الرقة الى مكة •••

ـ كان الرشيد أول من كتب على الاعلام السود بالبياض : لا إله إلا الله محمد رسول الله[4] •

---

(١) انظر اليعقوبي ج٢ ص ٤٦٨ •

(٢) المصدر نفسه وانظر اليعقوبي ـ مشاكلة الناس لزمانهم ص ٢٦ وص ٣١ •

(٣) الطبري ج ٨ ص ٣٤٧ (٣/٧٤٠ ـ ٧٤١) وص ٢٦١ (٣/٦٣٨) •

(٤) اليعقوبي مشاكلة الناس ص ٢٥ •

ـ «بنى الرشيد الثغور مثل طرسوس وبنى دوراً للمرابطين فتشبه أهله وعماله وأصحابه وكتابه به فلم يبق أحد إلا بنى بمكة داراً وبالمدينة داراً وبطرسوس دارا تشبها به وعملا بمثل عمله وكان أكثرهم لذلك فعلا زوجته أم جعفر (زبيدة) بنت جعفر بن المنصور ...» التي «... بنت في الثغور دور السبيل وعملت البيمارستانات وحبست ضياعا على الثغور وعلى الفقراء والمساكن ما غلته لمائة ألف دينار ...»[1] .

ـ كان للواثق خوان من ذهب من أربع قطع يحمل كل قطعة عشرون رجلا وكل ما على الخوان من صحف وغضارة من ذهب فسأله ابن أبي دؤاد ألا يأكل عليه للنهي عنه فأمر أن يكسر ذلك ويضرب ويحمل الى بيت المال[2] .

ـ جاؤوا الى المتوكل بحربة كانت للنبي تسمى العنزة كان يمشي بها بين يديه في العيدين فأمر المتوكل بأن يحملها صاحب الشرطة بين يديه ومن ورائها حربة الخليفة[3] .

ـ أعاد المأمون الى أحفاد فاطمة ابنة النبي منطقة فدك ...

ويمكن أن نعدد الى هذا وذاك الكثير من التصرفات الدينية التي كانت تدخل دوماً في الرصيد السياسي للعباسيين من مثل تفقد أحوال الرعية ليلا والبكاء للنصائح من الوعاظ .. وغير ذلك .

الثالث : تأكيد الواجبات الدينية للمنصب الخلافي والقيام بها :

لما كانت الخلافة مؤسسة دينية ، وكان الله هو الذي يختار صاحبها فقد كان هذا الاختيار يوجب عليه بصورة طبيعية واجبات دينية محددة.

---

(١) اليعقوبي مشاكلة الناس ص ٢٦ .
(٢) السيوطي تاريخ الخلفاء ص ٣٤٣ .
(٣) الطبري ج ٩ ص ٢١٠ ـ ٢١١ (١٤٣٧/٣) .

وإنا لنلاحظ بسهولة أن الكثير من أعمال المهدي خاصة وأعمال الرشيد والمأمون والمعتصم إنما كانت مستوحاة من الموقف الديني السياسي للمنصب الخلافي • ويكفي أن نشير في هذا المجال إلى ثلاثة أمور :

أ ــ نشر الدين الاسلامي : وبخاصة في مصر وايران وبين الترك وفي السند • وإنما دخلت هذه المناطق في الاسلام في العصر العباسي الأول وفي العصر الثاني • وقد تم هذا الانقلاب الديني بالتدريج ولكن بتصميم وبإصرار هادىء أيضاً • وقد ذكر المؤرخ ساويرس ابن المقفع أن الخليفة العباسي الأول أصدر قراراً «بأن كل من يصير على دينه ويصلي كصلاته يكون بغير جزية فمن عظم الخراج والكلف عليهم انكر كثير من الاغنياء والفقراء دين المسيح •••»(١) وقد تم ذلك في مصر وايران على السواء،وتسجل الكتب التاريخية باستمرار اسلام شخصيات سريانية أو ايرانية أ وتركية من الخاصة أو من الأسر الكبرى كما تسجل انتقال جموع من الديلم مثلا أو من أهل طبرستان أو بعض أشراف بلخ الى الدين الاسلامي أو ورود جماعة للاسلام على يد الرشيد أو مجيء ملك أشروسنة أو ملك التبت للاسلام على يد المأمون •••

ولعل من الهام أن نذكر هنا أن كتلة السكان في الدولة الأموية كانت ــ فيما عدا العرب ــ مكونة في معظمها من أهل الذمة • وقد بدأ العصر العباسي وهؤلاء يشكلون الأكثرية الديمغرافية للسكان وانتهى وقد خسروا اكثريتهم وبدأوا يصبحون بالعكس هم الأقلية • ولعل فترة التوازن العددي الديني إنما مرت بلحظاتها الانقلابية الحرجة فيما بين عهدي الرشيد والمتوكل • فإن دخول الذميين في الاسلام بشكل متزايد في تلك الفترات قلب ميزان القوى وجعل الأكثرية العددية تنتهي

(١) ساويرس سير الأباء البطاركة ص ١٨٩ ــ ١٩٠ .

لمصلحة المسلمين ولا سيما في مصر والشام والمغرب بينما تأخر ذلك قرناً أو أكثر في ايران والجزيرة •

ب ـ الحج : وقد جعل له الخلفاء العباسيون مواكب سنوية منظمة تخرج من بغداد وصار يرئسه الخلفاء أحياناً كثيرة حتى لقد حضر الخلفاء الأوائل في السنوات الستين الأولى من العهد العباسي قرابة ثلث مواسم الحج (حج المنصور ست مرات • والمهدي مرتين والرشيد تسع مرات) فإن لم يقم الخليفة بالحج عهد به الى ولي عهده أو الى أحد أمراء البيت العباسي • وإنا لنجد في الحوليات التاريخية قوائم كاملة (ظل المؤرخون يتابعون تسجيلها قروناً بعد ذلك) بأمراء الحج هؤلاء كل سنة ولا نكاد نجد منهم من خارج البيت العباسي إلا النادر • وكان الرشيد إذا حج أخذ معه مائة من الفقهاء وأبنائهم وإذا لم يحج أحج ثلاث مائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الباهرة[1] • وكان اضطراب هذه الشعيرة الدينية لسبب أو لآخر ، يزعج بغداد ويورث الخلفاء والناس بعض القلق • فكأنها أضحت من لوازم عمل الإمام الأساسية ولئن كان الرشيد آخر من حج من الخلفاء فإن استقرار الأمر للمأمون بعد اضطراب دام أكثر من عشر سنوات جعله يستغني فيما يظهر واستغنى الخلفاء من بعده عن الاستعانة بهذه الشعيرة الدينية في دعم العرش •

حـ ـ الجهاد : وقد نظمه العباسيون الأوائل بدورهم التنظيم الدوري ، ولا سيما ضد الروم ، وباشروه أحياناً كثيرة بأنفسهم حتى صار الجهاد من تقاليد العمل الخلافي : دفاعاً عن الجماعة الاسلامية مثله كمثل اقامة القضاء ونشر الدين والحج •••

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٣٤٧ نفسها •

٤ ـ العناية بأمر المظالم والقضاء : وقد افتتح المهدي هذا التقليد بأن يجلس الخليفة بنفسه في مجلس خاص لسماع المظالم بحضور القضاة وقال : ادخلوا على القضاة فلو لم يكن ردي للمظالم إلا حيــاء منهم لكفى ! وبدهي أن هذا الجلوس كان رمزياً لا يستطيع أن يقوم بهالخليفة في كل الأقاليم ولا في كافة الأوقات ولكن المهدي أحيا به سنة الرسول حين كان يجلس للنظر في أمور الجماعة الاسلامية بنفســه وقد ذكر عن الهادي وعن الرشيد جلوسهم بدورهم للمظالم على الطريقة نفسها كما ذكرت قصص عن عدالة الحكم فيها عدالة تناولت أحيانــاً الخلفاء أنفسهم • كالذي كان من إعادة المهدي قرية اغتصبها وكيله الى صاحبها وإعادة قرى كانت لآل الزبير لم يقض لهم حتى عمر بن عبد العزيز بها •

ويذكر ابن أبي طاهر أن المأمون كان يقعد للمظالم في كل جمعة مرتين لا يمتنع منه أحد •

وأخيرا • لعلنا نقف وقفة قصيرة عنــد سؤال يرد في هذا المجال هو : الى اي مدى كانت سياسة العباسيين الاوائل هؤلاء ذات المظهــر الديني مطابقة لواقعهم العملي ؟ • او بشكل آخر من القول : الى أي مدى نجحوا في اقناع الناس أنهم صادقون فيها ؟

إن هذا السؤال وإن كان مجال بحثه انما هو في السياسة الادارية باعتبار ماينجم عنه من استياء أو رضى في مسيرة الجماعة الاسلاميــة الا ان هذا لايمنع من أن نعرض هنا لجانبه السياسي ـ الديني فقط : فالواقع أن الخلفاء العباسيين وإن اخذوا حظهم الكامل من الدنيا فإنهم استطاعوا ان يتركوا في التاريخ مايحفظ عليهم إطار التقى والدين • معظم

الكتاب الذي سجلوا التاريخ العباسي كانوا من صنائع اولئك الخلفاء أو من المؤمنين بحقهم في الخلافة وقدسية مكانتهم ولذلك فإننا بالرغم مما حفظت عنهم الكتب الكثيرة من أمثال الأغاني والديارات ، ونشوار المحاضرة من قصص الخمرة والجواري واللهو الفاسق ، وما كشفت عنه الثورات من المظالم والبؤس وقسوة الخراج ، وما تطفح به الاخبار تارة بعد اخرى من انباء القتل والصلب والرؤوس المقطوعة وآلاف الجثث. نجد أن العمل الدعائي العباسي قد استطاع لحد كبير أن يغطي على كل أولئك بالاعمال الأخرى ذات الطابع الديني •

على ان العملية الدعائية وإن لم تهتم بها كثيرا الجماهير الكادحة التي كان مقياس الحكم الاسلامي لديها هو « العدل » والقسط في الخراج • ولا اهتمت بها جماهير أهل الذمة التي كانت تعتبر الحكم الاسلامي حكماً مفروضاً عليها بواقع القوة القائمة إلا ان الجماعات السياسية الاسلامية هي التي كانت تهتم بمناقشة السياسة الدينية للعباسيين وهي التي كانت تكشف الجانب السلبي القائم فيها • وهذه الجماعات هي ثلاث :

١ ـ العلويون : وطبيعي أن يكون موقفهم العداء لأن كثافة السياسة العباسية كانت موجهة ضدهم وضد حقهم في الحكم • ولهذا فإنهم لم يرفضوا تلك السياسة فقط ولكنهم ثاروا عليها باستمرار وثار عليها منهم خاصة الفرع الحسني ووصفوا الخلفاء العباسيين أوصافاً يلخصها قول محمد النفس الزكية : « هذا الطاغية عدو الله أبي جعفر ••• بنى القبة الخضراء معانداً لله في ملكه وتصغيراً للكعبة الحرام وإن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والانصار المواسين •

اللهم إنهم قد أحلوا حرامك وحرموا حلالك وآمنوا من أخفت وأخافوا من آمنت ... »[1]

٢ ـ الخوارج وقدحاربوا بدورهم وفي كل مكان السياسة العباسية الدينية وثاروا عليها أعنف الثورات . وقد تمثل رأيهم خاصة ـ عدا ثورات افريقيا ـ في ثورتين قامتا معاً سنة ١٦٠ ضد المهدي إحداهما في خراسان (ثورة يوسف البرم) التي دعت للامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأنكرت على المهدي « الحال التي هو بها والسيرة التي يسير عليها»[2] والثانية في الجزيرة (ثورة اليشكري) الذي حفظ لنا خليفة ابن خياط المؤرخ نص كتابه للمهدي قائلا فيه : « ... تركت الأمة تائهة مائجة . لا حدودها أقمت ولا حقوقها أديت . وشغلت بإمائك وتنوقت في بنائك مع إدمانك الصيد إذ تغدو ومعك البزاة والفهود والجنائب والكتائب فإذا انثنيت من صيدك ودخلت بهوك ... فتغذيت وغنيت فيمين الله ما أفحش هذا ممن يدعي خلافة الله . قد كانت أعاجم تنقم مما دون هذا ... وانت إذا خطبت كذبت وإذا عاهدت نكثت ... وقد زادني غيظاً أنك تسميت المهدي وأبعد من سماك ... ففي أي كتاب إذ تعدو وظيفة أو تنقص مساحة أو تصطفي بستاناً أو تبذخ في مركب أو ترمي في نزهة أو تفاوض عن جند أو تحبس عطاء أو تنسى من غزا أو تعاقب بالسوط سافكاً الدم ..؟ »[3] .

٣ ـ جماعة الفقهاء ورجال الدين:هؤلاء كانوا عن تقى ديني أو عن ميل علوي ينددون أحياناً كثيرة بالخلفاء العباسيين وإذا كان رجل مثل

---

(١) انظر الطبري ج ٩ ص ١٣٥ ـ ١٣٩ (٣/١٣٤٣ ـ ١٣٥٠) .
(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٣٩٧ والطبري ج ٨ ص ١٢٤ (٣/٤٧٠) .
(٣) الطبري ج ٧ ص ٥٥٨ (٣/١٩٧) .

سفيان الثوري قد وصل درجة الدخول الى المهدي وعدم السلام عليه بالخلافة في نوع من عدم الاعتراف بخلافته فإن كثيرين غـيره كانوا يقسون على الخلفاء ويأخذون عليهم تصرفاتهم المخالفة للدين ويقولون لهم مقالة عمرو بن عبيد للمنصور : « إنه ما عمل وراء بابك بشيء من كتاب الله وسنة نبيه ... إن وراء بابك نيراناً تأجج من الجور... وببابك ألف مظلمة أردد منها شيئاً نعلم أنك صادق ... » وكان بعض الفقهاء يدفعون الخلفاء بمواعظهم الى البكاء . وقد ذكرت القصص بذلك اكثر من مرة عن الرشيد والمهدي والمأمون وغيرهم . وكان البكاء في الواقع اعترافاً بالتباين الواقع ما بين السياسة المعلنة (أي الـواجب الديني) والواقع العملي .

على ان الجماعة السنية في بغداد سجلت مرتين على الاقل في حركتين ثوريتين رأيها في سياسة العباسيين ومباينتها للدين . وكان طبيعيا أن تشتبك الحركتان في المرتين مع التناقضات الطبقية بين الجماعات الميسورة أي الطبقات العليا من المجتمع المتحالفة عادة مع الحكام رغبة أو رهبة وبين الفقراء والطبقات المحرومة التي كانت تأخذ حركاتها شكل التمرد الطبقي أحياناً لا بسبب الطبقات الدنيا التي تنتمي جموعها اليها (طبقات باعة الباقلاء والفعلة وأهل الحمامات وحمالي الأسواق وابناء الأرباض.. ممن كانوا يسمون بالطرارين يومذاك وبالشطار وبالعيارين والرعـاع والأوباش والعراة[1] ولكن بسبب الدوافع المادية والاقتصادية التي كانت تدفع هؤلاء للثورة ثم كان يأتي التدين ليعطي الحركات لباسهـا الشرعي من المبادىء السامية والدوافع العليا .

كانت الحركة الأولى سنة ٢٠١ في أعقاب مقتل الأمين وسقوط

---

(١) انظر الطبري ج ٨ ص ٤٤٨ (٨٧٢/٣) وقد كان هؤلاء قوام الدفاع عن بغداد في فتنة الأمين وحصار المأمون لها .

بغداد بيد جيش المأمو نفقد نجم عن تلك الفوضى أن شعرت الجماعات الفقيرة بقوتها كما شعر المسؤولون أنفسهم بهذه القوة فاصطفوها ... وهكذا اجتذب هذه القوى اليه منصور بن المهدي الحاكم باسم المأمون. وانتشر من سموهم بالفساق والشطار في بغداد والكرخ «وكان السلطان يعتز بهم وكانوا بطانته فلا يقدر أن يمنعهم من فسق يركبونه » وآذوا الناس أذى شديدا : «وكانوا يجبون المارة في الطرق وفي السفن وعلى الظهر ويخفرون البساتين ويقطعون الطرق علانية ولا أحد يعدو عليهم.. وكان الناس منهم في بلاء عظيم ثم كان آخر أمرهم أنهم خرجوا الى قطربل فانتهبوها علانية وأخذوا المتاع والذهب والفضة والغنم والبقر والحمير ... وأدخلوها بغداد وجعلوا يبيعونها علانية وجاء أهلها فاستعدوا السلطان عليهم فلم يمكن أعداءهم عليهم ولم يرد عليهم شيئاً ..»

وعند ذلك «تجرد جماعة من المطوعة للنكير على الفساق ...» وتزعم ذلك اثنان : خالد الدريويش الذي قاتلهم فضربهم وحبسهم ثم رفعهم الى السلطان ، وأبو حاتم سهل بن سلامة الانصاري من أهل خراسان الذي أعلن شعار الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وأعلن أنه سيقاتل من خالف الكتاب والسنة كائناً من كان سلطاناً أو غيرسلطان.. واضطر منصور بن المهدي ، الحاكم العباسي وعيسى بن محمد بن أبي خالد قائد الجيش الى القبول بهذا الرجل ومبايعته على ما يريد بالرغم من أن « عظم أصحابهما الشطار » مما كسرهما وحطم قواهما ...ولكن حركة الآمرين بالمعروف استمرت قائمة حتى وصل المأمون بغداد سنة ٢٠٤ .

وإذا كانت هذه الحركة مشتبكة العناصر بسبب ما رافقها من جو سياسي مملوء بالفوضى إلا إنها كانت واضحة التمرد على أهمال السلطان للواجب الديني في الدفاع عن الجماعة الاسلامية .

أما الحركة الثانية سنة ٢٣١ فكانت اكثر وضوحاً وعنفاً وهي تلك التي قام بها أحمد بن نصر الخزاعي حفيد مالك بن الهيثم أحد نقباء الدعوة العباسية • وكان الرجل اعتماداً منه على تدينه العميق وعلى مكانة ابيه وجده في الدولة «يظهر المباينة لمن يقول بخلق القرآن» العقيدة الرسمية للدولة • «وكان يبسط لسانه فيمن يقول ذلك مع غلظة الواثق على من لا يقول بالخلق • وقد سمعه الناس ينعت الواثق بالخنزير أو الكافر، وفشا ذلك من أمره فكان أهل الحديث والفقه يطيفون به ويحرضونه ••• فإذا عرفنا الى هذا أن ابن نصر كان أحد البارزين في الحركة الأولى ببغداد، حركة الأمر بالمعروف سنة ٢٠١ ـ سنة ٢٠٤ وعرفنا أنه كان ثمة تيار خلفي من أهل الدين وحماته كانوا يقفون للخلفاء العباسيين بالمرصاد ويندون بأعمالهم المخالفة للدين وإن لم يسجل المؤرخون ذلك التيار بوضوح • وقد أخذت حركة ابن نصر شكل التآمر ضد الدولة وانتهت بصاحبها الى الصلب[1] كما سوف نرى وبأصحابه وفيهم الكثير جداً من العامة الى السجون والتشتيت •

٣ ـ تمثيل الجماعة الاسلامية في الحكم :

فكرة «الجماعة» الاسلامية وضرورة اتباعها واعتبار ذلك من «السنة» التي وصفها الصحابة واتبعها المسلمون الأولون ليست بدورها فكرة عباسية • الأمويون هم أصحاب هذه الفلسفة السياسية • كتب مرة هشام بن عبد الملك سنة ١٢١ الى يوسف بن عمر الثقفي عامله على الكوفة في أمر زيد بن علي بن الحسين يقول : «••• والجماعة حبل الله

---

(١) خليفة بن خياط ـ التاريخ ج ٢

المتين ودين الله القويم وعروته الوثقي • واعلم أنك قائم على باب إلفة ، وداع إلى طاعة ، وحاض على جماعة ، ومشمر لدين الله فلا تستوحش لكثرتهم واجعل معقلك الذي تأوي إليه ••• الغضب لدينك والمحاماة عن الجماعة ومناصبة من أراد كسر هذا الباب الذي أمرهم الله بالدخول فيـه ! •••»[1]

وكلمة «السنة والجماعــة» لم تكن ، في تلـك الفترة من أوائل القرن الثاني ، واضحة المفهوم الحزبي أو الفكري ولكنها كانت تضـم مجموعة من الاتجاهات السياسية والدينية منها أولا أنصـار البيت الأموي من العرب والموالي ومنها العثمانية أهل الكف ، ومنها المرجئة أهل الاعتزال الأول ومنها بين هذا وذاك أهل الحديث ، وجمهور الفقهاء في الدين وأهل الورع ومن وراء هؤلاء وأولئـك جماهير الناس الذين كانوا يوالون الحكام رهبة أو رغبـة أو محبة أو فـرارا من المذاهب والانحياز •• والصفة التي تجمع هؤلاء جميعاً بعضهم الـى بعض هي الوقوف بجانب الخلفاء الأمويين سياسياً في الأزمات أو المهادنـة لهم والاحتفاظ بالرأي الديني في حيز الفكر وعدم نقله الى العمل الثوري • ومن تاريخ هذه الجماعة الواسعة صيغ في الواقع التـاريخ الاسلامي العام لأنهم ألفوا القاعدة العريضة للحكم الأموي في الشام أو الاندلس وللحكم العباسي من بعده سواء في بغداد أو في القاهرة •

ولعل الدافع الأعمق وراء تجمع «أهــل الســنة والجماعة» هو الحفاظ على وحدة الأمة الاسلامية ومبدأ الوحدة إنما كان ينطلق لديهم

(١) الطبري ج٧ ص ١٧٠ (١٦٨٣/٢ ـ ١٦٨٤) .

من ارتباط هذه الأمة بكتاب واحد هو كتاب الله وبسنة واحدة هي سنة نبيه التي صرف أهل الحديث ، في تلك الفترة (أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني) همهم لتوطيدها بجمع أحاديث الرسول وترتيبها واستنباط الأحكام المشتركة منها ومن الإرتباط أخيراً بتشريع اسـلامي موحد نظمه الفقهاء وسرعان ما اعتبر أهل الفقه والحديث والسنة أن مبـدأ الاجماع ركن اساسي من أركانه وهذا المبدأ في الفقه هو الذي يقابل فكرة الجماعة في السياسة .

وإذا دخل العباسيون ميدان الحكم والسياسة معلنين العمل «بكتاب الله وسنة نبيه» فقد كانوا يحتاجون في الواقع ، وبسرعة الى تحويل ولاء «الجماعة» أي القاعدة الواسعة من الناس التي كانت تساند الامويين الى مساندة بيتهم الجديد . مشكلة تحويل «الولاء» كانت أولى مشاكلهم المباشرة . صحيح أنه كانت لهم قاعدتهم الشعبية في خراسان لكن هذا الاقليم ليس كل العالم الاسلامي ثم إن العلويين كانـوا يشاركونهم تلك القاعدة هناك . فلما انفصلت الشيعة العباسـية عن العلويـة أيام المنصور خاصة وكان العباسيون قبل ذلك قد غادروا خراسان إلى العراق والى غير رجعة ، فانفصلوا بذلك أيضاً عن قواعدهم الأولـى ثم زاد انفصالهم بمقتل أبي مسلم الخراساني ، كان واضحاً أنهم لا يستطيعون إقامة « خلافة » واسعة على قاعدة شعبية ضيقة جداً من أهـل كوفة العراق وإن كانوا يملكون القوة العسكرية الضاربة ولـما كانت قوى التحالف أمامهم معروفة محدودة . ولما لم يكن باستطاعتهم تبني الفكر العلوي أو الاعتماد على أنصاره لانهم في ذلك الخاسرون ولا تبني الفكر الخارجي أو مداهنة رجاله لأنه يرفضهم ويثور عليهم ولا قبول المذاهب المارقة أو المتطرفة في ايران والسيطرة بها فكراً ورجالا على باقي العالم

الاسلامي لأن ذلك يلغي شرعية البيت العباسي من أساسها لهذا كله وجد العباسيون أنفسهم بصورة طبيعية أمام حل وحيد لا اختيار فيه هو التحالف مع أهل السنة والجماعة ! وبخاصة مع الجماعات القيادية في هؤلاء أي رجال الحديث والفقهاء وجماعة العثمانية والإرجاء وأهل الورع البارزين ... كان هؤلاء هم السند المتاح والقوى والوحيد .

وإذا كان العباسيون في طور الدعوة السرية قد تحالفوا مع مختلف الاتجاهات المناوئة للأمويين حتى مع الجماعات الملحدة (الخداشية والروائدية) فإنهم بعد نجاح الثورة لم يخوضوا أي تجربة تحالف مع أي جماعة أخرى وركبوا على الفوز تيار «السنة والجماعة» ليصبح هذا التيار بسرعة هو المذهب الرسمي للدولة العباسية . وقد كان الأمويون في أواخر سنواتهم قد تبنوا ، في الواقع ، سياسة اسلامية شاملة ، وبدأوا ربط جماعات اهل الحديث والفقه بهم كما بدأوا سياسة العقوبة على الالحاد . فلما غابوا وجد أهل السنة والجماعة بدورهم ، أنهم لم يصبحوا أيتاما لأن اليد العباسية ممتدة إليهم فلم يتأخروا كثيراً في التحالف التلقائي معها .

ولقد نلاحظ أن المنصور ، واضع الاساس الأول للسياسة العباسية بمختلف نواحيها ظل فترة قصيرة مرناً مع الجماعة الخراسانية حتى لقد تقبل «الراوندية» التي تعبده ولم يرفضها إلا حين وجد نفسه مهدداً منها بالقتل ولقد نجد أيضاً أنه ظل على علاقات طيبة مع رواد حركة الاعتزال الأوائل : عمرو بن عبيد ، رفيق دراسته القديم ، وواصل بن عطاء أبي المذهب . وهذه الحركة كانت في ذلك الوقت قد أخذت تنفصل بوضوح عن الجماعة والسنة لتشكل تياراً فكرياً خاصاً ضمن الفكر الاسلامي ولكنا قد نستطيع أن نعتبر هزيمة محمد ذي النفس الزكية وأخيه

ابراهيم هي الحد الفاصل لتردد المنصور • فإنه بعدها اتخذ اللقبين لـه ولابنه ومضى نهائياً على ما يبدو مع سياسته « السنة والجماعة » •

وهذه السياسة كانت تعبر عن نفسها بعدد من الوجوه والأشكال أهمهـا :

التحالف مع الفقهاء وأهل الحديث والدين وتقريبهـم والتقرب إليهـم •

يقول المستشرق جب «إن الخلفاء العباسيين ــعلى خلاف الأمويين ــ أدركوا بوضوح أهمية الدور الذي كان الفقهاء قد لعبوه في مصاير الدولة فجعلوا التعاون بين دولتهم الجديدة وبين الفقهاء ركنا ركيناً في سياستهم •••

ويقول أيضاً «إن العباسيين» أخذوا ••• يرعون الفقهـاء رعاية يكفلون بها حماية رسمية لمذهب سني • ولم يقتصروا على ذلك كله بل أخذوا يضعون المؤسسة الدينية تحت اشراف الدولة على أسس تذكرنا بتنظيم الزارادشتية في ظل الساسانيين»[1] •

والواقع أن المنصور استغل صلته السابقة بأهل الحديث والفقه والخبر ليجمعهم من حول العـرش العباسي • ولـم يكن هؤلاء ، في الواقع ، بعيدين في مواقعهم الفكرية عن هذا العرش سـوى أنهم في معظمهم كانوا يعانون مما يمكن أن يسمى أزمة ضمير ، كلما قامت ثورة علوية واتهت بالمصير المحزن المعتاد • لأنهم كانوا لا يقدرون التقدير

---

(١) جب ــ دراسات في حضارة الاسلام (الترجمة العربية) ص ١٣ وص ١٤ •

العباسي نفسه ، الأسباب المتصلة بالحكم وبأمن الدولة والتي تدعو لمثل هذه الفجائع . وهذا ما يفسر ، في الواقع ، أن الكثيرين من الفقهاء خاصة كانوا يوصفون بالتشيع المعتدل ولكنهم في الوقت نفسه يتعاونون مع الحكم العباسي .

ويمكن أن نلاحظ في سيرة المنصور والمهدي والرشيد والمأمون خاصة كثرة اتصالهم برجال الدين والعلم وكثرة الأخبار التي تروي ماقال الخلفاء لهؤلاء وما قال هؤلاء للخلفاء وما كظم الأولون من الغيظ أو منحوا من الجوائز أو نثروا من الدمع وما بذل الآخرون من النصح أو الوعظ أو أعلنوا من الرفض والقطيعة ... إن حساب ذلك ، يدخل كله في الحصيلة السياسية للعباسيين ، تقديراً من الناس وإجلالا !

وكان الفقهاء بدورهم يمكن أن يقسموا ، بحسب مواقفهم السياسية الى ثلاث مجموعات :

ـ مجموعة معارضة تتراوح بين المعارضة العنيفة التي يمثلها فقهاء التيارات العلوية خاصة أو الخارجة (أمثال جابر الجعفي وزرارة بن أعين وعباد بن العوام الذي قاتل بجانب ابراهيم بن عبد الله المحض في البصرة) . وبين المعارضة الخفيفة التي توصف أحياناً بالميول العلوية المعتدلة كسفيان الثوري والأعمش وأبي حنيفة ومحمد بن هرمز ومحمد ابن غيلان ومطر الوراق وبشير الرحال الذين أيدوا ثورة محمد ذي النفس الزكية ومالك بن أنس الذي أيد ذا النفس الزكية ويحيى ولدي عبدالله وأمثال الحسن بن صالح الفقيه وابراهيم الخض ومسلمة بن كحيل وغيرهم ... ومن المعارضين كذلك فقهاء ظلوا على الميول الأموية كأبي عمر الزاهد الذي جمع الأحاديث في فضائل معاوية . والوليد بن مسلم الأموي وعوانة بن الحكم الكلبي .. وسعيد بن يحيى الأموي ...

ـ مجموعة محايدة هي على عدم التدخل وعلى الانصراف للشأن الديني المحض لا تهمها شؤون السياسة في كثير أو قليل من أمثال : ابن أبي ذئب فقيه الحجاز والليث بن سعيد فقيه مصر والأوزاعي فقيه الشام وعبد الرحمن بن زياد وعمرو بن عبيد المعتزلي ... ولا تأبه هذه المجموعة أن تصفع برأيها الحكام وكثيراً ما كانت تخرجهم أو تبكيهم وبعضهم كان يدعى مع الإلحاح لولاية الإمارة (كالليث في مصر) أو القضاء (كأبي حنيفة وعمرو بن عبيد) والاوزاعي فيرفض ويصر على الرفض .

ـ ومجموعة ثالثة موالية كان أصحابها يتحولون بسرعة الى موظفين رسميين ويلون القضاء خاصة ويأتي في رأس هذه الجماعة أبو يوسف قاضي الرشيد والشيباني،وابو البختري ثم يحيى بن اكثم قاضي المأمون وكثيراً ما كان أفراد هذه المجموعة يوالون السلطة فيؤخذ عليهم صحبة السلطان أو يقدمون لها الفتاوى التي تريد (كما فعل أبو البختري القاضي في نقض أمان الرشيد ليحيى بن عبد الله العلوي) إلا إن قصصا عديدة تروي بالمقابل عن عناد رجال القضاء واصرارهم على رفض تعليمات الخلفاء وقبول هؤلاء لهذا العناد والإجازة عليه ! ...

وقد تعامل العباسيون واتصلوا برجال هذه المجموعات كافة على اختلاف مواقعهم منهم ما عدا المتطرفين في العلوية والخارجية ونستطيع أن نرى صورة من السياسة الدينية العباسية في بعض القصص المروية :

ـ يروي السيوطي قصة عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الأفريقي، وكان يطلب العلم مع أبي جعفر قبل الخلافة قال : «... فلما وليهاوفدت

عليه • فقال : كيف سلطاني من سلطان بني أمية ؟ قلت : مـا رأيت في سلطانهم من الجوْر شيئاً إلا رأيته في سلطانك • فقال إنا لا نجد الأعوان• قلت : قال عمر بن عبد العزيز : إن السلطان بمنزلة السوق يجلب إليها ما ينفق فيها فإن كان براً أتوه ببرهم وإن كـان فاجراً أتوه بفجورهم فأطرق •••»[1] •

— ويروي قصة أخرى عن بعض الجمالين الذين أقاموا الدعوى على المنصور وهو بمكة عند قاضيهـا محمد بن عمران الطلحي فأمر كاتبه أن يكتب للخليفة يستدعيه فاستعفى • فأبى القاضي إلا أن يكتب الكتاب وإلا أن يحمله بنفسه • وقام المنصور يوم ذاك بحركة دعائية لها مغزاها الديني السياسي : إذ أعلن عن طريق حاجبه «إني دعيت الى مجلس الحكم فلا يقومن معي أحد » • ثم جاء فلم يقم له القاضي الذي دعا بالخصوم واستمع وقضى على الخليفة فلما فرغ قال المنصورجزاك الله عن دينك أحسن الجزاء قد أمرت لك بعشرة آلاف دينار ! !

— ويروي ثالثة أن المنصور أمر قاضيه في البصرة سوار بن عبد الله أن يحكم ضد البينة التي ثبتت للقاضي فرفض فأرسل يقسم عليه أن يفعل فأصر على الرفض فلما جاءه الكتاب قال : ملأتها والله عدلا وصار قضاتي تردني إلى الحق ! ••

---

(١) انظر السيوطي — تاريخ الخلفاء (المطبعـة السلفية) ص ٢٦٨ وص ٢٦٦ ويروي ابن قتيبة (عيون الأخبار ج٢ ص ٣٣٧) قصة مماثلـة قال فيها عمرو بن عبيد للمنصور : ما عمل وراء بابك بشيء من كتـاب الله ولا سنة نبيه فقال أبو جعفر ما أصنع ؟ قد قلت لك خاتمي في يدك فتعال وأصحابك فاكفني فقال عمرو : أدعني بعدلك ، تسخ أنفسنا بعونك ببابك الف مظلمة اردد منها شيئاً نعلم أنك صادق ...» .

ـ وقد عفا المنصور عن أهل البصرة لأن شفيعهم في العفو كان المبارك بن فضالة ... ويروون قصصاً مشابهة عن المهدي :

ـ يروي ابن كثير أن رجلا «دخل عليه يوماً ومعه نعل فقال : هذه نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أهديتها إليك . فقال هاتها . فناوله إياها فقبلها ووضعها على عينيه وأمر له بعشرة آلاف درهم فلما انصرف الرجل قال المهدي : والله اني لأعلم أن رسول الله لم يـر هذه النعل فضلا عن أن يلبسها ولكني لو رددته لذهب يقول للناس : اهديت إليه نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فردها علي . فتصدقه النـاس لأن العامة تميل الى أمثالها . ومن شأنهم نصر الضعيف على القوي وإن كان ظالماً فاشترينا لسانه بعشرة آلاف درهم ورأينـا هـذا أرجح وأصلح»[1] .

ـ ويروي ابن كثير أيضا والطبري أن المهدي كان يحب الحمام فدخل عليه يوماً جماعة من المحدثين فيهم عتاب بن ابراهيـم فحدثـه بحديث عن الرسول يقول : (لاسبق إلا في خف أو نعل أو حافر) وزاد في ختام الحديث (أو جناح) فأمر لـه بعشرة آلاف درهم ولما خـرج قال : الله إن قفاك لقفا كذاب على رسول الله ..

---

(١) انظر مثلا بعض اخبار المهدي والرشيد والمامون عنـد ذكـر وفاتهم لدى الطبري والسيوطي . وانظر فصل «مقامات الزهـاد عند الخلفاء والملوك» في عيون الأخبار (ج٢ ص ٣٣٣ ـ ٣٤٣) ونجد مثل ذلك في سير الخلفاء في البداية والنهاية لابن كثير وفي كتاب حلية الأولياء وفي العقد الفريد لابن عبد ربه . فصل مقامات العباد عنـد الخلفـاء (ج ٣ ص ١٥٨ ـ ١٦٨) .

– ويروى أن المهدي جلس للمظالم فجاءته رقعة تتهمه باغتصاب ضيعة وقبل الجلوس أمام القاضي والاحتكام إليه وحكم القاضي بإطلاقها إلى صاحبها وصدع الخليفة بالأمر[1] على الطريقة التي سبق أن رويت عن المنصـــور ...

– ويروى مثل ذلك كثير عن الرشيد خاصـــة وعن المأمون في قصص تفوت الحصر منها . مثلا ما ذكره السيوطي نقلا عن القاضي الفاضل من أنه لا يعلم لملك رحلة قط في طلب العلم إلا للرشيد فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع (الموطأ) من الإمام مالك وأضاف كانت أصول الموطأ بسماع الرشيد بخزانة المصريين (الفاطميين)[2] ...

ومنها أن الرشيد «أرسل الى مالك بن أنس في السنة التي حج فيها سنة ١٧٩ (والتي مات فيها مالك) ليأتيه ليسمع منه الحديث فقال مالك: إن العلم يؤتى . فسار الرشيد الـى منزل مالك فاستند معه الى الجدار فقال مالك يا أمير المؤمنين : من أجل الله تعالى أجل العلم فقام الرشيد وجلس بين يدي مالك وكلمه وسمع منه عـدة أحاديث عن رسول الله ... » وأرسل الى سفيان بن عيينة فأتاه وقعد بين يـدي الرشيد وحدثه فقال الرشيد بعد ذلـك يا مالـك تواضعنا لعلمك فانتفعنا بـه ... »[3] .

وقد ذكر ابن طيفور في تاريخ بغداد أن المأمون قال لقاضيه يحيى ابن اكثـم :

---

(١) انظر الفقه لدى الازدي – تاريخ الموصل ص ٢٥٦ .
(٢) السـيوطي – تاريخ الخلفاء ص ٢٩٤ .
(٣) العيون والحدائق لمؤلف مجهول ص ٢٩٨ .

«إن الرجل ليأتينا بالقطعة من العود أو بالخشبة أو بالشيء الذي لعل قيمته لا تكون درهماً أو نحوه فيقول : إن هذا كان للنبي (ص) أو قد وضع يده عليه أو شرب فيه أو مسه وما هو بعندي بثقة ولا دليل على صدق الرجل إلا اني بفرط النية والمحبة أقبل ذلك فأشتريه بألف دينار وأقل واكثر ثم أضعه على وجهي وعيني وأتبرك بالنظر إليه وبمسه فأستشفي به عند المرض يصيبني أو يصيب من اهتم به فأصونه كصياتني نفسي وإنما هو عود لم يفعل هوشيئاً ولا فضيلة تستوجب به المحبة إلا ما ذكر من مس رسول الله (ص) له ...

ولعل هذا النص يكشف الكثير من خط السياسة الدينية الممتد منذ زمن المهدي حتى المأمون ولعله يكفينا مؤونة الاستطراد في ذكر القصص الكثيرة مما يروى عن الرشيد أو عن المأمون وعن خشوعهما للنصيحة وتقبلهما ...

– تروي من خشوعهما للنصيحةوتقبلهما الزهادوأمرهما بالمعروف وإكرامهما لأهل الصلاح والتقوى وإقامتهما العدالة والمظالم ... فتلك القصص أضحت المنجم الذي غرفت منه كتب الأدب وكتب الوعظ وكتب الفقه والتاريخ والحكايات فملأت بصحيحه وبالمخترع منه ألوف الصفحات . ولقد أضحى اسم الرشيد خاصة كالمغناطيس الذي يجتذب الكثير من هذه القصص المتصلة بإرهاف الشعور الديني فهو المحور الذي يدور حوله منها الكثير . ونقرأ ذلك في سير هؤلاء الخلفاء لدى الطبري كما تقرأه في بعض كتب الوعظ لابن الجوزي . ونجده في صفحات طويلة من عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري[1] كما نجده في

---

(١) ابن طيفور تاريخ بغداد (بغداد في عصر الخلافة) ص ٤٠ .

العقد الفريد لابن عبد ربه وفي البيان والتبيين للجاحظ ونشوار المحاضرة للتنوخي .

وتعقد الفصول الخاصة أحياناً في بعض هذه الكتب لذكر أخبار الخلفاء مع رجال الدين والزهد . وسواء كانت تلك القصص صحيحة أم مخترعة فإنها تعبر عن واقع تاريخي عرفه الناس وتكشف عن طبيعة العلاقة التي كانت قائمة بين خلفاء بني العباس هؤلاء وبين طبقة الفقهاء على أننا لا بد أن نلاحظ أن هذه الجماعة الحاملة للعلم والدين لم تكن سهلة القياد أو على الأقل لم يكن كسب العباسيين لحبها ومعونتها سهلا وإذا كان بعضها على قبول الانضواء تحت الجناح العباسي فقد كان بعضها الآخر يفخر بشموسه وتأبيه على الدخول في مخططاتهم لكن كانت أجوبتهم الرافضة تدخل بدورها في حساب الساحة الدينية التي يتعمد الخلفاء أن يشتهروا بها . ونرى نموذج هذه الفئة في مثل سفيان الثوري الذي لقيه أبو جعفر في الطواف وسفيان لا يعرفه فضرب بيده على عاتقه وقال : أتعرفني ؟ قال : لا ولكنك قبضت علي قبضة جبار» . فلما تعارفا ومضى الحديث قال أبو جعفر : «ما يمنعك أن تأتينا ؟ قال : إن الله نهى عنكم فقال تعالى (ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار) فمسح أبو جعفر يده به ثم التفت إلى أصحابه فقال : ألقينا الحب الى العلماء فلقطوا إلا ما كان من سفيان فإنه أعيانا فراراً ...»[1] .

والحقيقة أن الكثير من الفقهاء أبوا التقاط الحب الذي نثره لهم

---

(١) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد (طبعة دار الكتب) ج٣ ص١٦٥ .

الخلفاء العباسيون وسجلت لهم المواقف السلبية والنقد الجريء والقاسي أحياناً ضدهم . وكان الخلفاء يتقبلون ذلك من باب الاشتهار بقبول النصيحة ولأنهم يعرفون أنها لا تنتهي الى موقف ثوري عملي : كالذي كان من احتمال المنصور اتهام ابن أبي ذؤيب له بأنه « ظالم جائر » لأنه يعين معن بن زائدة الشيباني اليمن فيقتل ويأخذ الأموال فلا يغيره[1] والذي كان من عبد الله بن طاووس ومن عمرو بن عبيد مع المنصور أيضاً والذي كان من ابن السماك ومن أبي معاوية الضرير مع الرشيد[2] ومن الأوزاعي أمام عبد الله بن علي حين أعلن لـه رأيـه في الحكم العباسي الجديد ورفض أن يفتي لـه بإباحة دماء بني أمية[3] ...

وإذا كان مشهوراً ضيق اصحاب السلطة بالنصائح القاسية فقد تعمد الخلفاء العباسيون أن يشتهروا بعكس ذلك . وكان بعض الوعاظ أو ذوي الجرأة يعرضون لهم في المواسم أو بعض المناسبات فيغلظون القول فيرفضون عقوبتهم . يذكر ابن قتيبة أن المنصور خطب فذكر الله فوثب رجل من اقصى المسجد فقال : أذكرك من تذكر . فقال المنصور: أنت والله ما أردت بها الله ولكن حاولت أن يقال : قام فعوقب فصبر . وأهون بقائلها لو هممت . فاهتبلها إذ عفـوت وإياكـم معشر الناس وأختها . فإن الموعظة علينا نزلت ...»[4] ويذكرون مواقف كثيرة مماثلة

(١) الأزدي ـ تاريخ الموصل ص ١٧٦ ـ ١٧٧

(٢) انظر ذلك في المصدر السابق ج٣ ص ١٦٤ وابن كثير البداية ج١٠ ص٢١٥ و ٢١٧

(٣) ابن كثير ـ البداية والنهاية ج١٠ ص ١١٨ .

(٤) ابن قتيبة ـ عيون الأخبار ج٢ ص ٣٣٦ ـ ٧ وذكر ذلك ابن كثير ـ البداية والنهاية ج١٠ ص ١٢٣ والطبري ج ٨ ص ٩٠ (٣/٤٣٧) . كما ذكر الطبري في الصفحة ذاتها قصتين أخريين مشابهتين لها مع أبي توبة ومع رجل في بغداد .

مع المهدي لسفيان الثوري إذ أتى بـه بأمر الخليفة فلـم يسلم عليه بالخلافة والربيع قائم على رأسه بالسيف فأقبل عليـه المهدي وقال : تفر منا ... وقد قدرنا عليك فما تخشى أن نحكم فيك ؟ قال سفيان إن تحكم الآن في يحكم فيك مالك قدير يفرق بين الحق والبـاطل فقال الربيع ... أفأضرب عنقه ؟ فقال (المهدي) اسكته ويلك وهل يريد مثل هذا إلا أن أقتله . اكتبوا عهده على قضاء الكوفـة ... فهرب »[1] سفيان ، وما زال متوارياً حتى مات سنة ١٦١ كما يذكرون موقف المهدي من نبطي . قال لـه : اتق الله . فلما قال المهـدي نبطي وتدعو أمير المؤمنين لتقوى الله قال الرجل : ذلك أوكد للحجة عليـك أن يكون نبطي يدعوك لتقوى الله . وأطلق الرجل مع ذلك . وثمة مواقف من مثلها كثيرة متداولة للرشيد والمأمون في[2] الكتب والقصص .

على أنهم كانوا دوماً يخشون تمادي الناس في هـذا السبيل . فقد خطب أبو جعفر مرة يحذر الفقهاء قائلا : «أما بعد يا معشر الفقهاء فقد بلغ أمير المؤمنين عنكم ما أخشن صدره وضاق بـه ذرعه وكنتم أحق الناس بالكف عن ألسنتكم وأولى بلزوم الطاعـة والمناصحة في اليسر والعلانية لما استخلفه الله عليكم ...» .

ويتصل بمواقف النصح القاسي هذه مواقف رفض التعاون . والسلبية . فكثيراً ما كان بعض الفقهاء المعروفـين يرفضون ولايـة

---

(١) الأزدي ـ تاريخ الموصل ص ٢٤١ .

(٢) انظر مثلا ابن عبد ربه ج٣ ص١٦٥ وص١٧٠ وانظر الطبري ج ٨ ص ١٨٠ ، والطبري (ج٨ ص ٣٥٤ ـ٥) قصة الرشيد مع عبد الله العمري و(ج٨ ص ٣٥٧) قصته مع رجل من النساك في الرقة .

القضاء ــ وهي عمل ديني اداري ــ للعباسيين فقد رفض القضاء الإمام الأوزاعي . وقال لعبد الله بن علي : إن اسلافك لم يكونوا يشقون علي في ذلك وإني أحب أن تتم ما ابتدأوني بـه من الاحسان ورفضه مالك ابن أنس كما رفضه أبو حنيفة من المتصور كذلك خائفاً أنـه لا يصلح للقضاء ومضيفاً إي إن كنت صادقاً فلا يصح لك توليتي القضاء وإن كنت كاذباً فكيف تولي كاذباً القضاء ؟ ورفضه سفيان الثوري من المهدي وتوارى حتى مات ورفضه كذلك المنذر بن عبد الله كما رفض الليث بن سعد إمارة مصر كلها .

على اننا نلاحظ بصورة عامة أن مواقف الرفض هذه إنما كانت كثيرة ولسبب سياسي أحياناً في الفترة الأولى من العهد العباسي فلما استقر لبني العباس الأمر في عهد الرشيد وما بعده ظهر التعاون واضحاً بينهم وبين هذه الطبقة فلم يبق على الرفض إلا من كان يمنعه ورعه الديني من ولاية القضاء أو لزوم باب السلطان . أو كان على هوى سياسي علوي ... وهكذا بدأنا نرى مواكب الرشيد الى الحج تحوي مجموعة ممن يسمون «بالفقهاء» بجانب الأمراء والقواد ورجال الدولة[1] وقد شهدوا بهذه الصفة حفل تعليق بيعة الأمين والمأمون في الكعبة ! كما كانوا يشهدون مجالس الخليفة في بغداد .

وإذا كان بلاط الرشيد قد برز فيـه عـدد من الفقهاء المعروفين كالشيباني وأبي يوسف وكان مجلس الرشيد يتقبـل بدون انقطاع

---

(١) انظر مثلا خبر تعليق البيعة بولاية العهد في الكعبة لدى الطبري (ج٨) إذ يقـول : « ... وحج هارون ومعه ... وقـواده ووزراؤه وقضاتـه .... » .

زيارات أهل العلم والدين فان مجلس المأمون قد أضحى من تقاليده أن يضم هذه الجماعة العلمية شهوداً على أعماله اليومية أو أن يجمعها للجدل ويكون الخليفة بين المشاركين في المناقشة الدينية وكثيرا ما كان يطلبها بنفسه ويستقدم من أجلها الفقهاء والمحدثين ورجال العلم والفلسفة للجدل بين يديه(١) ••• وقد ذكر ابن أبي طاهر أنه اختير من الفقهاء لمجالسة المأمون مائة رجل فما زال يختارهم طبقة طبقة حتى حصل منهم عشرة (٢) •

وإذا سجل العصر العباسي الأول من اضطهاد لبعض رجال الفقه والدين فإنما كان ذلك ــ فيما عدا محنة ابن حنبل والسنة في عهد المأمون ــ بسبب آرائهم السياسية لا موقفهم الديني • وهكذا أصاب النفي والتعذيب والسجن أمثال أبي حنيفة الذي توفي في السجن سنة ١٥٠ وسفيان الثوري الذي توارى سنوات عن الأنظار • والأعمش وغيرهم • أما مالك بن أنس فبالرغم من أنه لم يقتل للفتوى التي أفتاها لأهل المدينة عند ثورة ذي النفس الزكية من «أنهم بايعوا (المنصور) مكرهين وليس على مكره يمين) وقد حماه مقامه الفقهي الديني الكبير • فإن هذا لم يمنع والي المدينة حين عرف أنه لا يرى (ثبات) أيمان البيعة للعباسيين من تجريده وضربه بالسياط ومد يده حتى انخلع كتفه ••• وارتكب منه أمراً عظيماً فلم يزل مالك بعد ذلك الضرب في علو وارتفاع •••» (٣) •

---

(١) انظر مثلا اليعقوبي ج٢ ص٤٦٨ في قصة بشر بن الوليد وقصة فدك وانظر العقد الفريد ج٥ص ١٩٥ ــ ١٠٢ ... الخ .

(٢) ابن ابي طاهر ــ تاريخ بغداد ص ٣٠ .

(٣) انظر العيون والحدائق لمؤلف مجهول ص ٢٩٨ .

وخلاصة الامر في علاقة العباسيين بالفقهاء أن هؤلاء كانوا الأدوات التي لا محيد للعباسيين عن التعامل معها لتطبيق سياستهم الدينية ۰وقد تكون القصص التي تروى عن طبيعة هذه العلاقة حقيقية أو مزخرفة أو مخترعة من أساسها ولكنها إنما كانت تجري وتنشر عن عمد لاستخدامها في العمل الدعائي العباسي ۰ وجانب كبير منها إنما قصد منه العباسيون ذلك لأن الفقهاء وهم أبواق الدعاية الموزعون في انحاء العالم الاسلامي وفي كل مسجد وعند كل سارية استطاعوا تدمير جانب كبير من السمعة الأموية فيجب أن يكون باستطاعتهم بالمقابل بناء جانب كبير من سمعة العباسيين وقد استخدمهم بنو العباس في ذلك أوسع الاستخدام ۰

أما مدى نجاحهم فلا شك أن العباسيين نجحوا في إذابة الجليد بينهم وبين طبقة الفقهاء ۰ أولا ثم في نقل تلك الطبقة من معسكر العلويين المعارضين أو الأمويين بل من المراكز المحايدة إلى مراكز التأييد والاستخدام ۰ وذلك اللون «الزيدي» الذي كان يلون الكثير من الفقهاء ــ غير العلويين ــ في أوائل عهد المنصور غاب تماماً ليحل محله اللون العباسي الخالص في عهد الرشيد ومن بعده ۰

ومجموعات الفقهاء وأهل العلم والحديث التي كانت تحضر يومياً مجالس الخليفة أو تذهب معه بالمئات الى الحج أو الجهاد أو تتولى له القضاء في مختلف الأمصار (ولدينا قوائم طويلة بأسمائها) كلها دلائل على ذلك النجاح العباسي في ايجاد طبقة رسمية من الفقهاء تعمل تحت جناح الدولة ولحسابها ۰

وتذخر كتب التاريخ والطبقات والتراجم[1] بأخبار هذه الطبقة وإذا كان منهم من استلم القضاء مثل محمد بن ابي ليلى وسوار بن عبد الله العنبري زمن المنصور وابي يوسف والشيباني وابي البختري زمن الرشيد وابن أبي دؤاد زمن المأمون فإن منهم من استعمل في بعض أمور الخراج كاسماعيل بن عياش وعبد الرحمن بن أبي الزند أو قام ببعض الادارة كعبد الله بن شبرمة • أو في ديوان الجند (كعبد الرحمن ابن سالم في مصر) • أو في بيت المال (مثل هشام بن ألفاز الجرشي الدمشقي) • وربما كان من آثار هذا التعاون ما وضعه بعض هؤلاء الفقهاء من الأحاديث على لسان الرسول بتعظيم بني العباس ونجد منها مجموعة في كتاب تاريخ الخلفاء للسيوطي بعنوان : الاحاديث المبشرة بخلافة بني العباس • ولعل أهم نجاح حققه الخلفاء العباسيون بنتيجة هذا التعاون مع الفقهاء والعلماء هو النقطة التالية :

٤ ـ توطيد المذهب السني وصيرورته المذهب الرسمي :

كان هذا التوطيد ، في الواقع نتيجة عمليات معقدة متعددة الوجوه تفاعلت منذ العصر الأموي واستمرت خلال العصر العباسي الأول كله قبل أن يصبح ذلك واقعاً تاريخياً واضحاً • وبينما كان العباسيون كسلطة حاكمة يبعدون المذاهب الاسلامية الأخرى عن مراكز القوة والنجاح لتلهو على الأطراف بانشاء بعض الدول الصغيرة أو يضربونها الضربة بعد الضربة بالقوة العسكرية في المناطق المركزية ،

---

(١) انظر في تاريخ اليعقوبي قوائم القضاة والفقهاء في عهود الخلفاء العباسيين الأوائل . ونجد قوائم اخرى لدى خليفة بن خياط (كتاب التاريخ لا الطبقات) ولدى وكيع القاضي في كتابه اخبار القضاة خاصة .

كان جيش آخر من الفقهاء ورجال العلم يعمل بدوره بتشجيع من الخلفاء وتحت جناحهم على منح المذهب السني مداه الجغرافي في الانتشار وصورته التشريعية في (الفقه) وأساسه الفكري من الفلسفة والمنطق في (علم الكلام) • وقد أنجزت المهمات الثلاث معا خلال القرن الأول من الحكم العباسي فكان ذلك أهم إنجاز بقي للمسلمين من تلك الحقبة كافة • وإذا كان المبرر الوحيد لوصول العباسيين الى السلطة هو البحث عن لون من ألوان الحكم يكون أقرب الى ما يقضي به الاسلام مما سار عليه بنو أمية فإن الصورة العملية للنظام الاسلامي الذي نعرف سياسياً واجتماعياً إنما صيغت في العهد العباسي • وما نعرفه اليوم من المذاهب الاسلامية في التراث الفقهي فإنما هو نتيجة التفسير الذي أعطاه الفكر العباسي للإسلام الأول • لقد عكسوا فيه مدى فهمهم في عصرهم لذلك الاسلام • وقد تجلى ذلك خاصة في أمرين : الفقه وعلم الكلام • وليس يهمنا في الأمرين هنا مسائلهما والمشاكل ولكن يهمنا تكون الفكر الفقهي والكلامي خلال تلك الحقبة العباسية الأولى :

أ ـ تبلور الفقه : الاسلام يرفض مبدئيا المفهوم الروماني ـ اليوناني بترك التشريع للدولة ويعتبره موضوعة إلهية • قد بين الله أسسها وحدودها في كتابه العزيز وعلى البشر استنباط الاحكام التطبيقية منه ومن السنة التي لا يمكن أن تتناقض معه • عملية الاستنباط هذه هي الفقه • والخليفة لا يشرع ولكن يطبق الشرع ولما كان الخلفاء العباسيون قد جعلوا سياستهم اسلامية فقد كان لا بد لهم في قيادة الجماعة الاسلامية ، من التوفيق ما بين مقتضيات السياسة والادارة العملية المتطورة وبين مقتضيات الشرع وبين حمل الأولى على

التطابق مع الثانية • ومن هنا قامت تلك العلاقة الواشجة بين خلفاء بني العباس والفقهاء ، ومن هنا كان خوف الخلفاء من هذا القطاع السياسي الديني الحر الذي يفقه علوم الدين •

وإعداد الفقه الاسلامي لم يكن من عمل العباسيين • كان هذا الفقه منذ العصر الأموي يتكون • وإنما دفعه بنو العباس خطوات واسعة الى التبلور وإلى أخذ الصيغة المكتوبة • بالاستناد الى ثلاثة أسس : كانت بدورها قد بدأت التوطد بجانب احكام الكتاب هي : الحديث والقياس والرأي أو ما يدعي بالاجتهاد • وإذا كان استنباط الاحكام بالرأي يفتح الباب واسعاً للاختلاف فإن هذا الاجتهاد قد أنجم من جهة أخرى بما سمي بالاجماع أي إجماع أو شبه إجماع الأحياء من المجتهدين في ما يمكن أن نطلق عليه اسم «السنة الحية» وهكذا انصرف الفقهاء في العصر العباسي الأول خاصة الى وضع تصانيف منهجية عامة في شؤون الفقه تستند بجانب الكتاب والسنة الى القياس والاجتهاد •

وقد شعر علماء الحديث والسنة بهذا التوطد الذي تم للمذهب زمن العباسيين يقول الذهبي : «••• في سنة ثلاث واربعين شرع علماء الاسلام في هذا العصر في تدوين الحديث والفقه والتفسير فصنف ابن جريج بمكة ومالك الموطأ في المدينة والأوزاعي بالشام وابن أبي عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة ومعمر باليمن وسفيان الثوري بالكوفة وصنف ابن اسحاق المغازي وصنف أبو حنيفة رحمه الله الفقه والرأي • ثم بعد يسير ضعف هشيم والليث وابن لهيعة ثم ابن المبارك وابو يوسف وابن وهب وكثر تدوين العلم وتبويبه ودونت كتب العربية

واللغة والتاريخ وأيام الناس ...»[1] .

وتوزع الجماعات الاسلاميـــة في مختلف الاقاليـــم مع صعوبات الاتصال أدت الى بروز العديد من الفقهاء المحلـــيين في تلك الأقاليم والى ظهور مدارس فقهية عديدة بنتيجة ذلك لكل منها مذهبها الخاص المستند إلى مقدار ونوعية ما وردها من الحديث النبوي ومـــدى قوة المنطق القياسي وعمق النظر الاجتهادي .

وهكذا ظهر في الحجاز مالك بن أنس وفي الشام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي وفي العراق أبو حنيفة النعمان بن ثابت وفي مصر الليث ابن سعد ثم محمد بن ادريس الشـــافعي بعـــد ذلك . وبجانب هذه الاسماء المعروفة كان ثمة رعيل كبير لا يقل عنها قيمة وأثراً منه : ابن أبي عروبة وحماد بن سلمة وعمرو بن عبيد المغزلي في البصرة ، ومحمد ابن عبد الرحمن بن أبي ليلى وسفيان بن سعيد الثوري في الكوفة . ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ذؤيب (أو ذئب) في الحجاز وعبد الملك ابن جريج في مكة . وعبد الله بن لهيعة في مصر . وأبو البختري وهب ابن وهب وأبو يوسف يعقوب بن ابراهيم قاضي الرشـــيد في بغداد ومعمر بن راشد الأزدي في اليمن والوليد بن مسلم في الشام .

قادت هذه الجماعة وأمثالها الفكر الاسلامي الفقهي . وقد وضع بعض هؤلاء العلماء أسس مذاهبهم الفقهية : كتبوها أو كتبهـــا عنهم تلاميذهم لكن الخلفاء العباسيين طلبوا من بعضهم وضع هذه الكتب فقد طلب المنصور مثلا من مالك بن أنس وضع كتاب تسير عليه الدولة

---

(١) انظر السـيوطي تاريخ الخلفاء ص ٢٦١ .

فكان ذلك أساس كتاب الموطأ وطلب الرشيد من أبـي يوسف وضع كتاب الخراج ...

وإذا كان مذهب الأوزاعي الشامي لم يعرف الانتشار إلا في الشام ولفترة محدودة فما من شك في أن موقف العباسيين السياسي من هذه البلاد قد أثر في عدم انتشار المذهب ثم في اندثاره . ولم يكن وضع مالك بن أنس ولا الحجاز بالذي يشبه الأوزاعي والشام فقد كان يمثل تراث المدينة الاسلامي ويمثل فقهاء المدينة السبعة الذين ظهروا في العهد الأموي ووضعوا أسس الفقه . وقد توفي مالـك سنة ١٧٩ عن أربع وثمانين سنة بعد ان انتشر ما أملاه على تلاميذه من كتاب (الموطأ) . ومع ذلك فلم يتح لمذهب مالك أن ينتشر فيما وراء الحجاز فلما حمل الى مصر لم يستقر بها طويلا وتلاحق على حمله من مصر إلى الاندلس خلال ذلك فقهاء عديدون لجأ المذهب معهم إلى أقصى المغرب الاسلامي بينما فقد أرضه في المشرق . ولم يتح في الوقت نفسه لمذهب الليث بن سعد أن ينتشر إلا بعض الانتشار في مصر ثم ما لبث أن تضاءل واندثر كما اندثر أيضا مذهب سفيان الثوري الذي ظهر في الكوفة فلم يبق له أثر بعد القرن الرابع ...

أما المذهب الذي اتصل أوثق الاتصال بالعباسيين فهو مذهب أبي حنيفة الذي يعرف بأنه المذهب العراقي وصاحبه هو الوحيد بين أصحاب المذاهب المشهورة الذي لم يكن عربي الأصل ولكن من موالي الكوفة ومع أن الرجل استغنى عن مناصب العباسيين وعاش متقشـفاً يحتفظ بهواه ضد الحكام حتى مات في السجن سنة ١٥٠ في بغداد عن سبعين سنة ، ومع أن المنصور استدعاه لمناظرة جعفر الصادق إلا إنه لم يكن يميل في هواه ضد العلويين إن لم يكن معهم .

وإذا كان من مذهب مالك يعتمد بصورة أساسية على الحديث ، لأنه وارث مدرسة الحديث في المدينة . وكان مذهب سفيان الثوري يعتمد خاصة على الرأي والقياس معبراً بذلك عن قلق أهل الكوفة وتطلعهم السياسي فإن أبا حنيفة كان يمزج ما بين الطريقتين حتى ذمه أهل الحديث • ولكن مذهبه كان المذهب الملائم للتطور الاجتماعي الذي وصله المجتمع الاسلامي في القرن الثاني في العراق وايران • وقد كان تلامبذ أبي حنيفة على صلة وثقى بخلفاء بني العباس وتولوا أهم مختلف المناصب وخاصة القضاء في مختلف الأمصار ولهذا فقد تبنى العباسيون الفقهاء القائلين به • وقد برز هذا الدعم واضحاً بصورة خاصة في عهد الرشيد حين عين يعقوب بن ابراهيم المعروف بابي يوسف قاضياً للقضاة وجعل لـه أن يضع الكتاب الذي ينظم علاقات الدولة بالناس : كتاب الخراج • كما جعل لتلاميذه وامثاله ان يتسلموا المناصب المختلفة • وأبو يوسف هو التلميذ البارز لأبي حنيفة وقد تولي القضاء للمهدي والهادي والرشيد ولهذا فقد تألفت من حولـه مدرسة فقهية كان من رجالها محمد بن الحسن الشيباني وأبو البختري وابن اكثم وزفر بن الهذيل « وقد تميزت خلال فترة طويلة من الزمن باهتمامها البالغ بالحياة العملية وعنايتها بحاجات الدولة مع السعي إلى ايجاد التسويات اللازمة لتجنب كل تناقض مع الشرع الاسلامي» ولعل من أهم الانجازات التي تمت في عهد الرشيد ووطـدت المذهب الحنفي كمذهب عباسي أن كلا من قاضي القضاة أبي يوسف (توفي سنة ١٨٢) وتلميذه وزميله قاضي القضاة محمد بن الحسن الشيباني (توفي سنة ١٨٩) كتبا للدولة الكتابين اللذين ينظمان على أساس متين من الفقه الاسلامي سياستها الداخلية والخارجية • فإذا كان كتاب الخراج ينظم السياسة الداخلية فقد كتب الشيباني (كتاب السير الكبير) وهذا

الاصطلاح كان يعني في ذلك الوقت احكام الجهاد والحرب وما يجوز فيها ولا يجوز وأحكام الصلح والموادعة والأمان والغنائم والأسرى • فكأنما وضعت الدولة العباسية بالكتابين ضوابط العمل والحكم الداخلي على أساس المذهب الذي اختارته •

وهكذا نشأ تحت رعاية العباسيين مذهب اسلامي «رسمي» على الأساس السني يطمح ، بدعم العباسيين أنفسهم ، إلى أن يكون مذهب الجماعة الاسلامية كلها • وقد انتشر بالفعل في العراق وما وراءه من ايران وخراسان ولكن هذا الدعم لم يكن يستطيع أن يمنع رسمياً أيضاً المذاهب الاخرى من الانتشار لان الخلفاء منفذون للشرع وليسوا بمشرعين •

ولم يرض العلويون والخوارج بالطبع عن هذا المذهب «الرسمي» ولذلك فقد عارضوه بمذاهب خاصة بهم وإذا تطور المذهب الإباضي الخارجي في البصرة خاصة إلا إنه كان يصدر آراءه مع فقهائه وأمواله الى افريقية والمغرب حيث قامت الدول الخارجية • أما العلويون فقد كان لا بد أن يظهر من آل البيت نفسه إمام يضع الأسس الفكرية والعملية للفقه العلوي • وإذا كانت المحاولة الأولى : الزيدية (أتباع زيد بن علي زين العابدين المتوفي) سنة ١٢٢ / ٧٤٠ محاولة مبكرة لا تفترق بوضوح عن المذهب السني ويمكن أن تكون وسطاً بين الفقه الحنفي والمالكي فقد عاصر أبا حنيفة ومالك عقل فقهي ممتاز من الأئمة هو جعفر الصادق المتوفي سنة ١٤٧ عن ٦٦ عاماً استطاع خلال ثلاثين سنة من الإمامة أن يعطي أفكاره إلى اكثر من اربعة آلاف رجل من أتباعه • وقد جمعها بعض هؤلاء في اكثر من اربع مائة كتاب تعرف لدى الشيعة بالأصول • وكان جعفر الصادق من غزارة العلم بحيث قال فيه المنصور يوم توفي : إنه ممن قال الله فيهم : «ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من

عبادنا ...» وابتعاده عن المطمح السياسي هو الذي قربه من بني العباس . وأهم ما تميز به مذهبه هو التسوية ما بين الحديث النبوي وأحاديث الأئمة من بعده في التشريع بسبب عصمة الأئمة ، ورفض القياس كوسيلة فقهية . وقد تكون بهذا الشكل المذهب الإمامي أو الجعفري في الفقه الاسلامي ولكن انتشاره ظل مرتبطاً بالمجموعة العلوية المناهضة للعباسيين أي ظل نوعاً من المعارضة السياسية التي يؤيدها الاختلاف الديني .

ومن جهة أخرى فإن انتشار المذهب الحنفي لم يرض كل طموح أصحاب الحديث وأهل السنة المتشددين . وبالرغم من أن تطور المجتمع العباسي وخضوعه لمؤثرات ثقافية واجتماعية شتى كان من الممكن أن ينتهيا به الى النتيجة المنطقية وهي الانطلاق مع «الرأي» والتفكير العقلي إلى النهاية إلا إن الذي حدث كان بالعكس من ذلك . فقد ارتد رجال الحديث خاصة في نوع من الدفاع الذاتي عن الدين الى التمسك المتزايد بنصوص الأحاديث والسنن والى الارتياب الشديد بعلوم الأوائل ورجالها[1] ... وهكذا نشأ في الجيل التالي لأبي حنيفة ومالك مذهبان آخران في الفقه السني انطلق من حيث الأسس على خطوات مالك الحجازي لا أبي حنيفة العراقي ولو أن أحدهما فقط نشأ في الحجاز مقر مالك بينما الثاني في بغداد نفسها واستطاع صاحبا المذهبين

---

(١) بلغ هذا الاتجاه اقصاه في القرن الثالث خاصة الذي وضعت فيه كتب الحديث الستة المشهورة كلها أي : وضع الصحيحان : صحيح البخاري (المتوفي سنة ٢٥٦) ومسلم القشيري (سنة ٢٦١) والسنن الأربعة : سنن ابي داوود (سنة ٢٧٥) والترمذي (سنة ٢٧٨) وابن ماجة (سنة ٢٧٥) والنسائي (سنة ٣٠٣) . وهي التي أضحت مصادر التشريع السني .

رغم تأخرهما الزمني أن يأخذا لهما مكاناً في زحمة الأمكنة وصراع الأفكار :

أولهما : محمد بن ادريس الشافعي (١٥٠ ـ ٢٠٤/٧٦٧ ـ ٨٢٠) الذي ولد سنة وفاة أبي حنيفة في فلسطين وجاء الحجاز وهو فطيم فتفقه على مالك في المدينة وعلى غيره وتورط في علاقاته بيحيى بن عبد الله العلوي (صاحب الثورة بالديلم) فبقي طول حياته بعيداً عن الحكم العباسي ورجاله وقد ناظر الشيباني أمام هارون الرشيد سنة ١٨٤ كما ناظر غيره في مناسبات اخرى ثم انصرف إلى نشر مذهبه الفقهي في الشام ثم في مصر حين استقر ومات • وتلاميذه هم الذين حملوا مذهبه فغزوا به المشرق الاسلامي ، ونافسوا هناك المذهب الحنفي منافسة جدية في أواخر القرن الثالث الهجري حتى أزاحوه عن كثير من مراكزه مستندين في إزاحته على اعتناق السلطات له وعلى التيار الفكري الذي أسسه أبو الحسن الأشعري للوقوف في وجه المعتزلة والذي يستند إلى ظاهر النصوص القرآنية ومنطوق الحديث النبوي • ومذهب الشافعي في الواقع ، يتصل بهذه النقطة لأنه عرض في كتابه (الكتاب الأم) العرض المنهجي الرائع مذهباً فقهياً يستبعد الرأي ويعتمد الاعتماد الكلي على الحديث الذي يفسره بطريقة القياس والاستنتاج المنطقي وبنمط محدود من الاجتهاد في هذا النطاق نفسه • ولعل هذا كان من الاسباب الاساسية في القضاء على الاجتهاد المتطور وفي اتجاه الفقه الاسلامي بعد ذلك ضمن الدائرة المغلقة التي أقامها كبار الفقهاء الذين ظهروا في العصر العباسي الأول أنفسهم •

الثاني : أحمد بن حنبل (١٦٤ ـ ٢٤١/٧٨٠ ـ ٨٥٥) وهو بدوره عربي الأصل وقبيلته في مرو على الولاء لبني العباس • أخذ عن ابي

يوسف والشافعي ورحل حتى الى اليمن والشام والجزيرة بعد بغداد • وكانت عنايته الأساسية بالحديث وجمعه وحفظه ولهذا ظل يكره أن يعرف بالفقه وظل يفضل أن يحتفظ بصفة «المحدث» • وكان ذلك أساس كتابه (المسند) فقد رتبه على أساس السند لا الأبواب الفقهية وجمع فيه أربعين ألف حديث •

ويعلن ابن حنبل أن مصادر التشريع عنده بعد الكتاب والسنة فتاوي الصحابة ثم الاستصلاح ثم القياس • ويرفض كل رأي قاطع لا يتحدر بصورة ثابتة عن النصوص المقدسة كما يرفض كل تفسير للحديث يبتعد عن معناه الحرفي • وقد يسر كل التيسير في المعاملات المالية والعقود والشروط ـ وهي ما كان يحتاجه المجتمع العباسي في مطالع القرن الثالث ـ لأن الاصل فيها الاباحة وهذا يعني أنه فيما عدا ما وردت فيه النصوص لا تشدد ولا تعصب لدى ابن حنبل وإن عرف عن تلاميذه من بعده ذلك الاتهام •

غير أن المعركة الكبرى التي تزعمها ابن حنبل إنما كانت معركته ضد الاعتزال حين أضحى هذا المذهب بأمر المأمون وعمله المذهب الرسمي العباسي ولقد اضطهد ابن حنبل اشد الاضطهاد في ذلك فعذب، وضرب وأفتى المعتزلة بقتله وانتهى في السجن ولكن المذهب السني انتهى بالانتصار •

ب ـ علم الكلام : ذلك الجهد السني والشيعي على السواء في اقامة الفقه أي القانون الوضعي الدنيوي للجماعة الاسلامية بالاستناد الى الكتاب والسنة خاصة ، لم يكن يسير في الواقع بدون قاعدة نظرية فكرية أي بدون تأمل فكري في الدين والايمان • وهذا التفكير

النظري إنما بدأ بدوره منذ العهد الأموي[١] وكأن وراء ظهوره أسباب عديدة منها ما هو ناجم عن الأحداث السياسية ومنها ما يعود الى التأمل الفلسفي الخالص في الدين ومنها ما نقله المسلمون الجدد من مسائلهم الفكرية والدينية الأولى الى الاسلام ومنها ما كان جواباً على الاسئلة والريب والمشاكل التي يلقيها غير المسلمين ــ عن فضول أو مماحكة ــ على أصحاب الدين الجديد والمؤمنين به .

وبالرغم من أن اسم «علم الكلام» قد يحوي معنى خاصاً يأتيه من أن القرآن هو بدوره كلام الله ومن أن «كلمة الله» Logos ترد في مطلع الكتاب المقدس بقوله : «في البدء كان الكلمة» . ومن أن «الكلمة» تختلط في الفلسفة القديمة والمسيحية مع كلمة العقل وتتضمن أحيانا معنى العقل والحياة معاً . وبالرغم من كل ذلك فإننا متى قرأنا في رسالة الحسن البصري الى الحجاج قوله : «إن الله لم يخلقهم (العباد) لأمر ثم حال بينهم وبينه ولم يكن أحد في السلف يذكر ذلك ولا يجادل فيه .. وإنما أحدثنا الكلام فيه لما أحدث الناس النكرة له ...»[٢] ومتى قرأنا عن جدل جرى أمام عمر بن عبد العزيز بين اياس بن معاوية وغيلان الدمشقي يقول فيه الأول عن الثاني : «إن غيلان صاحب كلام وأنا صاحب اختصار[٣]» استطعنا أن نستنتج بسهولة أن علم الكلام

(١) لنذكر مثلا على ذلك معبد الجهني المتوفي سنة ٨٠ والذي كان أول من تكلم بالقدر في الاسلام . ومسائله ثم تلميذه غيلان الدمشقي الذي هم عمر بن عبد العزيز لولا أنه تاب فلما اسرف في الدعوة لفكرته أيام هشام بن عبد الملك انتهى مصلوبا على باب دمشق (٢/٤٣) انظر الشهرستاني في الملل والنحل (طبع كيلاني) ج١ ص ٣٠ .

(٢) انظر الرسالة لدى ابن المرتضي ـ طبقات المعتزلة ص ١٩ .

(٣) انظر ابن عساكر ـ تهذيب تاريخ دمشق (بدران) ج٣ ص ١٧٨

الاسلامي لم يأخذ تلك المعاني الأول كلها لدى أهله ولا سيما في مطلع ظهوره ولكنه أخذ اسمه ومحتواه من الجدل والمنطق الدفاعي ومن الاهتمام بمطابقة الايمان للعقل وتفسير العقيدة على أساس المنطق الفكري والتأويل العقلي ولم يحمل هذا العلم في مطلعه اسماً خاصاً به وكان يدخل في الفقه في الدين «ثم طالع بعد ذلك شيوخ المعتزلة كتب الفلاسفة حين فسرت أيام المأمون فخلطت مناهجها بمناهج علم الكلام وافردتها فناً من فنون العلم وسمتها باسم الكلام.»[1] واصحاب علم الكلام ينطلقون من العقيدة إلى العقل بينما ينطلق الفلاسفة الاسلاميون عامة بالعكس من العقل الى العقيدة . وغرضهم ليس تقصي الحقيقة فالحقيقة قد تم وضعها وتثبيتها بالوحي ولكن الغرض هو فهم هذا الوحي وحدوده بالعقل .

وهدف أهل الكلام إذن دفاعي تفسيري يرمي الى إيجاد الحلول فالحقيقة قد تم وضعها وتثبيتها بالوحي ولكن الغرض هو فهم هذا والحديث ليسا في الأصل بحثين منهجيين في العقيدة وليس من طبيعتهما إعطاء الجواب الحاسم على كل الاسئلة التي يثيرها الفكر المنطقي والموقف العقلي للمؤمنين .

وإذا كنا نستطيع أن نتابع بسهولة المسار التاريخي للفقه الاسلامي ونشأة مذاهبه فإن العرض التاريخي لنشأة علم الكلام ومسائلة أشد صعوبة . بسبب ضياع المساجلات والمناقشات الأولى التي قامت في العصر الأموي وسببت نشأته وكان من أقطابها الحسن البصري (توفي سنة ١١٠ هـ) .

وقد تابع المتكلمون جهودهم الفكرية في «فلسفة» مسائل الايمان في العصر العباسي . وفي اعطاء الغطاء الفكري لكافة الاختلافات في

(١) انظر الشهرستاني ـ الملل والنحل (طبعة الكيلاني) ج١ ص ٣٠

مذهب «الجماعة» • كانوا يخدمون ــ دون أن يقصدوا ــ أهــداف السياسة العباسية الدينية • وبالرغم من أن أهل «الحديث» قد شددوا النكير على علم الكلام واعتبروه بدعــة ، واعتبروا التسليم بمعطيات الكتاب والسنة أساس الايمان إلا إن ذلك لم يمنع «الكلام» من أن ينتشر ومن أن يضع أصحابه ما يمكن أن يسمى ، مع بعض التجوز ، أسس اللاهوت الاسلامي •

وقد برز علم الكلام اكثر ما برز في البصرة التي كانت في العهــد الأموي مركز غليان فكري واسع ، سواء في علوم الدين أو في الأدب فلما ظهرت بغداد انتقلت الديناميكية الفكرية إليها مع تكاثر الترجمــة للفلسفة والمنطق وعلوم الأوائل الي العربية • وتعقدت المناقشات النظرية في الدين وكثرت مسائلها كما كثرت بالتالي الآراء والحلول • وظهر من هذا وذاك مدرستان إحداهما في البصرة والأخرى في بغداد •

غير أن هذه المغامرة الفكرية المتزايدة التعقيد والمشاكــل بدأت بدورها ، ومنذ العصر الأموي أيضاً وأيضاً ، في الاختلاف وفي التوزع بين الآراء • وذلك طبيعي • وكان قد بدأ جماعة منها في الانفراد بأفكار اعتزلوا بها باقي أهل الكلام كما فعل واصل بن عطاء مع الحسن البصري • فظهر منهم من يسمون بالمعتزلة[1] • وقد سمحت الحرية الفكرية التي ناقش فيها هؤلاء بعض مسائل العقيدة بأن يشكلوا تياراً خاصاً مشتقاً

---

(١) كان لأحمد أمين في الطبعة الأولى من كتابه فجر الاسلام رأي في تسمية المعتزلة تراجع عنده في الطبعات التالية يقول : (انظر فجر الاسلام ط ١٠ ص ٢٨٩) : إن بعض من اسلم من اليهود هو الذي اطلق اسم المعتزلة على هؤلاء الذين فارقوا جماعة المسلمين قياسا على ما عرفوه في تاريخهم الديني من اعتزال فريق من اليهود عن الجماعــة وتسميتهم «بالفيروشيم» وتعني المعتزلة .

من علم الكلام يمشي بجوازه ولكنه يتميز بالإكثار من استخدام المنطق والعقل والقبول بالنتائج المنطقية الناجمة عن كل اولئك . وليس يعني ذلك القول بحرية الفكر فالحقيقة المطلقة لم تكن رائدهم وإنما إعطاء العقيدة قفزة نوعية جديدة تربط ما بينها وبين العقل كما أنهم حين أتيح لهم أن يصبحوا الفكر الرسمي للدولة العباسية أصبحوا من أشد المتعصبين اضطهاداً للأفكار الأخرى . وقد استطاع المعتزلة بجهود رجال من أفذاذ الفكر الاسلامي من أمثال : ابي الهذيل العلاف (١٣٥ ـ ٢٢٦ هـ) والنظام تلميذه (المتوفي سنة ٢٣١) . والجعد بن درهم والجهم بن صفوان وبشر بن المعتمر (سنة ٢٢٦) وثمامة بن أشرس صاحب المأمون (المتوفي سنة ٢١٣ هـ) من أن يملأوا الفراغ الفلسفي في العقيدة الاسلامية الأولى بكافة الأفكار العقلية والمنطقية اللازمة لجعل تلك العقيدة ايمانية ـ عقلية في وقت معاً ... ولكنهم ظلوا على أي حال في نطاق الفكر السني العام ، فكر أهل السنة والجماعة وإن رفض زعماء هذا الفكر نفسه قبولهم أو التسليم بالنتائج والحلول العقلية التي توصلوا إليها . كما رفضهم الفلاسفة بدورهم لاختلافهم عنهم في الهدف وإن اتفقوا معهم في الوسيلة .

ويبدو أن المعتزلة كانوا يطمحون منذ ظهروا إلى أن يجعلوا من أفكارهم الدينية أفكار العالم الاسلامي كله أو أن تكون على الأقل مذهب علماء المسلمين عامة . والمؤرخون يذكرون أنهم بدأوا ذلك منذ العهد الأموي فقد كانت لهم صلتهم بيزيد (الثالث) بن الوليد (١٢٦ ـ ١٢٧ هـ) . وكان قد ثار مع سابقة من المعتزلة وغيرهم من أهل داريا والمزة من غوطة دمشق ... وكان يذهب الى قولهم ضد الخليفة الوليد وكان مروان بن محمد معتزلي الرأي أيضاً . والمعتزلة يفضلون يزيد

في الدين ـ **فيما يذكر** المسعودي ـ على عمر بن عبد العزيز[1] وتكشف خطبته التي ألقاها عقب بيعته وأنه إنما خرج «داعياً لكتاب الله وسنة نبيه لما هدمت معالم الهدى وظهر الجبار العنيد (يقصد الوليد بن يزيد)» وأن برنامجه كان برنامج الامام العادل الذي يطلبه أهل الاعتزال كما أن واصلا بن عطاء أقام تنظيماً دينياً معتزليا إذ أطلق من حلقته في البصرة دعاة ذهبوا إلى أقاليم متعددة من العالم الاسلامي يدافعون عن الاسلام ضد الدهرية والمانوية وما إليها : بعث عبد الله بن حارث الى المغرب فأجابه خلق كثير . وبعث الى خراسان حفص بن سالم فدخل ترمذ وناظر جهم بن صفوان حتى قطعه ... وبعث القاسم بن السعدي إلى اليمن وبعث أيوب الى الجزيرة وبعث الحسن بن ذكوان الى الكوفة وعثمان الطويل الى أرمينية ...»[2] .

وقد ترك لنا صفوان الانصاري الشاعر المعتزلي قصيدة هامة تذكر دعاة واصل بن عطاء وتقول في وصف هذه الموجة من الدعاة : هيئة وأسفاراً ودعوة :

له خلف شعب الصين من كل شفرة
إلى سوسها الأقصى وخلف البرابر
رجال دعاة لا يفل عزيمهم
تهكم جبار ولا كيد ماكر

---

(١) انظر المسعودي مروج الذهب ج٢ ص٢٣٤ وص٢٣٩

(٢) انظر كتاب ابن المرتضي المهدي اليمني ـ طبقات المعتزلة (هو جزء من كتابه المنية والأمل في شرح الملل والنحل) ط. بيروت سنة ١٩٦١ ص ٣٢ .

إذا قال مروا في الشقاء تطـاوعوا
وإن كان صيفاً لم يخفـشهر ناخر !

وأوتاد أرض الله في كـل بلـدة
وموضع فتياها وعلم التشـاجر !

وأمـر بمعروف • وإنكـار منكر
وتحصين دين الله من كل كافـر

تراهم كان الطير فوق رؤوسهـم
على عمة معروفـة في المعـاشر !

وسيماهم معروفـة في وجوههـم
وفي المشي حجاجاً وفوق الاباعر ![1]

وبالرغم من أن واصل بن عطاء كان على صلة مع شخصيات علوية كثيرة (عبد الله المحض وابنه محمد ، زيد بن علي زين العابدين ،ومحمد الباقر ،) ورغم تلمذته السابقة لأبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية إلا إنه لم تعرف عنه الميول السياسية •••

فأين كان المعتزلة إذن من الدعوة العباسية وأين كان العباسيون الأوائل منها ؟

يفترض المستشرق نيبرك أن المعتزلة كانوا دعاة العباسيين ولكن هذه الفرصة لا تستند الى اكثر من بعض القرائـن التي لا تقطع بأمر ولعلنا بالعكس نستطيع بقرائن أقوى منها أن نجد علائق قوية ما بين المعتزلة الأوائل والزعماء العلويين بل إنا لنجد أن بعض هؤلاء المعتزلة

---

(١) الجاحظ ـ البيـان والتبيين ج١ ص ٢٥ ـ ٢٩ وقـد نقل القصيدة احمد أمين في ضحى الاسلام (ط/٧/ج٣ ص ٩٠ ـ ٩١) .

قد ارتبطوا بالحركة الزيدية في أيام المنصور كما أن بعضهم وقف في جانب ابراهيم بن عبد الله المحض يوم ثورته في البصرة وكان يتقصى له الأخبار ويرشده الى الاعداء • ومن ذلك فمن المجازفة أن نعزو الى المعتزلة رأياً سياسياً محدداً ولعلهم بالعكس كانوا على السلبية والحياد في هذه الناحية لانصرافهم الى العلم والعبادة والفكر • ولعل رأيهم بالمنزلة بين المنزلتين ليس شيئاً آخر عند التطبيق السياسي عن القول بالحياد بين المتخاصمين بل إن توزع رأيهم في الحكم على «الأحداث الأولى في الاسلام» دليل على أنهم لا يصدرون عن رأي سياسي محدد وأن السياسة لم تكن تهمهم وانما يهمهم الدين •

وهذا الحياد التقي هو الذي جعل المنصور ـ وهو من هو في عدم التهاون بأي أمر يمس الشأن السياسي للدولة ـ يحتفظ بالصداقة المتصلة الحميمة مع عمرو بن عبيد ، زعيم المعتزلة في عهده وجعله يتقبل منه أقسى النقد دون أن يحمل ذلك على اكثر من محمل النصيحة الدينية ! لقد كان المتكلمون ، والمعتزلة على رأسهم ـ هم الجناح الديناميكي الفعال بين جماهير أهل الحديث وحملة علوم الدين •

ولقد نظر المنصور والمهدي من بعده الى أهل الكلام والاعتزال بعين الرضى لأن هؤلاء إنما كانوا يدورون في إطار منطلقات ثلاثة تخدم كلها السياسة الدينية لبني العباس وتتفق مع وجهات نظر البيت الحاكم :

أ ـ الاسلام كما يفهمه أهل السنة والجماعة عامة لأن أهل الكلام والاعتزال هم في جملتهم وأساسهم من حملة الحديث وعلوم الدين •

ب ـ عدم الاهتمام بالأمور السياسية وبالتالي اهمال مشكلة

الإمامة[1] وهي المحور في الفكر العلوي فإن بحثوها وقفوا في معظمهم موقف الرفض من بعض المبادىء الشيعية فيها كالنص على إمامة علي وحصر الإمامة في بيت محدد أو يقول بعصمة الائمة •

حـ ـ التصدي للأفكار والريب المعادية للاسلام التي تحملها أو تثيرها الجماعات الأخرى غير المسلمة • ضد الاسلام • وكـان الخلفاء يحتفظون بصداقة هؤلاء المتكلمين ضمن إطار سياستهم في التقرب من الفقهاء ومنعاً لهم مـن ان يميلوا بالاهمال المتمـادي الـى الجانب العلوي •

وعلى هذا الاساس نرى ان المهدي ، حين تفشت الزندقة وأراد حربها «أمر المتكلمين أن يضعوا الكتب على أهل الالحـاد»[2] وكان «أول خليفة يأمر الجدليين من أهـل البحث مـن المتكلمين بتصنيف الكتب في الرد على الملحدين وأقاموا البراهن على المعاندين وأوضحوا الحق للشاكين[3] وقد ذكروا عن المهدي وأيضاً احترامه كأبيه لذكرى عمرو بن عبيد • فكان إذا حضر المحدث شبيب بن شيبة عنده قال : يا ابا معن ! حدثنا ، وزين مجلسنا بحديث عمرو بن عبيد •••» ولعله لهذه الاسباب اتهم بعض المؤرخين المهدي بالقدرية (وهو اسم آخر للاعتزال)

---

(١) قال النظام من المعتزلة بالنص في الامامة ومال الي التشيع ووقع في كبار الصحابة (انظر الشهرستاني ـ الملل والنحل ص ٥٧) وقال عمرو ابن عبيد والنظام وثمامة بقبول خلافة ابي بكر . وبعضهم رأى ان الإمامة غير واجبـة وبعضهم رأى انها في قريش . وهذا يعني ان هذه المسألة لم تكن اساسية في المذهب وتخضع للرأي .

(٢) اليعقوبي ـ مشاكلة الناس ص ٢٤ والمسعودي ـ مروج

(٣) ابن المرتضى الزيدي ـ طبقات المعتزلة ص ١٢٢ .

وقد نفي التهمة عنه الخطيب البغدادي[١] ••• وجـاء الرشيد فكان الأمر في عهده مختلفاً : «كان يحيى بن خالـد البرمكي يحب الحكمة والكـلام والنظر ففي أيامه كثر المتكلمون وجادلوا وناظروا وصنفوا الكتب منهم هشام بن الحكم وضرار بن عمرو ومعمر بن عمر •••»[٢]

ويروي المسعودي أنه كان ليحيى البرمكي «مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الاسلام وغيرهم من أهل الآراء والنحل ••» وقد اجتمع في مجلسه مرة العلاف والنظام من المعتزلة والحكم وابن الهيثم من متكلمي الشيعة وأبو مالك الحضرمي مـن متكلمي الخوارج[٣] ويذكرون بالمقابل أن موقف الرشيد من أهل الكلام لم يكن هذا الموقف نفسه • يروي الجهشياري أن كلثوم بن عمرو العتابـي «كان يقول بالاعتزال فاتصل ذلك بالرشيد وكثر عليه في أمره فأمر فيه بأمر عظيـم فهرب الى اليمن فكان مقيماً بها ••» حتى احتال يحيى بن خالد فشفع له عند الرشيد وعاد[٤] • ويقول ابن المرتضى : إن الرشيد منع من الجدال في الدين وحبس أهل علم الكلام[٥] تحت تأثير قوم لم يعرفوا الكلام والمرء عدو ماجهل •••» ونسمع في العهد نفسه عن سجن بشر ابن المعتمر صاحب المعتزلة في البصرة بأمر الرشيد • وعن قطع يد عيسى الطبري الزاهد من قبل محمد بن سليمان العباسي والي البصرة[٦] •

(١) الخطيب البغدادي ـ تاريخ بغداد ج٢ ص ٣٠١ .
(٢) اليعقوبي ـ مشاكلة الناس ص ٢٥ .
(٣) المسعودي ـ مروج الذهب ج٢ ص ٣٨٠ ـ ٣٨٣ .
(٤) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ .
(٥) ابن المرتضى ـ طبقات المعتزلة ص ٥٤ وص ٥٦ .
(٦) المصدر نفسه صفحات ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٦

ويبدو أننا يجب أن نفرق في سياسة الرشيد الدينية ما بين الفترة البرمكية والفترة التالية لها فقد كان في الفترة الاولى يسمع الجدل ويقبل أهل الكلام في مجلسه[1] كما يجب أن تفرق ما بين المتكلمين والمعتزلة ذوي الميول العباسية أو الحيادية وبين ذوي الأهواء العلوية • فإذا كان الرشيد يكره عامة الاعتزال والمعتزلة فقد كان يكره منهم خاصة ويضطهد أصحاب الآراء السياسية المناهضة ويظهر أن أهل الكلام عامة وقفوا موقف الانكار من نكبة البرامكة لسابق صلتهم معهم فأمر الرشيد عندئذ بمنع الجدل في الدين لمنع الجدل في السياسة خاصة وحبس أهل علم الكلام • ويبدو من فرضه بعض الاوضاع الخاصة على أهل الذمة أن تشدده في السياسة الدينية السنية قد بلغ أوجه في ختام حياته • ويقال إنه تراخى في سياسته ضد أهل الكلام حين فشل رجل محدث أرسله الى الهند للمناظرة في الدين أمام ملكها ثم نجح في المناظرة بعض علماء الكلام[2] •

حـ ـ الاعتزال والمحنة على أن العاصفة السياسية التي أصابت الدولة العباسية زمن الأمين والمأمون وامتدت اكثر من عشر سنوات (١٩٤ ـ ٢٠٤) أتت في أعقابها بانقلاب كبير في السياسة الدينية لهذه الأسرة • على يد المأمون تمثل في ثلاث نقاط : لعن الامويين • واعتبار علي أفضل الناس بعد رسول الله واعلان الاعتزال المذهب الرسمي للدولة ••• أعلن المأمون هذا الانقلاب ٢١٢ وقد عرفت الفترة التي دامها

---

(١) انظر مثلا ابن المرتضي ـ طبقات المعتزلة الصفحات ٤٢ ، ٥٦ ،

(٢) يروى ابن المرتضي لذلك قصتين متقاربتين في المؤدى العام (انظر طبقات المعتزلة ص ٥٥ ـ ٥٦ وص ٥٨ ـ ٥٩ •

الانقلاب لدى أهل السنة بالمحنة لما رافقها من اضطهاد وهزة دينية عنيفة :

أ ــ أما لعن الأمويين فلقد لا يكون فيه من خروج على الموقف الرسمي للبيت العباسي منذ انتصر هذا البيت . ولكن يقظة الهجوم العباسي على بني أمية وعلى معاوية بعد هجعة دامت اكثر من نصف قرن دليل على أن فريقاً من الناس قد جعلوا يقارنون بين البيتين ويفضلون بني أمية . ظهر ذلك لدى العامة حتى لقد كانوا يشغبوا وأثاروا القلاقل للمأمون والمعتضد والمطيع[1] كما ظهر لدى بعض العلماء . فقد جمع أبو عمر الزاهد أحاديث في فضائل معاوية كما وجد منهم من يدافع عن حق الأمويين في الخلافة كعلي بن أحمد الاندلسي[2] . وقصة اللعن جاءت متأخرة في عهد المأمون كما مرت عابرة أيضاً إذ يذكرون أن المأمون سنة ٢١١ (أو سنة ٢١٢) بعث فنادى : برئت الذمة من أحد من الناس ذكر معاوية بخير أو قدمه على أحد من أصحاب رسول الله ...[3]

ولقد عجب الناس من مبادرة المأمون هذه حتى حاروا في سببها وتنازعوا ويذكر المسعودي من بين الأسباب أن المأمون سمع حديثاً عن معاوية أنه رفض صلة رحم بني هاشم وطلب دفن ذكرهم فبعثه ذلك على أن أمر بالنداء ... وعلى أي حال فيبدو أن المأمون تردد قبل ذلك

---

(١) انظر ابن ابي الحديد . شرح نهج البلاغة ج ٣ ص ٤٤٢ وما بعدها .

(٢) انظر ياقوت . معجم الادباء ج٥ ص ٨٦ و ج٧ ص ٢٩ .

(٣) المسعودي ــ مروج الذهب ج ٤ ص ٤٠ . السيوطي ــ تاريخ الخلفاء ص ٣٠٨ .

كثيراً في الأمر ذكر ابن أبي طاهر «أن المأمون كان هم بلعن معاويةوأن يكتب بذلك كتاباً يقرأ يوم الدار وجفل الناس فثناه عن ذلك يحيى بن اكثم وقال : يا أمير المؤمنين إن العامة لا تحتمل هذا وسيما أهل خراسان ولا تأمن أن تكون لهم نفرة . وإن كانت لم تدر ما عاقبتها . والرأي أن تدع الناس على ما هم عليه ولا تظهر لهم أنك تميل الى فرقة من الفرق فإن ذلك أصلح في السياسة ...» ثم ذكر المأمون اقتناعه بهذا لثمامة بن أشرس ، صديقه المعتزلي . فهون عليه أمر العامة وأنه لو وجه إنساناً على عاتقه سواد ومعه عصا لساق إليه عشرين ألفاً منهم[1] .

ويبدو أن المأمون أقدم على النداء في النتيجة «وأنشئت الكتب إلى الآفاق بلعن معاوية على المنابر ... فأعظم الناس ذلك وأكبروه ...»[2] .

ب ــ وأما تفضيل الإمام علي بن ابي طالب فقضية تتناقض مع وجود البيت العباسي نفسه . ولعلها قضية فكرية سياسية معاً دخلت على المأمون عن طريق ميوله الكلامية وتأثير صديقه المعتزلي ثمامة بن أشرس من جهة كما كانت نتيجة موقف البيت العباسي المناوىء له من جهة أخرى . فالمأمون انعزل ما بين سنة ١٨٦ وسنة ٢٠٤ في خراسان وقد وقف البيت العباسي في بغداد ضده أولا مع الأمين سنة ١٩٥ ثم وقف ضده ثانية مع ابراهيم المهدي وجعله الخليفة سنة ٢٠٢ ثم وقف

(١) ابن أبي طاهر ــ تاريخ بغداد (بغداد في تاريخ الخلافة العباسية) ــ طبع بغداد سنة ١٩٦٨) ص ٥٠ .

(٢) المسعودي ــ مروج الذهب ج٤ ص٤١

ثالثة مع ابن عائشة سنة ٢١٠ بينما كان المأمون نفسه يتجه فكرياً وجهة أخرى إذ كان في أول خلافته «••• يذهب مذاهب ملـوك الفرس ويشتهي قراءة الكتب القديمة»(١) • ويبدو أنه كان يناقش في خراسان الموقف العلوي ويتأثر برأي ثمامة بن اشرس المعتزلي وكان أول نتائج تلك المناقشات والتأثير أنه استدعى إليه من مكة الامام علياً الرضى وجعله ولياً للعهد سنة ٢٠١ •

غير أن المأمون لم يستطع فيما يظهر أن يحتمل النتائج السياسية التي نجمت عن ذلك القرار فتحرك الى بغداد وتخلص على الطريق من الامام الرضى • كما طرح بعد أشهر من وصوله شعار الخضرة العلوي وعاد الى السواد العباسي ولكنه مع ذلك ، ورغم استقراره في الخلافة. لم يقبل القبول الحسن في بغداد • وقد قيل الكثير من الشعر في هجاء المأمون كقول ابن أبي نعيم :

ما أحسب الجـور ينقضي ... وعلى الأمة وال من آل عباس !

ويذكرون أنه كان يجد الرقاع بشتمه وتهديده في الطريق للدرجة التي أمر بسنع رفعها إليه كما كان يلعن أحياناً في مجالس الفقهاء حتى اضطر لمعاتبة بشر المريسي في ذلك(٢) أو يشتمويسمع الشتم فيتجاهله من الخدم والعامة(٣) • ولعل السبب يعود الى احتفاظه بميله العلوي

(١) اليعقوبي ـ مشاكلة الناس لزمانهم ص ٢٧ ـ ٢٨ ،
(٢) ابن أبي طاهر ـ تاريخ بغداد ص ٣٧ وص٥٣ .
(٣) انظر السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص ٣٢٠ وانظر المسعودي ج٤ ص ٢٢ .

والجهر به في بغداد . ذكروا أن السندي بن شاهك (صاحب شرطة الرشيد في السابق) خرج من عنده مرة يصيح في الحاشية :

ـ خبر عجيب ! قالوا ما هو . قال سمعته اليوم قدم علي بن أبي طالب على العباس وما ظننت أني أعيش حتى أسمع عباسياً يقول هذا ؟ فقال الفضل بن الربيع تعجب من هذا ؟ هذا والله كان قول ابيه قبلـه ![1] .

وذكروا خبراً آخر أنه بعد أن دخل بغداد أمر قاضيه يحيى بن اكثم أن يجمع لـه وجوه الفقهاء وأهل العلم في بغـداد فاختار منهم أربعين رجلا وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائل وأفـاض في فنون الحديث والعلم فلما انقضى المجلس قال المأمون ليحيى كره ذلك المجلس طوائف من الناس : فطائفة عابوا علينا ما نقول في تفضيل علي بن أبي طالب ... وظنوا أنـه لا يجوز تفضيـل علي إلا بانتقـاص غيره من السلف . والله مـا استحل ... أن انتقص الحجـاج فكيف السلف الطيب ...»[2] وذكروا كذلك أن آل البيت العباسي عاتبـوه في بره الشديد لآل علي وأنه ولاهم واعطاهم فقال . لم يول أبو بكر ولا عمر ولا عثمان أحداً من بني هاشم فلما جاء علي ما ترك أحـدا حتى ولاه شيئاً فكانت هذه منة في اعناقنا حتى كافأته في ولده بما فعلت ...[3] ونجد المأمون بالمقابل يأتي بالقاضي بشر بن الوليد الكندي قاضي بغداد أمام الفقهاء ، فيناقشه في حكم أصدره ضد رجل اتهم بشتم أبي بكر وعمر فحكم بضربه وإطافته على جمل وقال المأمون : لقد أخطأت بهذا

(١) ابن طيفور ــ تاريخ بغداد ص ٩ .
(٢) المصدر نفسه ص ٤٠ .
(٣) السـيوطي ــ تاريخ الخلفاء ص ٣٠٨ .

خمس عشرة خطيئة وبعد أن عددها له أمر بـه فحبس بـداره حتى مات ...[1] .

ويحفظ لنا ابن عبد ربه محضر جلسة جادل فيها المأمون أربعين فقيهاً في فضل علي ويستغرق حديث المأمون فيها سبع صفحات[2] تشبه أن تكون من وضع بعض المتكلمين المتمرسين . وكل هذا يعني أن المشكلة كانت قائمة في نفس المأمون وقد انتهى سنة ٢١٢ بإعلانها على الناس مع لعن معاوية ، يقول السيوطي إنه أمر أن ينادي برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير وأن أفضل الخلق بعد النبي عليه السلام علي بن أبي طالب على أنه من الهام أن نسجل هنا أن هذا التفضيل العلوي بقي لدى المأمون في الحدود النظرية دون أن يتحول الى التطبيق السياسي بل كان المأمون يرفض تنائجه السياسية : ومن أدلة ذلك أنه لم يتهاون مع العلويين في الأمر السياسي أبداً . وقد بلغه عن عبد الله بن طاهر أنه «يميل الى ولد أبي طالب وكـذا كان أبوه وجده ... فدفع المأمون ذلك وأنكره...» فلما أكدوه لـه «دس رجلا الى ابن طاهر في هيئة النساك يظهر أنه يدعو للقاسم بن ابراهيم بن طباطبا العلوي ، ويتقرب الى بطانـة ابن طاهر ليعرف حقيقته ... فلما تبين له أنه على الولاء العباسي «عاد إلى المأمون فأخبره الخبر فاستبشر وقال : ذاك غرس يدي ...»[3] وعلى أي حال فإن المأمون مات وشيكاً بعد ذلك ولم يعهد بالخلافة لعلوي ولكن عهد بها الى أخيه المعتصم .

---

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٦٨ — ٤٦٩ .
(٢) ابن طيفور تاريخ بغداد ص ٧٩ — ٨٠ .
(٣) ابن عبد ربـه — العقد الفريد ج٥ ص ١٩٥ — ١٠٢ .

ح ـ وأما القول بخلق القرآن فكانت هي المحنة الحقيقية • وقد نضجت فكرتها لدى المأمون بالتدريج أيضاً ولعلها ظلت رأيه الخاص عشر سنوات أو أكثر قبل أن يعلنه للناس ثم انتظـر بعد ذلـك ست سنوات أخرى قبل أن يفرضه فرضاً على الدولة كمذهب رسمي •

يقول اليعقوبي : إن المأمون كان يشتهي كملوك الفرس قراءة الكتب القديمة فلما قدم العراق اطرح ذلـك وأظهر القـول بالعدل والتوحيـد وجالس المتكلمين والفقهاء والأدباء وأقدمهـم من البلدان وأجرى لهم الأرزاق فكثر المتكلسون في أيامه ووضع كل امرىء كتاباً ينصر قوله ويرد على من خالفه •••»[1] •

والواقع أن المأمون استطاع أن يشغل الناس في بغداد بالجدل الديني عن السياسة فتحولت العاصمة الى مركز غليان فكري زاد من نشاطه كثرة ما ترجم في تلك الفترة نفسها وبأمر الخليفة وبدعمه وماله من كتب الفلسفة وعلوم الأوائل على أيدي التراجمة من السريان كما سهل سبيل الوصول إلى الكتب وهي غالية الاقتناء بما وسع وأغنى به بيت الحكمة من الكتب الموضوعة والمترجمة للمطالعة والنظر •••[2] .

وأضاف المأمون الى ذلك كله أنه نظم مجالس اسبوعية يجلس فيها يوم الثلاثاء للفقهاء[3] ويطرح عليهم المسائل ويشترك في مناقشتها،

(١) اليعقوبي ـ مشاكلة الناس ص ٢٨ .

(٢) من المعروف أن مؤسس بيت الحكمة أو خزانة الحكمة هـو الرشيد في الغالب كما يظهر من نصوص ابن النديم والقفطي .

(٣) المسعودي ـ مروج الذهب ج ٤ ص ١٩ ، السيوطي تاريخ الخلفاء ص ٣٢٧ .

أو يغري بعضهم ببعض ويجمع الأضداد في الفكر ليسمع الجدل ... فتارة بين إمامي وزيدي ، وتارة بين معتزلي وآخر وقد اختاروا له منذ دخل بغداد مائة فقيه لمجلسه[1] .

كان هذا يجري في الوقت الذي كانت فيه بعض الطوائف الأخرى غير الاسلامية ناشطة كل النشاط للوقوف فكرياً في وجه الاسلام وفي وجه تحول أتباعها الطوعي إليه لا عن طريق تجهيزهم بكافة المبادىء والاسلحة لمقاومته فقط ولكن عن طريق الهجوم أيضاً . كانت المانوية خاصة والنسطورية واليعقوبية تصارع بقوة لتحتفظ بأتباعها عن طريق الهجوم على الدعوة الاسلامية وكان دعاتها يبشرون التبشير النشيط بأفكارها مما جعل الموقف الاسلامي مضطراً بالضرورة لاستخدام «العقل» و «المنطق» والحجج الفلسفية في المعركة . وقد نستطيع لحد كبير أن نقول إنه لولا «الزندقة» وحركتها المعقدة الهجومية النشيطة لما كان الاعتزال أو على الأقل لما أخذ شكله العقلي المتطرف ولما حاول أن يصبح مذهب الدولة المفروض . لقد كان هو «جواب» الاسلام على حركات الزندقة أي على محاولات التشكيك والزيغ التي تعرض لها .

ويبدو أن المأمون كان خلال ذلك كله يفتش عن الموقف السياسي الديني العقلي الذي يحسم الأمر خاصة مع العقائد الأخرى ليفرضه مذهباً رسمياً على الناس . كما أنه من الناحية السياسية لم يكن

---

(1) انظر ابن طيفور ــ تاريخ بغداد الصفحات ١٥ ــ ١٦ ، ص ٣٠ ، ص ٣٥ ، ص ٤٠ وص ٤٢ .

بالراضي عن البيت العباسي الذي كان أهل السنة والحديث والجماعة قد التفوا حوله ولا يريد تسليم الأمور للبيت العلوي الذي التف الشيعة بمذاهبهم الفكرية إليه . فاختط الطريق الفكري السياسي بين الطرفين . ويذكر المسعودي[1] ، في هذا الصدد خبراً هاماً إذ يروي أن المأمون كان في مجلسه للمناظرة يوم الثلاثاء إذ استأذن في الدخول عليه رجل في ثياب بيض غلاظ مشمرة ليناظره . ودخل الرجل ونعله في يده وقال للمأمون : أخبرني عن هذا المجلس الذي أنت فيه . جلسته بإجماع الأمة أم بالمغالبة والقهر ؟ قال المأمون : لا بهذا ولا بهذا بل كان يتولى أمر المسلمين سلطان قبلي أحمده المسلمون إما على رضى وإما على كره فعقد لي ولأخي معي ... فلما صار الأمر إلي علمت أني احتاج الى اجتماع كلمة المسلمين في مشارق الارض ومغاربها على الرضى . ثم نظرت فرأيت أني متى تخليت عن المسلمين اضطرب حبل الاسلام وانتقضت اطرافه وغلب الهرج والفتنة ... فتعطلت احكام الله وانقطع الحج والجهاد ولم يكن لهم سلطان يجمعهم ويسوسهم وانقطعت السبل ولم يؤخذ لمظلوم من ظالم فقمت بهذا الأمر حياطة للمسلمين ... الى أن يجتمع المسلمون على رجل تتفق كلمتهم على الرضى به فأسلم الأمر إليه واكون كرجل من المسلمين[2] ... فقال الرجل منصرفاً السلام عليكم ورحمة الله ! ...

وقد انتهى جدل المأمون كله ، من الناحية العملية الى أن يعلن سنة

(١) المسعودي - مروج الذهب ج ٤ ص ١٩ - ٢١ ، وقد نقله السيوطي مختصرا في تاريخ الخلفاء ص ٣٢٧ .

(٢) يلاحظ أن النص يوضح واجبات الخليفة في نظر العصر وهي ست : إنفاذ احكام الله . الحج . الجهاد . سياسة الجماعة . امن السبل ودفع المظالم .

٢١٢هـ القول بخلق القرآن وأن يأخذ الناس بذلك بمعنى أن يصبح الاعتزال المذهب الرسمي للدولة •

وليست مشكلة خلق القرآن جديدة من ابتكار عهد المأمون فقد قال بها منذ أواخر العهد الأموي بدمشق الجعد بن درهم معلم مروان ابن محمد ثم طلب فهرب وقتله عليها في الكوفة خالد بن عبد الله القسري • وقال بها جهم بن صفوان الترمذي فقتله سالم بن أحوز في مرو سنة ١٢٨ وقال بها بشر المريسي أيام الرشيد وظل يدعو إليها أربعين سنة ويؤلف الكتب فلا يأبه أحد للأمر وقد تهدده الرشيد عليها بالقتل فتوارى مدة خلافته كما قال بها كذلك المرداد أبو موسى كبير المعتزلة في بغداد في عهد الرشيد وأثارها من بعده بشكل عنيف لفت إليها الأنظار حتى أضحت من أهم المسائل في مدرسة بغداد الاعتزالية وليست مشكلة خلق القرآن من جهة أخرى ايمانية ولا سياسية ولكنها بنت المنطق البحت ، وبنت المنطق الصوري ايضا • فإذا كان لا قديم إلا الله وكل ما عداه محدث وإذا كان القرآن محدثاً (لأنه لو كان قديماً لشارك الله تعالى في قدمه وهذا مرفوض) وإذا كان كل محدث مخلوقاً فالقرآن إذن مخلوق • ولكن هذه المسألة تحولت ، بأمر الخليفة المأمون وأخيه من بعده (والمعتصم) وابن أخيه (الواثق) لتصبح رمز الايمان بسبب ارتباطها بالتوحيد وعدم تعدد صفات الله • وتحولت الى موقف سياسي — ديني مزق الجماعة التي تطيف بالخلافة العباسية مدة تزيد على ١٦ سنة هي التي عرفت بالمحنة •

على أن هذه المحنة لم تبدأ بالاعلان المثلث الأطراف الذي تم سنة ٢١٢ بلعن معاوية وتفضيل علي على الصحابة كافة والقول بالاعتزال وخلق القرآن فقد نجمت عن ذلك الاعلان هزة دينية عنيفة صدمت

أهل السنة والجماعة والحديث والعامة ، في الوقت الذي كان أثر فقهاء السنة والشيعة الكبار قد بلغ الأوج وتأيد بظهـور المذاهب الفقهية الكبرى تباعاً وكان بعض أصحابها المشهورين ما يزالون أحياء واسعي النفوذ مثل أحمد بن حنبل ... وقد سجل المسعودي والسيوطي تلك الهزة بقولهما : «.. فأعظم الناس ذلك وأكبروه .واضطربت العامة..» «... فاشمأزت النفوس منه وكاد البلد يفتتن»[1] وقد شعر المأمون بذلك فيما يظهر «وأشير عليه بترك ذلك فأعرض عما كـان هم به» أو «لم يلتئم له من ذلك ما أراد فكف عنه ... الى سنة ثمان عشرة» ولعل أشد ما أثار الفقهاء والمحدثين أن المأمون قـد انتصر للمذهب العقلي على المذهب النقلي الذي كان التقى وكان مرور الزمن قد فعلا فعلهمـا في استقراره بالنفوس ويبدو أن عدداً مـن الظروف شغل المأمون عن متابعة الأمر بالتنفيذ الفعلي ولكن إثارته شحذت ذلك العداء الذي كان يزداد باستمرار بين أصحاب المنحى النقلي من المحدثين وبين أصحاب المنحى العقلي من المتكلمين والمعتزلة خاصة ولم يلغ المأمون الامر وإن كان لم يتابع الالحاح بتنفيذه . وبداله سنة ٢١٥ أن يقوم بواجبـات الإمامة في الجهاد فخرج منها في الجيش فلم يعدلها بعد ذلك لأنه شغل بحروب الروم وإخماد ثورة مصر وتدبير أمر الشام عن العودة . ثم نجده فجأة وهو في دمشق سنة ٢١٨ . يعود فيعلن أخذ النـاس جميعاً بخلق القرآن ... وكان بينه وبين الموت يومذاك أشهر معدودة أربعة .

ويبدو أن فرض الاعتزال كمذهب رسمي عباسي على الناس كان

---

(١) المسعودي ـ مروج الذهب ج ٤ ص ٤٠ والسيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص ٣٠٨ .

يعتمل في صدر المأمون منذ زمن طويل وكان في حاشيته تياران :

أحدهما يمثله يحيى بن اكثم قاضي القضاة ويزيد بن هارون الواسطي لا يقول بفرض رأي على الناس وقد روي عن المأمون قوله : لولا مكان يزيد لأظهرت القول بخلق القرآن ...

والآخر يمثله ثمامة بن الأشرس واحمد بن أبي دؤاد وكان من المتشددين في رأيهما الاعتزالي لا يريان الايمان إلا من خلاله ولا يأبهان للعامة ومعارضتهم لأنهم أقل من أن يفهموا الدواعي الدينية والسياسية الداعية لإدخال العقل الجدلي على الايمان ..

وقد توفي يزيد بن هارون سنة ٢٠٦ ثم توفي ابن اكثم سنة ٢١٧ وتولى قضاء القضاة مكانه ابن أبي دؤاد فحمل المأمون على امتحان الناس بهذه المسألة رمزاً للايمان بالدين وللولاء للدولة .

وبالرغم من أن المأمون توفي بعد أربعة أشهر من اعلان الاعتزال إلا إن بقاء ابن أبي دؤاد في منصبه ست عشرة سنة بعد المأمون مدة أيام المعتصم والواثق ، جعل المحنة تدوم تلك المدة جميعاً معه ...

بدأت المحنة بأن أرسل المأمون وهو في دمشق الى والي بغداد اسحق بن ابراهيم بكتاب طويل حفظ الطبري وابن طيفور نصه وفيه أن على خليفة المسلمين حفظ الدين وأن الجمهور الأعظم من الرعية جاهل قاصر العقل ولهذا يخطيء في فهم التوحيد . ولا يفرق بين الله وبين ما خلق ثم جاء بالآيات القرآنية التي يفهم منها خلق القرآن : «إنا جعلناه قرآناً عربياً .» «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير» .. ثم بين أن أناساً جادلوا بالباطل رفضوا ذلك ونسبوا أنفسهم الى السنة

وأنهم أهل الحق والدين والجماعة . فاستطالوا بذلك على الناس ومال قوم من أهل السمت إلى سيء آرائهم واولئك رؤوس الضلالة المنقوصون من التوحيد ... وانتهى بأن طلب الى الوالي أن يجمع من لديه من القضاة ويقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين ويمتحنهم فيما يقولون. فمن لم يقل بخلق القرآن تلغى شهادته . وكتب المأمون بمثل هذا الكتاب الى مصر والكوفة .

ثم تلاحقت كتب المأمون : اختار أولا سبعة من كبار المحدثين في بغداد منهم ابن سعد (صاحب الطبقات الكبرى) فطلب إشخاصهم الى دمشق ولعله قدر أنهم قد يكونون رأس الفتنة وامتحنهم بنفسه فأقروا أمامه بما يرى . ثم عاد المأمون فألحق بذلك كتاباً ثالثا للتوسع في فرض الامتحان على جماهير المحدثين والقضاة والفقهاء ... وهنا بدأت المعارضة تظهر من الكثيرين الذين رفضوا أن يقولوا بقول المعتزلة. فأتى كتاب المأمون الرابع تفضح أحوالهم وما يرتكب بعضهم من المخازي ومنها الربا والإثراء الحرام والسرقة ويأمر بعرضهم على القتل فمن أبى حمل الى الخليفة فلحق به الى طرسوس ، فحمل إليه اثنان .. ولكن الموت أدرك المأمون قبل أن يصلا . ثم أدرك الموت أحد الاثنين وهو عائد الى بغداد فتركزت رئاسة المعارضة في الثاني وهو أحمد ابن حنبل ...

قصة المحنة بعد ذلك هي قصة اضطهاد ابن حنبل وأمثاله من قبل المعتصم ثم الواثق تحت تأثير القاضي ابن أبي دؤاد . فقد أوصى المأمون أخاه حين عهد إليه بالخلافة من بعده أن «يأخذ بسيرته في القرآن» وأن يطيع رأى القاضي ولم يكن المعتصم بذي علم . حتى إنه

«كان يكتب كتابة صفيفة» كما قال الصولي فحمل أمر أخيه على العمياء «وأمر أن يعلموا حتى الصبيان ذلك» ...

وحبس ابن حنبل منذ وفاة المأمون ثم عقد له مجلس للمناظرة مع ابن أبي دؤاد سنة ٢٢٠ وقد دام المجلس ثلاثة أيام وهو مصر على الرفض فأمر المعتصم بضربه بالسياط حتى تعددت جراحاته وأعيد الى السجن . وكان ما جرى عليه نموذجاً لما جرى على أمثاله ... وإذا لم يقتل لزهده وضجيج الناس من أجله فقد قتل كثير من العلماء غيره . «وأباد والي مصر فقهاءها وعلماءها الى أن أجاب غالبهم بخلق القرآن»[1] وبعضهم هرب أو سجن .

ولم يستطع الواثق الذي ولي الخلافة سنة ٢٢٧ أن يغير من رأي ابن حنبل وقد واجه معارضاً آخر أشد خطراً وإن لم يكن أكثر علماً وحرمة من ابن حنبل هو :

أحمد بن نصر الخزاعي : حفيد أحد نقباء بني العباس . وكان للرجل رصيد واسع لدى العامة والناس منذ عمل في حركة الأمر بالمعروف في بغداد سنة ٢٠١ ــ ٢٠٤ كما كان له من دينه العميق ودالته ودالة أبيه وجده على الدولة ما سمح له بالجرأة على الواثق في قضية خلق القرآن جرأة بلغت حد الشتيمة بالخنزير أو الكافر . وقد التف حوله بسبب جرأته أهل الحديث خاصة وأعداد كبيرة من المتدينين حتى أضحت حلقاته مركزاً من مراكز المقاومة الدينية الواضحة في بغداد . وسرعان

---

(١) ابن تغري بردى ــ النجوم الزاهرة ج٢ ص ٢١٨ .

ما تحول هذا المركز الى المقاومة السياسية لأن الرجل كان يقول بالثورة على السلطان الجائر منذ أيامه الأولى . وقد تحرك في بغداد ضد المأمون ثم استتر سنوات طويلة زمن المعتصم فلما عاود الرفض للعقيدة الرسمية واعتبرها كفراً طالبه أصحابه بالعمل ضدها سلاحاً لا قولا . ولم يجد بدأ من الاجابة لا سيما بعد أن قصد القاضي أبا دؤاد في بعض الأمر فرده فانصرف ذاماً لــه وجعل يبسط عليه لسانه ويشهــد عليه (كالواثق) بالكفر »[1] .

وأخذت حركة ابن نصر شكل المؤامــرة على سلامــة الدولة . والثورة لخلع الواثق نفسه : هيئت لهــا البنــود والأعلام . ونظمت عناصر الثورة وحددت لها مراكز التجمع عند ضرب الطبل ساعة الصفر وجمعت لها مخازن الأسلحة . تولى ذلك أثنان من اتباع ابن نصر . ولكن اختلاف موعد البدء بالثورة كشف بعض الثائرين الذين انحازوا إلى ناحية صحراوية في خارج بغداد فأخذوا وأقروا على الحركة كلها (شعبان سنة ٢٣١) وقبض على أحمد بن نصر فقيد مع الزعماء الآخرين وسيق الى سامراء مع أعلامه التي كانت خضراء فيهــا حمرة . وجلس الواثق للرجل مجلساً عاماً يحاكمه فيــه ابن أبي دؤاد . «ولم يناظره الواثق ــ كما يقول الطبري ــ في الشغب ولا فيما رفع إليه من ارادته الخروج عليه» ولكن سأله في خلق القرآن فأبى الإقرار به «وحضر قوم فشهدوا عليه بشهادات» ويقال إنــه أغلظ القول للواثــق أو اجترأ في الجواب له فشتمه الواثق ثم قام بنفسه فقتله . ونصب رأسه في بغداد وفي أذنه رقعة كتب فيها «هذا رأس الكافر المشرك الضــال أحمد بن نصر ... أقر بالتشبية وتكلم بالكفر فاستحل بذلك أمير المؤمنين دمه

---

(١) اليعقوبي ج٢ ص ٤٨٢ .

ولعنه ...»[1] وأما أصحابه الكبار فأثقلت لهم القيود «في حبوس الظلمة ومنعوا من أخذ الصدقات التي يعطاها أهل السجون ومنعوا من الزوار وهم نيف وعشرون رجلا» .

كانت هذه الحركة ، في الواقع ، قمة المقاومة العامة لمذهب خلق القرآن وقد تركت أثرها السيء العميق جداً في نفوس الناس لدرجة أن المتوكل فيما بعد حين هم بانزال رأسه شعر أن حركة عامية واسعة ستقوم للاحتفال به وبدفنه فأمر رغم سياسته السنية المخالفة لخلق القرآن بإبقائه في مكانه[2] حتى أنزل سنة ٢٣٧ ... ومع ذلك فقدأخذ العامة يتمسحون بجنازته . وبالرغم من ذلك فإن الواثق استمر في سياسته المعتزلية وبالغ بها حتى لقد أخذ بها العامة وأخذ بها الأسرى فمن أقربها فودي به ومن لم يقر بخلق القرآن ترك في الأسر ...

ولم تنته المحنة إلا بعد سنتين من خلافة المتوكل الذي لم يكن يحمل حماسة سابقيه ولا يؤمن بالاعتزال كله . فلما كانت سنة ٢٣٤ «نهى فيها عن القول بخلق القرآن وكتب بذلك إلى الآفاق» وتنفس أهل السنة والحديث الصعداء بعد طول كبت وشدة . وبالرغم من ظلمه وعسفه فإن بعض الناس جعل الخلفاء ثلاثة : أبا بكر وعمر بن عبد العزيز والمتوكل في إحياء السنة ... وما من شك في أن رفض الناس للاعتزال كان السبب الاساسي في عودة المتوكل والخلفاء من بعده عنه.

---

(١) انظر لدى الطبري ج٩ ص ١٣٥ – ١٣٩ تفاصيل ذلك (٣/١٣٤٣ – ١٣٥٠). وانظر السيوطي تاريخ الخلفاء ص ٣٤١ واليعقوبي ج٢ ص٤٨٢

(٢) انظر تفصيل ذلك لدى الطبري ٩ ص ١٩٠ (٣/١٤١٢ – ١٤١٣).

لقد اضطروا كي لا ينفصلوا عن الناس أن ينفصلوا عن المذهب • ويعودوا إلى السنة التي سبق لأسلافهم دعمها في الجماعة وإذا كانت محنة «الاعتزال» محاولة من العباسيين لزيادة تحكمهم في الدولة والفقه بالجماعة السنية الاسلامية خطوة أخرى نحو «عقلنة» الاسلام السني دينياً من جهة ونحو «دولنة» الأسلام السني سياسياً من جهة أخرى وجعله من أعمال الدولة وفي إطار آرائها وتوجيهها فقد فشلت الخطوة في الناحيتين وخرج المذهب السني من المحنة أشد قوة وتغلغلا في الناس من ذي قبل وثبت أكثر فأكثر كمذهب رسمي عباسي ولكن بعد أن ترك الجدل المنطقي العقلي الكثير من آثاره فيه ولعل أهم تلك الآثار أن الناس ازدادوا تعصباً للتقليد وتمسكاً بالحديث واعتماداً في الفقه عليه• كما أثبتت المحنة أن المذهب السني أضحى من عمق الجذور والقوة بحيث لم يعد للمذاهب الأخرى وخاصة العلوية مجال النشاط ضده في المشرق فلجأت بعد ذلك إما الى السر والحركات السرية والباطنية وإما الى المغرب الاسلامي هرباً •

وأثبتت كتلة الفقهاء والمحدثين أخيراً أنها وإن كانت ربيبة الحكم العباسي وتدين لـه بالدعم والقوة إلا أنها سرعان ما أضحت هي القوة المؤثرة في الجماعات الاسلامية دون الخلفاء الذين عزلهم «الاعتزال» وأبعدتهم أيام المحنة عن الناس فمشى النظام الديني الأسلامي بعد ذلك مستقلا لا يمثل الخليفة فيه أكثر من الرمز الديني دون أي سلطة فيه ولو نجحت عملية الاعتزال لتحولت الخلافة الى نظام يلعب في العقيدة الدينية ما يشبه الدور الذي لعبه اباطرة بيزنطة في قيادة العقيدة المسيحية •

الفصل الثاني

السياسة مع الذمة

موقف العباسيين الأوائل من أهل الذمة يكاد يكون في جانب من من جوانبه الجزء المتمم لسياستهم الدينية ولكنه من ناحية اخرى صورة لعلاقتهم إدارة وسياسة وعملا مع جزء كبير من سكان الدولة الاسلامية يكاد يكون نصف السكان . ومن هذا وذاك تأتي ضرورة بحث هذا الموقف في إطاره التاريخي كجزء من تاريخ بني العباس .

الموقف من اهل الذمة (النصارى واليهود والمجوس)(١)

كان من تمام العمل الديني للخلفاء العباسيين الاوائل ان يقفوا الموقف الاسلامي اللازم من أصحاب الديانات والعقائد الأخرى المقبولة

(١) كتبت الابحاث الكثيرة في كتب التراث في تحديد علاقات النظام الاسلامي بالرعايا غير المسلمين ونجد تلك المباحث في كتب الخراج كما نجدها في كتب الفتوح وفي كتب الفقه والسير . وقد كتب ابو بكر الخلال كتاباً في «أحكام أهل الملل» ضاع أثره وكتب ابن قيّم الجوزية كتاباً في (أحكام اهل الذمة) طبع سنة ١٩٦١ في مجلدين (بتحقيق صبحي الصالح) ولكنها جميعاً مباحث فقهية نظرية وقد نجد لدى ابن القيم شيئاً من التطبيق التاريخي في بعض الفصول مثل فصله في المنع من استعمال اليهود والنصارى في شيء من ولايات المسلمين (ص٢٠٨ ـ ٢٣٦ من الجزء الاول) وقد كتب المستشرق ا.س. تريتون بالانكليزية كتاباً بعنوان أهل الذمة في الاسلام ترجمه حسن حبشي الى العربية وطبع في القاهرة سنة ١٩٤٧ ثم طبع ثانية سنة ١٩٦٧ ويبحث أحوال الذمة في مختلف العهود الاسلامية بشكل عام .

أو غير المقبولة من الاسلام • ذلكم هو الوجه الآخر السلبي للسياسة الدينية • وإذا كان تمييز أهل الذمة ، في بعض الأحيان والأزمات ، وكان رفض الزندقة ومحاربة المانوية نوعاً آخر من إثبات القيام بالواجبات الدينية للإمامة في نظر بني العباس فقد كان في الوقت نفسه صورة أخرى من صور الصراع في العصر العباسي الأول • وهو في هذه المرة ، ما بين الاسلام والعرب من جهة وما بين باقي العقائد والأقوام من جهة اخرى•

أ ـ أهل الذمة : اصطلاح أهل الذمة لم يكن مقصور المعنى على الكتابيين من النصارى واليهود فقط ولكنه كان يشمل أيضاً بإجماع الفقهاء وفي نظر النظام الاسلامي اتباع المجوسية الزارادشتية دون تفريق بينها وبين فروعها (من مزدكية ومانوية) • وقد دخل هؤلاء في حكم الذمة منذ عهد عمر بن الخطاب لما روى عن الرسول من قوله : « سنوا فيهم سنة أهل الكتاب »[1] ومن أخذه الجزية من مجوس البحرين • وقد قبل المأمون في الذمة أيضاً فرقة الصابئة الحرانية عبدة النجوم ولكن كلمة الذمي كانت إنما في ذلك للنصراني واليهودي بصورة خاصة•

وأهمية الموقف السياسي العباسي من الذمة تأخذ أبعادها من الأعداد الواسعة جدا من أبناء هذه الملل المختلفة التي كانت تعيش في ظل النظام الاسلامي مع المسلمين ولعلنا لا نعدو الوقع إن قلنا إنهم كانوا يشكلون في العصر العباسي الأول عامة اكثر من نصف السكان في الدولة ويشكلون اكثرية واضحة في ايران والجزيرة وفي مصر وإذا كان الجناح الغربي من الدولة يدين سكانه الأصليون بالنصرانية وكان الجناح الشرقي على

---

(١) انظر ابن قيم الجوزية ـ أحكام أهل الذمة ج١ ص ١ـ٦ •

الزارادشتية • فقد كانت المذاهب هنا وهناك تتقسم الناس • فلأقباط[1] مصر مذهبهم اليعقوبي الخاص كما كان المذهب الملكاني موجوداً لديهم ولكنه كان هو الغالب في الشام ويليه الماروني بينما كانت المزدكية مسيطرة في شمال غرب ايران والمانوية تختلط مع الزارداشتية في خراسان وما وراء النهر • وكان اليهود موزعين في مختلف المدن الاسلامية من المشرق في خراسان الى اقصى المغرب •

اما العراق ، الذي اختاره العباسيون مقراً لهم والذي كان جغرافيا في وسط الدولة فقد كان في الوقت نفسه نقطة التقاء ونماذج هذه المذاهب كلها • وكان يتميز باحتوائه ما بين السواد حتى مناطق الجزيرة العليا على خليط ديني معقد تتعايش فيه مع الاسلام والنصرانية واليهودية رواسب العقائد الوثنية كالصابئة بنوعيها البطائحي (القريب من النصرانية) والحراني (المتصل بالنجوم) وتزاحم فيه المانوية الديانة الزارداشتية المجوسية كما تظهر على أرضه تلك الطوائف الخليطة بين النصرانية والمجوسية كالديصانية والمرقيونية ويستقر فيه تلك الجماعات النصرانية الشرقية المنشقة من نساطرة ويعاقبه[2] سريان وهي مذاهب لا هي بالراضية عن كنيستي بيزنطة أو روما ولا تلك الكنائس بالراضية عنها •

---

(١) اقباط مصر هم بدورهم يعاقبة وقد اخذوا اسمهم من اسم مؤسس المذهب يعقوب البرادعي (السروجي) وأصل الكلمة ياقوبيط باللاتينية أي يعقوبي وهم يقولون بالطبيعة الواحدة الإلهية للسيد المسيح (مونوفيستية) . اما المذهب الملكاني فهو المذهب البزنطي الرسمي الذي يقول منذ عهد هرقل بالمشيئة الواحدة . ويسمى أيضا بالمذهب الخلقيدوني (نسبة الى خلقيدونيا مكان اجتماع المجمع الذي قرر ذلك) وهم اليوم طائفة الروم الارثوذكس .

(٢) الكنيسة النسطورية تدعى خطأ بهذا الاسم وانما هي الكنيسة السريانية الشرقية او كنيسة الشرق ويعود وجودها الى ما قبل الراهب

وبالرغم من ان الموقف الفقهي الاسلامي هو الاساس في الموقف العباسي والموقف الاموي قبله من الذمة فلا شأن لنا ببحثه هنا من الناحية النظرية وبيان أحكام الدين في رعاية أهل الكتاب وجباية الجزية منهم ومنحهم حرية العبادة وحسن المعاملة وحفظهم في معابدهم وأموالهم ورهبانهم لقد حدد ابو يوسف في كتاب الخراج هذا الموقف الفقهي للعباسيين اذ قال للرشيد : « ... ينبغي أن تتقدم بالرفق بأهل الذمة والتفقد لهم حتى لا يظلموا أو لايؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم ... »(١) . وإنما يهمنا من هذه المبادىء التطبيق العملي ...

التطبيق العملي وكيف ترجم العباسيون تلك الأحكام والأوامر الدينية من خلال الواقع الحياتي والظروف المتطورة إلى أعمال ومواقف تاريخية ساسوا فيها الناس . يهمنا اذن ماكان وليس مايجب أن يكون.

ب ــ الأسس العامة للموقف العباسي والذمي : وفي هذا المجال نجد مبدئياً أنه لولا الصبغة الاسلامية المتزايدة التي اتخذتها الخلافة العباسية خلال عصرها الأول لما كان بالامكان التمييز مابين موقف بني العباس وموقف بني أمية السابقين من الذمة . ولقد يكون الأمويون بذلوا اهتماماًأوسع للمناطق الغربيةالممتلئةبالمسيحيين بينمااهتم بنوالعباس

نسطوروس الذي تنسب اليه بأكثر من قرنين ونصف القرن ولكنا جارينا التسمية الدارجة . اما اليعاقبة فهم أصحاب الكنيسة السريانيةالغربية. ويرفضون التسمية باليعاقبة (نسبة ليعقوب الرهاوي السروجي) نفسه ولكنا أيضا اخذنا بالمصطلح الدارج في تسميتهم وهم يدعون حاليا بالسريان الارثوذكس .

(١) أبو يوسف ، كتاب الخراج ص ٧١ .

بالمشرق الايراني المجوسي الاصل ولقد تكون عملية التجول الى الاسلام ازدادت في العصر العباسي عنها في العصر الأموي بسبب عوامل كثيرة منها تشجيع الخلفاء العباسيين • ولقد يكون هؤلاء الخلفاء اخيرا اكثر اهتماماً بالمظهر الاسلامي لسياستهم من الامويين • ولكن هذه الفروق رغم أهميتها لم تكن هي التي تصوغ وجدها الموقف العباسي من اهل الذمة •

والعوامل الأساسية التي كانت تصوغ ذلك الموقف إنما كانت حصيلة عناصر ثلاثة :

الأول : أن أعداد المسلمين ــ عدا العرب ــ وإن كانت تتكاثر باستمرار إلا إنها لم تكن كثيرة طاغية • وكانت تتركز في المدن بصورة خاصة بينما كان الريف سواء في ايران أو العراق أو الجزائر أو الشام أو مصر يحوي كتلة السكان المحافظة على دينها السابق • وكان السبق الحضاري لهذه المناطق يعطي أبناءها الأولين أن تكون لهم الصناعات والحرف وبأيديهم الاعمال الحياتية وأن تكون فيهم العلوم الأولى • وكانت الحاجة إلى الحرف والزراعة والى الاسس الحضارية في اقامة الدولة تفرض على المسلمين الفاتحين ــ بالاضافة إلى أوامر الدين الاسلامي برعاية الذميين ــ أن يقيموا بينهم وبين أهل الذمة التعايش السلمي المتعاون • وهذا بالضبط ماكان في كل مكان وما استقرت عليه السياسة الاسلامية منذ العهد الاموي واستمر عليه بنو العباس من بعد • وكانوا يشاركون في حياة المدن الاقتصادية عامة والاجتماعية والأدبية والعلمية وفي المهن المختلفة دون أي تمييز وكان منهم التاجر والصراف والبزاز والمهندس والنخاس والعطار وصاحب الاقطاع والجوهري بل احتكروا غالباً بعض الأعمال كالطب والتنجيم ودخلوا وظائف الدولة وبرزت منهم كفايات إدارية في سلك الكتاب وعمال

الخراج واستقبلوا بالاحترام في بلاط الخلفاء كما اعترف لهم بقانونهم الديني ورؤسائهم الروحيين وإن كان هذا كله لم يمنـع اجتماعياً من تعرضهم لبعض التحديات الناجمة من اعتزاز المسلمين بقوة الدولـة وشعورهم بالتفوق السياسي والاجتماعي • على ان هذا الخط العام الثابت من التعايش الاخوي كان يضطرب أحيانا بفعل العاملين الآخرين التاليـين :

الثاني : ضغط الاحداث على جبهـة الروم : فإن بقـاء الدولة البزنطية واتصالها الجغرافي والديني بمناطق المسيحيـين في الجزيرة والشام ومصر وصلتها الروحية بهم جعل هؤلاء الذميين موضع الريبة من قبل النظام الاسلامي • وقد برهنت الأحداث التي استخدم فيها الروم هؤلاء النصارى كرأس جسر ومنطلق إلى الأراضي الاسلامية على صدق تلك الريبة • ولم يكن كذلك الموقف من المجوس الذين فقدوا منذ عهد الفتوح دولتهم نهائياً • وهكذا كان ضغط الاحداث على جبهة الروم ، وهي القريبة من العراق ، ينعكس أحياناً على موقف العباسيين من الذميين عامة ويتجلى في عدد من المضايقات التي لا تمس ، في أي حال ، دينهم أو أموالهم أو معابدهم أو نظامهم الكنسي وإنما تنصب خاصة على تمييزهم الطائفي عن المسلمين في اللباس والمعاملة ومنعهم من الجهر بالعبادة او إظهار الشعائر • أو بناء المزيد من المعابد • ومثال ذلك ماجرى في عهد الرشيد والمتوكل • ولما كان هذا العامل عارضا فإن تحول الأحـداث الحربية مع الروم كان كفيلا دوما بالغاء هذه المضايقات بسرعة او تناسي تطبيقها والعودة الى خط التعايش الثابت الاول •

الثالث : ضغط رجال الدين وردود فعلهم ضد طغيان بعض الموظفين الذميين : فإن رعاية الخلفاء العباسيين للفقهاء والعلماء واضطرارهـم السياسي والديني لسماع مواعظهم وتوجيهاتهم ــ سواء عن تدين أو مخافة تحرك العامة ــ كان من أسس السياسة العباسية • وكثيرا ماكانت

هذه المواعظ والتوجيهات تمس قضية الذمة واستخدامهم خاصة في الدولة وكانت الاستجابة لها غالباً ماتنصب على طرد الذميين من الوظائف أو مصادرة بعضهم بما أساؤوا استغلاله من المنصب • وهكذا نجد وراء كل تصرف من هذا النوع جرى في عهد المنصور والمهدي والمأمون والمتوكل . موعظة من فقيه عالم أو شكوى محقة لامست موضع الإثارة الدينية من الخليفة • ولكن هذا التأثير كان بدوره عارضاً فما إن تهدأ الأمور بعد عاصفة التسريح والصرف من الأعمال حتى تعود عملية التعاون والتعايش المعتادة الدائمة الى سابق عهدها •••

ولعل من الهام أن نسجل قبل الانصراف الى سياسة العباسيين الذمية هذه الملاحظات الأربع :

الأولى : أن جميع الاجراءات التي كانت تتخذ ضد الذميين كانت تنصب على النصارى واليهود فقط دون المجوس ، وتصيبهم في بغداد والعراق خاصة دون باقي انحاء الدولة وندر أن كان يتفق تعميمها كما جرى في عهد المتوكل • أما المجوس فكان يأتي الاضطهاد لبعضهم من الاتهام بالزندقة • وكان يشمل أصحاب الوظائف منهم تحت هذا الشعار لا بسبب الريبة أو عدم الولاء أو التسلط والتعسف على المسلمين •وعلى أي حال فلم تبلغ الاضطهادات في أقسى أدوارها العنف الذي بلغته الحملة على الزنادقة والملحدين وأصحاب المجون بالرغم من أن التحدي النصراني، حسب رأي الجاحظ لم يكن ، من ناحية الخطر على العقيدة الاسلامية ، بأقل من التحدي المانوي •

وإذا اضطهد بعض المسيحيين اضطهاداً قاسياً فلم يكن ذلك لنصرانيتهم ولكن لاتهامهم بالزندقة وهذا مايفهم من إشارات المؤرخ دينيسوس التلمحري عن اضطهادات النصارى والمانوية من عبده الرقوس

في الجزيرة وما يفهم أيضاً من أقوال المؤرخ الآخر ميخائيل الكبير (السوري) البطريق الذي يجعل اضطهاد النصارى جزءاً من حركة اضطهاد الزندقة المانوية(١) .

الثانية : أن تلك الأزمات وأيام التوتر التي كانت تصيب النصارى واليهود من الذمة في العصر العباسي الأول لم تكن لا في نظر الخلفاء ولا في نظر رجال الدين عمليات هجومية انتقامية وإنما كانت في أساسها الأعمق عمليات دفاعية . وإذا كان الخلفاء والفقهاء يقومون بها فانما كانوا ــ من وجهة نظرهم ــ يقومون بجزء من واجبهم « الإمامي » والديني في الدفاع عن الاسلام وأرضه وأهله ومصالحه . وليس من قبيل الاعتذار عن تلك الأزمات أن نذكر هنا بالشهداء المسيحيين على أيدي الرومان الوثنيين . ولا بما قاساه الوثنيون على أيدي المسيحيين بعد ذلك حين تسلمت المسيحية الحكم في العالم الروماني ولا بما لقي المانويون والمزدكيون من الاضطهاد باسم الزندقة من قبل المذهب الزارادشتي الرسمي في العهد الساساني . تلك الاضطهادات التي لم يبلغها على أي حال ، ولا في جزءمنها ، موقف الاسلام العباسي من الذمة، كانت هي أساس التعامل بين الجماعات الدينية المتباينة في تلك العصور.

---

(١) كتب راهب سرياني من القرن الثامن الميلادي تاريخاً سريانياً من اربعة اقسام شرح في نهاية قسمه الرابع المصائب التي حلت بالسريان فيما بين سنتي ٧٦٧ــ٧٧٥ فيما بين النهرين وقد نسب الكتاب خطأ الى البطريق دنيس التلمحري من القرن التاسع ونشره الاب شابو في باريس سنة ١٨٩٥ كما نشر هو نفسه أيضا ، بعد ذلك تاريخ ميشيل السوري (من القرن الثاني عشر) بالسريانية والفرنسية سنة ١٨٩٩ و سنة ١٩١٠. وفيه بعض الاخبار التاريخية عن نصارى الجزيرة اليعاقبة مع تاريخ الكنيسة .

الثالثة : أن الذميين لم يكونوا بدورهم سلبيين لاتجاه السياسة العباسية ولاتجاه الاسلام والمجتمع الاسلامي فأما مع نظام الحكم فقد امتدت مواقفهم مابين التعاون المطلق غالباً وبين العصيان المسلح أحياناً في بعض المناطق . وقد كان من العادي أن يرى بين رجال البلاط اكثر من موظف كبير (طبيب أو منجم أو كاتب) من أهل الذمة وأن يحضر بعضهم مجالس الخلفاء للعمل أو المناظرة العلمية (أمام المهدي والرشيد والمأمون) وأن يزور الجاثليق والبطريق قصر الخلافة بين آونة وأخرى. وأن يزينوا بعض البلدان وينصبوا الأقواس وينثروا الريحان ويقدموا الولائم والهدايا لمرور الخليفة[1] . كما كانت شفاعاتهم تقبل في الكثير من الأمور لأبناء نحلتهم . وقد يتولون للدولة الخراج عمالاً عليه أو يكون منهم الكتاب في الدواوين المختلفة ولا سيما في إيران والجزيرة والسواد ومصر .

وكانوا في فترات الأزمات والتوتر ينحنون للعاصفة الى أن تمر : يلبسون الغيار أو يضعون الزنار والشارات المميزة فترة قصيرة ثم ما يلبثون أن يصلوا إلى إلغاء القرار الاضطهادي . وقد جرى ذلك اكثر من مرة فإن لم يلغ رسمياً أهمل في التطبيق تدريجياً حتى يصبح حبراً على ورق ثم نسياً منسياً . ولو أن تلك القرارات المتكررة بطرد الذمة أو بإلزامهم بالتمييز عن المسلمين أو غير ذلك بقيت مرغمة التطبيق دائماً منذ صدرت أول مرة لما سمعنا بتكررها مرة بعد مرة على توالي عهود الخلفـاء .

---

(١) كما جرى للمأمون في مصر بقرية (طاء النمل) مع مارية القبطية وللمتوكل مع مطران نصيبين حين أجتازها الى الشام .

وما من شك في أن تلك المضايقات كانت تحز في نفوس الذميين وتهدد الكثير منهم في وضعهم الاجتماعي أو مواردهم المالية أو مركزهم المعنوي ولكنا ندر جداً أن سمعنا تمرداً عليها أو تحدياً لها . أما ما سجل من العصيان المسلح سواء في بعض أحداث ايران أو الجزيرة أو بخاصة في مصر من قبل القبط فقد كانت أسبابه مالية خراجية دوماً تتعلق بالتعسف في الجباية أو التزيد فيها ، لا بأوامر التمييز والتضييق الاجتماعي أو الديني . وقد سجل القبط خلال القرن الذي يمتد مابين سنة ١٠٧ و سنة ٢١٦ ثماني حركات من التمرد والثورة توالت :

أ) ثلاث منها في العهد الأموي سنة ١٠٧ في الدلتا ، سنة ١٢١ في الوجه القبلي ، سنة ١٣٢ في سمنود .

ب ــ وخمسة منها في العهد العباسي سنة ١٣٥ في سمنود و سنة ١٥٠ في سخا و سنة ١٥٢ في بلهيب ، و سنة ٢١١ في الوجه القبلي وسنة ٢١٦ في الدلتا خاصة .

وهذه الثورات كافة إنما كان الباعث عليها العسف المالي . وهذا العسف كثيراً ماكان القائمون عليه من الموظفين الذمة أنفسهم .

وأما مع الاسلام والمجتمع الاسلامي فقد كان للنسطورية واليعقوبية ــ بجانب ماكان للمانوية والمزدكية ــ أجهزتها التبشيرية الناشطة . ونقرأ بوضوح في تاريخ بطاركة الكرسي النسطوري واليعقوبي جهود هؤلاء البطاركة ووفودهم التبشيرية المرسلة إلى أطراف الدولة العباسية[1] :

---

(١) انظر عمرو بن متى ، اخبار بطاركة كرسي المشرق (طبع روما سنة١٨٩٦) ص٧٣ وص٧٤ . وانظر كذلك ماري بن سليمان ، اخباربطاركة كرسي المشرق (طبع روما سنة ١٨٩٩) ص٧٣ وص٧٤ وقد كشف راهب نسطوري كتب سنة ٨٤٠ م (أي سنة ٢٢٨ هـ) تاريخ الكنيسة عن بعوث تبشيرية كانت ترسل الى جنوب الجزيرة العربية والى خراسان وما وراء

إلى شواطيء بحر الخزر ، وجنوب جزيرة العرب والى بلاد الترك والى الصين[1] في الدعوة لعقائدهم وذلك في عهود المنصور والمهدي والرشيد وبديهي أنه قوة الدولة الاسلامية في المركز كانت تدفع المبشرين الى الاطراف ولكن هذا لايعني أنهم كانوا لا يعملون على التبشير في كل مكان يستطيعونه من أراضي الدولة وفي كل فرصة أيضاً بل تعد هذه من أخصب وألمع الفترات في تاريخ الكنيسة النسطورية •

وإذا كان المسلمون يجادلون ويؤلفون في الرد على النصارى وعلى المانوية وغيرها فقد وضع النساطرة واليعاقبة بدورهم ، ردودهم على الاسلام أيضاً رسائل وكتباً كثيرها بالسريانية لأتباعهم • ومايزال بعض هذا الذي كتب محفوظاً في تراث هذه الفرق • وثمة رسالة يذكر البطريق طيماثاوس النسطوري (الذي بقي على كرسي الجاثليق ثلاثاً وأربعين سنة مابين عهدي المهدي والمأمون) أنه بين فيها محاسن المسيحية للمهدي في مناقشة طويلة معه • وقد اعتمدها السريان وترجموها الى العربية فبقيت منها نسخ مخطوطة كثيرة[1] •

النهر والى الصين (طبع الكتاب بعنوان History of the Superiors بعناية W. Budge في لندن سنة ١٨٩٣) انظر الادب السرياني ــ بالفرنسية ــ تأليف شابو ص ١١١ .

(١) يظهر اسم البطريق النسطوري حنان يشوع الثاني (البطريق ما بين سنتي ٧٧٤ــ٧٧٩ في عهد المنصور) على النصب التذكاري السرياني الصيني الذي اقيم سنة ٧٨١ في سين غان فو . وهو يسجل إدخال المسيحية الى الصين . (انظر الادب السرياني ص ١٠٦ــ١٠٧) . وعليه بالصينية والسريانية اسماء ٧٦ مرسلا من المبشرين والنصب ما يزال قائماً الى اليوم .

(٢) طبعت هذه الرسالة مع رسائل اخرى في باريس سنة ١٩١٤ من قبل الاب Braum بالسريانية واللاتينية وهي موجودة بالعربية .

وهذه المناقشات إذا كانت تجري مع الخلفاء أنفسهم فلا شك أنها كانت تجري على نطاق أوسع في طبقات العلماء والشعب على مستويات مختلفة وهي إن دلت على شيء فعلى أن أهل الذمة اتخذوا جانب الهجوم الدفاعي في كثير من الأحيان • ومحاولاتهم الجدلية إن لم يكن هدفها كسب المسلمين فهدفها على الأقل عدم خسارة الاتباع •

الرابعة : هي أن حصيلة كل من السياسة العباسية تجاه الذمة والموقف الذمي تجاه النظام الاسلامي كانت في جانب الاسلام وتكاثر عدد المؤمنين به[1] وبالرغم من أنه لم تسجل حوادث أرغم فيها الناس على التحول الى الدين الاسلامي • لكن مختلف العوامل من جدل أو اجراءات تمييز أو رغبة بالخلاص من الخراج والجزية أو طمع المكانة بالدولة أو اقتناع بالدين انتهت كلها بأن تنتقل كثير من الجماعات الذمية الى الاسلام • ولعل مما كان يزيد في نقمة الذميين وكنائسهم وكهانهم ويزيد في شعورهم بالغبن أنهم كانوا يخسرون باستمرار الأكثرية العددية لمصلحة الجانب الاسلامي • كما كانت عملية التحول تستتبع أحياناً كثيرة نوعاً من الظلم المالي الشديد في المناطق التي كان الخراج وكانت الجزية فيها ضريبة جماعية محددة على القرية أو المنطقة • فكان على الباقين في الدين القديم أن يدفعوا مع ضريبتهم ضرائب من أسلم منهم • أو من هرب من قريته وحقله أيضاً • وكان ذلك كثيراً مايحدث في مصر وفي

---

(١) لنلاحظ أن حركة التعريب أي شيوع اللغة العربية لحقت انتشار الاسلام ، وحلت اللغة العربية محل اللغات المحلية من قبطية وسريانية وبهلوية لكنها نجحت في ذلك في العصر العباسي الثاني لا الاول كما انها نجحت بكل مكان في الغاء اللغات الاخرى ما عدا ايران فبعد ان تعادلت معها لم تستطع الغاءها فعادت

الجزيرة وخراسان • وهكذا فإن الذميين كانوا في مطالع العصر العباسي هم الاكثرية الواضحة في ايران كلها وفي الجزيرة ومصر ولحد ما في الشام تحولوا في نهاية العصر إلى أن أصبحوا هم العدد الأقل المتناقص باستمرار بينما حافظت أرقام الجباية في الخراج والجزية وغيرها على أرقامها وكثيراً ما ارتفعت عن ذي قبل فكان ضيق الذميين ينبع اذن في وقت واحد من منبعين : نفسي — ديني ناجم عن خسارة الجماعة الدينية ونقصها • ومالي — اقتصادي ناجم عن زيادة نسبة الضرائب حتى الارهاق •

جـ — الذمة في عصر المنصور : يمكن القول إن الذميين من النصارى واليهود لم يأبهوا بانتقال الحكم من آل أمية إلى بني العباس ومن الشام إلى العراق • لقد يكون الذمة المجوس قد بنوا العديد من الآمال على هذا الانقلاب واعتبروا أنفسهم حلفاء للعهد الجديد فترة قصيرة من الوقت ثم مالبثوا ، حين تبينوا واقعه العربي الاسلامي أن ثاروا عليه ثورات مسلحة عديدة لكن طوائف النصارى لم تشترك فيه أبداً وبالتالي لم تنتظر منه شيئاً ولهذا فإن أبا العباس ماكان بالنسبة إليهم أكثر من خليفة جديد كغيره ••• ويذكرون أنه لما ظهر في الكوفة عمد النجرانية (نصارى نجران الذين أجلاهم عمر بن الخطاب إلى العراق) إلى طريق أبي العباس فنثروا فيه الرياحين وهو منصرف إلى منزله من المسجد فأعجبه ذلك من فعلهم ••• ولم يكن ذلك حباً في بني العباس ولكن كيداً بالوالي الأموي الذي أعاد عليهم الجزية القديمة بعد أن خفضها عمر بن عبد العزيز الى عشرها[1] وعرضوا الأمر على أبي العباس فجعل جزيتهم مائتي حلة فقط •

---

(١) كانت على عهد الرسول الفي حلة فخفضها عمر بن عبد العزيز الى مائتين فقط قيمتها ثمانية الاف درهم فاعادها يوسف بن عمر أيام الوليد بن يزيد الى ما كانت من قبل . (انظر الموضوع كله لدى البلاذري — فتوح البلدان ص٨٠—٨١) .

ويذكرون كذلك أن خلافاً جرى بين النساطرة في اختيار الجاثليق سنة ١٣٣ واستنصر أحدهم وهو المطران سورين بأمير المدائن المسمى أباناً . « حتى وكل بالناس يوم خميس الفصح وألزمهم بسيامته قهراً بالسلاح ... واستغاث الآباء الى السفاح وعرفوه الحال فضرب أباناً وردهم الى اختيارهم (الحر) ...»[(١)] . فأقالوا سورين واختاروا يعقوب الجنديسابوري بطريقاً آخر بدلاً منه بعد أقل من شهرين من تنصيبه !

هذان المثالان قد يكفيان لبيان الموقف العباسي المبدئي من الذمة . وقد جاء المنصور بسرعة بعد أبي العباس فأعطى هذا الموقف أبعاداً أخرى :

استخدم أبو جعفر أهل الذمة ويبدو أنه استخدمهم بشكل واسع : فكان منهم طبيبه النصراني : الخصيب[(٢)] الذي توفي على يديه ابن السفاح وغيره فمات في السجن ، ثم استقدم المنصور من بعده جرجيس ابن بختيشوع من جنديسابور[(٣)] حين أدركه ضعف في معدته بعد سنة ١٤٨ . وزاد مرضه بمعالجة الأطباء فشفي على يد جرجيس وأراد ابو جعفر مكافأته فأهداه بعض الجواري فأعادهن ثم بلغ من تكريمه أن أمر بإحضار الخمر له من قطربل « واكرمه كما يكرم أخص الأهل » . ثم مرض جرجيس سنة ١٥٢ فسمح له أبو جعفر أن يعود مع أكبر الرعاية الى بلده[(٤)] بعد أن ترك عند أبي جعفر تلميذه عيسى بن شهلاثا ...

---

(١) انظر ماري بن سليمان ــ أخبار البطاركة ص ٩٦ .

(٢) الطبري ج٨ ص٨٦ (٣/٤٢٣) وانظر كذلك الأغاني ج١٣ ص٩٥ .

(٣) ابن العبري ص١٢٤ــ١٢٥ وانظر كذلك ماري بن سليمان ــ اخبار بطاركة كرسي المشرق ص ٦٨ــ٦٩ والقفطي ــ تاريخ الحكماء ص ١٥٨ــ١٦٠ .

(٤) انظر ماري بن سليمان اخبار بطاركة كرسي المشرق ص ٦٧ .

وقد تدخل عيسى في مشاكل الطائفة النسطورية حتى صار أمرها بين يديه وجبى منها الأموال وتقاضى آباء الطائفة الخضوع له . ويبدو أنه هدد مرة مطران نصيبين إن امتنع عن دفع مارتبه عليه من المال وما طلبه من أدوات البيعة الثمينة عنده وكتب له : الست تعلم أن أمر الخليفة في يدي إن أردت أمرضته وإن أردت شفيته فاحتال المطران حتى أوصل الكتاب الى الربيع بن يونس الذي قرأ مافيه على أبي جعفر فأمر بمصادرة جميع مايملكه عيسى ونفاه مع زوجته الى الهند .. وكان حول بلاط المنصور أيضاً مطران نصيبين المدعو قوفريانوس الذي قربه الخليفة وابراهيم الطبيب الذي خلف عيسى والمطران اسحق اليعقوبي الذي ادعى معرفة الكيمياء له وسر الذهب[1] ونوبخت المنجم الفارسي المجوسي الذي كان يرافق الخليفة فلما ضعف أتى بولده بدلا عنه واستطال ابو جعفر اسم الولد بالفارسية فكناه بأبي سهل[2] ... أما خارج القصر فيبدو أن الذميين كانوا كثيرين بين عمال الخراج وكان موسى اليهودي[3] أحد اثنين من هؤلاء العمال الذين عينهم المنصور في السواد . كما أوكل إلى الكثيرين منهم بأن يقبضوا مايجدونه لبني أمية ومنحهم حرية التحري والعسف في ذلك وفي غيره . ويبدو ان الصلة الطيبة بين مطران نصيبين والخليفة أعانته في أن يقيم سنة ١٤١ مذبح وهيكل الكنيسة الكبرى في البلد دون تحرج[4] .

---

(١) انظر ماري بن سليمان ــ اخبار ص ٦٩ وكتاب ترتون ــ أهل الذمة في الاسلام (الطبعة العربية ترجمة حبشي) ص ٨٧ .

(٢) ابن العبري ص ١٥ .

(٣) المبرد ــ الكامل ١ ص٧٩

(٤) انظر المجلد السابع من Corp. Serip. Chris. Or. المسمى Chronographié d'Elie de Nisibe , Lrris , 1884 , P. 128 .

ويبدو أن هذا التسامح الواسع من المنصور لم يكن ليجد أي اعتراض من الفقهاء ورجال الدين المسلمين والناس لولا أن بعض هؤلاء العمال الذميين أساؤوا استغلال وظائفهم « فظلموا وعسفوا وأخذوا الضياع وغصبوا الأموال وجاروا على المسلمين واتخذوا (تسامح الخليفة) سلماً لشهواتهم ... » كما يقول شبيب بن شيبة الذي اجتمع إليه جماعة من المسلمين والمنصور في الحج فطلبوا إليه مخاطبة المنصور في أن يرفع عنهم المظالم ولا يمكن النصارى من ظلمهم وعسفهم في ضياعهم ويمنعهم من انتهاك حرماتهم وتحريبهم لكونه أمرهم أن يقبضوا ما وجدوه لبني أمية . ويضيف شبيب أنه طاف مع أبي جعفر فشبك أصابعه على أصابعه واستأذن ان يكلمه بما في نفسه وقال له : يا أمير المؤمنين إنها وصية الله . اليكم جاءت ... وإليكم تؤدى . إن دون أبوابك نيراناً تأجج من الظلم والجور لا يعمل فيها بكتاب الله ولا سنة نبيه . يا أمير المؤمنين سلطت الذمة على المسلمين . ظلموهم . وعسفوهم ... ولن يقضوا عنك من الله شيئاً يوم القيامة . فقال المنصور : خذ خاتمي فابعث به إلى من تعرفه من المسلمين . وقال ياربيع (الربيع بن يونس) اكتب إلى الأعمال فاصرف من بها من الذمة . ومن أتاك به شبيب فأعلمنا بمكانه لنوقع استخدامه . فقال شبيب يا أمير المؤمنين . إن المسلمين لا يأتونك وهؤلاء الكفرة في خدمتك ... ولكن .. كلما وليت رجلا عزلت آخر[1] .

ولعل هذا الامر إنما كان في حج ابي جعفر سنة ١٤٠ أو سنة ١٤٤ والجهشياري يضيف إليه أن المنصور قلد حماداً التركي تعديل السواد وأمره أن ينزل الأنبار ولا يدع أحداً من أهل الذمة يكتب لأحد من العمال

---

(١) ابن قيم الجوزية ـ احكام اهل الذمة ج١ ص ٢١٤ــ٢١٥ .

المسلمين إلا قطع يده . فأخذ حماد ماهويه الواسطي (وهو مجوسي فيما يبدو كما أنه جد سليمان بن وهب) فقطع يده !..[1] والخبران يدلان على توسع الدولة وعمالها في استخدام الذميين كما أن الأمر بإخراجهم من الأعمال كان مجرد تدبير عارض لأننا سوف نفاجأ بهم وقد كثروا «وقويت شوكتهم» في عهد المهدي من بعد !

ومن جهة أخرى فقد تدخل المنصور فيما كان قد امتنع عنه أخوه أبو العباس من أمر اختيار رؤساء الكنيسة : وكان الأمويون يفعلون ذلك في مصر خاصة والجزيرة وإنما كان يدفع أبا جعفر ويحرضه على ذلك من كان في حاشيته من النصارى . فقد تدخل في رئاسة الكنيسة اليعقوبية : عمل على تنصيب اسحق الرهاوي مطران حران بطريقاً سنة ١٣٨ أو سنة ١٣٩ وأرغم المطارنة والاساقفة على انتخابه لأنه كان قد أصبح أثيراً عند أبي جعفر بادعائه معرفة الكيمياء وتحويل المعادن إلى الذهب[2] . وأصدر الخليفة منشوراً الى البلدان بإقرار اسحق في منصبه وخلع عليه من أثواب الخزانة الخليفية الا إن أمره انكشف فقتل ورميت جثته في الفرات . وطلب المنصور من الاساقفة اختيار اثناسيوس (الثالث) الصيدلاني بطريقاً وأعانه بالجند اللازم لتأييده في منصبه فلما مات بعد عامين انشقت الكنيسة واستطاع أسقف بلدة دارا أن يشي بالمرشح الأقوى جورجيوس عند الخليفة من أنه يفخر أن اسم النبي محمد لم ولن يمر قط على لسانه . ومن أنه لا يأبه بطلب مرسوم التعيين من أبي جعفر في نوع من عدم الاعتراف بالحكم الاسلامي .

---

(١) الجهشياري ص ١٣٤ .

(٢) يعزو المؤرخ القبطي ساويرس (سير البطاركة ص٢٠٥) ذلك الى ان الاسقف اسحق كان دعا للمنصور ان يرزق بفلام فما تولى الخلافة حتى جعله بطريق انطاكية وسائر المشرق .

وحين اختاره جمهرة من الاساقفة سنة ١٤١ لم يطلب بالفعل منشور التعيين ووقفت السلطة العباسية في جانب اختيار خصمه حنا للبطركة فلما مات صار داوود أسقف دارا سنة ١٤٦ بطريقاً ... بتأييد السلطة. وصار للسريان بطريقان في وقت معاً . ويذكر أحد المؤرخين السريان أن احدى الكنائس كانت عند زيارته تغص بالجند والفرسان لا بالقسس ورجال الدين . وظل أعداؤه في السجن حتى عهد المهدي[1] وكان بين هؤلاء جيورجوس البطريق .

وتكرر الامر نفسه بالنسبة لجاثليق النساطرة . فقد كان عيسى ابن شهلاثا طبيب المنصور شماساً في تلك الكنيسة . وكان من أنصار سورين البطريق المطرود في عهد أبي العباس . فما زال عيسى وسورين وسرجيس طبيب صاحب الجيش في الحملة على البطريق يعقوب والتحريض على مطالبته بالأموال حتى سجن مرة وتشتت أمره وطالبه المنصور بزيادة الخراج ورد مايتعلق برؤساء البيع والكنائس الى عيسى ابن شهلاثا الذي عاملهم بالاستهانة . وحضر البطريق مع ٣٦ أسقفاً إليه فلم يأبه لهم « وكان يعطيهم يده ليقبلوها » ... فاشتكى هؤلاء الأمر إلى ابن الطباخ الكشكري صاحب بيت المال (وهو بدوره نسطوري من كشكر) فأنهاه إلى الخليفة وأخبره قصة الخلاف على كرسي البطركة فأمر المنصور بحبس يعقوب البطريق وسورين معاً ... وحبس الأول سنة ١٤٩ فبقي في السجن تسع سنوات ولم يستطع عيسى تهريب الثاني الذي قبض في المدائن فلم يزل سجيناً حتى مات .

---

(١) انظر الجزء الرابع من Corp. Scrip. Chris. Or. Chroniea Minsra ويجمع ١٤ قطعة من تواريخ سريانية قديمة (فيها النص مع الترجمة الفرنسية) ص ٢٣٦ ، ٢٤٣-٢٤٧ . وانظر كذلك تريتون - أهل الذمة ص ٨٧ .

وفي هذه الفترة ـ فيما يظهر ـ « انبسطت أيدي العمال على النصارى • وتحول بعضهم إلى الاسلام • »•

وقسا عامل الحديثة (حول الموصل) على الذمة بالظلم المالي فلما قرر المطران شليمون الشكوى للخليفة قبض عليه وضربه بالسياط وحلق رأسه ولحيته ولكنه عاد فصالحه وأرضاه وأزال أسباب الظلم المالي عن البلد • ثم سعى قوم من النصارى هـذا المطران نفسه لدى عيسى الطبيب بأنه أخذ حملين من أموال مروان بن محمد يوم معركة الزاب فاستقدمه الخليفة ووقع من ذلك في محنة أخرى • ثم اجتاز المنصور بمنطقه الموصل وأعجب بأهل الذمة وحسن صبرهم وإضافتهم المجتازين من المسلمين فرفع الخراج عنهم وأمر بمعونتهم لضعفهم •وقد جرأهم ذلك على مـا يبدو فجاء الاساقفـة ومنهم شليمون مع بطارقة اليعقوبية والملكية يطالبون بالافراج عن البطريـق النسطوري يعقوب ويبدو أن شليمون تطاول في الحديث حتى أغاظ المنصور فأمر باعتقال الجميع ! ••• ولم يفرج عنهم إلا بشفاعة ابراهيـم الطبيب فيما بعد فأعيدوا إلى كراسيهم ••• كما أفرج عن يعقوب بطريق النساطرة بعد أن انكشف للمنصور ـ في آخر أيامه ـ أمر عيسى الطبيب وتسلطه وسعيه بالبطريق الذي كان قد قضى في السجن إذ ذاك تسع سنوات[١]••

أما معاملة المنصور لعامة أهل الذمة فلم يكن فيها كما نلاحظ أي أثر للتعصب أو العسف وكانت تتسم بالعكس بأمائر الرفق • ومقابل ما يذكره بعض مؤرخي السريان من أن المنصور أخذ لبيت المال الباب الذهبي لكنيسة القيامة في القدس[٢] نجد أنه لم يسمح لبعض المسلمين

(١) انظر تفاصيل هذا كله لدى ماري بن سليمان ـ أخبار البطاركة ص ٦٧ـ٦٩ .

(٢) انظر ماري بن سليمان ـ أخبار البطاركة ص ٧٠ .

باحتلال دير قديم نزلوه حول بغداد فلما طالب به النصـــارى وتمنع ساكنوه نقلوا عنه كرها بأمر المنصور[1] بل إنه لم يسمح لنفسه قبل ذلك باغتصاب ما وقع من أرض مدينة بغداد لبعض الأديرة فاشترى الموقع شراء من القســس ! ••• على أن سياسة الولاة كانت تختلف من بقعة الى أخرى • وإذا تركنا جانبا منطقة ايران وقد مرت بنا ثوراتها المحلية وجدنا ان بعض عمال المنصور في منطقة الجزيرة المتاخمة للروم ، تأثروا ــ على ما يبدو ــ بجو الحرب الانتقامية المتبادلة بين الدولتين واعتبروا الذميين أكثر قابلية للتواطؤ مع البيزنطيين بسبب وحــدة الدين وقــد يكونون لهذا السبب قد أنحوا ببعض تدابير الضغط والقسوة والتمييز على الذميين هناك • ونجد صدى ذلك في تلك الصفحــات التي حفظها الكتاب المنسوب الى ديونيسوس التلمحري عن المصائب والنكبات التي قاساها اليعاقبة ما بين سنتي سنة ٧٦٧ و ســنة ٧٧٥ (١٤٩ ــ ١٥٧) • والتفاصيل الكثيرة التي لا تنتهي هناك قد تتضمن الكثير مــن المبالغة ومن التحامل الديني[2] • لكن لا شك في أنها كانت في خطوطها الأولى صحيحة وتصور دمار المنطقة الاقتصادي في تلك الفترة • مع أســباب ذلك الدمار • وكاتبها الراهب المجهول كان يحذر أبناء جلدته وينصحهم بالصمود والتماسك لدرء النكبات •

ولم يكن الولاة المسلمون هم السبب في معظم تلك المصائب المدمرة

---

(١) عمرو بن متى ــ أخبار البطاركة ص ٦٩ــ٧٠ .

(٢) انظر الصفحات المتصلة بذلك (٣ حتى ٧٠) في الجزء الثاني من كتاب Corp. Scrip. Christ. Or. الذي نشر فيه القسم الاخير الرابع من التاريخ المنسوب الى ديوليسيوس التلمحري . وهو ينتهي بسنة ٧٧٥ . وانظر كذلك تاريخ ميشيل السوري (بالفرنسية) ج٣ ص١٠٣ فما بعد (ترجمة شابو عن السريانية) .

ولكنه تعقيد المنطقة الديني والعنصري والسياسي واضطرابها في تلك الفترة • فقد عانت الجزيرة كلها الكثير من الآلام بسبب الثورات المحلية وبخاصة حركات الخوارج كما عانت أيضاً من فقد الأمن وتكاثر اللصوص وقطاع الطرق سواء من البدو أو من بعض المجموعات الكردية • بالإضافة الى الغارات التي كان يقوم بها الاقطاعيون المسيحيون المحليون بعضهم ضد بعض ولكل منهم عصابته المسلحة وقراه الجبلية المحصنة • وقد شكا الرشيد مما في المنطقة من المارقة والمتلصصة ومخيفي السبيل وقرر المناخ بها في أواخر حياته ليقطع دابرهم[1] لكن الأمر استمر من بعده حتى جاء المعتصم فأزال ماكان استمر على بلاد الموصل وباجرمي من اللصوص وكبس القرى[2] • وإذا تعرض السكان للقتل والظلم الشديد وتعرضت القرى كما تعرضت التجارات وطرقها للتدمير والنهب فقد كان لا بد أن يصيب رشاش ذلك الأديرة والكنائس وما فيها من ذخائر وما تحمل أرضها من الثروة الزراعية • ثم كان ثقل الضرائب والارهاق في الجباية من الاسباب في ان يطفح الكيل ويهرب الكثير من الفلاحين إلى المدن • وكان يزيد في استيائهم أن الولاة أمروا بأن يقبض عليهم فيعادوا من حيث أتوا مرغمين وتدمغ ، منذ العهد الأموي ، اسماء قراهم على الرقاب والصدر والظهر والأيدي ••• ويميزوا في اللباس كتدبير وقائي وقد هرب بعضهم إلى الروم عبر الحدود • واحتمل الآخرون آلامهم صابرين ناقمين بينما أجبر الولاة والخلفاء سكان المناطق الاستراتيجية على الحدود على الترحل الى داخل البلاد وأنزلوا محلهم تبعاً لمقتضيات الدفاع جماعات عربية وعسكرية مقاتلة •

---

(١) الطبري ج٨ ص٣١٧ (٣/٧٠٦) •

(٢) انظر ماري بن سليمان ـ أخبار البطاركة ص ٧٧ •

ويذكر المؤرخ تيوفانوس أن المنصور عمد إلى هذا التدبير عقب عودته من تحصين الحدود الشمالية في سمالو وفرض على الذمة هناك قيوداً دفعتهم الى الهرب لبلاد الروم • ويقول بعض ذلـك البلاذري أيضـاً[1] •

وكان وضع الذميين في الشام أحسن حالا منه في الجزيرة • وقد كان لبطريق انطاكية مكانته الهامة كما أن اكثر من واحـد من مطارنة دمشق اليعاقبة والنساطرة صاروا بطارقة في المدائن وبغداد في هــذه الفترة • غير أن الريبة في علاقات الذميين بالروم كانت تبقي النظـام الاسلامي على الحذر منهم ولا سيما في لبنان • وقد جاءت حادثة بندار في لبنان سنة ١٤٢/٧٥٩ لتؤكد عدم الولاء للدولة الاسلامية • فقد كانت ثورته مؤامرة ذات شقين : شطرها الرومي تمثل في نزول اسطول بيزنطي على طرابلس بينما كان شطرها الآخر الداخلي يتمثل في قيـام بندار بالهجوم على بعلبك وقرى البقاع • بعد أن تسمى بالملك وأعلن العصيان • فلما انهزم وهرب مع الاسطول الرومي نزلت العقوبة بسكان الجبل الذي والوه وعاضدوه • فقتل صالح بن علي العباسي مقاتلتهم وأقر من بقي منهم على دينهم وردهم الى قراهم •

وإذا كان السبب في الثورة إنما يعود الـى الشكوى من عامل الخراج في بعلبك ومن قسوته فقد رافق قمعها تدبير آخر هو : إجلاء الجماعات المشبوهة عن المنطقة لئلا تكون مادة تمـرد أو رأس جسر للروم وتوزيعها في بلاد الشام • وعملية الاجلاء هذه لم تتم على وجهها •

(١) يقول البلاذري (فتوح ص١٩٦) «... ثم نقل (المنصور) أهل الخصوص وهم فرس وصقالبة وأنباط ...» •

لأن الأمام الأوزاعي احتج عليها فكتب الى والي دمشق يحرمها في الشرع في رسالة طويلة أعطى فيها الوالي درساً في سياسة الذمة في الاسلام قال فيه : «... حكم الله أن لاتزر وازرة وزر أخرى وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه قال : من ظلم معاهداً وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه ... في كلام طويل»[1] .

أما في مصر فنجد الصورة واضحة ـ رغم ما يشوبها من تحامل ـ لدى المؤرخ القبطي ساويرس ابن المقفع[2] وهو يعتمد فيها على ما وقع له من وثائق الكنيسة القبطة في الكنائس والأديرة وتظهر أهمية أخباره إذا عرفنا أنها كانت تتصل في الواقع بالأكثرية العظمى من سكان مصر إذ ذاك فنحن إذا استثنينا الطبقة الحاكمة العربية والجند معها وبعض المسلمين في الأمصار ـ وجدنا كتلة السكان الأساسية في مطالع العصر العباسي من الأقباط الذمة . يقول المقريزي : «... ولم ينتشر الاسلام في قرى مصر إلا بعد المائة من تاريخ الهجرة عندما أنزل عبيد بن الحبحاب، مولى سلول ، قيساً بالحوف الشرقي : (من الدلتا) . فلما كان بالمائة الثانية من سني الهجرة كثر انتشار الاسلام بقرى مصر ونواحيها ..»[3] .

ونستطيع أن نرى بوضوح لدى ابن المقفع أن الحكم العربي الأموي ساعد القبط على إحياء اللغة القبطية وطرد اللغة اليونانية كما

(١) انظر البلاذري ـ فتوح ص١٩٢ وانظر ابو عبيد بن سلام ـ كتاب الأموال ص ١٧٠ـ١٧١ وابن عساكر ـ تاريخ دمشق (تهذيب بدران) ج٥ ص٣٤١ .

(٢) كان ساويرس Severus أسقف بلدة الاشمونين في الربع الأخير من القرن العاشر الميلادي وكتابه التاريخي بعنوان سير الآباء البطاركة طبع اكثر من مرة . وهو يتحدث عن الكنيسة القبطية وبطاركتها خاصة .

(٣) المقريزي ـ الخطط ج٢ ص٢٦١ .

ساعد الكنيسة القبطية ضد الكنيسة الملكانية (البيزنطية) فامتلكت بيعها . ولم يحرم القبط من حريتهم الدينية ومن بناء المعابد بل أعطاهم بالعكس المجال الواسع في حكم مصر وإدارة مرافقها كما جعل النظام المالي كله بأيديهم ورغم التدابير التي أمر بها عمر بن عبد العزيز فقد ظل الأقباط يسيطرون على الجهاز الحكومي حتى العهد العباسي . ولعل مما ضايقهم أن يعترف هشام بن عبد الملك سنة ١٠٧ للملكانيين بحق انتخاب بطريق لهم بعد أن اقاموا بلا بطريق منذ الفتح العربي (أي منذ ٧٧ سنة) . وأن يأمر يزيد بن عبد الملك قبل ذلك بكسر الصلبان والتماثيل ومحو الصور في الكنائس[١] وأن يتحول ٢٤ ألف قبطي الى الاسلام حوالي سنة ١٢٧ ــ ١٢٨ بسبب ترغيبهم باسقاط الجزية والخراج عنهم[٢] .

فلما كانت الثورة العباسية وهرب مروان بن محمد الى مصر بعد معركة الزاب قام جنده بالكثير من العبث في مصر وقتلوا جماعة من الأقباط وسبوا النساء وأحرقوا بعض الأديرة وهدموا بعض الكنائس وسجن البطريق القبطي والبطريق الملكاني حتى يدفعا ما فرض عليهما من المال وقد عجز الأول فبقي في السجن[٣] ... ويذكر ابن المقفع ان والي مصر كان يكره النصارى وقد صادر املاك الكنيسة وما فيها من آنية الذهب والفضة والواقع أنه كان يريد أن يستعين بذلك على تمويل المقاومة لبني العباس . ويبدو أن بعض الكنائس تمنعت عن تسليم ذخائرها فأتى مروان بن محمد على كافة كنائس طما بالهدم لم يستثن

---

(١) جرى الأمر نفسه في بيزنطية بعد إعلانه في الدولة الاسلامية بأربع سنوات (أي سنة ١٠٨ هـ/٧٢٦) وهي الحركة المعروفة باللاأيقونية .

(٢) انظر ساويرس ــ سير الآباء البطاركة ص ١١٦ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٧٥ و ص١٨٤ .

منها سوى واحدة (هي بيعة أبي مينا الشهيد) مقابل ثلاثةآلاف دينار . ولما عجز الاثرياء عن أن يجمعوا اكثر من ألفين حول ثلث الكنيسة الى مسجد . وتوسل إليه بعض التجار أن يرد إلى الملكانيين كنيسة (لومينا) في مريوط فردها وثار القبط نتيجة لذلك فيقصرالوالي نفسه[١] ووثب الأقباط على البطريق الملكاني قسطنطين وجروه الى خارج القصر وكادوا يفتكون بـه لولا أن ألقي الأساقفة عليه برانسهم ...وقد قامت في تلك السنة ثورة في رشيد هزمها ابن أبي نسعة قائد مروان وثورة في سمنود قادها قبطي يدعى «يحنس» فسحقت الثورة وقتل قائدها مع كثير من أصحابه[٢] ولعل هذه الأمور كلها كانت السبب في سهولة استيلاء العباسيين على مصر وفي كشف الأقباط للجيش العباسي مخبأ مروان بن محمد في بعض كنائس بوصير[٣] .

وقد استبشر الاقباط بالحكم الجديد وتعاون معه البطريق القبطي ميخائيل أول الأمر لا سيما حين أعفى العباسيون بعض الاقباط من الضرائب وخففوه عن بعضهم الآخر وقد دام ذلك حتى مطالع عهد المنصور إلا ان آمالهم سرعان ما خابت حين سار الولاة العباسيون سيرة السابقين من الأمويين فزادوا ـ مع ازدياد حاجة المنصور إلى المال ـ في إرهاق الاقباط بالضرائب الثقيلة في الوقت الذي أعلنوا فيه سنة ١٣٣

---

(١) انظر ساويرس ـ سير الآباء البطاركة ص١٨١ ، وص١٨٥ ، و ص٦ـ١٦٧ وانظر كذلك تريتون ـ اهل الذمة (بالعربية) ص٤٧ وص١٦٤

(٢) الكندي ـ كتاب الولاة والقضاة (طبعة بيروت١٩٠٨) ص ٩٤ و ص ٩٦ .

(٣) هناك بلدة باسم بوصير في وسط الدلتا قرب سمنود ويرجح الباحثون ان المقصود هو بلدة بوصير الأخرى الموجودة الآن في مديرية بني سويف في الصعيد .

إسقاط الجزية والخراج والكلف عن من يتحول إلى الاسلام فاندفع الكثير من الأغنياء والفقراء يسلمون[1] .

وإذا كان الاعفاء من الضرائب سبباً في التحول إلى الاسلام فقد كان ثقلها بالمقابل من أسباب الثورة لدى القبط . سجلوا في هذا المجال ثورات تزيد على العشرة خلال قرن ونيف .

ولقد كانت ثوراتهم منذ الثورة الأولى سنة ١٠٧ حتى الأخيرة سنة ٢١٦ متصلة الاسباب بالعسف الضريبي والإرهاق المالي من جهة وبشعورهم بالكثرة العددية والقوة في الريف المصري كله من جهة أخرى .

وقد تكررت مثلا الثورة في سمنود (في قلب الدلتا على فرع دمياط) سنة ١٣٦/٧٥٤ وخرج هناك أبو مينا القبطي فبعث إليه الوالي أبو عون عبد الملك بن يزيد الأزدي بعبد الرحمن بن عتبةفقتله[2] وأنهى الثائرين . ولكن أبا عون نفسه عاد إثر خروج الأقباط مع المسلمين للصلاة كي يزيد النيل وزيادته بالفعل «فأحسن السيرة في النصارى وعطف على كنائسهم وخفف عنهم الخراج»[3] ولكن سرعان ما عادت الضرائب بعده إلى عهدها الأسبق وتقاضاها المنصور ممن كان يهرب منها الى الرهبنة . وأمر بتحول مركز الوالي من العسكر إلى الفسطاط وأن يجعل الدواوين في كنائس القصر سنة ١٤٦ .

ويبدو أن الوالي يزيد بن حاتم ألح في الخراج والعسف فتشكلت

---

(١) انظر ساويرس ص ١٨٩ .

(٢) الكندي ــ الولاة والقضاة ص ١٠٢ وقد ولي أبو عون ولاية مصر مرتين الاولى في عهد أبي العباس بين سنة ١٣٣ــ سنة ١٣٥ ثم صرف عنها ليقود جيوش المغرب ثم اعيد إليها في عهد المنصور سنة ١٣٧ فبقي حتى سنة ١٤١ .

(٣) ساويرس ــ سير الآباء ص ٢٠٠ .

في الدلتا جماعات مسلحة من القبط ما لبثت أن قامت بثورة عنيفة سنة ١٥٠ في بلدة سخا (في الدلتا جنوب كفر الشيخ) وطردت عمال الخراج وكان أمير هؤلاء العمال عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي • وصار الثائرون إلى شبراسنباط فقاتلوا هذا الأمير وانضم إليهم أهل بعض المناطق الأخرى (البشرود ، الأوسية ، البجوم) فعقد يزيد بن حاتم حين وصله الخبر لنصر بن حبيب المهلبي على أهل الديوان (ديوان الجيش) ووجوه أهل مصر (العرب) فخرجوا إليهم •••» ولكن هذه الحملة منيت بالهزيمة إذ «بيتهم القبط» في كمين فقتلوا عبد الجبار وخرج المهلبي بطعنتين وسقط قائد آخر في الجراح ••• «وانصرف الجيش الى الفسطاط منهزمين» ••• ولكن بعد أن «ألقى توبة الخولاني أحد القواد «النار في عسكر القبط •••»[1] ويبدو أن هذا الحريق أتى على قرى المنطقة فشتت الثورة •••

لكنها عادت فانفجرت في مكان آخر هو بلهيب سنة ١٥٦ فقد خرج فيها القبط أيضاً والوالي موسى بن علي بن رياح اللخمي فعقد لعبد الله ابن المهاجر الذي خرج في الجند وهزم القبط الثائرين[2] وهذه الاضطرابات المحلية المتعددة المواضع سوف تتكرر فيما بعد •

د ــ الذمة في عصر الرشيد : الصورة التي شهدناها في عصر المنصور تستمر قائمة بعده ، دون تغيير يذكر فيما بين عهد المهدي آخر أيام المعتصم والواثق • لا جديد فيها سوى ازدياد الرعاية لأهل الذمة مع ازدياد الطابع الاسلامي للدولة وعدم تدخل الخلفاء في شؤون الكنائس

---

(١) الكندي ــ الولاة ص ١١٦ــ١١٧ .
(٢) المصدر نفسه ص ١١٩ .

إلا عند الخلاف • ضمن الطائفة وتوسع مجالات الجدل الديني بين الذمة والمسلمين •

أولا : استخدام الذميين في الدولة : يتكرر ذكر إخراج أهل الذمة من وظائف الدولة في عهد المهدي والرشيد والمأمون والواثق وهذا يعني على الأقل أن الباب كان مفتوحاً لهؤلاء باستمرار في الاعمال الحكومية وأن موجات إخراجهم إنما كانت ، في كل مرة عاصفة عابرة يدفع إليها في الغالب الطابع الاسلامي المتزايد الذي حاول الخلفاء أخذه منذ عهد المهدي خاصة والواقع أنا نشهد الذميين دون انقطاع في الأعمال المختلفة وخاصة في طبابة الخلفاء والتنجيم لهم وفي الخراج والكتابة : فقد كان تيوفيل بن توما النصراني المنجم الرهاوي رئيس منجمي المهدي[1] ثم صار قهرمان الرشيد بعد ذلك[2] واشتهر في بلاط المهدي أبو قريش عيسى الصيدلاني الذي يروون في سبب صلته مع البلاط قصة جعلته أثيراً ، دون علم كبير بالطب والصيدلة ، لدى الخيزران والمهدي إذ تنبأ والخيزران حامل أنها ستلد ملكاً فلما ولدت الهادي أغدقت على عيسى النعم والهبات ثم صار مقدماً على اكبر أطباء المهدي جيورجيس بن جبريل • وكان جورجيس هذا ثم ابنه من بعده أتباع أبي الأطباء : بختيشوع بن جورجيس الجند يسابوري الذي اتصل بالبلاط سنة ١٧١

---

(١) ابن العبري ص ١٢٧ وتيوخيل المذكور ماروني المذهب . وقد ترجم الالياذة والأوديسة من اليونانية الى السريانية .

(٢) انظر ماري بن سليمان ــ أخبار البطاركة ص ٧٥ .

(٣) انظر القصة لدى ابن العبري (ص١٢٧ــ١٢٨) ولدى عمرو بن متى ــ اخبار البطاركة ص٧٠ ولدى ابن أبي أصيبعه في طبقات الأطباء (طبعة بيروت ١٩٦٥) ص٢١٥ــ٢١٦ .

ثم اتصل ابنه جبرائيل مع البرامكة منذ سنة ١٧٥ بتوصية منه • وقد نجح جبريل مرة في معالجة جارية أصابها شلل موقت في ذراعها فنال من الرشيد نصف مليون درهم[١] • وإذا كان بختيشوع نسطورياً فقد كان هناك أيضاً طبيب سرياني في قصر الخلافة هو يوحنا بن ماسويه النصراني السرياني الذي ولاه الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة وخدم الرشيد ومن بعده الى أيام المتوكل وكان معظماً في بغداد جليل القدر •••»[٢] وإن كان ضيق الصدر وبينه وبين بختيشوع مداعبات كثيرة • وقد استقدم الرشيد الى قصره أيضاً صالح بن بهلة الطبيب الهندي • وبرصوما الزامر ومنكا الطبيب الهندي الآخر ••• وكان من الذمة حول المأمون : عبد الله بن سهل بن نوبخت المجوسي • وما شاء الله اليهودي من المنجمين وسهل بن سابور الطبيب الاهوازي الكوسج الذي لم يكن يجيد حتى لفظ العربية • وجبريل الكحال ؛ وعيسى بن الحكم بالإضافة إلى جرجيس بن بختيشوع ويوحنا بن ماسويه • هذا إذا لم نذكر من اتخذهم الرشيد ثم المأمون في دار الحكمة للترجمة من علماء وتراجمة السريان والنساطرة من امثال : يوحنا بن ماسرجس (أو ماسرجويه) وأبي زيد حنين بن إسحاق العبادي وابنه اسحق وابن أخته حبيش الأعسم الدمشقي ولم يكن ينقص هذه الجماعة الذمية في بغداد لا المال ولا الجاه ولا التكريم والنفوذ في الدولة •

كان بختيشوع يتناول شهرياً اثني عشر ألف درهم وكان ماسويه يأخذ ألف درهم مع صلة سنوية تبلغ عشرين ألفاً وكان راتب جبرائيل

---

(١) انظر ابن العبري ص ١٣٠ـ١٣١ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٢١ .

ابن بختيشوع الشهري عشرة آلاف درهم غير الهبات الدائمة والاقطاعات ....

وكان بجانب هؤلاء جماعة أخرى من مثلها لم تشتهر أسماؤها في الكتب وإن كانت مشهورة لدى الناس في ذلك الوقت لانهم من عمال الخراج وكتاب الدواوين . وفي أيديهم أعناق الناس وعلاقاتهم المالية مع الدولة . وقد روى ابن قيم الجوزية أن «أهل الذمة قويت شوكتهم في زمن المهدي» . حتى «اجتمع الناس الى بابه متظلمين من ظلم الذمة» وأنه «كان للمهدي في بعض ضياعه بالبصرة كاتب نصراني ظلم الناس حتى تظلموا منه الى سوار بن عبد الله القاضي وشهد الناس على النصراني فمضي الى المهدي فأخذ كتاباً منه يطلب الى القاضي التثبت من أمره» ولكن الرجل دخل على القاضي المسجد ومعه كتابه وجماعته وتحدي الخدم وسبهم ودفع كتاب القاضي حتى جلس على يمينه مما دعا هذا القاضي إلى أن يأمر بجره من رجله الي خارج المسجد ويحلف ألا يبرح حتى يؤدي للمسلمين حقوقهم . وقد خشي كاتب القاضي عاقبة ذلك من المهدي فقال له القاضي : أعـز أمر الله يعزك الله ![1] وكان عامل الخراج في أعمال الأهواز وكور دجلة وفارس وعامله في السواد حتى الأنبار من أهل الذمة في بعض الفترات . وقد كتب للمهدي يونس ابن أبي فروة وكان زنديقاً فطلب فاختفى حتى هلك واستكتب الرشيد ازدانقاذار على ديوان الخراج وكان ثنوياً[2] و«كانت زبيدة ، (زوجة الرشيد) تميل الى النصارى وتستخدمهم»[3] .

---

(١) ابن قيم الجوزية ــ أحكام أهل الذمة ج١ ص٢١٥ــ٢١٦ و ٢١٧ .
(٢) الجاحظ ــ رسائل (ط . هارون) ج٢ ص٢٠٢ــ٢٠٣ .
(٣) انظر ماري بن سليمان ــ أخبار البطاركة ص ٧٣ .

ثم نعود في زمن المأمون لنرى أن كاتبه اسماعيل بن داود كان شعوبياً وكان يتهم بالثنوية[1] وكأن يعقوب الكاتب ووهب الكاتب كانا من النساطرة كما كان من الطائفة نفسها ابراهيم صاحب بيت المال[2] وقد بلغت أعداد الذميين في دواوين المأمون على الجيش والخراج أعداداً وفيرة تزيد في بغداد والسواد فقط على ٢٨٠٠ موظف عدا جماعة أخرى من العمال اليهود كانت تتولى بعض الجهات • كما نجد المسلمين يتظلمون الى المأمون في مصر من العمال الأقباط[3] • ومن الأخبار ذات المعنى أن قبطياً ثرياً في زمن المأمون يدعى بكام كان له حكم بورة فكان يقيم الشعائر للمسلمين فإذا كان يوم الجمعة لبس السواد وتقلد السيف وامتطى حصانه ومضى الى الجامع وبين يديه رجاله حتى إذا بلغ باب المسجد وقف وأنفذ رجلا مسلماً من قبله للصلاة بالناس ولا يجد مؤرخ هذا الخبر أي غرابة فيه[4] •

ثم نعود كرة ثالثة لنجد حسب رواية ابن قيم الجوزية : « أن المباشرين للأعمال من أهل الذمة قد كثروا في زمان المتوكل وزادوا على الحد وغلبوا على المسلمين لخدمة أمه وأهله وأقاربه وذلك في سنة ٢٣٥ فكانت الأعمال الكبائر كلها أو عامتها إليهم في جميع النواحي ••• وكانوا قد أوقعوا في نفس المتوكل من مباشرى المسلمين ايضاً وأنهم بين مفرط وخائن • وعملوا عملا بأسماء المسلمين وأسماء بعض الذمة لينفوا التهمة وأوجبوا باسم كل واحد منهم مالا كثيراً • وعرض على المتوكل

(١) رسائل الجاحظ ج٢ ص٢٠٤ .
(٢) ماري بن سليمان ــ أخبار البطاركة ص ٧٥ و ٧٧ .
(٣) ابن قيم الجوزية أحكام ج١ ص ٢١٩ و ٢١٨ .
(٤) ترتون ــ أهل الذمة ص ١٣١ .

فأغرى بهم وظن ما أوجبوا ذلك حقاً • وأن المال في جهاتهم كما أوجبوه ودخل سلمة بن سعيد النصراني على المتوكل وكان يأنس به ويحاضره فقال : يا أمير المؤمنين أنت في الصحاري والصيد وخلفك من يشرب في آنية الذهب والفضة ويملؤها ذهباً عوضاً عن الفاكهة •••» وذكر له جماعة من الموظفين المسلمين الأغنياء وأن أحدهم صاغ صوالجة وأكر (من أجل لعبه) من ثلاثين ألف دينار وأمير المؤمنين يضرب بكرة من جلود وصولجان من خشب • فأحضر المتوكل أولئك الكتاب والموظفين وصادرهم ••• وكانت تلك سعاية من سلمة بن سعيد لتخلو أركان الدولة من الكتاب المسلمين ويتمكن هو ورهطه منها • وقد وصلت الشكوى من عامل خراج دمشق : سعيد بن عون النصراني الى باب المتوكل في سر من رأى[1] •

هذا الخط المتصل من تعاون الدولة العباسية مع الذمة أصيب بعدد من الأزمات الناجمة تارة عن تعسف الذميين وضغط الفقهاء ورجال الدين ضدهم وتارة عن حوادث الحدود البيزنطية :

فقد « اجتمع المسلمون إلى بعض الصالحين (زمن المهدي) وسألوه أن يعرفه قوة شوكة الذميين فامتنع الرجل عن عادته في حضور مجلس الخليفة ولما دعاه أبى فجاء المهدي إلى منزله فقص عليه :اجتماع الناس ببابه متظلمين من أهل الذمة وقال : لقد سلمت الأمانة التي خصك بها الله الى أهل الذمة دون المسلمين ••• وهي أموال المسلمين وأماناتهم وأسرارهم وهذه النصيحة حجة عليك ثم أنشده فيما يقولون :

---

(١) ابن قيم الجوزية ـ أحكام ج١ ص ٢١٩ـ٢٢١ •

بأبي وأمي ضـاعت الاحلام أم ضاعت الأذهـان والأفهام
من صد عن دين النبي محمد ألـه بأمـر المسلمين قيـام ؟
إلا تكن أسيافهـم مشهـورة فينا فتلك سـيوفهم أقـلام

فبادر المهدي فعين عمارة بن حمزة على أعمال الأهواز وقلد حماداً مولاه أعمال السواد وأمر أن لا يترك أحداً من الذمة يكتب لأحد من العمال وإن علم أن أحداً من المسلمين استكتب أحداً من النصارى قطعت يده ... فقطعت يد شاهويه وجماعة من الكتاب[1] ..

وتكررت الأزمة نفسها زمن الرشيد ولعلها كانت في أواخر حياته بعد سنة ١٩١ إذ « صرف الذمة عن أعمالهم واستعمل المسلمين عوضاً عنهم ... »[2] وذلك إثر هجمات الروم التدميرية على أرض الاسلام . وقد أفتاه العلماء في تلك التدابير وغيرها .

ثم تكررت الأزمة مرة ثالثة في عهد المأمون إذ ثار القبط في مصر، وضغط الروم على الجبهة «واتفق للذمة مجاهرة في بغداد بالبغي والفساد على الكسائي ، معلم المأمون فقرأ المأمون أمامه مرة : يا أيهـا الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض . ومن يتولهم منكم فهو منهم» فقال الكسائي : ياأمير المؤمنين : أتقرأ كتاب الله ولا تعمل به . فأمر المأمون باحضار الذمة (وصرفهم) فكـان عدد من صرف وسجن ألفين وثمان مائة . وبقي جماعة من اليهود منحازين إلى حماية بعض جهاته فخرج توقيعه بما نسخته : « أخبث الأمم اليهود . وأخبث اليهود السامرة وأخبث السامرة بنو فلان فليقطع ما بأسمائهم من ديوان الجيش والخراج إن شاء الله »[3] .

---

(١) المصدر نفسه ص ٢١٦ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢١٧ .
(٣) ابن الجوزية ج١ ص ٢١٩ .

على أن الأزمةالكبرى إنما كانت زمن المتوكل حين كثروا فيالاعمال كبيرها وصغيرها واستطاع بعضهم أن يوقع بالكثير من الكتاب المسلمين كما تعسف بعضهم بكل مكان حتى وصـل مرة شيخ كبير من دمشق يتظلم من ابن عو نالنصراني الذي غصبه داره فاشتد غضب المتوكل للدرجة التي كتب بخطه تحت الرسالة التي حملهـا الشيخ : إلى ابن عون : «نفيت من العباس لئن خالفت فيما أمرت لأوجهن من يجيئني برأسك ...» . وكثر تظلم الناس من كتـاب أهل الذمـة وتتابعت الإغاثات وحج المتوكل فشوهد رجل يطوف بالبيت ويدعو عليه فأخذه الحرس فلما سأله المتوكل السبب قال : قد اكتنفت دولتك بكتاب من أهل الذمة احسنوا الاختيار لأنفسهم وأساؤوا الاختيار للمسلمينوأنت مسؤول عما اجترحوا ... «فبكى المتوكل إلى أن غشي عليه» . وخرج أمره سنة ٢٣٥ وفيه : «... قد انتهى إلى أمير المؤمنين أن أناسا لا رأي لهم ... يستعينون بأهل الذمة في أفعالهم ... ويسلطونهم على الرعية فيعسفونهم ... فأعظم ذلك وتبرأ الى الله منه ورأى أن يكتب إلـى عماله على الكور والأمصار وولاة الثغور والأجناد في ترك استعمالهم للذمة في شيء من أعمالهم وأمورهم والاشراك لهم في أماناتهم وماقلدهم أمير المؤمنين ... وجعل في المؤمنين الثقة في الدين والأمانة علىإخوانهم المؤمنين ... ما أغنى عن الاستعانة بالمشركين بالله ... والله يعين أمير المؤمنين على نيته في تعزيز الاسلام ... فليعلم هذا من رأي أمير المؤمنين ولا يستعانن بأحد من المشركين وانزال أهل الذمة منازلهم التي انزلهم الله تعالى . فاقرأ كتاب أمير المؤمنين على أهل أعمالك وأشعه فيهم ولا يعلمن أمير المؤمنين أنك استعنت ولا أحد من عمالك وأعوانك بأحد من اهل الذمة في عمل والسلام»[1] ...

(١) انظر النص الكامل للكتاب لدى ابن قيم الجوزية ـ احكام ج١ ص ١٢٢ ـ ٢٢٤ .

ويبدو أن هذا الكتاب الذي وزع في كافة الأمصار قد نفذ اكثر من الأوامر السابقة من مثله بسبب تكاثر المسلمين في القرن الثالث عنهم في القرن الثاني وتوفر الأكفياء منهم للأعمال • ولعل هؤلاء أنفسهم كانوا وراء إصدار مثل هذا القرار أيام المتوكل ليتولوا الأعمال التي توارث شغلها الذميون بشكل تقليدي منذ العهد الأموي •

ثانيا : العلاقة مع المؤسسات الكنسية : بدأ المهدي عهده بداية طيبة مع بطاركة العراق إذ أخرج جيورجيوس بطريق اليعاقبة من السجن واعاده الى منصبه • ويبدو أن أسقف دارا (الذي أسقطه مؤرخو السريان من قائمة البطاركة) كان قد مات في عهد المنصور فخلت البطريركية لجيورجيس حتى مات في عهد الرشيد سنة ١٧٤/٧٩٠ • وخلا المنصب البطركي النسطوري أيضاً بموت صاحبه يعقوب سنة ١٥٧/٧٧٤ فسأل بعض النساطرة المهدي إجلاس جاثليق للطائفة واجتمع الأساقفة فاختلفوا بين راهب يدعى جورجيوس • كثير العلم وبين أسقف يدعى حنا ينشوع • فأحضر المهدي الاثنين عنده ودعاهما الى الاسلام • فأمسك الأول وتعلل الثاني بأنه لا يعرف العربية ••• وبعد فترة من المناقشة أمر المهدي باختيار حنا ينشوع الثاني والتنكيل بمن يخالفه[1] • ولكن هذا البطريق مات مسموماً بعد أربع سنوات فعمل أبو قريش عيسى الطبيب ، وأبو نوح الكاتب على اختيار البطريق طيماثاوس الذي أغرى بعض الأساقفة بالمال أيضاً • خداعاً منه[2] ، وقد

---

(١) أنظر ماري بن سليمان ــ أخبار البطاركة ص ٧١ ــ ٧٢ . وانظر كذلك عمرو بن متى ص ٦٣ ــ ٦٤ .

(٢) المصدران نفسهما ص ٧٢ وكذلك ص ٦٤ .

خالفه بعضهم ومنهم اسقف مرو وأسقف جند يسابور ونصبوا بطريقاً آخر ووقعت الخصومات بين الناس والضرب والحبس فلما حرم البطريق المخالفين له جاء أسقف مرو الى المهدي فأسلم على يديه وقلده المهدي بعض اعمال البصرة • وأقام مدة ثم خرج الى بلد الروم[1] • أماطيماثاوس فقد استمر على البطركة ثلاثاً وأربعين سنة مدة عهد المهـدي والهادي والرشيد والأمين ثم مات في عهد المأمون أواخر سنة ٢٠٦/٨٢٣ وكانت علاقاته مع هؤلاء جميعا كأحسن ما تكون العلاقة : يتردد على البلاط ويناقش الخلفاء في الدين • ويذكرون أنه كان يحظى بتكريم خاص من زبيدة وأن السبب في ذلك أنه استطاع إيجاد مخرج فقهي للرشيد في يمين بالطلاق حلفها عليها «وبهذا حظى عندها وعاونته على ساير أموره وما يحتاج إليها فيه وأعطته آلات الذهب والفضة والديباج وغيره ••»[2] ولم يتدخل الخلفاء لمنعه من أن يرسل بعوث التبشير إلى جنوب الجزيرة العربية وبلاد الخزر وملوك الترك والصين حتى قال مؤرخو النساطرة إنه لم يبق ملك إلا وكاتبه وجذبه الى الايمان وتلمذه ! ••» «ووردت عليه كتبهم •••»[3] ومنهم خاقان الترك • الذي تذكر احدى رسائل البطريق أنه اعتنق المسيحية مع شعبه كله تقريبا حوالي سنة ٧٨٢ – ٧٨٣ •

ولم يكن البطريق اليعقوبي الذي اختير في عهد الرشيد سنة ١٧٧ ٧٩٣ وهو قيرياقوس التكريتي على مثل علاقة زميله مع الخلافة وإن

---

(١) ماري بن سليمان – اخبار البطاركة ص ٧٢ •
(٢) أنظر المصدر السابق ص ٧٣ وص ٧٥ والمخرج الذي وجده فيما قيل انها تتنصر فيحل قتلها ثم تسلم فتحل للرشيد •
(٣) المصـدر السـابق ص ٧٣ وص٧٤ •

حفظ له الخلفاء مكانته الدينية وذلك أنه كان فيما يبدو مشغولا بانقسامات طائفته وقد قضى مدته حتى موته سنة ٢٠٢/٨١٧ في نضال متصل مع الاساقفة والرهبان الذين عارضوا رغبته في الاتفاق مع بعض الطوائف الأرمنية ثم تلاه ديونيسيوس التلمحري ما بين سنتي سنة ٢٠٢ ـ ٢٣٠/٨١٨ ـ ٨٤٥ فقضى الكثير من وقته في محاولة الاستقرار في كرسيه وقد ظهر له خصوم استعانوا بالسلطة ضده كما استعان هو ضدهم بها وكان أمر منطقة العراق ثم أمر الجناح الغربي من العالم الاسلامي موكلا من قبل المأمون الى عبد الله بن طاهر فكان عليه أن يحل المشكلة • وقد اتفق أن كان مرة في كالينيكوس من أعمال انطاكية فاجتمعت على بابه آلاف النصارى من أنصار ديونيسيوس وأنصار خصمه الاسقف أفرام وأدخل عبد الله البطريق أولا ورجاله قبل الخصم الشاكي ورجاله وسأل البطريق عن الخبر فقال : إنهم يشاغبون عليه كما شاغبوا على أسلافه لاثارة الاضطراب في البلاد ثم أدخل عليم إفرام فسأله عن شأنه فقال : إنه هو البطريق الشرعي • فأرسل عبد الله الى قائد الجند أن يسأل الجموع الواقفة ببابه عن بطريقها الشرعي فصاحوا: لا بطريق سوى ديونيسيوس • فجرد عبد الله الأسقف افرام من لباس البطرقة وحرمه لبس شعارها أو حمل عصا الرعوية ، أو السفر في البلاد وأعاد ديونيسيوس الى كرسيه مع التبجيل •••

ولم يسكت افرام عن ذلك واستطاع أخوه سيمون أن يتذرع بوثيقة قديمة من الامام علي بن أبي طالب في بعض الأديرة وبنفوذ بعض المسؤولين في بغداد وببعض الشكايات من النصارى ضد ديونيسيوس وظلمه وأن يستصدر مرسوماً من قبل الخليفة المأمون بقبول افرام بطريقاً • وعاد سيمون بالمرسوم وجمع حشداً كثيفا من

الرهبان وعلى رأسهم اخوه افرام بلباسه الرسمي • وذهب إلى عبد الله ابن طاهر الذي استدعى ديونيسيوس •• ولكنه حين قرأ مرسوم المأمون سحب يده من الأمر واضطر ديونيسيوس أن يصرف الكثير من الجهود في بغداد ومن الرشاوي والوسائط لكي يحتفظ بالمنصب[1] •

ومن الملاحظ أن هذا النوع من التمزق الطائفي والقلق والصراع البطريقي شمل منذ مطالع القرن الثالث الهجري كلا من الطائفتين النسطورية واليعقوبية على السواء ووقعتا في الخلاف الشديد والضعف ولعل السبب إنما يرجع إلى شعورهما بالتناقص العددي لحساب الجانب الاسلامي ورغبتهما في القوة والدفاع عن العقيدة •

ويلاحظ الانشقاق نفسه في الطائفة اليهودية في تلك الفترة ذاتها فقد « اختلف اليهود وكان بينهم شقاق على الرئاسة (زمن المأمون) فإن يهود طبرية رأسوا عليهم رجلا اسمه داوود ويهود بابل رأسوا عليهم دانيال من العنايتيين وهم شيعة منهم استبدلوا بالسبت الأربعاء •ورفعوا دعواهم إلى المأمون فأبرز أمراً فحواه انه إذا اتفق عشرة رجال من أي مذهب كانوا ، على إقامة رئيس ساغ لهم ذلك سواء كانوا نصارى أو يهوداً أو مجوساً»[2] •

وقد طبق المأمون هذه القاعدة ، في الواقع ، مع النصارى أيضاً

---

(١) تريتون ـ أهل الذمة

(٢) الياس الدبس ـ تاريخ سورية (بيروت سنة ١٩٠٠) الجزء ٣ق المجلد الخامس ص ٣٤٧ .

فلم يتدخل في شؤون الكنيستين النسطورية واليعقوبية بشكل مباشر ولكن كبار الذميين من رجال البلاط هم الذين كانوا يمارسون نفوذهم عليهما لإمضاء آرائهم • ونرى أسماء : جبريل بن بختيشوع وميخائيل الطبيبين ، ويعقوب ووهب الكاتبين تتردد في أخبار اختيار البطاركة النسطوريين الثلاثة الذين تعاقبوا في عهد المأمون والمعتصم على منصب الجاثليق • وربما أثر المأمون في اختيار سبر يشوع للمنصب سنة ٢١٧ لأن الخليفة وأصحابه ومن كان في حاشيته من النصارى لقوا منه حين زاروا دمشق سنة ٢١٦ «أحسن الخدمة ، واعتقدوا فيه الجميل» بماقدم لهم من المعونة حين أصابهم فيضان نهر بردى[1] • لكن أسماء سلمويه الطبيب وأخيه ابراهيم صاحب بيت المال هي التي تظهر في اختيار البطريق التالي له : ابراهيم • فقد تدخلا لدى المعتصم حتى أمر بـرد المرشح المخالف في الطريق وتنصيبه[2] • وجرى الأمر على النحو نفسه بالنسبة للبطريق التالي تاذاسيس الذي سأل بختيشوع الطبيب وعدد من وجوه الذميين معه الخليفة المتوكل في أمره « فأمر بتقليده سنة ٢٣٨ وسر النصارى بانعطاف المتوكل (بينما) اجتهد ابراهيم بن نوح (أحد كبار موظفي القصر الذمة) في إزالة المتوكل عن ذلك ولم يمكن» ثم ما لبث ابن نوح أن أقنع المتوكل بتغييره فلم يكن إلا شهر بعد تنصيبه حين تغير الخليفة على بختيشوع فاعتقله وصادره وعلى البطريق فبعث إلى بغداد بسجنه وحمله الى سامراء ••• ولم يكن ذلك عن اضطهاد ديني بحت ولكن أحد الاطباء المعروفين وهو سرجيس تحول عن المذهب النسطوري

---

(١) المصدر السابق ص ٧٦ إذ يقول : «... لما حصل (المأمون) بدمشق في وقت الغرق » .

(٢) المصدر السابق ص ٧٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٧٩ — ٨٠ .

وأبلغ الخليفة أن الجاثليق «يكاتب ملك الروم ويدعو له ويرفع أخبار المملكة . وسأل المتوكل الجاثليق عن الحال فأنكرها وسامه اليمين فأبى ... وأشار من في الخدمة من الرؤساء بأن يحلف فلم يفعل» وهكذا بقي في السجن ثلاث سنوات وستة أشهر ...

*

كانت الأزمة ضد النصارى قد بدأت إذ ذاك . وبلغ تضييق المتوكل عليهم أوجه وتخلل ذلك إيقاع من النصارى بعضهم في بعض .. حتى إذا هدأت العاصفة بعد سنوات وخرج المتوكل من العراق يقصد الشام قوبل من مطران نصيبين «بالرياحين وعقد القباب» فلما اجتاز تحتها استحسنها وحمل إليه المطران «جميع ما يحتاج إليه من الخيرات والفاكهة والشراب ... فاستقبله المتوكل في معسكره وأطلق له عشرة آلاف درهم وخف ما في قلبه على النصارى ...» . وفرق المطران المال على الحواشي فعظم ذلك عند المتوكل وأوصى الأمير والقاضي في نصيبين بقضاء حوائجه وسأل الفتح ابن خاقان كيف تكافئه فقال : إذا مات الجاثليق تجلسه لأنه «لايجوز في سنة النصارى إزاحته» . «فوصاه إذا مات تاذاسيس أن يبلغه ذلك ... وتعطف المتوكل على النصارى . وعمل على إطلاق تاذاسيس . واتفق موت يوحنا ابن ماسويه الطبيب وكان عزيزاً عليه فأمر بتبجيله وإكرامه في تجنيزه . فلما قالوا : إن القسس والرهبان مطرودون من سامراء أمر بردهم وإطلاق الجاثليق ولا يسامون من بعد الخروج من المدينة ...» : واستأذن الكتاب والمتطببون في انحدار الجاثليق إلى بغداد ... فوقع (المتوكل) إلى أمير بغداد بإدخاله بغداد مكرماً . وخرج من سر من رأى أحسن خروج وادخل بغداد أحسن دخول بالاكرام العظيم والتبجيل...»[1]

---

(١) المصدر السابق ص ٧٩ ـ ٨٠ .

ولما مات بعد سنة وعدة أشهر نصب سرجيس مطران نصيبين بدلا منه ... على الوعد الذي وعده المتوكل كما انتقل هـو بكرسيه إلى سامراء ليكون اقرب الى دار الخلافة ...

وإذا نظرنا من جهة أخرى إلى رعاية المعابد الكنسية وجدنا كما قال تريتون أنه من «الحقائق» الثابتة «أن الكنائس كانت تبنى بحرية وبموافقة السلطة وأحياناً بمساعدتها ... والمراجع النصرانيـة تخلو خلواً تاماً من الإشارة إلى منع أو هدم المعابد مما ينهض دليلا على عدم وقوع ذلك • وإذا خلينا الاشارة الوحيدة (إلى أمر عمر بن عبد العزيز وهو أمر مشكوك فيه) فليس هناك أي إشارة حتى سنة ١٥٠ أو سنة ١٧٠ هـ الى صدور أمر بمنع استحداث الكنائس بل ان المتوكل كان أول من حرم إقامة بيعة جديدة بمقتضى مرسوم سنة ٢٣٥ ...»(١) •

والواقع أن أول أمر يتصل بهذا الموضوع إنما كان على ما يبدو سنة ١٦٢ والأمر الانتقامي الذي أصدره المهدي إثر الهجمات التدميرية التي قادها امبراطور بيزنطة ليو الرابع (لاون) في الأراضي الاسلامية منذ سنة ١٥٩ • يقول مؤرخ نسطوري إن «لاون أخرج (الى المهدي) بطريقين (أي قائدين) من الوجوه وكسروا عسكره وسبوهم فأغاظه ذلك فهدم البيع وسلبوا النواحي وأمر أن لا يقتني النصارى عبيداً» كمـا أمر بتهجير أعداد من اليعاقبة الى بلاد الروم ولا شك أن دوافع هـذا الأمر كانت دفاعية أو كانت على الأقل وقائية تتصـل باتهـام نصارى الحدود لدى المهدي بممالأة الروم ومعونتهم • ولكن الأمر لم يطل فما

---

(١) ترتون ـ أهل الذمة في الاسلام (الترجمة العربية) ص ٥١ ـ ٥٢ •

إن انتصرت جيوشه سنة ١٦٣ حتي «عاد فأزال ما النصاري فيه »[١]

ومن الواضح أن تدابير الهدم لم تتجاوز منطقة الحدود والثغور لأن لم تسمع عن تنفيذها في أي مكان آخر • ونسمع عن خبر آخر زمن الرشيد إذ أخبره حمدون بن علي أحد رجال البلاط «أن النصارى يعبدون عظام الموتى وهي في بيعهم فأمر بهدم البيع فهدم بيع البصرة والأبلة وغيرها (أي في منطقة السواد فقط) واجتمع النصارى الذين في خدمة الرشيد وعرفوه •••» أنه تكريم لأجساد الأشهاد والصالحين وليس بعبادة ••• «فتحقق ما قالوه وأمر بإعادة بناء البيع» ![٢] •

ولعلنا نلاحظ أن النصارى واليهود حين بنيت بغداد ثم بنيت سامراء بعدها قصدوا العاصمتين وسكنوهما وأنشأوا فيهما الكنائس والمعابد المختلفة العديدة • بل انتقل إليهما مقر الرؤساء الدينيين أحياناً• فصار للبطاركة مراكزهم فيهما ولرؤساء الجالوت اليهود مقراتهم مما يعني بوضوح عدم وجود أي خطر في هذا السبيل •

ولا ندري بالضبط متى كان انتقال مقر الرؤساء الدينيين المختلفين الى بغداد ولا شك أنه كان في وقت مبكر • ولئن ظل للمجوس والنساطرة مقراتهم التقليدية في المدائن ولليهود مقرهم العتيق في بابل فإن النساطرة واليهود على الأقل قد أقاموا مقرات جديدة في بغداد لرؤسائهم الروحيين وربما قام النساطرة خاصة بذلك في عهد المهدي نفسه وبتأثير أبي قريش الطبيب فنال بطريقهم المسمى بالجاثليق[٣] حق السكنى في بغداد وجعلها

---

(١) ماري بن سليمان ـ اخبار البطاركة ص ٧٤ •
(٢) المصدر السابق نفسه ص ٧٥ •
(٣) الجاثليق هي تعريب كلمة كاثوليكوس ويستعملها الأرمن والنساطرة •

مقراً لكرسيه فقام من حوله حي للنصارى عرف بدار الروم وإن بقيت السيامة الدينية وحفلات التنصيب التقليدية بالمدائن . وإذا لم ينل بطريق اليعاقبة السريان هذا الحق وإن حاولوه مراراً فلذلك أسباب عديدة منها أن اكثرية نصارى العراق كانت من النساطرة فكان للجاثليق فيها سلطة روحية على سبع أبرشيات (مطرانيات) فيها البصرة والموصل ونصيبين وتكريت . ومنها أن نفوذ النساطرة كان أقوى في البلاط العباسي وفي الحكومة فكانوا يدسون على اليعاقبة ويعملون على منعهم من حق أقامة مقر بطريقي لهم ببغداد فبقي مقر بطريقهم في انطاكية وليس له في العراق اكثر من أبرشية في تكريت وبعض الأديرة في بغداد . ومنها أخيراً أن اليعاقبة كانوا متهمين بممالأة بيزنطة والميل مع الروم أحياناً . وكان هذا من أهم الاسباب في منعهم من إقامة ممثل مستقر في العاصمة العباسية .

وكان الولاة بدورهم يتصرفون في أمر بناء الكنائس حسب اجتهادهم فإنا نرى والي مصر زمن الهادي وهو علي بن سليمان العباسي وكان قدرياً ، معتزلي الهوى يصر في ولايته التي استمرت حتى السنة الثانية من عهد الرشيد على «... هدم الكنائس المحدثة بمصر (بعد الفتح) فهدم كنيسة مريم ... وهدم كنائس مجرس قسطنطين . وبذل له (القبط) خمسون ألف دينار في تركها فامتنع ...»[1] .

على أن مجرد تسجيل هذه الحوادث دليل على أنها كانت تدابير محلية وعابرة ويظهر من أقوال مختلف المؤرخين النصارى بالعكس أن

---

(١) الكندي الولاة والقضاة ص ١٣١ والمقريزي (المخطط ج٢ ص ٤٩٣) يجعل هدم هذه الكنائس إثر ثورة سخا سنة ١٥٦ في زمن المنصور .

عملية بناء وتجديد البيع كانت عامة مباحة مستمرة . ونسمع في زمن المهدي نفسه أو بعده بقليل عن بناء دير للروم الشرقيين في بغداد ، وعن بناء دير سمالة بالقرب منها أيضاً[١] وقد جدد البطريق طيماثاوس في تلك الفترة نفسها دير كليلشوع واتخذه مقراً له في المدائن[٢] . « وأخرجت زبيدة (اكراماً لطيماثاوس) توقيع الرشيد باعادة المستهدم من الدير وتوسيعه وعملت أعلام الشعانين وصلبان من ذهب وفضة وعاونت سرجيس مطران البصرة على بناء البيع بها . وعضدت جبريل الطبيب في خطابه (للرشيد) في ذلك »[٣] .

وبالمقابل جاء موسى بن عيسى والياً على مصر من قبل الرشيد سنة ١٧٢ فأذن للنصارى في بنيان الكنائس التي هدمها علي بن سليمان فبنيت كلها إثر الفتوى التي أفتاها اكبر فقهاء مصر في ذلك الوقت : الليث ابن سعد وعبد الله بن لهيعة بأن عامة كنائس مصر بنيت زمن الصحابة والتابعين فلم يعترضوا على بنائها[٤] . وقد جاء بطريق الملكانية في مصر الى بغداد يعالج بعض جواري الرشيد ونجح في العلاج فطلب من الخليفة استرداد بعض الكنائس التي كان القبط استولوا عليها من طائفته فأمر له بذلك[٥] .

---

(١) انظر ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ج٢ ص٦٦٢ وص٦٧٠ .
(٢) ماري بن سليمان ـ أخبار البطاركة ص ٧٤ .
(٣) المصدر نفسه ص ٧٣ .
(٤) الكندي الولاة والقضاة ص ١٣٢ والمقريزي ـ الخطط ج ٢ ص ٤٩٣ .
(٥) المقريزي ـ الخطط ج٢ ص ٤٩٣ .

ولا شك أن سياسة الرشيد بقيت على هذه الأسس نفسها حتى وفاتـه •

وإن كانت أحداث جبهة الروم في أواخر حياته قد دفعتـه الى أن يأمر سنة ١٩١ «بهدم الكنائس في الثغور»(١) والى أن ينـي مدينة الحدث من انقاض اثنتين منها ولعله اتخذ هذا التدبير عقوبة لما رأى من تعاون نصارى الحدود مع الروم •

وقد تابع الأمين سياسة أبيه في هذه الناحية ويروي أنه رأى حلماً يتبين فيه ظلم حمدون بن علي في المنع من بناء البيع فأصـدر منشوراً يسمح بها • وحدث سنة ١٩٨ ، بعـد مقتـل الأمين أن رأى ابراهيم القرشي والي حران بعض العمائر المستحدثة حول قصره فلما تبين أنها بيع حديثة البناء أمر ألا تغرب شمس يومه حتى تكون قد سويت جميعاً بالأرض • وسرعان ما قدم الفعلة وهدموا مذبح الكنيسة الكاثوليكية ومذبح كنيسة تيوتوكوس وجزءاً من بيعة مارجرجس وكنائس أهـل خلقدونية (الملكانية) والنساطرة وكنيس اليهود • ولما أقبل الصباح الثاني ثاب الى رشده وأذن بإعادة تشييد ما هدمه بالتدريج وسرعان ما جددت البيع والكنائس •••»(٢) •

وقد خربت أثناء فتنة الامين والمأمـون ديارات كثيرة في وادي هبيب (النطرون) في مصر ثم أعيد ترميمها بعد سنوات قلائل • وترد

---

(١) الطبري ج٨ ص ٣٢٤ (٣/٧١٣) •
(٢) ترتون ــ اهل الذمة (بالعربيـة) ص٤٩ نقلا عـن ابن العبري (بالسريانية ــ الترجمة الفرنسية ص١٢٩) •

عدة أخبار تتصل ببناء عدد من الكنائس في مصر زمن المأمون : فقد قام بعض حجابه ببناء كنيسة العذراء بناحية القنطرة وحصل أثنان من الفراشين على إذن ببناء كنيسة على جبل المقطم لأن كنائس القلعة شديدة البعد وبنى أحد الأثرياء عدة كنائس رائعة الجمال في بلدته بورة[1] ... الخ كما بنى الطبيب بختيشوع بن جبرائيل الدير الذي دفن فيه أبوه وهو دير مارجرجس في المدائن وجمع له رهباناً وأجرى عليه الجرايات والنفقات[2] .

وحين تولى عبد الله بن طاهر الجانب الغربي من الخلافة للمأمون: قدم عليه وفدمن العرب منحران والرها وسميساط يسألونه هدم الكنائس التي استحدثت في السنوات العشر الأخيرة (أثناء فتنة الأمين والمأمون وبعدها) فرفض سؤالهم قائلا إن هؤلاء النصارى المساكين لم يستحدثوا عشر الكنائس التي هدمت أو خربت ... ويذكرون أنه مر في بيت المقدس عائداً إلى بغداد فشكا إليه المسلمون زيادة النصارى في قبة كنيسة القيامة حتى جاوزت قبة الصخرة وأمر ابن طاهر بسجن توماس البطريق حتى تنجلي الحقيقة ولكنه أطلق من السجن بحيلة منطقية قيل إن بعض المسلمين جاء الى سجنه فعلمه إياها[3] .

وفي عهد المعتصم جدد بعض البطاركة عدداً من البيع : كتجديد (سبريشوع) أبنية مارفثيون الدير القديم بجانب بغداد وبناء بيت الأشهاد والأروقة وبعض الأديرة القديمة الأخرى . أما الخليفة نفسه

---

(١) المصدر السابق ص ٤٩ .
(٢) القفطي ــ أخبار الحكماء ص ١٤٢ .
(٣) ترتون ــ اهل الذمة ص ٥٠ ــ ٥١ .

«فابتاع من السكان النصارى في سر من رأى ذلك الموضع والخرابات المتصلة بالمطيرة»[1] وبنى عليها العاصمة الجديدة للخلافة •

ولما جاءت العاصفة مع المتوكل «••• أمر (سنة ٢٣٩) بهدم كل البيَع المحدثة في الاسلام»[2] ويذكرون تتيجة لذلك أنه «••• جد في هدم البيع والدير بسر من رأى • وهدم دير بدورقنة (المقر البطريقي) وأقطعه لمحمد بن جميل ، صاحب الشرطة ، ليبنيه منزلا ••• وهدم عدة بيع وأعمار منها دير مارقرياقوس بالأنبار وفيه يعمل الشعانين ••وهيكل ماريونان •••»[3] ولا شك أن هذا الأمر الذي كان الأول من نوعه في الاسلام لم يستمر طويلا كما لم ينفذ التنفيذ الدقيق وما هي إلا سنوات حتى عاد الخليفة نفسه فأهمل تطبيقه •

أما المجوس في ايران وخراسان فلم يكن التدخـل في شؤونهم الدينية ولا في معابدهم وبنائها موضوع بحث أو تفكير لدى العباسيين، وكانوا ، رغم خسارتهم المستمرة في الاتباع ، يتابعون حياتهم الدينية المعتادة وتنظيماتهم الكهنوتية على الرسم الذي اعتادوه دوماً • ولهم رؤساؤهم والكهان وبيوت النار التي يتعهدون • وإذا أصدر عمر بن عبد العزيز مرة كتابه الى عماله بأن لا يهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار صولحتم عليه ولا تحدثن كنيسة ولا بيت نار •••»[4] فإن الخلفاء العباسيين لم يكونوا بحاجة الى إصدار هذا الأمر بالنسبة لبيوت النار

---

(١) ماري بن سليمان ــ اخبار البطاركة ص ٧٧ .
(٢) الطبري ج٩ ص١٩٦ (١٤١٩/٣).
(٣) ماري بن سليمان ــ اخبار البطاركة ص ٧٩ .
(٤) الطبري ج٦ ص ٥٧٢ (١٣٧١/٢) .

على الأقل لأنهم تركوها لحرية الناس المطلقة • يحدثون من هذه البيوت ويجددون ما يشاؤونه • حتى إننا لنجدها في القرن الرابع الهجري ماتزال تملأ البلاد والقرى في الجناح الشرقي من الخلافة الاسلامية : ونقرألدى ابن حوقل : «أن بيوت نيران (فارس) كثيرة • ويعجز علمها من سوى الديوان إذ ليس من بلد ولا ناحية ولا رستاق إلا وبها عدد كثير من بيوت النيران • غير أن المشاهير التي يفضلونها على غيرها في التعظم منها بيت نار الكاريان ••• وبيت نار بجرة وبه تحلف المجوس في المبالغة بأيمانهم • وبيت نار عند بركة جور ••• حدثني من قرأ عليه بالفهلوية أنه أنفق عليه ثلاثون ألف ألف درهم ••• وبيت ••• نار في قرية السوكان يرى ••• من شيراز ••• وبيت ••• وبيت • وبيت »[1] • وكانت الموارد المالية لهذه البيوت من الضخامة بحيث أن بيت نار المدائن ، جنوب بغداد « كانت النفقة عليه تضعف على خراج فارس »[2] • وخراج فارس في تلك الفترة كان حسب ما ذكر قدامة بن جعفر حوالي : أربعة وعشرين ألف ألف درهم •••[3] •

ثالثا : العلاقة مع عامة الذمة : بالرغم من الصور القائمة التي تعطى أحيانا كثيرة سواء في التواريخ المسيحية القديمة أو الدراسات الاستشراقية لأوضاع الذمة تحت الحكم الاسلامي عامة • فإن التدقيق في أوضاعهم ، في العصر العباسي الأول خاصة يكشف عن صورة مغايرة تماماً • فيها من التعايش والرعاية اكثر بكثير مما فيها من عواصف

---

(١) انظر ابن حوقل ـ صورة الأرض ص ٢٤٢ .
(٢) انظر ابن رستة الاعلاق النفيسة ص ١٨٦ .
(٣) انظر قدامة بن جعفر (القطعة المنشورة مع كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه) ص ٢٤٩ .

التضييق الطارىء • أما الاضطهاد فلم يعرفه الذميون أبداً من العباسيين. وإذا كان من الطبيعي في المجتمعات القائمة على أساس الدين ــ كما هو الحال في الحكم العباسي الاسلامي ــ ان تكون القيمة هي القيمة الدينية فلاينظر أهل الدين الحاكم الى أصحاب الأديان المخالفة إلامن خلال نظرة الاستعلاء فإن هذه النظرة كانت ، في العصر العباسي الأول ، في أبسط وأهون صورها • وإذا كانت كتلة كبيرة من السكان بصورة عامة هي من أهل الذمة فإن هذه الكتلة كانت في الواقع تتابع حياتها العادية المألوفة في ظل العباسيين الكبار بدون أي عائق جدي : تصلى • وتبني المعابد وتتبع الرؤساء الروحيين وتدفع لهم الأموال وتخرج مواكبها في الأعياد سواء في العراق أو الجزيرة أو مصر وتحمل شعاراتها الدينيةأمام كافة المسلمين دون مانع • وربما كان المجتمع الايراني المجوسي في هذه الناحية اكثر حرية واستقرارا وأقل تعرضاً للعواصف المضادة لأنه كان الى حد ما مجتمعاً متجانساً ، ومعظمه ايراني وعلى المجوسية فالعرب المسلمون فيه والمسيحيون على السواء أقلية لا تفرض نفسها والتغلغل الاسلامي كان يجري على هون وبطء فيه بدون إثارة أو تحد لأحد •

أما المجتمع العباسي في العراق والجزيرة والشام ومصر فكان الصراع بين العقائد والأجناس فيه اكثر حدة ووضوحاً • ومع ذلك فلم يكن المسلمون يرون في الشعائر الدينية التي يقوم بها الذميون أمامهم نوعاً من التحدي للاسلام ولا يتعالون عليهم إلا في بعض أحوال التنافس والخصومة • بل كان النصارى من الذمة خاصة يحتكرون المناصب والمهن الهامة ويتمتعون بكافة آلاء الحياة بل يحظون بنوع من التعظيم في قلوب

العوام ، بشهادة الجاحظ الذي كتب يفسر ذلك قائلا :[1]«...ومما عظمهم في قلوب العوام وحببهم إلى الطغام أن منهم كتاب السلاطين وفراشي الملوك وأطباء الأشراف ، والعطارين والصيارفة . ولا تجد اليهودي إلا صباغاً أو دباغاً أو حجاماً أو قصاباً أو شعاباً (يصلح الشعب أي الصدع) ...» ونحن لم نخالف العوام في كثرة أموال النصارى وأن فيهم ملكا قائماً وأن دماءهم أنظف وأن صناعتهم أحسن ... فأما الملك والصناعة والهيئة فقد علمنا أنهم اتخذوا البراذين الشهرية والخيل العتاق واتخذوا الجوقات وضربوا بالصوالجة وتحدقوا المديني ولبسوا الملحم والمطبقة (من الملابس الفاخرة) واتخذوا الشاكرية (الحرس) وتسموا بالحسن والحسين والعباس والفضل وعلي . واكتنوا بذلك أجمع ولم يبق إلا أن يتسموا بمحمد ويكتنوا بأبي القاسم فرغب إليهم المسلمون وترك كثير منهم عقد الزنانير وعقدها آخرون دون ثيابهم وامتنع كثير من كبرائهم من إعطاء الجزية وأنفوا مع اقتدارهم من دفعها وسبوا من سبهم وضربوا من ضربهم ومالهم لا يفعلون ذلك واكثر منه وقضاتنا أو عامتهم يرون أن دم الجاثليق والمطران والأسقف وفاء بدم جعفر وعلى والعباس وحمزة ...» وهذه الصورة الحياتية الحية التي يقدمها الجاحظ لم تكن مقصورة على الكبراء بل شملت في تسامحها حتى الجواري وقد كانت بعضهن تحمل صليبها في بلاط الخلفاء فلا تمنع . يروي الطبري «أن المهدي دخل بعض دوره يوماً فإذا جارية له نصرانية وإذا صليب من ذهب معلق في (صدرها) فاستحسنه فمد يده فأخذه فولولت على الصليب فقال المهدي في ذلك :

---

(1) الجاحظ ــ ثلاث رسائل (نشر يوشع فنكل ــ القاهرة سنة ١٣٤٤) ص ١٧ ــ ١٨ .

يوم نازعتها الصليب فقالت ويح نفسي : أما تحل الصليبا[1]

ويذكرون عن الهادي أنه أمر مرة بكسر تابوت بعض الأشهاد المسيحيين ورميه في الماء ثم عاد عن ذلك تكريماً له . أما في عهد الرشيد فقد كان من المعتاد أن يخرج النصارى في موكب كبير وبين أيديهم الصليب في أعياد الفصح على الأقل ، ولكن دون رايات[2] وكانت زبيدة «تميل إلى النصارى وتستخدمهم وعملت اعلام الشعانين وصلبان من ذهب وفضة ... »[3] وبالاضافة إلى هذا فقد كان بعض المسلمين يحتفظون ، وربما كان ذلك بحكم التقاليد والايمان بالغيبيات بكثير من التكريم لبعض البطارقة ورجال الدين الذميين . ويذكر بعض مؤرخي السريان أن مارقرياقوس البطريق كان مسافراً سنة ١٨٦ بالسفينة على نهر دجلة نحو الشمال فطلب بعض النصارى من أهل الموصل الى صاحب السفينة التوقف . وأعطوه مبلغاً من المال وأقبلت حشودهم وحشود المسلمين معهم تتملى من طلعته وبركته[4] . كما صدق الناس أن صلاة الأسقف مسيس كانت السبب في زيادة النيل حوالي سنة ١٤٠ مما دفع الوالي أبا عون إلى احسان السيرة في الأقباط[5] وكانت النذور أحياناً تأتي بعض البيع والأديرة من بعض المسلمين . بل نجد بعد قليل من

---

(١) الطبري ج٨ ص ١٨٥ (٣/٥٤٢) .

(٢) انظر ترتون – اهل الذمة (الترجمة) ص ١١٦ وكتاب التاريخ المنسوب الى ديونيسيوس التلمحري الجزء ٢ ص ٣ .

(٣) ماري بن سليمان – اخبار البطاركة ص ٧٣ .
Aosonymus Syriac Chronicle t. II, P. 3

(٤) ترتون – أهل الذمة (الترجمة) ص١٧٤ نقلا عن المؤرخ السرياني توماس مارغا .

(٥) ساويرس – سير البطاركة ص٢٠٠ وقد خفف عنهم الوالي ابو عون الخراج أيضا لذلك .

أواخر هذا العصر الذي ندرسه أن ابن طولون في مرضه الأخير يطلب الى الناس الدعاء له فيأتي المسلمون ويأتي اليهود والنصارى ، معتزلين عن المسلمين ، عند مسجد محمود بجبل المقطم ، ثم يحضرون في اليوم الثالث مع النساء والصبيان يدعون له[1] •• ولم يذكر المؤرخون مرة أن أحد الذمة اضطهد أو هضم حقه أو منع العدالة أو أبيح ماله أو منع من ممارسة شعائره الدينية لمجرد اعتقاده بغير الاسلام • وإذا كانت المناقشة الفقهية قد تناولت مثلا جواز الأكل عند الذمي أو تعظيمه لمكانه العلمي أو حضور احتفالاته الدينية أو ضرورة محاكمته طبقاً لقواعد دينه فلدينا من الأمثلة على ذلك الكثير :

آ ــ يروي أبو زكريا الأزدي في تاريخ الموصل أن قوماً من بني مالك في نواحي الموصل قطعوا على قوم من النصارى هناك الطريق ونهبوا مالهم فخرج إليهم السيد بن أنس الأزدي والي الموصل بالجيش وقد قبلوا « رد البر بأعداله والمال بخواتيمه » فرفض إلا تسليمه مع من أخذه • فأتوه بالجميع وكانوا مائة فضرب أعناقهم جميعاً وصلبهم مكانهم وهدد لئن زال من الخشب (خشب الصلب) واحدة ليعودن إليهم[2] ••

ب ــ يذكر المقريزي قصة مارية القبطية العجوز صاحبة قرية طاء النمل التي جاوزها المأمون بموكبه فلم يقف بها استهانة بشأنها فخرجت إليه مارية تصيح متظلمة فوقف وكان لا يمشي أبداً إلا والتراجمة بين يديه من كل جنس فذكروا له أن القبطية تتظلم أنه لم يقف بقريتها وأن القبط سوف يعيرونها بذلك وبكت فقبل المأمون دعوتها • وجاء ولدها

---

(١) الكندي ــ الولاة والقضاة ص ٢٣١ .

(٢) أبو زكريا الأزدي ــ تاريخ الموصل ص ٣٦٧ .

بما يحتاج مطبخ الخليفة من الغنم والدجاج والفراخ والسمك والتوابل والسكر والعسل والطيب والشمع والفاكهة والعلوفة .. وكان مع المأمون أخوه المعتصم والقضاة يحيى بن أكثم وابن أبي داؤود فأحضرت لكل واحد منهم من الاكرام ما استعظمه فلما أصبحوا للرحيل جاءتهم بعشر وصائف يحملن الأطباق . وحسب المأمون أنها « هدية الريف الكامخ » فإذا في كل طبق كيس من الذهب[1] . وقريب من هذا الخبر ما ذكروا من دعوة الطبيب بختيشوع للمتوكل بطلب من الخليفة نفسه[2] .

جـ ـ ودخل يعقوب الكندي مرة ـ وهو يهودي ـ الى حضرة المأمون وجلس مجلساً فوق مجلس أحد كبار المسلمين فلما قال له هذا : لماذا تجلس وأنت اليهودي فو قما يجلس علماء الملة ؟ أجاب : لأني أعرف ما تعرف ولكنك لا تعرف ما أعرف[3] .. ولم ينكر أحد على الكندي الفيلسوف الطبيب ذلك .

د ـ ولما مرض الطبيب سلمويه « .. عاده المعتصم وبكى عنده .. ولما مات قال المعتصم سألحق به لأنه كان يمسك حياتي ويدبر جسمي وامتنع عن الأكل في ذلك اليوم وأمر باحضار جنازته الى الدار (دار الخلافة) وأن يصلى عليها بالشمع والبخور على رأي النصارى ففعل ذلك وهو يراهم .. »[4] .

---

(١) المقريزي ـ الخطط ج١ ص٨١ (ج١ ص١٤٦ من طبعة بيروت)
(٢) انظر خبر ذلك لدى ابن العبري ص١٤٤ .
(٣) انظر المقري ـ نفح الطيب ج١ ص ٢٥٢ .
(٤) ابن العبري ص ١٤٠ .

هـ ـ « .. وكان الطيفوري النصراني الكاتب (لدى المتوكل) يحسد حنيناً (ابن اسحق) ويعاديه . واجتمعا يوماً في دار بعض النصارى ببغداد وهناك صورة المسيح والتلاميذ وقنديل يشتعل بين يدي الصورة فقال حنين لصاحب البيت : لم تضيع الزيت فليس هذا المسيح ولا هؤلاء التلاميذ وإنما هي صور . فقال الطيفوري : إن لم يستحقوا الاكرام فابصق عليهم فبصق فأشهد عليه الطيفور ورفعه الى المتوكل فسأله إباحة الحكم عليه لديانة النصرانية (وبحسب العقيدة) فبعث الى الجاثليق والأساقفة وسئلوا عن ذلك فأوجبوا حرم حنين فحرم وقطع زناره وانصرف الى داره .. ومات من ليلته فجأة وقيل إنه سقى نفسه سماً ..»(١)

وإذا شئنا أن نعرف الشروط الاقتصادية التي عاشها الذميون في ذلك العصر فلعل من الممكن أن نرى حدودها الدنيا والعليا من خلال صورتين :

الأولى : ذكرها مؤرخ سرياني فقال : إنه في أيام عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية والي مصر سنة ١٥٢ كان سكان تنيس ـ كما شاهدهم المؤرخ ـ يعيشون في فقر مدقع وسألهم فقالوا إن سبب هذه المتربة البالغة هي أن المياه تحيط بنا من كل ناحية ولا زراعة لنا . ولا مواشي . وأما الماء الذي نشرب فوارد من مكان ناء وقلما نستطيع شربه إلا بدفع درهم لكل أربع جرار .. وهم يتاجرون بالكتان يغزله نساؤهم وينسجونه ويؤجرهم أصحاب المال نصف درهم كل يوم .

---

(١) ابن العبري ص ١٤٥ .

ولا يفي ذلك بطعام العائلة • وعليهم خمسة دنانير من الضريبة على كل دار • يدفعونها مرغمين وتحت طائلة السجن • ويرهنون أولادهم من أجلها وبناتهم وغالباً ما يستمر هذا الرهن لأنهم يطالبون بدفع خراج السنة التالية قبل أن يستطيعوا تحرير أولئك الأولاد والزوجات[1] •• وهكذا يبقى هؤلاء رهائن دائمين •

أما الثانية : فنقرؤها لدى القفطي في تاريخ الحكماء عن جبرائيل ابن بختيشوع • ونرى في الثبت الذي سجل فيه جبرائيل بيده أرزاقه ورسومه وصلاته أنه وصله خلال خدمته للرشيد والبرامكة ــ فيما عدا الصلات وريع الاقطاعات والهدايا وغيرها تسعة وثمانون مليون درهم تقريباً • وقد جعل المأمون نفسه وصياً في وصيته التي بلغت ٧٠٠ ألف دينـــار[2] •

وكان ابنه بختيشوع ، في زمن المتوكل ، في الغاية من الرفاه فلما نكب وجدوا لديه أربعة آلاف سروال من الحرير الدبيقي وحملوا الى دار الخلافة الكثير من أرزاقه وباعوا الكثير وبقي بعد ذلك حطب وفحم ونبيذ فاشتراه أحدهم بستة آلاف دينار ثم باع منه باثنتي عشر ألفاً فلما حسده بعض الناس لدى الخليفة بذل فيما بقي في يده ستة آلاف دينار أخرى ثم باعه بضعف ذلك المبلغ[3] • ونسرع الى القول إن هاتين

---

(١) التاريخ المنسوب الى ديونيسيوس التلمخري ــ (الترجمـة الانكليزية) ج٢ ص١٧ .

(٢) القفطي ــ تاريخ الحكماء ص ١٤٢ــ١٤٣ وهناك تفصيلات هذه الأرزاق الضخمة .

(٣) المصدر نفسـه ص ١٠٣ــ١٠٤ .

الصورتين لم تكونا خاصتين بالذميين ولكنهما صورة للطبقية التي كانت سائدة في ذلك العصر • وقد كان بين المسلمين من هم أشـد فقراً من جماعة تنيس كما كان بين رجال الدولة الكبار من هم في مثل ثراء آل بختيشوع ورفاههم ولكن الصورتين تثبتان على الأقل مشاركة الذميين في التكون الطبقي للمجتمع العباسي وفي الفقر والغنى على السواء ، ومشاركتهم للمسلمين في كافة المستويات •

ولقد كانت الضرائب المفروضة عليهم أكثر أحياناً من الضرائب المفروضة على العرب المسلمين ولكنها في الواقع لم تكن أكثر مما كان مفروضاً عليهم في العهد البيزنطي أو الساساني ، بالإضافة الى أن تملك المسلمين بعد القرن الأول للارض الخراجية لم يكن يحولها الى أرض عشرية ولكن يبقى عليها خراجها الأول ويستوي في شدته وفي خفضه عند ذلك المسلم والذمي • كما أن الطرق العنيفة في الجباية لم تكن من ابتكار الحكم العربي الاسلامي ولكنها هي نفسها الطرق الموروثة من قبل وكثيراً ما كانت أحكام الاسلام وأوامره تتدخل لتخفف من قسوة تلك الطرق • ولدينا بالإضافة الى ما نعرف من تلك الأحكام في هذا الصدد نص ثمين وجد على بعض أوراق البردى[١] وهو أمر صدر باللغة اليونانية ، في مطالع القرن الثاني الهجري ، الى عمال الخراج في مصر يقول :

« •• خوفاً من الله وحفظاً للعدالة والحق في توزيع المبلغ المفروض عليهم •• ورتب ناظراً يعاونه أربعة من البارزين في كورتك لمساعدتهم

---

(١) ورقة البردى هذه فسد قسم منها وهي موجودة مع مجموعة أوراق البردى اليونانية في المتحف البريطاني وقد نشر محتواها في :
Greek Papyrus in the Br. Mus. Vol IV, No 1345

في جمع الضريبة .. (وأبلغنا تفاصيل الجباية) .. ولا تجعلنا نعرف أنك حابيت أو ظلمت أحداً في جمعها . فإذا وجدت (أن بعض العمال) عاملوا أحداً باللين الزائد بسبب المحاباة أو أثقل عليه غاية الاثقال لكراهيتهم له فإنا سنقتص منهم في أشخاصهم وأملاكهم تنفيذاً للشرع .. وتجب معاملة الجميع بالعدل وأخذ المفروض من كل منهم بقدر طاقته .. »[1] .

على أن إساءة استغلال السلطة كانت من سمات الكثير من العمال وكان يتعرض لها المسلمون والذميون على السواء بدليل أن ثورات مصر سنة ١٦٨ وسنة ١٧٨ وسنة ١٨٦ وسنة ١٩١ إنما قام بها عرب مسلمون بنتيجة التذمر من جباية الخراج !

وأخيراً لم يكن الذميون يعيشون في انفصال عن المجتمع الاسلامي بل كانوا مندمجين فيه كل الاندماج وإذا لم نذكر قصص الأديرة وحياة اللهو ، وقصص مجالس العلماء وحياة الجد ، وروابط الحياة اليومية فيكفي أن نذكر شهادة الجاحظ المعاصر للمأمون والمتوكل إذ يقول في رسالة يمكن أن تعتبر وثيقة من وثائق العصر يقول فيها : إن في النصارى : « .. متكلمين وأطباء ومنجمين وعندهم عقلاء وفلاسفة وحكماء .. وأن منهم كتاب السلاطين وفراشي الملوك وأطباء الأشراف والعطارين والصيارفة وأنهم اتخذوا البراذين والخيل واتخذوا الشاكرية (البغال يركبها الخدم) وتسموا بالحسن والحسين وعلي واكتنوا . وترك كثير منهم عقد الزنانير وامتنع كثير من كبرائهم من عطاء الجزية ... »[2] .

---

(١) انظر ترتون ــ أهل الذمة ص ١٦٣ــ١٦٤ .
(٢) الجاحظ ــ ثلاث رسائل (رسالة الرد على النصارى) .

وهذا كله إنما يعني أن التعصب الديني لم يكن هو الأساس في العلاقة مابين النظام العباسي ، في ذلك الوقت ، وبين أهل الذمة ، وإنما كان التعايش والرعاية هما الأساس ولعل خير ما يشهد على ذلك رسالة معاصرة ماتزال محفوظة بين رسائل البطريق النسطوري طيماثاوس وزعها بالسريانية على أتباعه في العراق وايران يشيد فيها برعاية السلطات الاسلامية للدين المسيحي ولرجال الدين ومساعدتهم الكنائس والبيع(١) .

وننتقل إلى مناقشة الصورة الأخرى صورة الاضطهاد والقيود وهي صورة قد يساء فهمها إذا لم تقرن بأسبابها . وهي أسباب سياسية أو إدارية أو دفاعية لم يكن للتعصب الديني من مكان فيها أو كان أحياناً آخر تلك الأسباب أو لحق بها فيما بعد . ولعل استعراض تلك الأحداث التي سجلت التمييز والاضطهاد يكشف أبعادها ويعطي النماذج الواقعية للسياسة الدينية العباسية مع الذمة أكثر مما تكشفه الأحكام العامة ولدينا في هذا الصعيد خمس قضايا :

هناك أولا قضية الصابئة ـ الحرانية : يقول مؤرخ نسطوري : « .. وتناول الحرانيون (الصابئة) رجلا ، على رسمهم (أي طريقتهم) ليجعلونه قرباناً ويقطعون رأسه فأفلت . وخبر الرشيد بحالهم فأمر بقتلهم واستيصالهم وتفرقوا في البلاد .. »(٢) ولا نعرف كم قتل من

---

(٢) لهذا البطريق حوالي مائتي رسالة بقي منها حوالي الستين و قد طبع منها براون Braun الجزء الاول بالسريانية والفرنسية في باريس سنة ١٩١٤ . ومعظمها موجه الى سرجيوس أسقف عيلام .

(٣) ماري بن سليمان ـ اخبار البطاركة ص٧٥ وفي النص غلطتا إعراب تركناهما على حالهما حفاظاً على النص .

هؤلاء الحرانيين وكم شرد والأرجح أنهم عادوا الى بلدهم بعد ذلك لأن المأمون مر بحران سنة ٢١٥ في طريقه الى جبهة الروم فوجدهم هناك . يقول ابن النديم : تلقاه الناس يدعون له فوجد بينهم جماعة بأقبية وشعور طويلة ووفرات مسترسلة . فسألهم : مــن أنتم من الـــذمة ؟ نصارى أم يهود أم مجوس ، قالوا : لا ، قال : أفلكم كتاب أم نبي ، فجمجموا في القول ، قال : أنتم إذن الزنادقة عبدة الأوثان وأصحاب الرأس في أيام الرشيد والدي . وأنتم حلال دمكم ولا ذمة لكم ! قالوا نحن نؤدي الجزية ، قال : لستم من أهلها ، فاختاروا أحد أمرين : إما الاسلام أو ديناً من الأديان التي ذكرها الله في كتابه . وقد أنظرتكم حتى أرجع من سفرتي هذه . وإلا أمرت بقتلكم » وتسامح المأمون ها هنا واضح حين لم يجبرهم على الاسلام فقط ولكن قبـــل منهم اعتناق أي دين آخر من أديان الذمة « ورحل يريد بلد الروم فغيروا زيهم وحلقوا شعورهم وتنصر كثير منهم . وأسلم منهم طائفة . وبقي منهم شرذمة بحالهم وجعلوا يحتالون ويضطربون حتى جاءهم شيخ فقيه حراني فحملوا إليه مالا عظيماً من بيت مالهم أحدثوه منذ أيام الرشيد لهذه الغاية أعدوه للنوائب . فقال لهم : قولوا إنكم الصابئة ! فهذا اسم دين مذكور في القرآن . فانتحلوه فلما توفي المأمون في بلد الروم ارتد كثير ممن تنصر . أما من أسلم فلم يستطع ولكن كثيراً منهم ظلوا يتزوجون من الحرانيات ويجعلون بناتهم على المذهب لحفظه .. وظلوا على ذلك قروناً[١] .

وهناك ثانياً قضية النصارى العرب وهي تتعلق بثلاث مجموعات عربية مسيحية :

---

(١) انظر ابن النديم الفهرست ص٣٢٠–٣٢١ وانظر هناك أيضاً حكاية الرأس عندهم .

مجموعة النجرانية : أهل نجران الذين استقر قسم كبير منهم في الكوفة وبعضهم بالشام وكانوا ملزمين بخراج قدره مائتا حلة (ثوب) فكان صاحب النجرانية يبعث رسله فيجبي منهم كل سنة المال لذلك . وقد تضاءل عددهم بالاسلام فلما مر الرشيد بالكوفة يريد الحج رفعوا إليه في أمرهم وشكوا تعنت العمال إياهم فكتب لهم كتاباً بالمائتي حلة .. وأمر أن يعفوا من معاملة العمال (أي الزيادات التي تدفع أجوراً للجباة) وأن يكون مؤداهم بيت المال بالحضرة (أي يدفعون مباشرة ببغداد) .

مجموعة تنوخ : وهي تلك الأخلاط من العرب التي كانت تنزل منذ ما قبل الاسلام في حاضر قنسرين ــ أي الريف البدوي في منطقة حلب ــ وقد أقام بعضهم على النصرانية حتى العصر العباسي . ويذكر المؤرخ السرياني ميخائيل الكبير ، البطريق ، أن المهدي هاله حين مر بحلب كثرة من بها من النصارى من تنوخ الذين نيفوا على اثني عشر ألفاً فخيرهم بين الموت والاسلام فأسلم بعضهم وأما الآخرون الذين تمسكوا بدينهم وكانوا سبعة آلاف فقد قتلهم عن آخرهم[1] .. وهذا الخبر الذي لم يذكره مؤرخ آخر على هذا الشكل يخلط فيما يبدو بين عدد من الأخبار : فقد بعث المهدي حين نزل حلب سنة ١٦٣ بعبد الجبار المحتسب فجمع له الزنادقة فقتل جماعة منهم . كما كان في حلب

---

(٢) البلاذري ــ فتوح البلدان ص٨٠ــ٨١ .

(٣) انظر تاريخ ميشيل السوري (الترجمة الفرنسية) :

Michel le Syrien, Chroniques
(Trad, Lamglois, venise, 1865, P. 262) ; (Trad. Chabot, paris vol II, P. 478 - 480) .

وحران منذ عهد المنصور جماعة من الراوندية[1] . ولعل بعض المسيحيين من تنوخ ومن هؤلاء الراوندية قتلوا في تلك الحملة على الزندقة . ولعل المهدي نقم على التنوخيين بجانب أن منهم بعض الزنادقة أنهم قبل سنة من ذلك قد آووا ثائراً خارجياً (هو عبد السلام ابن هاشم) دوخ جيوش المهدي في الجزيرة ثم هرب الى قنسرين فقتل فيها سنة ١٦٢[2] ولعل المهدي الى هذا وذاك خشي من الزندقة اضطراب ولائهم للدولة وميلهم الى الروم وهم في منطقة الثغور والعواصم فحاول تطبيق السنة العمرية عليهم بأن يخيرهم بين الاسلام أو القتل لأنهم من العرب . وهكذا « .. أسلم ــ كما يقول البلاذري ــ على يده جماعة من أهل ذلك الحاضر .. فكتب على أيديهم بالخضرة قنسرين ..»[3] لكن أحداً من المؤرخين لم يذكر أنه رافق ذلك الاسلام قتل . ومن الصعب أن تجري مثل هذه المذبحة ولم يجر مثلها في الاسلام منذ حروب الردة ثم أن تمر في صمت فلا يذكرها أحد . ولا شك أن أولئك النصارى اعتصموا من المهدي بالعهد الذي أخذوه من أبي عبيدة . وهكذا فالذين قتلوا إذن ــ وهم من الزنادقة ، وقد قتلوا على أي حال بعد مغادرة المهدي لحلب ووصوله دابق ــ لا علاقة لهم بالذين أسلموا من حاضر قنسرين وحلب ولكن المؤرخ السرياني ربط بين القتل والاسلام وجعل العملية الأولى سبباً للثانية .

مجموعة تغلب : وهي قبائل العرب في الجزيرة . كانت هناك

---

(١) انظر الطبري ج٨ ص١٤٨ (٤٩٩/٣) وابن العديم زبدة الحلب ج١ ص٥٩ــ٦٠ والأزدي ــ تاريخ الموصل .

(٢) ابن العديم ــ زبدة الحلب ج١ ص٦٠ والطبري ج٨ ص ١٤٢ (٤٩٢/٣) .

(٣) البلاذري ــ فتوح ص١٧٢ .

وعلى النصرانية قبل الاسلام ثم أنفت عند الفتح من دفع الجزية أو ترك دينها فقبل منها عمر بن الخطاب دفع الصدقات مضاعفة .. وكان وضعهم الخاص مشكلة واجهها الإمام علي كما واجهها عمر بن عبد العزيز ولكنهم مع ذلك ظلوا دوماً يتمتعون بذلك الامتياز واستمروا على ذلك حتى عهد الرشيد الذي ضاق بكثرة معونتهم للخوارج في الجزيرة ، كما اتهمهم بممالأة الروم فأراد نقض العهد القديم وفي نفسه كما قيل أن يقتل رجالهم ويسبي ذراريهم[1] . كان ذلك حوالي سنة ١٨٨ فيما يبدو وقاضي قضاته هو الشيباني فاستشاره في الطريقة لنقض العهد فقال : لا سبيل الى ذلك . قال الرشيد : لقد صالحهم عمر على ألا يغمسوا أولادهم في المعمودية وقد فعلوا فخرجوا بذلك على العهد ونقضوه . وقال الشيباني لقد علم ذلك الصحابة والتابعون فلم يمنعوهم منه ولم يجدوا أن ينقضوا العهد معهم لأجله « قد كشفت لك العلم ورأيك أعلى » ! ولم يستطع الرشيد أن يفعل شيئاً[2] .

وهناك ثالثاً : قضية أقباط مصر : وقد كانوا قد انتفضوا أكثر من مرة حتى أواخر عهد المنصور ثم تقضت فترة نصف قرن لم تسمع لهم فيها حركة . حل محلهم في الثورات ضد الظروف المالية السيئة وضد قسوة الخراج أثناء ذلك ، العرب المسلمون الذين توطنوا في الدلتا (بمنطقة الحوف) :

---

(١) قتل بنو تغلب عامل صدقات الرشيد روح بن صالح سنة ١٧٠ فنكل بها أخوه حاتم بن صالح في السنة التالية . فخرجت تغلب من طاعة الخلافة بعد ذلك سنة ١٧٧ معالوليدبن طريف الشاري الخارجي الذي تحققت ثورته سنة ١٧٩ .

(٢) راجع ترجمة الشيباني محمد بن الحسن في تاريخ بغداد وغيره . وانظر مقدمة السير الكبير (طبع جامعة القاهرة سنة ١٩٥٨) لأبي زهرة .

– تشدد الوالي موسى بن صعب في استخراج الخراج وزاد على كل فدان ضعف ما تقبل به سنة ١٦٨ فثاروا ضده .

– وزاد اسحق بن سليمان على المزارعين زيادة أجحف بها فخرج عليه أهل الحوف سنة ١٧٨ .

– وبعث الليث بن الفضل بمساح بمسحون الأراضي سنة ١٨٦ فانتقصوا من القصبة أصابع ولم يسمع الوالي تظلم الناس فخرج عليه أهل الحوف وامتنعوا من الخراج[١] .

– وخرجوا كذلك في ولاية الحسين بن جميل سنة ١٩١ ثم سنة ١٩٨ ثم اتصلت الحروب بين المتنفذين في الدلتا وفي الصعيد : الجردي والسري . بشكل دمر اقتصاد البلد وآنهكه قلقاً واضطراباً ولم ينه موتهما سنة ٢٠٥ الأمر لأن الفترة الداخلية والحروب استمرت حتى وصل مصر عبد الله بن طاهر والياً من قبل المأمون سنة ٢١١ فلما تركها زاد صالح بن شيرزاد في الخراج فانتقض أسفل الأرض (أي الدلتا) من جديد سنة ٢١٤ ..

ثم في سنة ٢١٦ « انتقضت أسفل الأرض كلها عربها وقبطها .. وأخرجوا العمال (عمال الخراج) وخالفوا الطاعة وكان ذلك لسوء سيرة العمال فيهم ..» ولما عجز قواد المأمون ومنهم الأفشين عن إخماد الثورة ترك الخليفة جبهة الروم وجاء مصر سنة ٢١٦ وأدرك فوراً سبب الثورة فعزل واليه عيسى بن منصور وحل لواءه وقال : لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك . حملتم الناس ما لا يطيقون وكتمتموني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطرب البلد ..» .

ولكن هذا لم يمنع المأمون من البطش الشديد فما ظفر قائده

(١) انظر من هذه الثورات : الكندي – كتاب الولاة والقضاة الصفحات بالترتيب ١٢٥ – ١٢٦ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٥٣ ، ١٨٥ .

الأفشين بالقبط في منطقة البشرود الثائرة حتى : «.. حكم يقتل الرجال وبيع النساء والأطفال فبيعوا وسبى أكثرهم » ولم تكن عقوبة العرب أقل قسوة فقد قتل زعيمهم الفهري في سخا « وتتبع (المأمون) كل من يومي إليه بخلاف فقتله . فقتل ناساً كثيراً ..»[1] .

على أن هذه الضربة للقبط كانت من القسوة بحيث كانت لها ثلاث نتائج أشار إليها المقريزي بوضوح إذ قال :

ــ « .. ومن حينئذ أذل الله القبط في جميع أرض مصر وخذل شوكتهم فلم يعد أحد منهم يقدر على الخروج ولا القيام على السلطان » أي انتهت ثورات القبط .

ــ « وغلب المسلمون على القرى » أي انقلب الميزان العددي للمسلمين ذلك أن موجات التحول إلى الاسلام التي كانت تأتي في أعقاب الثورات حولت الميزان لمصلحة المسلمين .

ــ « .. فعاد القبط من بعد ذلك الى كيد الاسلام وأهله بإعمال الحيلة واستعمال المكر وتمكنوا من النكاية بوضع أيديهم في كتاب الخراج »[2] .

وهناك رابعاً : قضية نصارى الجزيرة العربية والحدود الرومية : وآلام الجزيرة في تلك الفترة كانت كثيرة : فقد تناهبها سوء الأوضاع السياسية ، بسبب الثورات الخارجية العديدة وخاصة زمن الرشيد ،

---

(١) انظر المصدر السابق ص ١٩٠ و ص١٩٢ .
(٢) المقريزي ــ الخطط ج١ ص٧٩ ، وج٢ ص ٤٩٤ .

والثورات الأرمنية ، والتهديد الرومي المستمر على الأطراف ، مع سوء الأحوال الاقتصادية والمالية بسبب تعطل الانتاج باضطراب الأمن والانقطاع المتكرر لطرق التجارة ، وهرب الفلاحين من الريف وقسوة الخراج وعمال الخراج . وليس ثمة ما يؤكد أن الشدائد التي عرفتها منطقة الجزيرة في أيام المنصور لم تستمر على حالها في عهد خلفائه . وكان ثمة سبب يحول دون العناية العباسية بهذه المنطقة هو فقد الثقة بينهم وبينها . فإذا كان سكانها وهم في الجملة مسيحيون يعاقبة وأرمن ونساطرة وملكانية على استعداد مسبق لمعاداة الدولة الاسلامية وعدم الوقوف بجانبها بسبب التباين الديني فقد كانت الدولة من جهتها لها أسبابها في الريبة بهؤلاء السكان المتهمين لديها بعدم الولاء وبالاتصال مع الروم وحدث أن كان الرشيد مرة في الرها ، فجاءه وفد من المسلمين يتهم النصارى بأنهم ضالعون مع الروم .. وأن امبراطور بيزنطة يأتي كل سنة للصلاة في كنائس الرها . وسألوا الخليفة أن يرسم بهدم الكنيسة الكبرى ويمنع الضرب بالناقوس غير أن يحيى (البرمكي) نصح مولاه بعدم الاستجابة لذلك فلم يفعل[1] .

ولعل الأوضاع السيئة مع التمزق الطائفي والتنوع العرقي في المنطقة هو الذي أطلع فيها ، في هذه الفترة ، عدداً من المتنبئين منهم :

آ ــ انطونيوس الشهيد الذي كانت تزعم الأقاويل الشعبية أنه هو نفسه أبو روح ابن عم هارون الرشيد وأنه تنصر بعد الاسلام فصلبه هارون وله عندهم قصة « طويلة عجيبة ما سمعناها ــ كما يقول البيروني ــ ولا قرأناها أو مثلها في الأخبار والتواريخ .. على أن

---

(١) انظر ترتون ــ أهل الذمة ص١١٦ وانظر التاريخ السرياني المنسوب للتلمحري ج٢ ص٣٥ .

النصارى قوم سماعون مصدقون لمثل ذلك وخاصة ما يتعلق بدياناتهم غير ناظرين من جميع الجهات في تصحيح الأخبار ..»[١] ولا شك أن انطونيوس أراد تقوية الشعور الديني أمام تحول الكثيرين الى الاسلام ، كما لا شك أن الخرافة الشعبية أرادت الانتقام لهـذا نفسه بجعل انطونيوس ابن عم الرشيد وجعله يتنصر .. حتى درجة الاستشهاد .

ب ـ جنا بربري وقد كانت حركته شعبية فلاحية تبعه فيهـا الكثيرون من أهل القرى مما هدد الاقطاعيات الواسعة التي يملكها الاقطاعيون المسيحيون والكنيسة على السواء . وهذا ما دعا هؤلاء الى الاتفاق مع السلطات العباسية للقضاء عليه .

جـ ـ مارمارته الذي جعل يبشر ، في عهد المأمون ، بالخـلاص وادعى القدرة على شفاء المرضى وقـد عادت الكنيسة بالتحالف مع المتنفذين ومع السلطة العباسية فحاربته حتى القتل .

هذه الحركات كانت ، في واقعها تعبيراً عن الرفض للواقع الأليم لكن تدخل السلطات العباسية إنما كان محدوداً بالتعاون مع الكنيسة من جهة ، ومع المتنفذين المسيحيين من جهة أخرى . المرة الوحيدة التي سجل فيها ما يمكن أن يسمى بالتضييق إنما كان في عهد الرشيد ، عند أواخره ، حين أمر الخليفة ـ وهو يحارب الروم ـ بمنع ضرب الناقوس في ملطية (من الثغور) ومنع سير الجنازات بالمواكب وعدم الصلبان إلا في الكنائس . وأسباب ذلك واضحة في ارتفاع حمى الحرب في الجبهة وفي ضرورات الدفاع وضمان سلامة العمليات العسكرية .

---

(١) انظر البيروني ـ الآثار الباقية (ط. سخاو سنة ١٩٢٣) ص٢٩٢

خامساً : قضية قرارات التضييق على الذمة، يذكر المؤرخ السرياني ميخائيل الكبير بطريق اليعاقبة أن اضطهاد أهل الذمة إنما بدأ مع بداية عهد المهدي وأن عدداً من البيع قد هدم وأن رقيق النصارى قد صودر أو بيع ومنعوا من اقتناء الرقيق[1] .. وقد كان ذلك فيما رأينا في السنوات الأولى من حكمه حين دمر الروم حصون ومدن الثغور وسبوا ونهبوا فيها ما يشاؤون فلما كانت السنة السادسة من حكمه وردهم على أعقابهم أمر فألغي ذلك القرار . وننتظر بعد قرار المهدي أكثر من ثلاثين سنة لنسمع عن قرار آخر هو الذي أصدره الرشيد والحرب مع الروم في أوجها وتدميرهم يتناول كل شيء في الثغور وإذ ذاك « كتب (الخليفة) الى : السندي بن شاهك (صاحب شرطة بغداد) يأمره بأخذ أهل الذمة بمدينة السلام بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم ..»[2] .

وقد ترجم هذا الأمر عملياً بأن يلبسوا العمائم بلون عسلي وأن تكون القلانس مضربة مخططة وأن يعقدوا في أوساطهم الزنارات مثل الخيط الغليظ وأن يتخذوا في سروجهم في موضع القرابيس كرتين من الخشب مثل الرمانة وأن يجعلوا شراك نعالهم متينة وتمنع نساؤهم من ركوب الرحائل ..»[3] . ويبدو أن بعض هذه المظاهر كانت من عادات

---

(١) انظر الجزء ١١ من C.S. Ch. O. بعنوان Chroniques de Michel le Syrien (وهو الجزء الثالث من الترجمة الفرنسية التي نشرها Chabot لهذا التاريخ) ص٤٧٨-٤٨٠ .

(٢) الطبري ج٨ ص ٣٢٤ (٣/٧١٣) .

(٣) أبو يوسف - الخراج ص ٧٢ . ولنلاحظ أن أبا يوسف توفي

السكان القديمة وقد أراد الحكام المسلمون إبقاءهم عليها فلا يتشبهوا بملابس العرب ليميزوا بها عن هؤلاء . ويبدو أن هذا الأمر لم ينفذ إلا وقتاً قصيراً إذ يروي مؤرخ نسطوري قصة إلغائه فيقول إن : « جبريل ابن بختيشوع الطبيب دخل بطيلسان مصبوغ على الرشيد فأنكر ذلك عليه فقال : أنا أحد الذمة ولا يجوز أن أخالف زيهم فاستحسن ذلك من قوله ورفع ذلك عن النصارى ..»[1] .

وتمر بعد ذلك خمس وأربعون سنة أخرى تقريباً لنرى أمراً جديداً يصدر من المتوكل فيه أقسى ما عرفه الذميون حتى ذلك الوقت من التضييق . كتب الى عماله في الآفاق كتاباً جاء فيه : « .. قد رأى أمير المؤمنين أن يحمل أهل الذمة جميعاً بحضرته (في بغداد) أو في نواحي أعماله أقربها وأبعدها ، وأخصهم وأخسهم على تصيير طيالستهم التي يلبسونها ، من لبسها من تجارهم وكتابهم وكبيرهم وصغيرهم على ألوان الثياب العسلية .. ومن يقعد به حاله عن لبس الطيالسة منهم أخذ بتركيب خرقتين صبغهما ذلك الصبغ .. شبراً تماماً تلقاء صدره ومن وراء ظهره . وأن يؤخذ الجميع منهم من قلانسهم بتركيب أزرة عليها تخالف ألوانها ألوان القلانس (وظاهرة غير مخفية) وكذلك في

قبل صدور أمر الرشيد بتسع سنوات . وقول أبي يوسف « أن يؤخذوا بلبس . .» قد يعني أن يبقوا على ملابسهم القديمة فلا يتشبهوا بالملابس العربية التي اضحت سمة المسلمين . ويبدو أن لبس الكساء العسلي كان من ملابس الناس المتداولة في المنطقة العربية (العراق ، الشام ، مصر) قبل الاسلام واستمر موجوداً فيهم . وقد وقف مرة احد ولاة مصر (وهو مسروق الذي وليها للرشيد بين سنة ١٧٧ وسنة ١٨٤ ينادي الذمة : اين اصحاب الاكسية العسلية) .

(١) ماري بن سليمان ــ اخبار البطاركة ص٧٣ .

سروجهم باتخاذ ركب خشب لها ونصب أكر على قرابيسها تكون ناتئة عنها (بارزة) •• وأن تؤخذ عبيدهم وإماؤهم ومن يلبس المناطق من تلك الطبقة بشد الزنانير والكساتيج مكان المناطق •• وأن توعز الى عمالك فيما أمر به أمير المؤمنين •• وتحذرهم ادهاناً وميلا وتتقدم إليهم في إنزال العقوبة بمن خالف ذلك من جميع أهل الذمة عن سبيل عناد أو تهوين الى غيره ليقتصر الجميع منهم على طبقاتهم وأصنافهم ••»[١]. ويقول ابن قيم الجوزية[٢] إضافة لذلك أن المتوكل أفرد للذمة من يحتسب عليهم • وأمر ألا يستخدموا مسلماً في حوائجهم وتفرد لهم حمامات خاصة خدمها ذمة وتطبق عليهم الجزية •• وقد زاد على هذا الأمر بعد ذلك ـ فيما يبدو ـ فأخذوا « بهدم بيعهم التي أحدثت (بعد الاسلام) وبأخذ العشر من منازلهم • وإن كان الموضع واسعاً صير مسجداً • وأمر (المتوكل) أن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب مسمورة تفريقاً بين منازلهم ومنازل المسلمين • ونهى أن يستعان بهم في الدواوين وأعمال السلطان التي يجري أحكامهم فيها على المسلمين ونهى أن يتعلم أولادهم في كتاتيب المسلمين •• ونهى أن يظهروا في شعانينهم صليباً وأن يشمعلوا في الطريق ، وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض لئلا تشبه قبور المسلمين ••»[٣] ويبدو أن اليهود أخذوا في ذلك الوقت بلبس الغيار (أي اللباس المغاير) بلون أسود كما

---

(١) نجد نص هذا الكتاب لدى الطبري ج٩ ص١٧٢ـ١٧٤ (٣/١٣٩٠ـ١٣٩٤) .

(٢) ابن قيم الجوزية احكام اهل الذمة ج١ ص٢٢٢ ـ ونجد لديه حتى ص٢٢٤ نص رسالة المتوكل .

(٣) انظر الطبري ج٩ ص١٧٢ (٣/١٣٨٩ـ١٣٩٠) . وانظر ما تذكره المصادر المسيحية عن هذه التدابير نفسها لدى ماري بن سليمان ـ اخبار البطاركة ص٧٩ ولدى عمرو بن متى ـ اخبار البطاركة ص ٧١ .

أن المتوكل عاد بعد أربع سنوات « فأمر (في مطالع سنة ٢٣٩) بأخذ أهل الذمة بلبس دراعتين عسليتين على الأقبية والدراريع ثم أمر أيضاً بالاقتصار في مراكبهم على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبراذين »[١] .

وليست هذه التدابير بتدابير اضطهاد ولكنها تدابير تمييز وتضييق لم تتناول أبداً حرية المعتقد وكان القصد منها تحويل أهل الذمة ضمن الدولة الاسلامية الى رعايا من الدرجة الثانية وهذه الحركة قد تكون جاءت في الفترة التي أضحى فيها عدد المسلمين يزيد في الكثرة على عدد الذميين من الرعايا بعد قرنين من الدخول البطيء في الاسلام . ولكنها على أي حال ليست بحركة تعصب‌ديني وإنما هي عمليات دفاعية لحد كبير . يتبين ذلك عند البحث في أسبابها . وقد سجل أمر المتوكل نفسه هذه الأسباب ، فيما يشبه حيثيات القرارات المعاصرة وأسبابها الموجبة ، فأورد في المقدمة أربعة أسباب مجملة نجد أسبابها الموضحة فيما ذكره المؤرخون من الأخبار . قال :

ــ إن الله لم يجعل للمسلمين « .. في دينهم التقاطع والتدابر . ولا الحمية ولا التكبر . ولا الخيانة ولا الغدر . ولا التباغي ولا التظالم» .. وترجمة هذه الأمور من خلال الواقع التاريخي أن المتوكل نقم على الذميين :

آ ــ التقاطع والتدابر أو الدس على زملائهم الموظفين المسلمين وقد ذكر المؤرخون أنهم « كانوا قد أوقعوا في نفس المتوكل من مباشري

---

(١) الطبري ج٩ ص١٩٦ (١٤١٩/٣) .

المسلمين شيئاً وأنهم بين مفرط وخائن وعملوا عملا (أي وشاية) بأسماء المسلمين ـ وأسماء بعض الذمة لينفوا التهمة ـ وأوجبوا باسم كل واحد منهم مالا كثيراً وعرض على المتوكل فأغري بهم وظن ما أوجبوا من ذلك حقاً وأن المال في جهتهم كما أوجبوه . ودخل مسلمة بن سعيد النصراني على المتوكل وكان يأنس به ويحاضره فقال : يا أمير المؤمنين أنت في الصحاري والصيد وخلفك معادن الذهب والفضة ومن يشرب في آنية الذهب والفضة يملؤها ذهباً بدل الفاكهة ..» فقال عند من ؟ فقال عند الحسين بن مخلد . وأحمد بن اسرائيل . وموسى بن عبد الملك . وميمون بن هارون . ومحمد بن موسى ـ وكل واحد من هؤلاء اسمه ثابت في العمل (الوشاية) المقدم ذكره المرفوع للمتوكل ـ فقال المتوكل : ما تقول في عبيد الله بن يحيى ؟ فسكت فقال : بحياتي عليك قل ما عندك . قال : لقد صاغ صوالجة وأكر من ٣٠ ألف دينار وأمير المؤمنين يضرب بكرة من جلود وصولجان من خشب .. » فالتفت المتوكل الى الفتح بن خاقان وقال : « ابعث فأحضر هؤلاء وضيق عليهم .. » فلما عرف باقي الكتاب المسلمين بالأمر وعاتبوا مسلمة بن سعيد . قال : قلت ما قلت على سكر ولم أقصد وأخذوا خطه بذلك ثم قدموه للمتوكل وقالوا : « هذا قصده أن يخلو أركان دولة أمير المؤمنين من الكتاب المسلمين ويتمكن هو ورهطه منها ..»(١) .

ب ـ فأما الحمية والتكبر : فقد ذكر المؤرخون أيضاً « أن المباشرين للأعمال (من أهل الذمة) كثروا في زمان المتوكل وزادوا على الحد وغلبوا على المسلمين لخدمة أمه وأهله وأقاربه وذلك سنة ٢٣٥ فكانت الأعمال الكبائر كلها أو عامتها إليهم في جميع النواحي ..»(٢) ويبدو

(١) ابن قيم الجوزية ـ أحكام أهل الذمة ج١ ص٢١٩ـ٢٢١ .
(٢) ابن قيم الجوزية ـ أحكام أهل الذمة ج١ ص ٢٢٢ .

أنهم لهذا تكبروا وأخذتهم الحمية والتعصب . وطلب المتوكل من طبيبه بختيشوع ـ وربما كان ذلك عن قصد معين ـ أن يدعوه فرأى عنده من البذخ والترف ما لم يره عند غيره « فحقد عليه ونكبه بعد أيام يسيرة ...»[1] ويذكر مؤرخ مسيحي آخر أن المتوكل « تغير على بختيشوع لأجل ما كان يستعمله من مكايدته وقبض عليه واعتقله ...»[2] .

جـ ـ وأما الخيانة والغدر فيبدو أن المتوكل اقتنع باتصال أهل الذمة النصارى بالروم . يقول المؤرخ النسطوري ابن سليمان : « ... وكان يسر من رأى طبيب اسمه سرجيس لخصومة جرت بينه وبين بعض المتطببين خرج عن النسطورية واعتقد مذهب آريوس وقصد الجاثليق وكذب بأنه يكاتب ملك الروم ويدعو له ويرفع أخبار المملكة (الاسلامية) فأحضره المتوكل وسأله عن الحال فأنكرها واساسه اليمين فأبى خوفاً لئلا يخالف كتاب الشريعة ... واشار من في الخدمة من الرؤساء عليه بأن يخلف فلم يفعل وصبر على الحبس مدة ثلاث ستين وستة أشهر ... وبلغ كل شرير من النصارى ما يريده ...»[3] .

ويبدو بوضوح أن تحسس المتوكل بالمشكلة مع الروم كان حاداً واضحاً في تلك الفترة من خلافته فإن أحداث تلك الجبهة معهم كانت تؤرقه . وكان الروم قد اتبعوا منذ ثورة بابك طريقة جديدة مع المسلمين هي التوسع في التجسس والتسلل بواسطة الاعوان إلى داخل الاراضي العباسية وإثارة القلاقل فيها أو الضرب في بعض النقاط غير المنتظرة ومن ذلك تحريضهم الأرمن على الثورة سنة ٢٣٧ وقد كلفت المتوكل الكثير

(١) ابن العبري ص ١٤٤ .
(٢) ماري بن سليمان ـ اخبار البطاركة ص ٧٩ .
(٣) المصدر نفسه .

من الجهد والمال حتى استطاع إخمادها والقبض على بطريق الأرمن: بقراط بن آشوط والمجيء به إلى سر من رأى • ثم هجوم الروم في السنة التالية سنة ٢٣٨ بثلاث مائة مركب دمرت دمياط ، في مصر ونهبت وأحرقت وسبت مايزيد على ٦٠٠ امرأة ..(١)

ويتبين تأثير هذه الأحداث على المتوكل من قصته مع حنين بن إسحق الرأس عيني اليعقوبي • وهو من كبار التراجمة وقد اشتهر حتى استدعاه المتوكل وأقطعه الاقطاث السني وقرر له جارياً (راتباً) جيداً • ولكن حذره الشديد من أن يكون أحد جواسيس الروم المرسلين لسمه جعله يمتحنه امتحاناً هدده فيه بالقتل إن لم يصف للمتوكل سماً يقتل به بعض اعدائه • فلما امتنع حبسه سنة ثم عاوده فامتنع أيضاً رغم إحضار السيف والنطع .. وعند ذلك «اطمأن المتوكل ثم تبسم له وقال : إنما أردنا امتحانك والطمأنينة إليك ... وأمر بالخلع فأفيضت عليه » وأعطاه المال الجزيل ...(٢)

د ــ وأما التباغي والتظالم : فيبدو أن العمال الذميين زادوا في التسلط وفي اضطهاد الناس وظلمهم زيادة وصلت أسماع المتوكل • وأنهيت إليه منها الكثير من الشكاوى • فتارة رجل شيخ يأتيه من الشام يتظلم العامل النصراني الذي اغتصب بيته • وتارة يقبض على رجل في مكة يدعو على المتوكل فلما سأله عن السبب قال : سلطت اهل الذمة على المسلمين فظلموهم مما جعل المتوكل يرتجف أحياناً غضباً ويبكي أحياناً أخرى أحر البكاء(٣) •

---

(١) ابن العبري ص ١٤٢و١٤٣ •
(٢) المصدر نفسه ص ١٤٤ــ١٤٥ •
(٣) انظر ابن قيم الجوزية ــ احكام اهل الذمة ج١ ص٢٢١ •

ولا بد بالطبع من أن نضيف إلى هـــذه الأسباب بالمقابل أسباباً أخرى منها :

هـ ـ الحلف الذي عاد فقام بقوة بين السلطة العباسية وأهل الدين من السنيين بعد انحسار موجة المعتزلة وإلغاء القول بخلق القرآن • فإن انتصار المذهب السني التقليدي ومعاودته السيطرة على الخلافة العباسية وإبعاد المعتزلة عن مراكز النفوذ أعطى الفقهاء والمحدثين مدداً كبيراً من القوة أبعدوا معهعلم الكلام وأهل الجدل عنالدولة واستتبع ذلك بالتالي إبعاد الطرف الآخر من المجادلة وهم أصحاب العقائد الأخرى الذيـــن كان جدلهم ومايبعثونه من الأسئلة والأفكار والريب هو السبب في نشوء علم الكلام • وبمعنى آخر : غير الفقهاء السنيون بعد الانتصار عـــلى المعتزلة ، طريقة المعاملة التي كانت متبعة حتى مطلع عهد المتوكل مـــع الذمة وهي طريقةالحوار والجدل بالتي هي أحسن • وقد كان المسلمون قد بلغوا من الكثرة وكان الفقهاء والمحدثون قد بلغوا من القوة المبلغ الذي فرضوا معه الطريقة الأخرى • طريقة التضييق والتمييز أي إعـــادة غير المسلمين الى الدرجة الثانية في سلم الرعايا ليكون ذلك نوعاً مـــن الضغط عليهم ، وشكلا من اشكال الاعتزاز بالدين الاسلامي والفخر به والارتفاع به عن أن يكون موضع جدل وأخذ وعطاء •• إن نص كتاب المتوكل يقول ذلك : « ••• فالمسلمون بما اختصهم الله من كرامة وجعل لهم من الفضيلة بدينهم الذي اختاره لهم بائنون على الأديان بشرائعهم الزاكية وأحكامهم المرضية الطاهرة وبراهينهم المنيرة وبتطهير الله دينهم بما أحل وحرم فيه لهم وعليهم ••• قضاء من الله عزوجل في اعزاز دينه حتماً ، ومشيئته منه في إظهار حقه ماضية ••• » ومبعث هذا كله : « أن الله اصطفى الاسلام فرضيه لنفسه ••• وحاطه بالنصر وأظهره عـــلى

الأديان مبرءاً من الشبهات مخصوصاً من الشرائع في طهرها وأفضلها ومن الاحكام بأعدلها واقنعها ... » ..

ثم أضاف الكتاب « قوله عز وجل : اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون . اليوم اكملت لكم دينكم » إ[1] إنها اذن محاولة من السلطة العباسية لمنع جدل الذمة مع المسلمين بعد أن أوقفت جدل المسلمين معهم لإسكات أهل الكلام بإقصاء المعتزلة . هي نوع من الهدنة بفصل أصحاب الاديان الأخرى عن أهل الاسلام .

ولا بد ان نضيف هنا أن نصر الفقهاء ، وأهل الحديث السنيين وسيطرتهم على البلاط العباسي لم يصب علماء المعتزلة وأهل الذمة وحدهم بالإبعاد والأذى ولكن أصاب أيضاً الشيعة . ويكفي أن نذكر عبوراً هنا أن المتوكل أمر بهدم قبر الحسين في كربلاء سنة ٢٣٦ وان يبذر ويسقى موضعه وأن يمنع الناس من إتيانه ... بمعنى أن ردة الفعل السنية لم تصب الذميين فقط ولكنها أصابت حتى بعض فرق المسلمين .

ولعل من أهم الاسلحة التي استخدمتها المجموعة المحيطة بالمتوكل من الفقهاء ورجال الدين وأهل الحديث ضد أهل الذمة أنهم ربطوا أيضاً ما بينهم وبين الزندقة . يكشف تلك الخطة كلمات الجاحظ في رسالته المعروفة بالرد على النصارى إذ يقول : « ... فلولا متكلمو النصارى وأطباؤهم ومنجموهم ماصار إلى أغنيائنا وظرفائنا ومجاننا شيء من كتب الثنوية والديصانية والمرقونية والعليائية ولما عرفوا غير كتاب الله وسنة نبيه ... » ويقول أيضاً « ... ودينهم يضاهي الزندقة ويناسب في بعض وجوهه قول الدهرية ... إنا لم نر أهل ملة قط أكثر زندقة من

(١) الطبري ج٨ ص١٧٢–١٧٣ (٣/١٣٩٠–١٣٩١) .

النصارى • ألا ترى أكثر من قتل في الزندقة ممن كان ينتحل الاسلام ويظهره هم الذين آباؤهم وأمهاتهم نصارى ؟••• » • وهذا لا يعني أن المسلمين شعروا بأن المسيحية أضحت تشكل تحدياً أو خطراً على الدين الأسلامي ولكن يعنى أنهم أرادوا استخدام كافة الأسلحة ضدها ، لا سيما وهي في عصر المتوكل أضعف بكثير مما كانت عليه في عهد المنصور بانفضاض الاعداد الكثيرة من الناس عنها •

و ــ وأخيراً لا شك في ان التحاسد بين جماعات الكتاب من الذمة والمسلمين في زحامهم على النفوذ في الدولة قد لعب دوره في هذه العملية كلها • وكما استطاع بعض الذميين منهم إيغار صدر المتوكل مرة على بعض كتابه المسلمين عمل الآخرون بدورهم ، مستعينين بالعاطفة الدينية على تغيير المتوكل بدورة على الذميين : دفاعاً وتقارض ضربات •

وعلى أي حال فمن الضروري أن نسجل هنا عدداً من الملاحظات حول أوامر المتوكل في الذمة : •

١ ــ فهي لم تكن قرارات إضطهاد ولكنها قرارات تمييز وتضييق• إنها لم تمنع الذميين من حرية العبادة أبداً ولم يضطهدوا أي نوع من الاضطهاد ولم يرغموا على غير دينهم ولم تهدم إلا بعض بيعهم المستحدثة ولم يخرجوا من كافة الأعمال ولكن من تلك التي يتحكمون فيها بالمسلمين • ولم يلحقوا بأي إهانة ولكن فرض عليهم التمييز باللباس والمركوب ليعرفوا ضمن المجتمع الاسلامي وليقف جدلهم اليومي الدائم مع المسلمين •

٢ ــ أن هذه القرارات لم تكن صارمة التطبيق إلا في بغداد والعراق ، وكانت حدتها تخف كلما ابتعدت عن المركز • كما ان السلطات العباسية والولاة في الأقاليم لم يتشددوا فيها إلا في الأيام الأولى من

صدورها ثم كانت حدتها تخف مع الأيام وتطبيقها يلغى في الواقع العملي •

٢ — وبعد هذا وذاك كله فقد تراجع المتوكل نفسه عن تدابيره بعد أقل من أربع سنوات من صدورها : استقبل بالزهور والرياحين والقباب المعقودة من قبل مطران نصيبين أثناء مروره بها الى الشام « فخف ما في قلبه على النصارى » كما يقول مؤرخ نصراني م « تعطف على النصارى (بعد عودته الى سرمن رأى) ورجع لهم وعمل على اطلاق (بطريقهم السجين) تاذاسيس واتفق موت يوحنا ابن ماسويه (الطبيب) وكان عزيزاً عليه وعلى أصحابه فأمر بتبجيله وإكرامه في تجنيزه •• وأمر بإطلاق الجاثليق » ورده الى سر من رأى مع القسس ثم سمح بانحداره الى بغداد فدخلها أحسن دخول بالاكرام العظيم والتبجيل ••»[١] ولعل هذا كان حوالي سنة ٢٤٠ هـ • فلم تدم الأزمة إذن أكثر من أربع الى خمس سنوات • ويذكر البلاذري أن المتوكل خفض الجزية سنة ٢٤٦ هـ عن السامريين اليهود في بيت ماما قرب نابلس حين شكوا إليه ضعفهم وعجزهم عن أدائه فجعل الجزية ثلاثة دنانير بدلا من خمسة[٢] •

رابعا : الجدل الديني مع أهل الذمة في عصر الرشيد :

يقول المستشرق آلارد : « رغم هذه الصعوبات التي كانت تصل أحياناً درجة الكره والاضطهاد فإنا نستطيع القول إن المسيحيين في بغداد كانوا يتمتعون تحت الحكم العباسي بأوضاع أكثر ارتياحاً واطمئناناً بكثير من أوضاع بعض الفرق الاسلامية وخاصة من الشيعة •• وأحد

---

(١) ماري بن سليمان — أخبار البطاركة ص ٨٠ .
(٢) البلاذري — فتوح البلدان ص ١٨٧ .

الأدلة على هذا الجو المسالم نسبياً تلك الوفرة في أدب الجدل (الذي قام بينهم وبين الاسلام) : إنك لا تتناقش مع عدو متحفز لتدميرك »[1]

ولعل من نوادر أحداث التاريخ في سعة الصدر الدينية ، تلك المناقشات الجذلية التي كان يوسع لها الخلفاء من وقتهم ويفسحون لها في بلاطهم • يذكر المؤرخون النصارى عن المهدي أنه في مطالع عهده استقدم المرشحين لكرسي البطريقية وناقشهما في الدين وسألهما : عن عصا موسى من أي خشب صنعت ؟ وعن عصا هارون •• ثم عرض عليهما الاسلام •• ولم يتأثر لرفضهما دعوته بل اختار أحدهما بطريقاً[2] وفي التراث الأدبي السرياني الذي تركه طيماثاوس بطريق النساطرة في تلك الفترة رسالة مطولة نشرها بالسريانية على رجال كنيسة في العراق وخراسان وما وراء النهر يروي فيها المناقشة التي دارت بينه وبين الخليفة المهدي في المسيحية والجدل فيها • وقد صارت هذه الرسالة فيما بعد مادة تعليم وتوجيه للنساطرة واليعاقبة على السواء • وترجمت الى العربية ومنها نسخ عديدة مخطوطة وهي مديح في الديانة المسيحية مطول ومعلل في شكل مناقشة[3] وقد كتب مؤرخ نسطوري يقول : «••وكان (طيماثاوس) مكرماً عند الخلفاء والملوك لكثرة علمه •• وحسن أجوبته

---

(١) عرض المستشرق الآرد M. Allard الى بحث هذه النقطة في مقال كتبه بمناسبة مرور الف ومائتي عام على انشاء بغداد . ونشر في مجلة Arabica, Tome Ix, Oct . 1962, Volume specil, p.p. 375 - 388. وقد ذرس البحث قبل ذلك مواقع الأديرة والبيع في طبغرافية بغداد . وكلمته المذكورة هنا من الصفحة ٣٨٢ .

(٢) ماري بن سليمان – أخبار البطاركة ص ٧٠–٧١ .

(٣) انظر الرسالة في الجزء الأول من رسائل طيماثاوس التي نشرها بالفرنسية Braun في باريس سنة ١٩١٤ .

عن المسائل التي كانوا يرمون عليه ويصادرونه بها في الدين والاعتقاد وغير ذلك . وكان الخليفة الهادي في أكثر الأيام يستدعي به إليه ويحاوره في الدين ويبحث معه ويناظره في أشياء كثيرة ويطرح عليه كثيراً من المسائل المشكلات .. وكان يجيب عن جميعها بأجوبة قاطعة ومسكتة .. وكذلك كان يتأتى له مع هارون الرشيد لما تولى الخلافة ، ومن جملة ما جرى له معه ذات يوم عند انقضاء المجلس قال له يا أبا النصارى : أجبني باختصار : أي الأديان عند الله الحق ؟ فقال : الدين الذي شرائعه ووصاياه تشاكل أفعال الله في خلقه . فأمسك عنه . فلما انفض المجلس قال الرشيد .. لو قال النصرانية لأسأت إليه ولو قال الاسلام لطالبته في الانتقال إليه ولكنه أجاب جواباً كلياً لا دفع فيه وأضمر في نفسه دينه .. »(١) .

ويروي الخطيب البغدادي قصة تصور أحسن التصوير ذلك الجو الديني المفتوح الحر الذي كان يجري فيه الجدل بين المسلمين وغيرهم من أهل الذمة وهي قصة ذكرها أبو الهذيل العلاف عن يهودي قطع عامة المتكلمين في البصرة فلم ينتصر عليه أحد ثم جاءه العلاف ، وهو بعد فتى ، فجادله اليهودي فلم يتمكن منه وانقطع اليهودي فقام فأسر في أذنه شنيمة له ولمن علمه . فلم يثر أبو الهذيل ولكنه وقف بين الحاضرين فقال : أليس قد وقفتم على مسألة إياي وعلى جوابي إياه ؟ أليس عليه أن يرد جوابي ؟ قالوا نعم قال : فإنه لما سارني شتمني بالشتم الذي يوجب الحد وشتم من علمني وإنما قدر (وظن) أني أثب بـه فيدعي أنا واثبناه وشغبنا عليه وقد عرفتكم شأنه بعد انقطاعه .. فأخذته الأيدي بالنعال

---

(١) عمرو بن متى ـ اخبار البطاركة ص ٦٥ .

فخرج هارباً من البصرة وقد كان له بها دين كثير فتركه وخرج هارباً لما لحقه من الانقطاع .. »[1] .

وإذا كان معروفاً أن الجدل الكلامي بلغ أوجه في عهد المأمون فإن أهل الذمة كان لهم منه النصيب الأوفى . ونشهد « حبيب بن بهريز مطران الموصل يفسر للمأمون عدة كتب » كما يقوم بمثل ذلك الحجاج ابن مطر[2] وأيوب بن القاسم الرومي ويوحنا بن البطريق ، وكثيرون آخرون . ويستقدم المأمون يزدانبحت ، رئيس المانويةمن الرأي بعد أن أمنه ليجادله فيقطعه المتكلمون فيقول له المأمون أسلم يا يزدانبخت فلولا ما أعطيناك من الأمان لكان لنا ولك شأن فيقول : نصيحتك مقبولة ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم .. ويقبل المأمون منه ذلك بل يوكل به حفظة خوفا عليه من الغوغاء[3] . ولعلنا لا نحتاج الى التذكير بالمجالس العلمية المختلفة التي كان يعقدها للجدل ويكفي أن نذكر أنه قد بلغ من اهتمام المأمون بالجدل مع المانوية والنصرانية أنه لما وضع كتاباً في الرد على الأولى وضع كتاباً في « الرد على النصارى »[4] .

وإذا كان الناس على دين ملوكهم ــ كما يقولون ــ فقد شارك الكثير من علماء المسلمين في الجدل مع الذميين على مختلف المستويات ونستطيع القول إن معظم ما كتب علماء الكلام والمعتزلة من الآراء وما أثاروه من المسائل والجدل فإنما هو أجوبة على المسائل أكثر مما هو مبادهة فكرية في ركوب مسائل اللاهوت وإنما هو ردود على ما يثيره

---

(١) الخطيب البغدادي ــ تاريخ بغداد ج٣ ص ٣٦٧ـ٣٦٨ .
(٢) ابن النديم ــ الفهرست ص ٢٤٤ .
(٣) المصدر نفسه ص ٣٣٨ .
(٤) ابن المرتضى ــ طبقات المعتزلة ص ١٢٣ .

الخصوم من الذميين أكثر مما هوتطوع للجدل . وقد كتبوا في ذلك ومن هؤلاء أبو عيسى الدراق (المتوفى سنة ٨٦١) الذي كتب كتاباً في الرد على الثلاثة فرق من النصارى ، والجاحظ (سنة ٨٦٨) الـذي كتب : كتاج حجج النصارى على المسلمين ثم اتبعه بكتاب الرد على النصارى ، وأبو جعفر الاسكافي (المتوفى سنة ٢٤٠/٨٥٥) ألف كتاباً في الرد على النصارى بقيت لنا منه بعض المقتطفات في الموضوع نفسه أبو عمـرو حفص الفرد . كما كتب الفيلسوف الكندي كتاباً أيضاً ضد التثليث .

ولم يكن الجدل والرد بالطبع من جانب واحد فإن الذميين بدورهم كانوا يكتبون ويهاجمون ويجادلون . وقد كانوا بدأوا الكتابة منذ العهد الأموي . فإن يوحنا الدمشقي المعروف بيوحنا فم الذهب والذي كان من أكبر مفكري المسيحية وتوفي في مطلـع العصر العباسي ترك بين مؤلفاته : محاورة في رد مزاعم المناويين في شكل محاورة بين مسـيحي ومانوي كما ترك مناقشة على الأسلوب نفسه ما بين مسلم ومسيحي[1] وقد كتب بعض الناس الى الجاحظ في أيام المعتصم ، يستنجدون بمعرفته وبيانه على المسائل التي يثيرها النصارى فكتب رسالته في الرد عـلى النصارى قائلا في أولها : « أما بعد فقد قرأت كتابكم وفهمت ما ذكرتم فيه من مسائل النصارى قبلكم وما دخل في قلوب أحداثكم وضعفائكم من اللبس والذي ختمتموه على جواباتكم من العجز وماسألتم من إقرارهم بالمسائل ومن حسن معونتهم بالجواب ..»[2] . ويبـدو أن النصارى

---

(١) انظر الياس الدبس ــ تاريخ سورية ج٣ من المجلد الخامس ص ٢٧٠ .

(١) انظر الجاحظ ــ ثلاث رسائل (نشر يوشع فنكل ــ المطبعة السلفية بالقاهرة سنة١٣٤٤) ص ١٠ ومابعد (رسالة الرد على النصارى)

كانوا أكثر جدلا للمسلمين من اليهود والمجوس إذ أن الجاحظ يضيف قوله : « .. على أن هـذه الأمة لم تبتل باليهـود ولا المجـوس ولا الصابئين كما ابتليت بالنصارى وذلك أنهم يتبعون المتناقض من أحاديثنا والضعيف بالاسناد مـن رواياتنا والمتشابه مـن آي كتابنا ثم يخـلون بضعفائنا ويسألون عنها عوامنا مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة الملاعين .. ومن البلاء أن كل انسان من المسلمين يرى أنـه متكلم وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من أحد .. » [1] .

ثم يضيف الجاحظ أيضاً :« وبعد فلولا متكلمو النصارى وأطباؤهم ومنجموهم ما صار الى أغنيائنا وظرفائنا ومجاننا وأحداثنا شيء من كتب المنانية والديصانية والمرقونية والفلانية .. فكل سخنة عين رأيناها في أحداثنا وأغبيائنا فمن قبلهم كان أولها .. » . وقد اشتهر في هذه الفترة العباسية خاصة ثلاثة أسماء من الفرق النصـرانية الثلاثة : طيماثاوس البطريق النسطوري المتوفي سنة ٢٠٢/٨٢٣ وثيودوروس أبو قرة اسقف حران الملكاني المتوفى سنة ٢٠٩/٨٣٠ وأبو راعطة أسـقف تكريت اليعقوبي المتوفى سنة ٢٢٠/٨٤٠ وكل واحد من هؤلاء كتب عدداً من الكتب الدينية بالعربية . كمـا أن كتبهم التي كتبوها بالسـريانية أو اليونانية ترجمت على ما يظهر في عهد مبكر الى العربية بدورها ، وأبو قرة كان ذا نشاط واسع وقد ناقش المسلمين واليهود على السـواء ، والنسـاطرة واليعاقبة أيضاً . وزار كاثوليك الأرمن وبطريق الاسكندرية في ذلك ونجد بين كتبه كتاب التثليث ووحدة الإله ، وكتاب في الـرد على من يزعمون بأن كلام الله مخلوق . وبين كتب أبي راعطة ثمة عناوين

---

(١) المصدر السابق ص ١٩-٢٠ .

عديدة تكشف بعض المواضيع الجدلية مثل كتاب رسالة في التثليث ، كتاب في التجسد .. الخ . أما رسائل طيماثاوس فتزيد على المائتين . والستون الباقية منها كلها في الدفاع عن المسيحية والمذهب النسطوري خاصة . وقد قام بالعمل نفسه في الشام أسقف صيدا في أواخر القرن الثامن (الثاني الهجري) . فقد كتب دفاعاً عن الدين المسيحي اقترحه عليه أحد أصدقائه المسلمين . وماتزال مكتبة الفاتيكان تحتفظ بمخطوطة من هذه الرسالة[1] .

ونستطيع القول إن الأعمال الفكرية الأساسية لأهل الذمة إنما كانت موجهة في العصر العباسي الأول بجانب الطب والترجمة الى التأليف الديني .

وينحصل من هذا البحث كله أن صورة «الاضطهاد» التي تعزى في العادة الى العصر العباسي الأول هو صورة زائفة . وإذا كان تكاثر المسلمين العددي ووجود الحكم في أيدي الخلفاء المسلمين قد جعل معاملة المسلمين لأهل الذمة تقسو في بعض الأحيان دون أن تصل في أي وقت من الأوقات درجة الاضطهاد وحجز الحرية الدينية فإن فرط الحساسية الذمية بالمقابل جعل مؤرخي الذمة والمستشرقين يبالغون في تقدير القيود الاجتماعية ، والمظالم المالية التي كان يتعرض لهاالذميون . وكان الخلفاء بين إلحاح الحاجة الى كفايات أهل الذمة من جهة وإلحاح الفقهاء والمحدثين والمتدينين برفضهم من المجتمع الاسلامي يوجهون

---

(١) انظر الدبس – تاريخ سورية ج٣ ص٢٧٠ .

الأولى دوماً على الثانية وإذا سايروا في بعض الأحايين داعي المتدينين أو الداعي السياسي في مكافحة الروم فإن الذميين بدورهم لم يدخـروا وسعاً في استخدام أقصى الحرية الدينية الممنوحة لهم للجدل مع المسلمين والتأليف ضدهم وللاتصال أحياناً مع الروم وللاستفادة من كل الامتيازات المتاحة ضمن الجماعة الاسلامية .

الفصل الثالث

المشاكل والحركات الدينية

عرف العصر العباسي الأول ولا سيما في فترة استقراره عدداً من المشاكل والحركات الدينية وكان بعض هذه الحركات نتيجة للتطور الاجتماعي والفكري والسياسي في الدولة الاسلامية كالزندقة ، كما كان بعضها بقية من الحركات الايرانية التي قامت بنتيجة الدعوة المسلمية (كالمقنعية) أو يقظة الأديان الأولى (كالبابكية) .

١ ـ مشكلة الزندقة :

لعله من الضروري أن ننبه الى ما اتخذته هذه الظاهرة ـ بجانب معناها الديني ـ من طابع سياسي في هذه الفترة . فالذي يظهر من دراسة هذه الحركة أنها كانت ، في نظر أصحاب الخلافة أيضاً ، حركة خطرة على الحكم العباسي وليس فقط على الدين الاسلامي . وقد كان الموقف الصلب الوحيد الذي اتخذه العباسيون الأوائل من العقائد الأخرى هو موقفهم منها بسبب ما عرفوه من محاربتها للدين الاسلامي من جهة ومن ارتباطها من جهة أخرى بحركة أشمل وذات معنى سياسي بعيد يهدد الحكم العربي الاسلامي هي الشعوبية . وإذا كانت مكافحة العباسيين للثورات الدينية جزءاً من مشاكلهم السياسية الداخلية فإن مكافحتهم للزندقة كانت بدورها

جزءاً من صميم سياستهم الدينية ويمكن اعتباره الى حد كبير متمماً لها • ويشكل الجانب السلبي الدفاعي منها كما كان في الوقت نفسه عملا سياسياً لا يختلف عن مكافحة الثورات المهددة للدولة •

أ ــ **الشعوبية** : بالرغم من أن الزندقة أخذت شكل حركة قائمة بذاتها في العصر العباسي الأول فإنها كانت على علاقات واشجة مشتركة ــ حتى ليمكن أن تعد أحد الفروع الظاهرة ــ لحركة أوسع منها وأبعد في الجذور واكثر تعدداً في الوجوه عرفها المؤرخون والكتاب العرب في ذلك العهد باسم الشعوبية • وهذه الحركة تشكل الإطار العام الذي تحركت ضمنه أعمال الزنادقة حتى تكاد لا تفهم بدونه •

فقد حكم العرب وانساح معهم الاسلام على مجموعات قومية متعددة وطوائف دينية قديمة التكوين والأفكار • وإذا استطاعت الدولة العربية الاسلامية أن تقوم وتستمر بقوة العرب والعقيدة الاسلامية فإن تلك المجموعات والطوائف المحكومة كانت أبعد ما تكون عن موقف الرضى المستسلم للعرب كحكام مسيطرين وللإسلام كدين يهدم ما توارثته تلك الطوائف وأقامته حالا على حال من النحل والعقائد • بل كانت بالعكس ــ ولو أرضاها العدل الاسلامي أحياناً كثيرة ــ تشكل تحت جناح الجماعة الاسلامية المتكاثرة بالمسلمين الجدد ، طبقة واسعة نشيطة من الجماعات والأفكار المناهضة لتلك الجماعة دينياً خاصة واجتماعياً وسياسياً أيضاً • وبالرغم من أن تلك المجموعات والطوائف كانت تخسر باستمرار من أتباعها جماعات تدخل الاسلام وتصبح موالي للدين والدولة الجديدين إلا انها لأسباب عدة ، منها هذه الخسارة نفسها ، كانت تزداد نقمة على النظام العربي والعقيدة الاسلامية • كما كانت في الوقت نفسه تطلق في نوع من الدفاع عن

النفس أفكارها المناوئة والهجومية ، حتى عن طريق هؤلاء الموالي أنفسهم ، في الجو الاسلامي العربي • كان ثمة صراع واضح طبيعي بين الطرفين فيه التصفية وتنازع البقاء • وإذا كانت بعض تلك الأفكار هي مما حمله المسلمون الجدد معهم من عقائدهم الأولى الى الاسلام من المشكلات والجدل الفكري وأمجاد التاريخ ورواسب الماضي بأنواعها فإن بعضها الآخر إنما كان يطلق لإرباك المسلم وبث الريبة عنده في عقيدته بشكل أو بآخر ، أو للانتقاص من الدين الاسلامي كله ومن العرب الذين حملوه للناس •

هذ الموقف الممتد ما بين الحسد الى النقمة والحقد الى العداء الصامت أو الناشط الفعال هو الذي أفرز لدى الشعوب غير العربية ما سماه المؤرخون والكتاب القدماء بالشعوبية • وإذا كان الاسم يعود في الغالب الى الآية الكريمة : «وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا» وإذا كان قد صيغ واستعمل على الأغلب في العصر العباسي الأول فإن العرب كانوا يفهمون منه أنه حركة الشعوب الأخرى ضدهم وضد سلطانهم القائم المستند الى الاسلام وإذا كان بعض الشعوبيين لا يطلبون إما عن يأس أو عن تقى وتدين إلا المساواة بالعرب ما دام الاسلام قد سوى بينهم • وهم «أهل التسوية» فإن بعضهم الآخر ، كان يدس على العرب والدين الاسلامي ويفضل الشعوب والديانات الأخرى عليهما ويظهر مفاخرها ومحاسنها ••• ويدخل في هؤلاء بالطبع الجماعات غير المسلمة التي كانت تظاهر أو تحرض ، أو تغذي مختلف الأفكار المناوئة كما تسجل وتنشر مختلف الدسائس والمثالب •••

وما من شك في أن عوامل معقدة عديدة قد كونت تلك الحركة الشعوبية • ومن التبسيط اعطاؤها اسم حركة أو نسبتها الى شعب

بذاته او دين محدد أو جماعة معينة ولكنها تيار جمع تحت هذا الاسم الحركات والجهود التي قامت بها عدة شعوب وعدة طوائف دينية وعدة نوازع اجتماعية ومادية لأسباب بعضها ديني ولكن بعضها الآخر اقتصادي أو سياسي • بهدف إلغاء التناقض أو التسلط أو البغن الاجتماعي والاقتصادي والديني والسياسي التي تشعر به تلك الشعوب والطوائف تجاه العرب الحاكمين والدين الاسلامي الذي يحملون • وقد تركزت تلك الحركات والجهود في إثبات وجود الأديان والثقافات والمفاخر القديمة لهذه الشعوب كتابة وكلاماً وعملا والانتقاص بالمقابل من العرب وإرباك الاسلام بوضعه أمام المشاكل الدينية القديمة والجدلية • وهكذا ظهرت الشعوبية في إطار اجتماعي ضد القيم التي حملها العرب الصحراويون والمسلمون كما ظهرت في شكل أدبي فأقامت الصراع ضمن هذا الجو ، في فترة كانت فيها علوم العربية من اللغة والنحو والأدب والشعر العربي وعلوم الدين من الحديث والفقه تدون وتنظم وأخذت الشكل الديني في مجموعة من التحديات للعقيدة الاسلامية بعضها تشمل المظاهر ولكن بعضها كان يمس جوهر العقيدة وأركانها الكبرى في التوحيد والنبوة كما لم تعدم الشعوبية أخيراً الوسيلة للظهور أيضاً بشكل سياسي في حركات ايران وخراسان وفي أعمال الكتاب وعمال الخراج في الدولة نفسها •

وإذا كان العامل الديني في الشعوبية مفهوم الدوافع بسبب صراع الاسلام للأديان الأخرى ، وكان العامل السياسي بدوره مفهوماً بسبب فقد الايرانيين وغيرهم للملك والدولة فلعله من الضروري أن نكشف العامل الاقتصادي ـ الاجتماعي فيها •

ولأن التميز العربي عرقياً وسياسياً وعسكرياً ودينياً كان يرتبط

بمصالح اقتصادية وامتيازات ومنافع احتكرها في الدولة في أول الأمر على الأقل العرب فقد كان للشعوبية بدورها جذورها ومواقفها الاقتصادية • إنها لم تنبع فقط من مجرد المنافسة القومية وحب المجد والفخر بالماضي وهي دوافع غنائية ورومانسية تالية ولكن من المزاحمة على المكاسب المادية وعلى «العطاء» وغنيمة الحكم واستغلال الطبقات الدنيا في المجتمع • كانت الشعوبية صدى فكرياً ـ قومياً لمزاحمة اقتصادية مادية عنيفة •

وإذا نحن مشينا خطوة أخرى في هذا المجال وجدنا أن العامل الاقتصادي الاجتماعي في شعوبية الجماعات غير العربية الموجودة في العراق وايران والجزيرة انما يرجع بصورة خاصة إلى ذلك التناقض العنيف الذي حدث في السواد خاصة إثر استقرار القبائل العربية فيه وتحول شيوخها إلى طبقة ارستقراطية اقطاعية تملك الأرضين المختلفة وتستغل الطبقة الزراعية المؤلفة من (النبط) السكان الاصليين بدياناتهم الأولى وتقاليدهم • وإذا جعل الكثير من هؤلاء يهربون من الأرض ويتجمعون في المدن (واسط • البصرة • الكوفة) كما جعلوا يهربون من ريف الجزيرة الى المدن (كالرها) تخلصا من الاستغلال والضرائب[1] ويفعلون مثل ذلك في مصر وفي خراسان ويسلمون في كل الاحوال ويصبحون من الموالي أو لا يسلمون ، وإذا حاول الولاة العرب كالحجاج منعهم من تلك الهجرة المدمرة للانتاج بشتى الوسائل ومنها أن ينقش على يد كل رجل اسم قريته ويعاد اليها[2] فقد كان هذا كله

---

(١) انظر ديونيسيوس التلمحري ج١ ص ١٠ (بالفرنسية)
Chronique de Denys de Tell - Mahré (éd. J. B. Chabot) Vol. I, p 10 .
(٢) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ج ١

سبباً في ايجاد نقمة لا بد أن تعبر عن نفسها سواء بالتحاق اعداد من هؤلاء الموالي بالثورات وكثيراً ما جرى ذلك ، أو بتبني كل فكرة مناوئة للحكم العربي وللدين الذي يحمله ... أي الشعوبية .

وإذا تركزت الشعوبية جغرافياً في العراق خاصة فلأن تنوع الشعوب واللغات كان فيه كثيراً وتعدد النحل الدينية كان اكثر ولأن عقدة الطرق التجارية العالمية (من بحرية وبرية) إنما كانت تمتد على محور البصرة ـ الكوفة بغداد ، ولأن التراث القديم هناك عريق جداً ولأن مركز الدولة انتقل مع العباسيين إلى العراق فانتقل إليه بانتقال هذا المركز ، معظم العلماء واجتمع إليه نشاط الحركة الثقافية والدينية سواء العربية الاسلامية منها أو علوم الأوائل من الاغريق والفرس والهند ، كما تكاثر فيه السكان اخيراً كثرة كبيرة وهكذا كانت المنطقة الممتدة ما بين بغداد إلى الكوفة إلى البصرة هي المكان الجغرافي المختار للصراع بين عناصر القوة العربية الاسلامية والقوى الأخرى .

وإذا عبرت الشعوبية عن موقفها المعادي للعرب والاسلام بطرق وأشكال شتى منها الثقافي ومنها الاجتماعي ـ الاقتصادي ومنها الديني والسياسي كما وقف لها الحكام العرب والمسلمون بالمقابل يجيبونها على موقف بموقف وعلى هجوم بهجوم فالذي يهمنا منها هنا هو الشكل الديني . وهو الجانب الأخطر من الحركة الشعوبيةالذي عرف بالزندقة. وقد تميز هذا الجانب حتى كان يشكل لوحده حركة قائمة بذاتها تعمل على هدم الدين الاسلامي من الداخل بالتشكيك في أركانه وقيمه الفكرية والخلقية وتفسيخها بالتحلل والانحراف والمجون ، بينما اختصت الحركات الشعوبية الباقية بالتحرك في الميدان الثقافي والاجتماعي والسياسي أي بتهديم الاسلام من الخارج حتى كادت تعتبر في نظر

الكثيرين حركة ثقافية اجتماعيــة سياسيــة • وليس السبب اختلاف الحركتين في التكوين الهدف فهما تنبعان من جذور واحدة مشتركــة وترميان لهدف واحد مشترك أيضا ولكن الاختلاف بينهما انمــا هو في ميدان العمل فقط وفي نوعه ولعل أهم ما يكشف ارتباطهما العميق أن العرب والاسلام كانا في تلــك الفترة صورتين لحقيقــة واحدة • فالزندقة التي تعمل على تهديد وتهديم الدين الاسلامي ، إنما كانعملها يؤدي في الوقت نفسه إلى ضرب الأسس التي يقوم عليها الحكم العربي والدولة الاسلامية وهو هدف الشعوبية وبالمقابل فإن العمل الشعوبي الثقافي والاجتماعيوالسياسي ضدالعرب أو ضدهم تميزهم إنماكانيسعى في نهاية المطاف إلى سلب الدين الاسلامي عماده السياسي مما يجعله بدوره متمماً لعمل الزنادقة • وإنا لنلاحظ بسهولة أن كثيرا منالشعوبيين كانوا في الوقت نفسه من الزنادقة الذين يزرعون الشكوك في الدين وبالمقابل فإن جمهرة الزنادقــة الواسعــة كانت بدورهــا من الجماعة الشعوبيــة •

ب ـ **حركة الزندقة** :يبدو من الدراسات العديدة التي تمت[1] أن كلمة زنديق فارسية الأصل ، جاءت من كلمة زنده أو زنديكوتعني من يعمل بالتأويل (والزند هو تأويل كتاب آفستا المقدس لزارادشت) • وقد انتشر استعمال الكلمة تحت ظل الساسانيين قبل الاسلام للدلالــة على المانويين الذين طوردوا وقتلوا مع صاحبهم ماني وحرم مذهبهم من

---

(١) انظر دائرة المعارف الاسلامية مادة زندقة . ويبدو أنه يجــب التخلي عن راي بيفان القائل بأن أصل الكلمة سرياني مــن «زديــق» أو صديق أو ان اصلها اغريقي ... وقد ضربنا صفحاً عن استعراض تفاسير اللغويين العرب للكلمة .

كسرى انو شروان لأنهم حرفوا الزند وأتوا بتأويل جديد يخالف المذهب الزارادشتي الرسمي • وبقيت الكلمة المستعملة ، في المعنى نفسه بين حمراء الموالي في الحيرة والكوفة في العهد الاسلامي بدليل أنها فسرت على الشكل نفسه ــ فيما يروي الطبري ــ من قبل الخليفة المهدي حين قال لابنه ، عقب قتل بعض الزنادقة : «يا بني إذا صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة ــ يعني اصحاب ماني ــ فانها فرقة تدعو الى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل بالآخرة ثم تخرجها الى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجا وتحوبا ثم تخرجها من هذه الى عبادة اثنين : احدهما النور والآخر الظلمة • ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق لتنقذهم من ضلال الظلمة الى بداية النور[١] •••» •

على أن الكلمة لم تحتفظ على الاستعمال بهذا المعنى وحده فقد انضافت اليها معان أخرى بالتدريج زادت في تنوع استعمالها ايضا وفي تشتت معناها الدقيق في ذلك العصر حتى اصبحت الزندقة مرادفة أحيانا للتطرف كما اضحتفي الوقت نفسه تهمة اداريةسياسية جزاؤها القتل•• و ذا يعني أنها عرفت تطورا واسعا ما بين أواخر العصر الاموي حتى أو خر العصر العباسي الأول •

والواقع أن الكلمة إستعيرت منذ مطالع القرن الثاني من الاستعمال

---

(١) الطبري ج٨ ص ٢٢٠ (٣/٥٨٨) ويلاحظ ان ابن النديم يطلق اسم الزندقة أيضاً على المانوية كما أن الخياط في الانتصار يعطيها المعنى نفسه وكذلك ابن قتيبة في المعارف .

المانوي واطلقت على أعمال التحلل من الواجبات الدينية الاسلامية أو على الأسباب التي تفلسف العقيدة . فقد رمى الوليد بن يزيد سنة ١١٩ بالزندقة بسبب المجون والشرب واللذات كما رمى بها في الوقت نفسه الجعد بن درهم الذي قتل سنة ١٢٥/٧٤٢ في الكوفة بتهمة الزندقة وهي ليست هنا القول بالمانوية ولكن بآراء غريبة في القدر وخلق القرآن وحرية الارادة ومنذ هذا الوقت تزافق بشكل واضح في الكلمة معينان : المانوي والإلحادي . واختلط استعمالها لبقايا المانويين في العراق وغيره مع استعمالها للخارجين على الآراء الاسلامية السائدة على السواء[1] . ولما كان هذا الخروج متعدد الألوان والصور فقد وصفت بالزندقة ألوان من الاعمال والأراء تمتد ما بين الاستخفاف بالدين حتى الكفر المطلق والتعطيل ويدخل في ذلك نقد بعض الصحابة أو تأويل بعض الآيات تأويلا مخالفا أو إنكار النبوات ...

وإذا كان الاستخفاف بالدين قد ينجم عن المجون والتظرف لا عن قلة الدين فإن التأويل نفسه قد يأتي عن فرط التفكير العقلي في الدين كما أن بامكان السلطة أن تدخل من تشاء من المعارضين والمناهضين للنظام العام في نطاق الزنادقة عن طريق اتهامهم بحمل آراء دينية خطرة على ذلك النظام وأسسه . وهذا بالضبط ما آل إليه معنى الكلمة في نهاية القرن الثاني الهجري إذا أضحت على كثرة الاستعمال ، تشمل كل هذه

---

(١) تعمدنا هنا أن لا نتابع معاني الكلمة واستعمالها وراء العصر العباسي الأول لأنه ليس من بحثنا فقد أصبحت فيما بعد تطلق على المزدكية أيضاً وعلى الدهرية المنكرين لوجود الله ، وللنبوات . واحياناً على غلاة الشيعة او على أصحاب البدع ، اي صارت بمعنى الملحد المنكر للاعتقاد الديني السائد .

الأنواع من التمرد معاً سواء على الأمور الدينية العادية أو على الدين كله أو على سياسة الامام ، المسؤول عن حفظ الدين وحمايته والذي تختلط لديه حمايته الدين مع مصلحة الدولة • وبعد أن كانت الزندقة في الأصل اسم فرقة ثم اصطلاحاً للدلالة على الجدل الكلامي النظري المنحرف أضحت في النهاية مصطلحاً إدارياً سياسياً ثم مصطلحاً دينياً •

وكانت المانوية وأصحابها الزنادقة[1] موجودة في العراق وخراسان وبلاد الترك خلال العهد الأموي والعصر العباسي الأول كما كان يرافقها في الوجود الديني فرق أخرى مشتقة منها كالديصانية ومذاهب أخرى مسيحية للسريان كالنسطورية واليعقوبية في العراق والجزيرة ومذاهب من نوع ثالث تمزج ما بين المانوية والمسيحية كالمرقيونية والماهانية • بينما كانت المزدكية تنتشر خاصة في المناطق الجبلية من شمال غربي ايران ويحمل أصحابها هناك اسم الخرمية والمحمرة أما الزارادشتية ، دين الساسانيين الرسمي ، فقد ظل العقيدة السائدة في مختلف انحاء ايران وله معابده وكهانه وكان من أسباب تعايشه وتعايش أصحابه مع الاسلام أن الحكم العربي اعتبر اتباع زارادشت ، من ناحية المعاملة المالية ، من أهل الكتاب •••

ومع أن الاسلام كان يعزو هذه الفرق ويحول اتباعها الى جماهير من الموالي ولا سيما في العراق إلا إن أصحاب هذه المذاهب ظلوا

---

(١) انظر تفصيل ذلك لدى ابن النديم الفهرست ص٣٣٤والاقدمون كانوا يسمون هذا المذهب باسم المنانية . ولعلنا نلاحظ هنا أن الزندقة فقدت المعنى المانوي فيما بعد العصر العباسي الأول واضحت تستعمل للمزدكية (في محاكمة بابك) وتستعمل بمعنى الكفر والالحاد ورفض الاسلام وبهذا المعنى استعملت في كتب الفقهاء وفي محاكمات بعضالصوفية (كالحلاج) .

متماسكين • وكان للمانوية خاصة تنظيمهم الديني ولهـم البيع ولهم رؤساؤهم الذين يتعاقبون على الرئاسة ومركزهم الأقدس في بابل • ومن هؤلاء الرؤساء مهر الذي عاصر الوليد بن عبد الملك ووالي العـراق خالد بن عبد الله القسري وفي عهـده انقسمت المانويـة الـى فرقتين أيضـاً ••••

وقد ظل تنظيمهم قائما في العهد العباسي فكان من رؤسائهم أبو هلال الديحوري زمن المنصور ، ثم جاء أبو سعيد رحا بعـد ذلك • وتسلم الرئاسة زمن المأمون في فرقة منهم ، أبو علي رجاء يزدان بخت الذي ناظره المتكلمون في مجلس الخليفة ، وأبو علي سعيد الذي خلفه كاتبه نصر بن هرمزد السمرقندي أيام المعتصم ••

ولم تكن المانوية واضحة برؤسائها ولكنهـا كانت كذلـك في تكوينها فقد كانت ذات منهج فكري متماسك وكتب متداولـة وقضايا دينية وسياسية واجتماعية وفكرية ودعاة مبشرين لهم نشـاط فكري بدليل تلك الانقسامات التي عرفتها المانوية أيام الأمويين ثم في عهـد المنصور والرشيد[١] كما كان بعض اتباعها يعملون في أجهزة الدولـة الاسلامية ولكنهم يبذلون مالهم ودنياهم العريضة للعقيدة التي كان من مبادئها الزهد والورع كما كان منها أيضـاً انتقاص الانبيـاء ورميهم بالكذب والزعم بأن الشياطين هي التي تكلمت بألسنتهم • ولعل أخطر ما في المانوية أنهم كانوا يأخذون من المسلمين المظهر الاسلامي تماماً كما

---

(١) ظهر منها بعد عهد عبد الملك وبعـد قصة المهريـة والمقلاصية منشق آخر زمن المنصور هو بزرمهر ألف فرقة خاصة به كما ظهر في عهد المأمون انشقاق آخر تزعمه يزدانبخت ... الخ .

كانوا قد أخذوا من قبل في المسيحيين المظاهر المسيحية[1] . وقد كتبوا الكثير من كتبهم بالسريانية كما كتبوا بعد ذلك باللغة العربية .

ولعله من الهام جداً أن نلاحظ أن تهمة الزندقة ومكافحة الزندقة لم تتجها أبداً إلى المجوسية أي الزارادشتية المنتشرة في ايران وإنما الى المانوية المشتقة منها ، بصورة خاصة وإن شملت أحيانا المزدكية ، وهي الفرع الآخر من الزارادشتية . وإذا توضح المزدكيون حين أخذت تمرداتهم الشكل السياسي (في حركة سنباذ ثم بابك) بل كوفح الزرادشتيون أنفسهم أيضاً في حركاتهم السياسية (أيام بهافريد وأشناس والمقنع واسحق الترك) فإن المانوية قد كوفحت لذاتها باسم الزندقة وبدون أن تقوم بأي حركة سياسية . وربما اعتبر الحكم العربي الاسلامي كلا من المجوسية خاصة والمزدكية ديانات محلية أو قومية ، لا خطر منها لأنها لا تدعو لمذاهبها ولأن أتباعها يتركون صفوفها بالتدريج الى الاسلام أما المانوية فيبدو أنها كانت تعتبر نفسها ديانة عالمية من جهة وتبشيرية من جهة أخرى ، كما تدعو من جهة ثالثة الى مبادىء في الزهد مقبولة في أجواء الناس إذ ذاك ومن هنا فهي تشكل ثورة منافسة ومزاحمة للاسلام لا سيما وهي تبيح لأتباعها الجهر بأي دين من الأديان (الاسلامية أو المسيحية أو المجوسية خاصة) وإبطان العقيدة الأصلية في

---

(١) كان قد تفرع قبل الاسلام من المانوية فرع جمع بينها وبين النصرانية في مذهب عرف بالبولسية وقد انتشر هذا المذهب في نصارى العراق والجزيرة والشام في العهد الاموي كما أن دعاته وصلوا عبر البلقان الى جنوب فرنسا ونشروا دعوتهم هناك وكانت لهم حركتهم المعروفة بالكاتارية أو الالبيجنسية . وقد قضى عليهم بالحرب والقتل في مطالع القرن الثالث عشر للميلاد .

السرائر • وقد كانت هذه التقية هي التي تصدم وجدان السواد الأعظم من المسلمين المؤمنين بوحدانية الله •

ولم تكن الطوائف المسيحية بدورها في العراق والجزيرة والشام ومصر أقل تنظيماً ونشاطاً فكرياً من الزندقة المانوية وإن كانت أقل اشتراكاً في الحركة الشعوبية الواسعة وبالتالي في حركةالزندقة نفسها • ولكن الفلسفة المسيحية ، والجدل اللاهوتي بين مختلف فرق النصرانية لم يمتنع عن التسرب عن طرق شتى الى المناقشات الجدلية الاسلامية • ولعل أوائل المتهمين بالزندقة في العهد الاموي كانوا أكثر تأثراً بالجدليات المسيحية منهم بالأفكار الدينية الايرانية •

ولا علاقة للثورة العباسية الأولى بالعملية الشعوبية ومقاومتها ولا بالزندقة ومكافحتها إلا في الظلال البعيدة المتصلة بمن لحق بتلك الثورة يوم كانت بعد دعوة سرية في خراسان من أصحاب العقائد المختلفة • وقد كانت دعوة العباسيين سياسية بصورة أساسية لا تهتم في كثير أو قليل بالجدل الديني ولا بالكلام في القدر والتوحيد ولا بغيره • ويروي البلاذري أن أبا جعفر (المنصور) أيام الدعوة عاد من بعض رحلاته في البصرة الى دار والده في الحميمة وأخذ يتكلم في القدر ومسائل الكلام مما سمع في تلك المدينة في مجالس المتكلمين وكان يغشاها ويتصل بأصحابها • فلما سمعه أبوه محمد بن علي العباسي ، وهو عقل الدعوة المنظم ، منعه من ذلك ولم تحمل دعوته ، تحت تأثيره أي لون ديني واضح •

ومن جهة أخرى فإن الحركة الشعوبية ومعها الزندقة إنما بدأت طلائعها في العهد الأموي وإذا كانت الدعوة الشعوبية ، في ذلك العهد ، قد حملت شعار «التسوية» بين العرب وغيرهم لأنها لا تجرؤ على أن

تطلب اكثر من ذلك فإن حركة التفلسف الديني التي دخلت الزندقة عن طريقها الى الاسلام كانت على المستوى المحدود نفسه . ومعبد الجهني المتوفي سنة ٨٠ كان أبرز تطلعات الفكر الاسلامي للجدل الديني متأثراً فيما يقولون ــ بنصراني من أساورة العراق اسمه أبو يونس سنسويه الاسواري ثم كان مقتل غيلان الدمشقي لكلامه في القدر بعد ذلك ، بأمر هشام بن عبد الملك ، رمزاً آخر لعدم الرضى الذي قابل به المسلمون في تلك الفترات ، هذا الجدل .

لكن الاسلام ، كنظام حكم ، وكثقافة ، وكمجتمع كان إذ ذاك يتبلور ويأخذ ملامحه الخاصة المميزة عبر مراحل كثيرة من الصراع لم تخل أحياناً كثيرة من الدماء أيضاً فكان طبيعياً أن يعيش الاسلام كعقيدة، الصراع نفسه . لا سيما أن الفكر الديني الاسلامي كان مضطراً مع تعقد الحياة ، للإجابة على كافة الحاجات الفكرية والمسائل الجدلية التي قد تثور سواء من اعدائه أو من المؤمنين به .

والواقع أنه بالرغم من التراث المأثور عن الصحابة بمنع الجدل فإن المناقشة الدينية قد ظهرت وتوسعت منذ أواخر القرن الأول الهجري بل يعدون عمر بن عبد العزيز أول المتكلمين من السنة[1] . وقد حفظ عنه كثير من وقائع الجدل مع مختلف الفرق . والجدل الديني متى مس بعض العقائد المستقرة أو نقل بعض المعضلات من الطوائف والمذاهب غير الاسلامية أو أظهر صاحبه التهاون في رعاية بعض الحرمات كان جديراً أن يتعرض للاتهام بنقص الدين . وهذا ما استعار له الناس في تلك

---

(١) انظر البغدادي ــ الفرق بين الفرق (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ــ مطبعة المدني بالقاهرة) ص ٣٦٣ وهو يذكر أيضاً أن له رسالة بليغة في الرد على القدرية .

للسنوات الثلاثين من مطالع القرن الهجري الثاني اسم : الزندقة • ولو استعرضنا من وصف بها إذ ذاك لوجدنا مصداق ذلك واضحاً في حالات :

ـ غيلان الدمشقي الذي قال له خالد بن اللحلاح : ويحك يا غيلان ••• صرت قدرياً زنديقاً ![1] وانتهى الأمر بغيلان أن صلب على باب دمشق بعد قطع يديه ورجليه بأمر هشام بن عبد الملك • لقوله بالقدر وحرية الارادة • وقد أفتى بقتله الأوزاعي كما اعتبر رجاء بن حياة قتله خيراً من قتل ألفين من الروم ••• مع أنه كان من الائمة المفتين وله رسائل في ألفي ورقة[2] •••

ـ الجعد بن درهم الذي قال بالجبر وبخلق القرآن ••• وقد شهد عليه بالكفر جماعة عند الخليفة هشام فأخرجه من الشام الى العراق وسجنه عند واليه خالد القسري (المتهم بدوره بالزندقة) ثم طلب اليه قتله • قالوا فضحى به خالد يوم عيد الأضحى ••• وابن النديم يعد ابن درهم من اتباع ماني[3] كما اتهم أنه أخذ عن الصائبة في حران وعن بعض اليهود ولكن ذلك لم يكن فيما يبدو الا لتبرير قتله •

ـ الخليفة الوليد بن يزيد : وقد اتهم بالزندقة وهو ولي للعهد بسبب اتخاذه الشراب والمجون • قال له الخليفة هشام : ويحك يا وليد والله ما أدري أعلى الاسلام أنت أم لا • ما تدع شيئاً من المنكر إلا أتيته

---

(١) الذهبي ـ تاريخ الاسلام ج٣ ص ١٤٧ .

(٢) ابن حجر ـ لسان الميزان ج٤ ص ٤٢٤ وانظر كذلك تاريخ الذهبي ج٤ ص ٢٩٠ وابن النديم ـ الفهرس ص ١٧١ .

(٣) انظر ابن النديم ـ الفهرس ص ٣٣٨ وانظر ابن حجر لسان الميزان ج٢ ص ١٠٥ ولنذكر أن الجعد هو مولى مروان بن محمد وإليه صار ينسب في زمن العباسيين لتشويه سمعته فيقال : مروان الجعدي .

غير متحاش ولا معتز به » وقد عرض به شاعر من موالي المدينة حين حج مسلمة بن هشام بن عبد الملك سنة ١١٩ وكان يكنى أبا شاكر فقال الشاعر :

يا أيها السائل عن ديننا نحن على دين أبي شاكر
الواهب الجرد بأرسانها ليس بزنديق ولا كافر

ــ ابو وهب عبد الصمد بن عبد الأعلى الشيباني وهو مربي الوليد ابن يزيد اتهم بالزندقة للسبب نفسه حتى قال الوليد :

لقد قذفوا أبا وهب بأمر كبير بل يزيد على الكبير

ــ أبو حمزة الصوفي ، وكان حلولياً «فنسبوه الى الزندقة وقالوا حلولي زنديق وبيع فرسه بالمناداة على باب الجامع : هذا فرس الزنديق »[1] .

ــ خالد بن عبد الله القسري والي العراق وقد اتهم بالزندقة لا لأن أمه نصرانية فقط بل لأنه كان يعني ــ كما قال ابن النديم ــ بالمانوية[2] «وزعموا أنه حمل (مهرا) رئيس المانوية على بغلة وختمه بخاتم فضة وخلع عليه ثياب وشي» ، وربما كان ذلك لأسباب ادارية ،

ــ مروان بن محمد فقد ذكر ابن النديم أنه كان زنديقا وقد يكون هذا الاتهام عباسياً وغير ذي موضوع[3] .

---

(١) ابن الجوزي ــ تكبيس ابليس (نشر باسم نقد العلم والعلماء أو ... من قبل الخانجي ــ القاهرة سنة ١٣٤٠) ص ١٨٠ .
(٢) ابن النديم ــ الفهرس ص ٣٣٤ وص ٣٣٧ ــ ٣٣٨ .
(٣) المصدر نفسه .

وهكذا كان القدرية والجبرية على السواء والمجان واصحاب الفكر الحلولي يتهمون بالزندقة في أواخر العهد الأموي لكنهم لم يكونوا يكافحون كجماعة ولكن كأفراد ولم يكن النظام الأموي ينظر إليهم كحركة منظمة خطرة على النظام وإن كان قد قتل بعضهم بسبب سياسي وإن كان خلفاء بني أمية المتأخرون قد وجدوا من واجبهم استئصال الناشزين عن العقيدة العامة فإنهم لم يعتبروا ذلك سياسة دائمة أو واجباً لا محيد عنه من واجبات الامام واتهام اثنين من الخلفاء بالزندقة واثنين على الأقل من مربي الخلفاء بها أيضاً دليل على عدم الاهتمام الرسمي باتخاذ موقف سياسي محدد من هذا التيار .

وقد ورث العباسيون ، فيما ورثوا عن بني أمية ، تيار الشعوبية والزندقة وإذا كانت الانظار متجهة زمن الأمويين الى الشام وزنادقته فإن هذه الانظار اتجهت في ظل العباسيين الى العراق الذي اجتمعت إليه بمختلف ألوان النشاط في الدولة . وليس مفاجئاً أن نجد هناك أن من عرفوا بالزندقة في مطالع العصر العباسي كانوا كلهم من المخضرمين الذين بدأوا نشاطهم الفكري المزندق منذ العهد الأموي . فإن ابن المقفع وبشار ابن برد وحماد عجرد ومطيع بن إياس ووالبة بن الحباب وحماد الراوية وحماد بن الزبرقان وعبد الله بن معاوية ويونس بن أبي فروة وصالح بن عبد القدوس ولنذكر ان الجعد هو مربي مروان وعبد الكريم ابن أبي العوجاء ويحيى بن زياد وغيرهم ممن ألصقت الكتب بهم صفة الزندقة وروت أخبارهم عرفوا جميعاً أواخر الحكم الأموي وقتلوا أو ماتوا قبل أن يأتي عهد الرشيد أو في مطالعه . على أن المفاجيء في الأمر ان تأخذ الزندقة في تلك الفترة بالذات شكل الموجة الواسعة وأن يكثر عدد الزنادقة أو المتهمين بهذا الميل كثرة واضحة . مما دعا الخلافة لاتخاذ موقف الجلاد .

والواقع أنا يجب أن نفتش عن تفسير ذلك في أمور ثلاثة :

الأول : هو نفسه السبب الذي أطلق ثورات ايران المختلفة في عهد المنصور ونعني : خيبة الامال التي كانت الثورة العباسية قد أطلقتها في نفوس الايرانيين • وبينما كان الجواب على هذه الخيبة مسلحاً في بعض نواحي ايران ، كان الجواب عليها هجمة دينية من الزندقة في العراق حيث لا مجال مع قوة الخلافة العسكرية للثورة المسلحة لا سيما وأن التنظيمات الدينية المانوية خاصة كانت قائمة ناشطة متصلة الأسباب ما بين مركزها في بابل وبين اتباعها ومعابدهم في خراسان ومـا وراء النهـر ومثلها المزدكيـة •

الثاني : جهود العباسيين لنشر الاسلام في إيران فقد اثارت هذه الجهود رجال الأديان الأخرى والأجهزة الدينية التي يتبعونها وخاصة منها المانوية القوية في العراق والتي كانت ترى البساط يسحب مـن تحتها والموارد تقل على معابدها وهذا مـا دفع رئاستهـا في بابل الى مقابلة الهجوم الاسلامي الديني بهجوم دينامكي من مثله • إنهـا إذن عملية مقاومة منظمة من جماعة دينية معينـة • وضمن هـذا الاطار الدفاعي الهجومي ترجمت كتب المانوية مـن الفهلوية الى العربيـة ونشرت بين الناس • وبدأنا نسمع عن جدل تبشيري يقوم به الدعاة الزنادقة لمذهبهم يقول بشار بن برد لصاحبه حماد عجرد :

يا ابـن بهني رأس علي ثقيل واحتمال الرأسين أمـر جليل
فادع غيري الى عبادة ربـين فإنـي بواحـد مشـغول !

ونسمع عن محاورات ومناظرات يجريها الزنادقـة مع المسلمين • وهي ليست معركة كلامية جدلية مجردة فقط ولكنها تبشيرية من الطرفين ولهذا فإنها تستمر ما يزيد على القرن وتملأ العصر العباسي الأول كله

جدلا دينياً وتكون أحد الأسباب الأساسية في مسائل علم الكلام • وفي تعميق البحث التوحيدي الاسلامي وفي اعطـاء المذهب السني الكثير من ملامحه المقررة اليوم •

ولم تغفل كما لم ترض الخلافة العباسية بالطبع عن هذا النشاط الذي يستفيد من الحرية الدينية في ظل الاسلام للهجوم عليه • وكره الأتقياء من رجال السنة والحديث والفقه خاصـة أن يستطيع الزنادقة بالجدل وضع المانوية وغيرها من الأفكار الدينية المشركة على قـدم المساواة مع الاسلام • وهذا ما يفسر الموقف الهجومي المكافح الذي اتخذته الخلافة الاسلامية زمن المهدي ضد هذا التيار •

الثالث ــ أن التكاثر السكاني من جهة وانصباب الأموال من مختلف انحاء الدولة على العراق من جهة أخرى وما نجم عن ذلك من تباين طبقي شديد فيه الرفاهية الاقتصادية والترف الواسع وفيه الفقر المدقع والجوع • وازدياد النشاط التجاري والرحلة والاطلاع لدى أهل المنطقة واجتماع الافكار المتباينة إليهم تحت جاذبيـة البلاط العباسي والمال كل ذلك كان يشكل التربة الخصبة لنمو أفكار الريب والزندقة والمجون والتحلل في القيم والعقائد • وقد أفادت المانوية كل الفائدة من تلك الفرصة •

ولعلنا نضيف هنا الى عناصر المعركة أموراً أخرى :

١ ــ أن نشاط المانوية والمزدكية كان يهدد بدوره أيضاً المذهب الزارادشتي في ايران وخراسان وهو المذهب الرسمي الساساني القديم وهذا ما جعل انصار هذا المذهب ومعظمهم من الدهاقين والمرازبة(أصحاب الاقطاعيات الزراعية والدينية) ينضمون الى جانب السلطة العباسية في

كفاح المانوية والمزدكية حفاظا على مصالحهم ؛ ولنلاحظ أن الأسرة البرمكية وأنصارها الذين جندوا لها نصف مليون في خراسان كانوا من هذه الطبقات ، ومثلها أسرة بني سهل ... واتهام البرامكة بالزندقة بعد سقوطهم وقول القائل :

إذا ذكر الشرك في مجلس أضاءت وجوه بني برمك
وإن تليت عندهم آية أتوا بالاحاديث عن مزدك

لا يعني اكثر من صلتهم المصلحية القديمة مع الإسلام باعتبارهم كانوا سدنة بيت النار !

٢ ــ أن الزندقة ابتدعت أسلوباً ذكيا للوقوف في وجه الاسلام هو أسلوب الظرف والمجون والاستهتار بالقيم والسخر من التزمت والتقليد ومن بعض حدود الإيمان ، وإذا نبع هذا الاسلوب في الأصل من التقية ومن خوف المجابهة المباشرة مع السلطة الاسلامية فإنه بالمقابل قد نجح في اجتذاب الناس لا سيما وقد توافقت ذلك مع تكاثر الأموال في العراق واستقرار دولة بني العباس وميل طبقات واسعة من المجتمع الى حياة اللهو والشراب والمتعة بالحياة ؛ وهكذا غالباً ما تقترن في هذا العصر كلمة الزندقة مع المجون ، كما أضحى الاستهتار بالدين واظهار الزندقة نوعاً من التظرف الاجتماعي المحبب يقول شاعر :

تزندق معلناً ليقول قوم إذا ذكروه : زنديق ظريف ! !

ويقول آخر :

يا ابن زياد أبا جعفر اظهرت ديناً غير ما تخفى
مزندق الظاهر باللفظ في باطن اسلام فتى عف
لست بزنديق ولكنني أردت أن توسم بالظرف ! !

واختلط الأمر فدخل في زمرة الزنادقة جماعات الظرفاء والمجان ..

بجانب الزنادقة الأصليين وانضم الى هؤلاء وأولئك فئات من أبناء العقائد الأخرى كما وجد في الوقت نفسه زنادقة يبطنون الكفر ويظهرون الاسلام في اسلوب آخر من اساليب الدس والدعوة المانوية المتسترة بالتقى .

وهكذا جمعت مجموعة الزنادقة أربع طبقات[1] طبقة المجان الذين يصلون في الاستهتار درجة المساس بالدين ولكنهم مسلمون . وطبقة تتبع أديان المجوسية وخاصة المانوية ولكنها تظهر الاسلام تقية أو رغبة وطبقة مثلها ولكنها لا تتظاهر بالاسلام . وطبقة أخيرة من اتباع بعض الطوائف المسيحية أو بعض المذاهب الفلسفية الدهرية على أن المجموعة كلها كانت تلتقي في هدف واحد هو: الوقوف في وجه الاسلام أو على الأقل نزع الهالة القدسية التي نسجها المؤمنون حوله .

٣ ـ كانت كتلة الزنادقة عموماً سواء في رؤوسها أو في الجموع التابعة لتلك الرؤوس من الايرانيين وذلك طبيعي . على أننا نجد في أطراف الكتلة من الجانبين خاصة : جانب الاستهتار وجانب الإلحاد المطلق أفراداً معدودين من العرب أو من السريان المسيحيين . اتهم بالزندقة مثلا بعض الهاشميين (الحسين بن عبد الله العباسي ، عبد الله ابن معاوية الطالبي ، يعقوب بن الفضل المطلبي ..) وبعض العرب الآخرين مثل ابن أبي العوجاء وآدم حفيد عمر بن عبد العزيز وكان شاعرا يفرط في الشراب ويقول إذا مسه السكر ما يمس الدين ولكن زندقتهم كانت تظرفاً ومجوناً وقد عبر عن ذلك آدم نفسه حين أخذه المهدي فضربه

---

(١) لاحظ احمد امين (ضحى الاسلام ج١ ص١٥٤) هذه الطبقات ولكنه اعتبرها معاني لكلمة زندقة لاجماعات فيها .

ثلاث مائة سوط على أن يقر بالزندقة فقال : والله ما أشركت بالله طرفة عين ومتى رأيت قرشياً تزندق ؟ ولكنه طرب غلبني • أنا فتى من فتيان قريش أشرب النبيذ وأقول ما قلت على سبيل المجون[1] •••

ونجد على الطرف الآخر الإلحادي جماعة مـن مثقفي النصارى الذين تأثروا بالتيار العام أو تأثروا خاصة بالمانوية وكتبها • وقد أشار الجاحظ إلى أن الزنادقة أثروا في قوم من الصوفية والنصارى فكانوا يرفضون الذبائح ويبغضون إراقة الدم ويزهدون في أكل اللحوم ••• كما يشير هو نفسه إلى أن « الزندقة فشت في النصارى »[2] • وإلى الزنادقة «الذين يسمون الدهرية لا يقولون بنبوة ولا كتـاب» ولقاء الزندقة المانوية بالنصرانية إنما كان في المذهب البولسي المعروف وأمـا الدهرية فزندقتها إنما جاءت متأخرة على ما يظهر بعد انتشار ترجمات الكتب الفلسفية اليونانية •

وقد سهل على المانوية أن تكون مركز الحركة في الزندقة أنها كانت مرنة الافكار وتحوي الكثير من المبادىء التي تلتقي تارة مع الاسلام وأخرى مع النصرانية وثالثة مع الدهرية كما يجد فيها الزارادشتيون والمزدكيون أنفسهم يقول ابن النديم : «وكانوا يرخصون لأهل المذهب والداخلين فيه أشياء محظورة في الدين •••» •

٤ ــ لم تستنكف المانوية ــ وذلك من البراعة في العداء ــ عن التعاون مع الدولة العباسية • عداؤها الديني لم يصل درجة المقاطعة لنظام الحكم الاسلامي • وإذا استثنينا فترة عهدي المهدي والهادي التي لم تدم اكثر من عشر سنوات فإنا نجد التعاون دائماً قائماً بين اتبـاع

---

(١) الاغاني ج١٤ ص ٦٠ ــ ٦١ •

(٢) انظر الجاحظ ــ الحيوان ج٤ ص١٣٦ ــ ١٣٧ وثلاث رسائل ص ١٧ •

المانوية والحكام المسلمين منذ العهد الأموي ونجد بين رجال المنصور: مطيع بن اياس ويحيى بن زياد والكاتب يزيد بن الفيض وقد ألقي القبض عليه زمن المهدي لمانويته • وبين رجال عيسى بن علي العباسي ابن المقفع الذي قتله المنصور (بحجة الزندقة ولكن لسبب سياسي) وخصيب النصراني طبيب المنصور كان زنديقاً[1] ويزدان بن باذان الكاتب وأحد كبار الرجال في البلاط عند الهادي كان زنديقاً وقتل • وحمادعجرد كان مربي الامين •••

كما نجد بالمقابل كما قال ابن النديم ان رؤساء المانوية «كانوا يخالطون السلاطين ويؤاكلونهم» ويدعون إلى المناظرة في مجالسهم فيلبون ويتقبلون الصلات والهدايا منهم •

ولعل من الأمثلة الواضحة جداً في التعاون والعلاقة الطيبة بين رجال الدولة الاسلامية والمانويين ـ اذا لم نذكر المجوس وغيرهم ـ مثال ابن المقفع الذي عمل للأمويين وللعباسيين وكان على علاقة أخوية مع عبد الحميد الكاتب حتى لقد حاول أن يفديه بنفسه كما كان يرفد إخوانه الكتاب وهم مسلمون بالمال عند الحاجة ويتوسع عليهم[2] ونعرف من كلام الجاحظ أن الرشيد والمأمون استكتبا الكتاب المجوس في ديوان الخراج وغيره[3] •

وقد نتج من هذا وذاك أن الزنادقة المانوية وهم جزء من طبقة الموظفين الايرانيين حملوا معهم وربما حملوا أكثر منهم تيار الشعوبية

---

(١) الطبري ج٨ ص ٨٦ . (٣/)
(٢) انظر الجهشياري الوزراء والكتاب ص ١١٧ ومحاضرة الأدباء ج ١ ص ٢٩ .
(٣) الجاحظ ـ رسائل (نشر هارون) ج٢ ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ .

ضمن الجهاز الحكومي العباسي ، وكان منهم الكثير من صغار الكتاب. وهي الطبقة التي زاد نفوذها زيادة بالغة وسريعة في ظل العباسيين لأن الخلفاء اكثروا من استخدامهم من جهة ولأن الوزراء ورؤساء الجهاز الحكومي كانوا من الفرس .

ونستطيع أن نعرف الوضع الفكري والسياسي لهذه الطبقة من خلال رسالة مشهورة للجاحظ في ذم أخلاق الكتاب : وقد كتب عنهم أيضاً : «.. إن الناشيء منهم متى روى لبزرجمهر أمثاله ولأزدشير عهده وصير كتاب مزدك معدن علمه ودفتر كليلة ودمنة كنز حكمته ..توهم أنه صار الفاروق الأكبر في التدبير ... وأنه وأنه و...فيكون أول بدوه الطعن على القرآن في تأليفه والقضاء عليه بتناقضه ثم يظهر فيه ظرفه بتكذيب الأخبار وتهجين من نقل الآثار ... ثم يقطع ذلك من مجلسه بسياسة ازدشير بابكان وتدبير أنوشروان ... فإن حذر العيون رجع ... بمحكم القرآن الى المنسوخ ونفى ما لا يدرك بالعيان ... لا يرتضى من الكتب إلا المنطق ... هذا هو المشهور من أفعالهم والموصوف من أخلاقهم ... »[1] .

وهؤلاء الكتاب ـ وهم بين الشعوبية والزندقة ـ كانوا يشكلون طبقة واسعة تبذل جهودها ـ دون أن تصطدم الاصطدام المباشر بالنظام الديني ـ لسيطرة تقاليد البلاط الفارسي في الدولة العباسية ولبعث البناء الاجتماعي الفارسي القديم بكل ما يحويه من مراتب طبقية متمايزة ولكي تحل روح الثقافة الفارسية محل ما خلقته التقاليد العربية[2] ... والاسلام في النظام العام .

---

(١) الجاحظ ـ الحيوان ج١ ص ٢٨ وانظر كذلك رسائل الجاحظ (نشر هارون ـ القاهرة ١٩٦٤) ج٢ ص ١٩١ ـ ١٩٤ .

(٢) جب ـ دراسات اسلامية (ترجمة عباس وإخوانه) ص ١٦ .

٥ ـ استخدمت الزندقة في الدعـوة والنشر أساليب شتى من بينها مثلا أنهـا :

م ـ استخدمت الشعر والأدب العربي وهي خير الوسائل المتاحة في ذلك الزمن لإذاعة الأفكار وهذا يعني أن المانويـة بدأت مبكرة في اتقان العربية والشعر العربـي في سبيل الدعوة والجـدل والنشر . وكان من أسباب نجاحها أن ظهر في جانبها جماعة من أبرز شعراء وكتاب العصر ، فأبو نواس ملأ الدنيا غزلا بالخمر وسخراً ممن يخوف بالنار أو بيوم الحشر والحساب في مثل قوله :

يا ناظراً في الدين مـا الأمر   لا قـدر صـح ولا جبـر
ما صح عندي من جميع الذي   تذكر إلا المـوت والقبر !

وقولـه ...

ورأيت اتياني اللذاذة والهوى   وتعجلا من طيب هذي الدار
أحرى وأحزم من تنظر آجـل   علمي به رجـم من الأخبـار
ما جاءنـا أحـد يخبر أنـه   في جنة من مات أو في النار !

وقوله ...

وقـائل هـل تريـد الحـج ؟ قلت له
نعـم إذا فنيـت لـذات بغـداذ

وقوله ...

يـا مـن يلوم عـلى حمـراء صـافية
صر في الجنـان ودعني اسكن النار !

ومثل أبي نواس كان من قبله بشار بن برد القائل :

الأرض مظلمة والنار مشرقـة   والنار معبودة منذ كانت النار

والقائـل :

ابليس افضل من ابيكم آدم   فتبينـوا يـا معشر الاشرار
إبليس من نار وآدم طينـة   والطين لا يسمو سمو النار...

ومثل هذا وذاك كان قول .. .مطيع بن إياس وصالح بن عبد القدوس وابراهيم بن سيابة وآدم حفيد عمر بن عبد العزيز فكان شعرهم هو الصحف السيارة أو ما يشبهها .

ب ــ واستخدم الزنادقة الرواية الأدبية والدينية والأسلوب الأدبي الرفيع في الكتابة والترجمة . يذكر البيروني أن ابن المقفع دس في باب برزوريه من كليلة ودمنة أفكار المانوية . وقد ساعده اسلوبه الأدبي الرفيع كل المساعدة في نشر ما يريد من الفكر . كما ساعدت الرواية حماداً الراوية بل إن بعضا ممن اتهم بالزندقة كان معروفاً برواية الحديث فزيف الأحاديث على النبي . وحين قدم عبدالكريم بن أبي العوجاء للقتل عند والي البصرة أيام المنصور قال ــ فيما يروون ــ لئن قتلتموني لقد والله وضعت أربعة آلاف حديث أحرم فيها الحلال واحل الحرام .والله لقد فطرتكم في يوم صومكم وصومتكم في يوم فطركم ... فضربت عنقه[1] وصلب جسده .

حـ ــ وكان من اساليب النشر أيضا أن يؤلف الزنادقة الكتب في المذهب ، بالعربية ، ومن ذلك ــ حسب قول اليعقوبي ــ «... ما كان ابن المقفع ترجمه من كتب ماني الثنوي وكتب ابن ديصان الثنوي وغيرهما وما وضعه ابن أبي العوجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع ابن إياس وملأوا به الأرض من كتب الملحدين وكثرت الزنادقة وفشت كتبهم في الناس[2] ...» . وينسب المسعودي الى حماد عجرد رسائل كثيرة في المانوية كما يروي ابو نواس أن حماداً كان إماماً من أئمتهم وله شعر مزاوج بيتين بيتين (رباعيات) يقرؤون به في صلاتهم[3] ويذكر ابن

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٤٨ (٣٧٦/٣) .
(٢) اليعقوبي ــ مشاكلة الناس ص ٢٤ .
(٣) الاغاني ج ١٣ ص ٧٤ .

النديم : عدة رجال يتهمون بالمانوية مثل : ابن أبي العوجاء ، صالح بن عبد القدوس ، ابن الاعدي الحريزي ، ابن طالوت ••• ثم يضيف قائلا: «ولهؤلاء كتب مصنفة في نصرة الاثنين (المذهب الثنوي) ومذاهب أهلها وقد نقضوا كتباً كثيرة صنفها المتكلمون في ذلك[1] ويروون عن المهدي أنه قال : ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع •••»[2] وهو متهم بمعارضة القرآن ومثله كذلك ابن ابي العوجاء وقد كتب أبان اللاحقي كتاب مزدك وصالح بن عبد القدوس كتاب الشكوك ••• الخ هذا إذا لم نذكر كتب ابن الراوندي التي جاءت فيما بعد بعد العصر العباسي الأول ، بقليل ، وفي عناوينها ما يكفي دليلا على عنفها : كتاب التاج في الرد على الموحدين وكتاب بعث الحكمة في تقوية القول بالاثنين وكتاب الدافع في الرد على القرآن وكتاب الفريد في الرد على الأنبياء وكتاب فضائح المعتزلة •••

وكان المانوية فيما يبدو يتأنقون في كتبهم : ورقاً وكتابة وزينة ليكون ذلك من أسباب جاذبيتها يقول الجاحظ انها كانت «••• اجود ماتكون ورقاً يكتب عليه بالحبر الأسود البراق ويستجاد له الخط »[3] ليكون ذلك من أسباب الاحتفاظ بها • مع أنها لا أدب ولا فلسفة ولا خبر « وجل ما فيها ذكر النوروالظلمة وتسافد العفاريت والتهويل بعمود الصبح ••» ويبدو من بعض الأخبار التي سنراها أيامالمهدي أنالزنادقة استطاعوا في الواقع أن يجتذبوا بعض المسلمين الى مذاهبهم ونجحوا

---

(١) ابن النديم ص ٣٣٨ .

(٢) امالي المرتضى ج ١ ص ١٣٤ وابن خلكان ج٢ ص ١٥١ (طبعة احسان عباس) .

(٣) الجاحظ ــ الحيوان ج ١ ص ٢٩ .

في التسرب لدرجة أنه كان من بين هؤلاء المفتونين بعض العرب وبعض أبناء كبار الدولة وبعض الهاشميين أيضاً وايضاً •

ح ـ **قصة المكافحة** : أخذت مكافحة الزندقة في العصر العباسي الأول شكلين :

الأول : الشكل الثقافي الفكري : حجة بحجة • فقد وقف رجال الدين والفقهاء وأهل الحديث والاتقياء من الزندقة موقف الكره والتنديد والوعظ والتحريض للسلطات • ولكن هذا الموقف لم يكن له كبير جدوى عملية في قمع الزندقة والوقوف أمام السيل الواسع من الريب والمسائل الدينية التي كان الزنادقة يثيرونها ، من خلال تراثهم الفكري وفلسفاتهم السابقة • ولهذا فقد وقف أهل الكلام لهذا التيار بوسائلهم الأولى أولا ثم بالمنطق المترجم والفلسفات المقتبسة • وكثير من مسائل المتكلمين إنما هي في الأصل أجوبة أو ردود على ريب الزنادقة وجدلهم • وقد كون المتكلمون نوعاً من الجند المتطوعة للدفاع عن الدين بالفكر والمنطق والعقل وكنا نجدهم في حلقات المساجد على الجدل العنيف كما يستدعون الى مجالس الخلفاء للمناظرة أو يرسلون في ذلك الى الآفاق • ولم يكتفوا بهذا كله بل ألفوا الكتب في الرد على الزندقة وأصحابها متطوعين لذلك أو بدعوة من الخلفاء • فقد كتب واصل بن عطاء كتاب الألف وفيه ألف مسألة من الرد على المانوية[1] ويقع في اكثر من اثني عشر جزءاً • ولأبي الهذيل العلاف ستون كتاباً في الرد على المخالفين في دقيق الكلام وجليله»[2] ••• وكان النظام قد طالع كثيرا من كتب الفلاسفة وخلط كلامهم بكلام المعتزلة •••»[3] ونقل عنه تلاميذه

---

(١) ابن المرتضى ـ طبقات المعتزلة ص ٣٥ •
(٢) المصدر نفسه ص ٤٤ •
(٣) الشهرستاني الملل والنحل ج ١ ص ٥٣ ـ ٥٤ •

ردوده كما كتب زميل له كان يناظره أشد المناظرة هو ابو عبد الله الحسين ابن النجار كتاب الرد على الملحدين[1] وكتب محمد بن شجاع الثلجي وهو الذي وطد فقه ابي حنيفة واحتج له بالعلل والحديث كتاب الرد على المشبهة ... وكتب أبو الربيع محمد بن الليث كاتب يحيى البرمكي كتاب الرد على الزنادقة .

وكتب أبو محمد هشام بن الحكم زمن الرشيد كتاب الرد على الزنادقة والرد على أصحاب الاثنين ثم اشترك الخليفة المأمون نفسه في المعركة بكتاب على المانوية[2] كما كتب أيضاً أحمد بن حنبل ، في أيام المأمون كتاب الرد على الزنادقة والجهمية . وكتب القاسم بن ابراهيم الحسني في أيام المتوكل كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع ... بعد قرن من غياب ابن المقفع .ولا نمتد الى ما بعد العصر العباسي الأول لنجد أن المعركة الجدلية ستظل قائمة ومقابل ابن الراوندي نجد كتب ابي بكر الرازي في الرد على المانوية والمبادىء الثنوية وأبي محمد النوبختي وابي علي محمد الجبائي في الرد على اصحاب التناسخ والخرمية ...

على أن حدة الصدام بين الطرفين اذا تصاعدت خلال النصف الاول من العصر العباسي وبلغت أوجها حين استعانت السلطة رسمياً بألسنة وأدمغة المتكلمين أيام المهدي عادت فهدأت وأخذت شكل الجدل الطويل الأمد والتعايش بين الأفكار ولهذا لم يكن من الغريب حين وصل رجال الكلام الأساسيون : المعتزلة الى السيطرة على الخلفاء أن يكون همهم

---

(١) ابن النديم ــ الفهرست ص ١٧٩ .
(٢) أنظر ابن المرتضي ــ طبقات المعتزلة ص ١٢٣ .

الأول ابناء دينهم من أهل السنة والجماعة والحديث لا الزنادقة والملحدين الذين كان قد مضى زمن اضطهادهم منذ عهد طويل كما كان المتكلمون في الوقت نفسه قد يئسوا من إمكان إزالة نحلهم وأفكارهم المرعبة بالجدل والمنطق ...

الثاني هو الشكل الحكومي الرسمي : وهو ما يهمنا هنا بحثه . وفي هذا المجال يمكن أن تتبين في سياسة العباسيين مع الزنادقة مراحل ثلاثاً :

الأولى امتدت ما بين مطلع الدولة مع ابي العباس واستغرقت عهد المنصور كله وجانباً من أيام المهدي أيضاً امتد حتى سنة ١٦٦ أو سنة ١٦٧ .

الثانية : فترة لم تدم اكثر من سبع سنوات (١٦٣ — ١٧٠) صارت فيها مكافحة الزنادقة سياسة يومية وشغلا رئيساً للدولة .

الثالثة : تمتد مابين مطلع عهد الرشيد سنة ١٧٠ حتى نهاية عهد الواثق بعد نصف قرن ونيف . وفيها عادت السياسة العباسية الى عهدها الأول ولكن معنى الزندقة والمكافحة دخل في نهاية هذه الفترة منزلقاً ضيقاً ، أيام المحنة والاعتزال ، حين حاول المأمون في أشهره الأخيرة ثم المعتصم والواثق من بعده أن يجعلوا تهمة الكفر شاملة كافة الناس إلا المعتزلة ..

في المرحلة الأولى لم يختلف موقف العباسيين الأولين من الزنادقة عن موقف الأمويين . وإذا لم يكن لأبي العباس من سياسة معروفة في هذه الناحية فإن صاحب تلك الفترة وهو المنصور كان في الواقع استمراراً لعهد هشام بن عبد الملك ولقد نستطيع أن نعطيه ميولا كلامية[1] ، أو تتبين في سياسته الرغبة في التلبس بلبوس الدين ولكن

(١) ابن المرتضى (في طبقات المعتزلة ص ١٢٢) يعد المنصور من المعتزلة كما يعد ابنه المهدي .

دوافعه في هذا كله إنما كانت سياسية ولذلك فإن الأحداث التي سجلت بينه وبين الزنادقة كانت كلها ذات طابع سياسي واضح .

وإذا كان الموقف النموذجي للدعوة العباسية من الفرق المغايرة للاسلام إنما ظهر في طريقة تصرفها مع حركة خداش ثم مع حركة بهافريد فإن الموقف المماثل والذي يمثل أبا جعفر المنصور في هذا المجال هو : موقفه من الراوندية : فقد وصل بها الأمر درجة تأليه أبي جعفر وقبل منها ذلك قائلا : يدخلهم الله النار في طاعتنا أحب الـي من ان يدخلهم الجنة بمعصيتنا ! ...[1] . فالميزان ما هو الدين اذن ولكنه الطاعة !

وهكذا فقد استخدم المنصور زنادقة المانوية في دولته كتاباً وعمالا للخراج وأطباء في البلاد . يذكرون أن خصيباً النصراني طبيبه الخاص كان « يظهر النصرانية وهو زنديق معطل لا يبالي من قتل ..»[2] وأن يزيد بن الفيض كاتبه كان مانوياً . وقد أقر بذلك ـ فيما ذكر ـ حين قبض عليه المهدي فيما بعد سنة ١٦٧ فهرب من السجن[3] . ولم يعف عنه الرشيد فيما بعد وكان من مقربي البلاط عند المنصور صالح بن عبد القدوس ومطيع بن إياس وهما من كبار المتهمين . ولم يكن المنصور يأبه للزندقة والمجون أن يكثرا بل أهمه مرة أن يستخدم سمعتهم السيئة في تحطيم سمعة ابن أخيه أبي العباس لئلا يطالب بالخلافة . ذكر الطبري أن أبا جعفر وجه مع محمد بن أبي العباس بالزنادقة والمجان فكان فيهم حماد عجرد فأقاموا معه بالبصرة يظهر منهم المجون وإنما أراد بذلك أن يبغضه للناس ...»[4] .

---

(١) الطبري ج ٧ ص ٥٠٧ (٣/١٣٢) .
(٢) الطبري ج ٨ ص ٨٦ (٣/٤٢٣) .
(٣) الطبري ج ٨ ص ١٦٥ (٣/٥٢٠) .
(٤) الطبري ج ٨ ص ٨٦ (٣/٤٢٢) .

وقد قتل والي البصرة عبد الكريم بن أبي العوجاء على الزندقة فلم يكن هم المنصور لماذا قتل ؟ ولكن كيف يقتل وهو لا يدري ؟ قال : «يقدم على رجل يقتله من غير أن يطلع على رأيي فيه ولا ينتظر أمري ..» فلما قال له أحد أقربائه إنما قتل الرجل على الزندقة ولئن عزلت (الوالي) ليذهبن بالثناء والذكر ولترجعن القالة من العامة عليك» ! خاف ذلك وعاد عن عزله[1] .

وجيء الى المنصور برجل من الشام هو محمد بن سعيد الشامي المصلوب قالوا : « إنه من الزنادقة ... الذين وضعوا أحاديث وحدثوا بها ليوقعوا بذلك الشك في قلوب الناس .. وكان يدعو للالحاد والزندقة ...» وكل ما أهم أبا جعفر منه أنه من عرب الأردن والشام الذين لا بد من تأديبهم فقتله على الزندقة[2] مصلوباً سنة ١٥٠ .

هذا في الوقت الذي كان فيه أهل السنة والجماعة عامة يرفضون حتى الكلام في القدر وقد كان الفقيه المعروف ثور بن يزيد الكلاعي يحدث بذلك في حمص بالشام فثار عليه سكان المدينة وأخرجوه منفياً من مدينتهم وأحرقوا داره سنة ١٥٠[3] .

والمشكلة الكبيرة الوحيدة التي سجل فيها وقوف المنصور ضد

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٤٨ (٣/٣٧٦ – ٣٧٧) .
(٢) انظر تفسير القرطبي ج ١ ص ٧٦ وابن حجر ، تهذيب ج ٩ ص ١٨٦ وانظر الصلاح الصفدي الوافي ج٣ ص٩٥ وقد عرفه المؤرخون بالمصلوب وجعلوه تارة الدمشقي وتارة القرشي وثالثة الطبري وذلك حسب قول الصفدي كي لا يعرف ! ...
(٣) ابن عساكر . تاريخ دمشق (التهذيب) ج ٣ ص ٣٨٤ .

الزندقة هي قصة ابن المقفع ولكن ما من أحد من المؤرخين صدق أن مقتل هذا الرجل كان غضباً للدين وحده . ومن المعروف أن ابن المقفع عمل واشتهر وأصبح من الكتاب البارزين في أواخر العهد الأموي ثم في أوائل العصر العباسي وهو ما يزال على دينه الأول لم يتركه حتى في الليلة التي أزمع فيها على الاسلام لأنه ــ على حد قوله ــ «كره أن يبيت على غير دين» . وهذا الدين هو المانوية في الغالب ، أو على الأقل هو المجوسية الزارادشتية . وحين غير دينه بدل اسمه من روزبة بن داذويه الى عبدالله وأعطي ابنه اسم محمد أيضاً .

وثقافة ابن المقفع لا تكشف عنها بلاغته الممتازة فقط ولكن الكتب التي ألفها أو ترجمها أيضاً والتي دخلت التراث العربي فهي جزء منه الى اليوم مثل كليلة ودمنة والأدب الكبير والأدب الصغير كما تكشف (رسالة الصحابة) التي كتبها عن بصر سياسي اداري نافذ وعن اطلاع واسع على أمور الدولة يجعل من تلك الرسالة وثيقة من وثائق عهد المنصور .

وقد عمل ابن المقفع أولا لدى يزيد بن هبيرة والي العراق في آخر العهد الأموي ثم لدى أخيه داود ثم اتصل بعيسى بن علي بن عبد الله العباسي ، عم أبي العباس والمنصور ، فصار كاتباً عنده وأسلم على يديه وقد طلب منه عيسى أن يكتب أماناً لأخيه عبد الله بن علي بعد فشل ثورته يوقعه الخليفة المنصور فلا يجد فيه منفذاً لنقض ولا حيلة لقتل عبد الله . وأفرط ابن المقفع في التحوط لهذا الأمان للدرجة التي أحفظت المنصور ... فأوعز بقتله . فقتله والي البصرة سنة ١٤٢ أو سنة ١٤٣ أو سنة ١٤٥ وهو بعد في حوالي الاربعين ... والجاحظ يكشف سبباً آخر لمصرعه هو إن ابن المقفع أغرى عبد الله بن علي بالمنصور ففطن له ...

فقتل[1] والنتيجة واحدة هي أن سبب القتل لا علاقة له بالزندقة ولكنه في الأصل سياسي وإنما استخدم المنصور تهمة الزندقة ستاراً للقتل .

ويبدو أن مصرع ابن المقفع كان ذا أصداء بعيدة في العصر كله ، لفارسيته وبلاغته وأخلاقه الكريمة ولأنه من طبقة الكتاب التي تمسك الدولة في تلك الفترة ولأنه اخيرا قتل مظلوماً !

وهذا هو السبب في التأكيد المتصل ، على زندقته مع تمادي مرور السنوات الطويلة على مقتله ولقد كان الرجل مجوسياً أو مانوياً لا يخفي عقيدته ولقد يكون قد ساهم ــ أيام مجوسيته أو مانويته ــ في النشاط الديني لجماعته وساهم بقلمه وماله وليس في ذلك عليه من مأخذ ولم يكن ذلك محرماً في عصره عليه أو على غيره ومع ذلك نجد أنه يتهم مع الأيام بأنه «رأس الزندقة» ونجد أنه يظهر بعد قرن من مقتله من يؤلف كتاباً في «الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع»[2] .

وإذا صدقنا ما في الكتاب كان ابن المقفع مانوياً ولكن ثمة الكثير من الشك[3] حول النصوص التي أوردها صاحبه على لسان ابن المقفع

---

(١) الجاحظ ــ ثلاث رسائل ص ٤٧

(٢) نشرت هذا الكتاب مؤسسة كايتاني سنة ١٩٢٧ بتحقيق المستشرق ميكائيل غويدي بعنوان : « كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع عليه لعنة الله للقاسم بن ابراهيم عليه من الله افضل الصلاة والتسليم » . وصاحب الكتاب علوي النسب ويعرف باسم قاسم الرسي توفي سنة ٢٤٦ من نسل اسماعيل الديباج الحسني .

(٣) يقبل المستشرق غابرييلي الكتاب ويستنتج منه زندقة ابن المقفع

كما أن التهمة التي تلصق بابن المقفع من أنه عارض القرآن يبدو أنها تستند الى كتاب الدرة اليتيمة وهو قسمان وضع ابن المقفع في الأول حكماً منقولة عن حكماء كل أمة مذكورة وفي الثاني شيئاً من الديانات « وقد تهوس فيه »[1] ... ولا شيء غير ذلك .

ويبدو أن لجوء الكثير من الزنادقة ، بعد ابن المقفع ، الى بلاغته وكتبه وحفظ الكتاب الفرس لأدبه ، وما في ذلك الأدب من آراء عقلية قريبة من الفكر المانوي الزارادشتي ثم اتصال المعركة ضد الزندقة من قبل رجال السنة والشيعة وأهل الدين واهل الكلام سنوات طويلة جداً، كل ذلك جعل من ابن المقفع زعيماً من زعماء الصراع ولو بعد موته . وأعطى المنصور دون أن يدري أو يريد التغطية اللازمة لمقتله . وهي التغطية التي خشي أن يفقدها عند العامة يوم قتل ابن أبي العوجاء .

في المرحلة الثانية : يذكرون ان المنصور أوصى ابنه المهدي بين ما أوصاه في وصيته الأخيرة قال :

« ... ودين الله القيم فاحفظه وحطه وصنه و.. وأوقع بالملحدين فيه واقمع المارقين منه واقتل الخارجين عنه بالعقاب لهم والمثلات بهم ...»[2] .

وإن لم يعتبرها السبب في قتله بينما يرفض أحمد أمين نسبة الكتاب نفسه الى قاسم الرسي ونسبة ما فيه من الكلام الى ابن المقفع (انظر ضحى الاسلام ج١ ص٢٢٣ فما بعد) .

(١) انظر الباقلاني — اعجاز القرآن (على هامش الاتقان للسيوطي) ج١ ص٤٩—٥٠ (طبعة القاهرة سنة ١٣١٨) .

(٢) الطبري ج٨ ص١٠٥ (٣/٤٤٧)

ويبدو ـ بصرف النظر عن صحة الوصية ـ أن المهدي لم يكن بحاجة إليها كي يتخذ موقفه الصارم القاسي من الزندقة، وهو الموقف الذي طبع العصر العباسي الأول بميزة خاصة لم تفارقه بعد ذلك ولقد كان من أسباب تلك الحرب التي أعلنها المهدي على الزندقة :

أ ـ ما اقتنع المهدي نفسه به وحاول إقناع الناس أيضا به من أنه «مهدي» الله وأنه الذي جاء يملؤها عدلا كما ملئت جوراً . ولم يظهر الطابع الاسلامي في واجبات الخليفة في عهد أحد من الخلفاء بعد العهد الراشد وباستثناء عهد عمر بن عبد العزيز، كما ظهرت في عهد المهدي الذي اعتبر نفسه مسؤولا عن الاسلام ونشره ودعمه بالحج والجهاد والدعوة ومسؤولا أكثر من ذلك عن حمايته فمكافحة الزندقة إذن جزء من سياسته الكلية ينسجم كل الانسجام معها، ومتمم لها . وقد رمز المهدي نفسه الى مهمته الدينية هذه حين قال لابنه : «... اني رأيت جدك العباس في المنام قلدني سيفين وأمرني بقتل أصحاب الاثنين»[1].

ب ـ تزايد النقمة العامة على انتشار المجون والزندقة . العلنية وضيق أهل الدين من مختلف الفرق الدينية بذلك . واحتدام المقاومة الدينية والاجتماعية والثقافية لهذا التيار المهدد . يقول المسعودي : ان المهدي أمعن في قتل الملحدين لظهورهم في أيامه واعلانهم باعتقادهم في خلافته ...» .

حـ ـ نشاط المانوية خاصة، دفاعاً عن نفسها، لمكافحة الغزو

---

(١) الطبري ج٨ ص٢٢٠ (٥٨٨/٣)

الاسلامي الذي ينسل منها أتباعها ويحولهم الى الاسلام • إن ردود الفعل كانت ـ على ما يبدو ـ واسعة خطرة حتى على الدولة نفسها • وإذا كان تقلص أنصار الزندقة عامة بالاسلام يضعف من قوة نظامها الديني فإنه كان يحرم جماعة هذا النظام من موارد خطيرة يمكن أن نعرف فكرة عنها • إذا عرفنا أ ن بيوت النار كانت حتى في نهاية القرن الثالث الهجري (أي بعد قرن ونصف من الفترة التي نتكلم عنها) «كثيرة جداً ويعجز علمها من سوى الديوان إذ ليس من بلد ولا ناحية ولارستاق إلا وبها عدد كثير من بيوت النيران» وبعضها بلغت تكاليف بنائه كما هو منقوش على بابه ثلاثين مليون درهم[1] وكانت نفقة بيت النار في المدائن بالعراق «ضعف خراج فارس» أي كورة فارس كلها مرتين[2] وإذا لم تكن هذه البيوت كلها للمانوية وكان الكثير منها للمجوسية والمزدكية فلا شك على أي حال في أنها تشكل نسبة واضحة منها •

فلم يكن غريبا إذن أن يجد انتشار الاسلام مقاومة فعالة نشيطة من قبل مؤسسات الزندقة وكهانها وأن تكون هذه المقاومة من القوة بحيث يحتاج الرد عليها الى دعم حكومي والى قوة السلطة لحرمانها على الأقل من حرية الحركة ومن الهجوم العلني لا سيما بعد أن «كثرت الزنادقة ـ على قول اليعقوبي ـ وفشت كتبهم في الناس •• وملأوا الأرض من كتب الملحدين •••»[3] وبعد «••• ما انتشر على ما روي المسعودي ـ من كتب ماني وابن ديصان ومرقيون مما نقله عبد الله بن

---

(١) انظر ابن حوقل ـ صورة الارض ص٢٤٢
(٢) انظر ابن رسته ـ الاعلاق النفيسة ص ١٨٦
(٣) اليعقوبي ـ مشاكلة الناس ص٢٤

المقفع وترجمه من الفارسية والفهلوية الى العربية ومـا صنف في ذلك ابن أبي العوجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع بن إياس من تأييد المذاهب المانوية والديصانية والمرقيونية فكثر بذلـك الزنادقة وظهرت آراؤهم في الناس ...»[1] .

وعلى أي حال فقد اجتمعت أسباب عدة لتجعل من المهدي ، في تلك الفترة ، صاحب المعركة مع الزنادقة . وهو لم يبدأهـا منذ أول عهده وأول أخبارها تطل علينا منذ سنة ١٦٣ في قتل المهدي لابن وزيره أبي عبيد الله بن معاوية وفي قتله الزنادقة بمنطقة حلب[2] وهذا يعني أن المهدي ما انتهى الى قراره إلا بعد سنوات على الأقل من حكمه قد تكون خمساً . ويبدو أيضاً أنه في الفترة الأولى مـا بين سنة ١٦٣ ـ ١٦٧ اكتفى بالملاحقة العادية التي يقوم بها المحتسبون في المدن المختلفة ومنهم عبد الجبار المحتسب الذي يرافق المهدي الى حلب . لكن هذه الملاحقة لم تكن من الاصرار بحيث تجعل عهده يختلف في كثير أو قليل عن عهد ابيه المنصور في ذلك ، وأهم ما نعرفه من مطاردة الزندقة في هذه الفترة الأولى هي ما يروون من أن المهدي لما نزل حلب سنة ١٦٣ بعث عبد الجبار المحتسب لجلب من بتلك الناحية من الزنادقة .. فأتاه بهم وهو بدابق فقتل جماعة منهـم وصلبهم وأتى بكتب من كتبهم . فقطعت بالسكاكين ... »[3] .

فهل هؤلاء الزنادقة هم بقية تلك الشيعة الراوندية التي كانت

---

(١) المسعودي ج٢ ص٤٠١

(٢) الطبري ج٨ ص١٤٨ (٣/٤٩٩)

(٣) الطبري ـ المصدر نفسه .

تحاول أن تظهر سنة ١٤١ وأتى على ذكرها بعض المؤرخين[١] أم هم جماعة الصابئة الذين سوف يلتقي بهم المأمون بعد فترة من الوقت في حران ؟ أم هم جماعات أخرى ؟

وتغير الأمر منذ سنة ١٦٧ إذ بلغت حرب الزنادقة أوجها واستمرت بعد ذلك أربع سنوات استغرقت مابقي من عهد المهدي مع أيام ابنه الهادي • وفي هذه الفترة تغير موقف المهدي نفسه من هذه الحرب وإن كنا لا ندري بالضبط السبب الذي دعا إلى ذلك التغيير ، «وجد المهدي في طلب الزنادقة والبحث عنهم في الآفاق وقتلهم »[٢] •

أولا : انشأ المهدي دائرة تعنى بالبحث عن الزنادقة والقبض عليهم بكل مكان ومحاكمتهم أي تحول الأمر الاداري الذي كان أصدره الى نوع من الإضافة على النظام الاداري للدولة إذ أوجد «ديواناً» خاصاً مركزياً لحرب الزنادقة جعله أحد أجهزة الدولة الاساسية بمعنى أنه اعتبر هذا العمل جزءاً أساسيا من مهام النظام الاسلامي وأعمال الخليفة : كالامن والمظالم والقضاء •

وأقام على رأس الديوان موظفاً سمي بصاحب الزنادقة أو عريف الزنادقة وقد توالى على الرئاسة فيه خلال ثلاث سنوات رؤساء ـ فيما وصلنا ـ على الأقل هم : عمر الكلواذي[٣] أول من تولى هذا العمل

---

(١) انظر ابن العديم ـ زبدة الحلب ج١ ص٥٩ وابو زكريا الأزدي ـ تاريخ الموصل ص ١٧٣

(٢) الطبري ج٨ ص١٦٥ (٥٢٠/٣)

(٣) الطبري ج٨ ص١٥٦ (٥٢٠/٣)

عقب إحداثه سنة ١٦٧ فلما مات في السنة التالية • خلفه فيه حمدويه محمد بن عيسى الميساني الذي وجه همه — على ما يظهر — لاستئصال زنادقة بغداد بالذات • ثم نزل مع المهدي الى البصرة فضرب هناك بشار ابن برد ضرب التلف[١] وجاء بعد ذلك صاحب ثالث للزنادقة اسمه عبد الجبار يأتي ذكره مع بشار أيضا[٢] وعلى أي حال فقد كان عمل هذا الديوان يجري تحت الاشراف المباشر من الخليفة الذي كان كثيرا مـا يتولى المكافحة بنفسه ، في أي مكان حل فيه : سواء في العاصمة بغداد أو في البصرة أو مكة أو حلب• وكان من المفترض على ما يبدو أن يكون المحتسبون ، حيثما وجدوا ، ممثلين لصاحب الزنادقة في مدنهم ورجال الشرط معهم بينما يعمل صاحب الخبر (وهو المكلف بمراقبة الاحوال العامة من قبل الخليفة) على كشف الزنادقـة وأعمالهم وحركاتهم •• ويخضع من يقبض عليه بالتهمة الى نوع من المحاكمة حتى إذا أقر أو ثبتت عليه الزندقة بالامتحان أو بالشهادة عرضت عليه التوبة فإن أبي كان القتل هو الجزاء •••

ثانياً : وأنشأ المهدي بالمقابل هيئة علمية لمناظرة الزنادقة وتأليف الكتب في الرد عليهم وكشف مراميهم • ويذكر المؤرخون أن المهدي أمر بكتابة اسماء الفرق الزائفة عن الدين من «أصحاب الأهواء» ليعرفوا في الناس ويتصيدهم القصاص من كل جهة[٣] كما جاء بالمتكلمين فأمرهم أن يضعوا الكتب على أهل الإلحاد وكان أول خليفة أمر بـذلك[٤]

---

(١) الطبري ج٨ ص١٦٧ (٥٢٢/٣)
(٢) الأغاني ج٣ ص٧٣
(٣) الكشي — الرجال ص٢٢٧
(٤) اليعقوبي — مشاكلة الناس ص٢٤ والمسعودي — مروج الذهب ج٢ ص٤٠١ .

لازالة الشبهات التي روج لها المانوية والشكاك .

كان من حصاد هذه المعركة خلال أيام المهدي أن قتل الكثيرون . وأن عادت الزندقة دون شك إلى مواقعها . وانحسرت موجة الدعوة لها والجدل مع أصحابها أو على الأقل التظاهر بأمرها . في اقليم العراق خاصة . وإذا كنا واثقين من أن المهدي كتب الى الولاة في الأمصار بمطاردة ما يطارده هو من الزندقة . وإذا ترشحت لنا أخبار عن زنادقة قبضوا بمكة أو بالشام والجزيرة بجانب زنادقة بغداد والكوفةوالبصرة فمن المشكوك به جداً أن يكون المهدي قد طبق أوامره في ايران بالشدة التي نفذها فيها بالعراق ولعلها لم تطبق هناك أصلا . فإنا لم نسمع عن عقوبة على الزندقة جرت هناك والاسباب في ذلك واضحة هي أن الزارادشتية لم تكن موضوع الاضطهاد كما أنها كانت تنظر بعين الرضى الى مكافحة المانوية . وأصحابها هم زنادقة في نظرها أيضا . عدا أن المانوية لا تشكل خطراً على الاسلام في ايران .

ولا بد هنا من تسجيل أمر هام آخر هو أن المكافحة للزندقة شملت «الأشخاص» ولم تشمل المؤسسة الدينية نفسها بكهانها ومعابدها فلم نسمع عن قتل رئيس المانوية أو اضطهاد كهانها أو هدم معابدها مع أنهم في متناول أيدي السلطة العباسية سواء في بابل بجانب بغداد أو في محددين لهم صفة محددة دعت الى أن يتناولهم العقاب والمطاردة الى مجزرة دموية واسعة دون شك ولكنها كانت محصورة فيأشخاص محددين لهم صفة محددة دعت الى أن يتناولهم العقاب والمطاردة والصلب هم على التحديد : من يظهرون الاسلام ويبطنون الزندقة ويعملون على نشرها ونصرتها . على حساب العقيدة الاسلامية .

وما من شك ، من جهة ثالثة في أن بعض من قبض وعوقب لم تظلمه التهمة ولكنا نجد أن ثمة جماعة أخرى إنما لفقت عليها • فقتلت لأسباب لا علاقة لها بالدين وحمايته • وقد عملت على الايقاع بها عوامل فيها العداء الشخصي وفيها الميول العلوية •

وهكذا فيما بين صدق التهمة والكذب فيها كان من قتلى الزندقة ايام المهدي مثلا :

ــ عبد الله ابن وزير المهدي معاوية بن عبيد الله ، ويقولون : إن الربيع بن يونس نقم على الوزير إبعاده عن الخليفة ولما لم يجد من مطعن عليه أوغر صدر المهدي على ابنه المعروف بالزندقة واتهمه ببعض حرم المهدي فصرف الخليفة وزيره سنة ١٦٣[1] وجعله على ديوان الرسائل وهرب الابن فما زال مطارداً حتى سعى به رجل يعرف بابن شبابة سنة ١٦٦ فقبض عليه وسيق الى المهدي • وجيء بأبيه فسأله المهدي : ألست قلت إنك علمته القرآن ؟ فإذا به لا يحسن قراءة الآيات وتقول رواية الجهشياري إنه قرأ بدلا من ذلك : «تباركت وعالموك بعظم الخلق !» «فلما سئل أزنديق أنت قال نعم وممن يعتقد الزندقة قوم يرون ••• أن التقية غير جائزة وقد دل هذا على أنه منهم» فقال المهدي لأبيه : قم فتقرب الى الله بدمه ••• وعجز الشيخ بالطبع • وقتل الابن رغم طلبه التوبة ••• ثم مازال الربيع بن يونس يعمل حتى أبعد الأب سنة ١٦٨ عن

---

(١) انظر تفصيل القصة لدى الجهشياري ــ الوزراء والكتاب ص ١٥١ــ١٥٤ ولدى الطبري ج٨ ص١٣٨ــ١٣٩ (٣/٤٨٩ــ٤٩٠) وهو يسميه تارة عبد الله وتارة بمحمد (انظر ج٨ ص١٦٣ من الطبري). وانظر كذلك القصة في الاغاني واليعقوبي (ج٢ ص٤٠٠) يسمي الابن باسم صالح.

ديوان الرسائل بأن فاجأه بعرض بعض الأوراق على المهدي فقال : يا أمير المؤمنين إني لا آمنه عليك وقد قتلت ابنه ! ! والعنصر الشخصي في القضية واضح سواء من ناحية المهدي أو من ناحية الربيع ولكنها في الوقت نفسه تكشف مدى تأثر بعض أبناء الدولة بأفكار الزندقة •

ـ وكان منهم صالح بن عبد القدوس الشاعر العصري • وقد جيء به الى المهدي بالتهمة وحاكمه بأن شعره ظاهره فيه الحكمة والفضيلة وباطنه فيه الثنوية والزندقة وقد طلب صالح التوبة • فقبل منه التوبة ولكنه قبل أن يخرج سأله : ألست أنت القائل :

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى فى ثرى رمسه ؟

قال : بلى ! قال فكذلك أنت لا تدع أخلاقك حتى تموت وأمر بقتله[1] •••

ـ وأما مطيع بن إياس فقد اتهم بالزندقة منذ عهد المنصور «رفع صاحب الخبر الى المنصور أنه زنديق وأنه يعاشر جعفراً ابن الخليفة ويوشك أن يفسد دينه •••» وتدخل المهدي في الأمر قال : أما الزندقة فليس من أهلها ولكنه خبيث الدين فاسق مستحل للمحارم • وبعث إليه فهدده فقط ليرجع عن إباحيته وولاه عملا في البصرة • ذلك أن المهدي كما ذكر صاحب الاغاني كان «يشكر له قيامه في الخطباء ووضعه

---

(١) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص ٢٧٤ـ٢٧٥ ، وانظر كذلك الاغاني ج٣ ص٤٦ فما بعد والجاحظ ـ البيان والتبين ج١ ص٢٠٦ والخطيب البغدادي تاريخ بغداد ج٩ ص٣٠٣ .

الحديث لأبيه (المنصور) في أنه المهدي» ! ! ولم يقربه المهدي بعد ذلك بالمطاردة ثم يتبين في زمن الرشيد بعد ذلك وباعتراف بنت مطيع نفسه أنه كان يؤلف كتب الزندقة ويدرسها لابنته وقالت : هـذا دين علمنيه أبي ! ••• وقد ثبت عنه !»[1]

ــ وأما بشار بن برد فقد ضج منه المحدثون ورجال الدين في البصرة ومن شعره الاباحي فلم يزد المهدي على أن منعه من الغـزل • ثم جاء الخليفة البصرة فقبض عليه وسلمه الى صاحب الزنادقة فما زال يضربه ضرب التلف حتى قضى ••• والسبب لم يكن الزندقة التي اشتهر بها الشاعر ولكن ببيتين من الهجاء المقذع في الخليفة أوصلهمـا يعقوب بن داوود إليـه ! •••

وهذه الأمثلة تكفي لبيان الاسلوب الذي طبقت فيـه مكافحة الزنادقة على بعض الأسماء البارزة وقد نضيف إليها مثال :

ــ علي بن صالح بن حي الذي تعتبره بعض الروايـات رأساً في الزندقة وكان ذنبه أنه علوي الهوى •

ولن نعرض لأمثلة أخرى من مثل يزيد بن الفيض ، كاتب المنصور، الذي أقر بالزندقة سنة ١٦٧ ثم فر من السجن ولأبي عيسى الوراق الذي اتهم بسبب علويته ولمجموعة داوود بن روح ابن حاتـم واسماعيل بن سليمان ومحمد بن أبي أيوب المكي ومحمد بن طيفـور الذين أقروا بالزندقة فاستتابهم المهدي وخلى سبيلهم وبعث بداوود بن روح الى أبيه

---

(١) الأغاني ــ ج١٢ ص٨٥ وص ٩٦

والي البصرة كي يؤدبه[1] ... ولا نعرض كذلك لزندقة آدم حفيد عمر ابن عبد العزيز وابراهيم بن سيابة الشاعرين اللذين كانت زندقتهما خلاعة ومجوناً وتظرفاً دون جذور ، وإنما نقف عند مثال خاص غريب هو :

ــ زندقة بعض الهاشميين : فقد قبض المهدي على أحد أبناء داوود ابن علي العباس كما قبض على يعقوب بن الفضل أحد أحفاد الحارث ابن عبد المطلب ، وأقر كل منهما بالزندقة فلم يتمالك المهدي أن يقول لكل منهما : لو كشفت السماوات وكان الامر كما تقول كنت حقيقاً أن تغضب لمحمد ، ولولا محمد صلى الله عليه وسلم من كنت ؟ هل كنت إلا إنساناً من الناس ؟ أما والله لولا أني جعلت الله عهداً إذا ولاني هذا الأمر ألا أقتل هاشمياً لما ناظرتك ولقتلتك ! ... وسجن المهدي الاثنين ، بعــد أن أقسم على ابنه الهادي إن هو ولي الأمر من بعــده ألا ينتظر منهما ساعة واحدة وقد توفي العباسي في السجن ، أما يعقوب المطلبي فما إن وصل الهادي من جرجان ، بعد وفاة أبيه حتى أرسل من ألقى عليه لحافاً وأقعد عليه الرجال حتى خنقه ... وبقية الحكاية غــريب إذ أن زوجة يعقوب وابنته حملتا أيضا الى المهدي فجاءتا بالخضاب والكحل والسرور وأقرتا بالزندقة كما أقرت الابنة أنهــا حامل من أبيها فلمــا اشتدت عليها ربطة بنت أبي العباس بالتنديد قالت إنها كانت مكرهة .. وقد ماتت الاثنتان من الرعب[2] وقد يدل هذا على مدى ما استطاعت المانوية ــ التي تحل الزواج بالبنات ــ النفوذ إليه مــن طبقات الناس إذ ذاك ومدى نشاطها في الدعوة !

---

(١) الطبري ج٨ ص١٦٠ (٥١٧/٣)
(٢) الطبري ج٨ ص١٩٠ــ١٩١ (٥٣٩/٣ــ٥٥١)

ولم تنته أيام الشدة على الزنادقة بوفاة المهدي فإن الهادي تابعها
كانت السنة التي حكمها استمراراً لعهد أبيه الذي كان أوصاه : «يابني
، صار إليك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة فإنها فرقة تدعو الناس إلى
هر حسن كاجتناب الفواحش والزهد ... ثم تخرجها الى عبادة
ين ... فارفع فيها الخشب وجرد فيها السيف وتقرب بأمرها الى الله
شريك له فإني رأيت جدك العباس في المنام قلدني سيفين وأمرني بقتل
محاب الاثنين» وقد «اشتد الهادي في طلب الزنادقة فقتل منهم جماعة
كان ممن قتل : يزدان بن باذان» كاتب أحد رجال البلاط علي بن
طين . سمعوه يقول وقد نظر الى الناس في الحج يهرولون : كأنهم
ر تدوس في البيدر فبعث أحد الشعراء الى الخليفة يقول :

أيا أمين الله في خلقه	ووارث الكعبة والمنبر
ماذا ترى في رجل كافر	يشبه الكعبة بالبيدر
ويجعل الناس إذا ماسعوا	حمراً تدوس البر والدوسر؟

فقتله الهادي وصلبه في الحجيج بسكة[1] ...

وقال الهادي بعد أن مضت من أيامه عشرة أشهر : أما والله لئن
ست لأقتلن هذه الفرق كلها حتى لا أترك منها عيناً تطرف . ويقال إنه
ر ان يهيأ له ألف جذع (خشبة صلب) فقال : هذا في شهر كذا ...
ات بعد شهرين ![2] .

وأما المرحلة الثالثة بعد ذلك : فقد بدأت مع بدء عهد الرشيد الذي

(١) الطبري ج٨ ص١٩٠ (٣/٥٤٩)
(٢) الطبري ج٨ ص٢٢٠ (٣/٥٨٨)

سلم الأمور كلها ، حين استخلف ، ليحي بن خالد البرمكي • ولم تكن ملاحقة الزنادقة من هموم يحيى ولا من خطته السياسية • فتراخت القبضة الشديدة التي كانت تمسك بهذه القضية وإن ظل أثر السنوات الأربع السابقة (١٦٦ ــ ١٧٠) واضحاً في أذهان الناس زمناً طويلاً بعد ذلك وظلت تهمة الزندقة إحدى التهم التي تؤدي الى القتل لا سيما إن كان السبب في الاتهام بها سياسياً •••

لم يكن باستطاعة الرشيد أن يعود فجأة عن ملاحقة الزنادقة فقد أصبح ذلك مطلباً شعبياً اسلامياً يقوم من ورائه رجال الدين بالتأييد والتشجيع ولهذا جاء الامان الذي أعلنه الرشيد سنة ١٧٠ بمناسبة خلافته لمن كان هارباً أو مستخفياً من أعداء الدولة وهو يستثني نفراً من الزنادقة منهم يونس بن ابي فروة الذي اختفى في الكوفة حتى هلك ويزيد بن الفيض[١] • وإذا كان يزيد قد هرب من السجن فان ابن أبي فروة كتب فيما يذكرون رسالة في مثالب العرب وعيوب الاسلام وأرسلها الى امبراطور الروم •••

ثم تقضت السنوات بعد ذلك وضعفت الملاحقة ولم نعد نسمع عن «قتل» على الزندقة وإن كنا نسمع عن سجن أحياناً عليها كالذي من أمر حماد عجرد وسجنه وأمر أبي نواس وسجنه معه ، وأمر القبض على ابنه مطيع بن إياس واتهام ابان بن عبد الحميد اللاحقي الشاعر بالثنوية وقد ترجم كتاب مزدك إلى العربية وسيرة ازدشير وسيرة أنوشروان • وكتاب الصيام والاعتكاف ••• ولكنه لم يقتل •

(١) الطبري ج٨ ص٢٣٤ (٣/٦٠٤) وانظر رسائل الجاحظ (نشر هارون) ج٢ ص ٢٠٢

وبالرغم من أن هذه الاتهامات كانت في مجموعها كيدية ، وكانت بين الشعراء خاصة فإنها هي الظواهر الوحيدة لمكافحة الزندقة خلال فترة الرشيد وقد انتهى في أسوأ الأحوال بالسجن ... ثم العفو . ويلفت النظر منها فقط حادثان :

الأول : اتهام البرامكة ـ بعد النكبة ـ بالزندقة لتفسير الغموض الذي أحاط بأسباب النكبة ومن الواضح أنه اتهام سياسي . وبرمك كان في الأصل من ارستقراطية المجوس الزارادشتيين ، وهي الجماعة التي لم تدخل في مفهوم الزندقة ولا اشتركت بها إن لم تفرح بها . وقد جرت القافية الأصمعي فاتهمهم بالمزدكية أيضاً إذ قال :

اذا ذكـر الشرك في مجلس   أضاءت وجـوه بني برمك
وإن تليـت عندهـم آيـة   أتوا بالأحاديث عن مزدك !

وما من شك في أن البرامكة ايرانيون ولكنهم كانوا ، في الواقع قد أسلموا أحسن الاسلام حتى لم يجد أخصامهم مما يكشف زندقتهم سوى ادخال مجامر البخور الى الكعبة لتشبه في ذلك بيوت النار[١] . ولو كانوا على المجوسية لما استطاعوا الاحتفاظ بسرهم جيلين ولانكشفت منه اشياء أخرى . وقد شملت تهمة الزندقة كذلك بعض أنصار البرامكة فدفعوا ثمن علاقتهم الودية بهؤلاء لا ثمن زندقتهم ومن هؤلاء أنس بن أبي شيخ الذي أتى به الرشيد صباح قتل جعفر البرمكي فدار بينه وبينه كلام فأخرج الرشيد سيفاً من تحت فراشه وأمر أن تضرب بـه عنقه . وقالوا إن صاحب الخبر قد أبلغ الرشيد أن ابن ابي شيخ على الزندقة فقتله لذلك[٢] ...

---

(١) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص ٢٥٤ .
(٢) الطبري ج٨ ص ٢٩٧ (٣/٦٨١) .

الثاني : مصرع عمرو بن محمد العمركي : فقـد خرجت المحمرة بجرجان فكتب علي بن عيسى بن ماهان أن الـذي هيج ذلـك هو العمركي • وأنه زنديق فأمر الرشيد بقتله فقتل بمرو سنة ١٨٠ •

ولم يكن تراخي المكافحة تعني التنازل عن المبدأ الذي أصبح منذ ذلك الوقت صفة سياسية ملازمة للحكم العباسي • فإن الرشيد اعتبر كفاح الزندقة بدوره جزءاً من مهام الامام وقـد سجل في الكتاب الذى أذاعه على الناس بمناسبة تعليق البيعة لأولياء العهد في الكعبة سنة ١٨٦ قال إن من جملة ما أخذ عليه إلعهد فيه : «••• الجهاد لعدو المسلمين من كانوا وحيث كانوا ••• وقطع طمع ••• كل منافق ومارق وأهل الأهواء الضالة المضلة ••• وما يلتمس أعداء الله وأعداء النعيم وأعداء دينه من الضرب بين الأمـة والسعي بالفسـاد في الأرض والدعـاء الى البدع والضلالة ••• »[1] وبالرغم من ذلك فإن ظهورأمثال أبي نواس والحسين الخليع وسلم الخاسر وابن مناذر ، شعراء المجون والإباحية والدهريـة وملازمة بعضهم للبلاط دليل على أن مكافحة الزنادقة قد توقفت عمليـاً وإن بقيت كمبدأ نظري في السياسة العباسية •

ولعل عهد المأمون أن يكون الدليل الآخر على هذا التوقف فقد تحول الموقف العباسي الرسمي على يديه من القتل الـى المجاورة مع الزنادقة ومن الاستئصال الى الجدل بالتي هـي أحسن علـى طريقته الكلامية • يروون أنه استقدم للمناظرة رئيس المذهب المانوي « يزدان بخت من الري بعد أن أمنه ، وكان فصيحاً لسنا فقطعه المتكلمون فقال له المأمون : أسلم يايزدانبخت فلولا ما أعطيناك ايـاه من الأمان لكان

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٢٨٤ –٢٨٥ (٣/٦٦٤ – ٦٦٥) •

لنا ولك شأن فقال له يزدانبخت : نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم فقال المأمون : اجل . وكان أنزله بناحية المحرم (من بغداد) ووكل به حفظة خوفا عليه من الغوغاء ! ....

وهذه المعاملة التي تصل درجة الحفظ من الغوغاء تختلف بوضوح عن موقف المهدي . إنها على الأقل تعتبر المانوية عقيدة جديرة بالجدل على قدم المساواة مع العقائد ، الأخرى . وقد حرص المأمون أن يؤلف هو نفسه كتاباً في الرد عليها . على أن هذا لم يكن يعني مع ذلك أن السلطة كانت تغضي إن وقع لها بعض الزنادقة ممن يظهر الاسلام ويخفي المانوية فإن هذا النوع من الازدواج الديني الذي كان القصد منه خدعة المسلمين وفتنتهم عن الدين ظل محارباً مرفوضاً . وقد ابتكر المأمون طريقة عملية للامتحان في هذه الناحية فقد بلغه وجود بؤرة من الزندقة قوامها «عشرة من أهل البصرة يذهبون الى قول ماني ويقولون بالنور والظلمة فأمر بحملهم إليه بعد أن سموا واحداً واحداً فكان يدعوهم رجلا رجلا ويسألهم عن دينهم فيخبرونه بالاسلام فيمتحنهم بأن يظهر لهم صورة ماني ويأمرهم أن يتفلوا عليها ويتبرأوا منها . ويأمرهم بذبح طائر ماء وهو الدرج وقد أبوا ذلك . فقتلهم »[1] .

على أن المأمون كان قد شغل عن ملاحظة الزنادقة بملاحقة أمل آخر هو جمع كافة المسلمين على مذهب . وحين قرر حملهم جميعا بالقوة عليه وأضحى من لا يقول به مشركا في نظره وبدأ الاضطهاد ... توفي .

ثم جاءت بعد ذلك ، في عهد المعتصم ، المحاكمة الكبرى في تاريخ الزندقة : محاكمة الأفشين ، قائد جيوش المعتصم فقد كرست تلك المحاكمة

---

(١) المسعودي ـ مروج الذهب ج٢ ص ٢٤٩ .

استخدام الزندقة كتهمة سياسية ومصطلح اداري سياسي • كما سحبت المصطلح فأطلقته على المجوسية « الدين الأبيض » الذي كان يعتنقه الأفشين من قبل • وكشفت أخيرا أن كثيرا من المظاهر والشكليات الدينية الزارادشتية أو غيرها كان ينتقل مع أصحابه إلى الاسلام أو يظل معمولا به بعد التحول إليه •

وأهم من هذا أن المحاكمة كرست استخدام تهمة الزندقة كمصطلح إداري سياسي للفصل في الخصومات الدينية والأدبية والسياسية • وللخلاص من الخصوم • وإذا كان مفهوماً أن يتهم بعض أصحاب الميول العلوية بالزندقة من امثال ابي عيسى الوراق وابن أبي العوجاء وسلم الخاسر فإنا نجد أن حميداً بن سعيد كان وجهاً من وجوه المعتزلة فخالف احمد بن أبي دؤاد في بعض مذهبه فأغرى المعتصم بأنه شعوبي زنديق[1] ••

وكانت حصيلة المكافحة للزندقة في النهاية أمرين زيادة توطيد واستقرار المذهب السني وسلطة رجال الدين والحديث في الجماعة الاسلامية الواسعة من خلال إرهاب الزنادقة وغيرهم •ثم تحول المذاهب الاسلامية المختلفة والعقائد المناوئة للاسلام جميعاً الى العمل السري وترك العلنية ولم ترجع الزندقة بعد ذلك الى الجهر بل غلغلت في بعض الحركات الشيعية • أما في التراث الفكري فقد تركت المعركة عدداً واسعاً من الكتب في الرد على المخالفين للعقيدة الرسمية كما تركت ضمن كتب الكلام والفقه والأدب وداوين الشعراء والتاريخ بقايا الكثير من مسائلها وأفكارها ومنشوراتها الأدبية والشعرية وأخبارها •••

---

(١) الأغاني ج١ ص ١٧ .

٢ ـ الحركات الدينية الايرانيـة :

لعل الزندقة إنما أخذت تلك الأبعاد والشأن التاريخي في العصر العباسي الأول لأنها اصطنعت اسلوب النشاط الخفي والتسرب السري والجدل والدعوة ونشر المجون واستهدفت بإصرار تأليب المسلمين أنفسهم على دينهم أو على الأقل تشكيكهم فيه • على أن ثمة حركات أخرى لم تكن أقل شأناً من الناحية التاريخية وقد اصطنعت أسلوبـاً آخر هو الثورة والسـلاح واستهدفت الخلاص من الدين الاسلامي والاحتفاظ بأديانها الأولى لنفسها في مناطقها • والفارق بين الزندقة وهذه الحركات أن الأولى ذات طبيعة هجومية وتستهدف المسلمين بأسلوب التسلل أما الثانية فدفاعية وتستهدف حفظ عقائدها باستخدام القوة المسلحة •

وإذا كان أسلوب التسلل الزندقي قد بدأ منذ أواخر العهد الأموي واستمر الى ما بعـد العصر العباسـي الأول فقـد جرب الايرانيون (الزادشتيون منهم والمانويون والمزدكيون) أسلوب الثورة المسلحة ايضاً حتى قبل طلوع العصر العباسي وجربـوه خلال عهـد المنصور خاصة وفشلت حركاتهم بمختلف الاسماء التي تسمت بها ومختلف التجديدات العقائدية التي أدخلت عليها وكان آخرها بعد حركتي سنباذ واستاذ سيز سنة ١٥٠ حركة المقنع • وهذه التجديدات إنما كان السبب فيها نوع من اليقظة الدينية السياسية أصاب العقائد الايرانية والايرانيين إثر اهتزاز الحكم الأموي ثم سقوطه ونجاح الثورة العباسية بعد ان انطلقت من أرض ايرانية وأعان عليها جهود بعض الايرانيين ••

وقد كان من حق حركة المقنع التي قامت بين سنة ١٥٩ ـ ١٦٣ أن تأخذ مكانها في عهد المهدي لأنها تقع من الناحية الزمنية في إطاره ولكنا

ألحقناها بعصر المنصور لأنهـا كانت ختاماً مؤقتـاً لتلك السلسلة من الحركات « الملحدة » أو من حركات العقائد الايرانية التي دمغت مطالع العصر العباسي وقد جاءت من بعدها فترة من الهدنة الثورية ظهرت فيها بعض الحركات الصغرى • أما الكبرى فلم تظهر إلا بعـد نصف قرن تقريباً • أما الحركات الصغرى فهي التي عرفت باسم الخرمية وأما الحركة الكبرى فهي التي حملت اسم بابك الخزمي •

ا ــ الخرميـة (المحمرة) :

كانت كلمة « الخرمية » هي التسمية التي عرف بها أتباع مزدك ولكن الناس كانوا قد اصطلحوا على تسميتهم «بالمحمرة» كما كانوا يعرفونهم أيضاً باللقطة[1] • وإذا كان اسم خرم آتياً من معنى الكلمة بالفارسية وهو اللذة ، لأنهم مأمورون باتباع اللذات والشهوات والمشاركة في المال والحرم والأهل فإن اسم المحمرة قد يكون في الأصل من استعمال ملابس الحمـرة •

وكان غرب ايران وغربها الشـمالي (على سفوح جبال زاغروس وجبال البورز) هي أعشاش الخرمية في مثلث جرجـان الأهواز تبريز كانوا يملأون «نواحي الجبال فيما بين اذربيجان وارمينية وبلاد الديلم الى همذان ودينور ••• وفيما بين اصفهان وبلاد الأهواز»[2] كما كانت لهم مناطق جرجان • وقد تابعوا بدورهم سلسلة حركاتهـم بعدد من الثورات التي امتدت ما بين عهد المهدي حتى عهد المعتصم •

ــ ثار المحمرة سنة ١٦٢ في جرجان • شجعتهم دون شك ثورة المقنع وإن كانت في أواخرها آنذاك كمـا شجعتهم ثـورة يوسف البرم في

---

(١)و(٢) انظر ابن النديم ــ الفهرست ص ٣٤٣ •

سجستان • تزعم الثورة رجل يحمل اسماً مسلماً هو عبد القهار وقد لا يكون الاسم دليلا على اسلامه ولكن على التأثير الثقافي العربي في المنطقة أو على رجل ارتد لدين آبائه • واستطاع عبد القهار أن يسيطر على الاقليم كله مما يكشف مدى الاستعداد الكامن في الاقليم للثورة • وهو استعداد ديني من جهة ولكنه دون شك اقتصادي من جهة أخرى وقد يكون استهدف الخلاص من الخراج والجزية • وانهزم والي جرجان المهلهل بن صفوان أمام الثائرين الذين قتلوا بشراً كثيراً من المسلمين وسيطروا على المنطقة ••• ولعل من أدلة تشبع هذه المنطقة بالتذمر أن جماعة خرمية أخرى كانت قد ثارت بدورها بعد أن التفت حول زعيم ادعى انه ابن أبي مسلم ويسميه أتباعه أبا غرة • وكانوا بقية الجماعة الخرمية المسلمية بعد سحق حركاتها الأولى فالتقت الثورتان وتحالفتا وسارت المقاتلة منهما إلى الري •

وأمر المهدي واليه على طبرستان عمر بن العلاء أن يتحرك لإيقافهم واستطاع الجيش العباسي هزيمة الثائرين وقتل عبد القهار وأصحابه سنة ١٦٢[(١)] وبقي ابن العلاء والياً على جرجان سنة ريثما أقر النظام فيها وتتبع جذور الثورة بالمطاردة ثم أعيد الى طبرستان[(٢)] • التي كانت طلائع الثورة قد بدأت فيها بدورها سنة ١٦٤ •

ـ وانتقلت الحركة الثورية بعد ذلك إلى أصفهان سنة ١٦٧ والتحق بالثورة أعداد من الفقراء والمعدمين مما يدل على الطابع الاشتراكي الذي اتخذته في هذه المنطقة والآمال التي وعدت بها المحرومين ولكن القوى

---

(١) انظر الطبري ج ٨ ص ١٤٣ (٣/٤٩٣) •
(٢) الطبري ج ٨ ص ١٤٨ (٣/٥٠٠) •

العباسية استطاعت ان تقضي بسهولـة عليهم لافتقارهم الـى السلاح والقيادة والقوت •

ــ وعادت الثورة كرة أخرى الى جرجان بعد همود عشرين سنة فثارت المحمرة[1] هناك سنة ١٨٠ « وكتب علي بن عيسى بن ماهان ــ وكان جديد الوصول الى ولاية خراسان ــ إن الذي هيج ذلـك عليه هو عمرو بن محمد العمركي • واسم الرجل يدل على إسلامه • وإذا لم تكن تهمته سياسية بغية التخلص منه فإنه يكشف عن ظاهرة عرفتلدى بعض الايرانيين في تلك الفترة وهي الارتـداد عن الاسـلام الى دين الآباء • وعلى أي حال فقد «أمر الرشيد بقتله فقتل بمرو» على أنوقوعه في أيدي الوالي العباسي لا يعني أن الجيش قد انتصر نصراً حاسماً على الثورة أو استطاع إخمادها بقتل من اتهم بزعامتها فقـد عمت في السنة التالية البلاد سنة ١٨٢ و«غلبت المحمـرة على جرجان»[1] كمـا يقول الطبري ••• ولعل لهذه الثورة العارمة علاقة بقضيـة الفضل البرمكي الذي كان والي خراسان كلها قبل ذلك وبالركائز التي أقامها لنفسـه ولأسرته هناك وبالجيش الذي نظمه في حوالي نصف مليون رجل ثم جاء ابن ماهان ــ بالاتفاق مع الرشيد ــ يدمر كل ذلك ويفرقه • ويبدو أن الوالي الجديد استطاع في النهاية أن يسيطر على الموقف في جرجان كما في غيرها • وينهي الثورة النهاية التي عرفتها ثورتها السابقة سنة ١٦٠ ــ ١٦٢ •

ويظهر أن اندحار هذه الثورات المتتالية وهزيمة ثورات طبرستان معها قد دعا المحمرة إلى إعادة النظر في وضعهـم والعمل الجـدي في اتجاهين :

---

(١) الطبري ج٨ ص ٢٦٦ (٣/٦٤٥) •
(٢) الطبري ج ٨ ص ٢٦٨ (٣/ ٦٤٦) •

الأول : تجديد الفكر المزدكي بالعودة الى منابعه وإحياء مبادئه الأولى وكان الرمز الدال على ذلك أن الناس ــ والمؤرخين معهم ــ لن يستعملوا لهذه الجماعة اسم المحمرة بعد الآن ولكنهم سيستعملون لهم الاسم القديم التقليدي : الخرمية .

الثاني : بذل جهد دعائي منظم ــ وربما وضع له جماعته وتنظيمه في السر ــ ليس للوقوف فقط في وجه التسرب الاسلامي الى الخرمية وكسبه أتباعها ولكن لإعادة من أسلم من هؤلاء الى دين آبائه الأولين . عملية الصراع كانت قد بدت واضحة عنيفة .

ــ واظهرت أولى تتائج هذه الاتجاهات الجديدة في اذربيجان . هناك «تحرك الخرمية» سنة ١٩٢ مستغلين ثورة رافع بن الليث العارمة في خراسان ويبدو أن الحركة كانت من الخطر بحيث «وجه إليهم الرشيد (مع القائد) عبد الله بن مالك بعشرة آلاف فارس» استطاع الرجل أن يأسر ويسبي وأن يوافي الرشيد في بلدة قرماسين فأمر بقتل الأساري وبيع السبي(١) .

لكن نصر الرشيد في هذه المرة كان نصراً موقتاً عابراً لأن خمائر الثورة الجديدة وأبعادها كانت أوسع بكثير من أن يمحوها قتل الأسرى وبيع السبي . فقد تسلم الحركة بعد عشر سنوات بابك الخرمي

ب ــ البابكية (٢٠١ ــ ٢٢٢) :

«تضمن تقريب بني العباس للارستقراطية الايرانية ، ابقاء الوضع الطبقي في ايران كما كان عليه . فلم يعمل العباسيون شيئاً يذكر لتخفيف الضغط الاقتصادي والاجتماعي على جماهير الايرانيين» وقد قويت

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٣٣٩ (٣/٧٣٢) .

واستعادت الخرمية ديناميكيتها ونشاطها بسبب الطـابع الشعبي الذي اتخذته والآمال بالعيش الرخي المشترك التي تبعثها في الناس ولهذا بينما كانت الطبقات الارستقراطية الايرانية ــ والمجوسية الزارادشتية خاصة منها ــ تتحالف مع الحكم العباسي وتتعاون معه عـاد الايرانيون الى المبادىء الخرمية ينشرونها بينهم حتى صارت رمز وعي الامة الايرانيـة للتخلص من الحكم العباسي وبالرغم من ان العباسيين استهدفوا خلق جو من التفاهم والتعاون بين العرب والموالي ــ ولا سيما الفرس ــ لاعتقادهم (بنتيجة درس الامويين) ان الاستقـرار لايتـم الا بتعاون مختلف عناصر الدولة الا انهم لم ينجحوا في خلق ذلك الجو على مدى أبعد من التعاون مع الطبقات العليا ، ولعل فشلهم السياسي جاء نتيجة الخطأ في تقدير حقيقة الاوضاع الدينية السياسية في ايران كما نتج عن اضطراب سياستهم هناك وقسوة سياستهم المالية الخراجية وعن التيارات التي اثاروها وعن طموح الايرانيين انفسهم بنتيجة عمـل الجماعـات الدينية ورجال المعابد خاصة وهذا مايفسر لنا استمرار الحركات الدينية ــ السياسية في المناطق الايرانية مدة العصر العباسـي الاول ، حتى اذا تشكلت الامارات الايرانية الاولى خمـدت تلك الحركـات وانتهى امرهـا •

ولعل الحركة البابكية كانت اخطر تلك الحركات[1] ، الدينية في الظاهر ، السياسية في الواقع ، التي عرفتهـا ايران منـذ قيام الدولة العباسية • فهي ، وان اشبهت الحركات السابقة ، في أسسها الفكريـة الدينية ، الا انها تتميز عنها باتساعها ، وطول امرها ، وتنظيم دعايتها ،

---

(١) في دائرة المعارف الاسلامية مقالتان هامتان حول بابك والخرمية في المادتين .

وخططها ، وبراعة القيادة فيها واتصالها السياسي بغير الفــرس اتصالاً واسعاً إذ اشترك فيها عدد كبير من الشعوب المجاورة لمنطقة الجبال : كالكرد والأرمن والروم وغيرهم من الشعوب الصغيرة في مــا وراء القفقاس وكان اشتراكهم الفعلي دليلا على الاتفاق المبيت والشعور القوي بالمصلحة المشتركة • وأهم من كل أولئك أنها استهدفت إقامة نظام خرمي ديني سياسي اقتصادي بالاستناد الى المبادىء المزدكية وبــدأت تنفيذ ذلك النظام •

تنسب البابكية الى (بابــك) وصاحبها هــذا غامض النسب • والدينوري يشير الى ذلك ويضيف قوله : «••• الذي صح عندنا وثبت انه كان من ولد مطهر بن فاطمة بنت ابي مسلم الخراساني هــذه التي ينتسب اليها الفاطمية من الخرمية[1]» وإن كان ابن النديم يجعله ابن بائع دهن من أهل المدائن سكن في اذربيجان وهوى أم بابك وفضح معها ثم تزوجها فلما قتل نشأ ابنه نشأة فقيرة وكان يرعى البقر ويسوس الدواب ويضرب الطنبور حتى بلغ الثامنة عشرة •

وحركة بابك حركة خرمية • ومعظم المؤرخين (كالطبري وابن النديم وابن الجوزي والبغدادي وغيرهم ••) متفقون في ذلك وفي أنها تجديد للحركة الخرمية السابقة وابن النديم مع بعض المؤلفين يقول إن الخرمية صنفان : الخرمية الأولــين ويسمون المحمرة (جماعــة سنباذ والمقنع) ••• والخرمية البابكية[2] • ولكن بابك ليس بالمؤسس لها ،

---

(١) الدينوري ــ الاخبار الطوال ص ٤٠٢ واســم بابــك يلفظ في الاصل : بابان .

(٢) ابن النديم ــ الفهرست ص ٣٤٢ .

فقد كان للخرمية في منطقة الجبال منظمات وزعماء قبله ـ على ما يظهر ـ ونسمع من ابن النديم والمسعودي بزعيمين للخرميـــة هناك قبل بابك هما جاويدان بن سهل ، استاذ بابك ومربيه في شبابه وابـــو عمران . وأنهما كانا في حرب مستمرة «ليتوحد أحدهما بالرياسة» وقد اصيب الاول مرة فمات من جراحه ، بينما قتل الثاني في المعركة . واعلنت زوجة جاويدان ـ وكانت تتعشق بابك ـ ان زوجها قال لها قبل وفاته :اموت هذه الليلة وان روحي تخرج من بدني وتدخل في بدن بابك وتشترك مع روحه» فصدق الاتباع قولها ورضوا ببابك زعيما لهم [1] . وهكذا فان بابك الذي تزوج أيضاً امرأة جاويدان ، لم يوجد في الحركة شيئاً ولكنه وجدها قائمة فمنحها عبقريته في الحرب والتنظيم والدهاء السياسي . وقد عرف انصاره باسمه كما عرفوا (بالمحمرة) لانهـــم «صبغوا الثياب بالحمرة في ايامه وكانت شعارهم» ولكنهم في افكارهم ، بالطبع ، من الخرمية (المزدكيـــة) .

ولم تحفظ لنا المصادر نصوصاً أصلية عن برنامج بابك السياسي أو مبادئه الفكرية ـ وكل ما نعرفه عنه فإنما هو من خلال ما أخذه الناس عليه وانتقدوه عنده من الأفكار والأعمال . على أن النتف والإشارات النقدية الجدلية الباقية تكشف عدداً من النقاط في مبادىء تلك الجماعة وتؤكد أن بابك كان يستند في ثورته الى برنامج متكامل ديني واجتماعي ـ اقتصادي وسياسي ولعلنا نستطيع تلخيصه في نقاط ثلاث بما يلي :

١ ـ الايمان بالحلول والتناسخ حتى ادعى بابك الالوهية .

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤ ويصف ابن النديم هنا حفـل تنصيب بابك في الزعامة وزواجه من ارملة شيخه جاويدان .

٢ ـ المشاعية المزدكية في المال والحرم لئلا تبقى بين الناس أسباب للخلاف والتنازع • وقد تجلى الجانب التطبيقي لذلك في تحرير الارض مصدر الثروة وتحرير المرأة • وإذا كان تحرير المرأة قد أدى منطقياً الى نوع من الاباحية يقول المقدسي انه شهدها منهم بنفسه[١] فإن تحرير الارض استهدف هدم النظام القائم على الطبقية (من ملاكين كبار ورؤساء دين وجيوش مرتزقة) ليبدل به نظام آخر لا طبقي يلغى فيه الامتلاك والاستبداد وتباح المشاركة •

ولما كان اغلب البابكية من الفلاحين فقد حاولوا حل مشكلة الاراضي بانتزاعها من الاقطاعيين الكبار وتوزيعها عليهم (كحركة الفلاحين ايام لوثر في المانيا) والطبري يذكر عن المازيار (صاحب بابك) انه «أمر أكَرَة الضياع بالوثوب بأرباب الضياع وانتهاب اموالهم»[٢] ويذكر عن قائد آخر للمازيار اسمه (سرخاستان) أنه قبض حين حوصر على ٢٦٠ شاباً من أولاد القواد أصحاب الأراضي وبعث الى الأكرة المختارين من الدهاقين فقتلوهم و ••• قال لهم : إني قد أبحتكم منازل أرباب الضياع وحرمتهم ••• صيروا الى الجس فاقتلوا أرباب الضياع قبل ذلك ثم حوزوا ما وهبت لكم من المنازل والحرم ••• فجبن القوم وخافوا وحذروا •••»[٣] •

---

(١) ذكر البلعمي وهو المؤرخ الذي ترجم الطبري الى الفارسية ولخصه ان بابك نسخ او الغى الزواج الشرعي وملكية الأرض وكان يقول: إن خالق المسكونة قسم الاشياء بين الناس بالعدل والقسط ولم يعط احدا اكثر من غيره فلا بد من نظام يتساوى فيه عدد النساء ومساحة الأرض التي يملكها كل شخص ...» انظر بندلي جوزي ـ الحركات الفكرية ص ٩٨ ـ ٩٩) •

(٢) المصدر نفسه ج٩ ص ٨٦ ـ ٨٧ (٣/١٢٧٨) •

(٣) الطبري ج ٩ ص ٨١ (٣/١٢٦٩) •

٣ ـ على ان بابك استهدف من وراء هذه الثورة غاية سياسية هي التخلص من السلطان العربي والدين الاسلامي وإقامة دولة خرمية ونظام سياسي مزدكي إيراني يتبين ذلك من كلام جاويدان عنه في وصيته : «... سيبلغ بنفسه وبكم (أي بالخرمية) أمراً لم يبلغه أحد ولا يبلغه بعده أحد وانه يملك الارض ويرد المزدكية ويعز به ذليلكم .. ويرتفع وضيعكم»[1] وقد أجمع ابن الجوزي والمقريزي والمسعودي والذهبي على تبيان هذه الغاية السياسية عند بابك .

ويروي الطبري أن ابنه أرسل إليه كتاباً مع رسولين ينصحه بالاستسلام فلم يفض بابك الكتاب ولكنه قتل أحد الرسولين بعد أن علق في عنقه الكتاب المختوم وقال للرسول الآخر : إذهب وقل لذاك (يعني ابنه) لو أنك لحقت . واتبعت دعوتك حتى يجيئك الأمر يوماً كنت ابني . قد كنت باسم هذه الرياسة وحيثا كنت أو ذكرت كنت ملكاً . ولكنك من جنس لا خير فيه . تعيش يوماً واحداً وأنت رئيس خير ، أو تعيش أربعين سنة وأنت عبد ذليل ؟..[2] .

ولعل مما يؤكد مخطط بابك السياسي ضد العرب ودولتهم وضد المسلمين ما ذكره الطبري أيضاً من أنه وجد لدى بابك ، حين هزم وأسر ، حوالي ٨ آلاف من العرب والدهاقين ونسائهم وأولادهم[3] ومن أنه حين دخلوا به أسيراً على الأفشين أمر ألا يتركوا عربياً يدخل بين الصفين

---

(١) ابن النديم ـ الفهرست .

(٢) انظر الطبري ج٩ ص٥٠ (١٢٢٧/٣) حيث يقول : وكان قد صار إلى الافشين نساء كثر وصبيان ذكروا أن بابك كان أسرهم وانهم أحرار من العرب والدهاقين ...» وانظر الطبري أيضاً (ج٩ ص ٥٥) حيث يقول : «... واستنقذ ممن كان في يده من المسلمات وأولادهم سبعة آلاف وستة مائة انسان ...» .

«الذين يمر بينهما من الجنود فرقاً أن يقتله انسان ممن قتل اولياءه ..
ويمكن ان نضيف الى ذلك ان الخرمية كانت تتسامح مع الاديان الاخرى
كل التسامح وتكره الدماء فاذا هي حاربت سلطة الاسلام والمسلمين
فلأن بابك ــ كما قال ــ كما قال ابن النديم ــ هو الذي (جدد فيها)
وأحدث في مذاهب الخرمية القتل والغصب والحروب والمثلة ...»وإنما
كان ذلك لغرض سياسي اكثر مما هو ديني . أما قول (بندلي جوزى)
من ان «غرض البابكية لم يكن مقاومة الاسلام وذويه ولا مقاومة
العرب كأمة فاتحة مغتصبة (كما كانت الحال في أكثر الثورات السابقة في
في بلاد العجم) بل محاربة ذلك النظام الاجتماعي الذي كانت تئن تحته
الطبقات السفلى في جميع الامم التي كانت تؤلف يومئذ دولة بني العباس
حتى الامة العربية» .. ، فقول يشير الى جانب من المشكلة ، قد يكون
الجانب الهام العميق منها ، ولكنه لايفسر كل شيء فيها . وهو لا يفسر
بصورة خاصة اشتراك عدد كبير من الارستقراطيين بهـا أو اشتراك
الشعوب المسيحية المجاورة كالأرمن والروم أو اشتراك الأكراد .

كان مركز بابك الذي بدأ منه الثورة سنة ٢٠١ في (البذ) أو (البدين)
وهي بلد في اذربيجان غربي نهر الرس بين (ياقوت) انها كانت مهد
المزدكية ، منذ محنة مزدك . اذ لجأ اليها بعض اصحابه ، ودعوا فيهـا
لرأيه . ولكن بابك تجاوز بالدعوة اذربيجان جنوباً الى همدان واصبهان
وما سبذان وبلاد الاكراد ، ويظهر أن ذلك كان في أواخر عهد المأمون ،
وفي سنة ٢١٨ بالذات ، وتجاوزت الحركة هذه المناطق شرقاً أيضاً الى
طبرستان وجرجان وبلاد الديلم ، وحتى الى خراسان .

---

(١) بندي جوزي ــ من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام (طبعة
الروائع ــ بيروت) ص ٩٠ ــ ٩١ .

ويبدو من بعض الأدلة ان التهيئة للثورة قد بدأ قبل اعلانها بزمن بعيد وربما أعلنت باتفاق مسبق مع الروم أيضاً لكن التهيئـة الحقيقية كانت في إعداد الجماهير في اذربيجان لها وجمهرة اتباع بابك كانوا من الاكرة • لكنا نجد لاول مرة في هذه الحركة اشتراك بعض الارستقراطية الايرانية فيها مع العامة ، كالمازيار (اصبهبذ طبرستان) ومنكجور الفرغاني (خليفة الافشين على اذربيجان) والافشين ايضاً القائد العباسي ، ويمكن ان نأخذ فكرة عن اتباع بابك وعددهم من ان عدد فرسانه كان عشرين الفاً ــ على مايذكرون ــ وابو منصور البغدادي يذكر اجتماع (٣٠٠) الف شخص معه ويقدرهم المسعودي بمائتي الف ولا شـك ان بعض المتلصصة قد انضم اليـه •

وقد سعى بابك ، الى هذا ، في استمالة الاقليات العنصرية التي حوله ، فدخل (عصمة) الكردي صاحب مرند ، وامراء بعض الاكراد في همدان وكرمنشاه ، في طاعته دون إكراه أو مساومة[1] • ولم ينجح في استمالة الارمن الا فئة منهم (من مقاطعة سيونيا) وثق روابطه معها ، بالزواج من ابنة اميرها • أما باقي الآرمن فقد آثروا الحياد والاستفادة من ضعف النفوذ العباسي عندهم في بناء إماراتهم الداخلية •

أما العلاقة الخارجية الهامة التي عقدها الثائر الخرمي فإنما كانت مع الروم مما أعطى ثورته الطابع الدولي •

ويظهر ان بابك اتصل بالبيزنطيين قبل الثورة • فالمصادر الرومية تشير الى مفاوضات سرية بينه وبين الروم[2] بدأت منذ عهد ميخائيل

---

(١) اليعقوبي ــ ج٢ ص ٤٧٣ وقد احتال بعض القواد العباسيين على صاحب مرند فأسره وحمله الى المعتصم •

(٢) انظر بندلي جوزي ــ من تاريخ الحركات الفكرية ص٨٠ وهـو يستند في ذلك الى المؤرخ البيزنطي تيوفانوس (ج٣ ص ١١٢) والى ميخائيل السرياني (ج٣ ص ٥٢) والى كتاب العرب والروم لفازيلييف ص ٣٣ •

الثاني (٨٢٠ ـ ٨٢٩) مؤسس الأسرة العمورية ثم خلفة تيوفيل (٨٢٩ ـ ٨٤٢) ولا شك أنه كان يهم هذين الامبراطوريين دعم مكانتهما ومكانة اسرتهما الجديدة بتدمير الخلافة العباسية عن طريق لا يكلفهما الكثير على أن دعم الروم للثورة الخرمية في مراحلها الأخيرة أمر مؤكـد فإن بعض اصحاب بابك حارب سنة ٢١٦ هـ مع الجيوش البيزنطية تحت قيادة الايراني الهارب الى بيزنطة (تيوفوب)[١] • وقد هرب بعض اتباع بابك من العباسيين الى بلاد الروم • فحاربوا معهم المسلمين وكان ملك الروم قد فرض لهم وزوجهم وصيرهم مقاتلة[٢] • ولما ضيق المسلمون على بابك حاول تحريض بزنطة للهجوم على الحدود الاسلامية ذاكراً ان ملك العرب قد وجه عساكره كلها ضده حتى وجه خياطه وطباخه ••[٣] كما انه حين مزقت جيوشه ، قبض عليه بعض أمراء الأرمن وهو في الطريق الى بلاد الروم حيث التجأ الناجون من اصحابه وجنده •

ولعل هذا كله يفسر لنا طول عهد الثورة البابكية التي بدأت سنة ٢٠١ وهزمت حتى سنة ٢١٨ أربع حملات كبرى للمأمون[٤] • حتى دخل في نفوس القواد والناس شيء من استفحال امر بابك ، واضطر المعتصم ان يطوف برأسه على مدن خراسان لازالة ذلك الاثر المزيج من الاعجاب والبطولة والرهبة ، فيما بعد • لهذا قوبل نبأ أسره بالتهليل والتكبير لدى الناس في بغداد وعمهم الفرح ويضيف المسعودي : قائلا « ••• ثم

---

(١) بندلي جوزي ـ الحركات الفكرية ص ٨٢ •
(٢) الطبري ج٩ ص ٥٦ (٣/١٢٣٥) •
(٣) انظر تفصيلاتها لدى الطبري واليعقوبي •
(٤) الطبري ج ٩ ص ٥٦ (١٢٣٤ ـ ١٢٣٥) •

حمل الرأس (رأس بابك) الى خراسان يطاف به كل مدينـة من مدنها وكورها لما كان من استفحال أمره وعظم شأنه وكثرة جنوده وإشرافه على إزالة ملك وقلب ملة وتبديلها ...»[1] .

ولا شك ان ظروف المأمون الداخلية (من ثورات الشـام ومصر والعراق واليمن ..) والخارجية (من حروب مع البيزنطيين) اعانت بابك على النجاح العسكري في وجه المأمون الذي لم يتفرغ لحربـه إلا بعد أربع سنوات من ثورته سنة ٢٠٤ . يضاف الى هذا عـدم ولاء بعض الولاة في اذربيجان (كحاتم بن هرثمة العربي الذي «كاتب بابك والخرمية ـ حين سمع بمقتل ابيه هرثمة بن أعين ـ وهون عندهم أمر المسلمين»[2] وعدم اخلاص بعض قواد المأمون إن صح ما يفهم من اليعقوبي مثل محمد ابن البعيث الذي انحاز الى بابك وعلي هشام الذي كشف المأمون خيانته فقتله سنة ٢١٦ .

واخيراً فان بابك واصحابه كانوا قد انتشروا في مناطق جبلية صعبة هم ادرى بها واعرف بالخطط فيها . وكانوا يحاصرون العبـاسيين في المضائق منها . وكان بابك ماهراً في قطع خطوط التموين على اعدائه فأقحط سنة ٢٢٠ عسكر الافشين حين نهب قافلتين من قوافل الميرة[3] . كما خرب حصون اذربيجان فأضعف بذلك مراكز الدفاع العباسي .

وتظهر شدة فتك بابك من الاعداد الضخمة التي يذكرها المؤرخون لضحاياه واسراه فالطبري يقدر عدد قتلاه في عشرين سـنة بمائتي الف

---

(١) المسعودي ـ مروج الذهب ج٤ ص ٥٦ .
(٢) اليعقوبي ج٢ ص ٤٦٢ .
(٣) الطبري ج٩ ص ١٦ (١١٧٨/٣) .

وخمسة وخمسين الفاً وخمسمائة[1] انسان وعدد الاسيرات من المسلمات اللواتي استنقذن منه (٧٦٠٠) اسيرة • ويزيد المسعودي احصاء القتلى الى (٥٠٠) الف ويضيف «وقيل اكثر من ذلك وان الاحصاء لايحيط به كثرة»[2] ولعل التقدير الاقل اقرب للصحة • على أن ضخامة الارقام ـ وإن لعبت بها المبالغة ـ تدل على قوة بابك وعلى مدى رهبة الناس لتلك القوة وما دخل على وهمهم فيها ، وعلى مقدار ما كلف الدولة العباسية من جهد ودماء •

وقد بدأ انهيار بابك منذ وصل المعتصم الى الخلافة سنة ٢١٨ ويظهر من سلسلة التدابير التي اتخذها الخليفة مقدار خطر الخرمية وقوتهم اذ ذاك :

اولا ـ تمكن والي الجبال اسحق بن ابراهيم من تمزيق الخرمية في منطقة همدان سنة ٢١٨ هـ فانحصر أمرهم في اذربيجان •

ذلك أن الدعوة الخرمية كانت قد بلغت من القوة حد الدعوة العلنية للمذهب • ويسجل الطبري في أخبار سنة ٢١٨ خبر «دخول جماعة كثيرة من أهل الجبال من همذان واصبهان وماسبذان ومهراجا نقذق في دين الخرمية» ولسنا ندري هل كانوا قد أسلموا ثم ارتدوا والأرجح أنهم من المجوس الزارادشتية الذين انتقلوا الى الخرمية البابكية ••• «••• وتجمعوا فعسكروا في عمل همذان» أي ان تحولهم الديني رافقه تحول ثوري يرفد ثورة بابك في الشمال بثورة مماثلة في الجنوب ليس

---

(١) الطبري ج ٩ ص ٥٥ ـ ٥٦ (٣/١٢٣٣) •
(٢) المسعودي : التنبية والاشراف ص ٣٠٥ •

بينها وبين بغداد كبير أمر وبلغ خطرهم أقصاه حين قطعــوا الطريق بين بغداد والمشرق وعرضوا لحجاج خراسان فقتلوا جماعة منهم وهزموهم وأخافوا السبيل وعند ذلك اضطر المعتصم أمام هذا الخطر القريب أن يوجه إليهم العساكر بعد العساكر الى ان عقد لاسحق بن ابراهيم على الجبال فما هو إلا شهر حتى استطاع تشتيت المتمردين الذين تركوا في عمل همذان ستين (أو مائة) ألف قتيل وهرب باقيهم الى بلاد الروم[1] . ولا شك ان هؤلاء إنمــا هزموا لأن جمهرتهم في هــذه الثورة كانت كجمهرتهم في الثورة السابقة سنة ١٦٧ قبل خمسين سنة من الطبقــات الفقيرة والمحرومة التي أثارتها الآمال في مبادىء وثورة بابــك ولكن انهزامهم أسهم لا في تضييق رقعة الثورة البابكية جغرافيــاً ولكن في التأثير المعنوي على أصحابها بضرب آمالهم في التوسع على مناطق ايران وما وراءها . وكان ذلك هو خطوة النصر الأولى التي سجلها المعتصم . ولم يكن السبب في قسوتها الدموية الشديدة قربها الجغرافي من بغداد بقدر ما كان حقد هذه العاصمة ورعبها من الثورة البابكية الاصلية .

ثانياً ــ اهتم المعتصم (أو الافشين) ببناء الحصون التي خربها بابك بين زنجان وارديل وبذلك صار للعباسيين جبهة يتحصنون بهــا امــام الخرمية .

ثالثاً ــ عين المعتصم لحربهم اعظم قــواده : الافشين (حيدر بن كاوس) سنة ٢٢٠ هـ وكان الخليفة ــ على ما يظهر من مراقبة الاخبار ــ يشاركه في وضع الخطط بما عرف عن المعتصم من خبرة في الحرب لا

(١) الطبري ج ٨ ص ٦٦٧ (١١٦٥/٣) و ٩ ص ٨ (١١٦٦/٣) وهو يذكر أن الأسرى وردت على المعتصم في السنة الثالثــة وان القتلى كانوا نحوا مائة ألف عدا النســاء والصبيان .

سيما في المناطق الجبلية • وسجل الافشين أول انتصار على بابك في معركة محدودة في تلك السنة نفسها سنة ٢٢٠ •

رابعاً ـ وجه الخليفة كل جهده وماله للحرب : قيل انه بعث للافشين سنة ٢٢٢هـ بثلاثين مليون درهم عطاء للجند والنفقات ، وكان يجزيه كل يوم يركب فيه عشرة الاف درهم ، وفي كل يوم لا يركب فيه خمسة الاف ، عدا الارزاق والانزال والمعاون(١) •

خامساً ـ نظمت مواصلات الجيش : فكانت الميرة تصل آمنة الى الافشين في شعاب الجبال بانتظام • ورتب البريد اليه في خيل مضمرة ومحطات ، فكانت الرسائل تذهب فيما بين اذربيجان وسامراء في اربعة ايام • كما استعمل الحمام الزاجل لاول مرة ، في هذه الحرب(٢) •

سادساً ـ احكمت خطة القتال التي يفصلها الطبري في صفحات طويلة مثيرة(٣) : فقد أمر المعتصم بجعل الجيش فرقاً متناوبة : يعسكر بعضهم ويبقى الآخرون على ظهور الخيل ، مخافة البيات ويقام الخفراء على رؤوس الجبال ويلوحون بالاعلام السود إن شعروا بأمر مريب • ونظم التجسس على بابك فكان من نتائجه اغتيال طرخان أحد كبار القواد عند بابك في القرية التي يشتو فيها عند بلدة المراغة(٤) وإن لم يكن بابك اقل تنظيماً لجواسيسه واستخداماً لهم • وكان يرسلهم أحياناً

---

(١) الطبري ج ٩ ص ٥٤ (١٢٣٢/٣ ـ٣) وص٢٩ (١١٩٥/٣) •
(٢) الطبري ج ٣ ص ٥٢ (١٢٢٩/٣) وانظر المسعودي ـ مروج الذهب ج ٤ ص ٥٦ •
(٣) انظر الطبري ج٩ ص ٢٣ وص ٢٩ ـ ٥١ (١١٨٧/٣ ـ ١٢٢٨) •
(٤) الطبري ج ٩ ص ٢٨ (١١٩٣/ ـ ١١٩٤) •

للمرور بجيش الافشين حتى ليراهم المحاربون او يرسلهم ببعض الهدايا الى الأفشين نفسه لينظروا أمر معسكره وخنادقه ورجاله[1] .

ثم أن الافشين كان لا يمشي لخصمه الا في حــذر وبطء (فبعد معركة «ارتق» سنة ٢٢٠ هـ مشى الى بابك في «البذ» واقام على حصاره سنتين حتى ضج الناس) وكان الى هذا يحتفر الخنادق حول معسكره ، اذا عسكر ، ويبني الاسوار ويضع الكمناء ، وأخيرا زحف الافشين على عاصمة بابك بعد أن أسر ابنه ورفض أماناً بعثه اليــه المعتصم فأخذها الافشين في ١١ يوماً (٩ــ٢٠ رمضان ٢٢٢هـ ٢٦ آب ٨٣٧) ودمرت مع قصور بابك الأربعة فيها ولكن بابك نفسه تمكن من الهرب الى ارمينية فكتب الافشين الى بطارقتها بسد الطرق عليه . وقد سلمه احدهم (سهل ابن سنباط) للافشين (في ١٠ شوال سنة ٢٢٢ ــ ١٦ ايلول سـنة ٨٣٧) وكوفيء بمليون درهم ، ومنطقة ذهب مرصعة بالجوهر ، وبتاج البطرقة وبإسقاط الخراج عنه[2] .

ولما حمل بابك الى سامراء (في ٣ صفر سنة ٢٢٣ ــ٤ كانون الثاني سنة ٨٣٨) لم يصبر المعتصم عن معرفته ليلة وصل ، فزاره وزيره أحمد ابن أبي داؤد متنكراً ووصفه له ، فما اكتفى حتى جاءه بدوره[3] . وقتل بابك في اليوم الثاني وصلب ونجد لدى الطبري والمسعودي تفصيلا

---

(١) الطبري ج ٩ الصفحــات ١٣ ، ١٤ ، ٣١ ، ٣٣ (٣/الصفحــات ١١٧٤ ، ١١٧٥ ، ١١٩٨ ــ ١٢٠٠ ــ ١٢٠١) .

(٢) الطبري ج٩ ص٥٤ (١٢٣٢/٣) وانظر المسعودي ــ مروج الذهب ج٤ ص٥٦ ويقول أبو زكريا الأزدي (تاريخ الموصل ص٤٢٥) إنه كوفي يلقب بطريق انطاكية . وترك له خراج عشرين سنة واعطي مليون درهم ..

(٣) الطبري ج٩ ص٥٢ (١٢٢٩/٣)

لخبر أسره مع الوصف المسهب لحفل إدخاله على المعتصم ثم قتله وقتل أخيه في الوقت نفسه[1] •

وقد يكون من كمال صورة الثورة البابكيـــة أن نضيف إليها في النهاية بعض الملاحظات :

١ ــ فقد خسر بابك فرصتين كان من الممكن أن تمنعا ثورته من الانهيار الأولى داخلية هي تلك الثورة الجنوبية التي قامت في أصبهان وهمذان سنة ٢١٨ وليس يبدو أن بابك اهتم باغتنام تلك الفرصة التي عرضت له فيدعمها بالتأييد والتنسيق • ولعل انهيارها السريع منعـه من ذلك • وأما الفرصة الثانية فخارجية ذلك أن بابك استنجد ، حين ضاق عليه الحصار ، بالروم «وكتب الى توفيل بن مخائيل يعلمه أن ملك العرب قد وجه عساكره ومقاتلته عليه حتى وجه خياطه وطباخه ــ يعني القائد ايتاخ ــ ولم يبق على بابه أحد» وهكذا جاء الروم في مائة الف باتجاه ارمينية ودخلوا باتجاه أطرافها الغربية وفتحوا بلـدة زبطـرة فقتلوا رجالها وسبوا الذراري والنساء وأحرقوا البلد ثم مضى الامبراطور من فوره إلى ملطية فأغار عليها وعلى حصون للمسلمين وسبا ألف امرأةومثل بمن وقع في يده سملا وجوعاً وصلماً •• ولكن هذه النجدة الضاغطة جاءت متأخرة عن موعدها لأن ثائر البد كان قد انهار وأسر فلم يفده ذلك شيئا بل حرض المعتصم على التحرك لفتح عمورية المشهور •

٢ ــ لم يلجأ بابك في ثورته الى الاعمال الانتقامية من المسلمين ، أسر وسجن الكثيرين بالآلاف وقتل بعض الزعماء ولكنه اصطنع مبادئه

---

(١) انظر الطبري ج٩ ص٥٢ــ٥٤ (١٢٢٩ــ١٢٣٢) والمسعودي مروج الذهب ج٤ ص٥٤ــ٥٦

الدينية في التسامح والرفق . ويذكر الطبري ان أسرى بابك من النساء والصبيان لهم حظيرة كبيرة واسكنوا فيها حين انهزم ... فلما جيء به أسيراً إلى الأفشين ونظر الأسرى إليه «لطموا وجوههم وصاحوا وبكوا حتى ارتفعت اصواتهم فقال لهم الأفشين : انتم بالأمس تقولون أسرنا وانتم الآن تبكون عليه .عليكم لعنة الله .قالوا : كان يحسن الينا ..»[1]

٣ ــ ومن الطريف الذي يستوقف النظر أن بابك كان يسمي المسلمين «يهوداً» ويتحدث عنهم على هذا الأساس[1] اشترك في الحرب ضد بابك جماعة من المطوعة لعبوا دورهم الهام في المعركة الأخيرة ضد حصن البد بزعامة صاحبهم جعفر بن دينار المعروف بالخياط . ويلفت النظر في هؤلاء المطوعة أنهم كانوا من مطوعة البصرة لا غيرها . وقد وجهم المعتصم مدداً للأفشين فكانوا اكثر الجند حماسة للحرب واندفاعاً في طليعة الصفوف الى سور البد وأبوابها . وإذا تذكرنا أن ثورة الزط في البطائح والخرمية في أذربيجان وارمينية في وقت واحد وامتدادهما السنين الطويلة من مطالع القرن الثالث (منذ سنة ٢٠١ حتى سنة ٢١٨) قد يكون عطل المصالح التجارية للبصرة خاصة ؛ ادركنا أن نقمة هذه المدينة قد تكون اكثر من غيرها على هؤلاء الثائرين فلما انهارت حركة الزط سنة ٢١٩ ولم يبق سوى الخرمية كان أهل البصرة أحرى الناس بالنقمة الشديدة عليها وكان شكلها الإلحادي أحسن مبرر يدفع كل تقي للقيام بالجهاد ضدها .

٤ ــ كان تعاون بابك مع الروم تعاوناً غير متكافيء . فأقصي

---

(١) الطبري ج ٩ص٥٠(٣/١٢٢٧ـ١٢٢٨)

(٢) الطبري ج٩ الصفحات ٢٩و٥٠ (٣/١١٩٥و١٢٢٦) وتلك التسمية لم يكن المقصود منها الاهانة ولكنها نتيجة النظر الى الدين الاسلامي عنده كامتداد لليهودية .

ما قدمه الروم إليه هو الضغط العسكري السياسي على الجبهة العربية الاسلامية بينما كانت الخرمية تدخل ضمن القوى العسكرية البيزنطية • وجموع كثيرة من هؤلاء كانت تهرب من المناطق التي يحتلهـا الجيش العباسي لتلتحق بالروم وتدخل في قواهم العسكرية ويبدو أن الذي لعب دوره الواسع في هذا التقارب الواسع هو قائد رومي من أصل فارسي نشأ وتربى في القسطنطينية واشتهر باسمه اليوناني (تيوفوبوس) وقد جعله الامبراطور قائد هذه الجماعات اللاجئة لما يجمعه بها من رابطـة الأصل واللغة • وقد كان قد أصهر الى الأسرة الامبراطورية وحظى عندها بمكانة أهله لأن يأخذ لقب البطريق ، وهـي من أرفع رتـب الجيش البيزنطي • وقد شعر الخرمية الهاربون بقوتهم الذاتية إذ أصبح عددهم على رأي بعض الروايات التاريخية ١٥ ألفاً فحاولـوا تنصيب تيوفوب امبراطوراً فلم يستجب لهم وترتب على هذه المحاولة توزيعهم على ثغور الامبراطورية فرقاً متفرقة تعد كل واحدة منها الفين من المقاتلة • وقـد كانوا بجانب الامبراطور في حملته على زبطرة ربيع سنة ٨٣٠ وكان لهم أثرهم في تدميرها[١] •

٥ ــ عـاصرت حركـة بـابك حركـة ممـاثلة لهـا في عـدد من الوجوه قام بها أتباع بـولس السميساطي في الاناضـول • ولسنا نستطيع إثبات وجود صلة بين الحركتين إلا إن توافقهما الزمني قد تسمح بافتراض تقارب ممكن ــ كما يقول كاهن ــ منها في الظروف الاجتماعية والبيئة الفكرية مما يستحق البحث والاستقصاء[٢] •

---

(١) انظر تفاصيل ذلك لدى

(٢) انظر كلود كاهن ــ تاريخ العرب والشعوب الاسلامية (بالفرنسية) المجلد الأول (الترجمة العربية ــ بدر الدين القاسم ص١١٦)

٦ ـ وأخيرا فإن حركة بابك قد هزت دون شك من قوى الدولة العباسية وأضعفتها، وإذا كانت هزيمتها ترجع الى أخذها الطابع الايراني المحدود وحصرها في الجبال وتوجيه كل القوى العباسية من عسكرية ومالية ضدها وتخلي الارمن والكرد والعرب الناقمين، عنها في النهاية فإن هذه الهزيمة لم تستأصل الحركة . ولكنها أبقتها في حالة الكمون والانكماش بعد عملية التوسع الديناميكي البابكي . وقد بقي لها الكثير من الاتباع الذين عرفهم الجغرافيون والمؤرخون في القرن الرابع ثم في القرن الخامس . وأشاروا الى مواضعهم ومذاهبهم في الفكر والحياة وسموهم بالمحمرة . كما تناقلت القصص الشعبية الايرانية الكثيرة مآثر بابك عبر القرون .

ح ـ قضية طبرستان :

طبرستان هي تلك المنطقة الجبلية الممتدة جنوب قزوين ما بين جرجان واذربيجان وكانت ـ كما قال اليعقوبي ـ « بلداً منفردا له مملكة جليلة ولم يزل ملكه يسمى الاصبهبذ ... وهو بلد كثير الحصون منيع بالأودية كثير البرد سقيع نقيع ... وأهله أشراف العجم . أبناء ملوكهم وهم احسن قوم وجوهاً ...» وكان مقر امرائها بلدة سارية .. والبلد « كثير المياه والثمار والأشجار الجليلة العظيمة . والغالب عليها الغياض وكثرة الأشجار واكثر ابنيتها الخشب والقصب ... وسطوحهم مسنمة بالقراميد» . وفي البلد «يعمل الفرش الطبري والأكسية الطبرية » «وليس بجميع الأرض أكسية تبلغ قيمة أكسيتهم ومطارفهم ولديهم أصناف من الثياب الابريسم والأكسية الصوف العجيبة ..» « وخراج البلد أربعة آلاف ألف درهم ..»(١) .

---

(١) النصوص مزيج مأخوذ عن اليعقوبي ـ البلدان ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧ وعن ابن حوقل ـ صورة الأرض ص٣٢٣ـ٣٢٤

وقضية طبرستان هي نموذج المشاكل المختلطة بين الصبغة الدينية والشكل السياسي فجذورها مشتركة بين الطرفين ووجهها الديني لا ينفصل عن وجهها السياسي والاقليمي وقد ورث المهدي هذه المشكلة عن عهد أبيه ولكنه كان هو نفسه بدوره أحد صانعيها والعاملين عليها أثناء ولايته للعهد وإقامته بالري (١٤٠ ــ ١٥١) • وإذا كانت سياسة المهدي القائمة على تأكيد «مهدويته» والاسراع في إسلام المناطق غير المسلمة من دولته مع تعصب أهل طبرستان لدينهم السابق والولاء لملوكهم المقهورين قد أدى كله إلى تهيئة الثورة ، إلا إن السبب المباشر فيها إنما كان تلك السياسة المالية العباسية التي أخذ بها الناس والي طبرستان عبد الحميد مضروب وجبى بها الضرائب اجتمعت على إقامة الثورة كل القوى المحلية في طبرستان : الأمراء والدهاقين والشعب على السواء • وقبل الأمير «وندا هرمز» أن يتزعم الحركة بعد أن عاهده الأمراء المحليون الآخرون ومنهم الاصبهبذ شيروين والمصحفان واش على التعاون معه فيها •••

وانفجرت الثورة سنة ١٦٤ ــ ٧٨٠ في مذبحة كان من ضحاياها الوالي عبد الحميد نفسه كما كان منهم كذلك النساء الايرانيات اللاتي تزوجن من العرب المسلمين مما يكشف مدى الحقد المحلي في الحركة التي استمرت سنتين على الأقل وكلفت الخلافة غالياً من الدماء والنفقات، والهزائم وقتل القواد (مثل سلم الفرعاني ، وفراشة مولى المهدي) قبل أن تهدأ بعض الهدوء تحت ضغط القوى العسكرية الاسلامية الكثيفة التي وصلت •

ثم عادت الثورة كرة أخرى أشد وأقوى سنة ١٦٧ ــ ٧٨٣ في جرجان وطبرستان فاضطر المهدي لأن يوجه جيشاً كثيفاً من الجند في جهاز لم يجهز ــ فيما ذكر أحد بمثله على حد قول الطبري وعهد به الى

ابنه ، وولي عهده الهادي وأرسل معه أقوى قواده: يزيد بن مزيد الشيباني. كما نظم له صاحب رسائله وديوان جنده وحجابته وحرسه وشرطه وجعل على كل وظيفة رجلا من ابرز رجال البلاط العباسي[1] واتبع الهادي طريقة تألف قلوب بعض الامراء المحليين من جهة والضرب العسكري العباسي من جهة أخرى وهكذا : استطاع مثلا أن يجمع حوله بعض الأمراء ويدخلهم في الاسلام مثل بهرام بن فيروز ولو كان اسلام هؤلاء هو الأسلام الظاهري الذي استهدف فيه الامراء حفظ نفوذهم السياسي في مقاطعاتهم مع عدم التفريط بالدين الأبيض ، دين النار والنور للدين الذي كانوا يدعونه بالأسود بسبب لون الملابس العباسية السوداء وفي الوقت نفسه قاد يزيد الشيباني معارك عنيفة ضد هرمز انتهت بحصاره وهزيمته في معركة حامية جرح فيها هو نفسه واشترط قبل أن يستسلم أن تبقى عليه مملكته في طبرستان ويتعهد بانهاء الثورة وحفظ الحاميات العباسية . ويؤدي الجزية السنوية ... كان ذلك في أواخر سنة ١٦٨ على ما يظهر في الوقت الذي علم فيه الهادي تحول ابيه عنه ورغبته في اعطاء ولاية العهد للرشيد فتلكأ في المسير الى بغداد أو في إرسال هرمز إليها فلما جاءه في مطلع السنة التالية موت ابيه واستخلافه كان (ونداد) ضمن موكبه الذي دخل به بغداد ...

ولكن حادثاً جرى في طبرستان أثار الهادي كل الإثارة هو مقتل بهرام فيروز الأمير الذي أسلم على يده وكان قاتله هو الأمير وندا سفران شقيق هرمز وكاد الهادي يقتل به هرمز لولا أن أقنعه هذا بأن غرض سفران من تلك الجريمة هو دفع الهادي الى قتله ليخلص له الملك .

---

(١) انظر اسماءهم لدى الطبري ج٨ ص١٦٤ (٥١٩/٣) .

ويبدو أن ما في نفس الهادي ضد أخيه الرشيد في ذلك الوقت جعله يقبل مثل هذا التعليل بل جعله اكثر من ذلك يقبل اقتراح هرمـز بأن يرسله الهادي الى طبرستان فيأتيه برأس أخيه القاتل ...

وسار هرمز بالفعل ولكنه لم يعد ... ولا أرسل رأس أخيه إذ ما كاد يصل بلاده حتى أوعز الى أخيه سفران بالاختفاء ، وتوفي الهادي وشيكاً فانتهت المشكلة التي لم يهتم بها الرشيد كثيراً لا سيما وقد تسلم أمور طبرستان وجبايتها ولاة أقوياء مع الحاميات في المـدن والسفوح الجبلية لم يعد ملوك المنطقة المحليون يشكلون عليهم خطراً كبيرا فأقروا في ممالكهم . وتسلم وتدا هرمز عرشه ولما مات خلفه ابنه قارن .

وقد راض هؤلاء الملوك انفسهم على الانقياد لأي سلطة عباسية قائمة بدليل أنهم في فترة النزاع بين الأمين والمأمون قبلوا أوامر الأمين أولا مع أنهم أقرب للمأمون وقد مشى علي بن عيسى بن ماهان بجيش الأمين الى الري « .. فأنفذ الكتب الى ملوك الديلم وجبال طبرستان وما والاها من الملوك يعدهم الصلات والجوائز وأهدى إليهم التيجان والأسورة والسيوف المحلاة بالذهب وأمرهم أن يقطعوا طريق خراسان ويمنعوا من أراد الوصول الى طاهر (بن الحسين والمأمون) من المدد فأجابوه الى ذلك ...»[1] ولعلهم استغلوا الحرب الأخوية وما تلاها من اضطراب في انحاء الخلافة العباسية كلها فانقطوا عن الخضوع للمأمون ولعله لهذا السبب ولى المأمون على طبرستان عبـد الله بن خرداذبه . ويبدو أنه كان من تعليماته إخضاع هذه الممالك المحلية فإنه افتتح سنة ٢٠١ والمأمون مايزال في خراسان ، إمارة اللازر والشيرز من بلاد الديلم وأنزل شهريار بن شروين أسيراً من جبال طبرستان وأسر أبا ليلى ملك

---

(١) الطبري ج٨ ص٤٠٨ (٣/٨٢٠) .

الديلم بغير عهد كما أسر المازيار بن قارن بن وندا هرمز واشخصه إلـى المأمون ... وأقر في المنطقة كلها على ما يبدو الحكم العباسي من جديد وقد تفاءل الناس بذلك الفتح ايما تفاؤل وقال الشاعر سلام الخاسر :

إنا لنأمل فتح الروم والصين   بمن أدال لنا من ملك شيرين !!

على أن بعض هؤلاء الملوك أعيدوا الى بلادهم بعـد أن استوثق الخليفة منهم على ما يظهر ونراهم في سنة ٢١٠ في طبرستان : فأما شهريار ابن شروين فيموت تلك السنة وأما المازيار بن قارن فينازع سابور بـن شهريار ملكه ثم يأسره ويقتله[1] . ويصبح المازيار الاصبهذ الأوحد في الجبال كلها ... حتى يثور سنة ٢٢٤ ويحارب الحاميـات العباسية في السفوح والأمصار الطبرية .

---

(١) يروى اليعقوبي (ج٢ ص٤٧٦) كيف قدم المازيار على المامون فملكه على مدينتين من طبرستان فلما خرج لاستلامهما خرج عمه كأنـه يتلقاه مع انه كان مغتاظاً كل الغيظ منه وكان مع المازيار مولى من مواليه قال له إن عمك لم يخرج في هذه الهيئة إلا ليفتك به واعطاه حربة يضعها بصدره حين ينفرد به فقتلعمهو أستلم البلاد وكتب للمأمون أن عمـه كان مخالفاً ..

الفصل الرّابع

العلاقات الخارجيّة

١ - مع الشرق ومع الروم

وطدت الدولة العباسية في هـذه الفترة (١٥٨ ـ ٢١٨) أوليتها العالمية بين دول الأرض سواء بوضعها الجغرافي الاستراتيجي الذي جعلها في المركز من هذه الدول جميعاً وعلى صلة مباشرة بها كلهـا عن طريق البر أو البحر ، أم بقوتها العسكرية التي لم تكن تعدلها قوة عـالمية أخرى ، أم بسعتها التي لم تكن تقاربها سوى امبراطورية الصين المعزولة في الطرف الأقصى من الشرق . ويمكن أن نلاحظ بوضوح في السياسة العباسية الخارجية ملاحظات خمساً :

أ ـ ممارسة العباسيين سياسة الدولة الأقوى دوماً . ومحاولاتهم سواء مع الدول الكبرى كالروم أو الصغيرة كبعض دول الترك فرض النفوذ بالقوة العسكرية . لا يلجأون الى غيرها إلا عند تعذر نجاحها على أنهم كانوا في الأحوال كلها يستخدمون الوسائل الدبلوماسية من سفراء ومكاتبات ووفود بجانب استخدام الجيوش .

ب ـ جمعت في العهد العباسي الأول ونظمت وسجلت ، لأول مرة في التاريخ ، قواعد القانون الدولي على الأسـاس الاسلامـي . كان المسلمون منذ الفتح ينظمون ذلك حسب أوامر الدين ونصوص العهود والهدنة مع البلاد المفتوحة وكانت تلك القواعد تدخل في كتب الفقـه

الاسلامي ولكن الحاجة السياسية على ما يظهــر جعلت الفقهاء يفردون لها كتباً خاصة سميت «بكتب السير» أي أحكام الجهاد والحرب والصلح والموادعة والأمان ومعاملة الأسرى ... وقــد كتب في ذلــك الامام الأوزاعي (المتوفي سنة ١٥٧) (كتاب السير) على أساس مذهبه الفقهي فرد عليه أبو يوسف قاضي قضاة الرشيد بكتاب (الرد على سير الأوزاعي) على اساس المذهب الحنفي ثم كتب محمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي يوسف كتاب السير الصغير ثم أتبعــه بكتاب السير الكبير الذي أضحى منهاج الدولة العباسية ، من الناحية النظرية الفقهية على الأقل في أحكام الجهاد والحرب والعلاقات الدولية المختلفة . كما كتب الامام زفر كتاباً ثالثاً في السير وضمن الامام الشافعي كتابه الأم دراسة السير أيضاً فكانت كلها أول توطيد منظم عرفه العالم للقانون الدولي .

وقد أشار فازيلييف إشارة عامة إلى هذا حين كتب انه « وجدت في حوادث الشرق الحربية في القرن التاسع وقائع وعادات تعد مكونة لما نسميه اليوم القانون الدولي ... »(١) .

حـ ــ استطاعت الدولة العباسية أن تسترد بسرعة وبجهود المنصور مركزها العالمي الذي سبق أن احتلته الدولة العربية الأموية وأن تفرض من جديد ماكان فرضه الأمويون زمن عبد الملك والوليد من «السلم» المرتبط بهم وعلى طريقتهم بين دار الاسلام ودار الحرب والذي يمكن أن نسميه ، بالسلم الاسلامي Pax Islamicus مقــابل ما يسميه المؤرخون قديماً بالسلم الروماني . وقد تحقق هذا السلم العالمي على يد الدولــة الاسلامية كرة أخرى في عهد المهدي ــ الرشيد خاصة فكان خلفاء بني العباس هم أسياده وضامنوه ومنظموه في العالم . وإذا كانت تتائجــه

---

(١) فازيلييف ــ العرب والروم (الترجمة العربية) ص ١٨

السياسية قد ذهبت فإن نتائجه الثقافية والاقتصادية كانت هي الأبقى إذ لم يكن مجرد سيطرة سياسية ونفوذ عسكري تفرضهما القوة العباسية ولكنه ساعد لحد كبير على استقرار الدين الاسلامي وتوطد الثقافة العربية وآلاء الحضارة الاسلامية في آفاق جديدة كثيرة : في الهند خاصة وفي تركستان وما وراء النهر وارمينية وفي كريت وصقلية بل وفي الصين أيضاً • وفي ظل هذا السلم الاسلامي نفسه ارتبط العالم كله ولأول مرة بخطوط التبادل التجاري العالمية التي أمسك العرب المسلمون بزمامها ما بين أقصى المشرق وأقصى الغرب سواء عن طريق البحار الدافئة من جنوب شرقي آسيا أو طريق الجبال والصحارى العالية البرية عبر ممر زنجاريا مما جعل التاجر رمز الحضارة العربية وجعل بغداد سرة الدنيا •

ء ـ لم يكن العصر العباسي الأول عصر تجميد الفتوح أو توقيفها والمحافظة على المواقع • إن هذه الملاحظة التي قد يوحي بها الموقف العباسي على جبهة الروم لا تصح عند التعميم والواقع أن العباسيين الذين قد يكونون ثبتوا جبهة الأناضول عند مواقع معينة لم يفعلوا ذلك في المواقع الأخرى في الهند وفي تركستان خاصة • وكان انصرافهم الى الشرق والى قلب آسيا ناجحاً وهاماً وإن كان في الوقت نفسه سبباً في إهمالهم مناطق البحر المتوسط والمغرب وخسارتهم فيها •

هـ ـ امتزاج أمور العلاقات الخارجية في كثير من الأحيان وفي كثير من أقاليم الأطراف مع الثورات وحركات التمرد على الحدود سواء في الهند أو آسيا الوسطى أو أرمينية أو الأناضول أو افريقية • كانت هذه الثورات غالباً ما تتصل مع القوى الخارجية وراءها أو كانت مناسبات نشوبها غالباً ما تستغل من قبل تلك القوى •

و ــ لم ينجم عن العمليات العسكرية أو الدبلوماسية العباسية رغم كثرتها وقوتها في هذا العصر العباسي الذهبي أي توسع أرضي في مساحة الدولة بالقياس الى العهد الاموي • وما كسبه العباسيون من الأرض في آسيا الوسطى وبلاد الترك تركوا مقابله في افريقيا والمغرب • وانتهت فترة الاستقرار والتألق العباسي ، والدولة في الواقع أصغر رقعة مما كانت في عهد أبي العباس والمنصور •

في ضوء هذه الملاحظات العامة يمكن أن نقسم علاقات العباسيين الخارجية حسب الجهات الجغرافية الى قطاع الشرق وتشمل المشرق كله بما في ذلك الروم وقطاع الغرب وتشمل البحر الأبيض المتوسط ومـا وراءه حتى بلاد الاندلس والفرنجة •

ونقسم قطاع الشرق إلى جبهتين جبهة المشرق والشمال ثم جبهة الروم •

١ ــ العلاقات مع الشرق والشمال (قطاع الهند،الصين، تركستان الخزر) :

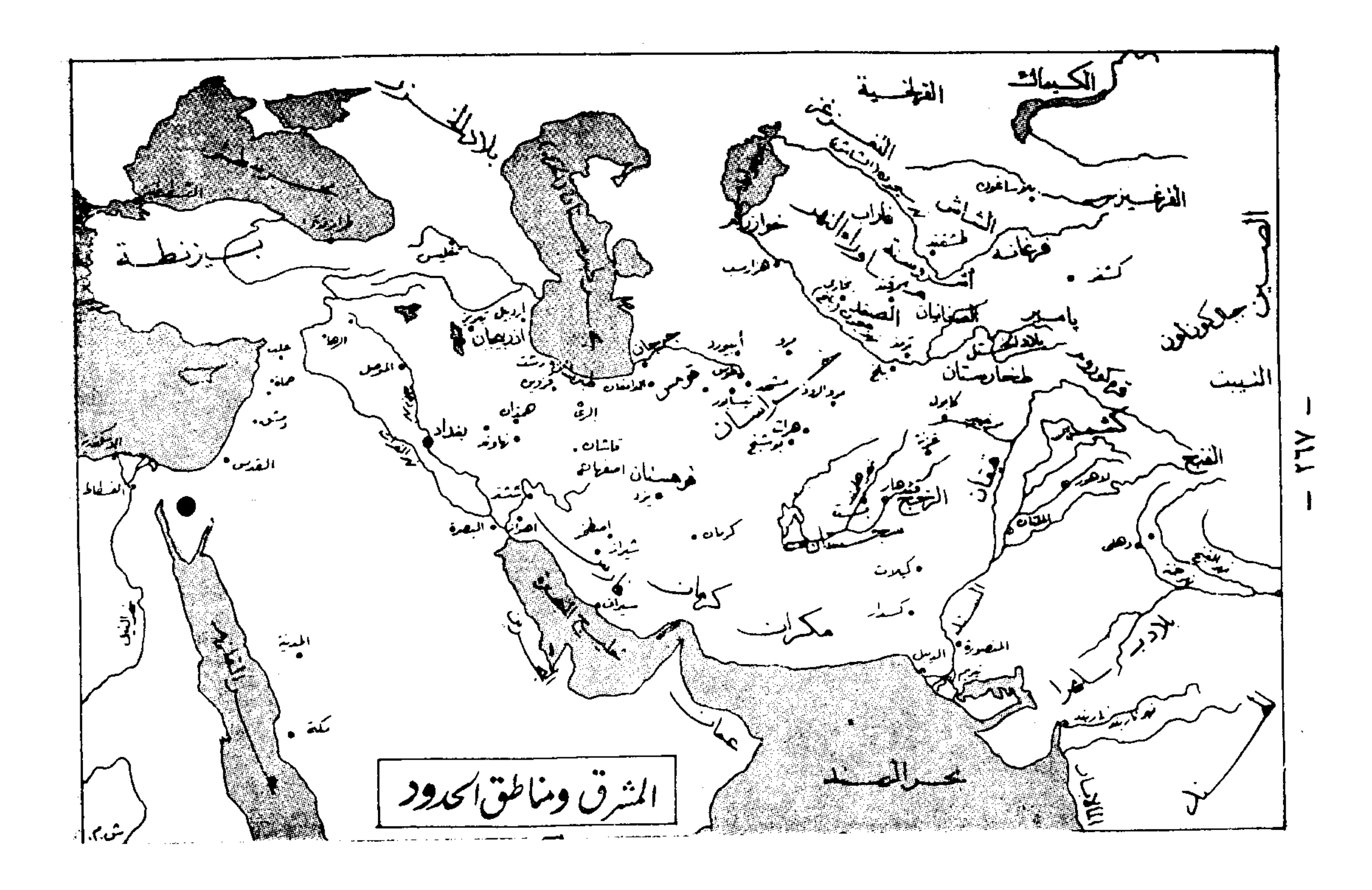
تبدو المصادر شحيحة كل الشح في ذكـر العلاقـات العباسية الخارجية عامة مع هذه الأمم ولا سيما مع الهند والصين • وأوضح ماهو معروف منهـا :

أولا : فيما يتعلق بالهند مثلا : أن المهدي تابع سياسه أبيه المنصور في منطقة السند وقد تحركت جماعات الزط هناك تؤيدهـم دون شك الممالك الهندية وراءهم فهاجموا الحاميات الاسلامية في مواقعها المتقدمة على حوض نهر السند الأدنى حيث تقوم المنصورية على دلتا النهروبدل

المهدي اكثر من ثمانية ولاة على تلك المنطقة[1] وكانت عنايته موجهة خاصة الى نشر الاسلام . وبينما صادفت هذه العناية الكثير من التوفيق كان السلطان العباسي على الحدود يضعف لأن القوى العباسية على الحدود وقعت ضحية النزاع القبلي القيسي اليماني الذي أخذ يظهر بشكله الشرس هناك بين المتوطنين العرب . وكان انشغال الولاة بالقضاء على هذه الفتن سبباً في تحرك الأمراء الهنادكة على الحدود واستعادتهم الأراضي والبلاد التي خسروها وضمها إلى إماراتهم وانحسار التوسع الأقليمي الذي حققه هشام التغلبي كما كان سبباً في تحرك الجماعات الهندية بتحريض من تلك الامارات دون شك ، للثورة على المسلمين . يدل على ذلك أن تلك الجموع السندية من قبائل الميد والزط (الجات) التي هاجر الكثير من أعدادها الى منطقة الأهواز والبصرة منذ ما قبل الاسلام والتي انضم بعضها للجيش الاسلامي في فتوحه حوالي سنة٩٠هـ ــ ٧٠٨ م بسبب ماكانوا يعانونه من سوء معاملة الحكومات البرهمية باعتبارهم منبوذين محرم عليهم ركوب الدواب أو ارتداء غالي الثياب أو أن يمتهنوا من الحرف إلا أحقرها ، هؤلاء أنفسهم تحركوا ضد الوالي

---

(١) استعمل المهدي على السند : روح بن حاتم المهلبي فقدمها والزط قد تحركوا بها . فلم يقم إلا يسيرا . وولى نصر بن محمد بن الأشعث الخزاعي . ثم ضمت السند الى محمد بن سليمان بن علي الهاشمي ثم استعمل عليها عبد الملك بن شهاب المسمعي (اقل من عشرين يوما) وردت السند الى نصر بن محمد الخزاعي ثم استعمل المهدي عليها الزبير بن العباس ولم يبلغ البلد فاستعمل فصيح بن عمرو التغلبي وكانت العصبية بالسند أول ما وقعت فاستعمل الليث بن طريف مولاه فقدم المنصورة فأقام بها شهرا والزط قد كثروا فجرد عليهم السيف وافناهم .. (اليعقوبي ج٢ ص٣٩٨) .



المشرق ومناطق الحدود
بيزنطة
بلاد الخزر
الكيماك
الصين
التبت
خوارزم
الشاش
فرغانة
كشغر
سمرقند
بخارى
طخارستان
بلخ
مرو
هراة
كشمير
الملتان
المنصورة
الديبل
سجستان
الرخج
خراسان
نيسابور
جرجان
أذربيجان
تفليس
الموصل
بغداد
همذان
الري
قاشان
أصفهان
يزد
البصرة
شيراز
كرمان
مكران
عمان
بحر الهند
حلب
دمشق
القدس
الفسطاط
المدينة
مكة

الاسلامي مما دعا المهدي الى تهيئة حملة بحرية تأديبية الى تلك الحدود • ويبدو أن هؤلاء الزط مع بعض القوى الهندية الأخرى كانوا يشكلون قوات للقرصنة كان تهدد خطوط التجارة العربية أيضاً • بعد ان كانوا في عهد المنصور يهددون البصرة نفسها ويهاجمونها • وهكذا ارسل المهدي الى البصرة برجل من رجاله هو محرز بن ابراهيم ليشرف هناك على إعداد اسطول بحري يقمع التجاوز الهندي على الأطراف الاسلامية وعلى البحر العربي المحيط • ويبدو أن بؤرة ذلك التجاوز وتلك القرصنة كانت بلدة ناربد لأن الحملة التي أعدت في البصرة اتجهت رأساً إليها • وكانت الحملة من القوة وكثرة المقاتلين بحيث توحي بأهمية ما عهد به إليها من المهام • اجتمع للحملة عشرة آلاف مقاتل • وجههم المهدي في البحر بقيادة عبد الملك بن شهاب المسمعي • وقد فرض فيها لألفين من أهل البصرة من الأجناد جعل على قيادتهم غسان بن عبد الملك نفسه وأرسل ألفاً آخرين من مطوعة أهل البصرة بأموالهم يقودهم المنذر بن محمد الجارودي ووجود هذه الجماعة البصرية الواسعة ولا سيما من المطوعة بأموالهم في الحملة حتى أضحوا يشكلون ثلثها يكشف في الواقع الدوافع الاقتصادية ـ التجارية الكامنة وراءها • وقد أشخص المهدي معهم ١٥٠٠ من المطوعة الذين كانوا يلزمون المرابطات وعليهم عبدالواحد ابن عبد الملك • و ٧٠٠ من مقاتلة أهل الشام (وهو أمر جديد في السياسة العباسية كان بدأه المنصور باستخدام مجاهدة الشام في الحرب ضد الروم) يقودهم يزيد بن الحباب المذحجي وأضاف الى كل أولئك أربعة آلاف من الاسواريين والسيابجة وهم من الجماعات الهندية التي تجمعت قبل العهد الاسلامي وأثناءه في جنوب العراق (ومنهم الزط) •

ونزلت الحملة سنة ١٦٠ مدينة ناربد فضربت عليها الحصار في

اليوم الثاني لنزولها • ونصبت عليها المجانيق وجميع الآلـة • وكانت الهجمة مفاجئة لدرجة أن المدينة سقطت عنـوة في يومين ودخلت خيل المسلمين عليها من كل ناحية والتجأ أهلها الى معبدهم البد • فأشعلت فيه النيران والنفط حتى احترق بمن فيه وأبيدت المقاومة تمامـاً • وكانت خسائر المسلمين بضعة وعشرين رجلا • ولكن خاتمة هذه الحملة لم تكن كأولها في النجاح إذ أصاب أفرادها بعض الوباء في الأفواه فمات نحو من ألف رجل منها • وهاج البحر ـ بسبب الرياح الموسمية دون شك ـ فأقامت الحملة حتى هدأ ثم أبحرت الـى بعض سواحـل فارس (بحر حمران) فعادت الأنواء فعصفت بالمراكب ليلا فكسرتها وغرق من غرق ونجا الباقون حتى قدموا والي البصرة ببعض الغنائم والسبي • ومن هذا السبي بنت ملك ناربد[1] ••• ولم تبق الحملة في الهند سوى عشرين يومـاً •

أما حركة الزط نفسها فكان يكفي أن يذهب الليث بن طريف مولى المهدي الى المنصورة في السند ليقضي على جموعهم في شهر واحد • ولما تكررت حركتهم سنة ١٦٥ بعث المهدي بجيش من البصرة الى الليث أنهى تلك الحركة • ويبدو أن هذا الوالي ظل في السـند سنين طويلة استطاع فيها بالشدة والقوة أن يقضي على تعصبات القبائل العربية من جهة وعلى اطماع الإمارات المجاورة من جهة أخرى • غير أن هذه الولاية أضحت عبئاً على الدولة اعتباراً من سنة ١٧٠ بدلا من أن تكون درع

---

(١) انظر اليعقوبي ج٢ ص٣٩٨ والطبري ج٨ ص ١١٦-١١٧ ثم ص ١٢٨ (٣/٤٦٠-١) ثم ص ٤٧٦ .

الحدود فقد توالى عليها عشرة ولاة على الأقل[1] قبل أن تؤول الى داوود بن يزيد بن حاتم المهلبي سنة ١٨٤ الذي أوفد لحكمها أخاه المغيرة ابن يزيد نائباً عنه على العادة التي بدأت تتفشى في تلك الفترة لدى كبار رجال الدولة ــ وإذا بالقبائل العربية في السند تطالب المغيرة بقسمة البلاد بين أحيائها الثلاثة لأن العصبية النزارية اليمنية كانت قد مزقت العرب هناك بين قريش وربيعة وقيس . ولم يستطع المغيرة السيطرة على الموقف إلا بعد أن وصلته النجدات وجاء داوود نفسه من بغداد فحاصر المنصورة عشرين يوماً استسلم بعدها الثائرون ... ثم لم يزل يحارب بقية المواقع الثائرة عدة شهور ويفتحها في سائر مدن السند ويخرب ويقتل حتى استقامت له البلاد ، على مضض وإنهاك ...

ولم تحاول الإمارات الهندية ــ فيما يظهر ــ أو لم تستطع استغلال هذه الفرصة لأنها كانت منذ زمن بعيد قد تآلفت مع الواقع القائم ورضيت التعايش مع الحكم الاسلامي في السند ، الذي كان يتحول الى نوع من الولاية الوراثية مكرراً في المشرق القصة نفسها التي كانت تتم

---

(١) يعطينا اليعقوبي قائمة طويلة باسماء الولاة الذين تعاقبوا على السند أيام الرشيد : (كان عليها منذ عهد المهدي الليث مولى المنصور ثم استعمل الرشيد سالماً اليونسي مكانه ، ثم اسحق بن سليمان الهاشمي ثم طيفور بن عبد الله بن منصور الحميري وفي عهده بدات العصبية اليمانية النزارية . ثم جابر بن الأشعث الطائي . ثم سعيد بن سلم بن قتيبة الذي وجه اخاه كثير بن سلم فأساء السيرة . ثم عيسى بن جعفر ابن المنصور فبعث إليها محمداً بن عدي الثعلبي الذي ضرب القبائل ببعضها وخرج من المنصورة يريد الملتان فلقيه اهلها فقاتلوه وهزموه ونهبوا مامعه من السلاح . وفر مهزوماً حتى صار الى المنصورة . فولى الرشيد عبد الرحمن .. ثم ولى أيوب بن جعفر بن سليمان ثم ولى داوود بن يزيد المهلبي بسنة ١٨٤ ..) (انظر اليعقوبي ج٢ ص٤٠٩) .

في الوقت نفسه في افريقيا والمغرب وعلى أيدي رجال من بني المهلب ثم من غيرهم (كالأغالبة) .

فقد ولي داوود بن يزيد السند عشرين سنة ثم ورثها عنه ابنه بشر في خلافة المأمون ولم ينزع عنها إلا لأنه «عصى وخالف»[1] فوجه إليه المأمون غسان بن عباد من أهل سواد الكوفة فجاء به بالامان الى بغداد وأخذ الولاية بعد ذلك موسى بن يحيى البرمكي حتى مات سنة ٢٢١ فورثها من بعده ابنه عمران ...

ولا تسجل هذه الفترة منذ أيام المهدي حتى أيام المعتصم من عمل عدائي على الحدود الهندية سوى ماكان من أمر الملك المدعو باله والذي يصفة البلاذري بأنه « ملك الشرقي » ويبدو أن أمراء الامارات الهندية كانوا قد اعتادوا الحضور بعسكرهم لتقديم الولاء والمعونة العسكرية للولاة المسلمين . يقول البلاذري «... وكان باله هذا (قد) التوى على غسان (بن عباد) وكتب إليه في حضور عسكره فيمن حضره من الملوك فأبى ذلك» فلما ولي الأمر موسى البرمكي قبض على هذا الملك وقتله بعد أن بذل له خمس مائة ألف درهم على أن يستبقيه فأبى[2] ...

وثمة عمل آخر قام به مولى من موالي أسرة عربية في الهند اسمه الفضل بن ماهان مولي بني سامة فقد استطاع افتتاح منطقة هندية ساحلية اسمها سندان وغلب عليها أيام المأمون وبعث إليه بفيل ، وكاتبه وبذل الولاء ودعا له في مسجد جامع بناه في تلك المنطقة التي قد يكون جعل منها مرفأ تجارياً للتجارة الاسلامية . ثم مات الفضل بن ماهانفورثه

---

(١) البلاذري ـ فتوح ص ٥٤٤
(٢) المصدر ذاته .

على الامارة ابن له اسمه محمد استطاع ان يقوم مقام ابيه وقد أقـام لنفسه اسطولا في البحر من سبعين بارجة ومشى به إلى «ميد» الهند فقتل منهم خلقاً كثيراً وافتتح مدينة اسمها فالي ... ولعل السبب في هذه الاعمال التأديبية هو المنافسة التجارية والقرصنة[1] .. ولكنه حين عاد الى سندان وجد أخاه ماهان بن الفضل قد غلب على البلد وقد كاتب الخليفة المعتصم . وأهدى إليه ساجاً لم ير مثله عظماً وطولا الهند (وهم الشعب والجيش دون شك) في أمر أخيه المتغلب فمالـوا على (الفضل) فقتلوه وصلبوه ...

لكن قصة هذه الإمارة انتهت بسرعة بعد ذلك اذ استردها الأمراء الهنود وغلبوا على سندان[2] ولكنهم لـم يمسوا المسجد والجاليـة الاسلامية ... تركوه للمسلمين يجتمعون فيه ويدعون للخليفة ، الذي كانت سمعته دون شك هي التي حمتهم ...

وعلى أي حال فإن علاقات أخرى من الود والتسامح والتعاون في المصالح كانت تسود شيئا فشيئا منذ عهد الرشيد بين المسلمين والهند . وإذا لم يظهر هذا بشكل واضح مع الإمارات الشمالية إلا متأخراً مع توقف التوسع الاقليمي العربي فإنه على مايبدو قد ظهر مبكرا مع مملكة الدكن وساحل الملبار ومملكة سرنديب حيث تسود العلاقات المصالح التجارية المتبادلة والتعاون السلمي .

---

(٣) يـذكر المسـعودي (مروج) « ولهـم (أي للميـد بـوارج في البحر تقطع على مراكب المسلمين المجتازة الى أرض الهند والصـين وجدة والقلزم وغيرها كالشواني في بحر الروم .. » .
البلاذري ــ فتوح ص ٥٤٥

والباحثون يذكرون أن ساحل الملبار ومملكة الدكن في ظل أسرة راشتراكوتا في القرن الثامن الميلادي (الثاني ـ الثالث الهجري) قامت بينها وبين العرب علاقات اقتصادية قوية وكان تجارهم يفدون إلى بلاد الدكن فيقابلون بالحفاوة والترحيب[1] • وكانوا يأخذون منها خشب الساج لبناء السفن كما يتمتعون فيها بالحرية الدينية وينشؤون الجاليات المقيمة ولا سيما في ميناء «كولم تلي» •

ونسمع الأصداء المقابلة لهذه العلاقات لـدى المسلمين في بعض القصص العربي أو الأخبار ذات الطابع الأدبي • ويروي ابن عبد ربه في العقد الفريد[2] خبر قدوم وفد على الرشيد يحمل إليه الهدايا من أحد ملوك الهند وأن الخليفة لم تعجبه منه إلا الكلاب السيورية أما بقية الهدايا فكانت عادية في نظره • وقد أمر بحسن وفادة السفراء وحسن جائزتهم • ولقد يضعف من الرواية أن نرى فيها الرشيد يأمر الأتراك في حرسه فيصطفوا صفين لاستقبال الوفد ولـم يكن اصطناع الاتـراك شائعاً في عصره •

على أن العلاقة القوية الواضحة تماماً هي العلاقة الحضارية فبالإضافة إلى وجود عدد من أهل السند والهند بين كبار رجال الدولة العباسية مثل: السندي بن شاهك مولى المنصور وصاحب شرطة الرشيد (وهو الذي قتل جعفر البرمكي) ثم ابنه ابراهيم وكان من كبار القضاة ، والسندي ابن يحيى الحرشي حاكم اليمامة والبحرين وعمان وغيرهم فإن الرشيد بعد المنصور استدعى الأطباء من الهند بعد أن شفاه الطبيب الهندي منكه

(١) انظر كتاب
Ishwari Prasada , History of Medieval India (Allahabad 1925) PP 30, 31

(٢) ابن عبد ربه ــ العقد الفريد ج٢ ص٢٠٣

من مرضه[1] وقد أورد ابن أبي أصيبعة ثبتاً بأسماء الأطباء والصيادلة الهنود الذي نزحوا الى بغداد بعلومهم وكتبهم ... ونقلت عن الهند في هذا العصر العباسي نفسه بعض كتب الفلك (السند هند) والحساب وبعض الفلسفة والأدب .

وقد سجل ابن المرتضى اليمني خبراً رواه في صورتين مؤداهما واحد وهو أن ملك الهند أرسل يطلب من الرشيد عالماً مسلماً لمناظرة علمائه في الدين وكان الرشيد قد منع الكلام وحبس أهله فأرسل إليه محدثاً فخسر المناظرة وكتب ملك الهند بذلك الى بغداد فغضب الرشيد وقال : أما لهذا الدين من يدافع عنه وأتوه بعلماء الكلام واستطاع صبي منهم أن يجيب على المسألة التي فاتت المحدث فوجهه أو وجه عالماً آخر الى الهند ... لكن الفيلسوف الهندي حين علم أن القادم من المتكلمين دس إليه من سمه ...

والقصة لو أنها تروى لدعم موقف المتكلمين إلا إنها من ناحية أخرى قد تكشف وجود العلاقة الكلامية الجدلية بين فلاسفة الهند ومتكلمي الاسلام في تلك الفترة وأنهم كانوا يتناقشون وأن بعض المسلمين كانوا يستدعون من العراق بعض الرجال خاصة للمناظرة والدعوة للاسلام[2] !

ومن الهام أن نسجل أن هذا التأثير الحضاري لم يكن وحيد الطرف ، ومن جانب واحد فمقابل ما أخذه العرب عن الهند من المعطيات الحضارية تأثرت الهند نفسها في دياناتها خاصة بالاسلام لا عن طريق

---

(١) انظر خبر هذا الطبيب وقدومه في الطبري ج٨ ص٣٥٢ (٣/٧٤٧ـ٧٤٨)

(٢) انظر ابن المرتضى طبقات المعتزلة ص٥٤ـ٥٥ وص٥٨ـ٥٩

دخول الكثيرين من حوض السند في الدين ولكن أيضاً في إصلاح الديانة الهندوكية فتحت تأثير الاسلام والفتوح الاسلامية والتجارب الفكرية والصوفية الاسلامية ظهر لهذه الديانة مصلحون ومجددون أدخلوا بعض أفكار الاسلام إليها ومن أبرز هؤلاء سانكارا Sancara (٧٨٨ ــ ٨٢٠) الذي أعاد تصميم الديانة الهندوكية على ضوء التصوف الاسلامي الناشيء إذ ذاك وسميت حركته الفيداتية ، ومثلها حركة البهاكتية الدرافيدية التي تأثرت بالتوحد الاسلامي •

ثانياً : وعلاقات العباسيين بالصين لم تتحرك في الناحية السياسية على الأقل خطوات هامة خلال عصر الرشيد • أباطرة الصين استمروا على سياستهم الانكماشية فيما يظهر فترة طويلة ، أفادت الدولة العباسية والمسلمين في توطيد النفوذ العباسي والتبشير بالاسلام في مناطق تركستان وإثبات الحضارة العربية هناك وأما عن الطريق البحرية الممتدة من البصرة الى الصين فإن المقاطعة الاقتصادية التي فرضها الصينيون بعد نهب كانتون وتدميرها على الأجانب استمرت فترة تزيد على ثلث قرن ولم تفتح للتجارة من جديد إلا سنة ٧٩٢ (سنة ١٧٥) في ظل عهد الرشيد •

وليس من شك في أن الحركة البحرية التجارية لم تنقطع عبر المحيط الهندي مع الصين خلال فترة المقاطعة ولكنها كانت تجري بالواسطة ، وبشكل غير مباشر وكانت مراكب الصين تأتي بالبضائع للمبادلة حتى مضيق سنغافورة حيث توافيها المراكب الاسلامية وغيرها• ويظهر من بعض الأخبار الصينية أن عدة محاولات قد بذلت لإعادة فتح

---

(١) جورج فضلو حوراني ــ العرب والملاحة ص ٢٠٠

ميناء كانتون المغلق للأجانب من التجار • وتتحدث تلك الأخبار عن وفود وسفارات ترددت ما بين أباطرة تانغ وبني العباس • ولا تشير المصادر العربية أبداً الى شيء من تلك الوفود ولكن المصادر الصينية هي التي تذكر ثلاثة وفود ـ على الأقل ـ أرسلها (هان ـ مي ـ مو ـ ميني) أي أمير المؤمنين (آلون) أي هارون الرشيد الى الصين • وقد وصل سنة ٧٩٨ ـ ١٨٣[١] •

ولقد يكون بعض هذه الوفود وفود تجار ليس لهم المعنى السياسي وهم يحملون الهدايا الى بلاط الامبراطور ابن السماء لعله يفتح لهم أبواب التجارة المغلقة أو يفتح لهم مواني جديدة أخرى ، ولعلهم يوطدون بتلك الصلات ، وباسم الدولة الاسلامية الكبرى ، مراكزهم التجارية ويؤمنون على أموالهم وأرواحهم هناك لكن من المحتمل أيضاً أن يكون بعضها وفوداً سياسية أو سفارات رسمية قامت بتلك المهمة لمصلحة التجارة المتبادلة وقضايا الحدود التركية •

وعلى أي حال فما كاد ميناء كانتون يفتح من جديد للتجار المسلمين حتى تكاثرت أعدادهم هناك تكاثراً واضحاً سريعاً • ولا شك ان الامبراطور الصيني قد أخذ بعين الاعتبار كثرتها من جهة والدولة العربية العظمى التي تنتمي إليها حين أفرد لها مكاناً خاصاً من المدينة وأمر فعين لها قاضياً مسلما وإماماً للصلاة كما سمح لها ببناء المساجد ••• وهي امتيازات تكشف ، بجانب الأهمية التجارية ، المكانة السياسية التي أخذتها

---

(١) درست هذه العلاقات من قبل بعض الباحثين ومنهم الالماني برتشنايدر في كتابه بحوث في العصور الوسطى ج١ ص٢٦٤ فمابعد (انظر الدوري ـ العصر العباسي الاول) .

الجماعات التجاريــة الاسلامية هناك في تلك الفترة[1] . وقد بلغ من اعتداد هذه الجماعات بنفسها وبمكانتها حد الزعـم بأن سعد بن أبي وقاص مدفون لديها هناك ! ... وقد يكشف عن كثرة عدد هذه الجالية وعن كثافة العلاقات التجارية التي كانت تقوم بين الصين والبلاد الاسلامية أن كارثة الهجوم الثوري على مدينة خانفو (كانتون) سنة ٢٦٤ ـ ٨٧٨ ذبح فيها من الأجانب المسلمين والنصارى واليهود والمجوس وحدهم مايزيد على ١٢٠ ألف نسمة !

ثالثاً : أما علاقات العباسيين مع الترك فقد ورث المهدي الجبهــة التركية والمنطقة الخراسانية المقابلة لها هادئتين . كانت آخر الحركات في خراسان قد تلاشت منذ سنة ١٥١ . فقد ثار فيها سنة ١٥٠ أستاذسيز وشملت ثورته جميع أنحائها حتى منطقة سجستان وهراة ثـم سحقت الثورة في السنة التالية . واستغل الخوارج تلك المناسبة فتحركوا في سجستان ويبدو ان المنطقة الشرقية منها كانت تتمتــع باستقلال ذاتي وعليها أمير منها يدعى رتبيل فأعانتهم أيضاً فأرسل المنصور سنة ١٥١ إليهم قائده معن بن زائدة الشيباني فاستطاع إعادة النظام إلى الاقليم كله في

---

(١) يرجع أول مسجد شيد في الصين (مسجد سنغ غنفر) إذا صدقنا نقشاً حجرياً فيه الى السنة الأولى من حكم الامبراطور تعين باو أي الى سنة ٧٤٢ (وهي السنة الاخيرة من عهد هشام بن عبد الملك) قبل قيام الدولة العباسية بثماني سنوات ولعل النقش كتب في وقت متأخر ولعل بناء المسجد يرجع الى مابعد ذلك بقرن أو بعض القرن . (راجع دائــرة المعارف الاسلامية ـ مادة الصين) وأول صيني ـ تركي شهدته عاصمة الخلافة الاسلامية كان يبغو الذي وصل دمشق سنة ٩١/٧١٠ وبقــى فيها حتى مات الوليد بن عبد الملك . والطبري يدعوه جبغويه (الطبري ج٦ ص٤٥٩/٢ـ١٢٢٤) .

أشهر معدودة ولكن بالطغيان الاداري والظلم المالي وأعاد إلى الولاء الإرغامي ملك سجستان الشرقية : رتبيل ثم دفع حياته ثمناً لتلك التهدئة الإرهابية إذ اغتيل في ظروف غامضة • على أن المنطقة عرفت على أي حال بعض السنوات الهادئة حتى جاء عهد المهدي •

وسرعان ما تفجرت المنطقة كلها من جديد : ثار المقنع سنة ١٥٩ وارثاً ثورة استاذسيز المسحوقة في خراسان وثـار يوسف البرم وارثاً ثورة الخوارج في سجستان • ويبدو أن ملوك الشرق التركي قد استغلوا المناسبة لمعونة الثوار ولعل بعضهم أسرف في ذلك فتحرك للثورة أيضاً مثل بلاد السغد وفرغانة وفي الوقت الذي كان المهدي يحارب فيه البرم في سجستان والمقنع في خراسان أرسل قائده أحمد بن أسد الى فرغانة حتى دخل كاشان ، المدينة التي ينزلها الملك[1] فأقر النفوذ العباسي فيها فلما سحقت في وقت متقارب ثورة سجستان سنة ١٦٢ وثورة المقنع سنة ١٦٢ أو سنة ١٦٣ عاد ملوك المناطق التركية المجاورة إلى تقديم الولاء مرغمين لدولة المهدي • وقد عبر اليعقوبي عن ذلك الموقف حين لخص في نص مقتضب علاقات المهدي بملوك الشرق كافة وخضوعهم له • وهو خضوع انقياد ربما كان من أسبابه انتصاراته القويـة على الروم وقوة وجوده العسكري في مناطق ما وراء النهر • يقول : «إن المهدي أرسل رسولا الى الملوك يدعوهم إلى طاعته فأجاب اكثرهم الـى الدعوة» • ومن جملتهم :

– ملك كابل شاه ويقال له حنحل (وكابول هي عاصمة الأفغان الحاليـة) •

---

(١) الطبري ج٧ ص٤٦٣–٤٦٤ (٣/٧٩–٨٠) .

ـ وملك طبرستان الاصبهبذ وهو وندا (أو بنداد أو وندداد) هرمز

ـ وملك الصغد الأخشيد (وهو لقب والصغد مجموعة تركية) •

ـ وملك طخارستان شروين[1] (وهو اسم الملك) •

ـ وملك باميان الشير (وباميان منطقة في غرب كابول) •

ـ وملك فرغانة فرنزان (وفرغانة منطقة تركية على الحوض الأعلى من نهر سيحون) •

ـ وملك اسروشنة الأفشين (واسروشنة منطقة تركية على الحوض الأوسط من سيحون) •

ـ وملك الخرلخية جيفويه (والخزلخية أو القارلوق حلوا محل التركش على الحوض الأدنى من سيحون • وأما جيفونه فهي تحريف في الكتب العربية للقب بيفو ويعني الملك عندهم) •

ـ وملك سجستان : رتبيل (في أقصى شرقي ايران) •

ـ وملك الترك : طرخان (وهو لقب) •

وملك التبت : جهورن •

ـ وملك السند : الراي •

ـ وملك الصين : بغبور (وهو لقب ويعني ابن السماء تعين‌تزو) •

ـ وملك الهند : وابراج ، وهوفور •

---

(١) اليعقوبي ج٢ ص

(٢) قد يكون المقصود لدى اليعقوبي هو شروين الملك الذي عرفناه في هذه الفترة في طبرستان وفي هذه الحالة فقد يكون اسم طخارسنان مصحفاً عن سرخاستان أما إذا كان المقصود منطقة طخارستان وهي جزء من الأفغان الحالية فيكون شروين هذا ملكاً آخر غير الذي مر معنا في طبرستـان .

ت ـ وملك التغزغز : خاقان[1] (والتغزغز) هي قبيلة السلاجقة فيما بعد) • وواضح أن هؤلاء الملوك إن كاف بعضهم من الحكام المحليين قد قدم الطاعة للمهدي فإن الآخرين كملك الصين والسند والهند لم يعتبروا الرسول اكثر من ساع لإقامة العلاقات الطيبة • ولكن إرساله من قبل المهدي يعبر عن رغبته في إتمام الهالة « المهدوية » التي اصطنعها له أبوه من قبل ليجعل منه مهدي العالم •

وجاء الهادي فولى في خراسان خاله : الغطريف بن عطاء[2]، «••• وكانت هادئة الأمور ساكنة والملوك في الطاعة فظهر منه أمور قبيحة وضعف شديد فاضطربت البلاد وتحرك جماعة من الطالبيين وصاروا الى ملوك النواحي (الأتراك والايرانيون) فقبلوهم ووعدوهم بالنصر والمعونة •••»[3] على أن هذا الحلف الطالبي ـ التركي الايراني لم ينجح لمطاردة الهادي للعلويين بشدة ولأنه توفي بسرعة •

ولم يتحرك ملوك الترك في السنوات الأولى من عهد الرشيد لكنا نجد تحرك التغزغز في الطالقان (على الحوض الأسفل من نهر سيخون) حوالي سنة ١٧٧ فأرسل الرشيد إلى خراسان بالفضل بن يحيى البرمكي «••• وقد زحف صاحب الترك في خلق عظيم ولقي عسكر الفضل

---

(١) اليعقوبي ج٢ ص٣٩٧
(٢) كان الغطريف وهو أخو الخيزران « غلاماً لرجل من أهل جرش (في الأردن) فأعتقه وكان يؤاجر نفسه بنطر الكروم فبعث (المهدي) الى عامله على جرش في حمله فوجده في كرم وعليه جبة صوف فكساه وخياه وحمله الى المهدي فرفع منزله » ثم ولاه على اليمن ثم على خراسان (انظر اليعقوبي ج٢ ص٣٩٩) .
(٣) اليعقوبي ج٢ ص٤٠٤

والتحمت بينهما الحرب ...» ويبدو أن الفضل سجل النصر على الترك في معركتين إذ ان احد الشعراء يقول في ذلك :

للفضل يوم الطالقان وقبلـه
يوم أناخ بـه على خاقـان .

ما مثـل يوميه اللذين تواليا
في غزوتـين توالتـا يومين !

ويبدو أن خاقان التـرك «ضرب في وجهه» في المعركـة الثانية « فاستنام واستباح الفضل عسكره وغنم أمواله »[1] وعقب ذلك على ما يظهر حضر سنة ١٧٨ عند الفضـل بن يحيى صاحب أشروسنة يقدم الولاء وكان ممتنعاً قبل ذلك[2] .

على أن أخطر ما تعرضت له الحدود العباسية ـ التركية هو ذلك الخلف التركي ـ الخراساني الذي ظهر يوم ثورة رافـع بن الليث في خراسان . فقد استطاع رافع سنة ١٩٣ أن «يستميل أهل الشاش وفرغانة وأهل خجندة وأشروسنة والصغانيان وبخارى وخوارزم وختل وغيرها من كوربلخ وطخارستان والسغد[3] وما وراء النهر والترك والخرلخي والتغزغز وجنود التبت وغيرهم واستضربهم على قتـال السلطان وقتال المسلمين وصار الى بيمرقند وتحصن بها ...»[4] حيث حاصره هرثمة

---

(١) المصدر نفسـه ج٢ ص٤٠٧
(٢) ابن الأثير ج٦ ص١٤٥
(٣) يسجل الطبري ان صاحب الشاش بالاتفاق مع رافع بعث فقتل له عيسى بن علي سنة ١٩١ (ج٨ ص٣٢٣)
(٤) اليعقوبي ج٢ ص٤٣٥ـ٤٣٦ وانظر الطبري ج٨ ص٣٧٣

ابن أعين ، بعد أن خرق السور الأول للمدينة ولا شك أن هذا الحلف إنما قام على أساس الكره المشترك للتسلط العباسي • وهو الكره الكامن الذي، كان ينتظر دوماً مثل هذه المناسبات الاضطرابية ليظهر • وقد لعب جيغويه الخرلخي دور الرياء والنفاق ضد العباسيين بجانب رافع رغم أنه كان قد أسلم على يد المهدي ••• ثم كشف عن تحالفه الكامل مع رافع ••• ولكن انهيار ثورة رافع فكك هذا الحلف كله • وأعاد ملوك الترك إلى الطاعة •••

ولم يتصل نفوذ الأمين بجهة الترك لأنها كانت من حصة أخيه المأمون الذي تمركز في خراسان واتبع هناك أو في بغداد بعد ذلك سياسة اسلام الترك • يقول البلاذري : «كان يكتب الى عماله في خراسان بغزو من لم يسلم من الأتراك واجزال العطاء لمن أسلم وإذا ورد ملوك الترك بابه بالغ في تشريفهم وأدر عليهم الأرزاق[1] •••

ويقول اليعقوبي إن خراسان استقامت للمأمون «ولم تبق ناحية من نواحي خراسان يخاف خلافها» «••• وأعطى ملوكها جميعاً الطاعة» بل أسلم بعضهم مثل ملك التبت الذي « ••• قدم على المأمون بصنم لـه من ذهب على سرير من ذهب مرصع بالجوهر • فأرسلـه المأمون الى الكعبة يعرف الناس هداية الله لملك التبت •••»[2] •

ومن هؤلاء الذين وردوا عليـه مسلمين : «كاوس التركي ملك أشروسنة» • جاء مدينة السلام وأظهر الاسلام وملكه المأمون على بلاده ثم ملك ابنه حيدر بن كاوس الملقب بالأفشين ! ••• ويحدثنا البلاذري

---

(١) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٥٢٧ـ٥٢٩

(٢) اليعقوبي ج٢ ص٤٥٢

عن المؤامرات الداخلية التركيـة التي انتهت بحيدر ثم من بعده بأبيه الى المأمون والاسلام والجيش الذي قاده أحمد بن أبي خالد الأحول فأناخ به على بلد أشروسنة ودخلها قبل أن تصل نجدات الترك الى كاوس الذي لم يجد بداً من الاستسلام والقدوم الى دار السـلام والاسلام ... ويضيف البلاذري قائلا : «... ثم استخلف المعتصم بالله فكان على مثل (سيرة المأمون) حتى صار جل شهود عسكره من جند أهل ما وراء النهر من السغد والفراعنة والاشروسنة وأهل الشاش وغيرهم وحضر ملوكهم ببابه وغلب الاسلام على من هناك وصار أهـل تلك البلاد يغزون من وراءهم من الترك . وأغزى عبد الله بن طاهر ابنه طاهر بلاد الغوزيـة (الغز أو التغزغز) ففتح مواضع لم يصل إليها أحد قبلـه ...» على أن سياسة المعتصم الظافرة على هذه الجهة كانت لها أسبابها كمـا كانت لها نتائجها المعاكسـة في قلب بغداد وعلى منصب الخلافة نفسه .

وتبقى في النهاية : قضية سجستان إمارة الحـدود المستقلة ما بين خراسان والهند . ويلخص لنا البلاذري علاقاتهـا في عصر الرشيد مع الخلفاء العباسيين تلخيصاً لا ينقصه إلا أن نذكر بأن الجماعات العربية التي توطنت بها كانت في غالبها على المذهب الخارجي وقد ثارت بها اكثر من مرة ثورات خطيرة قادها مرة يوسف البرم سنة ١٦٠ ومرة الحصين الثعلبي سنة ١٧٥ وكان آخرها بزعامة حمزة بن أترك سـنة ١٧٩ الذي استمر في تحريك الجماعات العربية والجماعات التي أسلمت من السكان مع السكان الزارادشتيين أنفسهم والمناطق المجاورة لهم حتى ما بعد سنة ١٩٤ . أما السكان الأصليون وأميرهم المحلي الذي يحمل لقب رتبيل فيقول البلاذري : «... ولم يزل عمال المهدي والرشيد يقبضون الإتاوة من رتبيل سجستان على قدر قوتهم وضعفهم ويولون عمالهم النواحي

التي قد غلب عليها الاسلام • ولما كان المأمون بخراسان أديت إليه الإتاوة مضعفة • وفتح كابل وأظهر ملكها الاسلام والطاعة وأدخلها عامله واتصل إليها البريد فبعث إليـه منها باهليلج غض • ثم استقـامت بعد ذلك حينـاً •••»(١) •

رابعاً : أما الخزر في الشمال فظلت علاقـاتهم مـع العباسيين على الهدوء الحذر منذ هجومهم الواسع سنة ١٤٥ ـ ١٤٧ أيام المنصور ثم انسحابهم الى مواقعهم وراء القفقاس • وانصرف ولاة ارمينيـة منطقة الحدود المجاورة لهم ، الى سياسة تشبه سياسـة العمال العباسيين في مناطق ما وراء النهر • غير ان مهمة هؤلاء الولاة كانت أصعب لا من ناحية الأعمال الحربية ولكن من حيث تعذر كسب السكان في الإمارات «الحاجزة» ومن الشعوب الصغيرة على الحـدود للدين الاسلامي • فهؤلاء كانوا في جمهرتهم على المسيحية وبعض منهم على اليهودية مما جعل انتشار الاسلام فيهم محدوداً وجعل ولاءهم باستمرار قلقاً والريبة في علاقاتهم مع بيزنطة ومع الخزر قائمة على الدوام • .

ولما كانت علاقة أرمينية بالخزر شبيهة بعلاقة خراسان مع ما وراء النهر وأرض الترك ، فقد اتبعت في تلك السياسة نفسها التي اتبعت في هذه • وهكذا فإنه حين ثارت بعض هذه الإمارات الأرمنية عقب وفاة المهدي ، إضطر الولاة العباسيون الذين عينهـم الرشيد لأن يوجدوا لأنفسهم أولا ركائز مطمئنة في المنطقه بالعودة الـى سياسـة التوطين العربي : بجانب سياسة العصا الغليظة مع امراء الحـدود ومع الثائرين في البلاد (وكان بين هؤلاء جموع من السـكان المحليين وجموع من الخوارج) •

---

(١) البلاذري ـ فتوح ص٤٩٥

أ ــ بدأت سياسة التوطين منذ مطالع عهد الرشيد : نقل الوالي يوسف بن راشد السلمي جماعة من النزارية وكان الغالب على ارمينية اليمانية فكثرت النزارية أيام يوسف • ثم ولي يزيد بن مزيد الشيباني فنقل إليها ربيعة من كل ناحية حتى أصبحوا فيها هـم الكثرة الغالية وقد ذكر اليعقوبي أنهم كانوا كذلك في عهـده (أواخـر القرن الثالث) • وتولى عليها عبد الكبير من ولد زيد بن الخطاب وكان منزله حران فصار إليها في جماعة من أهل ديار مضر ••

ب ــ واتبع الولاة سياسة القمع والشدة وهكذا :

أخمد خزيمة بن خازم ثورات ارمينية في أول عهد الرشيد حتى هدأت فلما كان بعد سنوات ولي البلاد الفضل بن يحيى البرمكي ،بسبب تحرك هجومي أو تعطيل للقوافل التجارية قام بهأهل حمزين فسار الفضل بنفسه إليهم وتوجه إلى ناحية الباب والابواب ولكنه فشل أمام قلعـة حمزين فانصرف لا يلوي على شيء حتى أتى العراق •••

وانتقض أهل أرمينية بعد ذلك ولا سيما في الموقع الذي يسمى قلعة الكلاب بسبب الخراج ، كما ثار أهل البيلقان ثم انتفضوا وثاروا كرة أخرى فوضع فيهم السيف ، في الحالين ، يحيى الحرشـي وأهل خراسان[1] • ثم كانت الانتفاضة الثالثة فقام التحالف بين الثـوار في المنطقة وبين الخزر •

ويبدو أن الخلافـة في بغداد كانت ترقب في حـذر شديد هذه التحركات • وقد حاول جعفر البرمكي أن يحصل على مسالمـة الخزر أو هدنتهم أو على التحالف معهم بالزواج السياسي على الطريقة الساسانية

---

(١) انظر تفصيل ذلك لدى اليعقوبي ج٢ ص٤٢٦ــ٤٢٧

القديمة وطريقة المنصور • وقد بعث بالفعل فطلب ابنة ملك الخزر للزواج وقبل الملك ذلك • ولكن المشروع فشل كرة أخرى كما فشل مشروع المنصور قبله بالموت السريع • إذ ماتت العروس في الطريق (ببلدة بردعة) فرجع من كان معها من الطراخنة الى أبيها فأخبروه أن ابنته قتلت غيلة فحنق لذلك • والطبري يجعل من هذا الأمر سبباً في الهجوم الواسع العنيف الذي خرج به الخزر كما قال ــ من باب الأبواب فأوقعوا بالمسلمين وأهل الذمة وسبوا ــ فيما ذكر ــ اكثر من مائة ألف • وانتهكوا أمراً عظيماً لم يسمع في الاسلام بمثله[1] •••

ويقدم اليعقوبي[2] سبباً آخر للهجوم هو أن سعيد بن مسلم بن قتيبة الباهلي والي الرشيد «تعبث بالبطارقة فخالف عليه أهل الباب والأبواب ووثبوا بعامله النجم بن هاشم فقتله سعيد (ضربعنقه بفأس)، فوثب ابنه حيون بن النجم فقتل عامل سعيد (الجديد) على الباب والأبواب وكشف رأسه للمعصية وكتب إلى خاقان ملك الخزر فزحف ••• في خلق عظيم فأغار على المسلمين فقتل وسبى خلقاً عظيماً وسار حتى أتى جسر الكر وسبى خلقاً من المسلمين وقتل عالماً وحرق البلاد وقتل النساء والصبيان •••» •

وقول اليعقوبي يكشف أن سبب الهجوم الخزري هو «تعبث» الوالي بالبطارقة وثورة أهل الباب والأبواب وهي الممر الأساسي للتجارة مع الشمال الخزري • وقد يكون السبب في ذلك هو العدوان على

---

(١) الطبري ج٨ ص٢٦٩ــ٢٧٠ (٣/٦٤٧ــ٦٤٨)

(٢) اليعقوبي ج٢ ص٤٢٧ــ٤٢٨ ولا ينسى الطبري هذا السبب ولكن النسخة المطبوعة تجعل اسم النجم : المنجم •

العملاء التجاريين للخزر (البطارقة) وفرض الضرائب الباهظة عليهم أو محاولة احتكار بعض التجارات • وقتل الوالي لعامله النجم قد يعني أن النجم لم يكن موافقاً على التدابير المالية ــ التجاريــة ولا على قمع المحتجين عليها • وابنــه الذي كشف رأسه للمعصية واستعدى الخزر على المسلمين إنما جاءهم من ناحية مصالحهم التجارية المهددة التي ذهب أبوه ضحية الدفاع عنها فخرجــوا لحمايتهــا ••• وإذا صح ما ذكره المسعودي من تهور الخزر في عهد الرشيد فقــد يكون لهــذا التهور المستجد والانقلاب الديني في الخزر علاقته الممكنة مــع هذا الهجوم المفاجيء ، ومع سعته وعنفه خاصة •

وقد استمرت العملية الهجومية التخريبية سبعين يوماً حتى وصلت النجدات العباسية • ولم يكن هدوء الحالة بالسرعة التي ذكرها الطبري أي بوصول الجيوش بقيادة خزيمة بن خازم ويزيد بن مزيد • «فأخرجا الخزر وسدت الثلمة » ! فإن خبر اليعقوبي يكشف تفصيلات أخرى تبين أن الرشيد غير عدداً من الولاة قبل أن ينجح في «سد الثلمة» المذكورة وهذا يعني أن فترة من الوقت قد تبلغ عدة سنوات انقضت قبل النجاح في اعادة الأمور الى نصابها في ولاية الحدود هذه ولقد كانت الحالــة العامة لأرمينية في هذه الفترة قابلة للانفجار لأسباب عديدة • وقد لخص البلاذري أحسن التلخيص موقف الأرمن خلال عهد المهــدي والرشيد حتى المتوكل بقوله : بعد أن عدد الولاة الذي تعاقبوا على أرمينية : «••• ولم يزل بطارقة أرمينية مقيمين في بلادهم يحمي كل واحد منهم ناحية • فإذا قدم الثغر عامل من عمالــه داروه • فإن رأوا منــه عفة

وحرامة . وكان في قوة وعدة أدوا إليه الخراج وأذعنوا له بالطاعة وإلا اغتمزوا فيه-واستخفوا بأمره ...»[1].

والواقع أن معركة (بغرقاند) سنة ٧٧٢ ــ ١٥٥ في أواخر عهد المنصور على قسوتها لم تحطم الارستقراطية المحلية المتحالفة والمتعاونة مع الكهنوت . وبالرغم من أن الكثير من الأرمن تخلوا عن أسرة ماميكونيان حتى إن أمير (فاسبوراكان) قتل ولدي موشائيل اللذين هربا إليه لتخلص من عواقب لجوئهما وادعى أن أباهما كان سبب الكارثة التي حلت بالأرمن بينما تزوجت ابنة موشائيل من امير مانيزكرد المسلم أسحق بن أسماعيل ابن شعيب[2] الذي طمع في الوصول إلى حكم المنطقة من خلال الزواج إلا إن امراء الاسرة الأخرى : بغرتوني Bagratouni ظلوا أقوياء . وقد استطاع اثنان منهما أن يحققا بعض السمعة والثروة عن طريق مهاجمة الجند الاسلامي ومن هؤلاء آشوط حفيد آشوط الأعمى القديم[3] .

وظلت المنطقة باستمرار بين جذب المقاومة المحلية وشد العمال العباسيين الذين ربما اضافوا في عهد المهدي والهادي الى القسوة في جمع الضرائب محاولة نشر الاسلام . وتذكر بعض الأخبار الأرمنية ان خازم

---

(١) البلاذري ــ فتوح البلدان ص ٢٤٧

(٢) تذكره المصادر الأرمنية باسم شهاب فقط Jehap وهو مولى بني امية .

(٣) انظر فارطان ــ التاريخ العام (المقتطفات الفرنسية) ص ١١٠ وآشوط هذا هو : ابن آرت ــ نرسه ابن فاساك بن آشوط الذي سجل سنة ٧٥٠ من قبل امير اسرةماميكونيان المسمى غريفوار . وقد جاء اسم آشوط في البلاذري (طبعة المنجد ص٢٤٨) على انه بن حمزة بن جاجق بطريق البسفرجان .

(وهو خزيمة بن خازم) والي أرمينية حوالي سنة ٧٨٥ (أي في عهد الهادي) حاول إرغام بعض امراء ارمينية وجورجيا على الاسلام وقتل ثلاثة منهم في ذلك ويبدو أن السبب في القتل لم يكن الدين ولكن لأن «خزيمة كان أشد (الولاة) ولاية ــ كما يقول البلاذري وهو الذي سن المساحة بديل والنشوى ولم يكن قبل ذلك ...» ولقد يكون هؤلاء الأمراء إنما قاوموا ــ بسبب أملاكهم الواسعة ــ في فرض الخراج على أساس المساحة ثم أنهم ثاروا بالفعل مدة أيام الهادي فكان عقابهم القتل ثم عزت الأخبار الأرمنية ذلك الى الدين لأن عملية التحول الديني كانت في ذلك الوقت قائمة ... وهكذا كانت المنطقة مستعدة للتمرد عند أي بادرة من بوادر الضعف في الحكم العربي ولقد حاول الرشيد بعد الهجمة الخزرية أن يتلافى مضاعفاتها وما قد يكون لها من العواقب المشابهة لعواقب الهجمة السابقة زمن المنصور . فأرسل النجدات والعمال للتهدئة الداخلية لا سيما وقد أثار الغزو الخزري الثورة بالفعل في منطقة شروان . المتدة بين باكو (النفاطة) وباب الأبواب على شواطىء بحر الخزر .

أرسل الرشيد أولا عاملين (نصر بن حبيب المهلبي وعلي بن عيسى ابن ماهان) قبل أن يستقر أمره على إرسال يزيد بن مزيد الشيباني فكانت مهمة هذا القائد ، في المرحلة الأولى من التهدئة والدفاع ، على ثلاث خطوات نراها لدى اليعقوبي :

«أن يلائم الناس ويصلح البلد» وأن يوحد الصف العربي «فساوى بين النزارية واليمانية» وأن يطمئن السكان المحليين «فكتب الى أبناء الملوك والبطارقة يبسط آمالهم»[1] ... فاستوى البلد .

---

(١) اليعقوبي ج٢ ص٤٧٢

لكن هذه السياسة المهادنة لم تدم طويلا بسبب موت ابن مزيد ، في بردعة مقر الولاية سنة ١٨٥ـ٨٠١ فجاء خازم بن خزيمة[١] من بعده بسياسة جديدة معاكسة : «... فأخذ البطارقة وأبنـاء الملوك فضرب أعناقهم وسار فيهم أسوأ سيرة . فعادت الثورة من جديد إذ انتقضت جورجيا والصنارية»[٢] وسحقوا الجيش الأول الذي أرسل ضدهم ثم استطاع الجيش الثاني أن ينتصر وأن يجبرهم على الجلاء مـن مواطنهم إلى أواسط المنطقة في تفليس . وهو تدبير اداري يقصـد الى حرمان الارستقراطية الاقطاعية من أملاكها ومن الاتصال بالروم أو بالخزر . وكان هذا التدبير من السياسة المألوفة في ذلك العصر .

على أن الأرمن الصنارية ما لبثوا على ما يبـدو أن استفادوا من ضعف الوالي الجديد الذي أعقب خزيمة فثاروا كرة أخرى ليعود العمال العرب إلى قتالهم ! ..

وإذا كان الخطر الخزري قد توقف الآن فإن المنطقة نفسها أضحت خطرة المصير وكان قائد الحركات المتكررة من التمرد هو آشوط الذي تذكر له المصادر الأرمينية عدداً من أعمال المقاومة وتذكر أنه استطاع احتلال بعض البقاع الأرمينية وفرض سلطانه فيها وزيادة ثروته بسبب كثرة الغنائم وبناء بلدة كاماكس (أني) واتخاذها مقراً لحكمه وأسرته[٣]

---

(١) ولي خزيمة بن خازم ارمينية مرتين الاولى في مطالع عهد الرشيد سنة ١٧٠ وبقي سنة ونيفاً والثانية في اواخر عهده (انظر اليعقوبي ج٢ ص ٤٢٦ و ص٤٢٨) .

(٢) يذكر اليعقوبي (٢/٢٤٧) انها جرجان وهو خطأ بالطبع من النساخ لان جرجان في الشرق الجنوبي من بحر الخزر ولا علاقة لها بأرمينية . وقد اتبع عمال المهدي ثم الهادي سياسة العنف في ارمينية .

(٣) انظر فارتان ــ التاريخ العام (المقتطفات الفرنسية) ص ١١١ــ ١١٢ وآني (كاماكس) هذه ليست هي آني الموجودة فيأعالي الفرات .

وقد استفاد آشوط والبطارقة الآخرون من أيام الفتنة بين الأمين والمأمون «فعاشت أرمينية في سلام ــ كما يقول المؤرخ الأرمني ــ وبدأ أمراؤنا يصبحون أقوياء كل واحد منهم في موضعه ...»[1] بل أدى ذلك إلى ايجاد دولة حاجزة تقوم بين الخزر وبين الدولة الاسلامية إذ «منح الخليفة لآشوط حكم منطقة جورجيا فاستلمها وأرسل إليه امبراطور بيزنطة لقب تشريف»[2] ويبدو أن ذلك كان زمن الأمين وامتد حتى آخر عهد المأمون لأن حكم آشوط هذا دام ما بين سنة ٨٠٩ الى سنة ٨٣٣ (١٩٣ ــ ٢١٧ هـ) .

وقد ظهر التعاون واضحاً في هذه الفترة ما بين جورجيا وبيزنطة لا سيما في عهد الامبراطور ليو الخامس الأرمني (٨١٣ ــ ٨٢٠) بينما تضاءلت بالعكس سيطرة الخلافة العباسية على أرمينية . يقول البلاذري: « ... ووليهم خالد بن يزيد بن مزيد في خلافة المأمون فقبل هداياهم وخلطهم بنفسه فأفسدهم ذلك من فعله وجرأهم على من بعده من عمال المأمون ثم ولى المعتصم بالله الحسن بن علي الباذ عيسى المعروف بالمأموني ، الثغر ، فأهمل بطارقته وأحراره ولان لهم حتى ازدادوا فساداً على السلطان وكلباً على من يليهم من الرعية ... (ووثبوا في كل ناحية) ثم ولي ارمينية عمال كانوا يقبلون من أهلها العفو ويرضون من خراجها بالميسور ...»[3] .

وهكذا أصبحت منطقة أرمينية لمن غلب : ثار فيها ابن شعيب وغلب

---

(٢) المصدر السابق ص ١١٣

(٣) المصدر الساق نفسه ولقب التشريف المذكور وهو Curopalate كان يحمله جده آشوط الأعمى .

(٤) البلاذري ــ فتوح البلدان ص ٢١٨

مع ابنه عبد الله على ما تحت يده من منطقة دوين ومانزكرد وثارالقيسية بالاتفاق مع الأرمن الصنارية وثاروالى تفليس العربي • وتعقدت الأمور في أرمينية حين ثار فيما حولها بابك الخرمي بينما كانت إمارة أشوط تمتد ما بين البحر الأسود وسفوح القفقاس وتفليس • ثم استطاع أمراء من أسرة ماميكونيان أن يدمروا إمارة ابن شعيب وجيشه ويأخذوا منه بلدة دوين[١] كما لجأ أحد أمراء هذه الأسرة نفسها هارباً من امبراطور بيزنطة الى المأمون الذي اكرمه غاية الاكرام ومنحه راتباً يومياً قدره ١٣٠٦ دراهم وأهداه الهدايا الكثيرة المستمرة[٢] ••• قبل أن يعود فيهرب إلى بلاد الروم ••

ومقابل هذا الذي تفصله المصادر الأرمينية يعطينا اليعقوبي تفاصيل الصورة الأخرى من الناحية الاسلامية[٣] • ونرى فيها اسماء وأعمال الولاة الذين توالوا على المنطقة زمن المأمون وصدام بعضهم ببعض أو ثورة بعضهم على السلطة المركزية كما نجد تعقد الأمر بسبب مجاورة المنطقة لثورة بابك وانعكاساتها فيها والاصطدامات بسبب العصبية أو المعتقد الديني والاتفاق مع الصنارية الأرمن ضد الدولة •

وهكذا كانت قصة أرمينية والحدود مع الخزر هي قصة الانتفاضات

---

(١) انظر تفاصيل ذلك لدى فارطان ص١١٤ـ١١٥

(٢) فارطان ص١١٤ ويشير اليعقوبي (ج٢ ص٤٦٤) الى القائد علي ابن يحيى الارمني من قبل خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني اثناء المعارك التي قادها بعض القيسية بالاتفاق مع الارمن الصنارية ضد الدولة واسر مع علي جماعة اخرى ووجه بهم خالد الى المأمون « فصيرهم في ناحية اخيه ابي اسحق المعتصم وضمهم اليه وفرض لهم .. » .

(٣) انظر التفاصيل التي يقدمها اليعقوبي لحالة ارمينية في عهدالمأمون في التاريخ ج٢ ص٤٦١ـ٤٦٤ .

من الارستقراطية الأقطاعية الأرمينية والعربية وإخمادها وممالأةالسكان الأرمن لمختلف الثائرين وقيام الدول المحلية الحاجزة • وتلك هي تماماً القصة على جبهة خراسان التركية • بمعنى أن الهجوم الاسلامي على الخزر للانتقام أو للفتح لم يرد في مخططات الرشيد كما لم يخطر في بال الخلفاء من بعده ولم يكن ممكناً أن يخطر • وبالمقابل فإن الهجمات الخزرية انتهت بعد ذلك فلم تتكرر ولعل السبب في توقفها النهائي هو اعتماد الجيش الخزري على الخوارزميين المسلمين الذين اشترطوا على «البك» قائد الجيش أن لا يدخلوا في أي حرب تقع مع المسلمين ، ثم ظهور الإمارة السلافية الروسية في موسكو وتهديدها للدولة الخزرية واخيراً انفصام الحلف الخزري ــ البيزنطي بسقوط الاسرة الايسورية في بيزنطة خلال عهد الرشيد نفسه سنة ٨٠٢ (١٨٦ هـ) •

٢ ــ العلاقات مع الشمال الغربي (جبهة الروم)

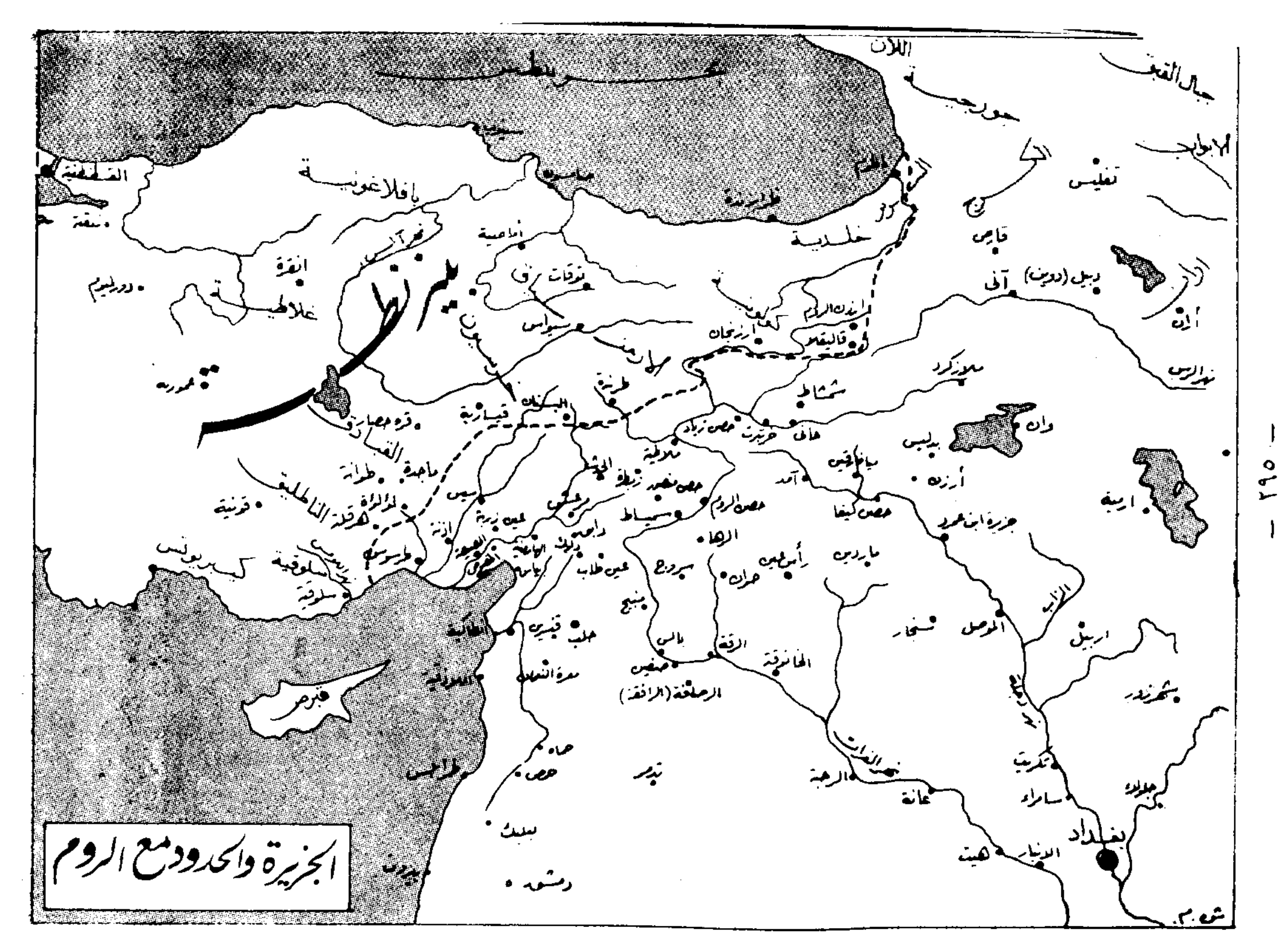
لعل أهم وأقسى أشكال العلاقات الخارجية التي عاشها العباسيون الاوائل إنما كانت علاقاتهم مع الروم • وكانت جبهة الروم هي الجبهة التي أخذت من وقت وجهد ومال ودماء الدولة العباسية اكثر بكثير مما أخذت أي جبهة أخرى • ولهذا ولأنها ظلت كذلك عدة قرون فإنا نجد من الضروري الوقوف عندها بعض الوقوف • وندرس منها : الجانب البزنطي من جهة ونظام الدفاع العربي من الجهة الأخرى • كما ندرس العمليات الحربية التي تمت على أيدي الخلفاء العباسيين ثم معنى هذه العمليات ونتائجها وأخيراً العلاقات الحضارية بين الطرفين •

البيزنطيون : تتابع على عرش القسطنطينية في فترة الاستقرار العباسي بقية الاسرة الايسورية : ليو الرابع الخزري (٧٧٥ م ٧٨٠ م) وقسطنطين السادس (٧٨٠ــ٧٩٧) وقد كانت أمه ايريني وصية عليه ثم

سملت عينيه واستأثرت بالتاج خمس سنوات (٧٩٧ ــ ٨٠٢) واضطرب عهد الايسوريين بعدها : غصبها العرش اولا نقفور (٨٠٢ ــ ٨١١) ثم جاء ستوراكيبوس فميخائيل الاول رانغاب (٨١١ ــ ٨١٣) ثم ليو الخامس الارمني (٨١٣ ــ ٨٢٠) ووصلت الى السدة الامبراطورية بعد ذلك الاسرة العمورية (الفريجية) فكان منها ميخائيل الثاني الاعجمي (٨٢٠ ــ ٨٢٩) ثم تيوفيلوس (٨٢٩ ــ ٨٤٢) وفي عهده انتقل العرش العباسي الى المعتصم ..

وقد تأثرت علاقات الدولة العباسية والبيزنطية بتعاقب الخلفاء والاباطرة المختلفين على عرشي الدولتين . ولكنه تأثر محدود .والوصف الاساسي الذي يمكن أن يعطى لتلك العلاقات انها كانت علاقات عدائية دوماً واستعراضها لا يزيد عن أن يكون سجلا رائعاً ، وإن يكن متشابهاً تشابهاً يصل درجة الملل لحملات حربية سنوية تحرث حرثا عوانا متمادياً منطقة الحدود التي يتراوح عرضها بين ٢٠٠و٥٠٠ كم والتي تمتد الى الغرب من خط يصل منابع الفرات بخليج الاسكندرونة . وقد كانت هذه الحدود مملوءة لدى الجانبين العربي والرومي بالمدن ــ الحصون .

فأما على الجانب الرومي فقد كان البيزنطيون قد نظموا دفاعهم تنظيماً يعود في أسسه الى عهد حروبهم مع الساسانيين وهو تقسيم الجبهة من جهتهم الى مجموعة مقاطعات عسكرية الادارة تدعى تيما . (أو بالاصطلاح العربي : بند أو عمل) وقد تطور هذا النظام منذ عهد جستنيان وهرقل ، ومن خلال تجارب الحروب الأليمة مع العرب الأمويين حتى بلغ درجة الإحكام في عهد الاباطرة الايسوريين في القرن الثامن . ويقوم نظام البنود على توطين فرق الجند للدفاع في مراكز محصنة وجعل القائد العسكري هو رأس السلطة المدنية . وهكذا كانت جبهة الروم


الجزيرة والحدود مع الروم
بيزنطة
بحر بنطس
اللان
جبال القبق
تفليس
القسطنطينية
انقرة
سيواس
ارزنجان
ملطية
خلاطية
طرابزنة
قاليقلا
شمشاط
وان
بدليس
ارزن
آمد
ميافارقين
حصن كيفا
جزيرة ابن عمر
ماردين
الرها
حران
سميساط
منبج
حلب
قنسرين
انطاكية
اللاذقية
قبرص
طرابلس
حماه
حمص
بعلبك
دمشق
بيروت
تدمر
بالس
الرقة
الرحبة
عانة
هيت
الانبار
بغداد
سامراء
تكريت
الموصل
اربل
سنجار
الزاب
طرسوس
اذنة
قونية
سلوقية
شهرزور
دجلة
الفرات
الرصافة (الرافقة)
بحيرة
مدينة
قيسارية
الحدث
زبطرة
حصن زياد
حصن منصور
الخانوقة
رأس عين
الابواب
آلي
دبيل (دوين)
ارمينية
كيسربونس

مقسمة لديهم الى أربعة بنود أو أعمال ــ حسب اصطلاح ابن خرداذبه ــ بند أرمينية (ويقابل الثغور الجزرية) وبند الأناضول (ويقابل الثغور الشامية) وبند الاوبسيكيون وهو يمتد حول بحر مرمرة لحماية العاصمة القسطنطينية وبند بحري أطلق عليه اسم (القبرصي ــ كبيرايوت) وكان يشمل الشاطىء الجنوبي من آسيا الصغرى والجزر القريبة منه • وقد جعل الايسوريون لكل بند أقساماً فرعية خشية من طموح القواد ، وزيادة في إحكام الدفاع ضد الهجمات العربية فلما جاء أباطرة الاسرة العمورية اقتطعوا مما بين بندي ارمينية والأناضول منطقة الممرات الجبلية وجعلوها ولاية حدود[1]••• وكان قائد البند البزنطي يحمل لقب استراتيج •

نظام الدفاع العربي : أما على الجانب العربي فقد كانت الحصون التي تقابل العدو مقابلة مباشرة تدعى بالثغور • وهي تقسم في ذلك العصر ، ومنذ العهد الأموي ، الى مجموعتين :

أ ــ الثغور الشامية (مقابل عمل الأناضول لحد كبير) وتشمل مابين طرطوس الى الهارونية من المدن الحصون بما في ذلك أذنة • المصيصة • عين زربة • سيس • أي الحصون القائمة في حوض نهري سيحان وجيحان مقابل جبال طوروس من جهة الشرق •

ب ــ الثغور الجزرية (مقابل عمل أرمينية) وهي حصون تمتد على

---

(١) كتب ابن خرداذبه كتابه المسالك والممالك في اواسط القرن التاسع الميلادي (سنة ٢٣٢ هـ/٨٤٦ م) اي في عهد الواثق والمتوكل وهو يقسم الجهة الرومية مع العرب الى تسعة أعمال هي: القبادق . سلوقية . خلدية . الارميناق . البقلار . خرسيون . الناطلوس . ترقسيس . الابسيق .

منطقة أوسع بكثير من الأولى وتتوزع في أحواض منابع الفرات منذ مرعش ودابق من جهة الغرب الى حاني وشميشاط حتى منازكرد من جهة الشرق • ويدخل فيها حصون : الحدث • زبطيرة • سميساط • حصن الروم • ملاطية • حصن زياد • خرتبرت • وربما فصلت ثغور شميشاط وحاني وما بعدها في مجموعة ثالثة لوحدها ودعيت بالثغور البكرية (نسبة الى ديار بكر) كما يطلق اسم الثغور البحرية على سواحل الشام كلها وسواحل مصر •

وكانت منطقة شمال الشام ، من حول مدينة حلب ، تدعى بالعواصم •• وتمتد من انطاكية وبلدة باياس على خليج الاسكندرونة حتى بلاد عين طاب ، ومنبج وبالس والرافقة من جهة الفرات ، وهي منطقة جبال اللكام وما وراءها حتى الفرات • وقد سميت بالعواصم ـ كما يقول قدامة بن جعفر ـ «لأنها تعصم الثغر وتمده في أوقات النفير»[(١)] ومركز العواصم منبج في الداخل وانطاكية في الساحل وربما اختصت الأولى بثغور الجزيرة والثانية بثغور الشام أو اشتركتا في ذلك •

والبلد الذي يمكن ان يعتبر جغرافياً مركز توزع الثغور والعواصم

---

(١) قدامة بن جعفر نبذ من كتاب الخراج (ملحق بابن خرداذبة) ص٢٥٣ : ٥ ويلاحظ أن قدامة يجعل الثغور أنواعاً ثلاثة : برية تقابل العدو من جهة البر وبحرية تلقاه وتواجهه من جهة البحر . ومنها مايجتمع فيه الأمران وتقع المغازي من أهله في البر والبحر ويضيف قوله : «والثغور البحرية على الاطلاق سواحل الشام ومصر كلها والمجتمع فيه الأمران غزو البر والبحر : الثغور المعروفة بالشامية . . » .

هو منطقة دلوك فمنيها والى الشرق والشمال ثغور الجزيرة ومنها الى الغرب ثغور الشام ومنها والى الجنوب العواصم •

ولعله يجب أن نضيف الى ذلك بعض الملامح الأخرى في الجبهة فقد كان ثمة أيضاً :

أ ـ الأربطة (جمع رباط) وهي المواقع المحصنة ، كأنها الأديرة ، يرابط فيها المجاهدون وتشحن بالذخيرة وتشبه مراكز المراقبة ومخافر الحدود • وقد يقوم بعضها في المناطق البرية بين الثغور ولكن معظمها إنما نشأ وتطور على السواحل الشامية مابين طرسوس حتى أقصى جنوب فلسطين وكان الروم يعتبرون هذه السواحل ، بسبب قوتهم البحرية ، مواقع للغزو والهجوم فأقيم نظام الأربطة عليها منذ العهد الأموي • وكان المرابطون فيها من المتطوعين للجهاد وتقطعهم الدولة الأرض من حولها يحرثونها ويستثمرونها مقابل الحراسة والرقابة للغارات المفاجئة • وقد كان يلتحق ببعض هذه الأربطة أحياناً بعض الشيوخ المتدينين طلباً للجهاد كما يلتحق بها أحياناً بعض من تطردهم الظروف السياسية من ميدان الحكم (ومنهم بعض أمراء البيت العباسي) ثم تحولت هذه الأربطة بالتدريج الى مراكز لبعض المتصوفة ونمت فيها بعض فرقهم من بعد •

وقد تصبح هذه الأربطة مراكز فداء وتبادل أسرى • وقد ترك لنا المقدسي البشاري صورة من صور هذا الفداء وطريقته رآها في الساحل الجنوبي من فلسطين ووصف اتصال الأربطة بعضها ببعض يقول : «••• فيقع بها النفير وتقلع إليها شلنديات الروم وشوانيهم معهم أسارى المسلمين للبيع ، كل ثلاثة بمائة دينار وفي كل رباط قوم يعرفون لسانهم ويذهبون إليهم في الرسالات ويحمل إليهم أصناف الأطعمة وقد ضج بالنفير لما ترايت مراكبهم • فإن كان ليل أوقدت منارة ذلك الرباط وإن

كان نهار دخنوا • ومن كل رباط الى القصبة عدة منابر شاهقة قد رتب فيها أقوام • فتوقد المنارة التي للرباط ثم التي تليها ثم الأخرى فلا يكون ساعة إلا وقد أنفر بالقصبة وضرب الطبل على المنارة ونودي الى ذلك الرباط • وخرج الناس بالسلاح والقوة واجتمع أحداث الرساتيق • ثم يكون الفداء : فرجل يشتري رجلا وآخر يطرح درهماً أو خاتماً حتى يشتري ما معهم • ورباطات هذه الكورة التي يقع بهن الفداء : غزة • ميماس • عسقلان • حوز ••• يافا ، أرسوف •••»[1] •

ب ـ المنارة والمناظر : وإذا كان النص الذي أورده المقدسي قد كشف معنى المنارة ودورها وعملها في الشواطىء فقد كان ثمة معها أيضاً في مناطق الجبال مايسمى بالمناظر (جمع منظرة) أو بالمرقب وهي المواقع في رؤوس الجبال يوضع فيه الرقباء لمراقبة العدو والاشراف على الطرق والدروب •

حـ ـ الضواحي وهي مناطق الحدود التي يتركها الطرفان المتحاربان خالية وينقلون السكان منها •

ء ـ المسالح وهي المواقع المحصنة التي يوضع فيها السلاح خاصة والرجال احتياطاً للطوارىء •

هـ ـ المطامير (ج • مطمورة) وهي كهوف أرضية في جنوب الاناضول ووسطه تحت الحصون أو قربها كان يلجأ إليها الناس من ويلات الحرب وقد اشتهر أمرها في العصر العباسي حتى سمي الاقليم بالمطامير أو ذات المطامير • وما تزال هذه الصفة واضحة في المنطقة إلى اليوم هذه الثغور والعواصم والأربطة والمنائر والمناظر والضواحي

---

(١) المقدسي ـ احسن التقاسيم ص ١٧٧ •

والمسالح كانت مناظر النظام الدفاعي العباسي وأدواته وتشكل فيما بينها نظاماً دفاعياً ـ هجومياً متكاملا تجري في إطاره عمليات الغزو والجهاد والدفاع .

العمليات الحربية : كانت جبهة الروم تسخن أو تبرد وتهدأ تبعاً للظروف المتقلبة في كل من العاصمتين : بغداد من جهة والقسطنطينية من الجهة الأخرى . ونستطيع أن نأخذ فكرة عن حركة المد والجزر الحربي المتمادية عليها من خلال الغزوات والعمليات الحربية التي حققها الخلفاء واحداً بعد الآخر . على أننا يجب أن نقرر أن الجهاد العباسي ضد الروم قد بلغ ذروته في هذه الفترة من العهدالعباسي ما بين خلافة المهدي وخلافة المعتصم . وإذا كانت فترة توطيد الدولة في عهد المنصور لم تشهد أعمالا حربية واسعة على الجبهة الرومية فإن دبيب الوهن قد دب في القوى العباسية في عهد كل من الواثق والمتوكل . وكانت آخر التألقات الجهادية على تلك الجبهة ، أعمال المعتصم .

آ ـ غزوات المهدي : يمكن لحد كبير القول إن المهدي هو الذي وضع لجبهة الروم ذلك التقليد في الغزو السنوي وفي الحملات الدورية الوقائية وإذا كان استقرار الدولة قد سمح له أن يتابع سنة أبيه في أيامه الأخيرة في الهجوم الوقائي على الروم فإنه هو أول من اتبع خطة التوفيق والتوازن ما بين تصعيد الحرب معهم الى الدرجة القصوى والمحافظة في الوقت نفسه على المواقع والحدود فلا يترتب على الغزوات احتلال لمواقع جديدة أو عمليات تؤدي لتطويق العاصمة أو إلغاء الوجود البيزنطي . وإذا كانت خطة المنصور في النصف الثاني من خلافته هي خطة الترقب والحذر والإجابة على الضربات الرومية بالدفاع والتحصين وبالهجوم في بعض الأحيان ولا سيما في السنوات الأخيرة ، فإن المهدي جعل من الغزو السنوي عملية جهاد تقليدية تدعم «مهدويته» وتؤكد

فقط تمسكه بركن من أركان الدين لا بد لإمام المسلمين وراعيهم من القيام به • وهكذا بينما تتكرر في حوليات المؤرخين أيام المنصور قولهم: «لم يكن للمسلمين صائفة هذا العام» أو «لم يدربوا (أي يدخلوا الدروب في جبال الروم)» أو «لم يكن غزو» نجد أنهم في زمن المهدي يكررون في السنوات العشر كلها (عدا سنتي الهدنة) كلمة غزا أو أغزي • ومع ذلك لم يترتب على هذا الغزو المتكرر اكثر مما ترتب على تربص المنصور المتكرر من نتائج • ولقد غزا المهدي كثيراً وقام بحملات حربية هامة جداً على الجبهة الرومية ولكنه في الوقت نفسه بنى وأحكم بناء معظم حصون الحدود والثغور مما يوحي بوضوح أنها كانت في نظره ، هي النهاية لا البداية •

وأوجد المهدي تقليدا جديدا آخر في الحرب مع الروم هي الخروج بنفسه إلى تلك الحرب • والبقاء على مقربة من الجبهة في أثنائها • لم يكن ذلك من التقاليد الأموية وإذا كان الروم يتبعونه باستمرار ويباشرون حروب العرب وغيرهم بأنفسهم فلأن معظمهم كانوا من القوادالعسكريين• أما العباسيون الجدد في الدولة فلم يقد الحروب منهم أبو العباس ولئن قادها أبو جعفر وهو ولي للعهد فإنه لم يقدها مباشرة وهو خليفة ولم يخرج خاصة لحرب الروم • والمهدي هو أول من فعل ذلك واتبعه من بعده ابنه الرشيد وحفيداه المأمون والمعتصم ثم الواثق ••• ثم أغلق الخلفاء العباسيون على أنفسهم أبواب القصور في بغداد وسامراء ••• الى أن دخل عليهم هولاكو تلك القصور[1] •

(١) باشر بعض الخلفاء في القرن السادس والسابع الهجريين بعض الحروب ولكن ضد خصومهم ولحفظ سلطانهم السياسي المحلي وليس ضد الروم ولا ضد الصليبيين .

وظهر في عهد المهدي تقليد ثالث هي إنفاذ «موالي» الخلفاء على قيادة الجيوش ضد الروم • وإذا استعمل المنصـور أول من استعمل مواليه ، في الحربِ والإدارة ، فقد كان لجبهة الروم مكانها الخاص ــ على ما يظهر ــ عنده فظل قوادها من العرب ، وأحياناً كثيرة من العباسيين وأما المهدي فأدخل عليها قيادات «الموالي» من مواليه أمثـال الحسن الوصيف والربيع بن يونس الحاجب •

مهد المهدي لأعماله العسكرية على جبهة الروم بعملية من التهديد ذكرها بعض مؤرخي الأرمن إذ أرسل الى الامبراطور البزنطي مكوكين من حب الخردل الأسود مع كتاب يقول فيه إنه سيرسل جيشاً بعدد هذا الحب الذي يراه[1] •

ثم كانت أولى غزوات المهدي ــ فيمـا يبـدو ــ عملية انتقامية لهجوم رومي أجاب عليه بهجومين اثنين • فقد أرسل جيشه سنة ١٥٩ ــ ٧٧٦ بقيادة صغير مولاه جواباً على حملة الامبراطور ليو الرابع الخزري ضد سميساط التي سبي فيها خلقـاً كثيراً • فاستنقذ صغير المسلمين وأرسل المهدي في الوقت نفسه صائفة أوغلت مقدمتهـا بقيادة مولاه الحسن الوصيف ومعه جماعة من قواد أهل خراسان ، حتى بلغت أنقره أما كتلة الجيش فسارت مع العباس بن محمد ففتحت مدينة للروم (في أقليم المطامير) ومطمورة أخرى وانصرفوا سالمين • وأما المهدي نفسه فقد كان معسكراً خلال ذلك في مكان يعرف بالبردان[1] بظاهر بغداد •

وقامت في سنوات ١٦٠ ــ ١٦١ الغـزوات التقليديـة ومشاريع

---

(١) انظر كتاب التاريخ العام لفاردان الأرمني (الترجمة الفرنسية بعنوان الحكم العربي في ارمينية ــ نشر مويلدرمانز ، باريس ١٩٢٧) ص ١١٠ •

(١) اليعقوبي ج٢ ص٤٠٢ والطبري ج٨ ص١١٦ (٣/٤٥٩) •

الغزوات التي لم تنفذ تولاها خاصة ثمامة بن الوليد العبسي • والذي غزا سنة ١٦٠ ثم خسر الصائفة في السنة التالية بسبب إهماله أمام هجمة من ٨٠ ألف مقاتل • فقد نزل دابق «وجاشت الروم وهـو مغتر فأتت طلائعه وعيونه بذلك فلم يحفل بما جاؤوا به وخرج الـى الروم وعليها ميخائيل (الامبراطور) بسرعان الناس فأصيب من المسلمين عدة ••وكان عيسى بن علي مرابطا بحصن مرعش يومئذ[1] • فحاصره الروم ويبدو أنهم خربوا منطقته ! وانسحب الروم حين وصلت النجـدات الاسلامية ولكن هذه النجدات دحرت حين تعقبتهم فلم تستطع استخلاص السبي الذي أخذوه وفي جملتـه الكثير من اليعاقبة النصـارى الذين جرى تهجيرهم عن الحدود إلى الأراضي البزنطية • كما يبدو في الوقت نفسه أن تحرك الأسطول العربي ، من الشام لاتمام غزو الروم • في السنتين المتواليتين سنة ١٦٠ و ١٦١ بقيادة الغمر بن العباس الخثعمي كما فعل المنصور من قبل في الغزوة البحرية سنة ١٥٧ لم تفد المسلمين شيئاً كثيرا فقد قام الروم في سنة ١٦٢ بتخريب «الحدث» وسورها في غارة جديدة •

ومن هنا تأتي أهمية الغزوات الانتقاميةالتي تمت سنة ١٦٢ ـ٧٧٩ فقد تحركت على محورين : محور ارمينية الشمالي مشت عليـه حملة يقودها يزيد بن أسيد السلمي إلـى باب قاليقلا (تيودوسبوليس) فغنم وفتح ثلاثة حصون وأصاب سبياً كثيراً وأسرى •••

ومحور الحدث ـ أدرولية اتجه عليه الحسن بن قحطبة في ثلاثين ألف مرتزق من أهل خراسان والموصل والشام وأمداد اليمن عدا المطوعة

(١) انظر الطبري ج٨ صفحات ١٢٩ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٤٢ وانظر اليعقوبي ايضا ج٢ ص ٤٠٢ والبلاذري ـ فتوح البلدان ص ٢٠٠

من العراق والحجاز فأكثر التخريب والتحريق في بلاد الروم من غير أن يفتح حصناً أو يلقى جماعة • حتى بلغ العين المعدنية الحارة (الحمة) في أدرولية واستحم بها (ويقال إنه وصل الحمة لوضح كان بـنـه) ثم قفل بالناس سالمين وقد ثقلت وطأة هذه الحملة على الروم لمـا نجم عنها من الدمار حتى أعطوا الحسن لقب «التنين» وحتى ــ كما قال الطبري ــ صوروه في كنائسهم ليعرفه الناس ••• أما أهم ما جرى بالنسبة للجبهة الاسلامية فهو أن الحسن اقترح على المهدي ضرورة بناء ثغري الحدث وطرسوس • وقد بنى الثغر الأول سنة ١٧٥ وتأخر بنـاء الثاني الى سنة ١٧١ ــ ٧٨٥ في عهد الرشيد على يد فرج بن سليم الخادم •

وتهيأ المهدي للغزو في السنة التالية سنة ١٦٣ــ٧٨٠ • لم يخرج له ابنه الفتى هارون فقط ولكن خرج هو بنفسه أيضاً إليه مع عدد من أهل بيته عن طريق الموصل ، «وقطع (أي فرض) البعـوث على جميع الأجناد من أهل خراسان وغيرهم» • وعسكر المهـدي بالبردان نحو شهرين ثم أرسل ابنه ، هارون في الجيش ومعه يحيى البرمكي والربيع ابن يونس بعد أن شيعه مسافة بعيدة حتى قطع الدروب الى الروم وارتاد موقع (الحدث) التي سوف تبنى باسم المهدية أو المحمديـة وأتم جيش هارون الطريق الى بلدة البستان (آرابيسوس) ثم إلى قلعـة «سمالو» التي سقطت بعد حصار ثمان وثلاثين ليلة وضرب بالمجانيق وعطش وجوع أصاب من فيها وقتل وجراحات كانت في المسلمين • واشترط أهلها عند التسليم ألا يقتلوا ولا يرحلوا ولا يفرق بينهم فأعطوا ذلك • ووفى لهم هارون بما عاهد إلا الترحيل فقد رحلوا الى بغداد نفسها وأنزلوا هناك في حي خاص بهم على باب الشماسية ! وبيع من فضل البقاء في المدينة مع الأسرى •••

وقد حاول الروم الإجابة على غزوة هارون بالنفوذ الى الثغور عند موقع طرسوس ثم اضطروا للتراجع في انتظار غزوة أخرى قادها في اتجاه الحدث سنة ١٦٤ ميخائيل البطريق ــ فيما ذكر ــ في نحـــو من تسعين ألفاً . فيهم طازاذ الأرمني البطريق ... وكانت الحدث في تلك الأثناء قيد البناء والتحول الى ثغر حربي ولم يجرؤ قائـــد الصائفة تلك السنة وهو عبد الكبير بن عبد الحميد (من ولد زيـــد بن الخطاب) ان يأمر بالقتال أمام ضخامة الجيش الرومي وتذكر المصادر البزنطية أنـــه هزم بسرعة فبلغ الغضب من المهدي الدرجة التي كاد يأمر معها بقتله ثم اكتفى بحبسه في المطبق[1] وتأهب لحملة كبرى انتقامية سنة ١٦٥ــ٧٨٢ كانت أهم الحملات التي تمت في عهده .

وبينما كانت اعمال بناء (الحدث) تتم وتسمى بالمهدية ويعظم كما قال اليعقوبي ارتفاق أهل الثغور بها وبمن نزلها من الجند ، جمع المهدي لهذه الحملة قرابة مائة الف جندي وحمل لها من المال حوالي المائتي ألف دينار ومن الورق (أي الفضة) ٢٢ مليوناً تقريباً . وحشد لهـــا من كبار القواد عدداً على رأسهم يزيد بن مزيد الشيباني ، وضم إليـــه الربيع بن يونس[2] .. ومشت الحملة في أواخر جمادى الآخرة سنة ١٦٥ (أواخر شباط ســـنة ٧٨٢) فأوغلت في بلاد الروم على شكل سهـــم من مناطق البستان وقيسارية الى مناطق انقرة ثم إلى نيقوميديا ، الولاية المشرفة على البوسفور وبحر مرمرة ، فوقفت عند بلدة خرسوبوليس (اسكدار) والطريق الى القسطنطينية مفتوح ...

---

(١) الطبري ج٨ ص ١٤٤ــ١٤٦ (٣/٤٩٤ــ٤٩٦) .

(٢) الطبري ج٨ ص ١٥٢ــ١٥٣ (٣/٥٠٣ــ٥٠٥) .

افتتح الجيش الاسلامي على الطريق حصناً هو حصن ماجدةولقيته فرق الفرسان البزنطية بقيادة (نقيطا ـ نيكيتـاس) قومس القوامسة فسقط مثخناً بالجراح أمام يزيد الشيباني ، ثم هزم الدمستق ، صاحب المسالح في الولاية المتصلة بالعاصمة فلم يكن أمام الروم سوى الصلح كان على العرش الامبراطوري يومذاك الامبراطورة ايرين (أوغسطةامرأة اليون) وصية على ابنها قسطنطين السادس (٧٨٠ ـ ٧٩٧) وهذه أول مرةمنذ خمسين سنة[1] يصل فيها الجيش الاسلامي مشارف القسطنطينية ويهددها فجرت بينهـا وبين هارون الرسـل والسفراء في طلب الصلح والموادعة وإعطاء الفدية . فعرض الجيش الاسلامي شروطه :

ـ تسعون أو سبعون ألف دينار من الجزية السنوية « تؤدى في نيسان الأول وحزيران من كل سنة » .

ـ تسليم مالدى الروم من أسرى المسلمين جميعاً .

ـ تمتد الهدنة ثلاث سنوات .

ـ تقيم بيزنطة الاسواق على طريق عودة الجيش الاسلاميوتقدم له الأدلاء «وذلك أنه دخل مدخلا صعباً مخوفاً على المسلمين» .

ويتلمس المؤرخون الغربيون الأعذار لبيزنطة في هذا الصلح المذل فيذكرون تارة أنها كانت مشغولة في تلك السنة بثورة في جزيرة صقلية وتارة أن بعض قواد الروم (تاتزيت) قد انحاز للمسلمينكيداً بالامبراطورة وحزبها وتارة ثالثة أن النزاع العقائدي بين أنصار الأيقونات وأخصامهم كان قد مزق بيزنطة ... على أنه ما كان لمثل هذه الأمور التي كانتدوماً موجودة في بيزنطة أن تفعل شيئاً لولا قوة الجيش الاسلامي نفسهوقادته

(١) كان آخر هجوم اسلامي وصل هذه المنطقة في عهد سليمان بن عبد الملك (سنة ٩٦ـ٩٩/٧١٥ـ٧١٧) .

وكان حصاد تلك الموقعة بالنسبة إليهم حسب قائمـة الطبري : ٥٦٤٣ أسيراً قتل منهم ألفان ونيفاً و ٢٠ ألف دابة بأدواتها وذبح ١٠ آلاف رأس من البقر والغنم •• أما الغنائم فقد بلغت من الكثرة أن بيـع البرذون بدرهم والبغل بأقل من عشرة دراهم والدرع بدرهم و٢٠ سيفاً بدرهم !! مع أن عدد المرتزقة سوى المطوعة وأهل الأسواق مائة ألف[1] •

ولم يكن بإمكان الجيش العباسي أن يتقدم لحصار القسطنطينية وفتحها بعد ذلك لأنه لم يكن يملك القوة البحرية التي لابد منها لحصار تلك المدينة ولأن الجند العباسي كان ، في هذه الغارة البعيدة الخطوط قد أنهك كما كان مهدداً كل التهديد بأن تقطع عليـه طرق العودة وأن تنصب فيها الكمائن والهجمات الجانبية اثناء الانسحاب •

ولقد يكون الصراع الحزبي في البلاط مابين جماعة الرشيد وجماعة الهادي ولدي الخليفة ، قـد لعب بعض الدور في المبالغة بهـذا النصر وتضخيم أثره وغنائمه ولكن التواريخ البيزنطية بدورها لم تستطع أن تنقص من ذلك الأثر أو تنكر بعض الوقائع الأساسية فيه ومنها ـ وهو أهمها ـ وصول الجيش الى كريسو بوليس ـ على أنـه ما من شك بالمقابل في أن حزب الرشيد قد استغل أحسن الاستغلال هذا النصر أو لعله تعمد أن يكون النصر على هذا النحو من العمل الحربي الاستعراضي المليء بالمغامرة لكي يستغله فيما بعد في معركة الحصول على ولاية العهد لهارون • وقد نجح في ذلك وإذا نال المحاربون غنائمهم ونالت الدولة العباسية المجد والجزية التي وصلت مع المحاربين ورسل الروم في مطلع

---

(١) راجع تفاصيل الحملة لدى الطبري ج٨ ص١٥٢ـ١٥٣ ثم ص١٥٤ (٣/٥٠٤ـ٥٠٦) •

سنة ١٦٦ فإن هارون قد نال من تلك الحملة ولاية العهـد الثانية ولقب الرشيد سنة ١٦٦ . وتبارى الشعراء في المديح والاشادة والغناء .

ولم تهدأ الجبهة ثلاث سنوات[1] لأن الروم نقضوا الهدنة قبل أربعة أشهر من انقضائها سنة ١٦٨ ولعلها إنما كانت مناوشة على الحدود أجاب عليها والي الجزيرة علي بن سليمان بإرسال بعض قواده : يزيد بن بدو البطال في سرية الى الروم فغنموا وظفروا ...

ولم يطل عهد الهادي لكي يشهد اكثر من حملة واحدة سنة ١٦٩ إذ «أقبلت الروم مع بطريقها الى الحدث فهرب الوالي والجنـد وأهل الأسواق فدخلها العدو ...» ناهباً مدمراً . وقد أجاب معيوفه بن يحيى الحجوري قائد الثغور على ذلك بدخول أرض الروم حتى مدينة أشنة والسبي والنهب فيها ...

ب ـ **غزوات الرشيد** :بالرغم من أن «جهاد» الرشيد على جبهة الروم يعتبر أحد الدعائم التي تعطي سمعته الألق وتمنح عصره البهاء ، فإن هذا «الجهاد» لم يظهر بصورة واضحة إلا في السنوات الست الأخيرة من حكمه ، بعد النكبة البرمكية بحيث يمكن أن نقسم علاقاته مع الروم إلى فترتين :

١ ـ فترة الهدوء النسبي الذي امتد مابين (١٧٠ ـ ١٨٠ هـ) ـ

---

(١) يذكر اليعقوبي (ج٢ ص٤٠٢) غزوات قام بها تمامة بن الوليد سنة ١٦٦ والفضل بن صالح سنة ١٦٧ ومحمد بن ابراهيم سنة ١٦٨ ولعلهم إنما سموا للقيادات في الثغور في تلك السنين احتياطاً للطوارىء وخوفاً من نقض الهدنة ولكنهم لم يباشروا الحرب .

(٧٨٦ ـ ٨٠٣م) ولم تحدث فيه سوى غزوتين هامتين •

٢ ـ فترة الصدام الحربي الذي استمر منذ (١٨٧هـ ـ٨٠٣م)حتى ما بعد عهد الرشيد وليس معنى هذا التقسيم أن الحرب انقطعت في السنوات السبع عشرة الاولى من عهد الرشيد • انها كانت مستمرة ولكنها كانت محلية الأثر والحدود ، تعتمد على المناوشة لا الفتح ، والسمعة التي نالها الرشيد في أواخر عهده انسحبت على جميع أيامه ، والمؤرخون يرددون أنه كان يغزو سنة ويحج سنة • وبصرف النظر عن هذه الكلمة التي أريد بها الدعاية لتقاه ولقيامه بالفرائض الدينية ، فإن تتبع أعمال الرشيد ، حتى في أيام حربه ولحظات انتصاره ، لاتبين أنه أضاف خطاً جديداً الى سياسة أبيه وجده من قبل ، تجاه الروم وهي سياسة الدفاع عن الحدود ، وتحصينها والانتقام لكل عدوان عليها ! والقيام بالغزوات الوقائية بين فترة وأخرى • وهكذا فإنا لانكاد نعثر على هدف لتلك الحروب سوى تأكيد قوة الدولة الاسلامية •

وبالرغم من أن الغزو لم ينقطع فلم يكن «الفتح» واستصفاءمملكة الروم ضمن الخطة العباسية ، ولم ينجم عن الغزوات أي تغيير يذكر في الحدود أو في موقف الطرفين • كما لم تعد على الرشيد بأي ربح مادي لأنها كانت تكبد الدولة الاسلامية ، كما تكبد البيزنطيين ، الكثير من الخسائر في الجند والمال • ولعل مما يثبت هدفها الوقائي أن القيادة العباسية لم تفكر في استغلال الظروف الحرجة التي مرت بها دولةبيزنطة، في تلك الفترة ، وحين كان الجيش العباسي ينتصر بل ويدق أبواب القسطنطينية كان يكتفي بأخذ الجزية ، ثم كان يعود ليبني بأمر الرشيد «الثغور» ويحصن «العواصم» ، أي يثبت بأيديه الحدود القديمة •

أ ـ وفي الفترة الهادئة الاولى من أيام الرشيد عني الخليفة :

أولا : بتنظيم الحدود مع الروم وتحصينها • فمنذ تولى الخلافة سنة ١٧٠ فصل الثغور الشامية عن الثغور الجزرية الى منطقتين عسكريتين مميزتين وسمى الشامية منها بالعواصم • وجعل عاصمتها منبج • وبذل الجهد في تعزيز العواصم وإعمارها وخاصةمنها (طرسوس) التي ظلت منذ عهد المنصور ميدان الحرب والتي يمر منها أحد الطريقين المؤديين من الأناضول الى سورية • وواضح من هذا أن الرشيد كان يقصد الى ايجاد وحدة عسكرية قوية تضمن الدفاع عن الحدود فلا تكلفه عناء التفكير الدائم بالجبهةالرومية او باتخاذ تدابير الغزووالإرغام عليها •

ثانيا : بايجاد قوة بحرية • فالبلاذري[1] يذكر أن هارون «•• اقام من الصناعة ما لم يقم قبله وقسم الأموال في الثغور والسواحل» ويظهر من الأعمال البحرية التي ظهرت في خلافته ، ومن تفكيره بفتح قناة السويس التي ثناه عنها جعفر البرمكي قائلا له : « أتريد أن يتخطف الروم الحجاج عن عرفات» يظهر أن الرشيد بذل ، دون غيره من خلفاء بني العباس جهداً بحرياً محدودا للاستفادة من إشراف الدولة العباسية على البحرين التجاريين الوحيدين إذ ذاك المتوسط والهندي ولكن لم يستطع الرشيد أن يصل في أسطوله البحري إلى الدرجة التي تجعله يتوازى مع قواته البرية • فظل الجيش العباسي قوة برية فقط • ولعل الرشيد كان

---

(١) البلاذري ـ فتوح البلدان ص ١٩٣ (طبعة المنجد) .

من جانبه أيضاً لا يؤمن بنجاح هذه المحاولة في تحويل الدولة العباسية الى دولة بحرية ، فكانت كلمة واحدة من جعفر كافية لاثارة مخاوفه على حجاج عرفات من قراصنة الروم !

ثالثا : بالمحافظة على «استمرارية» الحملات الدورية على جبهة الروم سنة بعد سنة ولكن دون تغير في المواقع • وإنا لنرى من القواد في الثغور عدداً قاموا بالغزوات الصائفة الدورية بين سنتي ١٧٠ ــ ١٨٦/٧٨٦ ــ ٨٠٢ ــ ولقد تختلف قائمة أسمائهم لدى الطبري وابن الأثير عنها لدى اليعقوبي[١] • ومنهم سليمان بن عبد الله البكائي ، واسحق بن سليمان بن علي ، ومحمد بن ابراهيم ، وعبد الملك بن صالح العباسي وابناه عبد الرحمن والفضل ، وعبد الرزاق بن عبد الحميد التغلبي ، ومعاوية بن زفر بن عاصم ••• ومنهم من ورث القيادة عنه ابنه ومنهم من قد وصل في بعض الغزاة الى انقرة أو أفسوس كعبد الملك ابن صالح سنة ١٨١ و ١٨٢ أو فتح بعض الحصون وكان آخر القواد في هذه الفترة القاسم بن الرشيد الذي أعطاه أبوه ولاية العهد الثالثةولقبه بالمؤتمن وولاه الجزيرة والثغور والعواصم وأشخصه الى منبج فأنزله إياها بما انضم إليه من القواد والجند وأغزاه الصائفة في العام التالي سنة ١٨٧ و«وهبه ــ على قول الطبري ــ لله وجعله قرباناً له ووسيلة» وكان ذلك بعد أشهر فقط من نكبة البرامكة •

رابعاً : بالتفوق العسكري العربي في البر وبدفع الروم للجزية السنوية • ويعزو الباحثون الضعف البزنطي إذ ذاك الى الصراع الداخلي

---

(١) انظر اليعقوبي ج٢ ص ٣٤١ والطبري وابن الأثير في خواتيم السنوات المذكورة .

حول الحركة اللاأيقونية وينسون العامل الايجابي المتعلق باستقرار وقوة الجيش العباسي • وقد «اضطر حكام القسطنطينية ــ حكامها جميعا بلا استثناء تقريبا ــ أن يؤدوا في تلك المدة (ومنذ أيام المهدي) قدراً كبيراً من الذهب جزية لخلفاء بغداد فمثلا نرى قسطنطين الخامس من أقدر حكام البيت الايسوري مضطرا عام ٧٧٢ الى دفع مبلغ ضخم تأميناً لحدوده الشرقية وكان اشتغاله باللاأيقونية والبلغاروالفرنجة بايطالياحائلا دون التفرغ لتركيز قوته في الشرق ثم تجددت هذه الجزيات زمن ايرين سنة ٧٨١ حين تحرك الجيش الاسلامي عبر الأناضول إلى البوسفور وشاهد عام سنة ٧٩٨ تدفق الذهب من جديد نحو بغداد بعد أن بلغت جيوش المسلمين مدينة أفسوس كذلك أجبر نقفور خليفة ايرين على دفع الجزية بعد عام ٨٠٦ حين بلغت جيوش هارون الرشيد الكبيرةالعدد مدينة هرقلة الواقعة قبالة القسطنطينية ••»[١] •

ولعل أبرز أعمال الرشيد الحربية في هذه الفترة الهادئة الأولى هي :

انتقامه سنة ١٧٤ هـ سنة ٧٩٠ م من الروم الذين أسروا بعض الجند العباسي المسافر في البحر من مصر إلى سورية فتحرك أسطول عربي من مصر الى قبرص ومنها الى سواحل آسيا الصغرى الجنوبية والتقى في خليج (آضاليا) مع اسطول الروم فهزمه وأسر أمير البحر البيزنطي •

ويلفت النظر خبر غزوة شاتية قام بها سليمان بن راشد سنة ١٧٨

---

(١) ارشيبالدلويس ــ القوى البحرية ص١٧١ــ١٧٢ على انهرقلة واقعة في اقليم المطامير من قبادوكيا وليس قبالة القسطنطينة .

وكان يرافقه البيد بطريق صقلية[1] مما يوحي بأن ثورة الصقليين على بيزنطة قد أدت الى وصول بطريقهم الى بغداد والى اشتراكه في بعض الحملات ضد الروم •

وبالرغم من أن فداء للأسرى بين (العرب والروم) قد تم سنة ١٨١هـ ٧٩٧م بجانب البحر على نهر اللامس قرب طرسوس وقد تولاه القاسم ابن الرشيد فافتدى من المسلمين ٣٧٠٠ أسير[2] في مهرجان كبير ففي هذه السنة نفسها غزا الرشيد بيزنطة بنفسه • فسار الامبراطور قسطنطين السادس إلى لقائه ولكن أم الامبراطور (ايريني) التي كانت تطمع بالعرش ، خافت أن ينتصر ابنها على المسلمين فيقوى مركزه • فتآمرت عليه مع قائدها (استوراكيوس) الذي أشاع ان العباسيين قد تراجعوا فعاد قسطنطين الى العاصمة • وبينما كانت أمه تخلعه وتسمل عينيه وتتوج نفسها بدلا منه ، كان الرشيد يوغل في الأناضول ويفتح حصن الصفصاف عنوة سنة ١٨١[3] ، ويصل قائده عبد الملك بن صالح حتى أنقرة ويفتتح (مطمورة)[4] ويرفض طلب (ايرين) للصلح فتستمر الحرب سنتين حتى إذا هاجم الخزر أرمينيا سنة ١٨٤ قبلت الجزية من ايريني مقابل المهادنة !

ب ــ الفترة الساخنة : على أن الانقلاب الذي قام به القائد نقفور

(١) الطبري ج٨ ص ٢٦٠ (٣/٦٣٧) والبيد هذا هو إلبيديوس الذي ثار على بيزنطة ثم فر من صقلية الى العرب حيث لقي من الترحيب ما لا يلقاه امبراطور روماني .

(٢) ابن الأثير ٦ ص ١٥٩ .

(٣) وقد قال شاعر الرشيد مروان بن أبي حفصة في ذلك (الطبري ج٨ ص ٢٦٨) :

أن أمير المؤمنين المصطفى ... قد ترك الصفصاف قاعا صفصفا

(٤) الطبري ج٨ ص٢٦٨ (٣/٦٤٦) .

في القسطنطينية ضد ايريني سنة ١٨٧هـ ٨٠٣ م ، جر الـى انقلاب في العلاقات الهادئة مع العباسيين وبوصوله الى العرش بدأت الفترةالساخنة على الحدود العربية • وأصاب العمليات الحربيـة تصعيد خطير مهدد للطرفين • فنقفور كان محاربا عنيداً وبعض المصادر الرومية تروي أنه عربي الأصل من آل جفنة الغساسنة ، كما وصف من قبل بعض مؤرخي الروم بأنه ذو عقلية عربية •

وقد اتفق أن رافق هذا التطور على الجانب البزنطي تطور آخر يقابله على الجانب العربي ، وهو تطور كان يمس الرشيد نفسه وسمعته ونظامه • ذلك أنه نكب البرامكة في تلك السنة سنة ١٨٧ • وقد نجم عن تلك النكبة نوع من الهزة في الجهاز الاداري للدولـة وفي صدور الناس • وكان الجهاد ضد الروم احد السبل التي بدا للرشيد أنه يستطيع أن يثبت فيها اختلافه في السياسة والادارة وفي القيام بواجب الدين والمسلمين عن البرامكة وهكذا كان التصعيد الحربي على الجبهة العربية الرومية انعكاسا للأحداث الداخلية التي جرت في كل من العاصمتين في وقت واحد تقريباً •

وكما أن الانقلاب الرومي كان أسبق في الزمن من نكبة البرامكة التي جاءت بعده بشهرين تقريباً (تشرين الثاني سنة ٨٠٢ الى كانون الثاني سنة ٨٠٣) فإن الروم هم الذين بدأوا بدورهم النقض والتصعيد •

بدأت الأحداث حين نقض نقفور ماكانت الامبراطورة المخلوعة قد اعتادت دفعه من الجزية السنوية للعباسيين ، وذلك بغية كسب الصيت والسمعة لانقلابه • ولكن الثورة الداخليـة التي قامت ضـده (ثورة باردانس) منعته من أن يقف للفرقة العباسية التي تحركت لإرغامه والتي

عين لقيادتها تلك السنة القاسم بن الرشيد ، كأمير للعواصم ، فحاصر الجيش العباسي حصن قره (كوروم) وبعض الحصون الاخرى واتجه من قلقيلة الى هرقلة لكن قلة الزاد والمؤونة جعلته يرضى بالتراجع مقابل اطلاق سراح ٣٢٠ أسيراً مسلماً والتعهد من الروم بدفع الجزية السنوية المعتادة .

على أن نقفور ، تخلص من الثورة بسرعة ، وأبلغ الرشيد ، قطع الجزية في رسالة يذكر المؤرخون أنها جاءت بهذا النص[(١)] :

«من نقفور ملك الروم الى هارون ملك العرب

«أما بعد فان الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ واقامت نفسها مقام البيدق فجعلت اليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها لكنه ضعف النساء وحمقهن . فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها ، وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك . وإلا فالسيف بيننا وبينك» .

ويقال إن الرشيد حين تلا الكتاب غضب أشد الغضب ودعا بدواة فكتب على ظهر الرسالة :

«بسم الله الرحمن الرحيم من هارون أمير المؤمنين الى نقفور كلب الروم . قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ماتراه دون أن تسمعه والسلام» .

ونص الكتابين لايرد في المصادر الرومية . وأولهما خليق أن يكون من إنشاء بعض كتاب العباسيين بما فيه من قوة السبك كما أن من

---

(١) الطبري ج٨ ص٣٠٧–٣٠٨ (٣/٦٩٥–٩٦٩) .

المستبعد أن يتنزل الرشيد إلى درك الشتيمة ، حتى في أوج الغضب ، لا سيما وهو يخاطب امبراطوراً لدولة مجاورة • وليس ببعيد أن يكون الكتاب والجواب قد سجلا بمعانيهما لا بنصوصهما الأصلية وعلى أي حال فهذه الحادثة كانت نقطة انقلاب الرشيد من دور المهادنة للروم إلى دور الصدام الحربي الذي استمر منذ سنة ١٨٧ هـ حتى نهاية عهده • وكان المحرض الرئيسي فيه وجود نقفور على عرش بيزنطة ونقضه مرة بعد مرة حدود الصلح مع العباسيين •

وقد تقدم الرشيد في ربيع الثاني سنة ١٨٨ (نيسان ٨٠٤م) إلى هرقلة واحتلت بعض فرقه عدة حصون كما أخذت مقدمته أنقرة • وهزم نقفور حين حاول أن يصده وجرح ثلاث جراحات في المعارك وانهزم تاركاً في الميادين اكثر من أربعين ألف قتيل • وكان بين ما غنمه المحاربون المسلمون أربعة آلاف دابة[١] •••

ويظهر أن الرشيد تأخر في الغزو طول الصيف فقبل مهادنة نقفور على الجزية وألا يبني الروم الحصون المهدومة • ومقدار الجزية دينار عن كل ذي حلم من الروم سوى نقفور وابنه •

على أن الرشيد ماكاد يرجع حتى استغل نقفور فترة الشتاء فنقض الهدنة أول نقض له واضطر الخليفة لأن يعود فيقمعه • ويتفق معه في هذه المرة ، على تبادل الأسرى «فلم يبق بأرض الروم – على قول الطبري – مسلم إلا فودي به[١]» ولعل ذلك كان أواخر سنة ١٨٨ • وفي سنة ١٨٩ هـ (سنة ٨٠٥ م) لم يجرؤ أحد من حاشية الرشيد

---

(١) الطبري ج٨ ص٣١٣ (٣/٧٠١) .

ان يبلغه أن نقفور استغل ما على أيـدي الخليفـة من شؤون ايران ومشاكلها لينقض الصلح وشروطه ، مرة ثانية • حتى وقف شاعر ينشد الرشيد :

نقض الذي عاهدتـه نقفور
وعليه دائـرة البـوار تدور
أبشر أمير المؤمنـين فإنـه
نصر أتـاك بـه الإله كبير !

وعرف أمير المؤمنين أن نقفور يبني الحصون في أنقرةوالصفصاف ودبسة وأنه أرسل جيشاً هاجم طرطوس ، وخرب (عين زربـة) وكنيسة السوداء وأسر الكثير ولكن حامية المصيصة هاجمت الجيش البيزنطي واستردت معظم الأسرى والاسلاب •

وثارت حفيظة الرشيد فسار في رجب سنة ١٩٠ هـ (حزيران٨٠٦م) بجيش ضخم يقدره الطبري «بمائة وخمسة وثلاثين ألف مرتزق سوى الأتباع وسوى المتطوعة وسوى من لاديوان له •••» وقد اشتركت في الجيش فرق من مختلف انحاء الامبراطورية العباسية • ويمكن أن نعتبر هذه الحملة أوسع حملات الرشيد ضد بيزنطة وان لم تكن أعظمها فتحاً وذكراً • ولعل الرشيد قصد الى العمل الدعائي حين اتخذ لنفسه ، في تلك الحملة قلنسوة كان يلبسها وقد كتب عليها : غاز حاج !

عبر الجيش الحدود في ١١ حزيران سنة ٨٠٦ فاحتل بعد شهر من الحصار حصن هرقلة وسباها وأخربهـا وانتشر في منطقـة (المطامير) الأناضولية يفتح حصون (الصقالبة ، دبسة ، الصفصاف ، مقلوبية ،

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٣٢٠ (٧٠٩/٣) •

سنان ، صملة ، ذي الكلاع ») وبينما كان داوود بن عيسى يطوف سائحاً في أرض الروم للتخريب مع سبعين ألفاً كان شراحيل بن معن بن زائدة ويزيد بن مخلد يفتحان الحصون بعضها وراء بعض وكان الغزو البحري في الوقت نفسه يقوم بدوره • ولم يستطع نقفور أن يصنع شيئا لرد غزوة الرشيد لأن البلغار كانوا يهددون على الطرف الآخر من بيزنطة العاصمة نفسها • فأرسل يطلب الصلح • وقبل الخليفة أن يرجع عنه مقابل ثلاثمائة ألف دينار • وأن يدفع جزية شخصية عنه قدرها أربعة دنانير سنوياً وعن ابنه ديناران كما يدفع أهل الذمة في المملكة الاسلامية • يريد الرشيد بذلك أن يأخذ عليه الاعتراف بأنه داخل في ذمة الخليفة • واشترط الرشيد الى ذلك أن لا يبني حصناً على الحدود وأن يبني بعض الحصون (صملة ، سنان ذي الكلاع) ليسلمها سالمة إلى جند الخلافة[1]•

لم يكن الرشيد خلال ذلك بغافل عن خطر الروم في البحر وعن أثر الضغط البحري عليهم ولهذا فانه في الوقت الذي أرسل فيه سنة ١٨٩ منشورا إلى ثابت بن نصر الخزاعي أمير الثغور الشامية وباقي عمال الشام باطلاق التنبيه في البلاد بالرحيل الى لبنان وبلاد الساحل لتشتد قوة أمرائه نراه ولى (حميد بن معيوف) سواحل البحر المتوسط، أي سواحل الشام ومصر • فغزا بالاسطول الذي جمعه بثغورها جزيرة قبرص سنة ٨٠٦ غزوة مدمرة سبى بها ستة عشر ألفاً بينهم أسقف الجزيرة وقدم بهم (الرافقة) على الفرات ولكنهم أعيدوا إلى ديارهم

---

(١)يروي الطبري أن نقفور أرسل عقب الصلح يطلب افتداء خطيبة ابنه التي أسرت في هرقلة . ويورد نص كتابه . واستجابة هارون لطلبه وتسيير الفتاة مع هدايا الطيب والديباج . . . (الطبري ج ٨ ص ٣٢١) .

(٢) محمد كرد علي ــ خطط الشام ج ١ ص ٦٨

في صلح سنة ٨٠٧ وطلب الرشيد إلى اتباعه الاغالبة في تونس أن يقودوا حملة بحرية تخريبية وصلت الى جزر البلوبونيز (اليونان) وخربت عددا من الموانيء والشواطيء ٠٠٠

ولم تقف المعركة بعد ذلك فقد غزا حميد في السنة التالية جزيرة رودوس كما غزا قبرص التي نقضت العهد ٠ بينما تجددت الحرب على الحدود البرية بنقض جديد من نقفور لم يستطع الرشيد قمعه بالشدة الأولى لما كان على يديه من ثورة خراسان فبقيت حالة الحرب قائمة ولكنها مقصورة على المناوشات الموضعية دون كبير جدوى أو نجاح٠ وقد حاول الرشيد في هذه الفترة تنظيمها بشكل دفاعي ٠

وبعد أن غزا يزيد مخلد الهبيري أرض الروم سنة ١٩١ من عشرة آلاف فأخذت الروم عليه المضيق (في كمين) فقتلوه على مرحلتين من طرسوس في خمسين رجلا وسلم الباقون ٠ مضى الرشيد بنفسه الى درب الحدث وعهد الى هرثمة بن آلمين بغزو الصائفة تلك السنة وضم اليه ثلاثين ألفا من جند خراسان ومعه مسرور الخادم للنفقات ولجميع الأمور خلا القيادة ، وعين قائدا للحدث (عبدالله بن مالك) وآخر لمرعش (سعيد بن سلم بن قتيبة الباهلي) وثالثا لطرسوس (محمد بن يزيد بن مزيد الشيباني) ٠ لكنه قبل أن يعود الى الرقة عرف أن الروم أغاروا على مرعش وأصابوا من المسلمين !

ويبدو أن هذه الأحداث الحربية مع البيزنطيين هي التي دفعت الرشيد إلى أن يأمر في تلك الأيام بهد م الكنائس في الثغور وبأن يكتب الى السندي بن شاهن صاحب شرطته في مدينة السلام يأمره بأخذ أهل الذمة فيها بمخالفة هيئة المسلمين في اللباس والركوب ٠٠

وتخمد الجبهة سنة ١٩٢ إلا من غزوة فتحت فيها بعض المطامير

ومن جسر الفداء الذي جرى في البدندون. ثم يغيب شبح كل من الرشيد ونقفور معاً في وقتين متقاربين سنة ١٩٣ ــ سنة ١٩٥ يموت الاول في طوس في طريقه إلى خراسان لحرب رافع بن الليث الثائر عليه، بينما يقتل نقفور على الجبهة الاخرى الغربية مع البلغار مع ابنه ويشرب ملكهم الخمر في قحف جمجمته دون أن يستطيع الاستفادة طويلا من هدوء الجبهة العربية ــ الرومية ولم يكن ذلك بسبب القتال الاخوي بين الامين والمأمون فقط ولا بسبب الثورات التي قامت في مناطق المواجهة العربية البيزنطية وغيرها ولكن أيضا بسبب الاضطراب الداخلي الذي غرقت فيه بيزنطة نفسها أيضا والثورات في أرضها المتاخمة للعرب وتقلب الاباطرة السريع عليها مدة تزيد على عشر سنوات حتى استقر بعد سنة ٨٢٠ (٢٠٥ هـ) على العرش الامبراطور ميخائيل الثاني الأمي (٨٢٠ ــ ٨٢٧) مؤسس الأسرة العمودية .

جـ ــ غزوات المأمون : قضى هذا الخليفة معظم سني حكمه دون اتصال دامٍ مع البيزنطيين . فقد كان بينه وبينهم دوماً (عازل) من الثوار : نصر بن شبث ثم القائد عمرو، (الذي يسميه الروم ــ فيما يرجح فازيلييف ــ تيوفوب) في الجبهة الشامية . وبابك الخرمي في جبهة أرمينية . هذا إلى أن الخليفة كان أول الأمر بعيدا عن بغداد، في خراسان أي بعيدا عن الخطر البيزنطي المباشر . وأن الروم كانوا، في تلك الفترة، مشغولين بما عليهم من البلغار في البلقان ومن المسلمين الأغالبة في صقلية .

بدأ اهتمام المأمون بجبهة الروم والأناضول ــ فيما يبدو ــ حوالي سنة ٢٠٥ أو قبلها بقليل حين برز على تلك الجبهة قائد بيزنطي طموح هو توماس الصقلبي . فان هذا القائد ثار على ميخائيل الثاني الذي تسلم العرش الامبراطوري تلك السنة ويبدو أنه أراد أن يحمي ظهره

من هجوم عربي عليه إذا هو مشى الى القسطنطينية فاستعرض عضلاتـه في هجوم قوي عنيف على ثغور الشام لم تعبر مثله قوة رومية جبـال طوروس منذ أضحى الشام أقليما عربيا ــ على حد قول المؤرخ بيوري ــ وقد حقق هذا الهجوم أغراضه اذ أرسل المأمون وفدا من قبله التقـى بتوماس وخرج من اللقاء باتفاق يعتقد المؤرخون البزنطيون والباحثـون أنه وقع بين المأمون وبين توماس جوابا على تفاهم الروم مع بابك الخزمي وان كانت المصادر العربية لاتذكر شيئا من ذلك .. وهدأت الجبهة سنوات حتى انهارت ثورة توماس سنة ٨٢٢ ثم قتل في السنة التـالية ثم بدأ الهجوم الرومي سنة ٨٢٥ (٢١٠ هـ) بتدمير زبطرة وقبل ان تتحرك الجيوش الاسلامية للرد جاء وفد ملك الروم يطلب الصلح فلم يجـد المأمون وبينما كان البناؤون يعيدون بناء زبطرة كان عمال الثغور يسوحون بأمر من المأمون في بلاد الروم ويكثرون فيها القتل والتخريب والظفـر ولو أن قائدا من قوادهم (يقظان بن عبد الأعلى بن أحمد السلمي) أصيب . كان الروم يريدون من الصلح إعادة بناء ما خربته ثورة توماس من الأناضول ولهذا لم تلجأ قواتهم الى الغارات الانتقامية ولكن الى السـكوت لاسيما وأنها كانت منصرفة الى مدافعة البلغار من جهة شمال البلقان والى الحرب في صقلية من جهة اخرى ...

ثم افتتحت الغزوات المأمونية فجأة في المحرم مـن سنة ٢١٥ هـ (آذار سنة ٨٣٠) ويبدو أن ذلك كان نتيجة الهجوم التدميري الذي شنه الروم على انطاكية سنة ٢١٣ هـ (سنة ٨٢٨ م)[1] انتقاما منها لموقفها

---

(١) لم تذكر هذا الهجوم المصادر العربيـة ولكن ذكـره البطريق ميخائيل السرياني (الكبير) في تاريخه . انظر الترجمة الفرنسـية التي قام بها الأب شـابو

Chronique de Michel le Syrien, (éd. Chabot) Vol III, p.101

المعادي لبيزنطة دينيا وسياسيا والذي عبرت عنه حين توج بطريقها البطريق ايوب الثائر توماس الصقلبي امبراطورا . وهو تتويج لم يكن رأى المأمون في الغالب غائبا عنه ولا يمكن أن يكون تم بدون علمه وإشارته [1] .

وأعد المأمون لحرب الروم عدة كبيرة وخرج لتلك الحرب بنفسه وجيوشه وقواده وقد ظهر إذ ذاك كأن المأمون يريد أن يعطي شيئا من همه وجهده إلى الجناح الغربي من المملكة ، وقد كان منتقضا عليه في مصر والشام وعلى الحدود البيزنطية وربما شجعه احتلال أهل الربض الأندلسيون لجزيرة كريت سنة ٢١٣ أيضا فخرج من بغداد ثم لم يعد ، ليستقر فيها ، أبدا !

اتخذ طريقه أولا الى الجزيرة ، ويتصل وصوله الى حران بأول ذكر للصائبة في الاسلام إذ اكتشفهم المأمون فيها ، وكانوا بقية من الديانة البابلية القديمة الممتزجة بالفلسفة الهلينستية ، فاختاروا لأنفسهم اسم (الصابئة) لوجوده في القرآن الكريم وأصبحوا من أهل الذمة[2] .

---

(١) انظر بيوري ، واوستروغوروسكي

Bury. A His. of the Eas. Rom. Emp. p 88

Ostrogorwoski, His. of the Byz. State (Trans. Hussey) p. 182

(٢) هؤلاء الصابئة كانوا بقايا فرقة وثنية تعبد النجوم وتقول بالثنوية الإلهية وهم غير الصابئة (المنديين) الذين هم طائفة يهودية نصرانية كانت تسكن الأغوار حول البصرة ولا تزال لهم في العراق الى اليوم بقية تعرف باسم (الصبة) وتعمل جمهرتها في صياغة الفضة .

وغزا المأمون الصائفة بنفسه سنة ٢١٥ ، وفتح عـدة حصون ، كان إهمال الحدود وقيام الثورات عليها ، قد أوقعاها في أيدي البيزنطيين (مثل حصن صملة أو شمال وسندس وقره ، وماجدة وسنان) ، وبلغ الغزو قلب الأناضول ومنطقة المطامير ٠

وقد تابع المأمون بعد ذلك طريقه إلى دمشق ثم إلى مصر يريد أن يتعرف عن قرب الى السر في اضطرابها الدائم ٠ غير أن غارة اتقاميـة بزنطية أعادته من جديد الى الأناضول ٠ فقد قاد الامبراطور تيوفيل بن مخائيـل جيشا كبيرا نفـذ به الى طرطوس ثم الى المصيصة في قلـب «العواصم» العربية ٠ وأثخن فيها القتل ــ على قول المؤرخين ــ وأسر ٢٥ ألفاً من المسلمين ودخل القسطنطينية بعد ذلك في استقبال باذخ وموكب لم تشهده العاصمة البزنطية منذ عهد بعيد وقد أسهب مؤرخو الروم[1] في وصفه !

ويظهر أن المأمون كان لا يزال يذكر ما قاسى أبوه في أواخر عهده من نقفور ، وما يقاسي هو ، من تآمر البزنطيين عليه مع بابك ومع كل ثائر عليه في الحدود ونقضهم الصلح معه ، فتبلورت في رأسه لأول مرة خطة « فتح » منظم ، مالبثت أن توضحت شيئا فشيئا ٠

عاد المأمون في جمادى الأولى سنة ٢١٦ إلى جبهة الروم ففتح هرقلة وأتبعها بفتح اثني عشر حصناً[2] أو ثلاثين حصناً ــ على قول الطبري ــ عدا المطامير المحصنة فلما أرسل تيوفيل يسأل المأمون «أن

---

(١) يراجع في ذلك كتاب العرب والروم لفازيلييف .
(٢) اليعقوبي ج٢ ص ٤٦٥ والطبري ج٨ ص ٦٢٥ (١١٠٤/٣) ٠

يقبل منه مائة ألف دينار والأسرى الذين عنده وهم سبعة آلاف أسير (المصادر الرومية تجعلهم ٢٥ ألفاً) وأن يدع لهم ما افتتحه من مدائن الروم وحصونهم ويكف عن الحرب خمس سنين .. » رفض المأمون استلام الكتاب أول الأمر بحجة أن ملك الروم بدأ فيه باسمه ، وقال المأمون : لا أقرأ له كتاباً يبدأ فيه باسمه ، فلما أعاد الرومي الكتاب بادئاً باسم عبد الله (المأمون) ملك العرب رفض المأمون الموادعة كلها ولو أنه لم يسيء لقاء السفير الذي حملها إليه وهو (جان) أو يوحنا النحوي ، أحد علماء بيزنطة الذين يعرفهم المأمون حق المعرفة .

وانصرف المأمون في الشتاء إلى مصر لتهدئة الثورة التي قام بها الفلاحون في أدنى الأرض (الدلتا) من عرب وقبط . وعاد من جديد سنة ٢١٧ (٨٣٢) ومعه أخوه أبو إسحق (الذي سنعرفه باسم المعتصم) وابنه العباس ، فافتتح حصن لؤلؤة وأمر ببناء بلدة (الطوانة) وتبينت خطته بأنها خطة فتح لا خطة غزو حين عزم على فتح عمورية (مسقط رأس البيت المالك) وفتح القسطنطينية وتوطين العرب البدو في منطقة الأناضول بلداً بلداً مع سير الفتوح .. « وقال أوجه إلى العرب فاتى بهم من البوادي ثم أنزلهم كل مدينة أفتحها حتى أضرب القسطنطينية[1] .. » .

وأرسل امبراطور الروم إليه يجدد طلب الصلح وقال في كتابه : « وقد كنت كتبت إليك داعياً الى المسالمة راغباً في فضيلة المهادنة لتضع أوزار الحرب عنا ونكون كل واحد لكل واحد ولياً وحزباً مع اتصال المرافق والفسح في المتاجر وفك المستأسر وأمن الطرق والبيضة . فإن أبيت فإني لخائض إليك غمارها إ..» . ولم يكن جنوح تيوفيل الرومي

---

(١) اليعقوبي ج٢ ص ٤٩٦ والطبري ٨ ص ٦٢٥

الى الصلح نتيجة رغبة في السلام ولكنه كان يريد أن يوجه موارده وقواه لاسترداد صقلية من المسلمين الذين بدأوا احتلالها • وكان هذا الاحتلال يغلق باب المتوسط الغربي على بيزنطة ويلغي وجودها هناك •

وكان لابد أن يرفض المأمون مثل هذا الصلح المشوب بالتهديد ، لا سيما وأن نجاح الأعوام الثلاثة الماضية قد شجعه على العزوف عن انهاء القتال الرابح فأجابه بتهديد أشد منه وختم كتابه بقوله : « •• غير أني رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجّة من الدعاء لك ولمن معك إلى الوحدانية والشريعة الحنفية فإن أبيت ففدية توجب ذمة •• وإن تركت ففي تعيين المعاينة لنعوتنا ما يغني عن الإبلاغ[1] ••» •

وواضح من هذا الكتاب ، ومن السور الذي بناه المأمون على مدينة الطوانة وجعله ثلاثة فراسخ ، ومن استقدامه القوات الى العواصم من العراق والشام ومصر ، أن المأمون كان على عزم تنفيذ خطة واسعة للخلاص من الدولة البزنطية جميعاً •• غير أن الأجل أعجله قبل أن يتحول بخطته إلى التنفيذ فمات بالحمى سنة ٢١٨ (٨٣٣م) قلى نهر البدندون بجوار طرطوس ودفن فيها • وجمع أخوه (أبو إسحق) الجند الذي بايع له حسب وصية المأمون وقفل عائداً إلى بغداد •

معنى الحروب مع الروم وميزاتها ونتائجها : يمكن ان نجمل

---

(١) انظر الكتابين لدى الطبري ج٨ ص ٦٢٩ — ٦٣٠ (١١٠٩/٣ — ١١١١) . ولعلنا نشير الى ما يؤكده الكتابان من اتصال المصالح الاقتصادية بين الطرفين ومن حركة المتاجر وامن الطرق واتصال المرافق . وهو ما يكشف الجذور الاقتصادية لتلك الحروب .

علاقات العرب الحربية مع الروم في الفترة العباسية التي ندرسها ، في مجموعة من الملاحظات العامة :

أولا : إن الحروب كانت مستديمة إلا في الأحوال التي تضطرب فيها الأحوال الداخلية في إحدى الدولتين • وكانت المبادهة فيها تأتي من الطرفين على السواء • وهذا يعني أن حالة العداء كانت هي الأساس في العلاقة بين الطرفين ومن قبل كل من الطرفين • فلم يكن موقف أباطرة الروم بأكثر مسالمة من موقف العباسيين • وإذا كان في هذا العداء بعض العنصر الديني فإنه لم يكن دينياً كله ، ومن الجانبين • ولكنه كان اقتصادياً أيضاً في أعماقه ويرتبط بالتنافس على خطوط التجارة العالمية عبر الأناضول وبحاجة منطقة العراق المرتبطة بالخليج العربي والمحيط الهندي الى ذلك الامتداد البري الذي تسير عليه الطرق المتوجهة الى أوربا والى ضمان سيطرتها عليه • كما كان العداء سياسياً أيضاً يرتبط بدفع الخطر عن العاصمتين المتقابلتين لكل من الطرفين بغداد والقسطنطينية وبضمان الأمن كما يرتبط بطلب النفوذ والسيادة الدولية لهما •

ثانيا : أدى استمرار الحرب الى وضع نظام دائم لها فكانت الغارات تجري في الربيع وفي الصيف وفي الشتاء أما غزو الربيع فيبدأ في وسط مايس حين تقوى الخيل وتسمن من مراعي الربيع • ويدوم الغزو ثلاثين يوماً (حتى أواسط حزيران) • وفي هذه الأثناء تجد الخيل من مراعي الروم ربيعاً ثانياً لها • ثم يستريح العرب وتستريح خيولهم شهراً حتى أواسط تموز وتبدأ حين ذلك حملة الصيف وتدوم ستين يوماً • أما حملة الشتاء فلا تكون إلا في حالات الضرورة القصوى ولم يكونوا على أي حال يمعنون فيها في التوغل ، بأرض العدو • وكانوا يحرصون على ألا تدوم أكثر من عشرين يوماً، يحمل فيها الجند على خيولهم المؤونة

الضرورية لهذه الأسابيع الثلاثة • ويكون الغزو عادة في آخر شباط والنصف الأول من آذار •

ثالثاً : لم يتغير خط الحدود العربي ــ الرومي بنتيجة تلك الحروب كلها • وقد كان خلال العصر العباسي كله عبارة عن سلسلة من المواقع المحصنة تبدأ من طرطوس على البحر المتوسط ثم تذهب شرقاً إلى أذنة على نهر سيحان (وهي ساروس قديماً) والمصيصة (مبسوسة) على ضفتي جيحان (برماموس قديماً) ثم إلى الشمال الشرقي حتى مرعش (غير بعيد من جرمانيكا القديمة) بعد أن يمر في غرب اللكام الشمالي بحصن الهارونية الذي بناه هارون الرشيد• ثم تمتد سلسلة الحصون في شمال شرقي مرعش غير بعيد منها حتى (الحدث) التي يختلف الجغرافيون في تحديد موقعها المضبوط • وفي شمال شرقي هذا البلد تقع ملاطية أهم الحصون في شمال الجبهة ، وعلى نهر الفرات الأعلى • وعندها تنحرف الحدود فيسير خط الحصون شرقاً إلى حصن زياد وخرتبرت وحاني حتى بحيرة وان • ويتبع هذه الثغور من ورائها : العواصم • ما بين انطاكية على الساحل الشامي حتى البلدة الصغيرة على سيف الصحراء عند ضفة الفرات اليمنى بالس (باربالیسوس القديمة) وحتى مدينة أبعد قليلاً نحو الشمال في منطقة زراعية هامة هي منبج ، ثم حتى مدينة أبعد شمالاً هي سميساط •

وتجاه هذا الخط الاسلامي من الحصون كان يقوم في الأرض البيزنطية : اعتباراً من الجنوب الغربي أقليم أو عمل كيليكيا • ثم عمل قبادوقيا (القبادق) وفيها أقليم المطامير أو ذات المطامير (حسب التسمية العربية) ثم عمل خلدة والارميناق وخرسيون (مقابل ملاطية) وعمل الناطلوس (وفيه عمورية) ومن الشمال عمل أرمينية تجاه الحصون الجزيرية •

ولم يكن ميدان الحروب هو هذه الحصون فقط وما بينها ولكنه كان يتناول المنطقة كلها وراء هذه الحصون وخاصة من ناحية الأناضول ويتجه الميدان عمقاً نحو الغرب حتى يصل أحياناً مشارف القسطنطينية • ولعله ما من منطقة في الدنيا ــ بما في ذلك حوض الرين والمارن ــ عرفت من المعارك الساحقة وسقيت من الدماء البشرية واحتملت من سنابك الخيل وتبودلت بين أطراف النزاع وذاقت من مآسي الحرب وويلاتها ومن القتل والنهب والهتك والهدم والاستعباد قروناً طويلة تزيد على العشرة ، كهذه المنطقة من الأرض •

رابعاً : اتبع الخلفاء العباسيون ، في هذه الفترة كافة ، السنة التي اتبعها المنصور في العناية بتحصين مناطق الحدود وبناء المدن المسورة والقلاع الحصينة فيها • كان ذلك أساس النظام الدفاعي • وقد عني به المهدي والرشيد والمأمون ثم المعتصم على السواء وإذا كان هذا العمل الذي أضحى سياسة مستمرة ، يحمل على الجزم (مع بعض الدلائل الأخرى) بأن العباسيين كانوا يعتبرون خط الحدود نهاية لا ابتداء ومكان استقرار وحماية ، لا نقطة انطلاق وهجوم فإن هذه السياسة نفسها قد استغرقت الكثير من الجهد والمال وأنشأت لا مدناً عسكرية البناء والطابع فقط ولكن مجتمعات عسكرية أيضاً سوف يكون لها مع الأيام طابعها الخاص المميز • وكان يزيد من الجهود ومن النفقات قسوة الظروف الطبيعية من ثلوج الشتاء وسيوله الجبلية وأمطاره الكاسحة من جهة حتى ليذكرون أن البرد قطع أيدي الناس وأرجلهم في حملة سنة ١٧٥ وأنهم بنوا سور الحدث سنة ١٦٢ من اللبن فلما جاء الشتاء انصدع وتشعث ولم يحتمل الامطار والثلوج فأعادوا بناءه كرة أخرى • كما كان يزيد من الجهود والنفقات أن الزلازل كانت تضرب المنطقة من آن لآخر كما حدث للمصيصة سنة ١٨٧ حين زلزلت فانهدم بعض سورها

وتصب ماؤهم ساعة من الليل ويزيد من الجهود والنفقات أخيراً أن كلاً من الطرفين كان يهدم بانتظام حصون الطرف الآخر كلما ظفر بها ..

وهكذا بنيت طرسوس من ثغور الشام إذ غزا الحسن بن قحطبة الطائي بلد الروم سنة ١٦٢ فأخبر المهدي بمكان طرسوس الاستراتيجي وأنها الآن خراب فأمر ببنائها ، لكن البناء لم يتم إلا على يد خادم الرشيد سليمان الذي بناها بسورين[١] وخندق وخمسة أبواب و ٨٧ برجاً مابين سنتي ١٧٠ـ١٧٢ وشحنها الرشيد أول الأمر بثمانية آلاف من المقاتلة على رواية المسعودي وزاد في إعطائهم فاستقروا وبعضهم من أهل خراسان وبعض من المصيصة وانطاكية ، وقد نمت طرسوس حتى أضحت من أكبر المراكز لا العسكرية فقط ولكن العلمية أيضاً في القرن الثالث والرابع .

وبنيت أذنة في عهد المنصور سنة ١٤١ أو سنة ١٤٢/٧٦٠ ثم أعيد بناء قصرها وحصنها وشحنت بالمقاتلة من أهل خراسان وغيرهم على زيادة في العطاء بأمر الأمين .

وبنيت المصيصة ، منذ أيام المنصور أيضاً سنة ١٣٩ . عمرها جبريل ابن يحيى البجلي الخراساني بعد أن كانت الزلازل شعثت سورها فبنى السور والجامع وأسكن الناس وسماها المعمورة وفرض لأهلها الاعطيات والقطائع وزاد المهدي في عدد المقاتلة فيها ألفين كما زاد في عطاء بعض الجند . ونمت فيها صناعة الفرو ، وعيدان السروج والحديد المحزوز لكراسي الحديد واللجم والمهاميز ، على قول ابن العديم[٢] .

---

(١) اليعقوبي ــ ج٢ ص ٤١٠ .
(٢) ابن العديم ــ بغية الطلب (مخطوط آيا صوفيا) ورقة ١٣٨ ظهر .

وبنيت كفربيا : في زمن المهدي ثم غير الرشيد في بنائها وحصنها بخندق ثم عمل المأمون على تنظيمها وأبطل ضريبة من الغلال على منازلها وأمر فجعل لها سور ورفع فلم يتم وأتمه من بعده المعتصم •

وبنيت الهارونة كذلك : بدىء في بنائها زمن المهدي أو أمر الرشيد ببنائها سنة ١٨٣/٧٩٩ وجعل لها سورين وأبواباً من الحديد وشحنت بالمقاتلة والمطوعة وحملت اسم هارون الرشيد •

وبنيت عين زربة سنة ١٨٠ وحصنت وندب إليها جيش من أهل خراسان أقطعوا فيها المنازل •

وأما ثغور الجزيرة ، فقد كان الروم قد خربوها في زمن مروان بن محمد • خربوا مرعش والحدث وزبطرة وجاء العباسيون وكان عليهم إعادة بناء هذه المنطقة من الثغور والحصون وهكذا :

بنى المنصور مرعش المخربة • بناها له صالح بن علي العباسي وندب الناس إليها على زيادة العطاء فتكاثروا ثم زاد المهدي في شحنتها وفي قوى أهلها •

وبنيت الحدث التي كانت بدورها مخربة ، وقد نبه الحسن بن قحطبة الطائي قائد المهدي الى موقعها الاستراتيجي الهام سنة ١٦١ والى موقع طرسوس وطلب بناءهما فأمر المهدي بتقديم بناء الحدث •• وقد قام بالبناء سليمان بن علي العباسي الذي توفي سنة انتهى من بنائها سنة ١٦٩ وسميت باسم المحمدية والمهدية • وفرضت لها الحامية اللازمة (حوالي ٤ آلاف) من أهل الشام والجزيرة وخراسان في أربعين ديناراً من العطاء لكل مجاهد ، وأقطعوا المساكن وأعطى كل امرىء ٣٠٠ درهم•

وقد تشعث سور المدينة بالثلوج وكثرة المطر ونزل بها الروم سنة ١٦٩ فأمر الهادي بإرسال بعث إليها وقد مات قبل إرساله فأنفذه الرشيد وأعاد بناء المدينة وتحصينها وشحنها بالمقاتلة ومنح الاقطاع .

وبنيت زبطرة المخربة أيضاً . بناها المنصور أولاً فخربها الروم كرة أخرى فبناها الرشيد على يد محمد بن ابراهيم وشحنها بالمقاتلين . فلما كانت خلافة المأمون عاد الروم فشعثوا السور والبلد فأمر الخليفة بترميمه وتحصينه فعاد الروم أيضاً زمن المعتصم فقتلوا الرجال فيها وسبوا النساء وأخربوا البلد مما كان سبباً في معركة عمورية المعروفة .

وبنيت ملاطية : خربها الروم سنة ١٣٣ فلما كانت سنة ١٣٩ كتب المنصور إلى ابن عمه صالح بن علي يأمره ببنائها وتحصينها ثم أرسل في السنة التالية عبد الوهاب ابن أخيه ابراهيم الإمام والياً على الجزيرة وثغورها ومعه الحسن بن قحطبة في جنود خراسان البالغين سبعين ألفاً وأقيمت المدينة في ستة أشهر بسورها ومسجدها ومنازلها جميعاً . وبنى لها مسلحة على ثلاثين ميلا منها ومسلحة أخرى على بعض روافد الفرات . وأسكن المنصور فيها أربعة آلاف مقاتل من أهل الجزيرة على زيادة عشرة دنانير في عطاء كل رجل ومعونة مائة دينار لكل منهم . ووضع فيها شحنتها من السلاح وأقطع الجند المزارع وبنى حصناً قريباً من البلد (حصن قلوذية) ... وهذه العناية الواسعة إنما كان سببها أن ملاطية هي الثغر الأول والأهم في المنطقة كلها وهي نقطة التقاء وتقاطع الطرق التجارية والعسكرية بين الجزيرة والعراق من جهة وآسيا الصغرى والقسطنطينية من الجهة الاخرى وقد ظلت كذلك عدة قرون .

وبنى حصن منصور .. ولم يكن المنصور هو الذي بناه ولكنه

ينسب إلى منصور بن جعونة العامري القائد الذي تولى حكمه وبناءه وترميمه زمن مروان بن محمد • وكان على البلد سور وخندق وثلاثة أبواب • وقد جدد الرشيد بناء الحصن وأحكمه وشحنه بالرجال في أيام أبيه المهدي ••

وبنى المأمون كذلك حصن الطوانة • أمر ابنه العباس ببنائها سنة ٢١٨/٨٣٣ وبدأ ببنائها ميلا في ميل وجعل سورها على ٣ فراسخ بأربعة أبواب وبنى على كل باب حصنا • وفرض لها من أجناد الشام أربعة آلاف رجل جعل للفارس منهم مائة درهم وللراجل أربعين ••

واستعراض هذه الأبنية المتعددة يعني أن ثغور الشام وثغور الجزيرة تجاه الروم كانت قد بديء ببنائها زمن المنصور وكانت قد بنيت كلها وحصنت تمام التحصين حتى أواسط عهد الرشيد لتكون حصون الحدود النهائية مع الروم • أما شحن هذه الحصون بالمقاتلة فكان يجري بوسائل كثيرة من الاغراء المادي منها زيادة العطاء ومنح المعونة وبناء البيوت ومنح الاقطاع الزراعي هذا عدا من كان يردها من المتطوعين للجهاد احتسابا وقربى لله •

خامساً ـ كان ارتفاع خراج جند الحدود (أي منطقة الحدود) تافهاً إذا قورن بنفقات الدفاع عنه • فقد كان بالغ خراج الثغور الشمالية، بما فيها طرطوس وأدنة والمصيصة وعين زربة والهارونية وبلاد أخرى يبلغ حسب الوثائق العربية الرسمية مائة ألف دينار • تنفق على المشاريع العامة وأجور الجواسيس والبريد ومسالك الدروب في الجبال ومخاضات الأنهر والحصون الخ ••• بينما كانت نفقات الشواتي والصوائف براً وبحراً تبلغ مائتي الف وثلاثمائة ألف دينار أحياناً • وكان خراج ثغور

الجزيرة وتشمل مرعش والحدث وملاطية وبلاداً أخرى (٧٠) ألف دينار وينفق عليها (٤٠) ألفاً وتخصص الثلاثون ألفاً الباقية لعطاء الجند • ويزاد عليها كل سنة بين ١٢٠ إلى ١٧٠ ألف دينار هذا عدا النفقات الطارئة للحملات المفاجئة وهي تتناسب مع شأن الحملة • وربما كانت هذه النفقات الدفاعية تافهة اذا قيست بجملة وارادات الخراج في عهد الرشيد أو المأمون وقد بلغت ــ حسب ابحاث كريمر ودي سلان وغيرهما ــ قرابة (٢٥) مليون دينار •

سادساً ــ لم تكن قيمة منطقة الثغور والعواصم لدى الخلفاء العباسيين الأوائل ، في هذه الفترة ، قيمة اقتصادية كبيرة ولكنها كانت أيضا قيمة سياسية ودينية معاً تتصل بأمر الجهاد والرغبة في الاشتهار بـه • وقد بلغ من قيمتها من الناحيتين أن كان الخلفاء يباشرون الحرب على هذه الجبهة بأنفسهم ويخرجون إلى المنطقة على رأس الجيوش المحاربة • قام بذلك المهدي ثم الرشيد ــ وليا للعهد وخليفة ــ إذ «كان يغزو سنة ويحج أخرى » كما قام به المأمون حتى لقد توفي في بعض غزوه في طرسوس • ثم قام من بعد ذلك المعتصم والواثق •

وكثيراً ما كان ولاة العهود أو أمراء البيت العباسي هم الذين يتولون إمارة الجزيرة والثغور والعواصم وقلما يعهد بأمرها لغيرهم : تولاها أولا المنصور وهو ولي للعهد ثم تولاها عبد الله بن علي (أكبر أمراء العباسيين والطامع في الخلافة) ثم جعلت لصالح بن علي ، أخيه زمن المنصور فلما غضب عليه جعلها لعبد الوهاب بن ابراهيم الامام سنة ١٤٠ ثم للعباس بن محمد ، أخيه سنة ١٤٢ حتى عزله وغرمه مالا سنة ١٦٣ ••• وقد عزل الرشيد في مطلع خلافته الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين وجعلها منطقة ادارية عسكرية واحدة وسماها بالعواصم

سنة ١٧١ كما ولى الرشيد عليها عبد الملك بن صالح العباسي وكان مقره منبج • وقد زاره هناك فلما عزله فترة عاد فأعاده أيضا اليها حتى سجنه بعد ذلك سنة ١٨٧ وكان الرشيد في سنة ١٨٦ قد بايع لابنه القاسم بولاية العهد الثالثة وسماه المؤتمن وولاه الجزيرة والثغور والعواصم وأشخصه الى منبج فأنزله إياها بما انضم إليه من القواد والجند • وأغزاه الصائفة في العام التالي و « •• وهبه لله وجعـله قرباناً ووسيلة » • وفي عهد المأمون ولى الخليفة ابنه العباس الجزيرة والثغور والعواصم سنة ٢١٣ في حين ولى أخاه اسحق (المعتصم) بلاد الشام ومصر •••

سابعاً ـ في هذه الفترة من أوج الحكم العباسي تنظمت أو على الاقل كثرت عمليات الفداء وتبادل الاسرى بالاتفاق ما بين العرب والروم ويعرف هذا لدى المؤرخين المسلمين بالأفدية ولعل أول فداء من نوعـه بين الطرفين إنما كان سنة ١٣٩ في عهد المنصور لكن تلك البادرة الأولى ظلت مدة طويلة مجرد حادث عابر فريد حتى جاء أول فداء بعدها زمـن المهدي على يد القائد المعروف بالنقاش الانطاكي فلما جاء عهد الرشيد كان أول فداء فيه سنة ١٨١ على يد عياض بن سنان أمير الثغور الشامية ثم كان الفداء المشهور على يد القاسم بن الرشيد سنة١٨٩ وكان امبراطور الروم هو نقفور وجرى الفداء باللامس ، على جانب البحر بينه وبـين طرسوس ١٢ فرسخا وحضره ثلاثون ألفاً من المرتزقة مع القائد أبي سليمان فرج الخادم متولي طرسوس وخلق كثير من أهل الثغور وغيرهم مـن العلماء والأعيان • وكان عدد الأسرى ٣٧٠٠ وقيل أكثر ••»[1] ويسمى

(١) ابن الاثير ج ٦ ص ١٥٩ وانظر ايضاً المسعودي التنبيه والاشراف ص ١٦٠ ــ ١٦٦ (وابو سليم عند المسعودي وهو فرج نفسه) ويبدو ان ابن الاثير يخلط ما بين فدائي سنة ١٨١ وسنة ١٨٩ ويجعلهما واحدا . والمسعودي اقرب للعهد وأصح تاريخاً لان ابن الأثير يحدد وجود نقفور على امبراطورية الروم وإنما اغتصب نقفور الحكم سنة ٨٠٢ أي سنة ١٨٧

المسعودي هذا الفداء فداء أبي سليم ، ويقول إنه فودي فيه لكل أسير كان بأرض الروم من ذكر أو أنثى فيما ظهر ، وقد دامت عملية الفداء اثني عشر يوماً • وكان حفلا مشهوداً « حضره ــ على قول المسعودي ــ من أهل الثغور وأهل العواصم وغيرهم من أهل الأمصار نحو من خمسمائة ألف قد أخذوا السهل والجبل وضاق بهم الفضاء » • وكانت قوى المسلمين ومراكب الروم على السواء في أحسن وأكمل الزي والعدة •• وقد استمرت هذه العادة واستقرت في العهود التالية بعد ذلك فجرى فداء ثالث زمن الرشيد ، بعد السابق ، سنة ١٩٢ (افتدى فيه ٢٥٠٠ أسير في سبعة أيام) وفداء آخر زمن الامين سنة ١٩٤ على يد القائد ثابت بن نصر ثم فداء آخر زمن المأمون سنة ٢٠١ على يد ثابت أيضا • وفداء كان في زمن الواثق سنة ٢٣١ ومثله في زمن المتوكل سنة ٢٤٧ ••• وقد عد المسعودي من الأفدية المعروفة المشهورة حتى عهده سنة ٣٣٥ ثمانية عشر فداء • ويبدو أنه قد أضحى لعملية الأفدية مع الأيام نظام مقرر يقف فيه الطرفان على ضفتي نهر ويعبر الأسير الجسر فيلاقيه عليه الأسير من الطرف الآخر وينادي المنادون بالاسماء أو يجري الفداء في الأربطة على السواحل بالشراء والتبادل السلمي والاتفاق المسبق •

ثامنـاً ــ لم يكن لحروب العرب مع الروم من خطـة منظمة أو هدف واضح معين ، يظهر ذلك في استقرائها ومن أنها كانت تنتهي دوماً دون أن تغير موقف الطرفين • وغالباً ما كان الخليفة يكتفي منها بالجزية • وكل ما يمكن أن يظهر منها ، أنها أثبتت تفوق العرب الحربي من جهة وقصر نظر قوادهم في عدم متابعة الضغط على بيزنطة وعـدم استغلال ظروفها الحرجة من جهة أخرى • ويعني هذا بصورة خاصة أن حروب العباسيين للروم حتى في فترات أوجهم لم تكن حروباً تقصد الى التوسع

والفتوح ولكنها كانت غزوات متبادلة من الطرفين لتثبيت المراكز • ولم تكن ذات طبيعة دفاعية بقدر ما كانت حملات إرهاب وإثبات قوة • وحروبا وقائية ولم تكن تنائجها على أي حال كسب الاراضي والحصون ـ التي كان يتبادل الطرفان على الجانبين احتلالها وتخريبها ثم بناءها بشكل دوري ـ ولكن السلب وتدمير القوى المعادية • ولقد يذكرون أن مشروعاً لفتح القسطنطينية مر في خاطر البرامكة[1] ، كما يذكرون أن المأمون ـ حسب رواية اليعقوبي ـ استعد سنة ٢١٨ ، سنة موته لحصار عمورية وقال : أوجه الى العرب فآتي بهم من البوادي ثم أنزلهم كل مدينة أفتحها حتى أخرب القسطنطينية •• « فأتاه رسول ملك الروم يدعوه إلى الصلح والمهادنة ودفع الأسرى الذين قبله فلم يقبل •••»[2] ولقد يذكرون ـ فيما بعد ـ في أيام الواثق أن أسطولا عربياً كبيرا بني في عدة سنين واتجه سنة ٨٤٢ لحصار القسطنطينة ففشل ••• وكان المعتصم قبل ذلك قد فكر في غزوها إثر انتصاره في عمورية[3] ••• لقد يذكر بعض المؤرخين هذا كله ولكنها كانت وظلت مشاريع سياسية ومجرد آمال لم تتحول الى التحقيق لأن السياسة العامة للدولة العباسية لم تكن تقتضي تحقيقها •

تاسعا ـ كانت الجزى تدفع في الغالب من الروم للعرب • والمؤلفون الغربيون لا يريدون الاعتراف بهذا ، فإن رانسيمان يقول : « ••• وربما كان الخليفة يعتبر هذا المبلغ (مبلغ الجزية السنوية) جزية اذا أراد ،

---

(١) ذكر ذلك غودفروا ديمومبين في مقال نشره في مجلة بيزانسيوم (العدد ٢٤ ص ٢٧١ ـ ٢) •

(٢) اليعقوبي ج ٣ ص ١٩٢ (٢ ص ٤٩٦ طبعة بيروت) •

(٣) المسعودي ج ٢ ص ٣٥٤

ولكنه لم يكن في الواقع إلا استثمارا حكيما للمال !٠٠ » وقد اتفق أن دفع العرب للروم بعض المال ٠ والعرب ، بدورهم ، يعدون ذلك من باب الزكاة (وهو سهم المؤلفة قلوبهم) ٠

عاشراً ــ كان كل من الطرفين يسعى لإضعاف خصمه بتقوية الثورات الناشئة في أرضه : فإن الروم استغلوا ثورةنصر بن شبث العقيلي وصاحبه عمرو (نيوفوب حسب ما يسمونه) فكاتبوا نصرا أو كان هو الذي كاتبهم فبعثوا اليه الرسول في كيسوم ٠ وافتخر هو بقدومهم ، على ماتروي المصادر الرومية ٠ ولكن أنصاره نصحوه بعدم الاتفاق مع « الكفار » فقتل الرسل ٠ ويظهر من عطف تلك المصادر على نصر وخاصة من رواية ميشيل السوري ، عن معاملته الحسنة للنصارى ، أن علاقته بالروم ــ وهو على حدودهم ــ كانت أمرا واقعا ولكنا لا نعرف مداها ٠

واستغل الروم كذلك ثورة بابك فكانت بينهم وبينه مفاوضات سرية وتعاون حربي ٠ وكان الهاربون من أصحاب الخرمي يلجؤون إلى أرض بيزنطة دوماً ٠

وبالمقابل فان العباسيين أعانوا ثورة من أهم الثورات على القسطنطينية هي ثورة توماس (سنة ٨٢٠ ــ ٨٢٣) التي كانت ذات نتائج سياسية واجتماعية ودينية عميقة في الامبراطورية البيزنطية ٠ عاش توماس هارباً في بلاد المسلمين خمساً وعشرين سنة ٠ وميشيل السوري يقول : إنه كان يدعي فيها أنه ابن قسطنطين الخامس ٠ وان هارون كان يكرمه كأنه ابن الامبراطور ٠ ثم عاد الى الأناضول يقود الثورة في زمن المأمون ٠ وقد لاحظ (فازيلييف) انه جرى بين توماس الثائر والعرب « حلف حقيقي » (أضحى بعد تتويج توماس امبراطوراً من قبل بطريق أنطاكية

أيوب) حلفاً شرعياً • فكان في جيش توماس فرق عربية تحارب معه • وقد أسر بعضها عند هزيمته • كما كانت هي نفسها من أسباب انفضاض قلوب الروم عنه • وهكذا على قول فازيلييف « انهزم الخليفة في شخص توماس » وانصرف بعد ذلك لمشاكله الداخلية • لكن الثورة كانت قد أضعفت الامبراطورية بشكل تسنى معه للعرب ، من جهة أخرى ، أن يقتطعوا منها كريت وصقلية •

احد عشر ـ وجد لدى الطرفين أناس من الطرف الآخر يدلونهم على ثغرات الدفاع ومواطن ضعفه • فقد ذكر المؤرخون أنه التحق بالعرب قائد أو دليل يدعى (منويل) كما ذكر بارتولد وجود (معلم) عربي لتدريب الجند كان يدل الروم على مواطن الضعف في الجيش العربي ، ثم ترك الروم حين أساؤوا اليه والتحق بالبلغار يدلهم على البيزنطيين •

ثاني عشر ـ أسبغت الحروب الرومية بهاء خاصاً على عصر الرشيد خاصة • والصلح الذي أقره مع بيزنطة سنة ١٨١ وأضحت الامبراطورة ايريني تدفع بموجبه ، مبلغاً من المال تؤديه في شهري نيسان ومايس من كل سنة ، ودام ذلك حتى سنة ١٨٧ ، هذا الصلح فسر من قبل (بكلر) على ان هارون الرشيد أضحى « سيد الامبراطورية الرومانية » ولكن فازيلييف الذي يعتبر ذلك فكرة خاطئة نسبي ، على ما يظهر ، ان نقفور دفع ، بعد ايريني ، الجزية الشخصية للرشيد عنه ، وعن ابنه •

العلاقات الحضارية مع الروم : ونعود بعد هذا كله فنذكر انا إذا قرأنا مؤرخي العرب والروم ووصفهم المعارك على وتيرة جافة : عدد القتلى وعدد الاسرى وما هلك من سكان وأبيد من محاصيل وخرب من حصون •• فانا قد لا نرى لأول وهلة إلا الجانب القاتم والسلبي من

علاقات بيزنطة بالدولة الاسلامية • والواقع أنه يوجد شيء غير ذلك ، هو ما كان يتبع المعارك من علاقات غير مقصودة ، بين الشعبين وما تتركه تلك العلاقات من أثر في تطورهما الداخلي ، سواء في تبادل الافكار والعادات والاخلاق أو في التبادل الاقتصادي :

فمن الشيق أن نلاحظ ان علاقة العرب والروم ـ فيما عدا الحرب ـ لم تتميز قط بصفة الخصومة والحقد ، بل كانت أقرب الى الحياد على المستوى العلمي والتجاري والحضاري بصورةعامة • كانت الصلات ـ فيما عدا فترات الحرب ـ قائمة دائمة وذلك « ينسجم انسجاماً مطلقاً مع عقلية القرون الوسطى » وقد نستطيع أن نرى الجانب الآخر ، السلمي والودي ، للعلاقات من خلال عدد من نواحي الصلات بين الطرفين :

أولا : التبادل العلمي والثقافي : فإن المسلمين لم ينسوا أثناء غاراتهم على الروم وخاصة زمن الرشيد والمأمون أن يحاولوا الحصول على كتب العلوم المختلفة من أنقرة وعمورية وغيرها • يذكر القفطي في أخبار الحكماء أن الرشيد « ولى (يوحنا بن ماسويه) ترجمة الكتب الطبية القديمة لما وجدها بأنقرة وعموريةوسائر بلاد الروم حين افتتحها المسلمون وسبوا سبيها ووضعه أمينا على الترجمة ورتب له كتاباً حذاقاً يكتبون بين يديه ••• »[1] •

وروى ابن النديم في الفهرست أن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات • وقد استظهر عليه المأمون فكتب الى ملك الروم يسأله

(١) القفطي ـ أخبار الحكماء ص ٣٨٠

الأذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم فأجاب إلى ذلك بعد امتناع • فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم : الحجاج ابن مطر وابن البطريق وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل • وقد قيل إن يوحنا ابن ماسويه ممن نفذ إلى بلد الروم ••»[١] •

ويذكر ابن نباتة في سرح العيون عند الكلام عن سهل بن هارون : أن المأمون « ••• جعله كاتبا على خزائن الحكمة • وهي كتب الفلاسفة التي نقلت للمأمون من جزيرة قبرص • وذلك أن المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة أرسل إليه يطلب خزانة كتب اليونان وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليها أحد • فأرسلها إليه واغتبط بها المأمون • وجعل سهل بن هارون خازنا لها » • ويروى كذلك أن المأمون أرسل إلى صقلية في طلب الكتب اليونانية •••

ويبدو أن الخلفاء لم يكتفوا باستحضار الكتب ولكنهم استحضروا العلماء • وإذا كانوا يذكرون عن أبي جعفر المنصور أنه استحضر بعض علماء الطب من الهند لأنه كان ممعوداً فان المأمون كان يطلب العلم من معدنه وللعلم وحده • وقد ذكروا عنه أنه أرسل رسالة شخصية الى تيوفيل امبراطور الروم يطلب فيه السماح للعالم الرياضي (ليو) بزيارة بغداد ولو لوقت محدود وقال إنه يعتبر ذلك عملا وديا ويعرض في مقابل ذلك الصلح الدائم وألفي قطعة ذهبية • إلا إن الامبراطور رفض العرض ومنح ليو وظيفة في إحدى الكنائس ومرتباً دائماً ••• ومقابل ذلك يروي صاحب الأغاني أن رسول ملك الروم قدم الى الرشيد فسأل عن

(١) ابن النديم ـ الفهرست ص ٢٤٣

أبي العتاهية الشاعر وأنشد شيئا من شعره وكان الرسول يجيد العربية فلما مضى الرسول الى القسطنطينية ذكر هذا الشاعر للامبراطور ويبدو أنه شاقه منه شعر الزهد الذي اشتهر به والذي يرفد الفكر الرهباني والديري فرد الامبراطور رسوله يسأل الرشيد أن يوجه بأبي العتاهية ويأخذ فيه رهائن من أراد . وألح في ذلك وكلم الرشيد الشاعر في ذلك فاستعفى منه وأباه ...»[1] .

ويظهر أن هذا النوع من الصلات والوفود الثقافية لم ينقطع وإنا لنجد ، في الفترة التالية لعصر الرشيد ، أن الواثق قد بعث بعثة علمية الى بلاد الروم برئاسة محمد بن موسى المنجم لزيارة الكهف قرب بلدة أفسوس الذي يقال إنه لا يزال يحتفظ بأجساد الشباب السبعة أهل الكهف ، الذين استشهدوا أيام ديوقليسيان وذلك باذن خاص من الامبراطور ميخائيل الثالث ، وهناك البعثة الاخرى التي قامت بأمر الواثق أيضا (المأمون الصغير) تطوف في آسيا الصغرى برئاسة المترجم سلام الذي كان يعرف عدة لغات لاكتشاف السور الذي أقامه الاسكندر دون قوم يأجوج ومأجوج ... وقد غابت البعثة في رحلتها ٢٨ شهراً قدم سلام على أثرها الى الخليفة تقريرا وافيا عنها كما يروي ابن خرداذبه والمقدسي وياقوت . ونال على ذلك مع أفراد بعثته الجزيل من العطايا[2] .

ثانيا : إن عرض العلاقات العباسية ـ البيزنطية قد لا يكون كاملا إن لم ترافقه صورة ، مهما تكن مختصرة ، عن تكنية هذه العلاقات

---

(١) الاغاني ج ٤ ص ١٠٥
(٢) ابن خرداذبة ـ المسالك والممالك ص١٠٦ـ١٠٧ ، ١١٠ـ١١١
المقدسي : احسن التقاسيم ص ١٥٢

وطرائق اتصال الدول بعضها ببعض : بالرسائل والسفراء وتنظيم السلم والحرب والأفدية والمعاهدات وهو ما يسمى عادة بالعلاقات الدبلوماسية ونجد بالفعل كما قال أحد المؤرخين أن في حوادث الشرق الحربية في القرن التاسع وقائع وعادات تعتبر مؤسسة لما نسميه اليوم بالقانون الدولي وما كتب عنه في تلك الفترة لدى العرب من الكتب مثل كتاب السير الكبير للشيباني يمكن أن يعد من الكتب الأولى الباحثة في هذا النوع من الحقوق الدولية والصلات الدولية في تلك الفترة إنما كانت تتم بالواسطة وبشكل غير مباشر • لم يكن من المألوف بين الدولة الاسلامية والدول المعاصرة لها أن تجري الاتصالات عن طريق اجتماع الخلفاء بالملوك المجاورين • هذه الطريقة التي كانت معروفة في أوروبا ، في تلك القرون ، لم يتبعها ملوك الشرق عامة ، ولا الخلفاء المسلمون وأقصى درجات الاتصال المباشر التي وصلوا إليها هي :

١ ــ إرسال السفراء والوفود أو استقبالها في مهمات محددة : حربية أو سياسية أو عسكرية • وقد عرف العرب هذه الطريقة منذ العهد الجاهلي واتبعوها في العهد الاموي • ولم يعدل عنها العباسيون بل استقبلوا ومنذ سنواتهم الأولى سفراء الروم والفرنجة وغيرهم • يذكر الطبري وابن الفراء (في كتابه رسل الملوك) قصة قدوم بطريق من الروم إلى المنصور في بغداد فأمر الخليفة أن يطاف به فيها ــ وهي العاصمة الجديدة ــ ليرى فخامة عمرانها[١] •ومثل ذلك استقبال المنصور والرشيد من بعد لوفود ملك الفرنجة •

---

(١) الطبري ج ٨ والفراء ــ رسل الملوك ص ٣٩ ويذكر ان المنصور اتبع نصيحة هذا البطريق فأخرج الاسواق وأصحابها من بغداد .

ومن السفارات المشهورة سفارة يوحنا النحوي الذي وفد الى بغداد يعلنها بارتقاء تيوفيل العرش الامبراطوري حاملا معه الهدايا الثمينة وقد رووا أنه ينثر الذهب كالرمال ويهب كل زائر له في مقر ضيافته الهبات السخية • ويذكرون أن رسولا من ملك الروم وصل المعتصم إثر إيقاع الروم بزبطرة فلم يقبل الخليفة لقاءه وأخره في موقع قريب من عمورية حتى افتتحها •

وقد كانت السفارات تجري في تدبير أمور الفداء • يذكر الطبري في أخبار سنة ٨٤٦/٢٣١ أن رسول ميخائيل بن تيوفيل ملك الروم وصل الواثق بالله يسأله أن يفادي بمن في يده من أسارى المسلمين ، كما يذكر سنة ٢٤١ « أن تذوره صاحبة الروم أم ميخائيل وجهت رجلا يقال له جورجس بن فرباقس يطلب الفدى لمن في أرض الروم من المسلمين وكان المسلمون قد قاربوا عشرين ألفا ••• » وقد أوفد المتوكل سنة ٨٦٠/٢٤٦ نصرا بن الأزهر الشيعي إلى ملك الروم في أمر الفداء فاستقبله وبين يديه ثلاثة من التراجمة ••• وكان السفراء عامة من الطرفين يحرصون على أن يظهروا في أبهى وأضخم مظهر كما كانوا يختارون من اكبر شخصيات الدولة الدينية أو السياسية •

وكانت تؤمن لهم وسائل النقل اللازمة كما تضمن لهم وسائل الأمن والسلامة وقد يحملون رسائل رسمية ولكنهم كانوا يعتمدون على علمهم وبراعتهم في انجاح المهمات التي يسفرون فيها وكانت السفارات تجري أحيانا في أعقاب الحروب وتعمل على توقيع الهدنات • ومن ذلك مايذكرون من أن هارون بلغ في عهد أبيه المهدي مشارف القسطنطينية سنة ٧٨١/١٦٥ فجرت بينه وبين أغسطة ــ وهي ريني (ايرين) امرأة اليون ••• ــ الرسل والسفراء في طلب الصلح والموادعة وإعطاء الفدية • فقبل ذلك

منها هارون • وشرط عليها الوفاء بما أعطت له وأن تقيم الأدلاء والاسواق في طريقه وذلك أنه دخل مدخلا صعبا مخوفا على المسلمين فأجابته الى ما سأل «•• وكتبوا كتاب الهدنة إلى ثلاث سنين وسلمت الاسرى ••»
أما السفارات إلى العواصم فقد كان بقاؤها فيهــا قــد يطول أشهراً في الضيافة وكانت بيزنطة تحتفظ في مراسمها بمكان الصدارة دوماً للسفراء•
ونجد في نظام المراسم الذي وضعه قسطنطين البورفيري صيغا ودية لحد كبير معدة لاستقبال سفراء بغداد والقاهرة ومن المراسيم التي وضعهـا أن يجلس « الاصدقاء العرب » في مرتبة أعلى من الاصدقاء الافرنج •

٢ ــ المراسلات الكتابية : وكانت هذه هــي الوسيلة الأسهل والأكثر شيوعاً في ضبط العلاقات وقد حفظ لنا الطبري خاصة وكتــب التاريخ الاخرى الكثير من صور هذه المراسلات التي نقلت نصوصها دون شك عن الوثائق الرسمية لديوان الرسائل في قصــر الخلافــة • وكان بعض هذه الرسائل يتحول إلى صكوك معاهدات بما يحمل مــن شروط وعهود •

ومن نماذج تلك الرسائل ما تبادله الرشيد ونقفور من المكاتبات عند نقض الروم العهد سنة ١٨٧/٨٠٣ واللهجة الملتهبة التي صيغت بها تلك الرسائل لم تكن اللهجة المألوفة في الخطابات الدبلوماسية الأخــرى التي نجد فيها ألواناً من اللين والشدة يمتزج بعضها ببعض • ومن ذلك ما تبادله المأمون مع تيوفيل بن ميشيل من الرســائل سنة ٢١٦/٨٣١ ويذكرون أن العادة كانت أن يبدأ كتاب ملك الروم باسم الخليفة فبــدأ الامبراطور تيوفيل بنفسه فلما ورد الكتاب إلى المأمون لم يقرأه وسار الى الحرب فجاء كتاب تيوفيل مرة أخرى سنة ٢١٧ على القاعدة • ويروى الطبري نصه ومنه : أما بعد فان اجتماع المختلفين على حظهما أولى بهما

في الرأي مما عاد بالضر عليهما .. وقد كنت كتبت إليك داعيا الى المسالمة راغبا في فضيلة المهادنة لتضع أوزار الحرب عنا ونكون كل واحد لكل واحد وليا وحزبا ... فان أبيت ... فاني لخائض إليك غمارها آخذ عليك أسدادها ... وإن أفعل فبعد أن قدمت المعذرة ... » .

وقد أجابه المأمون : « .. أما بعد فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة ودعوت إليه من الموادعة وخلطت فيه من اللين والشدة مما استعطفت به من شرح المتاجر واتصال المرافق وفك الاسرى ورفع القتل والقتال . فلولا ما رجعت إليه من إعمال التؤدة والأخذ بالخطر في تقليب الفكرة .. لجعلت جواب كتابك خيلا تحمل رجالا من أهل البأس و ... هم أظمأ الى موارد المنايا منكم إلى موارد السلامة .. غير أني رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة ... » ثم خيره بين الاسلام والجزية .

ثالثاً : تبادل الطرفان التأثير الحضاري على نطاق واسع . وقد لاحظ فازيلييف ان ثمة شبها في أوجه النشاط في أكثر من جهة ، بين المأمون وبين تيوفيل (سنة ٨٢٩ — ٨٤٢) ، الذي ظل معاصرا له أربع سنوات : فالاثنان اهتما بالمسائل الدينية وأثاروا المعارضة بالتجديد في الدين (واهتم المأمون خاصة بفرض مذهب ديني رسمي للدولة كالأباطرة) ، وكلاهما اهتم بالشعر وازدهرت في عهده العلوم والبناء ، وجعل لنفسه حلقة من العلماء الذين كان منهم ليو الرياضي ويوحنا النحوي . ولم يكن القصر الصيفي الذي بناه الامبراطور الرومي سوى محاكاة لقصر من قصور الخليفة بسبب تعلقه بالثقافة والفن العربيين .

على أن تيوفيل إنما كان يقلد ، في الواقع هارون الرشيد . كان يعتبره مثله الأعلى في الحكام وكان يطوف مثله أحياء العاصمة متصلا بالفقراء مستمعا إلى شكاوى الضعفاء متفقدا أحوال الرعية . فلم يصبح

محببا الى قلوبها فقط ولكن نسجت من حوله الاساطير والحكايات بدوره كالرشيد • ويعتبر عهد تيوفيل العهد الذي بلغ فيه التأثير الاسلامي على العالم البزنطي ذروة قوته ووضوحه[١] •

رابعاً : أثرت الحروب العربية ـ البيزنطية في الأدب الشعبي في كلا البلدين • فقد خلقت نموذجاً لبطل قومي أسطوري له قوة خارقة وأعمال عجيبة • من ذلك : محارب عربي اسمه عبد الله البطال قد يكون استشهد في معركة اكرونيون بآسيا الصغرى سنة ٧٤٠ • ولكنه أصبح فيما بعد ، النموذج الحي التاريخي للبطل القومي التركي (سيد بطال غازي) ولا يزال قبره في احدى القرى جنوبي اسكي شهر (دوريلا يوم قديماً) • وظهرت بالمقابل ملحمة للبطولة البيزنطية تصور أعمال البطل القومي اليوناني ، وقد نسجت حول شخصية : (ديجينيس اكريتاس) وهو شخص حقيقي قتل في إحدى المعارك مع العرب سنة ٧٨٨ على ما يظهر ، وكان قبره غير بعيد من سميساط • وهذه الملحمة هي ما يسمى بالاغنيات الشعبية الأكريتاسية وتصور خاصة حروب القرن التاسع بين بيزنطة والعرب ، لاسيما معركة عمورية (زمن المعتصم سنة ٨٣٨م ٢٢٣هـ) وهي مصدر غني للعلاقات الثقافية بين بيزنطة والعرب عدا أنها تصور الحروب بينهما • وقد تمخضت الابحاث التي تمت حولها ، عن مسألة غاية في الأهمية هي الارتباط الوثيق بين ألف ليلة وليلة وبين شعر البطولة اليوناني ، وملحمة سيد بطال التركية (وأصلها عربي وانما دخلت دائرة الشعر التركي بعد نقلها للتركية) •

---

(١) انظر :

Ostrogorowski, G: Hist. of the Byz. State (trans) p. 183 , 184

Bury, A Hist. of the Eastern Rom. Emp. , p.p. 121-122

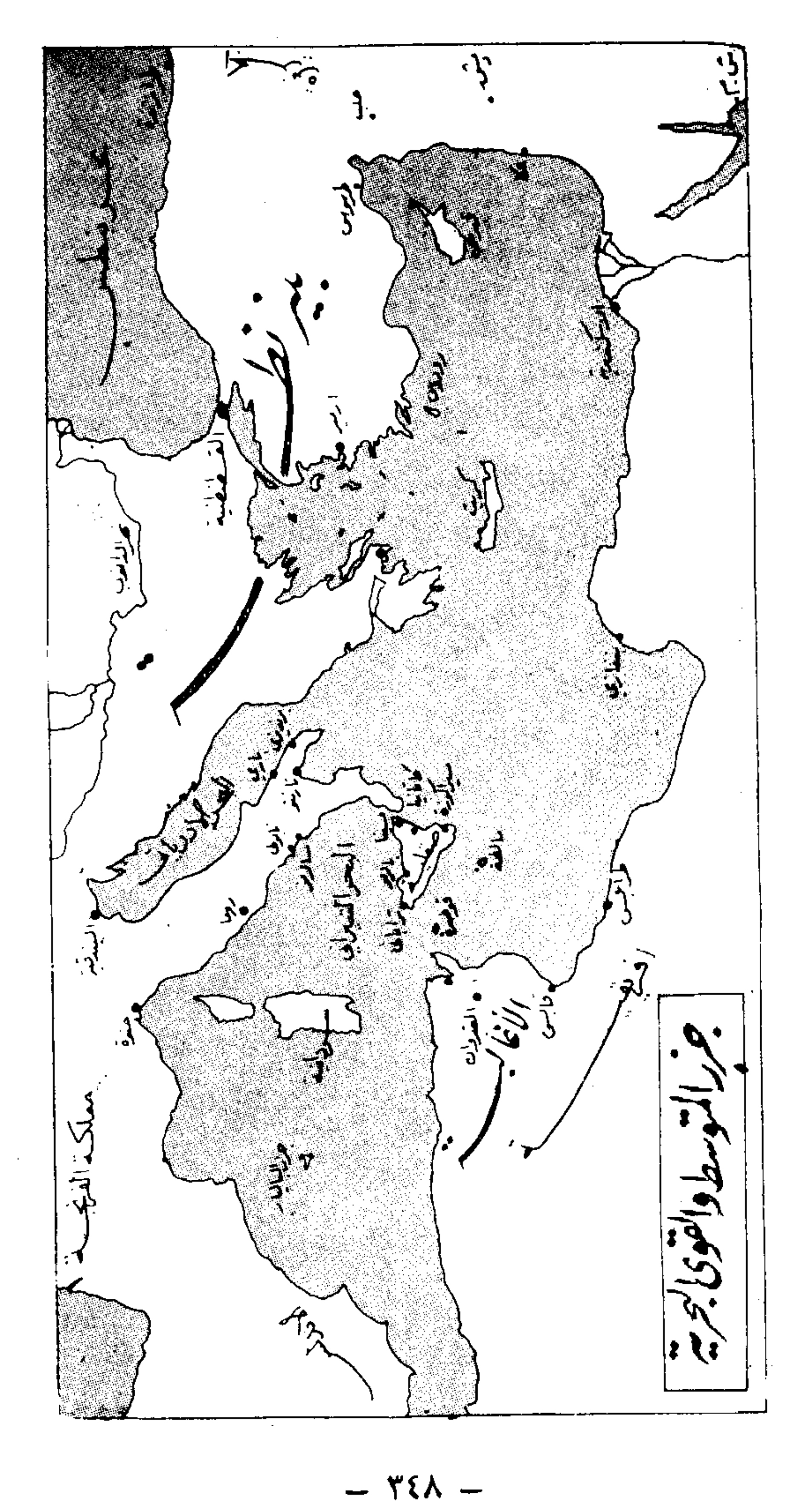
الفصل الخامس

العلاقات الخارجية

٢ - في البحر المتوسط والغرب

١ ــ القوى البحرية العباسية في المتوسط

أ ــ العباسيون والبحر المتوسط : نظرت الخلافة العباسية الى البحر المتوسط على أنه الحدود التي تقف عندها لا مجال النشاط التجاري والعسكري والسياسي الذي يجب أن تغزوه . ابتلعتها آسيا والشؤون القارية فاهتمت بالسيادة على البر تاركة السيادة على البحر للروم. وصارت شواطىء الشام ومصر بالنسبة الى بغداد نهايات وحدوداً ينبغي حمايتها لا ثغوراً وأبواباً للانطلاق منها الى ما وراء البحر والسيادة على مائه وتسخيره للتجارة والسياسة الاسلامية وقد كان عصر الأمويين عصر التعرف الى البحر والتعامل معه ولكن ظهور العباسيين أوقف هذا التطور البحري فجأة فلم تستطع الدولة الاسلامية أن تفعل ما فعلته الامبراطورية الرومانية في السيطرة على الشواطىء الغربية خاصة والشمالية وفرض نفوذها عليها .


جزر المتوسط والقوى البحرية
بيزنطة
القسطنطينية
البندقية
جنوة
مملكة الفرنجة
الأندلس
جزر البليار
سردانية
روما
نابولي
سالرنو
تارنتو
باري
البحر التيراني
صقلية
بالرمو
مسينا
قطانيا
سيراقوزة
قوصرة
مالطة
الأغالبة
القيروان
قابس
طرابلس
بنغازي
الإسكندرية
كريت
رودس
طرسوس
حلب
دمشق
عكا

.والعناية البحرية الكبرى إنما صرفتها الدولة العباسية لخليج البصرة وعمان وللمحيط الهندي • وكان نشاطها هناك نشاطاً تجارياً واسعاً وقلما رافقه نشاط عسكري أو ارتبط به عمل سياسي إلا في بعض الظروف المتصلة إما بعمان أو بحر القلزم أحياناً أو بحوض نهر السند الاسلامي •

كالذي كان من توجه خازم بن خزيمة في خليج البصرة لقمع خوارج عمان أيام أبي العباس سنة ١٣٤ والحملة البحرية التي أرسلها المنصور لرد حملات القرصان الكرك عن جدة والحملة البحرية الأخرى التي قادها عمرو بن جمل في البوارج الى (نارند) في الهند بأمر المنصور والحملة البحرية الثانية التي سيرها المهدي بقيادة عبد الملك بن شهاب المسمعي الى هذه المدينة نفسها وانتصرت ثم نكبتها الأوبئة والعواصف في العودة • وكان منطلق هذه الحملات العسكرية هو نفسه الميناء التجاري الأول للعراق في تلك الفترة : ميناء البصرة • ولم يكن في المحيط الهندي على أي حال ـ فيما عدا القرصان ـ من دولة أو قوة بحرية أخرى تقف في وجه النفوذ البحري العربي فكان المحيط الهندي ، في الواقع ، بحراً عربياً خالصاً للمراكب الاسلامية وتسبح في ظلها المراكب الهندية وغيرها •

ويبدو أن متابعة بيزنطة لسياسة الرقابة التجارية على البحر المتوسط ، بعد قيام العباسيين كما تابعتها أيام الأمويين وإغلاقها غربي البحر المتوسط في وجه التاجر المسلم وحصرها مرور التجارة الشرقية اللازمة لبيزنطة خاصة ولبلاد الغرب عامة عبر ثغر طرابزون على البحر الأسود[١] ، وهي التجارة المستوردة بواسطة التجار العرب في بلاد فارس

(١) ارشيبالدلويس ـ القوى البحرية (الترجمة العربية) ص١٧٥

والعراق كل ذلك بجانب حقد العباسيين على الشام الأموي قد جعل بني العباس يواصلون إجراءات الدولة الأموية الخاصة بالرقابة التجارية وتقييد حركة التنقل وحصر مرور التجارة تحت أعينهم بالعراق • وثمة خبر يذكر أن المنصور طمر القناة التي كانت تصل بين النيل والبحر الأحمر (القلزم) سنة ١٤٥/٧٦٢[1] • وهذا الاجراء وإن كان السبب فيه إيقاف وصول الميرة من مصر الى الحجاز الثائر مع محمد ذي النفس الزكية وحصاره الاقتصادي إلا إنه كان من نتائجه أيضاً ـ أو من دوافعه ـ حصر وتحويل تجارة المحيط الهندي من طريق بحر القلزم نهائياً إلى طريق العراق •

أما في البحر المتوسط فلم يكن بالإمكان أن يبذل العباسيون أي نشاط فيه دون أن تكون له مضاعفات أو مقدمات وذيول سياسية وعسكرية بجانب النتائج الاقتصادية المترتبة على ذلك ، لا مع بيزنطة فحسب ولكن مع كثرة الدول الناشطة على أطرافه • وإذا كان حوضه الشرقي بيد العباسيين في الشرق والجنوب ، وبأيدي الروم في الشمال ، فإن حوضه الغربي كان مشتركاً بين : الروم أنفسهم في ايطاليا وصقلية ، وبين الفرنجة في الشواطيء الشمالية وبين عرب الاندلس الأمويين في شواطيء إيبريا ، أما في المغرب وافريقيا فقد كان الشاطيء للعباسيين بالاسم وسرعان ما تظهر فيه ومنذ عهد الرشيد نفسه قواه المحلية المنفصلة لتمارس سياساتها الخاصة (ثار المغرب واستقل على يد الأدارسة سنة

ورانسيمان ـ الحضارةالبيزنطية (الترجمة العربية ـ جاويد ـ القاهرة ١٩٦١) ص ١٩٨

(١) المصدر نفسه ص ٢٠٣ التعليق رقم ٦٨ نقلا عن ويل •

٧٨٨ وتلقى الأغالبة الاعتراف الفعلي من بغداد بحكمهم لأفريقية سنة ١٨٤/٨٠٠) •

وبالرغم من أن الطابع العام لعلاقة العباسيين بالبحر المتوسط كان الاهمال والانصراف عن تنمية القوى البحرية إلا إن هذا لا يعني أنه لم يكن في المتوسط ، فيسواحل الشاموصر أسطول عباسي كما لا يعني أنه لم تقم عمليات حربية هامة في العصر العباسي الأول بين هذا الأسطول والروم • لكن الملاحظتين الأساسيتين في هذا الصدد هما :

أ ــ أن اهتمام الروم بأسطولهم وباستغلاله التجاري والعسكري في المتوسط كان في تلك الفترة ــ وهي فترة الأوج في الحكم العباسي ــ أكثر وأقوى بكثير من اهتمام العباسيين أنفسهم وهذا ما ترك السيطرة على الحوض الشرقي خاصة منه بأيدي الروم فترة لا تقل عن ثلاثة أرباع القرن أي ما بين سنة ٧٥٢ حتىسنة ٨٢٧ •

ولم تكن عظمة العباسيين في القوى البرية تتناسب مع قواهم وأعمالهم البحرية المحدودة ، وظل للروم السيطرة على صقلية وكريت وقبرص وسردينية وجزر الباليار كما تحكسوا في المضايق ذات القيمة الحربية الهامة على طرق التجارة العالمية •

ب ــ أن العمليات الحربية البرية لم تكن تتوافق وتترافق مع العمليات البحرية • ولم يسجل العباسيون إلا محاولات محدودة للتنسيق والتعاون بين جيوشهم البرية في الثغور وأسطولهم البحري علىالشواطىء والجزر •

جـ ـ خسرت الدولة البيزنطية حوالي نهاية هذه الفترة[1] جزيرتين من الجزر الثلاث الأكبر والأهم في المتوسط • خسرت صقلية وكريت وقد أخذهما المسلمون في هذه الفترة ، ولكن لم يكن ذلك بجهد العباسيين ولا بأسطولهم وإنما بقوى إفريقية وأندلسية • وقد نستطيع حسبان هذه القوى الافريقية والأندلسية لمصلحة العباسيين ولكنها ليست بتخطيط وتمويل بغداد ولم تكن تعمل لحسابها وإذا كان من نتيجة خسارة بيزنطة للجزيرتين زوال سيطرتها البحرية عن المتوسط فإن خلفاء بغداد لم يكونوا المستفيدين من ذلك ، ولكن القوى الجديدة التي نشأت في مصر (ابن طولون) وافريقيا (الأغالبة) والمغرب (الأدارسة)• والأدلة على إهمال العباسيين للبحر كثيرة ومن أهمها مثلاً :

أنه انتشرت في تلك الفترة إقامة «الأربطة» لا على سواحل الشام فقط ولكن على سواحل افريقيا إتقاء للغارات البيزنطية ، وقد بلغ من قوة الروم البحرية أن بعضهم اقترح على الرشيد فتح قناةالسويس لوصل البحر المتوسط بالأحمر فمنعه من ذلك نصيحة جعفر البرمكي الذي قال له : كان يتخطف الروم الناس من المسجد الحرام وتصل مراكبهم الى الحجاز[2] • وكان أسطول الروم يقوم بدورات تفتيشية على السواحل الاسلامية وقد يتصيدون مراكب وتجارات المسلمين • يقول ابن الأثير : « وصاروا يخرجون كل عام مراكب تطوف بالجزيرة (صقلية) وتذب

---

(١) نزل المسلمون كريت وصقلية في سنة واحدة هي سنة ٢١٢/ ٨٢٧ وكان ذلك مؤذنا بانتهاء السيطرة البحـــرية البيزنطيةعلى البحر المتوسط وهي السيطرة التي نالتها عقب هزيمة الاسطول الأموي في شمال قبرص سنة ٧٤٧/١٢٩

(٢) المسعودي ـ مروج الذهب وقد نقله السيوطي في تاريخ الخلفاء ص ٢٨٦

عنها وربما طارقوا تجاراً من المسلمين فيأخذونهم ٠٠»[١] ! ويعزو بعض المؤرخين استمرار وجود العواصم العربية : الفسطاط ، القيروان ، فاس ، قرطبة في الداخل إلى قوة الروم البحرية[٢] .

ب ـ الغزوات العباسية في البحر المتوسط : وعلى أي حال فإن العباسيين قاموا بعدة عمليات عسكرية بحرية وهي وإن لم يكن لها تألق وانتصارات الجيوش البرية إلا إنها كانت نوعاً من إثبات الوجود في البحر المتوسط وكان الذي يقوم بها هو في الغالب أسطول الشاطىء الشامي وربما أعانه الأسطول المرابط في سواحل مصر . ولعل أول ما سجل من الانتباه العباسي للبحر أمران دفع إليهما الاضطرار والحاجة الملحة :

فقد أمر أبو العباس سنة ١٣٦ بتجهيز حملة بحرية ـ برية لغزو إفريقية وعهد بتنظيم الحملة البحرية إلى المثنى بن زياد الخثعمي الذي وصل الاسكندرية في شوال من تلك السنة لتجهيز المراكب ـ ويقال إن مروان ابن محمد حين انهزم أمر بإحراق الاسطول المصري ـ لكن وفاة أبي العباس السريعة أوقفت المشروع كله . ولم يهتم أبو جعفر به لما كان على يديه من المشاغل الداخلية والثورات في المشرق ومع ذلك فإنهم يذكرون أن المنصور سمع وهو في الحج سنة ١٥٣ أن الكرك (وهم من مناطق السند) كانوا يغيرون في نوع من القرصنة على جدة ويهددون شواطئها وأنهم أغاروا عليها سنة ١٥١ ، فجهز فور عودته من الحج جيشاً في البحر ، أطلقه وراءهم من البصرة قبل أن يغادرها إلى بغداد[٣] .

---

(١) انظر ابن الأثير ج٥ ص ٤٥٦ (حوادث سنة ١٣٥) .
(٢) انظر ارشيبالدلويس ـ القوى البحرية ص ١٦٢
(٣) الطبري ج٨ ص٣٣و٤٢ (٣/٣٥٩ و ٣٧٠)

أما أول حملة بحرية حقيقية سجلت للعباسيين فهي :

١ ــ حملة سنة ١٥٧/٧٧٣ على شواطىء آسيا الجنوبية وكانت جزءاً من العمليات الحربية التي قادها المنصور في أواخر عهده ضد الروم . كانت الحملة برية ــ بحرية وقد قادها ثمامة بن وقاص وتسميه المراجع البيزنطية (باناكيس) الذي توغل شمالاً في أقليم القبادق ، وقد أمر الامبراطور قسطنطين الخامس فاستطاعت الجيوش البرية مع الأسطول الرومي أن تقطع خط الرجعة على ثمامة إذ احتلت مدينة سيس وحاصرت قواته البرية وحرمته الاتصال بالأسطول العربي . ولئن استطاع الافلات من التطويق إلا إن الحملة البرية فشلت بينما يسجل البيزنطيون خبر نجاح الأسطول العربي في الهجوم على قبرص وأسر حاكمها البيزنطي(١) .

٢ ــ ثم كانت حملتان أخريان سنة ١٦٠ و سنة ١٦١ قادهما في بحر الشام الغمر بن العباس الخثعمي . ولكن الخليفة المهدي اعتمد في نزال الروم على الجيوش البرية ولهذا كان البحر هادئاً بقدر ما كانت العمليات الحربية البرية حامية في الثغور وفي قلب آسيا الصغرى . ويجب أن ننتظر عهد الرشيد لنرى بعض التحول في هذا الهدوء .

٣ ــ ولم تكن المبادرة بالهجوم في عهد الرشيد من العرب ولكن الروم الذين كانت تقوم خططهم في ذلك الوقت على فرض الرقابة على الشواطىء العربية والإغارة المفاجئة عليها ، استطاعوا أن يأسروا سنة ١٧٤/٧٩٠ بعض السفن الاسلامية وهي في طريقها من مصر الى الشام ،

(١) ارشيبالدلويس ــ ص١٦٠

فأغار الأسطول الاسلامي على كريت وقبرص في تلك السنة نفسها مما يحمل على الظن بأن الروم كانوا يراقبون مشروع حملة بحرية اسلامية عليهم وقد حاولوا اجهاض المشروع بالهجوم على قسم من السفن المعدة له • ونزلت القوات العربية في الجزيرة ولم ينفع القبرصيين وصول قسم من الأسطول البيزنطي بأمر الامبراطورة ايرين لنجدتهم فقد هزم هذا الاسطول ، قرب خليج أضالية ، وأسر المسلمون قائده فجاء أمر بغداد بقتله • ويبدو أن والي الثغور يومذاك وهو عبد الملك بن صالح العباسي أراد نقض الصلح والعهد القديم المعطى لأهل قبرص • وكانت قبرص منذ عهد معاوية تدفع الجزية السنوية للعرب والروم معاً ، وقد زاد هشام بن عبد الملك في جزيتها ألف دينار فألغاها أبو جعفر المنصور[1] قائلاً : نحن أحق من أنصفهم ولم نتكثر بظلمهم ! وقد قرر عبد الملك فيما يظهر إجلاء أهل قبرص عنها • وإحلال المسلمين محلهم ولكنه أراد في نوع من الموقف الأخلاقي ــ الديني النادر المثال ، أن يأخذ من فقهاء عصره الفتوى في ذلك بحجة أنه « ما وفى لنا أهل قبرص قط » و « لم يزالوا يغشون أهل الاسلام ويناصحون أعداء الله الروم •• » • وهكذا كتب إلى الامام الأوزاعي ، والليث بن سعد ، ومالك ابن أنس ، وسفيان بن عيينة ، واسماعيل بن عياش ، ويحيى بن حمزة وإلى اسحق الفزاري ، ومخلد بن الحسين كتباً حفظ لنا البلاذري أجوبتهم عليها كمشكلة فقهية سياسية •• لكن مشروع الإجلاء لم يتم •

٤ ــ ويبدو أن ضعف العباسيين البحري ظل يغري بيزنطة باستخدام قبرص في الهجوم على السواحل الشامية ولهذا فقد تنبه الرشيد إلى

---

(١) كان عبد الملك بن مروان قد زادها ألف دينار من قبل وألغى ذلك عمر بن عبد العزيز (البلاذري ــ فتوح البلدان ج١ ص١٨٣) .

خطرها يوم حملته الكبرى على الروم سنة ١٩٠ فعهد إلى حميد بن معيوف الهمداني حسب رواية الطبري بأن يلي « سواحل بحر الشام إلى مصر » فجهز حملة بحرية ــ برية قوية ونزل قبرص سنة ١٩٠/٨٠٦ بينما كان الرشيد يهاجم الأناضول بأضخم حملة عباسية يومذاك « فهدم وحرق وسبى من أهلها ستة عشر ألفاً فأقدمهم الرافقة فتولى بيعهم أبو البختري القاضي، فبلغ أسقف قبرص ألفي دينار ..»[1] ويكمل البلاذري خبر الطبري بقوله عن أهل قبرص : «.. ثم إنهم استقاموا للمسلمين فأمر الرشيد برد من أسر منهم فردوا ..»[2] .

٦ ــ ويمكن أن نعد في إطار الحمــلات العباسية غزوة أسطول الأغالبة لسواحل اليونان (البلوبونيز) سنة ٨٠٦ ولا شك انها إنما كانت بإيعاز من الرشيد لاحكام الطوق على بيزنطة .

٧ ــ وفي السنة التالية سنة ١٩١/٨٠٧ قامت حملة على جزيــرة رودوس بأمر الرشيد وعادت محملة بالأسرى والغنائم ..

٨ ــ كما غزا اقريطش (كريت) قائد الرشيد : حميد بن معيوف ففتح بعضها .

وتنقطع أخبار العباسيين البحرية بعد هذا فترة طويلة كما كانت منقطعة من قبل فترة طويلة فلا نجد أي خبر عن عملية عباسية بحرية . والخبر التالي الذي جرى في زمن المأمون وكان مــن نتائجه كســب

---

(١) الطبري ج٨ ص ٣٢٠ (٣/٧٠٩) وص٣٢٢(٣/٧١١)
(٢) البلاذري ــ فتوح ج١ ص١٨٣ .

جزيرتي اقريطش وصقلية للمسلمين إنما قام به الأندلسيون والأغالبة . وكان هو الكسب الحقيقي من الأملاك البيزنطية .

والواقع أ نهذه الأعمال العسكرية البحرية التي اقتصرت على الهجوم على قبرص وعلى المنطقة المجاورة للثغور كانت أعمالاً محدودة المدى والنتائج . وبالرغم من أن الجبهة البرية في الأناضول كانت هي الجبهة الرئيسية والأهم فإن حصيلة العمليات العسكرية عليها بدورها لم تكن شيئاً مذكوراً أمام النتائج الخطيرة التي نجمت عن العمليات التي قامت بها القوى الاسلامية الأخرى في بقية نواحي البحر المتوسط .

٢ ـ القوى البحرية الاسلامية في المتوسط

١) ـ الصراع البحري : لئن سمح نصر بيزنطة البحري على الأمويين سنة ٧٤٧ . ثم الانصراف القاري العباسي من بعده ، بأن يصبح البيزنطيون هم أسياد الأسطول الأول والأقوى في البحر المتوسط وبأن يطبقوا نظام الرقابة الشديدة على تجارته ، فإن هذه السيادة لم تكن خالصة تماماً في الواقع . لأن القوى الاسلامية في هذا البحر تمزقت فقط ولكنها لم تمحق . وبينما اتخذت مصر والشام من جهة وافريقية والمغرب من جهة أخرى ، والأندلس من جهة ثالثة ، كل منها طريقها الخاص في العمل البحري التجاري والعسكري فإن مجموعات أخرى ، إسلامية ، حرة الارتباط ، صغيرة الأعداد ، خفيفة الحركة قد أخذت تظهر وتقوى وتعمل في طول هذا البحر وعرضه . وكانت تعمل خاصة ضد الشواطىء البيزنطية والفرنجية الممتدة من الأناضول حتى صقلية وايطاليا وجنوب فرنسا وضد مئات الجزر عند تلك الشواطىء .

لا تتحدث المصادر العربية عن هذه القوى التي تصفها المصادر

البيزنطية واللاتينية « بالقرصنة » والتي يجب أن تفهم مواقفها ودوافعها ، فقد كانت عناصرها مكونة من مصدرين :

أ ـ من المتطوعين المجاهدين الذين كانوا يتطوعـون للغزو بدافع ديني •

ب ـ من البحارة المسلمين الذين حرمتهم الأسـاطيل البزنطية ورقابتها القاسية في البحر ، فرص العمل التجاري ، فتحولوا الى الهجوم الانتقامي وإلى القرصنة[1] وإلى عمليات التهريب الناشطة •

وكانت مكامن هذه الجماعات ، التي تعمل لحسابها الخاص ، متعددة وتمتد على كافة شواطىء المتوسط الجنوبية خاصة • وقد كان يقابلها أيضاً من الجانب البيزنطي والأوروبي جماعات مـن القراصنة النصارى الذين يعملون بدورهم ضد الشواطىء الاسلامية المختلفة وقد نسبت بعض أعمالهم للمسلمين أيضاً •

وإذا اكتفت الأساطيل المختلفة الأندلسية ، والأغلبية العباسـية والفرنجية بأن تعمل كل منها محلياً وفي مناطقها مـن حوض المتوسط الشرقي والغربي فإن الأسطول البيزنطي كان يمثل الأسطول الأقوى في هذا البحر ويعمل على شواطىء واسعة لا تعكر سيادته سوى أعمال الجماعات البحرية الحرة التي بلغ من كثرتها وقوتها أن هددت أمن البحر

---

(١) سبب هذا الاحتكار البيزنطي أيضا هجرة كثير من المسيحيين من سورية و فلسطين الى قبرص والأناضول سنة٨١٣ (انظر ارشيبالدلويس ـ القوى البحرية ص١٧٩) •

المتوسط وعطلت في النصف الثاني من القرن الثامن خاصة وفي مطـالع القرن التاسع الكثير من تجارته ومواصلاته •

وجاءت ثورة توماس الصقلبي سنة ٨٢٠ ـ ٨٢٣ فأصابت القوة البحرية البيزنطية بضربة قاسية إذ خرجت هذه القوة منها عرجاء تماماً وقد أتت الحرب الأهلية على أساطيلها في الولايات وشتتت شملها[١] • فكان يكفي لقوة منظمة ناشطة أن تكشـف الانهيار البيزنطي البحري وتكسب المكاسب الهامة على حسابه • وهذا بالضبط ما تم سنة ٨٢٧ في أهم موقعين من مواقع المتوسط الجزرية : كريت وصقلية ، انتقم فيهما النفوذ الاسلامي البحري لهزيمة قبرص سنة ٧٤٧ ونتائجها إذ كسر عملياً نظام الرقابة التجاري ــ العسكري الذي فرضته بيزنطة مدة تزيد على ثلاثة أرباع القرن تحكمت خلالها بتوجيه طرق التجارة الدولية عبر الموانىء والبحار والممرات التي تخضع لها كما غيرت خلالها الوسطاء التجاريين في المتوسط ، فأبعدت أهل الشام ومصر وافريقية ، وجعلت التجارة احتكاراً لرعايا بيزنطة بصورة خاصة والبلاد الخاضعة لها في ايطاليا وعلى البحر الأسود •

على أن الانتصار الاسلامي في كريت وصقلية لم ينجم عنه تحول التجارة البحرية تحولاً كاملاً في الثغور والطرق والوسطاء إلى المسلمين ولكن تقاسم النفوذ التجاري بينهم وبين تجار المدن الايطالية (البندقية ، أمالفي ، باري) في المناطق التي انحسر عنها النفوذ التجاري ــ الساسي البيزنطي ، وكثر الوسطاء خاصة وأصحاب السفن من هذه المدن بجانب

---

(١) ارشيبالدلويس ــ القوى البحرية ص ١٦٩ •

اليونان البيزنطيين والعرب المسلمين • وبينما بدأت بيزنطة تتحول إلى نوع من السلبية الاقتصادية والركود التجاري ، ظهر النشاط التجاري والسياسي في موانىء مصر خاصة وفي افريقيا مما نجم عنه ظهور الدول المنقطعة في الاقليمين (الطولونية والأغلبية والأدريسية) •

ب ــ فتح كريت : لعل فتح هذه الجزيرة من قبل المسلمين كان أكثر المغامرات طرافة وشأناً بين مغامرات الأساطيل الحرة في المتوسط في ذلك الحين • فقد قام بهذا الفتح جماعة أندلسية مطرودة من قبل الحكام المسلمين في غرب المتوسط ثم من شرقه على السواء • وقد بدأت قصتها بالثورة المعروفة في الأندلس باسم ثورة أهل الربض إذ ثارت في قرطبة سنة ٨٠٥ ثم في طليطلة سنة٨٠٧ هذه الجماعة من سكان الأرباض فلما قمع الحكم الأول الأموي تلك الفتن بأساليب البطش الشديد انبعثت الثورة من جديد سنة ٨١٣ في قرطبة فلما تمكن الحكم منهم قرر أن يدمر الحي الثائر • واعطى سكانه مهلة ثلاثة أيام للنجاة بأنفسهم والخروج من الاندلس كله أو يصلب ! ونزل أهل الربض في المراكب فبعض استقر في فاس من المغرب ومنهم من واصل السير في البحر حتى إذا وصلوا الاسكندرية نزلوا في جوارها سنة ١٩٩/٨١٤ ولم يكن مسموحا لأهل الاندلس النزول في الأرض العباسية ولكنهم كانوا ١٥ ألفاً من اللاجئين عدا النساء والأطفال وكان الحكم العباسي مهتزاً في مصر قد غلب على شرق الدلتا (أسفل الأرض) منها عبد العزيز بن الجروي وغلب على ماوراء ذلك حتى الصعيد عبيد الله بن السرى واختصم الاثنان فلم يلق الاندلسيون معارضة في نزولهم ثم استطاعوا بعد قليل سنة ٢٠٤/٨١٨ دخول الاسكندرية والاستيلاء عليها بزعامة أبي حفص عمر ابن شعيب (أو عيسى) البلوطي لأنها مع أعمالها حتى بحيرة مريوط كانت خاضعة لسيطرة قبلية بدوية من قبيلتي لخم وجذام •

ولما قرر المأمون إنهاء الاضطراب في الأجزاء الغربية من الخلافة سنة ٢١٠/٨٢٥ وأرسل عليها عبد الله بن طاهر بن الحسين واستطاع هذا القائد أن يلغي الاستقلال الذي أعلنه ابن السرى في مصر ويعيدها الى التبعية العباسية مال على هؤلاء الاندلسيين فهزمهم ثم خيرهم بين القتل أو الرحيل « فسألوه الأمان على أن يرحلوا الى بعض أطراف الروم التي ليست من بلاد الاسلام » • ولا شك أنهم كانوا قد شكلوا إذ ذاك قوة بحرية تجارية واستخدموا اسطول المراكب الذي قدموا فيه ، في التعرف الى الحوض الشرقي للمتوسط • واختار هؤلاء الإندلسيون جزيرة كريت لا لموقعها الاستراتيجي التجاري الهام فقط على مدخل بحر ايجة وسعتها وخيراتها ولكن لأن الاسطول البزنطي كان في ذلك الوقت أضعف من ان يحمي أي شاطيء للروم أيضاً • وقد أرسلوا سنة ٨٢٦ حملة من عشرين سفينة إلى كريت فعادت إليهم بكثير من الغنائم والأسرى وتعرفت إلى دخائل الجزيرة ومواقعها •••

تحرك الاندلسيون في أسطول من أربعين سفينة ونزلوا فجأة خليج سودا في كريت سنة ٨٢٧ وأذن لهم أبو حفص في أن يعملوا أيديهم في النهب والبطش على الفور اثني عشر يوماً وفتحوا حصناً من حصونها جعلوه رأس جسر للفتح ولما لم يكن لهم من موئل يعودون إليه فقد بدأ أبو حفص في بناء حاضرة لاستقرار هذه الجموع معه في موضع بلد قديم على الشاطيء الشمالي للجزيرة عرفت باسم كنديا أو تشانداكس Chandia, Chandax (وهي تحريف كلمة خندق بسبب الخندق العميق الذي حفر حول المدينة) كما بدأ في الوقت نفسه سلسلة غارات عنيفة على انحاء الجزيرة أخضع خلالها ٢٩ بلداً من بلادها وخرب حصونها

ويستظهر فازيلييف من بعض الأخبار أنه لم يكن في الجزيرة من حامية حربية قوية • وقد ازداد هؤلاء الاندلسيون قوة حين لحق بهم بعض الاندلسيين الآخرين وحين زادوا في بناء المراكب وغزوا الجزيرة المجاورة حتى أرهبوها و نشأت بذلك دولة أبي حفص الذي عرفه التاريخ البيزنطي باسم Apocapso !

ويعزو مؤرخو البيزنطيات هذا الفتح إلى ضعف بيزنطة وإلى ما كان يكنه سكان كريت للنظام البزنطي من كراهية بسبب الظلم الضرائبي والاداري وبسبب الهرطقة المتعلقة باللا أيقونية وما من شك في أنه يجب أن يضاف إلى ذلك شجاعة هذه الجماعة التي كررت في كريت ماكان فعله طارق بن زياد من مغامرة الفتح لأنها وإن لم يكن مؤكداً أنها أخرقت السفن وراءها فإن طريق العودة كان على أي حال مسدودا في الواقع عليها في الشرق العباسي أو الغرب الأموي على السواء ويقولون إن أبا حفص استطاع عند احراق السفن تهدئة قومه الخائفين بامتداح الأرض وغناها وجمال نسائها •

وتروي المصادر الرومية القصص الخيالية حول ذلك الفتح الذي استرق به العرب المسلمون سكان تسع وعشرين بلداً وغزوا فيه الجزر حول كريت عشرات الغزوات •

ولم يخف على اباطرة بيزنطة وقوادها مدى الخسارة والخطر السياسي والعسكري والتجاري في سقوط كريت بيد المسلمين ولكن الحملات البحرية التي أرسلها الامبراطور ميخائيل الثاني بقيادة فوتينوس بعد أشهر من وصول العرب ثم بقيادة دميانوس مع أمداد جديدة بعد ذلك ثم بقيادة كراتيروس مع سبعين سفينة فشلت كلها وأجلاها العرب

بالقتـــال العنيف الى البحر • وبينما هرب الأول جـرح الثاني وقتل الثالث[1] •••

ولجأ الفاتحون إلى الهجوم المعاكس فقاموا عقب وفاة الامبراطور ميخائيل مباشرة بحملة بحرية خربت ونهبت شواطيء ايونيا وكاريا وجبل لاتروس ويبدو أن هذه الحملات أضحت تقليداً لدى الحكام الاسلاميين في كريت الذي اتخذوها مركز انطلاق الى البر اليوناني حيث يبدو من بعض النقوش الكوفية التي وجدت في أثينة أن العرب استوطنوا حيناً من الوقت تلك الجهات[2] وكانوا في أواسط القرن العـــاشر يهددون سواحل بحر ايجه كلها بما قادوه من هجمات واسعةتناولت جزر الأرخبيل اليوناني حتى خلت من سكانها خلواً يكاد يكون تاماً وقد ظلت جزيرة كريت في الحكم العربي نحو قرن ونصف من الزمان حتى استردهانقفور فوقاس سنة ٩٦١ م •

جـ ـ فتح صقلية : وقد كان فتحها متواقتاً مع فتح كريت • وإذا كانت المقدمات الاولى لاحتلالها لم تنجح ، منذ محاولة معاوية فتحها سنة ٦٥٢ ثم محاولته الاخرى سنة ٦٦٩ ثم المحاولات التي كانت بعـــده وخاصة سنة ٧٠٠ وسنة ٧٥٢ اذا كانت كلها لم تنجح فإن وصول الأغالبة الى الحكم في المغرب الأدنى وتوطد دولتهم في تونس (منذ عهد الرشيد)

---

(١) انظر قصة الفتح لدى فازيلييف ـ العرب والروم ص ٥٣ وما بعد ، ابراهيم العدوي ـ الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ص ١٠٧

Bury. A Hist. of the Eastern Roman Empire (London 1912) pp. 287-291 .

(٢) فيليب حتى ـ العرب(الترجمة العربية) ج٢ ص٥٤٢ـ٥٤٣ (الطبعة الرابعة بيروت١٩٦٥) .

تجاه صقلية ، جعل هذه الجزيرة مطمع توسعهم البحري •

وتتميز افريقية والمغرب عن غيرهما مما دخل في حوزة الاسلام من أقطار البحر المتوسط بأن النشاط البحري جزء لا يتجزأ من حياتهما وكيانهما الاقتصادي والاجتماعي • وسكان هذا الشريط الساحلي العامر لا يستغنون عن البحر وتجارته ولهذا كانوا من أنشط الشعوب البحرية منذ العهد الفينيقي ثم أيام الرومان والبزنطيين • وقد غلبت طبيعة البلاد البحرية على المسلمين • فأنشأوا ميناء تونس بعد اختطاطهم القيروان في الداخل • وما كاد المغرب يبدأ التخلص من قبضة المشرق بعض الشيء بقيام الأغالبة حتى عاد أهله إلى نشاطهم البحري بين الحوضين الشرقي والغربي للبحر المتوسط • وهكذا لم يكن فتح صقلية مصادفة او استمراراً لسياسة الفتوح الاسلامية بقدر ما كان محاولة من المغرب لاستعادة مركزه في البحر المتوسط في نطاق اسلامي •• وبعد أن كان هذا الشاطيء العامر خاضعاً قبل الاسلام للشواطيء الأوروبية المقابلة له على هذا البحر نراه الآن يتجه الى السيادة عليها بعد الاسلام[1] •

كان من دلائل هذا الاتجاه التوسعي نحو الشمال تكاثر الغزوات البحرية الأغلبية على صقلية وجنوب ايطاليا في مطالع القرن التاسع (أواخر الثاني الهجري) • وهي غزوات تقوم في أساسها ودوافعها المنافسة التجارية •

وكان الأغالبة في افريقية (تونس) قد زادوا من قوة اسطولهم

---

(١) حسين مؤنس ـ المسلمون في البحر المتوسط (بحث في المجلة التاريخية المصرية ـ العدد الأول من المجلد الرابع ـ مايو سنة ١٩٥١) .

البحرية للدرجة التي استطاعوا معها منذ سنة ٨٠٥ (في عهد الرشيد ، وحين قام بحملته المشهورة على الاناضول) ان يقوموا بغارة بحرية على جزر البيلوبونيز غرضها معونة الرشيد على الأرجح . ولعل هذا كان السبب في أن يعقد بطريق صقلية (البيزنطي) مع ابراهيم بن الأغلب في السنة نفسها سنة ٨٠٥ ثم أن يعقد ابنه صلحاً عسكرياً تجارياً لمدة عشر سنوات جدد سنة ١٩٨/٨١٣ لعشر سنوات أخرى على يد أبي العباس عبد الله بن ابراهيم .

ويبدو أن تلك الاتفاقية لم تكن قوية الأثر فيما وراء المصالح المتبادلة المتعلقة بصقلية نفسها ذلك أنها « لم تمنع عرب شمالي افريقيا (الأغالبة) من القيام[1] بغارات ـ ولو فاشلة ـ على سردينية سنة ٨١٢ و سنة ٨١٣ » وقد كانت الغارة الأخيرة هي السبب في تجديد اتفاق الصلح بطلب من الأغالبة هذه المرة لأنهم خسروا فيها مائة سفينة أغرقتها لهم العواصف قرب سردينية ...

وما إن ولى الحكم زيادة الله بن الأغلب حتى عادت الغارات إلى شكلها الدوري المعتاد على صقلية منذ سنة ٨٢٠ فغنموا منها تلك السنة الغنائم العظيمة بقيادة محمد بن عبد الله الأغلبي (ابن عم الأمير) ثم كانت سردينية هي الهدف في العام التالي ... ولم يكن في عزم الأغالبة تحويل الغزوات إلى فتح لولا أن تطور الأحداث الداخلية في الجزيرة أعطاهم الفرصة المناسبة سنة ٨٢٧ .

فقد ثار زعيم الاسطول اوفيميوس Euphemios على بطريق الجزيرة

---

(١) ارشيبالدلويس ـ القوى البحرية ص ١٦٥ .

والامبراطور البزنطي ميخائيل الثاني سنة ٨٢٦ لأسباب قد يكون من بينها طموحه . فلما انهزم فر إلى القيروان يعرض على زيادة الله الأغلبي مشروع فتح الجزيرة على ان يكون تابعاً له بعد الفتح يحكمها ويؤدي الجزية . وعرض الامير المشروع على (الجماعة) ، وهم مجلس شوراه فلم يرضوه ويبدو أن الاتفاقية التجارية العسكرية كانت قد جددت مرة ثالثة فلم يرض معظمهم بنقضها . لاسيما والجزيرة معروفة المناعة ولكن المصاعب الداخلية التي كان يعاني منها الحكم الأغلبي ومشورة القاضي المسموع الكلمة ابي عبد الله أسد بن الفرات بن سنان (وهو في الأصل من الجند الخراسانية ومن مواليد حران شمال سورية) دفعت الأمير الأغلبي الى قبول المشروع لا سيما بعد أن عرف ان ثورة توماس الصقلبي قد اهلكت بيزنطة ودمرت اسطولها ، وبعد أن تواترت الأنباء بظفر أهل الربض الأندلسيين في النزول بجزيرة كريت .. وقد قدم اوفيميوس (ويدعوه العرب فيمه) نفسه دليلا في الجزيرة كما أعلن أن رجاله في مرفأ (مزارا) ينتظرون ! ..

وهكذا تقرر الفتح . واجتمع له من الجند الاسلامي ٧٠٠ فارس و ١٠ آلاف راجل على مائة سفينة وأعطيت القيادة لأسد بن الفرات نفسه . وسار أسطوله بجانب أسطول ايفيميوس (في ١٤ حزيران سنة ٨٢٧/ ١٥ ربيع الاول سنة ٢١٢) ونزلت الحملة بعد ثلاثة أيام من ثغر مزارة على الساحل الغربي . وقد خشي أسد بن الفرات الغدر من صاحبه فرأى أن يعمل منفرداً . وطلب من ايفيميوس أن يميز جنده عن جند بيزنطة بعلامة فارقة وبدأ التهيؤ لمقابلة القوات الرومية التي هرعت لحربه من بالرمو فلقيها على الطريق إليه .

وقد انتصر أسد في موقعة (بلاطة[1]) رغم تفوق الجيش البزنطي في العدد والعدة ثم ألقى الحصار على (سرقوصة) عشرة أشهر ولم يأبه للمجاعة التي حلت بجنده ، ولا للثورة التي قامت فيهم تريد العودة ، فأخمدها • ولا لمكائد الروم وتواطؤ اوفيميوس في النهاية معهم ، ولكنه توفي بالطاعون مع عدد من جنده ، واختار الجيش لقيادته (محمد بن ابي الجواري) ولكنه كان مهدداً بالامداد السعدوة التي وصلت من القسطنطينية والبندقية للجزيرة • وبالرغم من ان ايفيميوس الذي كان رائدهم في العمل ، قد هلك بمؤامرة بيزنطيـة[2] • (ويعتبره المؤرخ الايطالي جابوتو بطلا قومياً) فإن الغزاة العرب على قلتهم بقوا يدافعون ويهاجمون عند الشاطيء الجنوبي من الجزيرة وحول مرفأ مزارة بالذات مدة سنتين • وقد منعهم من العودة ان القوات البيزنطية لم تكن أقوى منهم وأن الاسطول البيزنطي كان قد أغرق السفن الاسلامية وقطـع طريق العودة • وظل الامر على ذلك ، حتى اتفق أن اجتمع سنة ٨٣٠

---

(١) على اسم السهل الذي جرت به . والمؤرخون يعزون اسم السهل الى أسم القائد البيزنطي في هذه المعركة . ويراجع في هذا البحث كله كتاب (العرب والروم) لفازيلييف • وكتاب غزوات العرب لشكيب ارسلان . واول الكتابين واسع المصادر عميق البحث ترجم الى العربية قسم منه . كما يراجع كتاب المسلمون في صقلية من تأليف مارتينو مورينو .

(٢) بعض المؤرخين الايطاليين مثل جابوتو يعتبره بطلا صقليا قوميا وبعضهم يعتبره خائنا . وقد قتل في مؤامرة إذ استدعاه بعض سكان بلدة (ياني) وهي محاصرة ليسلموه البلد فذهب إليهم في حرس قليل وتلقاه في المقابلة اثنان اخوان كانا من أصدقائه وبينما كان أحدهما يعانقه بقوة طعنه الثاني بخنجره في ظهره .. وحمل رأسه المقطوع في موكب ظفر الى داخل المدينة التي اشتدت معنوياتها فلم تستسلم للمحاصرين حتى وصل جيش بيزنطي انقذها .

اسطول أندلسي يقوده الاصبغ بن وكيل (الملقب بالفرغلوس) مع اسطول اغلبي قادم في ٣٠٠ سفينة حربية مشحونة لنجدة الغزاة ، فاتفقا على العمل المشترك ونجح المسلمون اثر ذلك في فتح بالرمو سنة ٨٣١ (٢١٦هـ) في الزاوية الشمالية الغربية من الجزيرة بالرغم من أن الوباء عاد فانتشر في الجند الاسلامي ومن أن بعض الجند الاندلسي عاد الى بلاده • وكان فتح بالرمو سنة ٨٣١ أمراً هاماً أعطى العرب قاعدة بحرية قوية ــ كما قال فازيلييف ــ يمكن الاعتماد عليها في فتح سائر الجزيرة• ولعل هذا النصر كان من أسباب إقدام الامبراطور تيوفيل رغم انتصاره في طرسوس والمصيصة على مصالحة المأمون تلك السنة •

وهكذا انتهت المرحلة الأولى من الفتح بعد كوارث مختلفة لم يستطع أن يستغلها امبراطور بيزنطة لانشغاله بحملات المأمون في الشرق وحملات المعتصم من بعده وثبتت اقدام العرب في صقلية بصعوبة خلال حرب عنيفة سجال دامت أربع سنين (٨٢٧ ــ ٨٣١) مشوا فيها بسرعة من الغرب الى الشرق ثم استقروا في بالرمو • ليبدأوا بعد ذلك المرحلة الثانية من الفتح لشرق وجنوب الجزيرة وقلبها • وهي المرحلة الأطول والأصعب فقد استولوا في السنين العشرة التالية على اقليم غني في غرب صقلية ، وأسسوا هناك أولى مستعمراتهم (واديمزارة) • التي استولت مع بالرمو على التجارة وطرقها في الحوض الأوسط للمتوسط وهيأت انهيار النفوذ السياسي والتجاري البيزنطي فيه •

ثم استطاع العرب بعد ذلك أخذ (مسينا) في الشرق سنة ٨٤٢ (سنة ٢٢٩) ثم فتحوا حصن البيزنطيين الحصين ياني سنة ٨٥٩ (٢٤٥هـ) ثم سقطت بأيديهم أخيراً سرقوصة بعد نضال عنيف (مايس سنة ٨٧٨) دمر المدينة كلها في عهد باسيل المقدوني (٨٦٧ ــ ٨٨٦) وانتهى بذلك

فتح الجزيرة ... بعد أن دام ٥٨ سنة ! لكن كان العرب قد جاوزوها ، قبل ذلك بزمن ، فأغاروا على كالابريا وغيرها من البر الايطالي وضموها مع صقلية الى الأملاك الافريقية ثم لم تبق في أيديهم بعد ذلك إلا ثلاثاً وسبعين سنه !

٣ ـ العلاقات مع الجنوب (جنوب مصر وحوض النيل)

لعلنا قبل الانتقال الى الحوض الغربي من البحر المتوسط والى الغرب تتجه بالنظر الى قطاع مجهول مهمل هذه منطقة النوبة وما يجاورها في جنوب مصر . وإذا كان جنوب الدولة الاسلامية في الشرق ينتهي بالبحار (الهندي والعربي والأحمر) وجنوبها في الغرب تضرب الصحراء الكبرى سداً عريضاً بينه وبين ماوراءه من أرض السودان في غـرب افريقيا ووسطها فإن المنطقة الممتدة مابين البحر الاحمر الى حوض النيل اعتبارا من منطقة أسوان والشلال الاول كانت القطاع الجنوبي الوحيد الذي تتجاور فيه قوى الاسلام فتصطدم او تتهادن مع قوى أخرى غير مسلمة .

وهذا القطاع يمتد مابين ساحل البحر الاحمر الغربي المقابل لمكة والمدينة وعسير حتى حوض النيل . وقد نستطيع تحديده الجغرافي بحصره فيما بين عيذاب ومصوع على البحر وبين أسوان وعلوة (جنوب الخرطوم) على النيل . وعلاقة هذه المنطقة بالعرب واسعة وسابقة للاسلام ، ولعلنا نذكر بهجرة المسلمين الأولى الى الحبشة . ولم تستمر العلاقة قائمـة فقط بعد الفتح الاسلامي ولكنها ازدوجت أيضا إذ أصبح اتصال الحكم العربي بالمنطقة ثنائي الجهة : يأتي عبر البحر الأحمر كما يأتي عن طريق وادي النيل من مصر . ويمكن ان نقسم هذه البقاع إلى منطقتين :

. **الأولى** : فيما بين الوادي والبحر الاحمر وسكانها من قبائل البجة (الأبشا)[١] ولكن عددا من البطون العربية (وبعضها من ربيعة) انتقل إلى مناطق البجة في العهد الاسلامي وتوطن بساحل الزنج أي المناطق الساحلية كما توغل أحيانا في داخل المنطقة بسبب مافيها من الموارد ذات القيمة الاقتصادية . فالمناطق الواسعة التي تسكنها البجة عرفها التاريخ الاسلامي باسم أرض المعدن وكانت فيها مناجم الذهب (التبر) والزمرد . كما كانت الطرق الموصلة بين موانىء البحر الأحمر ووادي النيل وخاصة ما بين عيذاب وقوص قطعة من طرق التجارة العالمية الموصلة ما بين المحيط الهندي والبحر المتوسط يسلكها تجار الهند واليمن والحبشة[٢] كما كانت طريق الحجاج ولم يعقد العرب المسلمون أي اتفاق مع قبائل البجة واعتبروها قبائل وثنية غير جديرة بأي تحالف سياسي .

لكن يبدو أن الأمويين اهتموا بمنطقة المعدن اهتماما واضحا لا بسبب ذهبها فقط ولكن لأن مجموعات عربية من المناوئين للأمويين هربت ، بعد الثورات الزبيرية والعلوية والخارجية ، من الحجاز أو من مناطق عمان والعراق الى ساحل الزنج[٣] . وجعلت تقوم مع التجارة ببعض القرصنة وقد أرسل عبد الملك بن مروان قوة عسكرية الى هذا

---

(١) كلمة بجة اصلها من اللغة المصرية القديمة (ابشا) وتعني البدو سكان الصحراء وهم بضم الباء وفتح الجيم .

(٢) انظر المقريزي ـ الخطط ج ١ ص ٣٥٦ (طبعة بيروت) .

(٣) يعود الى هذا العهد وصول أسرة ومجموعة الفنج أقرباء الامويين الى برالزنج من عمان وهي الاسرة التي سوف يكون لها دورها في تاريخ السودان وارتيريا حتى مطالع العصر الحديث .

الساحل تضمن ولاءه وأمنه سنة ٧٥هـ • عرفت باسم «شام» أي أهل الشام وتولى الحكم فيه أمراء أمويون أقاموا المدن واشتغل عـدد من الشاميين منها بتجارة التوابل والريش والمعادن والعاج كما قاموا بالإدارة الحكوميـة وتحصيل الضرائب من السكان ومـن التجار ••• وهذا بالطبع[1] ما يفسر هرب بعض الأمويين ، الى ما سمته المصادر بالحبشة يوم طاردهم العباسيون •••

وقد أسلم البجة بعد أن فتح عبد الله بن أبي سرح سنة ٣١هـ أعالي الصعيد ولكنه كان «إسلام تكليف ضبطوا فيه بعض شرائط الاسلام»[2] واحتفظوا بالكثير من وثنيتهم الأولى كما احتفظوا بزعاماتهم التقليدية التي يسميها الجغرافيون العرب «الممالك» ومنها البجة في الشمال ثـم جارين وتفلين ثم قطعة ودجن وبازين •••

ويبدو أن تكاثر العرب في دخول أرض البجة وغلبتهم على أرزاقهم دفع هؤلاء الى مهاجمة مصر العليا في مطالع القرن الثاني للهجرة (عهد هشام بن عبد الملك) حتى عقد عبيد الله بن الحبحاب والي خراج مصر معهم معاهدة نظمت علاقتهم بالأرض الاسلامية لأول مرة وقد وافقوا فيها على تقديم ٣٠٠ من الجمال إتاوة سنوية وأن لا يقبلوا الآبقين من الرقيق في بلادهم ويسمحوا المسلمين حق العبور والأمان لديهم •

وقد حافظ البجة على هذه العلاقة السلمية مع الإتاوة حين قـام العهد العباسي واحتفظ العباسيون ، بعد الأمويين لهذه الممالك باستقلالها

---

(١) انظر الشاطر بصيلي عبد الجليل ـ تاريخ وحضارات السودان (القاهرة ١٩٧٢) ص ٢٢٠ وقد استخلص هذه المعلومات من مخطوطات نشرها بعض المستشرقين مثل كتاب الزنوج (نشره تشيرولي) ومخطوط (ورنر) ومخطوط قاضي فسمايو •

(٢) ابن حوقل ـ صورة الأرض ص ٥٥

وزعاماتها . بعد أن وصلت قوات عباسية قامت في المنطقة بالدور الذي قامت به من قبل القوات الشامية . ويبدو أن ذلك كان في عهد المنصور وفي حوالي سنة ١٥٣ لأنا نسمع عن حملة بحرية أرسلها من البصرة لمقاومة القرصنة على السواحل الغربية للبحر الاحمر تلك السنة(١) لمقاومة عمليات القرصنة التي تعرضت لها جدة قبل ذلك .

ولا نسمع بعد ذلك عن حركة في أرض البجة . حتى إذا كانت فتنة الأمين والمأمون واضطراب الأمر في مصر خاصة وغلب عليها المتغلبون بدا لأهل المنطقة أن يقطعوا علاقتهم الاسمية بوالي مصر وبالدولة الاسلامية فانتهزوا فرصة مرور حاكم قفط ابراهيم بأرضهم الى الحج سنة ٢٠٤ فقتلوه ولا شك أن وراء القتل محاولة للسيطرة على الطرق التجارية حاولها ذلك الحاكم فلقي فيها مصرعه لأن ابن حوقل يقول إن البجة عللت قتله بقولها : «... لمعرفته بديارنا ومقارنا ومظان مياهنا ولسنا نأمنه» ! ويضيف أن (محا) ملك البجة غلب على رأيه أمام أولئك الذين دبروا المؤامرة على ابراهيم القفطي واتفقوا على إتاهته (في الأراضي الصحراوية) فمات عطشا ومن كان معه على أن ابنه الذي هرب به بعض البجة الى ادفو بالحيلة أبلغ أهله في قفط بالواقعة . ولما جاء (محا) يمتار على عادته الدائمة من قفط . أنزلوه مع ثلاثين رجلاً في بعض بيعهم وأتوا عليهم أجمعين .. واتصل ذلك بالبجة فساروا إليهم .. فهرب بعض أهل قفط مغربين بينما فتح المهاجمون البلد وسبوا منه سبع مائة نسمة وقتلوا خلقاً واسعاً . وكان بقفط رجل من آل الحسن له مكانته فقصد البجة فرد بعض السبي ... » .

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٤٢ (٣/٣٧٠) .
(٢) انظر ابن حوقل ـ صورة الأرض ص ٥٦ ـ ٥٧ .

« وانحدر أهل قفط إلى مصر والسلطان ببعض شأنه مشغول[١]،
فأقاموا يرمغون بمصر سبع سنين .. » وأخيراً قصدوا رجلا في الحوف
ذا يسار وخير وجهاد يعرف بحكم النابغي فاستجاروا به واشترط أن
يأتوه بكتاب من قاضي وشيوخ البلد ففعلوا وسار معهم ٢١٢ حتى ورد
قفط في ألف رجل من قومه تصفهم من الفرسان واتخذ مقامه في موقع
متقدم من بلاد البجة وبقي يغزوهم ثلاث سنوات حتى استرد سبى قفط
عن آخره وأعيدت أسوار قفط وأسوان وقوص كما كانت من قبل[١] .

وجاء المأمون مصر سنة ٢١٦ ويبدو أنه أراد تهدئة الحدود الجنوبية
أيضاً فأرسل مولاه عبد الله بن الجهم والياً على أسوان فكانت له معهم
وقائع ثم طلبوا الهدنة فعقد مع كنون بن عبد العزيز عظيم البجة عقد أمان
سنة ٢١٦/٨٣١ جدد فيه المعاهدة الأولى التي كانت عقدتها الدولة
الاسلامية معهم قبل قرن كامل ، أيام عبد الله بن الحبحاب ، وإذا اعترف
العقد الجديد للبجة بأن حدهم الشمالي يبدأ من منتهى حد أسوان
والجنوبي مابين جزر دهلك وميناء باضع الا انه جعل المنطقة كلها من
أملاك امير المؤمنين باعترافهم ويبقى ملكها عليهما كما نص العقد على
اعتراف آخر يقول : « ... وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لأمير المؤمنين»
وهذا لايعني التبعية السياسية فقط ولكن يعني أن العقد قد أملى إملاء
على البجة ومن مركز القوة واشترط العقد ألا يهدم البجة شيئاً من

---

(١) هي خصومة السري بن الحكم الذي ملك الصعيد مع عبد العزيز ابن الجروي الذي ملك الوجه البحري . وقد قتل عبد العزيز ثم مات السري سنة ٢٠٥ ومات أبو نصر بن السري سنة ٢٠٦ وظلت الخصومة والحروب بين علي بن الجروي وعبيد الله بن السري قائمة في الدلتا حتى وصلت جيوش المأمون سنة ٢١١ .

(٢) انظر ابن حوقل ـ صورة الأرض ص ٥٧ .

المساجد التي بناها المسلمون في هجر وغيرها من مدن المنطقة « طولاً وعرضاً فإن فعلتم شيئاً من ذلك فلا عهد لكم ولا ذمـة » كما اشترط للحجاج حق المرور الآمن الى الحجاز ولعمال الصدقات (الزكاة) حق الدخول الى ارض البجة لجمعها من المسلمين ومقابل ذلك خفضت الاتاوة السنوية المفروضة على البجة فصارت ، رمزية الى حد ما : مائة جمل أو ثلاثمائة دينار[1] (ويقال أربع مائة مثقال تبر قبل أن يطبخ ويصفى) أيهما اختار المسلمون . ولعل تساهل المأمون في هذا الاتاوة كان الغرض منه منع البجة من التحالف مع ملوك النوبة في وادي النيل ضـد الدولة الاسلاميـة .

غير أن هذه الاتفاقية لم تعش طويلاً فما جاءعهد المتوكل سنة ٢٣٢ حتى نقضت ...

المنطقة الثانية : ممالك النوبة[2] وهي على وادي النيل . حدها الشمالي يبدأ عند بيعة قرب جزيرة فيلة هي « آخر حد الاسلام وأول حد النوبة»[3] وكان الوادي قد دخل المسيحية على المذهب اليعقوبي منذ

---

(١) انظر نص الأمان لدى المقريزي ــ الخطط (ط . بولاق) ج ١ ص ١٧٣ ومابعدها (ج ١ ص ٣٤٤ من طبعة بيروت) ويذكر النص أن العقد ترجم حرفاً حرفاً من قبل زكريا بن صالح المخزومي من سكان جدة وعبد الله بن اسماعيل القرشي وهذا يعني أن ملك البجة لم يكن يعرف العربية وأن بعض العرب المقيمين في المنطقة كانوا بالعكس يجيدون لغة البجة .

(٢) النوبة كلمة مأخوذة في الغالب من اسم مدينة نوب ــ تا عاصمة الكوشيين التي يرد اسمها في النقوش الفرعونية المتأخـرة حوالي القرن الثامن ق.م (وتسمى حاليا بلدة كريمة في مديرية دنقلة شمال السودان) أما النوبيون فأخذوا هذا الاسم في آخر القرن الثالث الميلادي حين هاجروا أيام الامبراطور ديوقليسيان من الواحات الغربية الى تلك المناطق من وادي النيل .

(٣) ابن حوقل ــ صورة الأرض ص ٥٦ .

القرن السادس الميلادي كما قامت فيه ممالك عدة أما ثروته فلا تقوم على الزراعة فقط ولكن على التجارة وقد كان ممراً تجارياً هاماً لاستيراد الرقيق وبعض البضائع النادرة كالعاج وريش النعام وغير ذلك . وقد عقد المسلمون بعد فتح مصر هدنة سياسية وتجارية مع ملك النوبة سنة ٣١/٦٥٢ عرفت بالبقط[١] وقبل سنتين من ذلك كانت مملكتا النوبة والمقرة (التي في جنوبها) قد توحدتا في مملكة واحدة تضم عدداً من الزعامات المحلية . فلما جاء العهد العباسي سنة ٧٥٠ كان قرياقس الملك في دنقلة يسيطر على حوالي ١٣ زعيماً محلياً حتى مملكة الأبواب في الجنوب[٢] ويبدو أن ملوك النوبة كانوا يمنعون أي اتصال بين بلادهم وبين الدولة الاسلامية وهذا لم يجعل أخبارهم نادرة فقط ولكن سمح لهم بالمحافظة على نصرانيتهم قروناً طويلة وكانت المراكب الاسلامية لاتجاوز الشلال الأول (الجندل) ولا يسمح لأحد أن ينزل منهـا الى باذن والي البلد النوبي الذي كان « لا يطلق لأحد الصعود (في النيل) إلى مولاه (الملك بدنقلة) لا لمسلم ولا لغيره[٣] .. »

ومع ذلك فإن هذا لم يمنع قيام صلات اقتصادية واشجة بين السكان المتجاورين في أرض الاسلام وارض النوبة « وكان لبعض أهل أسوان أراض وضياع في أرض النوبة » اشتروها من فلاحيها وأراد ملك النوبة منعهم من استثمارها وملكها فادعى أنها من أملاكه وأن فلاحيها ليسوا اكثر من عبيد له فيها وشكا مندوبه ذلك إلى المأمون حين جاء مصر وجاءه

---

(١) ربما كانت الكلمة آتية من الكلمة اللاتينية Pactum ومعناها عقد أو اتفاق .

(٢) انظر الشاطر بصيلي ـ تاريخ وحضارات السودان ص ٨٧ .

(٣) انظر المقريزي ـ الخطط ج ١ ص ٣٣٦ .

الوفد النوبي الى الفسطاط فرد الأمـر الى حـاكم أسوان . وخشي الملاكون أن يفقدوا إملاكهم فعلموا أولئك الفلاحين أن ينكروا أنهم عبيد وأن يذكروا أن علاقتهم بالملك كعلاقة الرعايا المسلمين بالخليفة ... وهكذا بالطبع ردت الدعوى[1] .

وهذه القصة نفسها تكشف أمراً آخر هو تأثر النوبة المجاورين لبلد الاسلام بالحكم الاسلامي ونوع نظامه وديمقراطيته والمساواة الانسانية فيه . فإن انكار اولئك النوبيين أنهم عبيد للملك وتحولهم إلى رعايا أدى كما يشهد المقريزي إلى أن ينقسم النوبة منـذ ذلك الوقت قسمين : احرارهم الذين يجاورون المسلمين وعبيد في أرض النوبـة . على أن الدولة النوبية وملوكها حافظوا بالمقابل على هدنتهم التي هادنوا عليها المسلمين ولم تتبدل ...

ولم تتبدل العلاقات السلمية التي قامت في العهد الاموي مع النوبة بمجيء العباسيين فلما كانت خلافة المهدي بدا له على مايظهر أن يمارس نوعاً من الضغط عليهم لسبب قد يكون ناشئاً عن الحماسة الدينية في عهده « فأمر بالزام النوبة في كل سنة ثلاث مائة رأس (من الرقيـق) وستين رأساً وزرافة على أن يعطوا قمحاً وخل خمر وثياباً وفـرشاً أو قيمته ..»[2] .

ويذكر البلاذري أنه قد « وجد في الديوان بمصر ـ أن النوبـة اعترضوا على هذه المطالبة « وادعوا أنه ليس يجب عليهم البقط لكل سنة . ورفعوا أن هذا البقط هو مما يأخذون من رقيق أعدائهم فإذا لم يجدوا منه شيئاً عادوا على اولادهم فأعطوهم منهم فيه بهذه العدة . فأمر

---

(١) انظر المقريزي ـ الخطط ج ١ ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩ .
(٢) البلاذري ـ فتوح ص ٢٨١ .

(المهدي) أن يحملوا في ذلك على أن يؤخذ منهم لكل ثلاث سنين بقط سنة ...»[1] .

وظل هذا العهد الجديد هو العهد المرعي حتى عهد المتوكل . وقد سأل عنه الناس والعارفين فيما يروى المقريزي – عبد الله بن طاهر قائد المأمون سنة ٢١١ واستخرجه من محفوظات الديوان بالفسطاط ولم يكن موجوداً – على ما يظهر – في محفوظات « ديوان الحضرة » ببغداد[2] .

الواحات : ولعل مما يتمم الصورة أن نضيف أخيراً فقرة أخرى حول منطقة ثالثة مجاورة هي منطقة الواحات في مصر : (الخارجة والداخلة والفرافرة) .

وقد كانت تعرف في تلك الفترات باسم مملكة موريتانيا . وكان مركزها الجغرافي ذا شأن استراتيجي هام في المواصلات لأنها تسيطر على الطرق الصحراوية التي يسلكها التجار ورجال الدين ما بين الاسكندرية وبلاد النوبة . وقد كان الحكم فيها ، منذ الفتح العربي ، حوالى سنة ٦٤٠ – فيما يروون – قد آل إلى أسرة مسلمة عرفت بآل عبدون (والاسم يوحي بأنه اسم متأخر العهد قليلا عن ذلك)[3] وإن كان معظم السكان من القبط النصارى . وكانت موارد هذه المملكة الخراج والجزية .

---

(١) البلاذري – فتوح البلدان ص ٢٨١ .

(٢) المقريزي – الخطط (ط . بيروت) ج ١ ص ٣٥٤ وانظر البلاذري – فتوح ص ٢٨١ .

(٣) صيغة فعلون ندر أن وجدت في المشرق العربي . وقد وجد منها اسم حمدون في القرن الثالث وهو جد الحمدانيين أما في المغرب فوجدت واستعملت كثيرا مثل زيدون وخلدون وعبدون . ولعل الواو والنون في النهاية مقتبسة عن لغة الاندلس اذ تعني هذه الزيادة في الكلمة الكبر والعظم .

« ولا يمد آل عبدون وخدمهم أيديهم في شيء من الجباية سوى الخراج والجزية من النصارى وليس بجميع الواحات يهودي واحد ..»[1] .

وسيرة آل عبدون كانت أحسن السير مع التجار والعابرين أيضاً كما كانت لهم القصور والضياع الواسعة هناك . ويخيم الغموض على نوع العلاقة بينهم وبين الولاة في مصر ولعلهم كانوا يؤدون لهم بعض الدخل السنوي . وقد ورد خبر جاء عرضاً لدى احد المؤرخين أثناء الحديث عن ثورة دحية بن مصعب الأموي ويتبين منه أن أهل الواحات كانوا « من المسالمة والبربر » ، وأنهم كانوا من الخوارج وعلى مذهب الشراة وأنهم حين استجار بهم دحية اشترطوا لمعونتــه ان يكون على مذهبهم وحاربوا بجانبه على هذا الأساس ثم تركوه حين تبين لهم تفضيله العرب على الموالي والبربر مع أن الاسلام سوى بين الجميع .

وفي هذا ما يوحي ان الواحات كانت بؤرة خارجيــة مستقلة في الصحراء قليلة التعامل مع ولاة مصر والنظام العباسي فيها أو لعلها كانت أقرب إلى المقاطعة منها إلى التعامل .

ولكن علاقتهم مع النوبة كانت علاقة حروب وغارات متصلة سببها دون شك العلاقات الاقتصادية التجارية وقد استمرت على العداء إلى أن عقد الطرفان هدنة ربما كان موعدها في أواخر العصر العباسي الأول . على أن رعاية آل عبدون للقبط لم تمنع من عملهم على نشر الاسلام في الواحات بشكل بطيء تدريجي حتى أضحى فيها في أواسط القرن الثالث الهجري خمس بلدان إسلامية فيها ١٥ منبراً . ويبدو أن ابن طولون ، في تلك الفترة ، اختصم مع حكام الواحات أو أن هؤلاء جاروا على التجار أو أن مخاطر الرمال السافيات أضرت كثيراً بالقوافل التجارية

---

(١) انظر في تفصيل أمــر الواحــات . ابن حوقــل صورة الأرض ص ١٤٤ ــ ١٤٦ .

فأمر ابن طولون بألا يسلك تلك الطرق الصحراوية أحد •• وهكذا تضاءلت قيمتها بعد ذلك حتى عادت واحات معزولة •

٤ ـ العلاقات مع المغرب :

في أقصى الحوض الغربي للبحر المتوسط كانت هنـاك دويلات الخوارج في المغرب العربي ، وإمارة الأندلس الأموية ، ومملكة الفرنجة الكارولنجيـة •

١ ـ فأما **المغرب العربي** فلم تكن اموره ، منذ أواخر العهد الأموي ، بالتي تسير السير الهادىء أو المرتبط بعاصمة الدولة • وقـد جاء الانقلاب العبـاسي ليعطي تلك البقاع فرصتها في تأكيـد التمزق السياسي بها والاستقلالية المحلية لاسيما وأن الاسلام فيها كان يصطبغ أكثر فأكثر بالصبغة الخـارجية الثـائرة • وعلى المذهبين الاباضي أو الصفري المطاردين في المشرق • بينما كان العباسيون أنفسهم مشـغولين بما على أيديهم من مشاكل هذا المشرق وثوراته فلا طاقة لهـم بارسال قواهم او مد نفوذهم إلى أقصى المغرب • وهذا ماسمح لهذا المغرب أن يشهد تطورات خطيرة ، في عهد العباسيين الأوائل جعلته غريباً تمام الغربة عن بغداد • وبينما كانت خوارج منطقة طرابلس وافريقية يشكلون جبهة الصدام مع العباسيين وكان صقر قريش يقطع الاندلس وراء البحر كان عدد من الدول الاسلامية الصغيرة يكون حاجزاً فيما بين النفوذ العباسي والأموي يزيد في صعوبة الاتصال العباسي بالاندلس • كما يزيـد في إثبات العجز العباسي أمام المغرب • وإذا كان اهمال البحر المتوسـط ووقوف النفوذ العباسي دون حوضه الغربي خاصة هو ما يميز سياسة بغداد البحرية فقد كان يقابل ذلك في المغرب الأقصى إهمال ذلك البر كله من جبال الأطلس (مابين أواسط الجزائر الحالية حتى المحيط) :

ومن الهام أن نلاحظ أن تلك الدول الناشئة هناك كانت تمثل آمال كافة المذاهب السياسية الاساسية والجماعات المضطهدة في المشرق، من أموية وعلويين وخوارج • وهذه الدول هي :

دولة برغواطة : فمنذ أواخر العهد الأموي سنة ١٢٢ كان ميسرة الخارجي الصفري قد ثار فيما بين طنجة والسوس وتسمى بالخلافة ولكنه هزم ثم قتله اتباعه ونزلوا بزعامة أحدهم (طريف بن ملوك) في الأرض الممتدة مابين الرباط والدا رالبيضاء حتى مصب وادي أم الربيع، على ساحل المحيط • واستطاع طريف أن يستميل الناس بزهده وبالجهل والسحر حتى قدموه عليهم وأصبحت شاله (وهي في ضواحي الرباط اليوم) عاصمة هذه الدولة التي عرفت بدولة برغواطة (ولعله تحريف لكلمة برباطي لأن طريفاً كان من وادي برباط بالاندلس) •

وقد ظلت هذه الدولة في أولاد طريف واحفاده حتى قضى عليها المرابطون في القرن الخامس • لكنها خلال صراعها مع الأدارسة أخرجت دعوة دينية زعمت أنها قد أوحي بها إلى صالح بن طريف « صالح المؤمنين » وأنه المهدي[1] وسوف يعود ويقتل الدجال •• وفي الدعوة بعض التحريف للاسلام : من ابتكار آيات قرآنية وتغيير للاحكام المتصلة بالمحارم والمحرمات وتعدد الزوجات ولهذا عرفت بزندقة برغواطة وكانوا يقرؤون القرآن بالبربرية •

الدولة الصالحية : وقد عاصرت بدورها الدولة السابقة ومؤسسها

---

(١) انظر في ذلك : البكري ـ المسالك والممالك ص ١٣٨ وابن خلدون ج ٦ ص ٢٠٧ ـ ٢٠٩ وابن عذارى ـ البيان المغرب ج ١ ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ والاستبصار لمؤلف مجهول ص ١٩٧ . (وهو يجعل طريفاً يهودي الأصل).

صالح بن منصور الحميري إنما أقامها منذ أيام الوليد بن عبد الملك في جزء من منطقة الريف المغربي الحالية بين قبائل غمـاره وصنهاجة التي دخلت الاسلام على يديه • وقد أسس سعيد بن ادريس حفيـد صالح عاصمة لهذه الدويلة في مدينة (نكور) على بعد قليل من الشاطيء وجعل ميناءها مقابلا لمرفأ مالقة الاندلسي •• وقد بقيت هذه الدولة في أحفاد الحميري حتى سنة ٤١٠ أيضا •

الدولة المدرارية : وقد أقامها الخوارج الصفرية في البلدة التي أنشأوها سنة ١٤٠/٣٤٧ وسموها سجلماسة (تافيلالت الحالية) على سيف الصحراء بالمغرب وكان اختيار الموقع موفقاً لا لتوفر الماء فيه فقط ولكن لقيامه على مطلع الطريق إلى بلاد السودان الغربي ومنطقة غانة • وحين استقرحكم البلد في يد ابي القاسم سمغون بن واسول المكناسي ، البربري الأصل ، الاندلسي المولد والذي كان حداداً في بعض ارباض قرطبة ويلقب بالمدرار ، أعطى الحكم لأولاده وأحفاده واستطاع هؤلاء بسياستهم الاقتصادية المفتوحة لقوافل التجار ورعايتهم لها أن يجعلوا بلدهم مركز التبادل التجاري بين سائر بلاد الاندلس والمغرب من جهة وبلاد غانة من جهة اخرى • في الملح والقطن خاصة والذهب ويجعلوا موارده أي مبلغ ضرائبه ٤٠٠ الف دينار أي مايعادل نصف ارتفاع المغرب كله(١) ••

وقد تبعت هذه الدولة الفاطميين في أواخر أمرها فلما طرد محمد ابن الفتح أحد أصحاب المذهب المالكي أسرتها وأقام فيها خلافة لنفسه وتلقب بالشاكر لله سنة ٣٤٢ قضى الفاطميون على الدولة كلها سنة ٣٤٧/ ٩٥٨(٢) •

---

(١) ابن حوقل ــ صورة الأرض ص ٩٧ .

(٢) البكري ــ المسالك والممالك ص ١٥١ .

الدولة الرستمية : وهي خارجية بدورها • أقامها عبد الرحمن ابن رستم بن بهرام ، في المغرب الأوسط • ويروون أن بهرام هذا كان مولى لعثمان بن عفان ويصوغ له الكتاب نسباً يصله بملوك بني ساسان[1] وقد أضحى من فقهاء وزعماء الخوارج الاباضية في افريقية وشارك في النضال ضد العباسيين اثناء ثورة ابي الخطاب في طرابلس وصار والياً على القيروان فلما قدم ابن الاشعث مع الجيش العباسي سنة ١٤٤/٧٦١ انهزم عبد الرحمن فاراً الى المغرب الأوسط • ولما فشلت محاولاته في العودة إلى افريقية بعد سنة ١٥١ استقر في منطقة تاهرت فبويع بالخلافة سنة ١٦٠ ثم اختط المدينة سنة ١٦١/٧٧٧[2] في بقعة جبلة مليئة بالأحراج ، وفي موقع دفاعي زراعي معاً تسكنه قبائل العتر الاباضية وسرعان ماتكاثر البناء في المدينة والازدهار مع تجمع الخوارج الاباضية اليها وذيوع اسم عبد الرحمن بالعدل والحسنى • ويبدو من بعض الأخبار أنه كان على اتصال مع إباضية المشرق وكان يسعى نظرياً على الأقل إلى تحريرهم من الحكم العباسي واجتذابهم إلى دولته المستقلة في المغرب فانا نسمع خبراً عن إرسال إباضية البصرة ثلاثة أحمال من المال إليه[3] فلما توفى سنة ١٦٨ (في آخر أيام المهدي) استفاد ابنه عبد الوهاب من سمعته فاختاره مجلس الشورى للخلافة • وإذا انقسم الاباضية بسبب هذا الاختيار الوراثي ما بين (نكارية)

---

(١) انظر مثلا البكري ــ المصدر السابق ص ٦٧ ، وابن عذارى ــ البيان المغرب ج ١ ص ١٩٦ وابن خلدون ج ٦ ص ١٢١ .

(٢) يجعل ابن خلدون بناء تاهرت سنة ١٤٤ (ج ٦ ص ١٢٣) ويظهر ان ابن عذارى أصح خبرا و قد اتبعناه .

(٣) الشماطي ــ كتاب السير (سير علماء ومشايخ جبل نفوسة) ــ طبع حجر ــ القاهرة) ص ١٤٠ .

ينكرون الوراثة ووهبية يقبلونها وهرب النكارية فاعتصموا بجبل نفوسة في طرابلس • واضطر عبد الوهاب لأن يستقر في هذا الجبل سبع سنوات وأن يحارب الأغالبة العباسية ليقروا نفوذه في الصحراء الداخلية الواسعة • وقد خلف عبد الوهاب حين مات سنة ١٨٨ (زمن الرشيد) سنة ٨٠٤ ابنه أفلح ••• وتكرر مرة اخرى انفصال جماعة ترفض هذه الوراثة كما تكرر الهرب إلى جبل نفوسة وتكررت الهزيمة للمنشقين ولكن ••• في سنة ٢٢١/٨٣٦ ••• وتوالي أحفاد عبد الرحمن الرستمي بعد موت أفلح سنة ٢٣٨/٨٥٢ حتى قضى الفاطميون على هذه الإمارة الخارجية سنة ٢٩٦/٩٠٨ بعد أن كانت قد استقطبت الخوارج من الصفرية والإباضية على السواء في افريقية كما انضوى إليها بعض المعتزلة الهاربين من المشرق وكانوا يعرفون بالواصلية (نسبة لواصل بن عطاء) بسبب مابين مذهبهم والمذهب الإباضي من بعض التقارب الفكري[1] •

وقد كان الرستميون على علاقة وطيدة قوية مع الدولة المدرارية (الخارجية الصفرية) وهي علاقة تجارية سياسيةمذهبية زاد فيهاالمصاهرة التي ربطت ما بين الأسرتين وقد كانت سيطرة الرستميين على الجزء الأكبر من الطرق الصحراويةالتجارية في افريقيةوالمغرب سبباًفي ممارستهم نوعاً من السيادة على المدراريين الذين بدوا وكأنهم الأتباع للرستميين•

الدولة الادريسية : وهي أهم هذه الدول المغربية وآخرها ظهوراً • إذ بدأت سنة ١٧٢/٧٨٨ كما أنها احتلت جغرافياً مركزاً متوسطاً بينها جميعاً في فاس • وتميزت عن غيرها بأنها كانت الدولة العلوية الأولى

---

(١) انظر عبد الرحمن بدوي ــ التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ص ٢٠٤ ــ ٢١٠ •

والوحيدة وكان تأسيسها نتيجة أحداث شرقية في الدرجة الاولى لا مغربية. وبقيامها كملت للمغرب الاسلامي معرفة ألوان النظم السياسية التي تقول بها الفرق الاسلامية الاساسية كلها فقد صار فيه دول تمثل المذهب السني للجماعتين الاموية والعباسية (الأموي في الأندلس والعباسي للأغالبة في إفريقية) وأخرى تمثل المذهب الخارجي بفرعيه الإباضي والصفري (في سجلماسة وتاهرت) ودولة للمذهب العلوي (هي للأدارسة) بل ودولة تمثل المذاهب المنحرفة عن الاسلام (في برغواطة) . وقد بنت كل دولة لنفسها ، في المغرب عاصمة فزرع المغرب عواصم : بني الأغالبة بلدة (العباسية) لهم بجانب القيروان سنة ١٨٥ وبنوا ميناء سوسة معها ثم بنوا بلدة رقادة عاصمة أخيرة لهم منذ سنة ٢٦٣ وبنى الرستميون تاهرت والمدراريون سجلماسة والصالحيون (نكور) وجماعة برغواطة بلدة شالة ...

وتأسيس الدولة الادريسية يعود في جذوره الأولى إلى هزيمة محمد ذي النفس الزكية أمام المنصور في مكة سنة ١٤٥ ثم هزيمة أخيه ابراهيم بعد شهرين أو أقل في باخمري . فقد عمل الاخوة الباقون لمحمد مع اولاده على التوزع في العالم الاسلامي ثم قام اثنان من الاخوة هما ادريس ويحيى فأعانا ابن أخيهما الحسين بن علي بن الحسن في ثورته التي قام بها سنة ١٦٩ فلم تدم سوى ١١ يوماً وانتهت بفاجعة جديدة في (فخ) ليست أقل من كربلاء وباخمرى نكالا وألماً .

وفر يحيى وفر ادريس . هرب الأول إلى طبرستان والديلم أما الثاني فركب الى مصر في الستر يرعاه مولى عاقل شجاع اسمه راشد . ويبدو أن صاحب البريد هناك وهو واضح مولى صالح بن المنصور رق لهما ، أو كان على الهوى الشيعي فساعدهما على الفرار إلى المغرب .

يقال أنه حملهما على البريد[1] حتى نزلا في القيروان • وزاد الهاربان في التستر بأن جعل ادريس من نفسه خادماً عند راشد ، وغرب الاثنان حتى نزلا بلدة وليلى قرب موقع فاس ، عند زعيم قبائل أوربة هناك•واستطاع ادريس أن يستميل هناك مع هذه القبائل ، جموعاً أخرى من زناتة (لواتة • نفزة • مكناسة • زواوة •• الخ) فبايعوه بالإمامة فإذا هو على رأس جيش يستطيع أن يغزو مناطق المغرب الوسطى حتى المحيط الاطلسي (مناطق تامسنا حتى تادلا) في سنة ١٧٢ ثم المناطق الشرقية سنة١٧٣ حتى دخل تلمسان فأضحت معظم القبائل البربرية الأساسية مع كتلة بلاد المغرب الأقصى في يده •••

وإذا مات ادريس سريعاً بمؤامرة عباسية سنة١٧٥ فإن راشداً مولاه استطاع أن يبقى البيت العلوي الادريسي قائما إذ جمعه حول طفل ولد لادريس من إحدى جواريه بعد شهر من وفاة الأب وحمل الطفل أيضاً اسم ادريس ••• وأدار راشد الإمارة بينما كان الطفل يكبر وبالرغم من أن راشداً قتل بدوره في مؤامرة عباسية اخرى سنة ١٨٦ فإن إدريس الصغير وجد من يكفله ويحفظ ملكه في شخص أبي خالد بن يزيد العيدي[2] وجدد له البيعة سنة ١٨٧ من قبائل البربر كافة ! ووفدت على الإمارة الجموع من افريقية والاندلس فرساناً للحرب وجماعات للإقامة•

والملاحظة الهامة في قيام هذه الدولة وتكوينها أنها كانت دولة حضرية مدنية زراعية وقد تمثل طابعها الحضري في عاصمتها فاس التي

---

(١) البكري ـ المسالك والممالك ص ١١٩ ويروي مثل ذلك ابن الاثير وابن خلدون . وقد جوزي واضح على تلك المعونة بالقتل من قبل الهادي .

(٢) البكري ـ المصدر السابق ص ١٢٢ .

ماتزال إلى اليوم بين أعظم مدن المغرب تراثاً وحضارة وذلك على خلاف الدولتين الخارجيتين في تاهرت وسجلماسة فهما بدويتان صحراويتان تجاريتان وقد اندثرت منذ القرن الخامس خاصة عواصم هاتين الدولتين وضاع أثرهما في التاريخ •

ثم إن دولة الادارسة وإن كانت علوية إلا انها في الواقع ، لم تكن شيعية بالمعنى الكامل للكلمة • وقد نستطيع أن ندعوها زيدية أي أنها ابنة أقرب المذاهب إلى المذهب السني •

وقد فتحها طابعها هذا للهاربين من عباسية المشرق وأموية الاندلس على السواء وجل هؤلاء من العرب مما مهد الى تطعيم الطابع البربري للدولة بطابع عربي أيضاً • وقد تمثل الطابعان في فاس نفسها التي كانت، في الواقع ، وما تزال من المدن التوائم إذ تتألف من قسمين : مدينة شرقية[1] هي فاس الأولى وقد أسسها إدريس الأب سنة ١٧٢ بالقرب من مقره في (وليلى) وقد بقيت قرية ذات طابع بربري ولم تنشط وتكبر خاصة وتأخذ اسم عدوة الأندلسيين إلا منذ نزلها قسم من جماعة الربض الثائرة الذين طردهم الحكم الثاني من ارباض قرطبة، (وفتح القسم الآخر منهم كريت) سنة ٢٠٢ •

مدينة غربية بناها ادريس الثاني منذ سنة ١٩٢ وسميت بالعالية أو

---

(١) بحث ليفي بروفنسال مشكلة تاريخ بناء فاس وبين أنها بنيت اولا في الشرق سنة ١٧٢ على يد ادريس الاول ثم بنى قسمها الثاني سنة ١٩٢ واتى على ذلك بالادلة التاريخية الكافية . وكان المؤرخون من قبل يعتبرون سنة ١٩٢ موعد بنائها (انظر البحث في كتاب الاسلام في المغرب والاندلس ـ ترجمة عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي ـ القاهرة ١٩٥٨ ص ١ ـ ٥٠) .

بعدوة القرويين وأنزل فيها الجماعات العربية التي التحقت به وبإمارته .
وأطلق على المدينتين معاً اللتين يفصل بينهما نهر (وادي بوخرب) اسم فاس ولو ان لكل من المدينتين سورها وأبوابها وسكانها . وتأسيس هذه الحاضرة إنما كان يعني استقرار الحكم الادريسي في المغرب .

ونلفت النظر أن الاقليم الذي استطاعت الإمارة الادريسية العلوية أن تنجح فيه إنما كان في الأصل قاعدة للخوارج ومهداً للحركة الخارجية. وبين الحركتين عداء وتباين قديمان أما كيف انقلب خوارج المغرب الأقصى من مناصرة (ميسرة) الصفرى وجماعته إلى مناصرة ادريس العلوي فلذلك أسباب تتراوح ما بين السياسة والدين[1] تنطلق من اشتراك الطرفين في العداء للخلافة المركزية سواء كانت أموية أو عباسية ومن أن الخوارج أنفسهم لم يتمسكوا بمبدئهم الجمهوري حين سنحت لهم فرصة تطبيقه في الحكم فتحولت اماماتهم إلى الوراثة المغلفة بالبيعة بالإضافة إلى أن تناصر الخوارج فيما بينهم سمح لرجل مثل ادريس الأول بعيد الهمة بأن يستفيد من نسبه النبوي ومن النكبات التي اصابت آل البيت في اجتذاب العطف وإقامة نظام مالبث حين فرض الأمن أن اجتذب القوى الأخرى التي ملت الفوضى والتناحر .

وقد استكمل ادريس الثاني اسباب ملكه بسك النقود وفرض النفوذ السياسي على دول الخوارج المجاورة وفتح بلاد البربر المصامدة (بينه وبين طنجة) واخضاع قبائل نفزة بتلمسان فلما مات سنة ٢١٣ كانت دولة الأدارسة قد استقرت تماماً بجهوده .

وخلفه ابنه محمد فوزع حكم البلاد على إخوته البالغين الثمانية

(١) سعد زغلول عبد الحميد ـ تاريخ المغرب العربي ص ٤٠٧ .

وقبل أن يتوفى سنة ٢٢١ كان أخوه عمر قد توسع في بلاد الريف على املاك إخوته واستقر فيها فكان جد الأسرة التي سوف تظهر في جنوب الأندلس إثر انهيار الخلافة فيها باسم بني حمود •

وتعاقب على إمارة فاس بعد محمد اثنان من أبنائه واستمرت الدولة الادريسية قائمة حتى قضى عليها سنة ٣٧٥/٩٨٥ •

وقد كانت هذه الدول المغربية كافة على علاقات طيبة بالأمويين في الأندلس بالرغم من أنها تدين جميعاً بمذاهب تخالف المذهب السني هناك ومن توفر فرص الصدام والتناحر ، ولم يكن ذلك بسبب التقائها جميعاً في العداء للعباسيين وفي التساند لضمان الانفصال عنهم ولكن أيضاً بسبب المصالح التجارية الواحدة التي كانت تربط المغرب بالأندلس واذا كانت علاقة الادارسة خاصة كدولة كبيرة بالأمويين الاندلسيين علاقة جوار ومسالمة وتبادل مصالح فإن علاقات الدول الصغرى الأخرى كانت أوثق واكثر اقتراباً •

وبعض هذه الدول ، كالدولة الصالحية مثلاً ودولة برغواطة ، كانت اشد صلة مع الأمويين من غيرها لخوفها من الأدارسة من جهة ولأن أصحاب الأندلس بدورهم كانوا يخشون وقوعها في أيدي أصحاب فاس • وقد بلغ من تعاون الصالحيين مع الأندلس أن عبر أحد ملوكهم البحر لمعونة الثائرين على الامير الأموي فقتل مع أصحابه كافة في هذه النجدة •

واما دولة برغواطة فقد كان من تقاليدها التي يوصى بها الأمير السابق خلفه أن يوالي الأمويين ولم يكن هؤلاء بدورهم يجدون غضاضة في قبول هذه التبعية من برغواطة رغم « زندقتها » لأن ذلك يمنع بشكل أو بآخر التوسع الادريسي •

وأما الدولة الرستمية فكانت لا تقل قرباً عن الدولة الصالحية مع الأمويين • لأنها وجدت فيهم السند الذي يدعمها وهي جغرافياً بين دولتين قويتين : الأغلبية والادريسية • وقدتجلى التقارب بصورة واضحة عند تولي عبد الرحمن الثاني عرش الإمارة في قرطبة إذ أرسل الرستمي أولاده للتهنئة • واستمرت علاقات الصداقة وتبادل الهدايا والوفود والتهاني والود الشبيه بالولاء قائمة بين الطرفين بعد ذلك للدرجة التي دعت ابن عذارى الى أن يكتب : « أن صاحب تاهرت لايقدم ولا يؤخر في أموره ومعضلاته الا عن رأيه (رأي امير الأندلس) وأمره »(١) وقد هاجر بعض امراء تاهرت إلىقرطبة فتلقاهم امراؤهااحسن اللقاء وأعطوهم المناصب الرفيعة في الدولة •

ولم يكن هذا الود سياسياً فحسب ولكنه كان يقوم على أساس اقتصادي متين إذ أن الرستميين كانوا يبعثون بالمنتجات الزراعية وعروض التجارة إلى قرطبة كما يزودون الجيش الأموي بحاجته من مرتزقة الجند البربر •••

والسؤال الرئيسي الأخير الآن : ماذا كان نوع العلاقة مابين هذا المغرب بدوله وبين الخلافة العباسية ؟

لقد وصل العباسيون إلى الحكم والمغرب كله مربوط بعاصمة واحدة موجودة في طرفه الشرقي ، في افريقية ، هي القيروان وانتهى القرن الثاني للهجرة وللمغرب ، في الواقع ، اربعقيروانات هي معالقيروان نفسها : تاهرت وفاس وسجلماسة وتعمل كل منها في منطقتها على تحقيق أهداف القيروان الأولى : أي على نشر الاسلام في افريقية والمغرب وعلى تعريبها الثقافي وعلى إقامة النظام السياسي فيها • وقد اختصت الاولى

---

(١) ابن عذارى ـ البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٨ .

بافريقية بينما عملت الثانية في شرقي الصحراء الكبرى وفي المغرب الاوسط وعملت فاس على ذلك في المغرب الاقصى كما عملت سجلماسة على الأهداف نفسها في المنطقة الغربية من الصحراء الكبرى وفيما وراءها •

وقد ساد نوع من التعايش السلمي بين هذه الانظمة الاسلامية المتباينة التي ظهرت في تلك الأقاليم برغم الولاءات السياسية والمذهبية المتعددة التي كانت ترتبط بها • وهي ولاءات ومذاهب مستوردة كلها من المشرق • ولعل آخرها وروداً وانتشاراً في الاندلس والمغرب هو المذهب المالكي السني الذي لقي نجاحاً واسعاً هناك منذ أواخر القرن الثاني بينما كان مذهب أبي حنيفة يلقى في الوقت نفسه نجاحاً مشابهاً في افريقية بعد أن قدم مع الجند الخراساني إلى القيروان •

وبالرغم من أن ظاهر العلاقة بين المشرق والمغرب عامة ، وهو الظاهر السياسي ، كان يوحي بالانفصال والإنقسام السياسي وظهور مايسمى بالحركات الاستقلالية فإن العوامل الحضارية (من إسلام وثقافة عربية وتمازج سكاني مع العرب وتقاليد ونظم مشرقية) كانت في تلك الفترة ذاتها تعمل بالعكس على نسج وحدة أعمق وأكثر توطداً ما بين المشرق والمغرب • وإذا فشلت خلافة بغداد في حفظ وحدة العالم الاسلامي مع تلك المناطق وفي مد نفوذها السياسي إلى ماوراء القيروان فإن الاسلام واللغة العربية والحضارة الاسلامية عامة كانت في الواقع تنجح بالمقابل وبشكل منقطع النظير في مد نفوذها النهائي الباقي وإعطاء المغرب ميزته العربية الاسلامية إلى اليوم •

ولعل الفضل في هذا النجاح انما يرجع الى ذلك التعايش السلمي الذي قام في افريقية والمغرب بين مختلف الأنظمة ، في تلك الفترة وهو تعايش قد يرجع في أساسه إلى أربعة امور :

الأول ــ توازن القوى بين الأنظمة الثلاثة الأساسية : الأغالبة • الرستمي • الادريسي •

الثاني ــ انقطاع أمل العباسيين في إمكان استعادة المغرب بعد انقطاع أملهم قبل ذلك في الأندلس •

الثالث ــ السياسة المتزنة التي سار عليها الأغالبة ، الذين أضحوا يمثلون الخلافة العباسية في القيروان • وتعاملهم بصورة عامة على اساس المصالح المتبادلة وعدم الطمع مع الأنظمة الأخرى • وهذا ماترك للتيار الحضاري أن يأخذ مداه في التأثير •

الرابع ــ قيام تلك الانظمة جغرافياً مابين دولتين إسلاميتين طامعتين بها على الجانبين : خلافة بني العباس من جهة ودولة امـراء الاندلس الامويين من جهة أخرى •

على أن هذا لا يعني أن العباسيين سلموا بسهولة بالأمر الواقع أو أن الأغالبة وهم أعوانهم لم يحاولوا بعض المحاولات العدوانية ضد الدول المغربية ولكننا يجب أن نسجل أن هذه المحاولات لم تجاوز في أقصى أشكالها حد التآمر الاغتيالي ، ولم تصل درجة حشد القوى العسكرية والقتال الأخوي •

فأما العباسيون فإنهم منذ عهد الرشيد ، وبالضبط منذ سنة ١٨٤ فضلوا القبول بقيام نوع من الدولة التابعة على باب المغرب تهتم محلياً بكافة شؤونه مقابل أمرين : حفظ مظاهر الولاء للخلافة بالخطبة والسكة وما اليها ودفع مبلغ معين من الخراج السنوي لخزانة الخلفاء في بغداد • على هذا الأساس قام ابراهيم بن الأغلب وأسرته من بعده • وإذا كانت سياسته وسياسة أسرته مع المغرب يمكن أن تحسب ضمن حساب السياسة العباسية فإن الأغالبة قاموا (أو يقال إنهم قاموا) بعدد من الأعمال التي

كانت تلتقي فيها مصلحتهم مع مصلحة العباسيين وقد توجهت خاصة ضد الأدارسة في عهدهم الأول التأسيسي :

أولها : اغتيال ادريس بن عبد الله مؤسس الدولة الادريسية • إذ يذكر المؤرخون أن نجاح ادريس السريع في جمع الانصار وفتح الارضين بالمغرب قد أثار الذعر والقلق في نفس الرشيد الذي خشي على مصير المغرب كله ومصر وبعضهم يذكر أن ادريس عزم على ذلك[1] واستشار الرشيد يحيى البرمكي بعد أن سمع أن ادريس « فتح تلمسان وهي باب افريقية ومن ملك الباب يوشك أن يدخل الدار وقد عزمت أن أبعث جيشاً عظيماً لقتاله » ويقولون إن البرمكي نصح بإيفاد رجل داهية يغتاله واختاروا لهذا الأمر سليمان بن جرير المعروف بالشماخ • وقد وصل المغرب ومازال يتقرب إلى إدريس حتى صار من خاصته ثم نهز غرة فأعطاه سماً « شمه أو وضعه في ضرسه) ثم لاذ بالفرار ولحقوه فأدركوه وجرحوه ولكنه استطاع الوصول إلى القيروان ومنها إلى بغداد ••

ومن المحتمل ألا تكون قصة التآمر والسم صحيحة تمام الصحة بالشكل الذي رويت به أو على الأقل قد لايكون نسيجها الأولى قد تم في بغداد • ولعلها من النوع الدعائي الذي يريد تمجيد الرشيد وبيان يده الطولى التي تصيب من المشرق أقصى المغرب • وأيا كان الامر فإن إدريس قتل في الواقع وكان المستفيد الأول من قتله هم العباسيون • وقد لا تكون مؤامرة اغتياله قد تجاوزت القيروان (وثمة أخبار قد يفهم منها ذلك) ولكن قتله على يد العباسيين يكمل لدى الناس وفي أذهانهم سلسلة مقاتل الطالبيين عامة وإخوته خاصة على يد خلفاء بغداد •

---

(١) ذكر ذلك صاحب روض القرطاس (انظر مانشره ليفي بروفنسال من هذا الكتاب في : Extraits des Historiens Arabes P. 18

الثانية : مقتل راشد مولى ادريس : ويذكر المؤرخون أن إبراهيم ابن الأغلب ما إن تسلم افريقية للعباسيين سنة ١٨٤ حتى كان أول همه الخلاص من الادارسة وكان ادريس الصغير لا يصل إلى العاشرة ومدبر الأمر هو راشد مولى أبيه فلم يزل الأغلبي يدس إلى البربر ويبعث إليهم بالأموال ويستميلهم حتى قتلوا راشداً وأرسلوا إليه برأسه سنة ١٨٦ وفي ذلك يقول إبراهيم مخاطباً الرشيد[1] .

ألم ترني أهلكت بالكيد راشداً   واني لأخرى لابن ادريس راصد؟

وبالرغم من أن الأخبار تورد هذه المؤامرة التي قد تكون صحيحة إن إنه من المحتمل أيضاً أن يكون راشد قد قتل في تنافس داخلي بين أنصار إدريس الطفل . ولعلهم نافسوه على مكانه أو خشوا من طغيانه واستلامه الأمر دون ادريس وقد يدل على ذلك تجديد هؤلاء الاتباع البيعة للطفل بعد عشرين يوماً من مقتل راشد .

الثالثة : ان ابن الأغلب حين عظمت قوة ادريس الثاني وخشي زحفه نحو الشرق استمال اليه كبير زعماء قبائل أوربة : أبا ليلى اسحق ابن محمود الأوربي وهو الذي احتضن وساعد ادريس الأول فما تبين ادريس الثاني ميول اسحق لابن الأغلب حتى قتله (أواخر سنة ١٩٢) .

الرابعة : ان ابن الأغلب أيضاً وأيضاً نجح في استمالة واحد من أكبر أعوان ادريس الثاني هو بهلول بن عبد الواحد الزناتي زعيم مطغرة فخرج على الامام مما اضطر الادريسي إلى أن يستعطف الأغلبي ويسأله الكف

(١) ادعى تدبير المؤامرة ايضا محمد بن مقاتل العكي وقد كذبه الأغلبي بقوله :

وتاه أخو « عك » بمهلك راشد   وقد كنت فيه ساهراً وهو راقد!

عن التآمر عليه وعقد المصالحة معه[1] . وبالرغم من أن التآمر غير مستبعد إلا إنه قد يكون الزعيم الزناتي إنما اتصل بالأغلبي بعد الثورة لتأييده .

وعلى أي حال فإن الأغالبة مع تمادي انقطاعهم عن التأثير العباسي، لاسيما بعد انتهاء عهد الرشيد واضطراب خلافة بغداد بين الأمين والمأمون سنين طويلة . أخذوا يميلون إلى توطيد علاقات حسن الجوار مع الأدارسة. يقول ابن خلدون ان الأغالبة عجزوا عن مدافعة الأدارسة « ودافعوا خلفاء بني العباس بالمعاذير بالغض من إدريس والقدح في نسبه إلى أبيه إدريس بما هو أوهن من خيوط العنكبوت ... »

ولعل هذا كله يعني أن خلافة بغداد كانت تنتهي عملياً عند برقة وأن السياسة الخارجية العباسية فيما وراء ذلك كانت منوطة عملياً بأغالبة القيروان .

ب ـ مع إمارة الأندلس :

إذا كانت علاقات بني العباس بالمغرب قد انحصرت بالتآمر فقط فإن علاقاتهم مع إمارة الاندلس انحصرت في تبادل رسائل الشتيمة فمنذ انقطع أمل المنصور في إدخال الأندلس ضمن إطار الدولة العباسية انقطع مابين تلك الأرض وبين بغداد من علائق مباشرة . وكانت نظرة بغداد إليها تمر عبر بلاد الفرنجة تارة وعبر ولاية افريقية والمغرب تارة أخرى .

---

(١) انظر ابن الاثير حوادث سنة ١٨١ وابن خلدون ج٤ ص ١٤ و ج ٦ ص ١١٩ وينسبون إلى ادريس قوله لبهلول :

اضلك ابراهيم من بعد داره ... فأصبحت منقادا بغير قياد
كانك لم تسمع بمكر ابن اغلب ... عدا غزا بالسيف كل بلاد

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤ .

وقد ذكر ابن الأثير خبراً لا ندري مدى صحته يقول : « إن عبد الرحمن (الداخل) صاحب الاندلس أظهر سنة ١٦٣ التجهز للخروج إلى الشام بزعمه لمحو الدولة العباسية وأخذ ثأره منها ، فعصى عليه سليمان ابن يقظان والحسين بن يحيى الانصاري بسرقسطة واشتد امرهما فترك ماكان عزم عليه ..»(١)

ويبدو أن هذا المشروع نفسه أو مشروع آخر مقابل له نجهل كنهه وأحداثه حاول فيه المهدي النفوذ إلى الاندلس ثم كشفه عبد الرحمن ، كان السبب في أن يرسل عبد الرحمن الداخل (وقد توفي سنة ١٧٢ في عهد الرشيد) كتاباً إلى المهدي العباسي نفسه يندد بالعباسيين ويفضح مثالبهم أو لعله يهدد بنشرها ، يقول الطبري : إن هشاماً الكلبي (وهو مؤرخ نسابة معروف) كان على الفقر ثم رآه بعض أصحابه يوماً وهو على بغلة شقراء من بغال الخلافة وعليه آيات النعمة فسأله: أني لك هذا فروى له أن المهدي استدعاه يوماً وليس عنده أحد فأدناه ثم أعطاه كتاباً وقال : لا يمنعك مافيه مما تستفظعه أن تقرأه ، وقرأ هشام بعض الكتاب فاستفظعه وألقاه من يده ولعن كاتبه ، فقال الخليفة : قد كنت قلت لك إن استفظعته فلا تلقه ، اقرأه بحقي عليك حتى تأتي على آخره ، ويقول هشام : « فقرأته فإذا كتاب قد ثلبه فيه كاتبه ثلباً عجيباً لم يبق له فيه شيئاً ، فقلت يا أمير المؤمنين: من هذا الملعون الكذاب؟ قال: هذا صاحب الأندلس ، قلت : فالثلب والله يا أمير المؤمنين فيه وفي آبائه وأمهاته ، ثم اندرأت اذكر مثالبهم فسر بذلك وقال أقسمت عليك لما أمليت مثالبهم كلها على كاتب ... ودعا بكاتب من كتاب السر فأمر فجلس ناحية وأمرني فصرت إليه فصدر الكاتب من المهدي جواباً وأمليت عليه مثالبهم فأكثرت

---

(١) ابن الاثير ج ٦ ص ٦٢ .

فلم أبق شيئا حتى فرغت من الكتاب ثم عرضته فليه فأظهر السرور . ثم لم أبرح حتى أمر بالكتاب فختم وجعل في خريطة ودفع إلى صاحب البريد وأمر بتعجيله إلى الاندلس ...»[1] ونال هشام على ذلك البغلة وعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب .

ولم يكن صاحب الأندلس ليبادر إلى ثلب العباسيين ومكاتبة المهدي لولا أن أثاره أمر : قد يكون من نوع التآمر عليه أو يكون نتيجة لعلاقة المنصور بالفرنجة وهجومهم على أطراف الأندلس الشمالية وقد أجاب المهدي على ثلب كتابي بثلب من مثله وعلى التهديد بالفضائح بتهديد آخر من نوعه وكان هشام أقدر من يعرف ذلك أو يخترعه وعلى أي حال فقد كان هذا النوع من الرسائل الهجائية هو العلاقة الوحيدة التي نعرفه بين بغداد وقرطبة في تلك الفترة ...

جـ ـ الغرب (العلاقات مع الفرنجة) :

كان اتجاه الامبراطورية العباسية إلى الشرق واموره مضعفاً لها في الغرب (كالذي كان في افريقية والمغرب) صارفاً لها عن مناوأة اصحاب الاندلس او اقامة العلاقات مع اوروبا الاقطاعية بصورة عامة . غير أن الباحثين الفرنسيين خاصة يذكرون خبر صلات (واسعة او ضيقة) بين الرشيد وشارلمان تجعلها فرنسا حجة ودليلا على قدم وعمق نفوذها في الشرق ولعله لهذا السبب ولأنها مشكلة تاريخية غامضة فإننا يجب أن نبحثها بالتفصيل ، محاولين الاجابة على سؤالين : هل حدثت تلك العلاقات أولاً ؟ واذا حدثت فما مداها وما معناها ؟

آ ـ مصادر الموضوع قسمان :

---

(٢) الطبري ج ٨ ص ١٧٢ ـ ١٧٣ (٣/٥٢٨ ـ ٥٢٩) .

١) القديمة : ليس في المصادر الاسلامية ولا البيزنطية أي ذكر لصلة بين الرشيد وشارلمان وتنفرد المصادر اللاتينية وهي مصدران :

ايجينهارد : (حياة شارلمان) Eginhard : Vita Caroli

سان غال : (الحوليات الملكية الفرنجية)
St. Gall : Annales Regni Francorum

والاول صديق لشارلمان ومولى له • اما الثاني فراهب كتب كتابه بعد نصف قرن من عصر الامبراطور الفرنجي •

٢) الحديثة : بحث المسألة كثيرون اهمهم :

بكلر[١] وهو يقبل وجود العلاقات ويبني بحثه لا على الأدلة المادية التاريخية ولكن على الاستنتاج الفكري •

بريهية Brehier وهو يؤيدها ويستنتج منها نتائج مبنية على التخمين لا على التدقيق العلمي •

جورانسون[٢] وهو ينقدها نقداً علمياً ويقبل وجودها ولكن يتحفظ في تحديد نتائجها كثيراً •

رانسيمان[٣] ويقبل وجود العلاقات ولكنه يعتبر نظرية حماية شارلمان لفلسطين اسطورة •

شميدت[٤] وهو يبحث تلك العلائق ومداها في مجلة « الاسلام » الألمانيــة •

---

(١) Buckler : Harun al-Rashid and Charles the Great. P.P. 170-8

(٢) Joranson : the Alleged Frankish Protectorate in Palestine P.P. 241-6

(٣) S. Runciman : Charlemagne and the Palestine (E.H.R. Oct. 1935) P.P. 606

(٤) F.F.Schmidt . Karl der grosse und Harun al - Rashid Der Islam, Vol III P.P. 409-11

بارتولد Barthold وهو ينفي هذه العلاقات بدليل سكوت المصادر المختلفة عنها .

كلاينكلوس وبحثه في مجلة (سيريا) يحمل عنوان (خرافة علاقة الافرنج بالعرب) .

مجيد خدوري[1] وعبد العزيز الدوري[2] وهما يبحثانها بروح علمية عميقة تميل لنفيها .

ب ـ **العلاقات** (حسب رواية المصدرين اللاتينيين) تقسم إلى ثلاثة أقسام .

١ ـ **العلاقات مع الرشيد** : ارسل شارلمان وفدين الى الرشيد (سنة ٧٩٧م ـ و ٨٠٢م) فأجاب الخليفة بإرسال وفدين (سنة ٨٠١ و ٨٠٧ م)،

ففي سنة ٧٩٧ بدأ شارلمان العلاقات بإرسال وفد من اثنين (لانتفريد وسيغسموند) يصحبهما يهودي اسمه اسحق للترجمة . وقضى الوفد في مهمته ثلاث سنوات . توفي أثناءها المثلان الاساسيان ، ورجع اسحق وحده مع فيل سنة ٨٠٢ م .

وفي سنة ٨٠١ (اي قبل عودة اسحق) وصل وفد اسلامي عن طريق بيزا إلى بلاط شارلمان ، كان يتألف من اثنين : احدهما فارسي ، يمثل الخليفة ـ فيما قيل ـ ، وثانيهما من المغرب ، عن ابراهيم الأغلب ، وأخبرا شارلمان برجوع اسحق ، مع فيل وهدايا .

وفي سنة ٨٠٢ أرسل شارلمان وفده الثاني . ولا يذكر (ساغال)

---

(١) مجيد خدوري : العلاقات الدبلوماسية بين الرشيد وشارلمان ص ٢٣ ومابعدها .

(٢) الدوري : العصر العباسي الاول ص ١٤٩ ومابعدها وقد اعتمدنا كثيرا هذه الدراسة .

مهمة الوفد ، ولكن إيجينهارد يذكر سفره بهبات لكنيسة القيامة ، وذهابه الى الرشيد « وحين عرض السفراء رغبات سيدهم على الرشيد اجابها وفضلاً عن ذلك اوكل (أي الخليفة) اليه (لشارلمان) أمر الأماكن المقدسة » ورجع الوفد سنة ٨٠٦ • وفي اوائل السنة التالية وصل بلاط الفرنجة رسول عن الخليفة ، يدعى عبد الله ، ومعه هدايا نفيسة : (صيوان ملون بديع واقمشة حريريةوعطور وبلسم وساعة مائية عجيبة واوان نحاسية) •

٢ ــ **العلاقات مع بطريق القدس** : أرسل شارلمان سنة ٧٩٩ م رسلا الى بطريق القدس • فأجاب البطارقة بأربع سفارات على الأقل (سنة ٧٩٩ و ٨٠٠ و ٨٠٧) •

ففي سنة ٧٩٧ بدأ بطريق القدس فبعث بهدايا رمزية مع أحد الرهبان • فلما عاد الراهب بعث معه شارلمان قسيساً (يدعى زكريا) ، يحمل هبات الى الاراضي المقدسة • وعاد هذا القسيس في نهايةسنة ٨٠٠م يصحبه راهبان عن بطريق القدس يحملان لشارلمان مفاتيح كنيسة القيامة ، ومفاتيح مدينة القدس ورايته •

ووصل سنة ٨٠٣ م من بطريق القدس جرجيس راهبان ، ظلت مهمتهما غير معروفة ، ولسنا نجد ذكراً لرد شارلمان على رسالتهما • وفي سنة ٨٠٧ وصل راهبان آخران •••

٣ ــ **العلاقات مع المامون** : ويذكر بكلر أن تلك السفارات التي بدأت بسفارة بيان القصير الى المنصور سنة ٧٦٥ (سنة ١٤٧) « انتهت بسفارة أخيرة أرسلها الخليفة المأمون إلى لويس التقى سنة ٨٣١ (سنة ٢١٦) » ختاماً لعلاقات دامت سبعين سنة • ويأخذ بكلر خبر هذه السفارة الأخيرة عن الأخبار الملكية لسان غال •••

ج ـ اسباب العلاقات ونتائجها :

ظاهر أمر هذه العلاقات لا يدل على اكثر من فتح صلات ودية بين شارلمان من جهة وبين الرشيد والمشرفين على الأماكن المقدسة من جهة اخرى . على أن بعض المؤرخين الذين تناولوها ، وجدوا لها أسباباً ومعاني سياسية ودينية واسعة :

١ً ــ رغبة شارلمان في فتح الأندلس وضمان التأييد المعنوي للخليفة ضدهم ، وهم أعداؤه .

٢ً ــ عداء شارلمان لبيزنطة (عدوة الخليفة) ونزاعه معها ، حول وراثة تاج الامبراطورية الرومانية .

٣ً ــ رغبة البابا (حليف شارلمان) في تقوية صلاته مع بطارقة الاسكندرونة وانطاكية والقدس ، ليقفوا بجانبه ، في نزاعه مع بيزنطة .

٤ً ــ رغبة شارلمان في تسهيل أمر الحج الى الاماكن المقدسة ، وفي تكوين نفوذ معنوي له فيها .

٥ً ــ رغبة الخليفة في القضاء على النفوذ المعنوي لبيزنطة بين مسيحيي الشرق ، بتقوية صلاتهم بالغرب .

ويرى بكلر ان الوفد الاول للخليفة هو الوفد الهام . وبالرغم من أنه يعترف بأن تعاليم السفراء غير معلومة . فهو يرى أن نجاح المهمة يوحي بأنها كانت لواحدة او لأكثر من هذه الغايات الثلاث : أما تحديد وضع شارلمان كحام للمصالح العباسية في الأندلس . وفي غرب المتوسط او عقد حلف مع الرشيد ، للتعاون المتبادل ، ضد الأندلس وبيزنطة ، او فتح الطريق للحجاج اللاتين ، لزيارة الأماكن المقدسة وحمايتهم من ظلم الارثوذكس .

ويمضي بكلر في تخمينه ، فيعترف بأن حالة المسيحيين لم تكن سيئة ،

ولكنه يقول : إن سوء العلاقة بين الرشيد ونقفور استوجبت وضع تقييدات على المسيحيين ، ولذلك توسط شارلمان في الموضوع • وينتهي من بحثه بأن يرى أن نتيجة المفاوضات كانت تعيين شارلمان والياً على القدس ، ضمن سيادة الخليفة العباسي ، بدليل ما أرسله بطريق القدس من مفاتيح المدينة والراية ! ••• وهذا المنصب لايتطلب (في زعم بكلر) حضور شارلمان الى القدس ، بل يقوم الرشيد بذلك كوكيل له •وكذلك عين شارلمان « امير استيلاء » على الأندلس (ويستند بكلر في هذا التعيين الى تفسير الماوردي لهذا النوع من الامارة) •

على ان بعض الباحثين لايبالغون في التخمين هذه المبالغة :(فبهريهيه) يرى ان اجابة مطالب شارلمان (حسب طلب الوفد الأول) وإرسال مفاتيح الكنيسة والراية ، معناه الحماية الفرنجية للأماكن المقدسة • كما أن فازيليبف يقول : « صار لشارلمان ، بإذن الخليفة ، حق حماية المسيحيين والحجاج (في الاراضي المقدسة) ، وحق انشاء كنائس وخانات في فلسطين » •

د ـ ونصل اخيرا الى مناقشة الأمر كله مصادره وموضوعه :

اولاً ــ نقد المصادر :

١ ــ يقول هالفن محقق كتاب ايجنهارد (ويؤيده جورانسون) إنه لا يمكن الوثوق بمعلومات ذلك المؤرخ الذي كان همه تفخيم اسم سيده عدا ما في كتابه من اخطاء كثيرة وخلط بين السفارات من الخليفة ومن البطريق (وقد بين ذلك جورانسون) •

٢ ــ يشهد كل من رانسيمان وجورانسون ، ان الراهب (سانت غال) من كتاب الأساطير • هذا الى أنه مقتضب ، لا يساعد على تعيين الصلات بوضوح ، ويرى رانسيمان ان نظرية حماية شارلمان لفلسطين اسطورة

اخترعها هذا المؤرخ الاسطوري ، بعد وفاة شارلمان بخمسين سنة ، إذ جمع المعلومات عن الهدايا التي أرسلها الخليفة والبطريق ، مع معلومات إيجنهارد المضطربة ، ليكون قصة مضمونها أن الرشيد تنازل لشارلمان عن سيادة فلسطين ، وارسل اليه وارداتها •

٣ ــ يعتبر بارتولد تخريف (سانت غال) مع سكوت المصادر الشرقية (العربية والبيزنطية) دليلاً كافياً لنفي وجود العلاقات بين الطرفين •

ثانياً ــ نقد الموضوع :

لم نكن في حاجة لمناقشة تلك العلاقات ، لو لم يحملها الكتاب المعنى السياسي • ولهذا نتوجه الى نقد هذا المعنى فيها :

١ ــ قد تكون ظروف شارلمان قد اضطرته لانشاء تلك الصلات ولكن هل كان وضع الرشيد يقتضي اقامة صلات من هذا النوع السياسي ؟

الذي نعرفه عن الرشيد أنه كان منتصراً على بيزنطة ، في تلك الفترة ، وقد أجبر الامبراطورة ايريني سنة ٧٩٨ م على دفع الجزية له ، سنة بعد أخرى • ثم لا دليل على أن مسيحيي الشام كانوا مضطهدين • أو كانوا خطراً على الدولة في عهده ، ليحميهم شارلمان • واذا كان ثمة من حماية مزعومة لامبراطور الفرنجة ، فقد ينفيها أن الرشيد إنما «اضطهد» النصارى ــ إن كان ثمة اضطهاد ــ في أخريات عهده ، أي بعد تلك الوفود والصلات الفرنجية المزعومة ، لا قبلها • وأخيراً كيف يفكر الرشيد في استرجاع الاندلس وهو يتخلى عن تونس ؟ وكيف يتآمر مع ملك مسيحي ضدها ، وهو المتدين الكثير الحج والصلاة والصدقات ؟ وكيف يعين شارلمان على فتحها ، وهو يعلم أن حكمها سيؤول لذلك الامبراطور الفرنجي وليس له ؟

٢ ــ نرى من الجهة الاولى أن شارلمان كان على صلات حسنة (في هذه الفترة بالذات) مع بيزنطة • ففي سنة ٧٩٨ م أرسلت ايريني الى شارلمان وفداً للمفاوضة في عقد حلف ، واقترحت عليه الزواج • ولعلها سلمت له ــ كما يقول بكلر ــ بلقب الامبراطور •• بل كان سفراء شارلمان سنة ٨٠٢ موجودين في القسطنطينية ويفاوضون في أمر الزواج ، حين جرى الانقلاب الذي أقصى الامبراطورة التقية الرهيبة عن العرش ، فما معنى وفوده إذن عند الرشيد ؟

٣ ــ يرى بارتولد ــ فيمايتعلق بأخبار الصلات ــ أنه ليس من المعقول أن يكون الرشيد أرسل الهدية (الفيل) مع إسحق اليهودي ، بينما أرسل سفراءه مقدماً بأيد فارغة •• ويرى أن إسحق قد لا يكون أكثر من واحد من التجار اليهود ، المتاجرين بين الشرق والغرب •

ثالثاً ــ نقد النتائج :

يلاحظ أن قضية (حماية الاماكن المقدسة) وما يتعلق بهذا الأمر من نتائج إنما هو ابن التخمينات والظنون التي بدأت من (ايجينهارد) القديم ، ولعلها لن تنتهي عند (بكلر) :

١ ــ يرى بارتولد ان المصدرين اللاتينيين القديمين يصرحان : ان غاية الوفد الاول كانت الحصول على (فيل) • وليس هناك مايدل على وصول ذلك الوفد للرشيد ، أو مفاوضته ، بأي شأن سياسي • أو اتصاله بشارلمان نفسه منذ غادر بلاده •

٢ ــ ليس لدينا أي خبر يدل على أنه حدثت مفاوضات، أيا كانت، بين وفد الرشيد وبين شارلمان • حتى أنه ليس ثمة تاريخ يذكر عودته •

٣ ــ ليس ثمة مصدر يذكر مهمة الوفد الثاني الفرنجي • ويرى جورانسون ان (ايجينهارد) إنما أضاف من عنده خبر الهبات لكنيسة القيامة ، وقبول الرشيد لمطالب شارلمان ••• الخ وهو مؤرخ لا يوثق به• كما انه يخلط بين هذه السفارة وبين إرسال زكريا بالهبات لكنيسة القيامة

سنة ٧٩٩ م ثم إنه لا يعرف طلبات الوفد ، بينما كان أمر (الحمايــة) تخميناً من عنده ، ولا قيمة له .

٤ ــ يعتمد بكلر على المنطق ويقول ان هذه المفاوضات يجب أن ترى بمنظار الدبلوماسية الاسلامية ويعين ــ من عنده ــ شارلمان امير استيلاء على الاندلس ، وواليا على القدس ، يتوكل عنه الخليفة نفسه !. وذلك تخريف . ويعتمد على (الماوردي) في تفسير امارة الاستيلاء . وينسى ان هذا الكاتب (الذي توفي سنة ٤٥٠/١٠٥٨) يفسرها بأنهــا « تعقد عن اضطرار ... » وان صاحبها يتقلد « احكام الدين » ولم يكن الرشيد مضطراً ، وليس شارلمان بالذي يعهد اليه تصريف أمور المسلمين عدا أن هذا التفريق بين نوعي الإمارة إنما ظهر لاحقاً في القرن الثالث الهجري وما بعده ولم يعرفه عهد الرشيد أبداً .

٥ ــ أرسل شارلمان صدقات وهبات إلى فلسطين ، فاستعملت في تعمير بعض الكنائس . وأنشأ منزلاً للحجاج باسمه ، كما أنشأ مكتبة . وهذا أمر بديهي من امبراطور يدعي السلطة على العالم المسيحي . ولكن جورانسون يتساءل فيما إذا كان ذلك يكفي للبرهنة على وجود (حماية) خاصة له في البلاد ، أو أنه يمكن أن يفسر على هذا النحو ؟ خاصة وان ايجنهارد يذكر أن شارلمان « خطب ود الملوك وراء البحار ، لأنه أراد ، بالدرجة الأولى ، تحسين أحوال المسيحيين الذين يعيشون في ممالكهم» وهذا لا يقتصر على الرشيد !

٦ ــ أما تقديم المفاتيح والراية ، من قبل بطريق القدس ، فــلا يمكن أن يعطي معنى سياسياً معيناً . لا سيما ورواة الخبر لا يعلقون عليه أهمية سياسية ، بل يتفقون على أنه كان من بــاب الدعــاء والتبريك (Benedictionis causa) « فاعطاؤه المعنى السياسي تحميل للمصادر ماليس فيهــا » .

٧ ـ أما خبر سفارة الخليفة المأمون إلى لويس التقي سنة ٢١٦/٨٣١ ••• فاذا كان خبر هذه السفارة صحيحا بدوره فقد يعني تحريض الدولة الفرنجية ضد بيزنطة في ايطاليا في الوقت الذي بدأ فيه المأمون حربها في الاناضول • على أن مما يضعف التعليل والخبر نفسه أنه كان ثمة قوة شبه عباسية هي الأغالبة وتعمل ضد بيزنطة في قطاعها العربي ولم يستنجد بها المأمون أو يحركها محرضا أو منسقا للقوى وقد كان بامكانها القيام بدور اكبر خطرا بكثير من الفرنج !

ويظهر لنا ، بعد كل هذا ، ان وجود الصلات بين شارلمان والرشيد أمر قليل الاحتمال • ولكنها إن حوت ـ في حال وجودها ـ شيئا من المعنى السياسي ، فليس أكثر من التعاطف البعيد ، وقد لا تحمله مطلقاً • وقد لا تكون أكثر من مجرد صلات تجارية ، قوامها أولئك التجار العالميون ، من اليهود الذين كانوا صلة الوصل بين الغرب والشرق ، في تلك الفترة • ولعلهم من اليهود (الرادانية) الذين كتب ابن خرداذبة[1] انهم كانوا يحسنون عدداً من اللغات ، ويتاجرون بين فرنسا والأقطار الاسلامية والصين • وقد يكونون كلفوا (أو لم يكلفوا) من شارلمان بحمل فيل ، وبعض البضائع الشرقية إليه • أو ربما كان الوافدون عليه تجاراً ادعوا أنهم سفراء ، لتسهيل مصالحهم في بلاده ، كعادة بعض تجار تلك الأوقات (في الصين مثلا) •

وربما كان الاحتمال الأقرب الذي يفسر هذه الصلات والسفارات جميعا أنها لم تكن مع الرشيد والمأمون ولكنها إن وجدت قط فبين أغالبة افريقية ولاة الرشيد وبين شارلمان وخلفائه •

---

(١) انظر ابن خرداذبه ـ المسالك والممالك (ط . دي غوية ـ بريل ١٨٨٩) ص ١٥٣ ـ ١٥٤

والواقع ان الأغالبة كانوا بسبب تجارتهم مع إمارات ايطاليـــا وجنوب فرنسا والحوض العربي للمتوسط ، وأطماعهم ثم هجومهم على صقلية في حاجة الى مثل تلك العلاقات مع دولة مسيحية كبيرة تنـاهض مثلهم بيزنطة المحتكرة للبحر المتوسط وللتجارة فيه والسيطرة على جزره ومعابره وبصورة خاصة على صقلية وجنوب ايطاليا • وقد كان شارلمان في زحام شديد قوي مع البيزنطيين في ايطاليا بالذات وقد بنى أسطولا في البحر المتوسط ومد نفوذه إلى جزر الباليار وسردينية وجنوب ايطاليا وحاول السيطرة على البندقية وايستريا ودالماسيا كجزء من خطته للسيطرة على مصادر الثروة التجارية التي حرمت منها بلاده بسبب بيزنطة حتى ظفر منها سنة ٨١٢ بجانب الاعتراف بتاجه الامبراطوري بحرية التجار الفرنجة في داخل الامبراطورية البيزنطية أيضا ولكن هذا البند من الاتفاق لم ينفذ أبدا وظلت المشكلة الاقتصادية قائمة في وجه خلفاء شارلمان •

ويتبين من هذا أن شارلمان وخلفاءه كانوا في حاجة الى حليف قوي ذي صلة مباشرة بالمناطق والموانيء والأراضـي التي يزاحمـون عليها بيزنطة • وكان هذا الحليف في الواقع هو الأغالبة • وثمـة خبر أورده إيجينهارد نفسه يذكر أن وفدا من أمير تونس الأغلبي سافر الى بلاط شارلمان عن طريق بيزا سنة ٨٠١[1] • كما بعث الفرنجـة فأخـذوا بعد سنوات رفاة بعض القديسين من افريقية • وهذا يعني أن الصلات بين الطرفين ليست مجرد افتراض نظري ولكنها كانت قائمة فعلا ••• فإذا تذكرنا الى هذا أن الأغالبة ، ولاة عباسيون على أي حال ، يحكمون باسم خليفة بغداد وقد كانوا ، ولا سيما في ذلـك الوقت من أيـام شارلمان

---

(١) انظر ارشيبالد لويس ــ القوى البحرية ص٢٠٤ (تعليق ٨١ نقلا عن Eiginhard in M T H Script I, 190)

والرشيد ، حديثي عهد بالولاية وبالتسمية من قبل الرشيد فهم لهذا شديدو الحرص على أن يبرز اسمه بجانب اسمائهم وعلى أن يتكلموا باسمه في كل مجال ولا سيما في مجال ملكي واسع لدى الفرنجة •

ثم إذا تذكرنا الى هذا وذاك شيئا آخر هو أن الطريق الذي ذكر أن الوفد الناقل للفيل اتبعه هو : طريق البر من مصر الى افريقية ومن هناك وضع في سفينة أبحرت به الى ثغر لوني ، حيث أنزل ليتم طريقه الى بلاط شارلمان ، أي أنه أبحر من أرض الأغالبة • كما أنه عاد في العودة عن طريق تونس • والسفارة التي غادرت عاصمة شارلمان (اكس لاشابيل) سنة ٨٠٢ أفلتت كما يقال من الوقوع في أسر بعض الاساطيل البيزنطية وهي عائدة سنة ٨٠٦ مما جعلها تسرع للوصول الى ميناء تريفيزو الايطالي • وهذا مما يشير بدوره الى أن عودة الوفد كانت أيضا عن طريق افريقية (تونس) •

وإذا تذكرنا الى هذا وذاك أيضا أن وصول سفير من الرشيد أو الى الرشيد أو وفد يحمل الهدايا الضخمة (كالفيل وغيره) لايمكن أن يمر في صمت أثناء عبوره بلاد الأغالبة ولا بد أن يحتفوا به بشكل من الأشكال ••• إذا تذكرنا كل أولئك بات من الأرجح أن تلك الوفود والسفارات إن وصل بعضها بلاط شارلمان رسميا وتكلم باسم الرشيد فإنما صاحبه هم الأغالبة ••• مع بقاء الاحتمال الدائم في أن لا تكون هذه الوفود والسفارات اكثر من جماعة من التجار يزودهم بلاط شارلمان أو الأغالبة بتوصيات أو بهدايا أو احتياجات ينقلونها بينهم بعد أن يأتوا بها من الشرق أو من بغداد وعلى أي حال فإن السفارات والوفود بين شارلمان والأغالبة كانت ، في الأرجح ، أوثق صلة مما تذكره المصادر كما

كانت اكثر احتمالا للمعنى السياسي وقبولا لموضوع تبادل الهدايا ممـا يمكن أن يعزى منها لبلاط بغداد والرشيد .

ويبقى بعد هذا أمر المصادر اللاتينية وقـد كان طبيعيا من خلال رغبتها في تفخيم سيدها شارلمان أن تنقل السفارات والهدايا من اسـم الأغلبي الى اسم مولاه ، سيد العصر في وقته : الرشيد .



الفصل السادس

عصر المعتصم

٢١٨ ـ ٢٤٧ هـ ٨٣٣ ـ ٨٦١ م

فترة القلق

اعتاد المؤرخون أن ينهوا العصر العباسي الاول ، بموت الخليفة الواثق سنة ٢٣٢هـ ولعله من الاصح ان ينتهي بمقتل الخليفة المتوكل سنة ٢٤٧ هـ فان عهد هذا الخليفة كان تتمة في نواحية السياسيةخاصة، وفي النواحي الفكرية والاجتماعية ، للعصر الذهبي الاول • واذا كانت فترة القلق ، في دولة بني العباس ، قد بدأت في زمن المعتصم ، فإنها لم تتضح ، بمثل القوة التي وضحت فيها في عهد المتوكل • فقد كانعهده «عهد حسن ونضارة» وعهد نضال وقلق معاً • وقد حاول المتوكل ان يقاوم عبثاً عوامل الضعف في الدولة ، وانتهى الأمر بمقتله • على يد الأتراك • وهو حادث يصح أن يعتبر بدءاً لعهد جديد ، امتدت فيه أيدي خدم الدولة ، الى أكبر رأس فيها • فبدأ بها ما يسمى عادة بعهد النفوذ التركي • هذا الى ان تجزؤ الدولة الى ولايات مستقلة انما بدأ بعد مصرع المتوكل بسنوات معدودة فعهده اذن ، يجب أن يختم عهد القوة ، لا أن يعتبر مطلع عهد الضعف (الثاني) •

ويمكن أن نلمح القلق في هذه الفترة من التاريخ العباسي (٢١٨ ــ ٢٤٧) في مسلك الخلفاء السياسي • فبعد أن استندت دولة المنصور

والرشيد الى ركنين من العرب والفرس ، عاد المعتصم وخلفاؤه يجربون عصبية جديدة • ويضطرب احدهم (المتوكـل) بين العرب والترك مدة حكمه • وبعد ان قام المنصور والرشيد ببغداد ، عاد المعتصم يبني عاصمة جديدة ، وغـدا المتوكـل يفتش عن عاصمة أخرى ، حتى استقر في المتوكلية • وبعد أن اعلنت الدولة الاعتزال مذهباً رسمياً لها ، عن غير فهم سوى تقليد المأمون رجع المتوكل الى المذهب السني ، وعاقب المعتزلة بالجلد • وبكلمة واحدة ظهر بوضوح ان دولة بني العباس تزحزحت عن موطن القمة في الاستقرار السياسي • وبدأ عهـد الاضطراب تمهيداً للضعف والتجزؤ •

على أنه لا بد أن نذكر ان قمة الخط البياني للقوة السياسية ، لا تتفق في التاريخ ، عادة ، مع قمة التقدم الحضاري • وان هذا التقدم يتأخر في العادة ، ويبلغ اوجه في العهود التي يأخـذ فيهـا السلطان السياسي ، في الاضمحلال • وهكذا نجد ان فترة القلق التي ندرسهـا (والقرن الذي تلاهـا والذي نسميه بالعصر التركي) كانت في الناحية الحضارية فترة النضج والقوة • ففيها في الحياة الفكريـة برز الجاحظ (في الكتابة) وابن ماسويه (في الطب) وابـو معشر البلخي (في النجوم) وابن خرداذبة (في الجغرافيا) وابن قتيبة والطبري (في التاريخ) وابـو تمام والبحتري (في الشعر) وابن حنبل والترمذي والبخاري والسجستاني (في الحديث والفقه) وخلف البزاز (القارىء) وفيها ظهـر اول فيلسوف عربي : يعقوب الكندي •

ونجد في الحياة الاجتماعية لأول مرة خمود العصبيـات القومية والدينية ، وظهور ما نستطيع أن نسميه : المجتمـع الاسلامي (لا لأنه منقسم على أساس ديني ، ولكن لأن رابطته هي رابطة الدين) وانقسام

هذا المجتمع على اساس المال الى طبقتين : خاصة مسيطرة وعامة مستغلة كادحـة ٠

وتتضح ، منذ هذه الفترة ، ميزة هذا المجتمع الاقتصادية في أنـه مجتمع تجاري (لا سيما في العراق) حتى ليمكن ـ على حد قول متز ـ أن نعد «التاجر رمز الحضارة العباسية» ٠

وأخيراً فأهم الآثار العمرانية التي بقيت لنا من العصر العباسي ، كانت آثار هذه الفترة ٠ وهي تلك القصور والبرك والجداول والشوارع التي تمتد على مسافة ٣٤ كيلو مترا حول دجلة والتي ندعوها سامراء ٠

١ ـ الخلفـاء :

توالى في هذه الفترة خلفاء ثلاثة : المعتصم ثم ابنه الواثق ثم ابنه الثاني المتوكل ٠

المعتصم بالله

١٧ رجب سنة ٢١٨ ـ ١٩ ربيع الاول سنة ٢٢٧ هـ
٨ آب سنة ٨٣٣ ـ ٦ كانون الثاني سنة ٨٤٢ م

ابو اسحق محمد بن هارون الرشيد

نشاته وصفاته : هو ابن الرشيد من جارية لـه تركية من الصـغد ومن مولدات الكوفة اسمها (ماردة) (أو مارية على رواية المسعودي)ولد سنة ١٧٨[1] وليس لدينا شيء عنه في صغره٠ ويظهر انه كان مهمل التربية٠

(١) يذكر المسعودي (ج٤ ص ٤٦ و٦٤) أن المعتصم ولـد في الشهر الثامن من سنة ثمانية ومائة وهو ثامن الخلفاء العباسيين والثامن من ولد العباس . وكانت خلافته ثماني سنين وثمانية أشهر وتوفي وعمره ثمـان

وما قدر له ابوه (وله من الاولاد مثله اثنا عشر) أن يلي في يوم من الأيام عرش بني العباس ٠ فنشأ محمد امياً لا يكتب ــ على قول بعض المؤرخين ــ أو كان «ضعيف الكتابة» ــ على قول ابن خلكان وابن كثير[١] ــ ولكن المصادر تجمع بالمقابل على وصفه بجمال الهيئة ، وبالقوة التي لم تعرف لغيره ٠ «كان يصارع الاسود ٠ ويحمل ألف رطل ويمشي بـه خطوات» وكان يلوي العمود الحديد حتى يصير طوقا ٠ ويشـد على الدينار بأصبعه السباتة والوسطى فيمحو كتابته[٢]» ويمتدحه المؤرخون على أنه رجل حرب «قيل انه لم يكن في بني العباس قبله أشجع منه ولا أتم تيقظاً في الحرب ولا أشد قوة[٣]» ٠ وتتضح هذه الصفـة فيه متى ذكرنا بعد قليل أعماله الحربية ٠ على أننا لا نعلم أين تمرس بالحروب ؟ ولا الذي كان من شأنـه يوم الفتنة بين أخويه ؟ ونعثر على اسمه في اخماد ثورة حرورية سنة ٢٠٢ هـ ثم يبرز اسمه فجأة في أواخـر عهد المأمون ، أخيه ، حين يعينه لولاية الشام ومصر سنة ٢١٣ هـ ثـم يأخذه للغزو على الجبهة البيزنطية ٠

بيعته : وتدرك المأمون وقدة الحمى في طرطوس ، ولم يكن قد عقد لأحد بعد ولاية عهده ٠ فيستدعي أخاه أبا اسحق ، ويعهد اليه بالخلافة من بعده ، دون ابنه العباس ، الذي كان موجودا معه في الغزو ، والذي كان محبوباً من الجند ، ولا سيما من العرب ، على ما يفهم من الطبري وغيـره ٠

وثلاثون سنة وقد ولي الخلافة سنة ثمان عشرة وفتح ثمانية فتوح وبرجه العقرب وهو الثامن وله ثماني بنين وثمان بنات ولهذا اسماه بعض المؤرخين المثمن (انظر السيوطي ــ تاريخ الخلفاء ص ٣٣٤) ٠

(١) انظر ابن كثير ــ البداية والنهاية ج١٠ ص ٢٩٥ ٠

(٢) الأربلي خلاصة الذهب المسبوك (طبعة المثنى ــ بغداد دون تاريخ ص ٢٢٢) ٠

وتساءل عن السبب الذي حدا بالمأمون لترك ابنه والعهد لأخيه • ولعله وجد الخلافة العباسية مهددة من بابك الخرمي ، ومن ثورات مصر ومن الزط ، وهجمات بيزنطة ، فاختار للموقف أخاه المتمرس بالحروب • وربما كانت وصيته له تلقي ضوءا على هذه النقطة • فهو يقول له : «••• وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم ، فلا تغفل عنهم في كل وقت ، والخرمية فاغزهم ذا حزامة وصرامة ، واكنفة بالأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة • فإن طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك واوليائك • واعمل في ذلك مقدم النية ، راجياً ثواب الله عليه» •

وأما العباس فقد أسرع ـ حسب بعض الروايات ـ لمبايعة عمه ولما شغب الجند أسكتهم «وكلمهم بكلام استحمقوه وشتموه وبايعوا لأبي اسحق[1]» •

وبعض الأخبار تذكر ان العباس تردد ، ويظهر ان حزم المعتصم هو الذي حسم ذلك التردد ، وقمع شغب الجند • ولعل هذا أصح إذا عرفنا ان العباس بن المأمون دبر مؤامرة ، فيما بعد مع القائد العربي عجيف بن عنبسة ، للاستيلاء على العرش ، بعد وقعة عمورية • ولكن المؤامرة افتضحت ، فمنع المعتصم الماء عن العباس حتى مات • ولحق به عجيف[2] •

وعلى أي حال ، ما كادت تتم البيعة في الجبهة للمعتصم بالله ، حتى أسرع الى بغداد ـ حسب وصية أخيه ـ ليشرف على قاعدة ملكه بنفسه •

---

(١) اليعقوبي ج٢ ص ٤٧١ •
(٢) الطبري ج ١٩ ص ٧١ ـ ٧٩ •

سياسته : يمكن ان نلاحظ في سياسة المعتصم انعكاس ظروفه الخاصة لحد كبير :

آ ــ فقد كان تركي الام ، عسكري الهوى ، وهذا ما جعله يعتمد علي اخواله في الجيش ، ويغالي في جمعهم اليه وشرائهم من ايدي مواليهم . فأوجد لنفسه عصبية جديدة تحكمت ــ كما سنرى ــ بمصير الدولة العباسية . يروي المسعودي أنه «... اجتمع له منهم أربعة آلاف فألبسهم أنواع الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وأبانهم بالزي عن سائر جنوده» ولم يكن همه منهم إلا الجهد العسكري على ما يظهر بدليل أنه «كان قد اصطنع (قبلهم أيضا) قوما من حوف مصر وهم عرب (على طرفي الدلتا) حوف اليمن (في الغرب) وحوف قيس (في الشرق)، فسماهم : المغاربة (لأن مصر في غرب العراق) ..» غير أنه كان اكثر اعتمادا على الترك خاصة وقد «استمد رجال خراسان من الفراغنة وغيرهم من الاشروسنية فكثر جيشه ...»[1] .

ويظهر ان المعتصم شعر بخطئه في استعمال الترك ، ورأى إخفاقه في تسيير أمور الدولة ، فشكا ذلك لأحد خلصائه ، ذات يوم ، قال له : ــ فيما يروي الطبري «في قلبي أمر ، أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة ... نظرت الى أخي المأمون وقد اصطنع أربعة أنجبوا . واصطنعت أنا أربعة لم يفلح احد منهم» فأجابه جليسه بعد أن استأمن «نظر أخوك الى الاصول فاستعملها

(١) المسعودي ــ مروج الذهب ج ٤ ص ٥٣ ولا شك أن رقم الآلاف الأربعة رقم متواضع وقد يكون خاطئا ان فهمنا منه تعداد الأتراك في الجيش كله . ولعل المسعودي إنما يقصد عددهم في حرس الخليفة وحده بدليل ما يذكر من لباسهم ..

فأنجبت . واستعمل أمير المؤمنين فروعا فلم تنجب ...[١]» .

ب ـ كان سريع الانفعال والعاطفة . وهذا ما يفسر قسوته في التعصب لما يريد «كان اذا غضب لايبالي من قتل او ما فعل» ـ على ماقال الطبري[٢] ـ ويفسر أيضا مايصفه به وزيره احمد بن ابي داوود من «لين الجانب وجميل العشرة» ومن هذا المنبع أتى اضطهاده القاسي لمن لايقول بخلق القرآن واهتزازه لعمل المروءة ، لا فرق في ذلك بين استجابته لصيحة «وامعتصماه» التي أطلقتها امرأة عربية في جبهة بيزنطة فدفعته إلى مابعد عمورية او معونته بنفسه ، مرة في يوم مطير لشيخ ضعيف ، غرق حماره في الوحل ، وعليه حمل من الشوك والشيح[٣] ! والاكثار من الصدقة. وقد ذكر عنه قاضية ابن أبي دؤاد أنه تصدق عن طريقه وبيده وبسببه بقيمة مائة مليون درهم[٤] .

جـ ـ تبع وصية اخيه المأمون بحرفيتها ، وقلد أعماله . ولما كان قليل البضاعة من العلم[٥] فقد كان أقل تسامحاً من اخيه سواء مع العلويين او مع غير المعتزلة . ولقد سمح لنفسه ان يضرب الامام احمد بن حنبل بالسياط[٦] ويسجنه لأنه امتنع عن القول بخلق القرآن . وانما كان المعتصم يفعل ذلك تقليداً لا عن قناعة .

د ـ تميز المعتصم بحبه للعمران وللعمارة واحياء الموات وكان

---

(١) الطبري ج٩ ص ١٢٢ (١٣٢٧/٣) .
(٢) الطبري ج١١ ص ٧ .
(٣) المسعودي ـ مروج الذهب ج ٢ ص ٥١ .
(٤) الطبري ج ٩ ص ١٢٣ (١٣٢٩/٣) .
(٥) يروي ابن خلكان ان المعتصم قال مرة عن نفسه وعن وزيره (وزيره الثاني أحمد بن عمار) «خليفة امي ووزير عامي» . انظر الفخري ص ١٩٠ والقلقشندي مآثر الإنافة ج١ ص٢١٨ـ٢١٩ .
(٦) المسعودي ـ مروج الذهب ج٢ ص ٥٢ .

يقول : «ان فيها اموراً محمودة من عمران الأرض التي يحيا بها العالم ، وعليها يزكو الخراج وتكثر الاموال وتعيش البهائـم وترخص الاسعار ويكثر الكسب ويتسع المعاش «ويقول لوزيره محمد بن عبد الملك» اذا وجدت موضعاً متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاءني بعد سنة احد عشر درهماً فلا تؤامرني فيه[1]» واعطى أهل الشاش الفي درهم لكري نهر لهم اندفن في صدر الاسلام[2] • على أنه «لم يكن بالنفقـة على شيء أسمح منه بالنفقة على الحرب» •

هـ ـ كان المعتصم قائداً ممتازا في الحرب ، قمع الفتن التي قضى أخوه عهده كله دون أن يتمكن من إخمادها ، وأرهب جبهة الروم ، غير أنه كان قصير النظر في السياسة ، قصراً شاركه فيـه أولاده بعده • والاعمال والسنن التي حسبها سبيل قوة الدولة كانت هي نفسها عوامل تدميرها • فقد بنى عاصمة جديدة ليخلص من عصبيات وضغط العاصمة الاولى ، فوقع كالسجين في مدينته الجديدة ، لأن معظم سكانها كانوا من الجند ! •• وكذلك وقع خلفاؤه ، صرعى لهم • واصطنع عصبية جديدة من الترك يقوى بها ونسي ــ وأنى له مع أميته أن يعلم ــ أنه لا ثقافة لهؤلاء ولا ولاء • وان همهم الكسب • ثم إنه باصطناعهم ، يوهن ما توطد من علائق بين دولة بني العباس وبين جناحيها في إيران وفي جزيرة العرب ، وهنا خطيرا ويتركها دو نسند ، إلا من خليط من الأجنـاد لا جذور لهم في أرض أو كيان • وإذا لم تظهر خطيئات سياسية له ، فلأن حزبه كان يعصمه • واذا كان خلفاؤه هم الذين يحملون الـوزر بسوء تصرفهم بعده وعدم تنبههم للمصير ، فقد دفعوا ودفعت الدولة معهم ، الثمن ، ولم يكن مضى على وفاة المعتصم سنة ٢٢٧ غير عشرين سنة !

(١) المسـعودي ــ مروج الذهب ج٤ ص ٤٧ •
(٢) الطبري ج ٩ ص ١٢١ (٣/١٣٢٦) •

الواثق بالله

(١٩ ربيع الأول سنة ٢٢٧ــ٢٤ ذي الحجة سنة ٢٣٢ هـ)
(٦ كانون الثاني سنة ٨٤٢ ــ ١١ آب سنة ٨٤٧ م)

نشأته وصفاته :

نشأته وصفاته : هو ابن المعتصم من ام ولد رومية تدعى قراطيس. ولد سنة ١٩٦ ويظهر أنه نشأ في قصور الخلافة في بغداد (او خارجها ؟) فشارك في العلم والأدب ، أو أنه عني به حين آلت الخلافة الى أبيه . فقد رووا عنه أنه كان لا يبارى في الثقافة حتى سمي «المأمون الاصغر» كما يقول السيوطي . ولكن علمه كان في علوم العرب وفي رواية الشعر لا يخلط بها شيئا بينما كان المأمون قد مزج بذلك علوم الأوائل[1] على أن الواثق كان يطلب التأليف في بعض المواضيع (ألف له حنين بن اسحق كتاب المسائل الطبيعية) ويعقد مجالس المناظرة في قصره ويسأل عن اقوال الحكماء (حسب رواية المسعودي)[2] ويقول الشعر ويجزل العطاء للشعراء ويحب الموسيقى حتى إنه صنع مائة صوت . كما يحب المجون . ولاه أبوه العهد ، فبايعه الناس في سامراء ليلة وفاة المعتصم .

---

(١) السيوطي ــ تاريخ الخلفاء ص ٣٤٣ .
(٢) انظر المسعودي ــ مروج الذهب ج ٤ ص ٧٧ حتى ٨٤ فلديه تفاصيل بعض المجالس .

سياسته :

آ ــ الواثق «نكرة من نكرات السياسة» والادارة[1] كان حكمه فترة ركود واهمال سياسي ، سمحت لتلك العناصر التركية الغريبة ، التي جمعها ابوه في الجيش ، أن تشعر بشأنها وتتدخل في سياسة الدولة .واذا كان المعتصم قد قصر فعالية الترك على النواحي العسكرية ، فان الواثق لم يقم بفعالية عسكرية تذكر . ولم يحـاول أن يوقف عناصر الجيش الغريبة عند حدها الحربي . بل نراه يفتح لها الطريق الى جهاز الحكم ، بتعيين كبار قواد الترك في الادارة . يقول السيوطي «اظن انـه اول خليفة استخلف سلطاناً» فقد اعطى ، منذ ولي الخلافة : اشناس التركي، غرب الدولة «من بابه إلى آخر عمل المغرب» على قول اليعقوبي[2] . «واعطى قائده ايتاخ كور دجلة (وفارس) والسند» اي أنه قسـم الدولة بين اثنين من الترك . لأحدهما المشرق ، وللآخر المغرب . فولى كل منهما الولاة من قبله ، وبقيا في سامراء .

ويظهر ضعف الواثق أيضاً من إثباته آل طاهر ودولتهم في خراسان. ومن تغلب القاضي أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي ، ومحمد بن عبد الملك الزيات الوزير عليه ، حتى «قلدهما الأمر وفوض إليهما ملكه» كما يرى

---

(١) الدوري : دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص ١٣ ويتفق معه في ذلك بعض المستشرقين كميور ، و(زترشتين) في دائـرة المعـارف الاسلاميـة .

(٢) اليعقوبي ج٢ ص ٤٧٩ وثمة من المؤرخين من يذكر انه منح اشناس أو جعله سلطانا ، انظر السيوطي (تاريخ الخلفاء ص ٣٤٠) وليس بالثابت استعمال لقب السلطان لأشناس الذي لم يسبقه في الواقع أحد في تولي هذا المنصب حتى من اولاد الخلفاء .

المسعودي»[1] . فكان لا يصدر إلا عن رأيهما ولا يعقب عليهما فيما رأيـاه ...» .

وقد أضاف الواثق إلم خطيئاته أنه أكثر مـن مصـادرة كبار الموظفين لديه فترك ذلك آثاراً سيئة جدا في الجهاز الاداري وفي الاستقرار المالي ، للدولة ، إذ صارت المصادرة سنة لمن خلفه ، وموردا من موارد الخزينة والخلافة ، كلما دعت الى ذلك حاجة أو طمـع ، وفتحت الباب للدسائس ، وللإثراء غير المشروع من الشعب ، ولعدم إخلاص كبـار الموظفين ، للخليفة وللعمل ، على السواء .

يروي الطبري[2] أنه في سنة ٢٢٩ «حبس (الواثق) الكتاب وألزمهم أموالا عظيمة ، وأخذ من أحمد بن اسرائيل ثمانين الف دينار بعد أن ضربه ومن سليمان بن وهب كاتب إيتاخ ٤٠٠ الف دينار ومن الحسن بن وهب ١٤ الف دينار ومن ابراهيم بن رياح وكاتبه ١٠٠ الف دينار ومن احمد ابن الخصيب وكتابه الف الف دينار ومن نجاح ٦٠ الف دينار ومن أبي الوزير ٤٠ الف دينار ...» .

وإذا كانت كثرة الاموال المصادرة تدل على شيء ، فعلى مقدار الإهمال الإداري الذي سبقها ، والذي سمح لجماعة الكتاب أن يكونوا من الثراء الغريب بحيث يملك بعضهم مليون دينار للمصادرة !

ولعل ضعف الواثق ، وقلة إدراكه السياسي ، مسؤولان عن خيطئة خطيرة في الدولة ، هي أنه امتنع عن تعيين ولي عهد له . فقال حين توفي «لا أتقلد اموركم حياً وميتاً» وفتح بذلك للترك ، باب التدخل في أعلى مراحل السلطة : وهي اختيار الخليفة . وسرعان ما استغلوا ذلك .فكانت

---

(١) المسعودي ج٤ ص ٦٦ .
(٢) الطبري ج ١٩ ص ١٢٥ و ١٢٨ (٣/١٣٣١ و ١٣٣٥) .

لهم يد كبرى في ايصال المتوكل للخلافة ... وتلك سابقة دفعت ثمنها الخلافة غالياً جداً .

ب ــ تعصب الواثق مثل أبيه وعمه للاعتزال . واراد ان يجعله عن قناعة وتصميم المذهب الرسمي للدولة . فلم يكتف بإقراره في عاصمة ملكه ، ولكنه كتب إلى الآفاق بامتحان القضاة والناس فيه . ولا تقبل شهادة من لايقول بالتوحيد . وأمر ــ على ما يذكر الطبري[1] واليعقوبي ــ بألا يقبل فداء اسير مسلم لدى الروم سنة ٢٣١ قبل أن يقر بخلق القرآن ، وبأن الله لايرى في الآخرة . وقد أثار ذلك كله خواطر المتدينين والناس حتى قامت ضد الواثق مؤامرة في بغداد لخلعه ، وهي المؤامرة التي بيتها أصحاب الحديث ومن ينكر القول بخلق القرآن . وقد قادها أحمد بن نصر الخزاعي[2] في السر . ولكنها اكتشفت قبل أن تتحول الى التنفيذ سنة ٢٣١ هـ . فقبض على زعيمها وبعض أنصاره وحملوا إلى سامراء . وعقد الواثق مجلساً عاماً للمحاكمة ، حضره قاضي قضاته أحمد بن أبي دؤاد وحكم على أحمد بن نصر بالكفر فقتله الواثق بيده ثم صلب وتتبع أصحابه بالمطاردة والسجن الشديد .

على أن هذه المؤامرة وطريقة الحكم على زعيمها ، تدل على أن الاعتزال لم يكن مقبولا من الشعب العباسي رغم عمل ثلاثة خلفاء متعاقبين ، مدة ثلاث عشرة سنة ، على نشره ودعمه ، واخذ الناس به . ولعل هذا ما يفسر السهولة التي لقيها المتوكل في ضرب هذا المذهب ، فيما بعد . ويفسر نظرة جمهرة الناس الى فترة الاعتزال على أنها ، فترة « محنة » .

---

(١) الطبري ج١٩ ص ١٤٢ واليعقوبي ج٢ ص ٤٨٢ .

(٢) الطبري ج ٩ ص ١٣٥ فما بعد (١٣٤٣/٣ فما بعد) وابن الاثير ج٧ ص ١٤ (حوادث سنة ٢٣١) .

ج ــ واخيراً فقد كان الواثق عطوفاً ، اكرم الامويين ورد على بعضهم اموالهم ، كما احسن إلى العلويين إحساناً لم يدانه فيه احد من بني العباس ، فإن الخطيب البغدادي والسيوطي يذكر ان قول يحيى بن اكثم انه «ما أحسن احد الي آل أبي طالب ما أحسن إليهم الواثق»[1] «ما مات وفيهم فقير» واكرم أهل بيته ، و «فرق في أهل الحرمين اموالا لاتحصى حتى إنه لم يوجد بالحرمين في ايامه سائل»[2] ، وحتى خرجوا يندبونه ويبكون حين مات ، بل إنه أعطى فقراء الكرخ مليون درهم معونة لإصلاح منازلهم التي احترقت في أيامه ، وأعطى المال لأهل فرغانة لسد بثق وحفر نهر هناك ، وفرق على قوم من التجار اموالا جمة لتشجيعهم «وأسقط ما كان يؤخذ ممن يرد في بحر الصيني من العشر»[3] «وكان مالا عظيما» .

وقد توفي الواثق في مرض عضال لم يتركه على العرش اكثر من خمس سنين وتسعة اشهر (آخر ذي الحجة سنة ٢٣٢) .

المتوكل على الله

(٢٤ ذي الحجة سنة ٢٣٢ ــ ٣ شوال سنة ٢٤٧هـ)

(١١ آب سنة ٨٤٧ ــ ١٠ كانون الأول سنة ٨٦١ م)

نشاته : هو جعفر بن المعتصم من ام ولد يقال لها شجاع (تركية او خوارزمية او رومية) ولد سنة ٢٠٦ هـ وقد تربت امه منذ حداثتها ، في

---

(١) السيوطي ــ تاريخ الخلفاء ص ٣٤٢ .

(٢) ابن الاثير ج٧ ص ٣١ .

(٣) اليعقوبي ج٢ ص ٤٨٣ والطبري ج٩ ص ١٥٠ (١٣٦٣/٣) وانظر ابن الأثير ج٧ ص ٣١ .

بيت المعتصم (خارج بغداد ؟) وربته بنفسها .. واول ما يظهر اسم جعفر سنة ٢٢٧ هـ اذ ولاه اخوه امارة الحج . ولكنه انحرف بعد ذلك عنه ، اثر حلم سمع الواثق ان جعفر رآه ، وفسره له بعض خاصتــه ، بأنه الخلافة(١) . ويظهر ان جعفر قد اظهر شيئا من الطمع بها ، لصغر سن ابن اخيه محمد، فحبسه أخوه : وضيق عليه ، حتى يئس منها ، لاسيما وقد مالأرجال الدولة أخاه ضده ، وانحرفوا عنه .

بيعتــه : على أن شغور سدة الخلافة ، دون ولي عهد شرعي مسمى، سمح — على ما يظهر — للأتراك بالتدخل . فاليعقوبي يذكر ان أول من بايع (المتوكل) هو (سيما) التركي ، المعــروف بالدمشقي . و(وصيف) التركي ...) وركب الى دار العامة من ساعته . وأمــر بإعطاء الجند عطاءهم لثمانية أشهر . «واتتقى له أحمد بن أبي دؤاد لقبه (المتوكل على الله) في اليوم التالي . وقد كاد يلقب بالمنتصر بالله . ولنا هنا أن نخمن ائتمار الترك فيما بينهم ،واتفاقهم على اختيار جعفر للخلافة . وتأييدهم له ، حتى جاءه — كما يقول اليعقوبي — فسلم عليه بالخلافة اولاد سبعة خلفاء مجتمعين .

سياسته : يطالعنا في المتوكل شخصية قوية حازمــة ولكن في لين وإحسان ، تذكرنا بالمنصور تارة وبالرشيد تارة اخرى . ولكنـــه رغم محاولاته السياسية البارعة لم يستطع ان يتغلب على عوامل الضعف في الدولة . فسقط في النهاية ضحية لها . وأبرز ما تميز به عهده :

آ — للمتوكل سياسة دينية خالف فيها اباه وعمه : وبالرغم من أنه لم يكن شديد التدين ، إلا أنه كان بادي التعصب لإسلاميته ، وللمذهب

---

(١) الطبري ج٩ ص ١٥٥ (٣/١٣٧٠) .
(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٨٤ .

السني خاصة[1] . بدأ عهده بأن أمر بترك الجدل ، والاعتزال ،والرجوع إلى «التسليم والتقليد»[2] ــ كما قال المسعودي ــ وأمر الشيوخ المحدثين بالتحدث وإظهار السنة والجماعة «وأطلق من كان ألقي في السجون لعدم قولهم بخلق القرآن» وقد حمد الناس له هذه الخطوة ، وبالغوا في الثناء عليه حتى عدوه ثالث خلفاء ثلاثة في هذا الباب : ابي بكر يوم الردة ، وعمر بن عبد العزيز في رده للمظالم ، والمتوكل في إحياء السنة[3] .

غير أن تعصبه السني أدى به الى اضطهاد العلويين . ضرب بالسياط رجلا شتم ابا بكر وعمر وعائشة وحفصة حتى الموت[4] . وأمر سنة ٢٣٦ هـ بهدم قبر الحسين بن علي ، وما حوله من الدور ، وان يحرث ويبذر ، ويسقى موضع قبره ، ويمنع الناس من اتيانه[5] .. وكان ذلك . وقرب بالمقابل جماعة اشتهروا ببغض آل علي ، فكانوا ــ على رأي ابن الأثير ــ[6] يخوفونه من العلويين ، ويشيرون بإبعادهم .. فجلبت عليه هذه السياسة سخط الكثير من الناس و «غطت هذه السيئة جميع حسناته » وقد بلغ في هذه الناحية الحد الذي جعله ينثر الدنانير

---

(١) يذكر السيوطي (تاريخ الخلفاء ص ٣٤٦) أنه كان شافعي المذهب وانه اول من تمذهب من الخلفاء .

(٢) المسعودي ٤ ص ٨٦ .

(٣) السيوطي ــ تاريخ الخلفاء ص ٣٤٦ .

(٤) هجاه من اجل ذلك الشعراء وكتب شتمه على جدران بغداد وقال شاعر :

اسفوا على أن لا يكونوا شاركوا في قتله فتتبعوه رميما

(٥) الطبري ج٩ ص ٢٠٠ ــ ٢٠١ (١٤٢٤ ــ ١٤٢٦) .

(٦) ابن الاثير ج٧ ص ٥٥ و ٥٦ وانظر الطبري ٩ ص ١٨٥ (١٤٠٧/٣)

ويعطي ولاية البحرين واليمامة لشاعر (هو ابن أبـي السمط) أنشده قصيدة في مدافعة حق العلويين بالخلافة[1] .

ويبدو أن المتوكل أراد أن ينتهي مرة واحدة من مشكلة العلويين ومراقبتهم فقرر أن يجعلهم في مركز تجمع لهم يراقبهم فيه على ألا يكون فيهم هناك زعيم مرموق . ويبدو أيضا أنه اختار أولا تجميعهم في العراق تحت عيون وعند آذان أصحاب بريده الأقربين . وكتب بذلـك الى الآفاق والى مصر . يقول الكندي إن أمرا ورد منه سنة ٢٣٥ بإخراج الطالبيين من مصر الى العراق وفرض فيهم الأموال ليتحملوا بها فأعطي، كل واحد منهم ثلاثين دينارا والمرأة خمسة عشر دينارا وفرقت فيهم الثياب. ثم خرجوا (رجب سنة ٢٣٦) فقدموا العراق ...» ولكن المتوكل كان قد بدل رأيه وخشي أن يكون العراق مجال اتصال أوسع لهم بكافة من يرد إليه من أنحاء الأرض فاختار تحويلهم الى موطن مقدس منعزل: المدينة. فأمروا فورا بالخروج إليها (شوال سنة ٢٣٦) على أنه في الوقت نفسه ماكاد يسمع أن علي بن محمد (الامام الهادي) هو البارز هناك وأنهم ينادونه بالامام حتى استقدمه الى سامراء لإقامة إجبارية فيها منذ سنة ٢٣٣ وحتى موته ! ..

وقد تناول المتوكل بتعصبه الديني اهل الذمة فأمرهم سنة ٢٣٥هـ بلبس الطيالسة العسليـة ، ومخالفة ألبسـة المسلمين ، على رؤوسهم واوساطهم ، وبركوبهم البغال والحمير بسروج خشبية ، دون الخيـل والبرازين . وان يسمروا على ابواب دورهم خشباً فيها صورة الشياطين.

---

(١) الطبري ج٩ ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ (٣/١٤٦٥ ـ ١٤٦٦) .
(٢) الطبري ج٩ ص١٧١ فما بعد . وابن الاثير ج٧ ص ٥٢ (حوادث سـنة ٢٣٥) .

ونهي ان يستعان بهم في الدواوين ، واعمال السلطات[1] ، التي تجري احكامهم فيها على المسلمين • ثم امر ان تهدم الكنائس والبيع المحدثة للنصارى ، وان يمنعوا من العمارة !

ب ـ قاوم نفوذ الوزراء في الدولة وحاول القضاء على مساوىء الكتاب ومظالمهم بالمصادرة والنكبات وليس أكثر من الأمثلة على ذلك[2]: كنكبة ابن الزيات التي بدأ بها عهده ، وابي داود ، ومحمد بن الفضل ، وابن الوزير ، ومحمد ابن اسحق ، والحسين بن اسماعيل ، ونجاح بن سلمة الكاتب وغيرهم • حتى لقد أضحت المصادرة نوعاً من الضريبة على كبار الموظفين • وقد كان يدفع المتوكل إليها كثرة نفقاته مع قلة الموارد • وقد وجد عنده[3] حين قتل أربعة ملايين دينار وسبعة ملايين درهم عدا ٤ آلاف جارية وما لم يحص من الثياب والسلاح والقصور والآلة ••

جـ ـ كان المتوكل كثير الولع بالعمران • أنفق على بناء القصور في سامراء والمتوكلية ما يمكن أن ينسب معه إلى التبذير الشديد • وكان اذا عرض له مشروع فيه بعض العمران أو إحياء الموات أو صلاح أمر الناس قبله • فقد حاول شق فرع من دجلة إلى المناطق العالية من سامراء هو (الجعفري) ولكن كان مأساة هندسية فاشلة • وقد جعل سنة ٢٤١ كورة سميساط عشرية وكانت خراجية ليوسع على المحاربين هناك • وحاول تأخير الموعد لجباية الخراج إلى ما بعد نضج الزرع وهي مشكلة

---

(١) الكندي ـ الولاة والقضاة .
(٢) اليعقوبي ج٢ ص ٤٨٥ ـ ٤٨٦ و ٤٨٨ و ٤٨٩ والطبري ج ٩ ص ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٨٩ ، ١٩٨ ، ٢١٤ ـ ٢١٧ وابن الاثير ج ٧ ص ٣٩ وما بعد .
(٣) المسعودي ـ مروج الذهب ج ٤ ص ١٢٢ .

قائمة منذ العهد الأموي ولكن مقتله حال دون تنفيذ ذلك الاصلاح .

د ـ حاول التقرب من العامة بالبذل الشديد ، حتى أنفق ما في بيت المال في الصلات والعمارة ، وباللين والأنس حتى كان يعاون الحطاب في الطريق . يذكر السيوطي أنه قال ليزيد المهلبي : «إن الخلفاء كانت تتصعب على الرعية لتطيعها وأنا ألين لهم ليحبوني ويطيعوني ..»[1] ويقول المسعودي : «لا يعلم أحد متقدم في جد ولا هزل إلا وقد حظي في دولة (المتوكل) ووصل إليه نصيب وافر من ماله» وكان هو نفسه منهمكا في الملذات والشراب» وله أربعة آلاف سرية ... وقيل «إنه لم تكن النفقات في عصر من الاعصار ولا وقت من الاوقات مثلها أيام المتوكل»[2] . وبالرغم من ان الناس حمدوا سياسته السخية العطوف حتى كتب المسعودي وغيره عن إيامه أنها كانت «في حسنها ونضارتها ورفاهة العيش فيها ورخص أسعارها وحمد الخاص والعام لها ، أيام سراء» مع «استقامة الملك وشمول الناس بالأمن والعدل» فكأنها كما قال بعضهم « اماني الحب وأيام الشباب » برغم هذا فان عمل المتوكل لم يكن اكثر من تدبير موقت فاشل ، لايقاف تدهور الدولة السياسي .

هـ ـ ولعل اهم ما حاوله المتوكل هو القضاء على نفوذ الترك . فقد ورثهم مع العرش . وهم يسيطرون على الجيش والادارة معا . فقتل بعضهم (كإيتاخ القائد) ثم تقرب من العامة ليتخلص منهم . كما تقرب من العرب ليتعصبوا له . وسعى لتفريق صفوف الترك . وحاول نقل عاصمة ملكه من سامراء الى دمشق ثم عاد الى سامراء ، فبنى بجوارها بلدة له ، سميت المتوكلية ... ولكن مساعيه اخفقت كلها لان الاتراك

---

(١) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص ٣٥٢ .

(٢) المسعودي ـ مروج الذهب ج٤ ص ١٢٣ وص ١٢٢ .

رغم اختلافهم كانوا يشعرون بمصلحتهم المشتركة وكانت هذه المصلحة تجمعهم . وقد ساعدهم الخليفة في امر ولاية العهد ، وانقســام العائلة المالكة على نفسها ، فانتهى الأمر بائتمار ابنه معهم على قتله .

مصرعه : ائتمر الأتراك لقتل المتوكل اول مرة سنة ٢٤٣ وهو في دمشق . ولكنه نجا بيقظة قائده بغــا الكبير ، والفتح بن خاقان[1] ثم دبروا المؤامرة الثانية ، مع ابنه المنتصر ، الذي كان يخشى أن يحول أبوه ولاية العهد إلى أخيه المعتز فاتفق مع بعض قواد الترك مثل بغا الصغير وباغر على التخلص من أبيه . ونجحت المؤامرة . وقتل مع المتوكل فيها صاحبه الفتح بن خاقان (٤ شوال سنة ٢٤٧ ــ ١١ كانون الأول سنة ٨٦١) وكاد يذهب معهما الشاعر البحتري . وبدأ بذلــك اليــوم عهد الفوضى التركية .



(١) انظر المسعودي ج٤ ص ١٢٢ وانظر ج٤ ص ٨٦ .

(٢) يفصل المسعودي (ج٤ ص ١١٧ ثم ص ١١٨ ــ ١٢٢) قصةالاغتيال الفاشل ثم قصة الاغتيال الذي تم بعد ذلك .

الفصل التاسع عشر

الترك وسامراء

ابرز ما يلاحظ داخلياً في فترة القلق (٢١٨ ــ ٢٤٧) التي ندرسها اضطراب الدولة بعنصر جديد : هو الترك ، أقيمت من أجله ، عاصمة جديدة . ثم انحطاط الجهاز الاداري في الدولة انحطاطاً عاماً . وأخيرا ظهور بعض الحركات الثورية التي كانت أشبه بتصفية للثورات الدينية والسياسية السابقة ، في العهدين الماضيين وإذا كانت المشاكل الادارية والثورات استمراراً وتطورا طبيعيا للعصر السابق فإن الجديد الذي طرأ على الدولة العباسية هو ظهور عصبية جديدة فيها أخرجتها عن خط سيرها الأول . وقد عبر هذا الانحراف الجديد عن نفسه بخروج الخلفاء عن عاصمتهم التقليدية إلى مركز ملك جديد .

١ ــ الاتراك عنصر جديد :

أ ــ قبل المعتصم : لعل تلك المنطقة البدوية ، المحصورة بين هضبة بامير ، وبحر الخزر ، وبين اطراف آرال ، وخراسان ، والتي ندعوها اليوم تركستان . وكان المسلمون يدعون بعضا منها باسم (ما وراء النهر) لعلها من المناطق القليلة في العالم ، التي كان أثرها في التاريخ واضحا كل الوضوح . (وأهم منها في ذلك جزيرة العرب ، ومثلها بوادي منغوليا وأطراف البحر البلطي) . وأول ما اتصل المسلمون بتلك المنطقة ايام فتوح الوليد بن عبد الملك ، وقائده قتيبة بن مسلم الباهلي . على ان

انتشار الاسلام في تركستان لايدل إلا على قليل من النشاط في الدعوة. وقد قاومه الامويون احياناً على ما يظهر في اواخر عهدهم (عدا عمر بن عبد العزيز) كما قاومه السكان الترك انفسهم ، واتسمت مقاومتهم بكثير من ضروب العنف والعناد — كما يقول آرنولد[1] — حتى انه لم يجرأ المسلمون على الظهور أعواماً طوالا في المساجد . والاماكن العامة دون سلاح . وحتى حرم على غيرهم حمله . ولم يكن بد من ان تقام العيون على حديثي العهد بالاسلام . كما حاول المسلمون احيانا تألف قلوب الترك ، بالمال ، ليحضروا صلاة الجمعة في المساجد . وسمحوا لهم حسب ما يروي النرشخي في اخبار بخارى بقراءة القرآن باللغة الفارسية بدلا من العربية ليستطيعوا فهمه في سهولة ويسر[2] . يقول النرشخي : إن قتيبة «... كان يأمر بمناد كل يوم جمعة يقول بأن كل من يأتي لصلاة الجمعة اعطيه درهمين . وكان أهل بخاري في أول الاسلام يقرؤون القرآن في الصلاة بالفارسية ولم يكونوا يستطيعون تعلم العربية ..» .

على ان جمهور الناس (رغم جهود ابن عبد العزيز وهشام) لم يدخلوا في الاسلام باعداد وفيرة حتى عهد المعتصم ، حين ظهرت العلاقات الوثيقة بين بغداد وما وراء النهر . فهاجر الترك افواجاً لينضموا الى جند الخليفة . وليس يعني هذا ان المعتصم كان اول من استجلبهم او استعملهم فاننا نجد اشارات الى وجود اتراك في الجيش العباسي قبل المعتصم بكثير . وإن لنجد ذكر بعض الأتراك حتى في الجند الاسلامي ، منذ

---

(١) النرشخي — تاريخ بخارى ص٧٤ وقد نقله آرنولد : الدعوة إلى الاسلام ص ٢٤٣ .

(٢) انظر ياقوت — معجم البلدان ج٣ ص ٢٥٦ والبلاذري — فتوح ص ٥٠٧ والطبري ج٥ ص ٢٩٨ (٢/١٧٠) .

العصر الأموي : فإن عبيد الله بن زياد أتى من بخاري بألفين كلهم جيد الرمي بالنشاب وأسكنهم سكة بالبصرة وفرض لهم العطاء وقد سميت السكة باسم سكة النجارية[1] وقد دخل الاتراك كذلك في حرس الخلافة ونجد ذكرهم منذ عهد عبد الملك بن مروان حين أرسلهم لإخماد فتنة الحارث بن عبد الرحمن الدمشقي الذي ادعى النبوة بالقدس[2] ومن المعروف ان قتيبة بن مسلم ألزم أهل بخاري أن يمدوه بقوة تتراوح بين ألف وألفي رجل • كما أن نصر بن سيار سار في ما وراء النهر سنة ١٢١ بجيش كثيف من عشرين ألف من أهل بخاري وسمرقند وكش ونسف • وقد يكون بعض هؤلاء من الترك ••

أما في العهد العباسي فثمة نص أورده الثعالبي[3] يقول : إن أول من اتخذ الاتراك من الخلفاء المنصور : اتخذ حماداً ثم اتخذ المهدي مباركا ثم اقتدى بهما الخلفاء وسائر النــاس •••» • وحمــاد التركي لدى المنصور كان المؤتمن الوحيد على السفط الذي وضع فيه الخليفة علمه ودفاتره واسرار دولته فكان مفتاحه مع حماد • ثــم يروي الطبري في حوادث سنة ١٧٠ ان طرسوس عمرت على يد ابي مسلم فرج الخادم التركي • ولكن لا شك ان عدد الاتــراك لــم يكن وفيراً • كما ان استخدامهم كان عن طريق الصدفــة ، لا طبق سياسة مرسومة • ويبدو أنهم كانوا في عهد الأمين يكونون مجموعة واضحة في الجيش يدافعون معه عن بغداد إذ يقول الشاعر الخريمي (إسحاق بن حسان) :

---

(١) أنظر ابن كثير ــ البداية والنهاية ٩ ص ٢٧ •
(٢) الثعالبي ــ لطائف المعارف ص ٢٠ •

بل هل رأيت السيوف مصلتة　　أشهرها في الاسواق شاهرها
والخيل تستن في أزقتها　　بالترك مسنونة خناجرها[1]

وكانوا أيضا كذلك في جند المأمون ويروي الجاحظ أنه رأى في بعض غزوات المأمون سماطي جند في جنبتي الطريق بقرب المنزل مائة فارس من الأتراك في الجانب الأيمن ومائة من سائر الناس في الجانب الأيسر وإذا هم قد اصطفوا ينتظرون مجيء المأمون وقد انتصف النهار واشتد الحر . فورد عليهم ... وجميع تلك الأخلاط من الجند قد رموا بنفوسهم الى الأرض...»[2] ولعلنا نضيف أن طولون الذي أسس ابنه الدولة الطولونية كان حوالي سنة ٢٠٠ بين المماليك الذين أرسلهم ابن اسد الصمامي احد عمال المأمون في خراسان فألحقه المأمون بحاشيته حتى صار رئيس الحرس ولقبه أمير الستر وبقي في منصبه حتى عهد المعتصم ... وقد كان ذلك فيما يبدو نتيجة اهتمام المأمون باسلام ما وراء النهر . فقد روى البلاذري أنه « كان يكتب إلى عماله على خراسان في غزو من لم يكن على الطاعة والاسلام من أهل ما وراء النهر . ويوجه رسله فيفرضون (أي يجندون ويمنحون الفريضة والراتب) لمن رغب في الديوان وأراد الفريضة من أهل تلك النواحي وأبناء ملوكهم ويستميلهم بالرغبة فإذا وردوا بابه شرفهم وأسنى صلاتهم وأرزاقهم»[3] وأشرك فرسانهم في الحرس الخليفي ...

ب ــ أيام المعتصم : على أن الجديد الذي أدخله المعتصم في

---

(١) انظر القصيدة الطويلة التي تقع في ١٣٥ بيتاً حول حصار بغداد لدى الطبري (ج٨ ص ٤٤٨ ــ ٣/٤٥٤ ــ ٨٧٣ حتى ٨٨٠ .
(٢) الجاحظ ــ رسائل الجاحظ (فضائل الاتراك) ج١ ص ٦١ .
(٣) البلاذري ــ فتوح البلدان ص ٥٢٨ ــ ٥٢٩ .

موضوع تجنيد الاتراك هو أنه ــ في الذي يرويه المسعودي[1] ــ هو الذي «آثر من استحدث من غلمان الاتراك على المتقدمين من اوليائه ونصحائه وغالى في جمعهم حوله» أي جعل تقريبهم وتجنيدهم سياسة له كما اقتصر في الاعتماد عليهم وحدهم دون غيرهم من الجند .

ويظهر من بعض أخبار اليعقوبي والطبري ان المعتصم استخدم الاتراك قبل الخلافة . فالطبري يذكر في اخبار سنة ٢٠٢ خروج مهدي ابن حلوان الحروري وتوجه ابو اسحق بن الرشيد لاخمادثورته «..ومع ابي اسحق غلمان له اتراك» ويقدر اليعقوبي عدد غلمانه الاتراك زمن أخيه المأمون بزهاء ثلاثة آلاف غلام[2] . ويذكر الكندي (في الولاة والقضاة) انه لما ذهب إلى مصر كان معه أربعة آلاف غلام تركي ...» وربما كان لأمه التركية «أثر في تعرفه على هذه الجماعة الجديدة ، كما كان لحسن هيئات هؤلاء الغلمان وجمال صورهم وقاماتهم وشجاعتهم الساذجة أثر في تحببهم الى قلب المعتصم .

فلما أفضت الخلافة إليه ألح في طلبهم واشترى من كان في بغداد من رقيق الناس ، وكان عبد الله بن طاهر يرسل إليه سنويا الفي غلامتركي كجزء من خراج خراسان . كما أنه كان يشجع الاتراك ، في آسيا الوسطى ، على الانخراط في جيشه . فترك قسم منهم بلاده (كما يذكر بارتولد) وانضموا إليه . وكان إلى هذا كله يبعث الى فرغانه وسمرقند والنواحي في شرائهم ويبذل فيهم الأموال ... ويظهر ان عامتهم كانوا من فرغانه وأشروسنة والصغد والشاش . وقد تجمع منهم لدى المعتصم،

---

(١) المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٢٠٧ .
(٢) اليعقوبي : كتاب البلدان (طبعة دي غويه ــ ليدن سنة ١٨٩٢؟) ص ٢٥٦ .

في رواية (غيبون) المؤرخ خمسون الفا • وربما كانوا اكثر من ذلك[1] إذا صدقنا قول علي بن الجهم في مدح المعتصم :

أمامي منهم سبعون ألفـا من الأتراك مسرعة السهام

وقد جعل المعتصم كل هؤلاء الاتراك في جيشه وفرسانه • وألبسهم أنواع الديباج والمناطق الذهبية والحلية • وأبانهم بالزي عن باقي جنوده وأفرد لهم بعد هذا ، قطائع خاصة في عاصمته الجديدة : سامراء •وذهب في تمييزهم لدرجة ان «اشترى لهم الجواري فأزوجهم منهن ــ كما يقول اليعقوبي ــ ومنعهم من أن يتزوجوا أو يصهروا إلى احد من المولدين ، إلى ان ينشأ لهم الولد ، فيتزوج بعضهم من بعض ، وأجرى لجواري الاتراك ارزاقاً قائمة • وأثبت أسماءهن في الدواوين • فلم يكن احد منهم يقدر ان يطلق امرأته ولا يفارقها»[2] •

ولفهم السبب في هذه السياسة المعتصمية ، نرجع بالعهـد إلى المأمون ، فنجد ان هذا الخليفة خيب أمل الخراسانيين بنكبته لبني سهل، وتركه مرو ، وقضى على آخر إمكانيات التعاون بين العباسيين والفرس• هذا إلى ان العرب ، وهم أنصار الأمين ، ظلوا على الهامش في عهده ، فلما صارت الخلافة للمعتصم ،التف قسم من العرب حول العباس بن المأمون ، فوجد المعتصم ان يلجأ إلى ذلك العنصر الجديد ، الذي يحبه، كحل وحيد ، فيجعل منه الركن العسكري للدولـة • لا سيما والدولة

---

(١) ناقشنا خطأ المسعودي حين يقدرهم قبل مسير المعتصم الى سامراء بأربعة آلاف .
(انظر المسعودي ج٤ ص٥٣) .
(٢) اليعقوبي البلدان ص ٢٥٨ ــ ٢٥٩ .

مهددة بثورة بابك ، وبخطر البيزنطيين على الحدود ، وبتذمر أهل الشام ومصر ، واضطرابات الزط في السواد . وكان بروز هذا العنصر الجديد ضربة سياسية عنيفة للعرب وقوادهم ظهر استياؤهم منها في تلك المؤامرة الفاشلة التي ذهب ضحيتها العباس بن المأمون وعجيف بن عنبسة معا .

ولتقدير هذا الاتجاه الجديد في الدولة نذكر ان الترك كانوا إذ ذاك شعباً بدوياً ، ميزته الوحيدة شجاعته العسكرية . فهو لا يفهم الأسس المعنوية للدولة العباسية ، ولا خبرة له بالإدارة ، وليس له أي ثقافة . ويجب ان نلاحظ الفرق بين هؤلاء الاتراك ، وبين الفرس الذين اشتركوا في الحكم العباسي . فقد كان الايرانيون أمة متحضرة ، ذات أنظمة وتقاليد وأدب وتراث قديم ، ساعد العباسيين في الحكم . أما الاتراك فكانوا ، كما سماهم الجاحظ[1] «بدو العجم» وقد بين أنهم «لا يميلون إلى صناعة أو زراعة أو ثقافة» ... والحق ان تأثير الاتراك كان «دوماً بربرياً لحد ما — كما ذكر براون[2] — وندر أن شجع البحث الفكري الحر أو الثقافة الحرة» فتسلطهم على الخلافة العباسية كان تهديداً مباشرا لمؤسساتها ونظمها وثقافتها .

على ان الاخطار البعيدة التي نجمت عن تقريب الترك ، لم تظهر بوضوح زمن المعتصم ، ولو انه شعر الخيبة في مشروعة . وسبب ذلك أنه إنما استعمل الترك في الجيش فقط . وكان لهم من اعماله العسكرية الواسعة ، ومن قوته ، ما شغلهم عن مد الايدي إلى سياسة الدولة . فلم تلمع اسماؤهم في غير الجيش . يقول شاعر الزط (يوم ثورة الزط) :

---

(١) براون تاريخ الادب الفارسي ج١ ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .
(٢) الجاحظ : مناقب الترك ص ٤٣ .

فاستنصروا العبد من أبناء دولتكم
من (يازمان) ومن (بلج) ومن (نوز)
ومن (شناس) و (افشين) ومن (فرج)
المعلمين بديباج وإبريز

غير ان الخطيئة الحقيقية كانت خطيئة الواثق ، الذي فوض إليهم إدارة الدولة ، وجمع لهم مابين القوتين الإدارية والسياسية ،وأرسلهم إلى قلب الجزيرة العربية ، لضرب الثوار العرب .

ح : صراع المتوكل مع الاتراك : فلما جاء المتوكل بدأ النضال معهم . وكانت خلافته نوعاً من الصراع الصامت ، الخفي حيناً ، والصريح أحياناً ، ضد الترك . وبالرغم من انهم اختاروه للخلافة ، إلا انا نلاحظ ان اشتراك كبار رجال الإدارة معهم ، في ذلك ــ كما يذكر الطبري ــ (كابن أبي داؤد وابن الزيات وعمر بن فرج الكاتب الخ...) قلل من خطر التجربة ، ولكنه سجل لهم بادرة خطرة . ولم يمنع من اصطدام خليفة قوي ، كالمتوكل بنفوذهم المتعاظم : كجماعة مسلحة .

وقد مشى المتوكل في مقاومته للترك بخطى بطيئة : بدأ بإيتاخ . وكان اليه الجيش والمغاربة والاتراك والموالي والبريد والحجابة ودار الخلافة ، أي إليه تصريف الدولة ، وكان لا يتردد عن إظهار غروره بذلك. فدبر له الخليفة من حسن له الحج[1] . وحول المتوكل ، في غيابه ، الحجابة إلى وصيف التركي . ثم دبر له مؤامرة ، والي بغداد ، فسجنه عند رجوعه . ومات في السجن بعد أشهر . وكانت بغداد أنسب مكان

---

(١) يذكر اليعقوبي أن إيتاخ كان دبر مؤامرة على المتوكل ففشلت فطلب الاذن له بالحج (ج٣ ص ٤٨٥) . وقارن مع الطبري ج٩ ص ١٦٦ – ١٦٧ (٣/١٣٨٣) .

المؤامرة عليه لبغض أهلها للترك ، ولبعد إيتاخ فيها عن أنصاره «ولو لم يؤخذ ببغداد ـ بشهادة الطبري ـ ما قدروا على أخذه ولو دخل سامراء فأراد بأصحابه قتل جميع من خالفه أمكنه ذلك[1] » .

ثم حاول المتوكل تغيير عاصمته ، إلى دمشق ، ففشل ـ كما سنرى ـ فعاد إلى سامراء . وأمر ببناء مدينة خاصة له ، شمال سامراء . واستمر يدبر ضد الترك .قال المسعودي : «وجفا الموالي من الاتراك واطرحهم وحط مراتبهم وعمل على الاستبداد بهم والاستظهار عليهم»[2] وقد خطا خطوة عملية في ذلك بأن أدخل فرقة عربية في الجيش ، إذ ضم إلى وزيره عبيد الله بن يحيى بن خاقان «نحواً من اثني عشر الفاً من العرب ، ومن الصعاليك ، وغيرهم برسم المعتز . وكان في حجره» و«أخذ يجيل الآراء في استئصالهم (الترك)» وحاول تشتيت زعمائهم فقبض أملاك (وصيف) وأقطعها للفتح بن خاقان . وعزم على الفتك بوصيف وبغا . وحسب انه قد نجا منهم في البلد الذي ابتناه ، وانتقل إليه . ولكن الترك استغلوا خلافه مع ابنه المنتصر فعاجلوه وقتلوه . وسجلوا بذلك أول نصر مادي رسمي لهم على كرسي الخلافة العباسي .

ومنذ مقتل المتوكل ، أخذ الترك يلعبون في الدولة العباسية ، ذلك الدور لعبه الحرس البريتوري في روما من قبل ، والانكشارية في السلطنة العثمانية من بعد . ولهذا يمكن ان نعتبر تفاقم نفوذ الأتراك مبدأ انحلال الدولة اذ أنه بالرغم مما أخمد من نزاع العرب والفرس ، والعلويين

---

(٢) الطبري ج٩ ص ١٦٩ (٣/١٣٨٥) .
(١) المسعودي التنبيه والاشراف ص ٣١٢ .

والعباسيين ، فإنه أضعف سلطة المركز في الدولة ، وذهب بهيبة الخلافة ، في امبراطوريتها الواسعة : فظهرت الدول الصغيرة في الولايات •

ولعل من أهم النتائج المباشرة التي ترتبت على عمل المعتصم ، بادخال الاتراك في الدولة ، مشكلة البحث عن عاصمة جديدة سواء في زمن المعتصم ، أو في زمن المتوكل •

٢ ـ عاصمة جديدة (سامراء) :

قصة سامراء من أغرب وأمتع قصص المدن في التاريخ : هي قصة أرض قفر تضحي في سنوات معدودة اكبر مدينة في العالم وعاصمةلاكبر امبراطورية : تنمو نموا لم يعرفه التاريخ إلا في بعض مدن العالم الجديد (تحت ضغط بعض الظروف الصناعية في القرن الماضي) ثم تنطفيء فجأة بعد نصف قرن فيعود الهدوء والعناكب الى المكان ويقفر كأنما حلمت البيد حلماً هناك ••• وانقضى الحلم •

ا ـ سبب البناء : ولم يكن قد انقضى على بناء بغداد قرن واحد ، حين برزت لخاطر المعتصم فكرة بناء مدينة جديدة ، لا عن حاجة في بني العباس الى عاصمة ، ولكن لأن اتجاهاً جديداً (تركيــاً) كان يبرعم في الدولة : فالحل الذي وجده المعتصم لجهاز الحكم ، في اصطناع الاتراك، أدى به إلى حل آخر هو الانفراد بهم في مكان خاص جديد • ولعلنا نذكر أن المعتصم لم يكن أول خلفاء العباسيين تفكيرا في الخروج من بغداد فبعد أن كانت للمهدي عاصمته (الرصافة) منذ أيام المنصور حاول الرشيد

---

(١) الفخري ص ٢١٠ •

اكثر من مرة الخلاص من بغداد ••• أما أسباب المعتصم فكانت مختلفة:

آ ــ فقد ضاقت بغداد بالجنود الجدد • يقول ابن قتيبة صاحب عيون الأخبار : «ان المساكن والطرق ضاقت على الناس ببغداد لكثرة العساكر التي تجمعت على المعتصم» ويروي مثل ذلك الفخري(١) •

ب ــ وزاد في الوقت نفسه ادلال الترك بمكانتهم وسوء معاملتهم للناس • ويروي الطبري(٢) انهم كانوا « عجماً جفاة يركبون الدواب فيتراكضون في طرق بغداد وشوارعها فيصدمون الرجل والمرأة ويطؤون الصبي ••• حتى ضج منهم الناس • فكان يثب عليهم الغوغاء ، فيقتلون بعضاً ، ويضربون بعضا • وتذهب دماؤهم هدراً •••» وقد شكا البغداديون مر الشكوى من ذلك • حتى كانوا يلقون المعتصم بها في الطريق •

جـ ــ وسخط الناس الى هذا ، على المعتصم لتقريبه الترك • فغدا الخليفة يخشى أهل بغداد • قال مرة لاحمد بن أبي خالد : اني اتخوف ان يصيح بي هؤلاء الحربية (سكان الحي الشمالي الغربي من بغداد) فيقتلوا غلماني(٣) ••» •

د ــ وسخط جند بغداد على منافسيهم الجدد • فاستراب المعتصم منهم • وقال ، في الذي يرويه الفخري «••• اطلبوا لي موضعاً أخرج إليه • وابني فيه مدينة واعسكر به • فإن رابني من عسكر بغداد حادث، كنت بنجوة • وكنت قادراً على أن آتيهم في البر وفي الماء» •

---

(١) الطبري ج ٩ ص ١٨ (٣/٢ ــ ١١٨١) واليعقوبي ــ البلدان ص ٢٥٦ .

(٢) وانظر الطبري ٩ ص ١٧ (٣/١١٧٩) وتقرأ أحياناً كلمة الحزمية (وهو خطأ) بدلا من الحربية .

(٣) الفخري ــ ص ٢١٠ .

ب ــ مكان المدينــة :. وهكذا تقرر التفتيش عن مقر خلافي جديد: فأراد المعتصم أولا البناء بالشماسية • (شمالي رصافة بغداد) ثم تركها لضيق المكان ، وقربه من بغــداد • واقترح الفضــل بن مروان البناء بالبردان • فلم يستحسنه المعتصم ، ثم قدر مكاناً آخر عند باحمشا • ثم عزم على ان يقيم عاصمته على نهر القاطول ، ويكون البناء عليه حتى نهر دجلة • وبدأت بالفعل أعمال البناء • «وكان هناك قريــة يسكنها خلق من الجرامقة وناس من النبط على النهر ••• فبنى (المعتصم) هناك قصراً وبنى الناس وانتقلوا من مدينة السلام»[1]» واختطت الأسواق • وارتفعت الجدران • ولكن الخليفة أمر بالتــوقف عن العمــل لصعوبة الأرض وضيقها ••• وخرج يتقرى موضعاً جديداً إلى الشمال ، فوجد الموضع المنشود في سامراء على بعد ١٣٠ كم رأســاً من شمال بغداد ، و ١٧٥ كم من دجلة • على الضفة الشرقية منه •

وقد اثبتت حفريات الاثري هرزفيلد ، في بعض أطراف سامراء ، ان هذا المكان مأهول منذ العصر الحجري الحديث • فقد وجد فيــه فخاريات تعود إلى «عصر حلفا» (٥٠٠٠ ــ ٤٥٠٠ ق•م) ويظهر أنه استمر مأهولا بعد ذلك • وكان له شأنه أحياناً • فاسم الموضع يمر في العصر الروماني ، كما يمر في مطلع العصر الاسلامي • وحين وصله المعتصم لم يكن به سوى دير لبعض الرهبان[2] فلما استحسنه وعزم على البناء فيه

---

(١) المسعودي ــ مروج الذهب ج٤ ص٥٣ وقد أزري بعض العيارين على المعتصم انتقاله هذا فقال :

أيا ساكن القاطول بين الجرامقة تركت ببغداد الكباش البطارقــة

(٢) يروى انهم حادثوه وتنبأوا له ببناء في ذلك الموضع (مروج ٤ ص٥٣)

اشترى الدير بأربعة آلاف دينار وبنى في مكانه نفسه على ما يظهر من قول اليعقوبي (دار العامة) أي قصر الخلافة ومن حوله تلك المدينة ٠

واسم سامراء قديم دون شك ٠ وليست الجملة التي تذكرها بعض الكتب ، كاسم لمدينة المعتصم (سرور من رأى) او (سر من رأى) او (ساء من رأى) فيما بعد ٠٠ ليست هذه الجملة بالاصل الذي نحت عنه اسم سامراء ٠ ولكنها جملة اشتقها الناس إذ ذاك ، من اسم الموضع ٠ ولم تجر عادة العرب ولا غيرهم بتسمية المدن بجملة ٠ والمسعودي يذكر ان سبب التسمية يرجع الى سام بن نوح الذي بنـى البلدة فنسبت إليه وسميت (سام راه) بالفارسية ٠٠وقد لا نستفيد منهذه القصةالاسطورية سوى ان الموضـع قديم السكنى وقديم الاسم أيضـاً ٠ والمستشرق (وايل) أشار إلى ورود اسم حصن فارسي : قلعـة سومرى في موضع سامراء بمناسبة تقهقر جيوش الرومان أثر مقتل جوليان سنة ٣٦٣ م ٠ ويؤيد هذا نص ذكره حمد الله المستوفي (٧٤٠ هـ ـــ ١٣٤٠ م) وقال فيه ان سابور ذا الاكتاف (+ ١٧٩ م) هو منشيء مدينة سامراء ٠

وقدم البناء في الموضع ، ووجود حصن قديم فيه ، يعلل لنا سبب اختيار المعتصم له : فالواقع ان المكان المختار مرتفع عن دجلة ٠ فهو آمن من الفيضان ٠ وارتفاعه هذا ، مع احاطة الماء بـه ، يجعله مكاناً حصيناً من الوجهة الحربية[1] ٠ عدا أنـه ممكن الري والسقيا بالجداول التي تتفرع عن دجلة ، قبيل وصوله إليه ٠ ويضاف إلى هذا قربه من بغداد ٠ وعدم خروج مركز الخلافة من العراق ٠

---

(١) هو نفسه النهروان الذي كان تحصن به سنة ٣٨ الخوارج اول ظهورهم في عهد علي بن ابي طالب ٠

حـ ـ تخطيط سامراء : شرع المعتصم بتخطيط عاصمته سنة ٢٢١هـ فكتب «في إشخاص الفعلة والبنائين وأهل المهن ، من الحدادين والنجارين وسائر الصناعات» كما يقول اليعقوبي(١) • فوضع أساس قصره • ووزع القطائع على جنده • وعين اماكن الاسواق والبساتين الخ ••• ويلاحظ في البنــاء :

أولا ــ ان المعتصم لم يؤكد على بنــاء الأسوار للمدينــة ولا الحصون • وذلك لاطمئنانه ، وثبوت أركان الدولة العباسية • وانمــا توجه بكل همه ، إلى العمارة ، وتعيين قطائع الجند والأسواق •

ثانيا ــ اهتم المعتصم بفصل الجيش وداوين الدولة عن السكان • كما اهتم بفصل فرق الجيش بعضها عن بعض ويتوسط كل فرقة قائدها • فجعل للاتراك قطائع خاصة • وقطائــع أخرى لغلمانــه من خراسان (الاشروسنية ؟) • وقطائع لأهل الحوف العرب وهم من عرفوا في جيش المعتصم باسم المغاربــة • ويضيف المسعودي(٢) انــه «جاور الاتراك بالفراغنة والاشروسنية وغيرهم من مدن خراسان (لعله يقصد مما وراء النهر) كل على قدر قربهم منهم في بلادهم • ولكن يظهر ان هــذا غير واقع • فقد ظهر في الآثار(٣) والاخبار على السواء ، أن المعتصم أقطع اشناس وأصحابه في آخر البناء من الشمال ، في الموضع المعروف بالكرخ (كرخ سامراء) وأقطع آخرين فوق ذلك وسماه الــدور • بينما أقطع

(١) اليعقوبي البلدان ص ٢٥٨ •
(٢) المسعودي ج ٤ ص ٥٤ •
(٣) لا يزال (سور اشناس) قائماً هنــاك مــن اللبن بعلو خمسة أمتــار •

الافشين الاشروسني في آخر البناء جنوباً • وسمي الموضــع المطيرة • وأقطع أصحابه الاشروسنية والمضمومين إليه مواضع خولة • وقد آلت الدار بعد مصرع الافشين إلى وصيف التركي • وصيرت قطائع الاتراك جميعاً والفراغنة والعجم بعيدة من الاسواق والزحام، في شوارع واسعة، ودروب طوال ، ليس معهم في قطائعهم ودورهم أحد من الناس ، يختلط بهم ، من تاجر ولا غيره[1] •

أما معسكرات الجيش الكبرى وثكناته واصطبلاتــه ، فقد جعلها إلى جنوب المدينة • وعلى الضفة الغربية من دجلة • ولعله اختار المكان لاتساعه ، ولوقوعه على طريق بغداد • وكان نهر الاسحاقي يغمر المنطقة بالماء ، فيتوفر المرعى الاصطناعي للخيل • وقد كانت الثكنات تتسع لربع مليون جندي • وأما الاصطبلات فتقدر خيولهــا بحوالــي ١٦٠ الف حصــان •

ثالثاً ـ عناية المعتصم بعمران البلد الاقتصادي :

فأما في الزراعة : فقد اهتم بزراعة القسم الغربي من دجلة • تجاه المدينة • فحفر الترع فيه وشق هناك نهر الاسحاقي • (الذي كان يروي في الوقت نفسه منطقة الاصطبلات) وحمل إليه الغروس من كافة البلدان• وشجع قواده ورجاله على المساهمة في الزرع • فأعطي كل قائد عمارة ناحية • وعمل على استقدام المهرة ، في الزرع والنخيل والغرس زهندسة المياه ووزنه واستنباطه والعلم بمواضعــه من الارض • وزكت الأثمار والزروع لاستراحة الارض الــوف السنين ، فبلغت غلــة عمارات نهر

---

(١) اليعقوبي البلدان ص ٢٥٨ ـ ٢٦٣ •

الاسحاقي ، وما عليه من قرى ... اربعمائة الف دينار في السنة[1]» .

وأما في الصناعة : فقد حرص على أن تكون عاصمته مجمعاً للصناعات المعروفة . فاستقدم ـ حسب رواية اليعقوبي ـ من كل بلد، من يعمل عملا من الأعمال ، او يعالج مهنة من مهن العمارة والزرع ... وفي حملة الرخام وفرشه ، فأقيمت في اللاذقية وغيرها دور صناعة الرخام . وحمل من مصر من يعمل القراطيس وغيرها . وحمل من البصرة من يعمل الزجاج والخزف والحصر . وحمل من الكوفة من يعمل الأدهان . ومن سائر البلدان من أهل كل مهنة وصناعة[2] .. » .

وأما في التجارة : «فوسع صفوف الاسواق . وجعل كل تجارة منفردة . وكل قوم على حدتهم ، على مثل ما رسمت عليه اسواق بغداد. وعمل شارعاً على دجلة (شارع الخليج) جعله رصيفاً ومرسى لسفن التجارة ، التي ترد من بغداد وواسط .. وسائر السواد والبصرة والابلة والاهواز وما يتصل بذلك . ومن الموصل وبعربايا وديار ربيعة وما اتصل بذلك[3] .

د ـ عني الخليفة بتخطيط المدينة وتقسيمها تقسيما (عسكريا ـ اجتماعياً معاً) يتناسب مع كونها معسكرا أولا ومركزا حضريا ثانيا . فجاء مخططها ممتدا على ضفة دجلة الغربية زهاء أربعة فراسخ (١٩كم) ، ويدل التخطيط على براعة فائقة في الهندسة ، وعلى كثير من الابتكار ،

---

(١) اليعقوبي البلدان ص ٢٦٣ ص٢٦٤ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) المصدر نفسه ص ٢٥٨ ، ٢٦٠ و ٢٦٣ وص ٢٦٥ ـ ٢٦٦ .

يتجلى في شق عدة شوارع متوازية ، على طول النهر ، يتصل بعضها ببعض بدروب عدة عن يمين ويسار ، وفي توزيع الابنية العامة والأسواق والمتاجر والمساجد والمساكن والأرصفة وغيرها . وأهم شوارع المدينة بعد شارع الخليج ، الذي على دجلة ، ذلك الشارع الآخر الموازي له ، والذي عرف أولا بشارع السريجة ، ثم سمي الشارع الأعظم . وكان يمتد في عهد المعتصم (١٩) كم من الجنوب إلى الشمال بعرض (٢٠٠) ذراع . ويوازيه شارع آخر اسمه شارع أبي أحمد ، في شرقه . ثم شارعان آخران في الشرق أيضا : شارع الحير وشارع برغامش التركي . وقد سمى لنا ياقوت في معجمه سبعة عشر قصرا بناها المعتصم والمتوكل في سامراء . ويقول بارتولد : ان هذه القصور كانت نموذجا للقصور ، التي بنيت فيما بعد ، في البلاد الواقعة بين بخارى شرقا ، وقرطبة غربا . ومن أهم تلك القصور (دار العامة) وهو بيت الخلافة . وقصر الجوسق على دجلة . وقصر لؤلؤة (وهو السجن السياسي) بجانبه . ثم قصر الهاروني الذي بناه الواثق . هذا إلى ما أقيم في سامراء من حائر الحير (السور) . ومن المسجد الجامع ، ومن حلبات السباق الثلاث .

د ــ **مراحل البناء** : وقد تطورت سامراء تطورا كبيرا بعد عهد المعتصم ، في زمن المتوكل خاصة . مما يحملنا على تقسيم بنائها إلى مرحلتين :

آ ــ مرحلة المعتصم وقد وضعت فيها كل أسس المدينة وأبنيتها الاولى . ويظهر أن الناس لم يكونوا واثقين من المدينة ، أول الأمر . فيذكر اليعقوبي انهم كانوا يسمونها (العسكر) فلما كان عهد الواثق جدد الناس البناء ، وأحكموه وأتقنوه ، لما علموا انها قد صارت مدينة عامرة .

ب ــ مرحلة المتوكل وهي مرحلة العمران الحقيقية • يقول ياقوت في معجمه : « ولم يبن أحد من الخلفاء بسر من رأى ، من الابنية الجليلة• مثل ما بناه المتوكل • فمن ذلك : القصر المعروف بالعروس ، أنفق عليه ثلاثين الف ألف درهم • والقصر المختار (٥ ملايين) والوحيد (مليونين) والجعفري المحدث (١٠ ملايين) والغريب (١٠) والشيدان (١٠) والبرج (١٠) والصبيح (٥) والمليح (٥) وقصر بستان الإيتاخية (١٠) والتل علوه وسفله (٥) والجوسق (½) والمسجد الجامع[1] (١٥) وبركوان للمعتز (٢٠) والقلائد (١٫٢٥) وجعل فيها أبنية بمائة ألف دينار (٢٫٥) والفرد على دجلة الخ ••• هذا عدا حير الوحوش العظيم ، وعدا البركة الكبرى (بركة البحتري) أمامه • على ان كل هذا الإنفاق والعمران ، كان على ما يظهر ، في السنوات العشر الأولى من حكمه ، قبل أن تختمر في ذهنه فكرة الهرب من سامراء إلى بلد آخر ••• وهكذا كانت دمشق هي الحل الموقت قبل أن يقرر بناء بلد جديد لم يعمر أكثر من سنة واحدة • وهو :

هـ ــ عاصمة المتوكل (المتوكلية) :

أ ــ البحث عن عاصمة ثالثة (دمشق) : عاد المتوكل بسبب بغض الترك والريبة منهم ، يفتش عن ملجأ ومهرب منهم ، أي عادت

(١) لكي تكون فكرة عن ضخامة هذا المسجد نشير الى انه يبلغ ٢٤٠ م × ١٥٨ م ويستغرق صحنه الداخلي مساحة ٤٤ الفم٢ (بينما ساحة كنيسة القديس بطرس بروما لاتزيد عن ١٥ الف م٢ وصحن ايا صوفيا في استامبول عن ٦٩٠٠م٢) وفي هذا دلالة كافية ليس فقط على عظمة المسجد ولكن على كثرة سكان سامراء في ذلك الوقت . واهم ظاهرة بنائية فيه مئذنته الملوية المشهورة وقد رفعها لترى عن بعد فراسخ ولسماع الآذان منها . ويرى المستشرقون انها بنيت على طراز «الزقورات» البابلية القديمة .

مشكلة البحث عن عاصمة جديدة إلى الوجود • ولقد كان للمعتصم عصبية تركية فبنى لها بؤرة • أما المتوكل فكان في سبيل البحث عن عصبيته ، وعن عاصمته معاً • أما مقامه في سامراء ، التي بنيت للترك ، فيجعله في قلق دائم ، إن لم يجعله تحت النفوذ التركي • ولذلك اختار العرب عصبية له ، مبدئيا • ولعل بروز النفوذ الفارسي في بغداد ، حوّله عن التفكير بالعودة اليها • فاختار ترك العراق كله ، الى الشام ، واتخاذ دمشق عاصمة له كانت هي الحل عنده • واليعقوبي[1] يعلل ذلك بحسن جوها وبأنه « ••• وصف له برد هوائها وكان محرورا ••• » ولكن التعليل الحقيقي يمكن أن يستمد من سياسته المناوئة للترك والفرس ، وللعلويين ، وللاعتزال : فدمشق عربية ، بعيدة عن التأثيرين الفارسي والتركي • وهي إلى هذا تتعصب ، كالمتوكل ، للسنة ، وتبغض مثله في ذلك الوقت ، العلويين •

وكتب المتوكل « إلى محمد بن أحمد بن مدبر ، يأمره باتخاذ القصور واعداد المنازل وكتب في إصلاح الطريق وإقامة المنازل والمرافد •• » وسار من سر من رأى أواخر سنة ٢٤٣ فوصل دمشق أوائل سنة ٢٤٤ (قضى في الطريق ثلاثة أشهر) وأقام في القصور الدمشقية ، وفي داريا خاصة • ثمانية وثلاثين يوما ، أنشده فيها البحتري أبياتا فيها معنى ، ومنها :

قد رحلنا عن العراق ... وعن قطبها النكد
حبذا العيش في دمشـ ... ـق إذا ليلها برد
سفر جددت لنا اللهو ... أسبابه الجدد
عزم الله للخليفة فيه ... على الرشد •••

---

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٩١

ولكن سرعان ما تبين للمتوكل خطأ هذا الحل السلبي في الهرب : إذ ترك العراق شاغرة لشغب الجند التركي ، عدا ان الاتراك أئتمروا بـه في الشام أيضا ، أي أنه لم يتخلص منهم ، فادعى انه « استوبأ البلد » وذلك « ان الهواء فيها بارد وندي • والماء ثقيل والريح تهب فيها مـع العصر فلا تزال تشتد حتى يمضي عامة الليل • وهي كثيرة البراغيث »(١) وغلت فيها الاسعار « وحال الثلج بين السابلة والميرة »(٢) وهـذه مبررات وذرائع التمست دون شك ، لتخفي السبب الحقيقي • فواقع الحال ان المتوكل لم ينزل بدمشق نفسها ولكن بينها وبين داريا فـي جنوبها « على ساعة من المدينة في أعلى(٣) الارض » كما يقول المسعودي (وقد ذكر ذلك البحتري في شعره) يشرف على المدينة والغوطة ويذكرون برودة الهواء واكتناف الثلج للبلد ، مع ان المتوكل نزل بين صفر وربيـع الثاني (مايس وتموز) أي في وسط الصيف !

والسبب الحقيقي هو أن دمشق ، التي كانت لا تزال تحمل الطابع والذكريات الاموية ، كانت بعيدة عن أولئك الذين كانت تثور ريبهم منها ، من العباسيين ، والذين كانوا يتمركزون في بغداد ، وقد يتآمرون فيها • كما أن دمشق عاجزة عن أن تراقب تلك القوى التركية المشاغبة في سامراء • ولعل المتوكل لم يجد ، في مدينة الأمويين ، الترحاب الذي يجعله يأمل بتكوين عصبية له فيها ، تسانده وتدفع عنه : وتكون مـن القوة بحيث تقف معه للمتنافسين في العراق ، من فرس وترك خاصة • إن ما « استوبأه » المتوكل في البلد لم يكن « الجو الطبيعي » ولكـن « الجو السياسي » •

---

(١) الطبري ج ٩ ص ٢١٠ (٣/١٤٣٦) •
(٢) ابن الأثير ج ٧ ص ٨٥ (حوادث سنة ٢٤٤) •
(٣) المسعودي ج٤ ص ١١٥

ب ــ بناء المتوكلية : وعلى أي حال فقد تحمل المتوكل من جديد الى سامراء • ولكنه حين وصلها ، لجأ إلى حل آخر مشتق من الأول • فأمر سنة ٢٤٥ ببناء (الجعفرية) شمالي سامراء ••• وعرف الناس انه يهرب من الترك ، بل انهم أشاعوا أنه اعتزم الفتك بهم • اما المتوكل فأعلن انه يريد ــ على حد قول اليعقوبي ــ « بناء مدينة تنسب إليه ، ويكون له بها الذكر »[١] وقال حين تم البناء « الآن علمت اني ملك • إذ بنيت لنفسي مدينة سكنتها » • ومن الواضح ان المتوكل إنما يعني بهذا استقلاله وخلاصه من ضغط الترك !

أمر المتوكل « محمد بن موسى المنجم ومن يحضر بابه من المهندسين باختيار موضع لمدينته ، فوقع اختيارهم على موضع يقال الماحوزة » على ثلاثة فراسخ (١٥ كم) من شمالي سامراء يمد إليه الماء ، من نهر يشق إليه من دجلة • وقدرت نفقات البناء بما في ذلك حفر النهر[٢] بألف ألف وخمسمائة ألف دينار • فطاب المتوكل نفساً ورضي به • وهكذا أقيمت « المتوكلية » أو « الخاصة المتوكلية » (يرد الاسم في قصائد البحتري وفي الطبري على هذا النحو • واليعقوبي يذكر أن المتوكل سماها الجعفرية) « وجمع القراء (في المكان) فقرأوا وحضر أصحاب الملاهي

---

(١) اليعقوبي ــ البلدان ص ٢٦٦

(٢) يفهم من الطبري ان تكاليف بناء المتوكلية كانت فيما قيل أكثر من مليوني دينار . اما ياقوت فيجعل هذا الرقم لحفر النهر وحده ؛ وقد أخذنا بما يفهم من اليعقوبي لانه معاصر ، ولأنه يذكر في موضع ثان من كتابه البلدان ان تكاليف حفر النهر بلغت « شبيهاً بالف الف دينار » . بينما يجعل الطبري تقدير نفقات النهر مائتي الف دينار وقد تولاه ابن يعقوب النصراني كاتب بغا التركي .

(٣) الطبري ج ٩ ص ٢١٢ (١٤٣٨/٣ ــ ١٤٣٩) .

فوهب لهم ألفي ألفي درهم ••• » استمر البناء سنة وبعض السنة ، كان المتوكل خلالها يشرف بنفسه على البناء • وتم بذلك بناء قصور الجعفري الفخمة ، وقصر لؤلؤة الذي لم ير أعلى منه ، وعدة قصور أخرى ابتكر فيها المتوكل مخططا خاصا في البناء (على هيئة الحرب) عرف باسم الحيري • واتبعه الناس من بعده • كما بنى المسجد الجامع المعروف بجامع أبي دلف ، مع ملويته •

ولتسهيل المواصلات بين المتوكلية وسامراء شق بينهما شارع أعظم يتصل بالشارع الأعظم من سامراء بطول ثلاثة فراسخ (١٥ كم) « وجعلت الأسواق في موضع معتزل • وجعل في كل مربعة وناحية سوقاً » واتصل البناء من المتوكلية الى الكرخ بشمالي سامراء ، على طرفي الشارع الأعظم » ليس بين شيء من ذلك فضاء ولا فرج ولا موضع لا عمارة فيه • فكان مقدار ذلك سبعة فراسخ (٣٤ كم) ، وانتقل المتوكل الى بلده الجديد في مطلع سنة ٢٤٧ هـ ونقل اليها الدواوين ، ديوان الخراج والضياع والزمام والجند والشاكرية وديوان الموالي والغلمان وديوان البريد وجميع الدواوين ••• »[١] •

إلا أن النهر (الجعفري) لم يتم أمره • وكان « مأساة هندسية فاشلة » كما يقول الدكتور الدوري اذ كان حفره صعبا جدا اشتغل به اثنا عشر الف عامل[٢] وانفق عليه مليون دينار ، ولكن « لم يجر الماء فيه إلا جريا ضعيفا »[٣] ولعل فشل هذا المشروع كان من أسباب هجر البلدة وشيكا •

---

(١) اليعقوبي البلدان ص ٢٦٧
(٢) الطبري ج ٩ ص ٢١٢ (١٤٣٩/٣) •
(٣) اليعقوبي ـ البلدان ص ٢٦٧

اتفق المتوكل على أعماله العمرانية ، التي كان مولعاً بها • مبالغ باهظة (الجعفري ٥٠ مليون درهم والبهو ٢٥ مليون واللؤلؤة خمسة ملايين) وقد فصل ياقوت ما أنفقه المتوكل فبلغ مجموع ذلك مائتين وتسعين مليون درهم أي ١٢ مليون دينار تقريباً (كان الدينار في عهد المتوكل بخمسة وعشرين درهماً) ويقول المسعودي : « قيل أنه لم تكن النفقات في عصر من العصور مثلها في ايام المتوكل » •

ولنلاحظ ان هذه النفقات الباهظة تدل على مقدار ثروة الدولة إذ ذاك • كما ان انفاقها كان من العوامل التي أضعفت مركز الخلفاء المقبلين وجعلتهم آلات بيد الاتراك •

ولم يهنأ المتوكل اكثر من تسعة أشهر وثلاثة ايام في مدينته ، ثم قتل • وجاء ابنه المنتصر وأمر الناس جميعاً بالانتقال عن « الماحوزة » وان يهدموا المنازل ، ويحملوا النقض الى سر من رأى • فانتقل الناس••• وخربت قصور الجعفري ومساكنه وأسواقه في أسرع مدة[1] •••

وعاد الرونق إلى سامراء من جديد التي بلغ اتساعها (٣٤ كم في الطول ومابين ٣ ــ ٤ كم في العرض) حوالي ١٦٧ كم٢ • واذا أضفنا اليها المعسكرات (٥ كم٢) دون البساتين والقصور في غربي دجلة ، بلغ ذلك مرة ونصف المرة من مساحة القاهرة الحالية مع مصر الجديدة ، وقرابة اربع مرات من مساحة بغداد الحالية او دمشق • ولم يكن بالغريب بعد ، ومع هذه السعة وذلك العمران حتى ان يقول ياقوت عنها انها « صارت أعظم بلاد الله » وأن يحكم القزويني وياقوت معاً بأنه « ولم يكن من الأرض أحسن ولا أجمل ولا اعظم ولا آنس ولا أوسع ملكاً منها »•

---

(١) اليعقوبي ــ البلدان ص٢٦٧

الفصل الثامن

مشاكل الحكم

تبدأ هذه المشاكل في البلاط نفسه ، وتظهر بعده في مختلف نواحي الادارة والحكم • ومعظمها لم يكن بدعاً • ولا جديداً على الدولة • وقد جرى مثله في مختلف عهود الخلفاء العباسيين السابقين ، ولكن فتوة الدولة إذ ذاك قضت عليه وعلى مضاعفاته ، بينما مهدت الظروف الآن ــ بالمقابل ــ لتلك المشاكل كي تهدم الدولة •

ويجب ان نلاحظ أن معظم المشاكل والمساوىء ــ في الفترة التي ندرسها ــ ظلت في حدود القصور الخلافية ومن أمور السياسة العليا • بمعنى أنها لم تتنزل ، وتفتضح لدى الناس جميعاً ، وفي الحياة العامة • فعهد المعتصم والواثق يعدان من العصر العباسي الذهبي ، وأيام المتوكل ــ كما وصفها المسعودي ــ كانت أحسن أيام وأنضرها ، من استقامة الملك وشمول الناس بالعدل ، على أن عصر المتوكل نفسه هذا يجب أن يعتبر فترة الانتقال بين العهود الذهبية ودور الاضمحلال والتجزؤ • ومقتله يجب أن يعتبر خاتمة عصر وبدء عصر •

١ ــ ولاية العهد :

بقيت هذه المشكلة قائمة دون نظام رسمي يحددها حتى ولا في العرف وإذا كان من الملاحظ أنه غالباً ما توالى الأخوة على العرش العباسي • فلم يكن الأمر على ذلك دوماً فقد تولاها مرة وبشكل آلي ابن الخليفة المتوفى وهو الواثق •

. بدأت الفترة هذه بعهد من المأمون ــ في مرضه الأخير ــ لأخيه أبي اسحق المعتصم . وقد تأخر المأمون كثيراً جداً في اتخاذ قرار بشأن هذه المشكلة التي لا شك أنه كان يعاني من عقدها : منذ كان ولياً للعهد مع إخوته ثم بعد خلافته في قضية علي الرضا .. ولهذا صمت عنها حتى ما قبل صمته الأخير . وبالرغم من أنه كان ذا ولد هو العباس ، وكان هذا الولد شاباً ، ويقاتل معه في حربه مع الروم بجهة طرسوس فانه لم يعينه لولاية العهد بعده وهو دليل ــ بعد أدلة أخرى ــ على أن فكرة الوراثة العمودية لم تكن قد استقرت بعد في تقاليد الاسرة العباسية أو أن المأمون على الاقل لم يكن يؤمن بها إن لم يكن يشك أيضاً في أحقية البيت العباسي كله في الحكم . وقد عدل المأمون عن ابنه لأخيه وربما وجد فيه المحارب المناسبالذي يستطيع في تلك الظروف التي مات فيها المأمون أن ينقذ الدولة من ثورات بابك والزط المديدتين وأن يسحق الهجوم الرومي .

على أن تصور الناس لوراثة العرش كان على أساس الوراثة النبوية المباشرة . يدل على ذلك أنه لما بويع أبو اسحق المعتصم في معسكرات الجند عند طرسوس ، ذكر الطبري « أن الناس كانوا قد اشفقوا من منازعة العباس بن المأمون له في الخلافة ..» وذكر « أن الجند شغبوا .. فطلبوا العباس ونادوه باسم الخلافة . فأرسل أبو اسحق الى العباس فأحضره ، فبايعه ثم خرج (العباس) الى الجند فقال : ما هذا الحب البارد ؟ قد بايعت عمي وسلمت الخلافة اليه . فسكن الجند .. » « وسلم الناس من الاشفاق »[1] .

---

(١) الطبري ج٨ ص٦٦٨ (٣/١١٦٤)

غير أن هذا الزاهد بالخلافة الآن سيعود لطلبها بالتآمر بعد خمس سنوات •

كان المعتصم سنة ٢٢٣ على حرب الروم في غزوة عمورية المعروفة وقد آلم قواده العرب ماكان من ميله الى جنده الترك واعتماده عليهم وإطلاقه أيديهم في النفقات بينما هو يقتر على قواده العرب • واجتمع في الجبهة عجيف بن عنبسة ، العربي ، بالعباس بن عبد الله المأمون فشكا عجيف عدم إطلاق يده في النفقات كما تطلق يد الأفشين • واستخفاف المعتصم بأمره وأفعاله ولام العباس على ما كان من بيعته لعمه « وتفريطه وشجعه على أن يتلافى ما كان •• فقبل العباس ذلك » • ودبر الاثنان أول محاولة انقلاب عسكري في التاريخ العباسي • لم يدبرا ثورة متمردة تزحف كعبد الله بن علي أو أعواناً يبايعون بالخلافة كالذي كان من ابراهيم بن المهدي ، أو أقليماً يثورون به ويزحفون بجنده فعل المأمون بخراسان ولكنهما دبرا انقلاباً عسكرياً ، في الجبهة ، يقتل فيه المعتصم ويقتل معه الأفشين وأشناس والترك الآخرون ويتولى قياداتهم من اتفقوا معه على ذلك من خاصة هؤلاء أنفسهم • أرسل العباس في مهمة الاتفاق مع القواد المقبلين رجلاً ذا عقل ومداراة من خاصته يعرف بالحارث السمرقندي فاستطاع أخذ البيعة من بعض خاصة المعتصم ضد المعتصم ومن بعض خاصة الأفشين ضده ومن خاصة أشناس وغيره وضمنوا ذلك جميعاً ••

وأبى العباس تنفيذ المؤامرة قبل المسير الى عمورية قائلا : لا أفسد هذه الغزاة ثم أبى ذلك عقب الفتح منتظراً عودة المعتصم لاغتياله في بعض الدروب الجبلية من الثغور • ولكن عجيفاً تعجل في بعض التصرفات فانكشف الأمر للمعتصم ، وجيء بالحارث إليه فاعترف •• وكان القادة الذين اعترف عليهم من الكثرة بحيث لم يصدق المعتصم الخبر . ولكنه

أخذ العباس بالملاينة والملاطفة فاعترف بدوره .. فبادر المعتصم فاعتقل الرؤوس الكبرى . ودفع بالعباس إلى الأفشين ودفع عجيفاً إلى ايتاخ وجعل مع كل قائد من قواده واحداً من المتآمرين .. إلا واحداً قتله هو الشاه بن سهل ، ولم يصل أي واحد من هؤلاء المعتقلين إلى مشارف العراق . ماتوا كلهم على الطريق : بعضهم عطشاً وبعضهم طرح في بئر فطمت عليه وبعض أتى عليه الارهاق وبعض انتحر ..

أما العباس نفسه فجوعوه ثم أطعموه الكثير ثم منعوا عنه الماء وأدرجوه في مسحفمات بمنبج وأطلق عليه المعتصم اسم «اللعين» رسمياً وقد تسبب العباس في حبس إخوته الآخرين من أولاد المأمون وهم المعروفون باسم أمهم سندس . دفعهم المعتصم الى ايتاخ فحبسهم في سرداب داره وماتوا بعد ذلك[1] .. وانتهت بهذا قصة الثورة العربية الأخيرة ضد التغلغل التركي وضد سرقة الأتراك للحكم العباسي من أهله .

ويوم توفي المعتصم آلت الخلافة بشكل آلي عادي الى ابنه هارون الواثق . لا نعرف أن أباه عهد إليه بالأمر ولقد يكون عهد في اللحظة الأخيرة . ولا نعرف موقف إخوته منه وكانوا ستة. هو أكبرهم . فان أي خبر لم يرو عنهم ، وكل ما نعرف أنه بويع دون ولاية عهد رسمية سابقة فلم يثر على بيعته أي اعتراض كأنما اعتبر الناس من البديهي أن يلي الابن أباه . وذهب من سامراء موفد خاص في الليلة نفسها الى بغداد فأخذ له البيعة من القادة والوجوه والناس هناك .

وإذا لم تقم مشكلة لاستخلاف الواثق ولكن هذا الخليفة مات تاركاً مشكلة . إذ رفض أن يعهد بالأمر لأحد ، وقيل له في البيعة لابنه

---

(١) انظر تفاصيل ذلك لدى الطبري ج٩ ص٧١-٧٩ (٣/١٢٥٦-١٢٦٧) . وانظر اليعقوبي ص ٤٧٦

فقال : « لا يراني الله أتقلدها حياً وميتاً .. »[1] . فاجتمع في دار الخليفة شبه مؤتمر يضم كبار الدولة قوامه قاضي القضاة ابن أبي داؤود ، والوزير محمد بن عبد الملك الزيات ، وأحمد بن أبي خالد ، وعمر بن فرج من رؤساء الكتاب ، ووصيف وإيتاخ (وسيما الدمشقي دون شك) من قواد الترك ، وأرادوا البيعة لابن الواثق محمد . ولكنهم عدلوا عنه لصغر سنه .. « ألبسوه بالفعل دراعة وقلنسوة .. فإذا هو قصير » تقتحمه العين فقال وصيف : أما تتقون الله ؟ تولون مثل هذا ، الخلافة وهو لا يجوز معه الصلاة؟[2] فعدلوا عنه إلى المتوكل . وألبسه قاضي القضاة الملابس وسلم عليه بالخلافة[3] !

وكان الأتراك سيما ووصيف أول المبايعين . وحيرة أعضاء هـذا المؤتمر تدل على الأقل على أن قضية ولاية العهد كانت ، في عرف الناس على الأقل ، في هذه المرة ، من حق الأصلح لا من حـق الرحم والابـن البـكر . لعب الهوى التركي في تحويلها الى هذا الاتجاه محطماً بذلك كافة الجهود التي بذلهـا أمثال المنصـور والرشيد لتدعيم قواعـد الارث النبوي .

---

(١) اليعقوبي ج٢ ص٤٨٣

(٢) الطبري ج٩ ص١٥٤ (١٣٦٨/٣)

(٣) ذكر ابن خلكان (وفيات الأعيان ـ النسـخة المخطوطة في اياصوفيا الجزء الاول ورقة ٩١وجه) أن المتوكل كان قادماً إلى قصرالواثق يعوده في مرضه فلما سمع النواح وهو في الدهليز عرف موته ولكنه سمع ابن الزيات والقائد إيتاخ يأتمران به يقول الأول نقتله في التنور ويقول الثاني بل ندعه في الماء البارد حتى يموت ولا يظهر عليه اثر القتل . فبينما هم كذلك إذ جاءهم ابن ابي دؤاد فمنعه الخدم من الدخول فدافعهم ودخـل

واستخلف المتوكل فعاد الى دعم هذه القواعد من جديد • لكن هذه المشكلة ذاتها كانت بين الأسباب التي أودت به ومن قبل ابنه نفسه• ودراسة تلك الاسباب تلقي ضوءاً على السياسة العامة ، ودسائس البلاط في تلك الآونة : فقد أمر المتوكل سنة ٢٣٤ « ان يسلم الناس على ابنه محمد بالأمرة ويدعى له على المنابر » وفي سنة٢٣٥(٨٥٠م) نظم ولاية العهد ــ على سنة الرشيد ــ لأولاده الثلاثة : محمد وسماه بالمنتصر وأبي عبد الله (واسمه محمد أو الزبير أو طلحة) ولقبه المعتز وابراهيم ولقبه المؤيد • وعقد لكل واحد منهم لواءين : أحدهما أسود : وهو لواء العهد ، والآخر أبيض وهو لواء العمل[1] أي الولاية • وقسم الامبراطورية بينهم أعمالاً ثلاثة : فكان للمنتصر من عريش مصر الى حيث يبلغ سلطان العباسيين من المغرب ، مع الجزيرة العربية والثغور الشامية والعواصم والسواد والأهواز والسند ومستغلات سامراء ومنطقة الجبال وصدقات العرب بالبصرة • وكان للمعتز كور خراسان وفارس • وللمؤيد أربعة من أجناد الشام فقط (ومشق وحمص والاردن وفلسطين) • (ويضيف اليعقوبي[2] أرمينيا وأذربيجان بينما يجعلها الطبري في حصة المعتز)•• كل هذا وأولياء العهود صغار : أكبرهم المنتصر في الثالثة عشرة ، والمؤيد حدث ، والمعتز طفل • ولذلك عين المتوكل لكل

وتكلم معهما في حديث يقول المتوكل إني لم أعقله لشدة اشتغال فكري بمصيري ثم خرج الى بعض الخدم ينادونني فما شككت اني داخل لمبايعة ولد الواثق وينفذ في ما قد قرر فلقيني ابن أبي دؤاد فقبل يدي ثم أجلسني وسلم علي بالخلافة وجاء ابن الزيات وإيتاخ ففعلا مثله .. وكانا هما المنظوران عند الناس لاختيار الخليفة . وبقي في نفسي ما قرراه علي فقتلتهما بما اعتزما به على قتلي .

(١) المصدر نفسه ص١٧٦ (١٣٩٥/٣) فمابعدها .
(٢) اليعقوبي ج٢ ص ٤٨٧

منهم كاتباً يشرف على ولاياته . « وكتب كتاب العهد من أربع نسخ احتفظ بواحدة منها وأعطى لكل ولد واحدة ، وأحضر وجوه الناس من كل بلد إلى سامراء فأعطاهم على البيعة الجوائز وأعطى الجند لعشرة أشهر ووجه الخطباء ليخطبوا بذلك .. »[1] .

ويظهر أن المتوكل ، بسبب من حبه لجاريته قبيحة ، أم المعتز ، أخذ يؤثر هذا الفتى فضم إليه سنة ٢٤٠ هـ خزن بيوت الأموال في جميع الآفاق ، ودور الضرب وأمر بضرب اسمه على الدراهم . مع أن ابنه محمداً كان عنده (قبل ذلك) فيأفضل منزلة وقد زاد مرة في أعماله زيادة واسعة وخلع عليه سبعة أيام في كل يوم سبع خلع وعقد له ألوية كثيرة ..»[2] .

وما كاد المنتصر يبلغ مبلغ الرجال حتى ظهر بينه وبين أبيه اختلاف في الميول واستغله رجال البلاط استغلالاً بشعاً فقد وجد على أبيه :

آ ــ أنه يسخر في مجلس طربه من علي بن أبي طالب ويسب العلويين فكان هذا من الأسباب التي استحل بها المنتصر قتل المتوكل[3] .

ب ــ انه يؤثر أخاه المعتز عليه « وزاد في اغرائه » ان دسائس الحاشية (من أمثال الفتح بن خاقان والوزير بن عبيد الله بن يحيى)

---

(١) انظر الطبري ج٩ ص١٨٠ (١٤٠٢/٣) واليعقوبي ج٢ ص٤٨٧
(٢) اليعقوبي ج٢ ص٤٨٧
(٣) ابن الأثير ج٧ ص ٥٥ (حوادث سنة ٢٣٦)

استطاعت أن تبعده مرتين عن الصلاة بالناس ، في أيام مشهودة ، وتقدم عليه المعتز[1] .

جـ ــ ان المتوكل كان ــ فيما يذكرون ــ يشتم ابنه ويحتقره . وربما بلغ كره الأب لابنه ، وخوفه من دسائسه ، أن فكر بالفتك به . ويرجع ذلك دون شك الى اشتراك المنتصر في دسائس البلاط ، واعلانه الخلاف لأبيه وتشنيعه عليه . يقول صاحب الفخري : «.. وكان كل منهما يكره الآخر ويؤذيه» ، وبلغ الأمر بالمتوكل ، قبل مقتله بيوم ، أن جعل «يشتم ابنه المنتصر مرة ، ومرة يسقيه فوق طاقته ومرة يأمر بصفعه ومرة يتهدده بالقتل ..»[2] .

د ــ وأخيرا أعلن المتوكل خلع ابنه ، في مجلس من مجالس شربه ، في الأيام الأخيرة من حياته . ذكر الطبري أن المتوكل ، في ذلك المجلس حلف على الفتح بن خاقان أن يلطم المنتصر ثم قال المتوكل لمن حضر : اشهدوا جميعاً أني خلعت «المستعجل» . ثم التفت إليه فقال : سميتك المنتصر فسماك الناس لحمقك : المنتظر . ثم صرت الآن المستعجل . فقال المنتصر : يا أمير المؤمنين لو أمرت بضرب عنقي كان أسهل عندي مما تفعله بي فقال : اسقوه ..»[3] واللقب الذي خلعه المتوكل على ابنه: استهزاء به يكشف أنه كان يعلم رغبة ابنه في التخلص منه فسبقه بالخلع ..

وفي هذه الفترة نفسها كانت علاقات المتوكل مع الأتراك تسير من سيء لأسوأ ، والطبري يذكر ان (وصيفاً) حقد لما علم بمصادرة ضياعه واقطاعها للفتح بن خاقان «واستقر عنده الذي أمر به في أمره ..»[4]

---

(١) انظر تفصيل ذلك لدى الطبري ج٩ ص٢٢٢ــ٢٢٤ (٣/١٤٥٢ ــ ١٤٥٥) .

(٢) الطبري ج٩ ص٢٢٥ (٣/١٤٥٧)

(٣) المصدر نفسه .

(٤) الطبري ج٩ ص٢٢٢ (٣/١٤٥٢)

وان « (بغا) الصغير توحش من المتوكل •• وان (اوتامش) غلام الواثق كان مع المنتصر فكان المتوكل يبغضه لذلك»[1] ويذكر الطبري نقلاً عن بعض الرواة : ان المتوكل عزم على أن يقتل وصيفاً وبغا وغيرهما من قواد الأتراك مع ابنه المنتصر •• وحدد لذلك يوماً كان موعده ، بعد مقتله بيومين[2] •

وهكذا اتفقت نقمة الأتراك مع نقمة ولي العهد على المتوكل • وتوافق وقت خلع الابن مع الوقت الذي تقرر فيه الفتك • فالتقى الطرفان ليكون منهما حلف ومؤامرة • إذ بينما كان الأتراك يتداولون في الخلاص من المتوكل ، كان المنتصر يقوي مركزه بينهم • « فكان ــ كما يقول المسعودي ــ يجتذب قلوبهم •• وكان اوتامش يساعده في ذلك فكان لايبعد المتوكل أحداً من الأتراك إلا اجتذبه إلى (المنتصر) • فاستمال قلوب الأتراك وكثيراً من الفراعنة والأشروسنية ••»[3] •

ويبدو أن مؤامرة المنتصر على أبيه كانت تنظم قبل قصة الخلع والتحقير التي تعزى للمتوكل في حق ابنه بكثير ولقد نستطيع القول إن ما ذكر من صفع المنتصر وشتمه في حضرة أبيه إنما كان شائعة أشيعت وتبريراً أمام الناس للمؤامرة التي لم تغب أخبارها حتى عن المتوكل وعن حاشيته • وإذا سمى المتوكل ابنه لذلك «بالمستعجل» فان الطبري يذكر «إن المنتصر كان شاور في قتل أبيه جماعة من الفقهاء وأعلمهم بمذاهبه وحكى عنه أموراً قبيحة ــ يقول الطبري ــ كرهت ذكرها في الكتاب

---

(١) المسعودي ــ مروج الذهب ج٤ ص١٢١
(٢) الطبري ج٩ ص٢٢٥ (١٤٥٦/٣)
(٣) المسعودي ج٤ ص١٢١

فأشاروا عليه بقتله ..»[1] ويذكر كذلك أن امرأة من نساء الأتراك ألقت رقعة تخبر ما عزم عليه القوم فوصلت الرقعة الى الفتح بن خاقان كما وصله خبر آخر بالمعنى نفسه من كاتبه فاتفق رأي الحاشية « على كتمان الأمر على المتوكل لئلا ينغصوا عليه يومه وهان عليهم أمر القوم ووثقوا بأن ذلك لا يجسر عليه أحد ولا يقدر ..»[2] . لكن المنتصر جسر عليه . وقد اعترف أحد أعوانه ، وشهود ليلة القتل ، بأن المنتصر « كان قد واعد الأتراك على قتل المتوكل قبل انصرافه إذا ثمل من النبيذ ..»[3] .

ويبدو بالمقابل أن مؤامرة أخرى قد تكون حقيقية أو وهمية ، كان المتوكل يدبرها لقتل ابنه . ومصدر الخبر هو أعوان المنتصر وهذا ما يشكك فيه ويجعله من جملة دعايات التبرير لمقتل المتوكل . ولعله شائعة أو خبر مدسوس أوصله الأتراك الى المنتصر ليزيدوا من حقده على أبيه ويدفعوه للاقدام النهائي على قتله. ويقول صاحب الخبر « .. وكان اتصل بنا الخبر أن عبيد الله بن يحيى (كبير رجال البلاط لدى المتوكل) قد أعد للمنتصر قوماً في طريقه ليغتالوه عند انصرافه..» فلما قامت الضجة « وقع في نفسي .. أنهم على اغتيال المنتصر » .. وهكذا كان التآمر سجالا بين الطرفين وكانت نتيجة الصراع التآمري رهينة بمن يسبق الى الضربة الاولى . وسبقت الضربة من الأتراك وولي العهد وقتل المتوكل . وكانت هذه المرة الأولى في تاريخ الخلافة الاسلامية التي يتآمر فيها ولي العهد الإبن ، على أبيه ، والخدم في الدولة ، على سيدهم .

---

(١) الطبري ج٩ ص٢٢٨ (١٤٦٢/٣)
(٢) الطبري ج٩ ص ٢٥٢ (١٣٦٢/٣)
(٣) المصدر ذاته ص ١٣٥ (١٤٧٢/٣)

وقد قتل مع المتوكل كبير رجاله الفتح بن خاقان فأذاع المنتصر أن الفتح قتل أباه فقتله به !

٢ ـ الوزارة :

يظهر من تتبع أمر الوزارة في العهد العباسي أنها ما استقرت مرة • وأنها لم تكن مؤسسة رسمية ، وجزءاً محترم المكانة من نظام الحكم ، بقدر ما كانت عملاً شخصياً سواء بالنسبة للخليفة ، أو بالنسبة لمن يتولاها • ولهذا ظل تصادم السلطات بين الوزير والخليفة ، واستمرت النكبات • لكنا نلاحظ في هذه الفترة الأخيرة من العصر العباسي الأول بعض التدهور في تقاليد الوزارة ، حتى وليها أناس لا معرفة لهم ولا ثقافة ولا إدارة • وقد نستطيع ان نلاحظ إلى هذا ، أن سلطة الوزارة في نهاية هذه الفترة قد تحددت ، وضعفت ، نتيجة لتعاظم النفوذ التركي ، ولكنها على أي حال لم تحد عن التقليد الذي وضعه منذ البدء كل من أبي سلمة الخلال وأبي العباس السفاح في تسلط الوزير على كل شيء من جهة وفي نكبته على تسلطه الواسع من الجهة الأخرى •

وزر للمعتصم أولاً كاتب كان له قبل الخلافة ، هو الفضل بن مروان • أخذ البيعة في بغداد للمعتصم و «غلب عليه كثيراً» فرد أموره كلها إليه وكان قد «حل من قلبه المحل الذي لم يكن أحد يطمع في ملاحظته فضلاً عن منازعته ، ولا في الاعتراض في أمره ونهيه وإرادته وحكمه » حسب الكلمات التي يذكرها الطبري[1] •• ولكن المعتصم

(١) الطبري ج٩ ص٢٠ـ٢١ (٣/١١٨٤ـ١١٨٥)

لم يكن يعتبره مع ذلك أكثر من منفذ لأوامره وبينما « استقل (الفضل) بالأمور • وحملته الدالة ، وحركته الحرمة على خلافه (أي خلاف المعتصم) في بعض ما كان يأمر به ، ومنعه ما كان يحتاج إليه من الأموال في مهم أموره » كان المعتصم من جهته ، يتغير عليه ويسمع كلام الوشاة فيه وتتكرر في الفضل المأساة الوزارية المعروفة من نكبة وسجن ونفي له ولأصحابه وأهل بيته ، ومن مصادرة أموال هائلة جمعها يقول عنها المعتصم : « ما كنت أعلم أن في الدنيا من له هذا المال »[1] ولم يكن الفضل بالذي يستحق الوزارة التي بقي فيها سنتين تقريباً (رجب سنة ٢١٨ — رجب أو صفر سنة ٢٢٠ هـ) فقد كان «عامياً لا علم عنده ولا معرفة»[2] أو على الأصح ، كما قال ابن النديم وابن خلكان[3] « قليل المعرفة بالعلم ، حسن المعرفة بخدمة الخلفاء» ولكن تصرفاته ، مع الناس، كانت سيئة ، وجهله بالأمور كان واضحاً حتى قال فيه بعض الشعراء :

تفرعنت يا فضل بن مروان فاعتبر
فقبلك كان الفضل والفضل والفضل
ثلاثة أملاك مضوا لسبيلهم
أبادهم التقييد والأسر والقتل ! ••

---

(١) مسكويه — تجارب الأمم ج٦ ص٤٧٩ ، والعيون والحدائق ج٣ ص٣٨٤ وتبلغ هذه الأموال عشرة ملايين دينار .

(٢) الفخري ص٢١٢ .

(٣) ابن خلكان ج٤ ص ٤٥ (طبعة عباس) وابن النديم — الفهرست ص ١٢٧

أما الوزير الثاني للمعتصم أحمد بن عمار فكان طحاناً في الأصل ، من أهل المذار •• ثم انتقل إلى البصرة ، ثم إلى بغداد ، وكانت ميزته الوحيدة ثراؤه إذ كان يخرج في الصدقة مائة دينار كل يوم !•• وكان جاهلاً بآداب الوزارة ، حتى قال فيه شاعر :

سبحان ربي الخالق الباري　　صرت وزيرا يا ابن عمار ؟
وكنت طحاناً على بغلة　　بغير دكان ولا دار ••
كفرت بالمقدار ان لم تكن　　قد جزت في ذا كل مقدار

وكانت قلة ثقافته سبباً في صرفه من الخدمة • وتلاه محمد بن عبد الملك الزيات وتطنب المصادر في امتداح ثقافته وعقله • يقول الجهشياري: « •• برع في كل شيء حتى صار نادرة وقته عقلاً وفهماً وذكاء وكتابة وشعراً وأدباً وخبرة بآداب الرياسة وقواعد الملوك •• فنهض بأعباء الوزارة نهوضاً لم يكن لمن تقدمه من اضرابه ••»[1] ولعل ما يفسر لنا بقاءه في الوزارة بقية أيام المعتصم ، ومدة عهد الواثق ، حتى مطلع خلافة المتوكل • ولا شك أن استبقاء الواثق له ، رغم سخطه عليه وهو أمير ، وقسمه بالحج والعتق والصدقة • إن ولي الخلافة ، ليقتلنه شر قتلة بل وانسياقه معه ومع أحمد بن أبي داؤد المعتزلي حتى « كان لا يصدر إلا عن رأيهما وقلدهما الأمر وفوض إليهما ملكه » يدل على مقدرة ابن الزيات وعلى اتزان الواثق في وقت معاً • ولقد قال له الخليفة : « والله ماأبقيتك إلا خوفا من خلو الدولة من مثلك • وسأكفر عن يميني فاني أجد

---

(١) الجهشياري ــ نصوص ضائعة (جمع كوركيس عواد) ص٦٤ ، وقد نقل ذلك الفخري ص ٢١٢

عن المال عوضاً ، ولا أجد عن مثلك عوضاً »[١] •

ويروون عن الواثق أنه قال : « إن السلطان الى محمد بن عبد الملك أحوج من محمد الى السلطان ••»[٢] •

وورث المتوكل ، مع الخلافة والأتراك ، وزارة الزيات • ولكنه كان يحقد عليه لسوء معاملته له ، في حياة أخيه • وكان ابن الزيات «جبارا ، متكبراً ، فظاً ، غليظ القلب ••» كما يقول عنه صاحب الفخري و «شديد القسوة قليل الرحمة جباها للناس ، كثير الاستخفاف بهم لا يعرف له احسان إلى أحد ••» كما يقول اليعقوبي[٣] • فلم يبقه المتوكل غير أربعين يوماً • ثم نكبه وصادر أمواله • وعذبه في تنور من حديد ، مسامیره إلى الداخل ، كان ابن الزيات صنعه لتعذيب غيره « فلم ير إلا شامت به فرح بنكبته»[٤] •

ولا شك أنا نستطيع أن نعد ابن الزيات خاتمة تلك السلسلة الذهبية من الوزراء ، الذين توالوا في العصر العباسي الاول • وندر أن أطلعت العصور التالية أمثالهم •

واستكتب المتوكل ، بعد ابن الزيات ، أحمد بن خالد المعروف بأبي الوزير ، دون تسميته بالوزارة • ثم نكبه ، وأخذ منه مائتي ألف

---

(١) الفخري ص ٢١٤
(٢) التنوخي ــ نشوار المحاضرة ج٨ ص ١٥
(٣) اليعقوبي ج٢ ص٤٨٤ ، الفخري ص١٩٠
(٤) ينفرد ابن النديم بخبر يقول إن ابن الزيات كان زنديقاً (انظر الفهرست ص٣٣٨) .

دينار • ثم الجرجرائي : أبا جعفر محمد بن الفضل ، وهو شيخ يمتاز بظرفه وغنائه • فلم تلبث السعايات أن أبعدته • وقال المتوكل : قد ضجرت من المشايخ ، أريد حدثاً أستوزره•• فأشير عليه بعبيد الله بن يحيى ابن خاقان «وكان حسن الخط له معرفة بالحساب والاستيفاء إلا أنه كان مخلطاً وكان مجدوداً وكانت سعادته وكرمه أيضاً يستران كثيراً من عيوبه ••»(١) وبقي على وزارة المتوكل حتى مقتل هذا الخليفة • ولكن منصب الوزارة كان فقد رونقه وسلطاته بتسلط الأتراك عليه وتسييره حسب أهوائهم ونوازعهم •

يقول التنوخي في نشوار المحاضرة : «•• جعل المتوكل الكتب باسم وصيف التركي وانتصب منصب الوزارة وإن كان لم يسم بها فاختار من الكتاب عبيد الله بن يحيى بن خاقان • وصار أمره يقوى ، فكان يعرض الأعمال عليه كما كان الوزراء يعرضونها وليس هو يعد قديراً لها • وأثبت المتوكل اسمه •• ثم أمر له الخليفة بعد زمن بالوزارة ثم خوطب بها وكان وزيراً أميراً ••»(٢) •

وقد لعب هذا الوزير عبيد الله بن خاقان ، مع النديم : الفتح بن خاقان دورهما الخطر في مقتل المتوكل حين وسعا شقة الخلاف بينه وبين المنتصر وشجعاه على إبعاده وتقريب المعتز••فكان ذلك السبب في مصرعه ثم مصرع الفتح بن خاقان نفسه من بعده •

٣ ــ الكتاب والمصادرات :

وظهرت في هذه الفترة (٢١٨ــ٢٤٧هـ) ظاهرة في السياسة المالية

---

(١) الفخري ص ٢٠٦ــ٢٠٧

(٢) التنوخي ــ نشوار المحاضرة ج٨ ص١١ــ١٣

لها معناها في الجهاز الاداري • فقد سن الواثق ، لمن بعده ، مصادرة الكتاب (وهم رؤساء الدواوين) بغية الحصول على المال ، حتى أصبحت المصادرة مواردا من موارد بيت المال • وهذا يدل على تفشي الرشوة والظلم والاختلاس ، في الجهاز الأداري للدولة ، ووصوله للدرجة التي لا يصح السكوت عنها ، والتي لا تعالج إلا بنكبة الكاتب • وفي تكرر المصادرات فيمابعد ، اعتراف وإقرار بأعمال الكتاب السيئة • وفي صيرورة المصادرة موردا للخزينة ومصدرا يرجع إليه عند الحاجة إقرار بأنها أصبحت شبه ضريبة على الكتاب •

يقول الطبري وينقل عنه ابن الأثير « •• فمن ذلك ماكان من حبس الواثق بالله الكتاب والزامهم أموالا عظيمة ، أخذ من اسحق بن يحيى بن معاذ (٨٠) الف دينار ، ومن احمد بن اسرائيل (٨٠) الف دينار ومن سليمان بن وهب كاتب ايتاخ (٤٠٠) الف دينار ومن الحسن ابن وهب (١٤) الف دينار ومن احمد بن الخصيب وكتابه الف الف ومن ابراهيم بن رياح وكتابه (١٠٠) الف ومن نجاح (٦٠) ألفا ومن أبي الوزير صلحا (١٦٠) الف دينار ، وذلك سوى ما أخذه من العمال بسبب عمالاتهم» مما يبلغ مجموعه الفي الف دينار[1] هذا إلى مليون ونصف المليون من الدراهم صادرها الوزير ابن الزيات من ابراهيم بن العباس العامل على الأهواز •• وغيرها كثير !

وزادت المصادرات زمن المتوكل حتى لنستطيع أن نعد منها (١٤) مصادرة كبرى فيما ذكر اليعقوبي والطبري : من ذلك مصادرة ابن

---

(١) انظر الطبري ج٩ ص١٢٥ (١٣٣١/٣)

الزيات (٩٠ الف دينار) وعمر بن فرج الرخجي الكاتب ، وأخيه محمد صاحب مصر ، والفضل بن مروان ، وعلي بن عيسى ، وابي الوزير ، وإيتاخ ، ونجاح بن سلمة .. والسلسلة طويلة بعد ذلك .. وسخط مرة على كتابه ، جملة ، فصادرهم . كما كانت المصادرة تلحق أحياناً عمال المصادرات . فقد أخذ «أحمد بن محمد بن مدبر عمال (علي عيسى) على طساسيج السواد ، فصالحهم على أموال عظيمة» .

وخير مثل لدوافع المتوكل في بعض هذه المصادرات ، إن لم يكن في كلها ، مايذكره الطبري[1] قائلاً «.. لما عزم المتوكل على بناء الجعفري ، قال له نجاح ، وكان في الندماء : يا أمير المؤمنين ! أسمي لك قوماً ، تدفعهم إلي ، حتى استخرج لك منهم أموالا تبني بها مدينتك . فانه يلزمك من الأموال مايعظم قدره . قال : سمهم . فرفع رقعة يذكر فيها : موسى بن عبد الملك (صاحب ديوان الخراج) والحسن بن مخلد (صاحب ديوان الضياع) وجعفر المعلوف (مستخرج ديوان الخراج) وغيرهم نحواً من عشرين رجلا فوقع ذلك من المتوكل موقعاً أعجبه» ولم ينج هؤلاء من النكبة إلا بسبب عداء الوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، لنجاح . فانه أحضر موسى بن عبد الملك والحسن بن مخلف ، وأخبرهما الخبر ، ودفعهما الى أن يكتبا لأمير المؤمنين رقعة يقبلان فيها على أنفسهما بألفي ألف دينار! .. وكان ذلك . واستطاعا بهذا الشكل أن يأخذا الإذن بمصادرة أموال نجاح جزاء وفاقاً فاستخرجا منه، للمتوكل دوماً مائة وأربعين ألف دينار ومن كاتبه اسحق خمسين ولم ينجه ذلك من التعذيب حتى الموت سنة ٢٤٥ هـ .

---

(١) انظر الطبري ج٩ ص١٦٠ ، ١٦٢ وص ٢١٤–٢١٥
(٢) الطبري ج١٩ ص ٢١٤–٢١٧ (١٤٤/٣–١٧٤)

ويمكن أن نعرف ضخامة قيمة المصادرات من تلك الارقام التي ذكرت فيها • ومن أمثلة أخرى : فابراهيم بن الجنيد دفع سنة ٢٣٣ هـ مبلغ (٧٠) ألف دينار وأبو الوزير ستين ألف دينار ، وحمل بدر ودراهم وحلي • وأخذ له ، من متاع مصر ، اثنين وستين سفطاً ، واثنين وثلاثين غلاماً ، وصولح سعدون بن علي على ٤٠ ألف دينار • وصولح ابنا أخيه على نيف وثلاثين ألف دينار • واسحق بن سعد على ٥٠ ألف دينار • وأخذ المتوكل من أحمد بن أبي داؤد لما غضب على ابنه (١٢٠) الف دينار وجواهر بقيمة ٤٠ ألف دينار • وصولح بعد ذلك على ١٦ ألف ألف درهم ، وبيع كل ضيعة لهم • وصودر عمر بن فرج على عشرة آلاف ألف درهم •

وإذا كان لإنفاق المتوكل أثره في هذه المصادرات ، فلا شك أن لسوء استغلال الكتاب بالمقابل ، أثره أيضاً • ولعل الخلفاء اعتبروا المصادرة وسيلة لاسترداد ما استلبه الموظفون من أموال الدولة والناس ، بطرق غير مشروعة على نهج عمر بن الخطاب الذي شرع المقاسمة في مثل هذه الحال[1] •



---

(١) في المسعودي (ج٤ ص٦٦) قصة جديرة بالقراءة ، يتحدث فيه أحد الاعراب الى الشاعر أبي تمام عن رجال دولة الواثق واحداً واحداً . ولعلها تعطينا صدى عن راي العامة في أصحاب الحكومة إذ ذاك .

الفصل التاسع

مشاكل الرّعية

شهدت هذه الفترة (٢١٨ـ٢٤٧) نهاية عهد الثورات العقدية تقريباً وبداية انتقاض الأقاليم في ثورات محلية أقليمية لا تدل على أكثر من ضعف الدولة المركزية • وكانت خلافة المعتصم فترة تصفية الثورات التي تميز بها العصر العباسي الأول والعصر الأموي قبله أيضاً من خارجية وعلوية وثورات دينية إيرانية كما اتضحت بالمقابل في زمن الواثق صفة الفتن المحلية التي ستمهد لانفصال أقاليم الدولة ولتحولها الى الحكم الذاتي •

١ ـ ثورات العقائد :

ونقصد بها ثورات إيران الدينية ـ السياسية ، وثورات العلويين ، والخوارج • وقد أخذت كلها الطابع الشخصي • قادها أفراد تمثلت بهم بعض الأفكار ، وانتهت بانتهائهم •

أولا : الثورات الايرانية :

إن **ثورة بابك** التي ورثها المعتصم عن أخيه المأمون ، وحشد لها سنوات عدة كل قوته حتى أخمدها لم تنته بنهاية بابك على خشبة الصلب وقد كان لها ذيل ثوري عرف باسم :

أ ــ ثورة المازيار : لأنها ابنة ثورة بابك فقد كان لها أسسها نفسها : قادها المازيار (أو ماهيزديار على قول البلاذري[1]) وهو ابن (قارن) ابن (وندا هرز) من نسل الأمراء القارنيين الذي كان لهم حكم طبرستان في الزمن الاسلامي ، والساساني قبله . وقد نشب بينه وبين أمير آخر في المنطقة ، اسمه شهريار بن شبيرويه ، نزاع التجأ على أثره ، المازيار إلى المأمون . وأسلم على يديه . فلما مات شهريار سنة ٢١٠ هـ رجع المازيار ، واسترد الجبل وحكمه . وقد ولاه إياه المأمون بعد أن سماه محمداً ، وضم إليه بعض البقاع حوله ، وجعل له ــ كما يقول البلاذري[2] ــ مرتبة : الأصبهبذ . وهو اللقب القديم لأمراء طبرستان . واستمر الأصبهبذ هادىء الحال والأطماع أربع عشرة سنة .. حتى سنة ٢٢٤ .

وفهم من الطبري أن طبرستان كانت تابعة لأقليم خراسان . بمعنى أن المازيار كان تابعاً لبني طاهر . ولكنه كان يكرههم . فكان لا

---

(١) البلاذري ص ٤١٦

(٢) انظر البلاذري ــ فتوح البلدان ص٤١٦ . وقد ذكر مينورسكي في دائرة المعارف الاسلامية (مادة «مازيار» ج٣ ص٤٣٥ــ٣٤٦) أن المأمون سمح له باتخاذ لقب الأمراء القديم ويروي الطبري (ج٩ص١٠٠) أن المأمون كان يكتب للمازيار بلقب : «أصبهبذ اصبهبذان» .. «مولى أمير المؤمنين» .

يحمل إليهم الخراج رغم كتابة المعتصم له بذلك • كان يرسل إلى بغداد ثم سامراء حتى إذا وافى همذان جاء عمال ابن طاهر فأخذوه •• استمر ذلك سنين طويلة حتى تفاقم الأمر • والمؤرخون يجعلون من هذه النقطة ، سبب ثورته : فيذكرون أن الأفشين كان يطمع بخراسان • وكان يسمع من المعتصم أحياناً كلاماً يدل على عزمه بعزل آل طاهر عنها • فكاتب المازيار سراً • وشجعه على الخلاف ، أملاً في ألا يستطيع الطاهريون اخماد ثورته • فيندب الأفشين لذلك فتكون خراسان له ويقضي بالمناسبة على آل طاهر[1] • وهكذا قطع المازيار حتى الخراج وأعلن العصيان في جباله المنيعة • وأخذ الرهائن من الناس فحبسهم في برج الأصبهبذ ليضمن تأييدهم •• وجمع أموال الخراج بشكل عاجل ليضمن بيده الأموال •

ولكن أمر المازيار والأفشين كان ، على مايظهر ، أعمق من هذه الظواهر البسيطة : فالمازيار كان سطحي الاسلام • وهو في الواقع خرمي ، من ذلك المذهب الذي أضحى يمثل ثورة الوعي الايراني ــ الديني ضد السلطان العباسي ، وضد المجتمع الاسلامي الذي أقامه الخلفاء • ويتفق المسعودي[2] والبلاذري[3] والبغدادي[4] على اتهامه بالخرمية « وأنه كفر وغدر » • وينقل مينورسكي عن ابن اسفنديار أنه « كان يمجد مزدك وبابك والمجوس الآخرين الذين أرادوا محو الاسلام » •

وأما علاقته بالأفشين فقد أقر المازيار على نفسه وعلى صاحبه بان

---

(١) الطبري ج٩ ص٦٠ـ٨١ وص١٠٥ (٣/١٢٦٨ـ١٢٦٩) و (٣/ ١٣٠٥)

(٢) المسعودي ج٤ ص٦١

(٣) البلاذري ص٤١٦

(٤) الفرق بين الفرق ص٢٥٢

الأفشين كاتبه يعرض عليه النصرة و « أنه بعثه على الخـروج والعصيان لمذهب كانوا اجتمعوا عليه وديـن اتفقوا عليه مـن مذاهب الثنوية والمجوس » كما يقول المسعودي[1] .

وتدل أعمال المازيار ، بعد الثورة ، على نزعته المشاعية المزدكية : « أمر أكرة الضياع بالوثوب بأرباب الضياع وانتهاب أموالهم .. » وقال لأصحابه « إني قـد أبحتكم منازل أرباب الضيـاع وحرمهم .. فاقتلوا أرباب الضياع جميعهم ، قبل ذلك . ثم حوزوا ما وهبت لكم من المنازل والحرم»[2] وكان لهذا العمل ، بجانب معناه الديني والاقتصادي، معنى سياسي أيضاً . فقسم كبير من الملاكين كانوا مـن العرب ، أو مواليهم ، كما يقول مينورسكي وتشهد نصوص الطبري « وهواهم مع العرب والمسودة »[3] ولذلك جمع عامله على (سارية) مرة وكان من أهم أعوانه ، مائتين وستين من أبناء القواد ، وسلمهم للفلاحـين على أنهم خطرون . وأشار عليهم بقتلهم فقتلوا . وأمر أصحاب المسالح (أي النقاط العسكرية) بإحضار أهل الخنادق من «الأبناء والعرب» ووجـوه العرب في المناطق المختلفة فكبلهم بالحديد وحبسهم ووكل بهم الرجال في حبسهم[4] ويظهر أن أكثرهم كان من أهل المـدن لأن الريف بقي لفلاحيه وإن تملكه الاقطاعيون . كما يظهر أن عددهم زاد على «عشرين

---

(١) المسعودي ج٤ ص٦١
(٢) الطبري ج٩ ص٩١(٣/١٣٦٩) و ص٨٦–٨٧(٣/١٢٧٨)
(٣) الطبري ج٩ ص٨٦ (٣/١٢٧٨)
(٤) المصدر نفسه ص٨٤ (٣/١٢٧٣–١٢٧٥)
(٥) انظر المصدر نفسه ص٨٥ وص٨٦ وص٩٠ (٣/١٢٧٦ ، ١٢٧٨، ١٢٨٤)

ألفاً» وهو الرقم الذي ذكره المازيار نفسه وفيهم الملاكون كما أن فيهم «التجار والصناع» .

فالثورة سياسية دينية معاً . أو هي سياسية ، واتخذت الخرمية مبدأ لتضم إليها الطبقةالعاملةالفقيرة ، من الايرانيين، وقد تعاون المعتصم ، مع عبد الله بن طاهر على إخمادها ، بالتطويق من كل جانب . فهاجم حسن ابن الحسين (عم عبد الله) وقائد آخر طبرستان من الشرق . وأرسل المعتصم قوات أخرى ، عليها محمد بن ابراهيم ، من الغرب . كما بعث بمنصور بن حسن من الري في الجنوب. وبجيش آخر في جانبه .. وأدرك المازيار أنه مطوق وأنه قد «أحدقت به الخيل من كل جانب» . وكان على مايبدو ينتظر أن يفاوضه المعتصم أو يساومه فلما لم يفعل . بعث المازيار الى «أصحاب المدن» المعتقلين عنده يقول إنما حبستكم ليبعث الي هذا الرجل (يعني المعتصم) فيكم فلم يفعل وقد بلغني أن الحجاج غضب على صاحب السند في امرأة أسرت من المسلمين فغزا السند حتى استنقذها وهذا الرجل لا يكترث بعشرين ألفاً ولا يبعث إلي يسأل فيكم فأدوا إلي خراج سنتين وأخلي سبيلكم . وكان المازيار يرجو من هذا العرض ـ كما قال الطبري ـ « أن يلقي الشر بين أصحاب الخراج ومن لا خراج عليه من التجار والصناع»[1] ولكنهم كانوا من الإملاق بحيث لم يستطيعوا دفع أي مبلغ .. وقتل العديد من الرهائن في أمكنة متفرقة قبل أن يمل المازيار حبسهم فيطلقهم حين رأى تفرق أصحابه عنه ..[2] .

---

(١) الطبري ج٩ ص ٨٥ـ٨٦ (١٢٧٦/٣ـ١٢٧٨)

(٢) الطبري ج٩ ص ٩٠ (١٢٨٣/٣ـ١٢٨٤)

والواقع أنه بينما كانت الجيوش العباسية تزحف • بدأت الخيانات في صفوف المازيار • اتفق حرس السور في بلدة سارية مع أصحاب الحسن بن الحسين الظاهري فأدخلوهم من ثغرة فيه فسقطت المدينة وأسر صاحبها من قبل بعض أعوانه أنفسهم فقتل • وكاتب الحسن الطاهري قارن بن شهريار وهو من قواد المازيار وابن أخيه ووعده أن يملكه على جبال أبيه وجده فاحتال قارن على شقيق المازيار عبد الله حتى قيده مع قواده وجاء به الى الحسن عربون وفاء واستنجاز للوعد • وأما قوهيار الشقيق الآخر للمازيار فأطلق عامل طبرستان القديم من السجن ليطلب له الأمان من القائد العباسي مقابل أن يسلمه المازيار نفسه ويجعل له جبال أبيه وجده • وتمت المؤامرة على المازيار : قاده أخوه الى غياض منقطعة وأوقعه بيد الحسن أسيراً وهو يحسب أنه ذاهب للمفاوضة بالأمان[1] بينما كان ابن عمه أيضاً يكتب بدخائل أمره وقواته للحسن • وأخذت الأموال التي يحملها الرجل وكان فيها حق من الجوهر كبير ثمنه ١٨ مليون درهم ومائة ألف دينار تقريباً وحوالي ٣٥ قطعةزمرد وياقوت أحمر وتاج وسيف من الذهب عدا ألوان الثياب[2] • أرسل إلى سامراء ، حيث توفي ، تحت السياط الأربعمائة والخمسين التي ذاقها ، وصلب بجانب بابك سنة ٢٢٥ هـ •

أما قوهيار فلم ينعم بالملك لأن بعض غلمان أخيه قتلوه وقد حرضهم على ذلك ابن عمه : شهريار بن المصمغان الذي كان يطمع بالملك ولكن

---

(١) انظر في المصدر نفسه تفاصيل هذه المؤامرات ج٩ ص٧٨-٩٠ (١٢٨٩/٣-١٢٨٤)

وانظر كذلك البلاذري - فتوح البلدان ص٤١٦-٤١٧

(٢) انظر الطبري ج٩ ص٩٨ (١٢٩٦/٣) وص٩٦ (١٢٩٢/٣-٩٣)

طبرستان كانت قد فتحت كلها «سهلها وجبلها فتولاها عبد الله بن طاهر ثم ابنه طاهر من بعده»[1] .

ب ـ قضية الافشين :

كانت أحدى القضايا الكبرى في زمن المعتصم . ولقد تكون في حقيقتها قضية سياسية ، سببها اصطدام نفوذ الأفشين المتعاظم بدسائس البلاط ، ولكنها ألبست الثوب الديني . وفي تفاصيلها اضطراب وروايات على ألوان .. وأوسع أخبارها ما يرويه الطبري[2] ونستخلص منه : ان التهم التي وجهت للافشين كانت عديدة . وأنها لم تكن بنت أيام محدودة، ولكنها شكوك تراكمت حتى أقنعت المعتصم بخيانة قائده الأعظم .

والأفشين لقب كان يلقب به أمراء أشروسنة قبل الاسلام . وكان الأفشين قائد المعتصم آخر هؤلاء الأمراء . ويبدو من أخباره أنه كان واسع الثقافة ، جيد الاطلاع على الدين الاسلامي واللغة العربية حسن الاستفادة من الفلسفة والمنطق ولا تنقصه المعلومات الطبية فكان يحفظ دفاتر للأدوية عنده باللغة الأشروسنية[3] هذا بالإضافة الى الثقافة العسكرية ، وقد دخل هو بعد أبيه في خدمة المأمون ثم في خدمة المعتصم[4] وبرز اسمه بقوة بعد هزيمته لبابك ، وبعد واقعة عمورية ، فأضحى القائد الأول في الدولة . ويظهر أن ذلك أثار فيه الأعجمية . ولم

---

(١) البلاذري ـ فتوح ص ٤١٧

(٢) الطبري ج٩

(٣) انظر ابن العبري ـ مختصر تاريخ الدول ص ١٤٠ـ١٤١

(٤) انظر تفصيل قصة إسلامه وإسلام أبيه وفتح أشروسنة لدى البلاذري ـ فتوح ص ٥٢٨ ـ ٥٢٩ وقد ألممنا بها .

يكن في ميوله وفي نشأته التركية ـ الايرانية أقل ارتباطا بدينــة الأول (البوذي أو الشاماني) ولا عطفاً على اهل بلده من الرجلين اللذين صحباه ـ كما قال براون Browne في نهايته المحزنة : المازيار وبابــك وأخبار محاكمة تكشف أن الرجل كان واعيا كل الوعي محاولة التوفيق التــي يعيشها ويقوم بها ما بين وضعه السابق كأمير مؤله في شعب معين ووضعه الجديد كمسلم وقائد حربي في دولة غريبة عنه وعن بلاده وقومه وحججه وإجاباته المنطقية لم تكشف عدم ولائه للدولة وعدم ايمانه بالاســلام فقط ولكن كشفت بالمقابل خصومه والأساس السياسي الذي تقوم عليه تهمته وإن لم يعلن ذلك الاساس ابدا •

وأول ما انكشف من أمر الافشين ، ما أخبر به عبد الله بن طاهر ، من أنه في الايام الاخيرة من حربه لبابك ، كان لا تأتي الافشين هديــة ولا تجتمع عنده كمية من الدنانير ، إلا أرسلها إلى موطنه ، في أشروسنة. فأمر المعتصم ابن طاهر بتقصي الامردوما[1] •

ثم انكشفت صلة الافشين بالمازيار الثائر • وقبض ابن طاهر على بعض رسائله إليه واعترف الاثنان أمام المعتصم أن شقيق بابك كان يكاتب شقيق المازيار ويحرضه باسم بابك على الثورة لإعادة الدين الأبيض إلى ماكان عليه في عهد العجم[2] •• وابن العبري يعزو السبب في القبض على

---

(١) الطبري ج٩ ص ١٠٤ ـ ١٠٥ (٣/١٣٠٤)

(٢) هناك فيما يتعلق بدين الافشــين السابــق مشكلة . فأهل اشروسـنة ، وهم من الترك الذين دخلوا الثقافة الايرانية كانوا في كثيرمنهم على الشامانية أو البوذية . وتدل الأصنام ذات الجواهر التي وجدت لدى الافشـين على أنه كان مثل قومه . وأما هذا النوع من الرسائل فيشير إن

الافشين إلى هذه المراسلات[١] ثم ثار منكجور الفرغاني سنة ٢٢٥ هـ خال ولد الافشين ، ووالي اذربيجان • وذلك ان المعتصم طالبه بأمــوال عظيمة ، كتب صاحب البريد انه وجدها من ثروة بابك واحتجزها لنفسه، في بلدة بابك (البذ) فلم يعترف بها • فعزله الخليفــة فثــار • وطلب المعتصم من الافشين ، إحضار هذا العامل الثائــر فبعث بجيش إليه • ولكن المعتصم عرف ان منكجور انما خلع (الطاعة) بأمر الافشين •وإنما وجه الجيش الآخر مددا له • ويرى اليعقوبي أن هذا هــو أول سبب للقبض عليه[٢] •

ويبدو أن المعتصم اتخذ ، قبل انكشاف الافشين واعتقالــه خطوة أطاع فيها نصيحة قاضية ابن ابي دؤاد في الحــد من نفــوذ الافشين والاحتياط من تزايد قوته العسكرية وذلــك بقسمة الجيش شطرين : نصف مع الافشينونصفمع القائد أشناس[٣]• وبالرغم من از 'لدينوري
نصف مع الافشين ونصف مع القائد أشناس[٣]• وبالرغم من أنالدينوري
فإنها كانت نصيحة ذهبية وفي مصلحة الدولة وقد عمل بها المعتصمفوجد الافشين منه وطال حزنه واشتد حقده» فإذا لم يكن ذلك لأنه قلل من إمكانيته وقوته في الانتقاض على الدولة فلأنه على الأقل أزاحــه عن المركز العسكري الأول والقيادة العليا فيها وجعل اشــناس عديلا في

صح إلى انه من اهل الدين الأبيض أي الخرمية المحمرة أو على الأقل من الزارادشتين . وبالرغم من أن هذا غير بعيد بسبب التأثير الايراني فيما وراء النهر إلا إنه لا ينسجم مع الأدلة التي قدمت لدى المعتصــم لادانــة الافشين بعدم الولاء للاسلام ولو كان مزدكياً لأعلنت التهمة ضــده خلال محاكمته .

(١) ابن العبري . تاريخ مختصر الدول ص ١٤٠٥ .

(٢) اليعقوبي ج٢ ص ٤٧٧ .

(٣) الدينوري ـ الاخبار الطوال ص ٤٠٥ .

ذلـك ... ولما افتضحت بعض الأمور أحس الافشين تغيـر المعتصم عليه ، فهم بالهرب ، عن طريق أرمينية ، فلم يتمكن . وفكر بعمل وليمة للمعتصم وقواده ، يسممهم بها ، ثم يهرب إلى أشروسنة عن طريق أرمينية والخزر ، ويستميل الخزر على أهل الاسلام ... فاستغرق تدبير ذلك زمنا[1] كانت دسائس البلاط خلاله تقوم بدورها وتترك أثرها في ذلك كله . ولئن انفرد الدينوري[2] برد نكبة الافشين إلى وشـايات أحمد ابن أبي داؤد فحسب (ولم يذكر موضوعها) وإلى تحريضه المعتصم عليه فقد يعني ذلك أن هذه الأمور ساهمت في نكبته ، ولكنها لم تكن السبب الرئيسي حتى إذا جاء بعض قواد الافشين الى المعتصم فكشف له عن تدابيره للهرب ومشاريعه للمستقبل بعث إليه من فوره فما جاء القصر حتى أخذ وسجن في حبس مرتفع فيه (ذي القعدة سـنة ٢٢٥) وبعث المعتصم في الاحتيال للقبض على ابنه الحسن في خراسان واستطاع ابن طاهر أن يأخذه بعد أن أوهمه بتعيينه لبعض الاعمال[3] .

ويظهر ان المعتصم كان يتخوف أمر الافشين ومقتله . ويخشى أن

---

(١) انظر الطبري ج٩ ص١٠٥ ــ ١٠٦ (١٣٠٦/٣ ــ ٧) وقد تكون هذه الامور من التقولات ، التي شاعت فيما بعد . فان ذكرها لايرد عند محاكمة الافشين ، تمهيدا لقتله . ولعلها لا تعطينا اكثر من صورة من الجو السيء الذي بدات تعرف به الحاشية اذ ذاك .

(٢) الدينوري : الاخبار الطوال ص ٤٠٥ ــ ٤٠٦ وهو يذكر أن ابن أبي دؤاد قال للمعتصم ، إن المنصور استشار أنصح الناس عنده في أمر أبي مسلم فأجابه بالآية الكريمة «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا» فقال المنصور لناصحه حسبك ... وعلق المعتصم على الحكاية قائلا : وانت أيضا حسبك !

(٣) الطبري ج٩ ص ١٠٦ ــ ١٠٧ (١٣٠٧/٣ ــ ١٣٠٨) .

يتسرب الشك إلى نفوس القواد الآخرين . لهـذا فهو يعقـد محكمة لمناظرته ، يرأسها الوزير محمد بن عبد الملك الزيات . وعضواها أحمد ابن داؤد القاضي واسحق بن ابراهيم صاحب الشرطة : وقصـة جلسة المحاكمة لا يفهم منها سوى انها مجموعـة من التهـم ، تجمعت لدى المعتصم ، ودلته على ان الافشين غير صحيح الاسلام . وانه كان يسعى للقضاء على سلطان العرب والمسلمين . وتتلخص هذه التهم في :

آ ــ ان الافشين جلد ألف جلـدة إمامـا ومؤذنا بنيا مسجدا في اشروسنة .

ب ــ وجد عنده كتاب محلى بالذهب والجوهر والديباج فيه كفر بالله ووجدت بعض الاصنام المزينة بالجوهر .

جـ ــ انه يأكل المخنوقة . لأنها أرطب لحما ، في رأيه من المذبوحة. ويقطع شاة سوداء كل اربعاء بالسيف ، ويمشي بين نصفيها . ويأكـل لحمهـا .

د ــ لم يختتن .

هـ ــ يكتب إليه أهل أشروسنة «إلى إله الآلهة من عبده فلان» .

و ــ اعترف الافشين لاحد الموابذة قائلا «اني دخلت لهؤلاء القوم (يعني العرب والمسلمين) في كل شيء أكرهه ، حتى أكلت لهم الزيت ، وركبت الجمل ، ولبست النعل . غير اني إلى هذه الغاية ...» .

ز ــ كتب أخو الافشين (خاش) إلى أخي المازيار (قوهيار) انـه لم يكن ينصر هذا «الدين الابيض» غيري وغيرك ، وغير بابـك ، فأما بابك فإنه بحمقه قتل نفسه . ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت فأبقى حمقه إلا أن دلاه فيه ... فإن خالفت ، لم يكن للقوم من يرمونك بـه غيري ومعي الفرسان وأهل النجدة والبأس فإن وجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة العرب ، والمغاربة ، والاتراك . والعربي بمنزلة الكلب

اطرح له كسرة واضرب رأسه بالدبوس وهؤلاء الذباب (المغاربة) إنما هم أكلة رأس وأولاد الشياطين (الأتراك) فإنما هي ساعة حتى تنفذ سامهم وتجول الخيل عليهم جولة فتأتي على آخرين •• ويعود الدين إلى ما لم يزل عليه أيام العجم[1] •••

وقد رد الافشين هذه التهم عن نفسه بقوة • وهاجم الشهود الذين شهدوا عليه ببعضها :

آ ــ اعترف الافشين بالتهمة الاولى وعللها بأن المؤذن والإمام حولا دار أصنام إلى مسجد خلافا للاتفاق الجاري مع ملوك الصغد •

ب ــ اعترف بالكتاب والاصنام • ولكنه قال إنه مما ورثته عن أبي ، وليس بي حاجة لجواهره فأبيعها • وفي الكتاب آداب الملوك ، التي أصبحت فيما بعد كفراً • وكنت أستمتع بالأدب وأدع الكفر •

ج ــ ينفي التهمة ويهاجم الموبذ الذي شهد عليه • ويقول : إنه غير مسلم لتصح شهادته على مسلم • ويلتفت إليه ، فيوبخه على قلة وفائه • وينفي أن يكون باستطاعته الاطلاع على أعمال الافشين ، في بيته :

د ــ لا ينفي ذلك ولكنه يعلله بأنه خاف على نفسه الاختتان • وأنه لم يعلم أن في تركه خروجا على الإسلام •

هـ ــ لا ينفي هذه التهمة التي شهد عليه بها المرزبان بن تركش

---

(١) انظر تفاصيل هذه التهم والمحاكمة لدى الطبري ج٩ ص ١٠٧ ــ ١١٠ (٣/١٣٠٨ ــ ١٣١٣) . ولنلاحظ أن هذا الكتاب لا يهاجم الأجناس من عرب ومغاربة وترك (والأفشين تركي) ولكنه يهاجم فرق الجيش التي كان يتألف منها الجيش العباسي اذ ذاك .

(احد ملوك الصغد) • ولكنه قال : كانت هذه عادة القوم لأبي ، وجدي ولي ، قبل أن أدخل الاسلام • فكرهت أن أضع نفسي دونهم ، فتفسد طاعتهم •

و ، ز ــ ينفي التهمة (و) ، ويقول في الاخيرة : ان المازيار يعترف ، على أخيه وأخي ، بتهمة لا تلزمني •

ويتضح من مجموع المحاكمة أن إسلام الأفشين كان سطحيا •وأن كره العرب وحكمهم ، كان أساس التفكير السياسي لديه ، ويذكر ابن خلكان أنه «كان يحسد أبا دلف العجلي (ولعله أشدالحسد) على العربية والشجاعة» حتى دبر له مكيدة كاد يقتله فيها لولا إسراع ابن أبي دؤاد في إنقاذه[1] ولعله لهذا فكر في التحالف مع الجماعات الايرانية الثائرة وأصحاب الدين الخرمي منها المتمردين • وهذا هــو التفسير الوحيد للكتاب الذي يذكر في المحاكمة أنه أرسل من أخي الأفشين إلــى أخي المازيار • ونص الكتاب على الشكل ورد فيه متهافت لا يثبت للنقد • فلم يكن الأفشين بالايراني ليهاجم الاتراك • وما كان ليهاجمهم وهو تركي الأصل منهم •

ثم إنه لم يكن على الدين الابيض والخرمية لينصرها مع أولئك ويغيدها •.ولا كان من الحمق أخيرا بحيث يستهين تلك الاستهانة بجيوش الدولة العباسية وهو يعرفها حق المعرفة •

ولعل قضية الأفشين تستبين على وجها إن نحن نقلناها من المستوى

---

(١) ابن خلكان ــ وفيات الأعيان ج١ ص ٨٢ (طبعة عباس) انظر تفاصيل القصة هناك .

الديني الذي وضعت فيه الى المستوى السياسي الذي نبعت في الأصل منه ، فالأفشين أمير تركي ، إمارته المتوارثة موجودة قائمة • ولم يكن في الأصل خرمي الدين بدليل ما وجد لديه من الأصنام المذهبة المحلاة بالجوهر وليس في ديانات إيران من اصنام وتماثيل وأما الكتب المزوقة التي وجدت عنده فذكروا أن فيها الكفر ولم يذكروا أنها من كتب المجوس أو مزدك المعروفة جيدا للناس يومذاك • وبين «الأشياء الكثيرة من الكتب» التي حملوها من منزله وجدوا كتابا واحدا فقط من كتب المجوس سماه الطبري باسمه زراوه[1] ••

إذن فللرجل إمارته وأهله ودينه التي لا علاقة لها بالايرانيين ومن هنا فقد كان يعمل لنفسه : كانت قيادته لجيوش المسلمين مغامرة كبرى كسب فيها الكثير • فلما اصطلح عليه غروره من جهة ووشايات الحاسدين من جهة أخرى واحس تغير المعتصم أخذ يجمع أمواله في بلاده ويهيء نفسه للهرب إليها • وكان مشروعه واضحا كل الوضوح في ذهنه ، يعمل على تقوية الثورات الايرانية الخرمية لتكون مع أصحابها سدا وحاجزا سياسيا عسكريا منيعا بين جيوش العباسيين وبين بلاده ويستقل بتلك البلاد •ولعل الكتب التي ترددت بينه وبين المازيار بشكل غير مباشر إنما كان هذا موضوعها : التحالف لتقوم الخرمية في أرض العجم فترتاح اشروسنة وما وراء النهر من السيطرة العربية والتغلغل الاسلامي فيها وينسحب العرب والاسلام من هناك فيخلو الميدان كي يقيم الأفشين هناك نظامه الخاص • وقد كانت خطته في هذه الناحية من الوضوح بحيث كان فيها مكان للخزر أيضا يمر ببلادهم وهو هارب فيتحالف معهم ويستميلهم

---

(١) الطبري ج٩ ص ١١٤ (١٣١٨/٣) .

على أهل الاسلام لتكون الجبهة مثلثة تمتد مما وراء النهر الى طبرستان والجبال الى الخزر فلا يستطيع آل طاهر في خراسان دفع هـذا الطوق الخانق عنهم كما لا يستطيع خلفـاء بغداد أمام خطـر الخزر والدولة الطبرستانية المتحالفة معهم أن ينجدوا جماعة خراسان • ولعل جانبا من مخطط الافشين قد انهار بانهيار ثورة المازيار فأراد التعويض عنها بثورة منكجور ، شقيق زوجته والتمكين له هناك •

ومن الأرجح أن المعتصم وأصحابه قد أدركوا هذا المخطط الواسع ولعلهم قدروا أنه ليس من مصلحة الدولة إقامة محاكمـة للأفشين على أساسه ما دام إمكان الاتهام الديني موجودا وذلك لئلا تتشجع الكثير من الرؤوس الخراسانية أو التركية وهـي تملأ الجيش والولايات على التفكير بمثله ولا يقوم به خاصة لا ابناء طاهر في خراسـان ولا قواد الجيش الكبار كأشناس وسيما وايتاخ وامثالهم في سامراء •

على أي حال ، فقد رد الافشين إلى سجن بني خصيصا لـه بعد المحاكمة ، في قصر الجوسق ، مرتفعا شبيها بالمنارة • جعل له في وسطها ، قدر مجلسه ، والحراس عليه • وقدأماته المعتصم جوعا ، إذ أمـر بسنع الطعام عنه إلا القليل ، فكان يدفع اليه ، في كل يوم ، رغيف خبز[1] ، حتى مات (شعبان سنة ٢٢٦ هـ شباط سنة ٨٥١) فهـل خشي المعتصم قتله ؟ أم تورع عن ذلك ؟ لنلاحظ أنه أعطى المصير نفسـه للعباس بن المأمون وللقواد الذين تآمروا معه ضده • على أن جثة الأفشين أخرجت بعد ذلك فصلبت ليراها الناس و«أحضرت أصنـام زعمـوا كما قال

---

(١) المصدر نفسه .

المسعودي ــ أنها كانت حملت إليه فألقيت عليه وأضرمت النار فأتت على الجميع ..»[1] ثم طرح الرماد في دجله ! .

ثانياً : ثورات العلويين :

لم تعرف هذه الفترة (٢١٨ ــ ٢٤٧ هـ) من ثـورات العلويين ، سوى ثورة واحدة ، جرت في أوائلها ، وكانت تحمل صفات الثـورات العلوية الأولى . بينما كانت الدعوة العلوية تأخذ مجاري سرية أخرى سيتمخض عنها ، في العصر العباسي الثاني ، حركات انقلابيـة خطرة : ففي سنة ٢١٩ هـ ثار بعض الزيدية الجارودية[2] وهم « الذين يرون ان الإمامة شورى ، في ولد الحسن والحسين . فمن خرج منهـم شاهراً سيفه ، يدعو إلى سبيل ربه ، وكان عالما عارفا ، فهو الأمام»[3] والامام الذي ثار بهم هذه المرة هو : محمد بن القاسم (ابن علي بن عمر بن علي ابن الحسن بن علي بن أبي طالب) وكان زاهدا يسكن الكوفة ، ويظهر انه كان متأثرا ببعض رأي المعتزلة ، في القول بالعدل والتوحيد[4]. وقد هرب خوف بطش المعتصم ، إلى خراسان .

وتنقل في كورها ، كمرو ، وسرخس ، وابيورد ، والطالقان ، داعيا

---

(١) المسعودي مروج الذهب ج ٤ ص ٦٢ وانظر الطبري في الصفحة السابقة .

(٢) الزيدية ينسبون الى قولهم بامامة زيد بن علي وهم فرق عديدة منها الجارودية المنسوبة الى زياد بن المنذر من غلاة الشيعة وكان يعرف بأبي الجارود ويدعي الانتساب الى زيد . وقد توفي سنة ١٠٥ .

(٣) الأشعري : مقالات الاسلاميين ج١ ص ٦٧ .

(٤) انظر الاصبهاني مقاتل الطالبيين ص٥٧٨

إلى الرضا من آل محمد • فتبعه خلق كثير • ولكنه لم يكن أهلا لتنظيم الدعوة ، فلم تكن حركته خطرة • واستطاع عبد الله بن طاهر بعد وقعات عديدة معه أن يهزمه مع أصحابه • وكان هاربا ليلتجيء عند بعض انصاره حين كشف أمره فاستطاع أن يقبض عليه ، في الطالقان ، ويبعث به إلى السجن بسامراء ••• وكان ذلك آخر العهد به •• قالوا إنه هرب وجعل لمن يدل عليه مائة ألف درهم فلم يعرف له خبر • وقالوا إنه سم • أما أصحابه فظلوا يؤمنون بحياته ، وعودته المقبلة ، وانتظاره • وقد عرف المسعودي المؤرخ خلقا كثيرا من هؤلاء الزيدية المنتظرين لظهور محمد ابن القاسم في أواسط القرن الرابع الهجري المؤمنين أنه المهدي المنتظر واكثرهم بناحية الكوفة وجبال طبرستان والديلم وكثير من كور خراسان[١] •• ويعلق المسعودي على ذلك قائلا: «وقول هؤلاء في محمد ابن القاسم نحو من قول رافضة الكيسانية في محمد بن الحنفية ونحو من قول الواقفية في موسى بن موسى بن جعفر وهم المطورة • بهذا تعرف هذه الطائفة من بين فرق الشيعة •••» •••

وهدأت الحركة الزيدية بعد ابن القاسم فمضى عهد المعتصم والواثق بعد ذلك دون حركة علوية • فلما جاء المتوكل بمعاملته السيئة للعلويين قامت عليه عدة ثورات صغرى قاد معظمها الزيدية فمنهم من سجن ومنهم من قتل[٢] وقد ذكر الطبري من هؤلاء الثائرين يحيى بن عمر[٣] ••

---

(١) انظر المسعودي – مروج الذهب ج٤ ص ٢٥٢ – ٥٣ وانظر الطبري ٩ ص ٧–٨ (٣/١١٦٥ – ٢٦٦
(٢) الاصبهاني – مقاتل الطالبيين ص ٦٠٠ وما بعدها .
(٣) الطبري ج٩ ص ١٨٢ (١٤٠٤) على أن الطبري يعود بعد ذلك (ج٩ ص ٢٦٦) فيناقض الخبر عنه بجمع الجموع ويشير الى ان سجن

أما الجماعة الإمامية فظلت على عهدها المسالم أيضا . وقد استراب المتوكل بعلي بن محمد (الإمام الهادي) فجاء من المدينة الى سامراء فأنزله فيها تحت رقابته خوفا منه ومن اولئك الذين يقولون إنه الامام.ويقولون إنه استراب به كرة أخرى في سامراء إذ قيل له إن في منزله سلاحا وكتبا من شيعته فلما فاجأه الجند وجدوه يصلي ولا شيء عنده ! فأكرمه المتوكل رغم بغضه للعلويين وأمره بهدم قبر الحسين وأن يحرث ويبذر ويسقى ويمنع الناس من إتيانه ...

وليس يعني هذا السكوت أن الحركة العلوية انتهت ولكنه كان يعني ما هو أخطر بكثير : أنها أخذت سبيلها في السر سربا . وبدأت تيارات وأفكار ومطامح شتى تدخل إلى فرق الشيعة المختلفة وتلبس اللبوس العلوي وإذا تمخضت هذه الفترة الهادئة عن ثورة زيدية قادها سنة ٢٥٠ الحسن بن زيد العلوي (حفيد الإمام زيد) فقامت على أثرها الدولة العلوية في طبرستان فإن الفرق الشيعية الأخرى قد تمخضت عن حركات أعمق سرا وفلسفة وأطول بكثير عمراً . ففي تلك الفترة ، أيام علي الهادي ظهر محمد بن نصير النميري الذي أسس المذهب النصيري القائل بالغلو وتأليه الائمة فما تزال شيعتة قائمة الى اليوم وفيها أيضا تكونت النواة الأولى للمذهب الفاطمي الباطني (السبعي) والمذهب القرمطي التي لعبت اخطر الأدوار في التاريخ الاسلامي .

ثالثاً : ثورات الخوارج :

إذا تركنا جانبا دولتي الخوارج اللتين ظهرتا منذ عهد المنصور

يحيى كان لخلاف مع المسؤولين عن الطالبيين ، وقد خرج يحيى هنا بالفعل بعد ذلك سنة ٢٥٠ في الكوفة ثائرا او قتل .

والرشيد في افريقية وفي عمان ، فإنا لا نكاد نجد لهم حركة هامة بعد عهد المأمون •••

فأما مباءتهم الكبيرة التقليدية في الجزيرة فقد سجلت ثورة ضعيفة أخيرة : يقول اليعقوبي «خرج محمد بن عمرو الشيباني بديار ربيعة ، وابو سعيد محمد بن يوسف بها • فخرج إليه مع الجند ، ومحمد بن عمرو في ثلاث مائة أو أربع مائة من الخوارج • فصار إلى سنجار • ثم انهزم الى ناحية الموصل ، فتبعه ابو سعيد فأسره • وأدخله نصيبين على بقرة • وحمله إلى الواثق • فكتب إليه : ماينبغي أن يقتل • فإنه لن يخرج خارجي ما دام حيا • فلم يزل محبوسا أيام الواثق[1] •

وأما في سجستان ونواحي هراة فقد كان الخوارج يفقدون بالتدريج سيطرتهم على بقاعها المختلفة ويتحولون الى ما يشبه الجزر السياسية المحاصرة في بعض البلاد أو الحصون وذلك تحت ضغط المطوعة من جهة والولاة العباسيين من جهة ثانية والقوة الثالثة النامية مع أولاد الصفار من جهة ثالثة • وقد قضى على الجزر الخارجية واحدة واحدة • وبقي منها الى حوالي سنة ٢٦٠ نظام خارجي يقوده قائد يدعى عبد الرحمن ظل يتسمى بالإمامة ثلاثين سنة في هراة حتى قتله يعقوب الصفار وأرسل رأسه على سنان رمح الى الخليفة الموفق في سامراء رجاء أن يشفع له هذا العمل بقبول الخليفة فتحه لخراسان وإزالة بني طاهر منها[2] •

---

(١) اليعقوبي ج٢ ص ٤٨٣ •

(٢) انظر الطبري ٩ص٥٠٧ (١٨٨١/٣ — ١٨٨٢) والعيون والحدائق (ج٤/١) ص ٧١ — ٧٢ •

وإذا لم ينجح الخوارج في إقامة دولة لهم بسجستان فقد نجح آل الصفار في ذلك وحققوا بالفعل استقلالا محليا ذاتيا تنهيأ أسبابـه قبل ذلك بأكثر من نصف قرن في تلك المنطقة لا سيما وقد سبقهم الى ذلك آل طاهر بالاستقلال الذاتي في خراسان ...

٢ ـ ثورات الاقليم :

وهي ثورات أقليمية محدودة . دفع إليها الظلم أحيانا ، وشجع عليها ضعف المركز ، أو الحقد على العصبية التركية . وقـد كانت تمهيـدا للحركات الانفصالية القريبة . ويمكن أن تحصر اماكن هذه الثـورات تقريبا فيما بين ارمينية إلى الشام ، إلى الحجاز ونجد ، وامتـد بعضها لشمالي افريقية . وقد كان معظمها في عهد الواثق .

اولا ـ ثورات ارمينية :

يظهر أن وعورة تلك المنطقة الجبلية التي تمتد ما بين الموصل إلى أطراف قزوين من جهة ، والبحر الاسود من جهة أخـرى ، كان يسمح بكثير من الاضطراب لأخلاط السكان التي كانت تملؤها : فهناك عناصر فارسية هزمت يوم هزم بابك ، وعناصر كردية وأرمينية ، ضعيفة الولاء للدولة ، وبعضها (كالأرمن) كان قسم منهم يسكن أرض بيزنطة ، كما سكنت المنطقة عناصر عربية من بني ربيعة ، وتغلب ، وشيبان خاصة ، وكان معظمهم خارجيا . وهذا ما يفسر لحد ما تكرار الحركات الثورية هناك وتعقدها .

ونستطيع أن نفهم أحداث المنطقة إذا تذكرنا أنه كان ثمة فيها ، كما

في معظم مناطق التخوم في الدولة العباسية سلطتان قائمتان دوما : سلطة الوالي العباسي وسلطة الأمراء (البطارقـة) المحليين • وإذا كان الولاة العباسيون قائمة طويلة تتبدل الاسماء فيها حسب الظروف باستمرار فإن الأمراء المحليين كانوا يشكلون أسرا حاكمة تتوارث الحكم • وإذا كان للوالي الاسلامي عماله الذين يهتمون بجمع الخراج كما يهتم هو بإقرار الأمن وطرق التجارة وحماية المسلمين والحرية الدينية فإن الآخرين كانوا نوعا من السلطات الاقطاعية التي تملك مع الكنيسة الأرمنية التي يرأسها الكاثوليكوس (الجاثليق) معظم الأراضي • وقد دخـل مـع هؤلاء الاقطاعيين القدماء نزلاء جدد من العرب أقطعت لهم الأراضي بدورهم وأصبحوا في معظمهم اقطاعية زراعية جديدة وإن اشتغل بعضهم بالتجارة وقد استطاع بعض هؤلاء النزلاء العرب أن يتوطنوا في البلاد للدرجة التي تزوجوا منها وبرز منهم كذلك أسر حاكمة «وراثية» في بعض المناطق ، تحت ظل الوالي الاسلامي أحيانا أو على الكره منه أحيانا أخرى •

وأبرز الأسر الأرمنية المحلية كانت أسرة بغرتوني Bagratouni (أو البقارطة) وكان لها فرعان واحد يحكم في منطقة جورجيـا ولـه بعض الاستقلال والآخر في منطقة ارمينية وهو اكثر اتصالا من الناحية الجغرافية (الأرض) والسياسية(الحكم)مع العباسيين وأماالأسرة الأخرى التي كانت تزاحمها أشد المزاحمة حتى مطالع العهد العباسي وهي أسرة الماميقون (أو أسرة ماميكونيان) فإنا سوف نرى أفولها في هـذه الفترة الأخيرة من العصر العباسي الأول وغياب آخر ممثل لها عن أرمينية • وليس ثمة عدا هذا سوى أسر صغيرة محدودة الاقطاع والجاه مثل أسرة أرزروني بطارقة منطقة فاسبوراكان (ويسميها العرب البسفرجان) ثم أمراء

سيسكان (ويسميها العرب السيسجان) وأما من الأمراء العرب المحليين فكان هناك خاصة : اسرة شعيب (مولى الأمويين) في منطقة جرزان •

وإذا شهدت الفترة الماضية ، في عصر المنصـور ، سحق القوى الاقطاعية الأرمنية في معظمها في معركة بغريفاند سنة ٧٧٢ التي تحالفت فيها الاسرتان الكبريان : المامیكوني والبقارطة وقتل كبيراهما فيها فإن الفترة الأخيرة من العصر العباسي الأول سـوف تشهـد بجانب غياب المامیكونيين صعود نجم البقارطة وتحولهم تحولا متقطع ولكنه مستمر الى أسرة مالكة ، رغم العداء الدائم بينهم وبين العباسيين وربمـا بسبب هذا العداء نفسه وقد كادت هذه الأسرة تسحق أكثر من مرة سواء بحسد الامراء الآخرين أو تحت السنابك العباسية ولكنها خرجت من أزماتها ، أكثر قوة وعرفت لاسيما بعد عهد أميرها آشوط المعروف بالجزار عهدا من التألق والسمعة جعل الخليفة العباسي يمنح زعيمها أولا لقب امير الأمراء ثم لقب ملك • وقد دعم مركزها السياسي والعسكري وقوف الكنيسة الأرمنية دينيا بجانبها وكان مقر الكنيسة في أملاك هذه الأسرة في بلدة دوين (دبيل) ••

وقصة العلاقات العباسية الارمنية في هـذه الفترة هي لحد كبير قصة ظهور مملكة آرمنية على الحدود الاسلامية المتصلة بالخزر من جهة وبالروم من جهة أخرى بزعامة الفرع الارمني من البقارطة ، ولكنهـا تؤدي الإتاوة السنوية لخلفاء سامراء وبغداد ••• ولعله مما يفيد أن نبدأ القصة من الجانب العربي ومن عهد المأمون • فقد كانت ثورة بابك في الجبال واذربيجان فرصة لعدد من العرب كي يثوروا ولأمراء ارمينية كي يوطدوا مراكزهم •

ثار فيها أولا على المأمون رافضا بيعته عبـد الملك بن الجحاف

السلمي وحاصر واليه حتى حل المشكلة وال جديد أعطى عبد الملك الأمان . ثم تمرد حاتم بن هرثمة وكان واليا للمأمون فلما سمع قتله لأبيه هرثمة بن أعين خلع وكاتب البطارقة ووجوه ارمينية وكاتب بابك والخرمية وهون أمر المسلمين عندهم .. وهزم أكثر من جيش أرسله المأمون ضده ، ثم عصى سوادة بن عبد الحميد الحجافي (من أسرة شعيب) ... وعصى غيره ... وكاد الأمر يستتب مرة لمحمد بن حميد الطوسي لولا أن بابك ظفر به في بعض المضائق فقتله وعادت أرمينية الى الفوضى سنة ٢١٤ ... حتى عين المأمون خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني وكاد الرجل مرة أخرى يضبط الأمور بالرغم من أن عددا من الثائرين كانوا قد تحالفوا مع الأرمن (الصنارية) لولا أنه خلطهم بنفسه فأفسدهم[1] . وجرأهم ...

وفشل والي المأمون ثم المعتصم من بعده وهو الحسن بن علي الباذغيسي (ويعرف بالماموني) في إقرار السلام في المنطقة لأنه أهمل البطارقة ووجوه العرب ولان لهم فازدادوا كلبا على من يليهم من الرعية وفسادا .. وجعل المعتصم ولاية أرمينية من حصة الأفشين ولكن الولاة الذين أنابهم عنه فيها (محمد بن سليمان) الازدي السمرقندي ، ثم محمد ابن خالد تجار خذاه ثم علي بن الحسين بن سباع القيسي) فشلوا جميعا في تهدئتها .. فوثب الأرمن ببعضهم واستضعف الناس بعضهم الآخر للدرجة التي سموا بها القيسي : اليتيم . ثم إنهم اتفقوا عليه وتجمعوا من حصونهم فحاصروه في مركز الولاية : برذعة[2] .

---

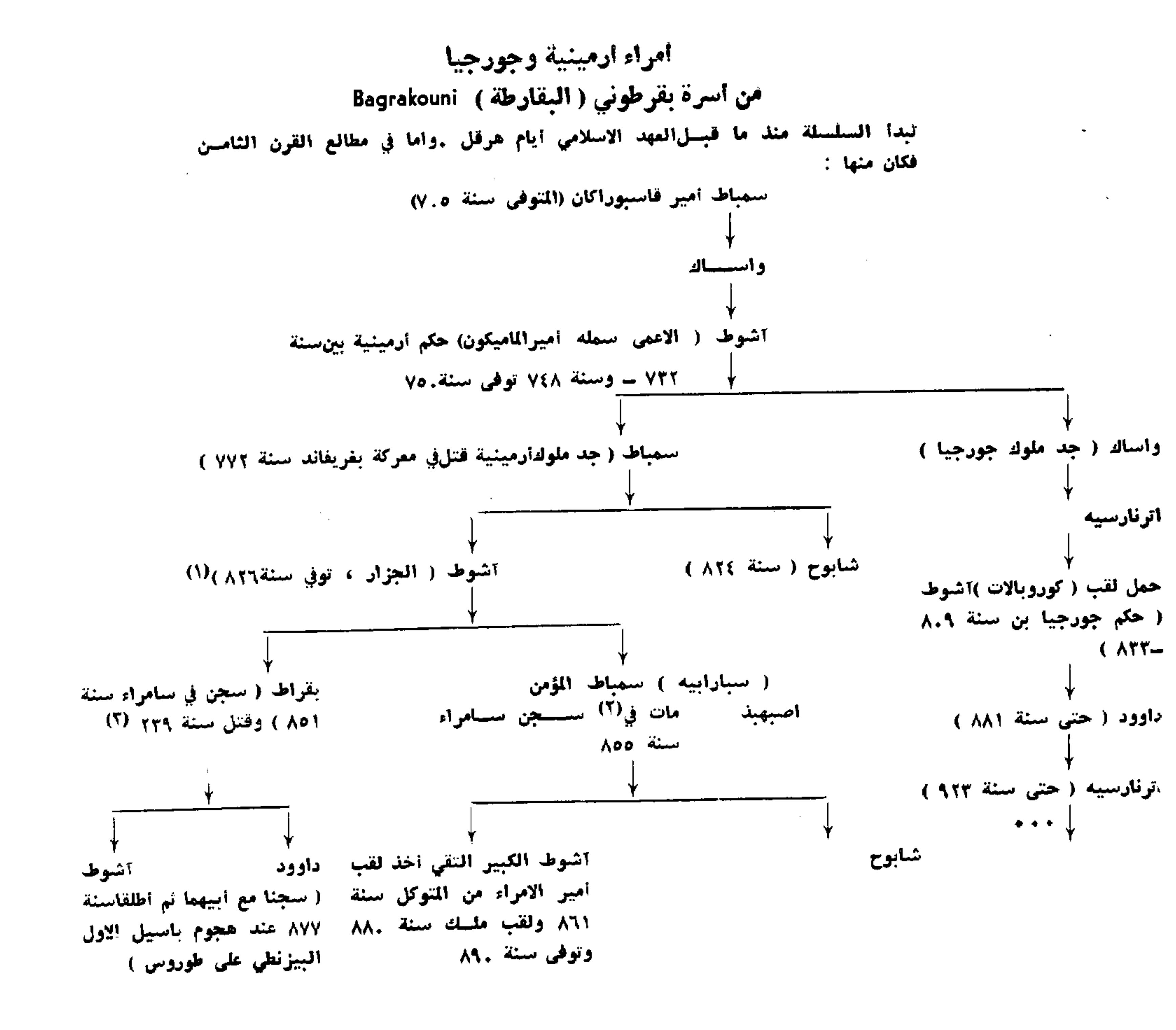
(١) انظر في تفاصيل هذا كله اليعقوبي ج٢ ص ٤٦١ – ٤٦٤ والبلاذري فتوح ص ٢٤٧ – ٢٤٨ .

(٢) انظر فارطان – تاريخ الحكم العربي في ارمينية (بالفرنسية) ص ١١٨ وقد اعتمدنا عليه وعلى غيره في تنظيم شجرة أسرة البقارطة .

أمراء ارمينية وجورجيا

من أسرة بقرطوني (البقارطة) Bagrakouni

تبدأ السلسلة منذ ما قبل العهد الاسلامي أيام هرقل .واما في مطالع القرن الثامن فكان منها :



لكن هؤلاء المتغلبين والأمراء لم يكونوا يحاربون السلطة العباسية فقط ولكن كانوا يقتتلون فيما بينهم أيضا : عربا مع عرب أحيانا وعربا ضد أرمن أحيانا أخرى • ومن أبرز الاصطدامات تلك التي وقعت ما بين سوادة الجحافي وبين الأخوين الارمنيين آشوط الجزار وشابوح زمن المأمون حوالي سنة ٨٢٣ـ٨٢٤ وقتل فيها الأخير(١) •

ثم انتفضت أرمينية كرة ثالثة ، زمن الواثق : تحرك بها ــ على قول

---

(١) انظر التفاصيل لدى اليعقوبي ج٢ ص ٤٧٥ ويذكر البلاذري (فتوح ص٢٤٨) أن سهل بن سنباط البطريق وثب بعامل الأفشين على أرمينية فنجابحشاشة نفسه وقتل كاتبه . وقد سمعنا قبل ذلك في ثورة بابك باسم سهل بن سنباط هذا وانه هو الذي قبض على بابك في ارمينية سنة ٨٣٧ وسلمه إلى الأفشين وكوفيء على ذلك بتاج البطرقة ومليون درهم . لم يرد في التواريخ الأرمنية اسم هذا والى أي عائلة ينتسب بين البطارقة . واقرب الاسماء الى هذا الاسم هو شابوح فهلهو ياترى الأمير شابوح شقيق سمباط الكبير ؟

← (١) تذكر المصادر الارمنية ان العرب هم الذين لقبوا آشوط بن سمباط هذا باسم مساكر Msaker وقالوا إنها تعني السفاح أو الذباح لكثرة ما قتل من العرب ولم نجد كلمة عربية قريبة منها في اللفظ وتحمل هذا المعنى فاخترنا ترجمتها بكلمة الجزار .

(٢) هذا اللقب الذي حمله سمباط وهو لقب سبارابيه هو في الأصل اللقب الفارسي الطبرستاني اصبهبذ . وتحرفة المصادر الأرمنية على هذا الشكل .

(٣) يبدو انه قتل في سامراء سنة ٢٣٩ فهو صاحب الصنارية الذي ذكر الطبري (ج٩ ص ١٩٦) انه قتل هذه السنة ولعل السبب هو محاولة الضغط على الثورة التي عادت فبرزت ، أرمينية بعد الضربات الساحقة التي وجهها إليها بغا .

اليعقوبي[1] ــ قوم من العرب والبطارقة (الارمن) والمتغلبين «وتغلب ملوك الجبال والباب والابواب ، على ما يليهم ،وضعف أمر السلطان..»
وقد وجه الواثق خالد بن يزيد بن مزيد اليهم فاستطاعت هيبته أن ترد إلى الطاعة معظم المنطقة . إلا أن وفاته عادت بالبلد «إلى أقبح أحواله» فتولى الأمر ابنه محمد . واستطاع ان يضرب ويحبس ، ويحرق الدور في نصيبين ، التي كانت على ما يظهر من أهم مراكز الثـورة . وهزم صاحبها اسحق بن اسماعيل الأموي ، ففر إلى تفليس . فلحقه ولحق الأرمن الصنارية بالقتال حتى هدأت البلاد ...

غير أن الاضطراب عاد على أشده ، في عهد المتوكل . وتزعم الارمن بقراط بن آشوط الجزار الذي «كان يقال له بطريق البطارقـة» وعزم على الانفصال . فأرسل إليه المتوكل سنة ٢٣٤ يوسف بن محمد المروزي فكاتب البطارقة . فأجابه بعضهم . وخرج إليه بقراط نفسه بالامان . فحمله ، مع ابنه داوود وآشوط ، إلى المتوكل ويظهر أن القائد العباسي خالف بهذا شرط الامان كما أخطأ بعض عماله فنهب ديرا تعظمه الأرمن يعرف بدير الاقداح فكان ذلك سبب ثورة شاملـة إذ اجتمع البطارقة مع سمباط شقيق بقراط ، وهاجموا ذلك القائد في الشتاء الثقيل والثلوج وقد فرق اصحابه في القرى فقتلوه واحتووا على ما كان في عسكره[2] . وأما من معه فقد أمروهم أن ينجوا إذا شاؤوا عراة حفاة . فمات اكثرهم من البرد وسقطت أصابع قوم منهم ...

---

(١) اليعقوبي ج٢ ص ٤٨١ .
(٢) البلاذري ــ فتوح البلدان ص ٢٤٨ واليعقوبي ج٢ ٤٨٩ وانظر الطبري ج٩ ــ ١٨٧ (١٤٠٨/٣ــ١٠) .

وقد كانت هذه الثورة من أعظم وأخطر الثورات التي عرفتها أرمينية ضد الحكم العباسي بسبب شمولها للمنطقة كلها واتفاق كلمة الأمراء الأرمن كافة عليها ، واجتماع بعض القوى العربية أيضا معهم ، وهذا ما يوحي بأن الثورة لا تحمل الطابع الديني أو العنصري وأن جذورها في الواقع اقتصادية مادية قد مست بضرائها كافة السكان . ويبدو أن تبذير المتوكل في النفقات جعله يلح في طلب "الأموال والخراج من الولاة مما أثار في ارمينية حفيظة الناس ودعا الى تمرد بقراط بن آشوط فلما أرسل إلى سامراء أفلتت سلسلة التذمر والاستياء لدى الجميع .. وقد وافق الأمراء الأرمن على الثورة موسى بن زرارة وهو صهر بقراط . وأنذر سوادة الجحافي يوسف والي المتوكل بما يدبر له فلم يأبه فقتل في الثلوج وقتل أمراء الأرمن كافة من لديهم من أصحابه في يوم واحد ...

وعند هذا الحد اضطر المتوكل أن يعقد لأعظم قواده : بغا الكبير على أرمينية سنة ٢٣٧ ـ ٨٥١ فسار بالجند العباسي الكثيف إليها . فأتاه بالأمان أولا بعض الثائرين .. كموسى بن زرارة (صاحب بدليس) وآشوط بن حمزة[١] (صاحب الباق) فحملا إلى المتوكل ، وقتلا . بينما فتح بغا معقل البطارقة من آل بقرطوني وقتل منهم ثلاثين الفا . وسبى منهم خلقا كبيرا باعهم في أرمينية ثم أسر بالحيلة سمباط[٢] شقيق بقراط

(١) هكذا يسمى في المصادر العربية وأصل الاسم آشوط بن حمزاسب وهو أمير أسرة أرزروني .
(٢) هو المعروف باسم سمباط المعترف أو المؤمن وكان يحمل لقب سباراپيه اي الاصبهبذ وقد مات في سجن سامراء سنة ٨٥٥ وابنه هو الذي ولي الإمارة بعده وعرف باسم آشوط الكبير لأنه أول من حمل لقب الملكية من هذه الأسرة .

فألحقه بالسجناء ... أما إسحق بن اسماعيل في تفليس ، فرفض المجيء بالأمان ، فحاصره بغا ، ورماه بالمجانيق والحريق ، حتى مات من أصحابه حوالي خمسين وقتله ، وبعث برأسه ، إلى سامراء . كانت مسيرة بغا في ارمينية مجزرة واسعة إذا انتهت قوافل أسراها في أسواق النخاسة فقد سيق امراؤها في القيود حتى سامراء . ولم يستدع المتوكل جيشه من أرمينية بعد ذلك إلا حين اضطره الى ذلك هجوم بيزنطي جاء على الثغور وفتنة واسعة دبرها الروم هناك . ولهذا يظهر المتوكل في التواريخ الأرمينية في صورة نيرون الفترة العربية(١) .

على أن الهاربين من زعماء المنطقة حاولوا تحويل المشكلة الى قضية دولية ، ولعلهم أعطوها شكل الصراع الديني من أجل ذلك فقد كتبوا الى صاحب الروم ، والى صاحب الخزر والى صاحب الصقالبة (روسيا). ويبدو أن نوعا من العون قد تلقوه بنتيجة هذه المكاتبات وإن كنا لا نعلم بالضبط ماذا كانت مواقف هذه القوى المختلفة منها . على أننا نجد الثائرين قد استعادوا حركتهم رغم ذلك «واجتمعوا في خلق عظيم» لاشك أن بغا الكبير أخذته الخشية منه حتى كتب يطلب النجدة من المتوكل . ولعلهم اضطروه الى بعض التراجع قبل أن تصل النجدة بقيادة محمد بن خالد بن يزيد الشيباني الذي جعل كفة الجند العباسي هي الراجحة فسكن المتحركون ولم يلقهم الشيباني بالقمع ولكن حدد لهم الأمان(٢) .

---

(١) يقدمه خاصة توماس أرزروني المؤرخ الارمني من القرن العاشر في أشد الالوان ظلمة وقسوة ويستلهم في تصويره صورة يزجرد الثاني ملك الفرس كما صورها المؤرخ البزنطي إليزه في القرن الخامس . (انظر فارطان ــ تاريخ الحكم العربي ص ١٢٢ بالفرنسية) .

(٢) اليعقوبي ج٢ ص ٤٩٠ .

فهدأت المنطقة وبنى فيها بغا مدينة كانت مخربة اسمها شمكور فأسكنها قوما خرجوا إليه من الخزر مستأمنين راغبين في الاسلام ونقل إليها التجار من بلدة براعة وسماها المتوكلية[1] ..

ثم انسحب بغا سنة ٢٤١ – ٨٥٥ وأضحى محمد بن خالد هو الوالي فيها فاستطاع قيادتها في هدوء حتى إذا وليها من بعده علي بن يحيى خطا خطوة هامة في طريق التسوية مع البطارقة زعماء الأرمن إذ اتفق مع الخليفة المتوكل فأطلق بعض الأمراء الأسرى ومنح الأمير آشوط بن سمباط سنة ٢٤٧–٨٦١ لقب أمير الأمراء في أرمينية ! واستطاع هذا الأمير الذي حمل لدى مؤرخي بلاده لقب الكبير والتقى أن يجتذب رعاياه والأمراء المحليين الآخرين فيخضعوا له وأن يحسن علاقته مع الخلافة بمداومة الاتاوة وحسن العمل حتى لبى الخليفة المعتمد طلب هؤلاء الأمراء أنفسهم فمنحه سنة ٢٧٣ – ٨٨٥ لقب ملك ونال مثل هذا التكريم من امبراطور الروم وعقد معه حلفا[2] .. وقامت بهذا الشكل مملكة ارمينيا التي توالى عليها أولاده بعد موته سنة ٢٧٨ –٨٩٠

وقد ساعد هذه المملكة الأرمنية على النمو الواسع وعلى أن تبلغ درجة كبيرة من الثراء والرخاء أنها قامت بدور العازل بين دولتين كبيرتين (العباسية والبيزنطية) وكانت طريق التجارة العالمية القادمة من العراق وفارس وممرها الوحيد الى الميناء البيزنطي : طرابزون ميناء التبادل الوحيد مع بيزنطة الذي كان يحتكر وحده وبأمر القسطنطينية تجارة المشرق مع بيزنطة والغرب .

---

(١) البلاذري – فتوح ص ٢٤٠ .
(٢) انظر الموسوعة الاسلامية مادة ارمينية ج١ ص ٦٤٥ – ٦٤٦ – من الترجمة العربية .

ثانياً ـ في أذربيجان

يبدو أن كثرة ظهور الثوار في المنطقة الشرقية من الدولـة ما بين سجستان وخراسان الى أرمينية شجعت بعض المغامرين علـى أن يجربوا حظوظهم أيضا • ولذلك نجد أن السلسلة تتصل أحيانا ببعض الحلقات الغريبة التي ما جاء بها الى المجال السياسي سوى المغامرة ومن هذا النوع ثورة من يسمى بمحمد بن البعيث في اذربيجان وإنما نذكرها كنموذج لأمثالها من حركات المغامرة •

والرجل في الأصل أديب شاعر بالفارسية له أخبار واحاديث ـ فيما يذكر الطبري ـ لكنه لا يملك من الخلفية السياسية سوى الشجاعة والمغامرة وكان أبوه صعلوكا من صعاليك رجل يدعى الوجناء بن الرواد يملك قلعة حصينة بأذربيجان تدعى شاهي ويتبعها تبريز فأخذها ابن البعيث من صاحبها وامتنع بها فلما قامت ثورة بابك صالحه وصار يستضيف رجاله إن مروا به حتى إذا أنسواله قبض مـرة على زعيـم منهم فأرسله الى المعتصم[1] يرجو عنده الزلفى • وتوسعت دائرة سلطانه فصارت بلدة مرند وحصنها مركزا له •

وقد شهد ابن البعيث انهيار بابك بجواره ثم شهد انهيار ثورة في اذربيجان نفسها سنة ٢٢٤ قام بها منكجور شقيق زوجة الأفشين بدعم خفي من الافشين نفسه وكان في المنطقة من الصعاليك ما يكفي في العدد لدعم منكجور ـ ولكن أصحابه أسلموه للقائد العباسي الذي جاء له• ولهذا لم يكن ابن البعيث ليفكر في التمرد بعد أن رأى الى الرؤوس الكبيرة تطير • ولكنه اصطدم مع عامل اذربيجان : حمدويه بن علي ثم اقتتلا فقبض عليه وحمله الى باب المتوكل سنة ٢٣٤ وقد استطاع ابن البعيث عند الخليفة أن يتهم العامل بسرقة الأموال وأن يتسبب بضربه

(١) انظر الطبري ج٩ ص ١٢ (١١٧٢/٣) •

وأخذه بالأموال وإلقائه في السجن بدلا منه ... لكنه هو نفسه وضع في نوع من الإقامة الجبرية بسامراء . واختفى بعد شهور وإذا به يظهر في بلدة مرند ...» «وجمع إليه من كان بناحيته من الصعاليك وبعضهم من ربيعة وغيرها حتى بقوا نحـوا من الفين ومائتي رجـل .. وأظهر المعصية والخلاف . فأطلق الخليفة حمدويه من السجن لقتاله . ولكنه قتل وهو يحاصره ثم وجه اليه المتوكل جيشا آخر ، فلم يفز ، حتى حاربه بغا الصغير المعروف بالشرابي ،فاستنزل أصحابه أولا بما حمل لهم من الأمان حتى دلوا أنفسهم بالحبال من الحصن ثم استطاع أسره ، وحمله إلى سامراء ... وطافوا به هناك على الجمال . وقد أنقذه من النطع ، عند المتوكل شعره وأدبه ويقال إن المعتز ابن المتوكل شفع فيه ولكنه مات في السجن في السنة نفسها سنة ٢٣٥ بينما أدخل أولاده في فرق الشاكرية وجعلت لهم الانزال ..

ثالثاً ــ ثورات الشام :

استمرت الشام مهملة من بني العباس ، متروكة لعصبياتها الذابحة ، ولأملها بالسفياني المنتظر . فكثرت ثوراتها ، لا سيما في حمص ودمشق وقنسرين واشتركت بها على نطاق واسع المجموعات البدوية غير أنـا نلاحظ أنه بجانب ثورة بعض المجموعات المسيحية في لبنان التي قد يكون لها اتصال ببيزنطة ، فإن بعض المسيحيين في الداخـل وبحمص خاصة يشاركون السكان الآخرين ثورتهم . ويتابعون العمل معهم ، رغم مايلقيهم من أذى شديد . وهذا يدل على أن بعض الثورات في الشـام ، كانت نتيجة سوء السياسة العباسية ، وظلم الولاة . ويظهر من ارسال المتوكل، صاحب ديوان الخراج سنة ٢٤٠ هـ (أي سنة الثـورات الكبيرة) إلى

(٢) انظر اليعقوبي ج٢ ص ٤٨٦ وانظر الطبري ج٩ ص١٦٤ ــ ١٦٦ ثم ص ١٧٠ ــ ١٧١ (٣/١٣٧٩ــ١٣٨٢ ثم ٣/١٣٨٧ــ١٣٨٩) .

الشام ، «لتعديل ارض دمشق والاردن ، وتحميل كل أرض ما تستحقه»[1] ، ان سوء توزيع الضريبة والخراج كان يساهم في إضرام النقمة على بني العباس • «وأن البلد كان يحتاج أن يعدل» كما قالوا في عاصمة الخلافة •

على أن كلمة «الأموية» هي العقدة التي يمكن أن تلخص موقف الشام والتي كانت تجتمع فيها وتلتقي من حولها كالنواة كافة المشاكل المالية الخراجية والاقتصادية والسياسية • وقد كانت هذه الأموية ماتزال حية عنيفة الحقد ، بعيدة الأمل في وقت معا رغم مرور قرن واكثر على سقوط الأمويين • وقد ترك لنا ابن العديم صورة معبرة عن موقف الشام في قصة فتى شاعر أموي أو من مولى الأمويين كان يدعى الفرخ • قال : «لما أراد المتوكل الخروج من الشام الى العراق (في العودة) أحب أن يجعل طريقه على البرية لينظر الى آثار بني أمية ومصانعهم (قصورهم الصحراوية) وكان في طريقة دير يعرف بدير حنينا (بين بالس والرصافة قرب حلب) • فلما أزمع على ذلك اتصل خبره ببعض موالي بني أمية فقال : والله لأنغصن عليه نزهته بأبيات أجيزها • ثم تقدمه إلى الدير فجعل لصاحب الدير جعلا على أن يدعه يكتب في صدر الهيكل أبياتا فأذن له فكتب :

أيا منزلا بالدير أصبح ثاويا تلاعب فيه شمأل ودبور
كأنك لم تقطنك بيض نواعم ولم تتبختر في فنائك حور !
وأبناء أملاك عباشم سادة صغيرهم عند الأنام كبير ••

---

(١) اليعقوبي ج٢ ص ٩٤٠ وصاحب الديوان هذا هو أحمد بن محمد وكان كتاب الديوان يخافون منه فاحتالوا لإرساله بأن قالوا إنه لا يقوم بالتعديل إلا من ولى ديوان الخراج ..

إذا نزعوا تيجانهم فضراغم وإن لبسوا تيجانهم فبدور
ليالي هشام بالرصافة قاطنا وفيك ابنه يا دير وهو أمير
رويدك إن اليوم يعقبه غد وإن حروف الدائرات تدور
لعل زمانا جار يوما عليهم لهم بالذي تهوى النفوس يحور
فيفرج مرتاد ، ويأمن خائف ويطلق من ذل الوثاق أسير ..

فلما قرأ المتوكل بكى بكاء شديدا وقال : والله ماكتب هذا إلا رجل من بني أمية يريد أن ينغص علي ما أنا فيه ، فمن أتاني به فله ديته ، فطلب فأتي به فإذا هو رجل من بني أمية من أهل دمشق يعرف بالفرخ فأمر المتوكل بقتله .. وبهدم الموضع فهدم الحايط ..»[1] وفي البيتين الأخيرين إشارة الى آمال الأمويين من جهة وما لا يزال يرهقهم بالخوف والسجن من العباسيين من جهة أخرى .

ولهذا لم يكن غريبا لا أن تتعدد الثورات ولا أن تجد بسرعة من يلبي نداءها ، وأهم الحركات :

- **ثورات دمشق وجنوب الشام :** وعناصر الثورة والنقمة كانت تقليدية ما تزال على حالها ، لا العوامل المثيرة فيها تغيرت ولا الناس ملوا الثورة ، ولم تترك زيارة المأمون لدمشق مرتين أي أثر في الناس مع أنه أول خليفة عباسي يطرقها وقد حاول قدر طاقته أن يزيل عاملا أساسيا من عوامل تذمرها وهو تفاوت الخراج وظلمه ، فما مضت عشر سنوات على خروج المأمون منها (وكان قد توفي) حتى وجدت الشام نفسها أمام ثورتين لا واحدة من ثوراتها التقليدية ، سرعان ما ارتبطت إحداهما بالأخرى :

---

(١) ابن العديم ـ بغية الطلب ج٨ (مخطوط احمد الثالث) الورقة ٢٥٥ وجه حتى ٢٥٦ وجه وقد اختصرنا بعض الأبيات والحكاية .

ـ ثورة في دمشق على أميرها الجديد • أبي المغيث موسى بن ابراهيم الرافعي الذي عينه المتوكل عليها سنة ٢٢٦ «فخرجت عليه قيس لكونه صلب منهم خمسة عشر رجلا • وأخذوا خيل الدولة من المرج •• فوجه إليهم أبو المغيث جيشا فهزموه ثم استفحل شرهم وعظم جمعهم وزحفوا على دمشق فحاصروا الأمير فيها»(١) وكان الثائرون على قول ابن عساكر هم من أهل الغوطة والمرج : كفر بطنا وجسرين وسقبا وقرى جرش • وأما الذي تزعم الحركة فالزعيم القيسي : ابن بيهس •

وأما الثورة الأخرى ففي الجنوب : قامت في الأردن والغور حتى الرملة في قلب فلسطين • والمنطقة سهول زراعية وقرى وحراثون والغالب على سكانها ـ بما فيهم دمشق ـ أهل اليمن وبها ـ كما في الغوطة بدمشق ـ قوم من قيس في حوران والجولان مركزهم بصرى ومنهم جماعة فيما بين عمان وأريحا والغور • وبعض المواقع مثل بيسان والرملة وسهول طبرية أخلاط من الناس عرب وعجم ـ على ما يقول اليعقوبي ـ ويقصد بهم السكان الاصليين الذين كانوا يسمون بالنبط • وخراج جند الأردن إذ ذاك يبلغ سوى الضياع مائة ألف دينار بينما يبلغ خراج دمشق ثلاث مائة ألف وخراج فلسطين مثله(٢) •

ويلفت النظر في هذه المنطقة التي كانت ذات يوم مكمن الامام في الدعوة العباسية أن فيها مدينة أخذت في العصر العباسي الأول وما بعده طابعا ثقافيا واضحا هي طبرية • وقد كان الأشعريون يومذاكهم الغالبون

---

(١) الذهبي ـ العبر ج١ ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨ وانظر ابن الأثير ج ٦ ص ٥٢٨ • وأبو المغيث يذكر باسم الرافقي في بعض المصادر •
(٢) اليعقوبي ـ البلدان ص ٣٢٥ ـ ٣٢٧ •

عليها • وقد مر بها المسعودي بعد قرن من هذا الزمان فوجد فيها كتبا نقل عنها وجماعة ناقشها في الإمامة والفقه والعلم •••

في هذه المنطقة إذن ثار قبيل موت المعتصم بسنة سنة ٢٢٦ ــ ٨٤١ ثائر من أخطر ما عرفت الشام من ثوار عرف بأبي حرب تميم اللخمي • والرجل يماني من أهل الغور قيل إنه خلع الطاعــة لسبب شخصي إذ ضرب بعض الجند زوجته في غيابه فغضب وقتل الجندي ثم هرب ثائرا• لكن تصرفه بعد ذلك يوحي بأن الرجل كان يصدر عن عقيدة معينةنذر لها نفســـه وأراد أن يكون جنديها المجهول فجعل على وجهه برقعا لئلا يعرف حتى عرف بالمبرقع (هل هو تقليد المقنع ؟) وما من شـــك في أن الرجل اتصل بذلك المركز العلمي عنده في طبرية أو أخذ بعض الأفكار فيه قبل أن يثور لأنه كان قد لجأ الى جبل من جبال الاردن • وطلبــه السلطان فلم يعرف له خبر فكان يظهر بالنهار فيقعد على الجبل الذي أوى إليه متبرقعا فيراه الرائي فيأتيه ، فيذكره ويحرضه « على الأمر بالمعروف والنهي عــن المنكر » ويذكــر الســـلطان وما يأتي الـــى الناس «فيعيبه» وتوجه بدعوته الى الفلاحين والفقراء •••

ويظهر أن ظلم العباسيين وإهمالهم للمنطقة سمحا لدعوة أبي حرب بالتوسع منذ سنة ٦٢٩ على أنه توسع كان يحمل طابعا «فلاحيا» خاصا إذ «استجاب له قوم من الحراثين وأهل القرى» وكان يزعم أنه أموي فقالوا : «هذا هو السفياني» ! ولما كثر جمعه من هذه الطبقة من الناس دعا أهل البيوتات فاستجاب له جماعة من رؤساء اليمانية •

وهنا التقت ثورة أبي حرب بالثورة الأخرى التي كانت قائمة في دمشق فقد استجاب لأبي حرب اثنان من زعماء اليمانيــة من أهلها ثم

استجاب له وتحالف معه كذلك ابن بيهس زعيم القيسية الذي يبدو أنه «كان مطاعا في أهل اليمن» أيضا[1] .

« واتصل الخبر بالمعتصم وهو عليل علته التي مات فيها . وقد مات مابين المحرم وربيع الأول سنة ٢٢٧ ـ تشرين الثاني كانون الأول سنة ٨٤١» وخشى امتداد الثورة أيضا الى الشمال فبعث بالقائد رجاء بن أيوب الحضاري ولديه أوامر محددة للقيام بحملة تأديبية تبدأ بدمشق ثم الأردن لتنتهي في برقة[2] ... فقد كانت لها هناك ثورتها أيضا . ووصل رجاء يدرس الوضع ومعه زهاء ألف من الجند . وكان طبيعيا أن يختار ضرب دمشق أولا ولكنه فيما يظهر تردد طويلا قبل أن يتخذ قراره ولعله كان يخشى تدخل المبرقع ضده .. فقد استخبر عنه «فوجده في عالم من الناس .. كان في زهاء مائة ألف» !

واتفق في هذه الفترة أن مات المعتصم بعد علة دامت شهرين ونصف الشهر بينما كان رجاء الحضاري ينزل بدير مران (على سفح قاسيون)[3] وكان ابن بيهس وأصحابه من اهل الغوطة مسكرين في مرج راهط .

---

(١) يذكر الطبري ان ابن بيهس كان من رؤساء اليمانية وكان مطاعاً فيهم وهو سهو في الإملاء لان الرجل زعيم القيسية وبني كلاب . (انظر الطبري ج ٩ ص ١١٦) .

(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٨٠ .

(٣) في المصادر بعض الخطأ وقد حاولنا في السرد الذي قدمنا إصلاحه واعطاءه الترتيب المنطقي : يذكر الطبري (١٧٧/٩) ان المعتصم ارسل ، وهو عليل علة الموت ، رجاء الحضاري لإخماد الثورة . وانه انتصر على الثورتين وعاد اليه ويذكر اليعقوبي وابن الاثير ان ثورة ابن بيهس القيسية إنما كانت بعد موت المعتصم . وقد حاولنا تنظيم الامر استنادا الى التوقيت من خلال الوقائع . ولعل خبر الطبري يستقيم إذا جعلنا عودة الحضاري الى الواثق بدل المعتصم .

ودعاهم رجاء الى الطاعة فأبوا الا أن يعزل أبو المغيث فلجأ الى الحيلة : واعدهم يوما معينا للحرب عند دومة (وربما في مرج عذراء شمال شرق دمشق) ثم مضى قبل يوم من ذلك الموعد فباغتهم عند (كفر بطنا) في الغوطة وقد تفرقت جموعهم وسار بعضهم إلى دومة وبعضهم في حوائجه فهزمهم ثم صنع السيف في كفر بطنا وسقبا وجسرين وقتل منها نحو ألف وخمس مائة مقابل ثلاث مائة قتيل من جنده .. ويبدو أن اليمانيين اشتركوا في هذه الحرب مع القيسيين فإن الطبري يذكر مقتل الرئيسين الدمشقيين اليمانيين منهم . كما يبدو أن ابن بيهس تمكن اولا من الهرب كما ذكر ابن الاثير ثم وقع في الأسر[1] .. (حوالي جمادى الأولى أو الثانية حتى رجب سنة ٢٢٧).

واتصرف رجاء بعد ذلك الى المبرقع في الاردن وكان الرجل في جبال الأردن قد صار في زهاء مائة ألف . فكره رجاء مواقعته وعسكر بحذائه وطاوله» . وامضى الصيف ينتظر[2] . وجاءه رسول من الواثق يستحثه فما كان منه إلا أن حبسه عنده لا يعود ... «حتى كان أول

---

(١) انظر اليعقوبي ج ٢ ص ٤٨٠ والطبري ج ٩ ص ١١٨ (١٣٢٢/٣) وابن الأثير ج ٦ ص ٥٢٢ – ٥٢٣ ورواية ابن الاثير مأخوذة عن ابن عساكر باختصار شديد وأما الطبري فيذكر أن خسائر الثائرين بدمشق كانت خمسة آلاف .

(٢) عبارة الطبري «أول عمارة الناس الأرضين وحراثتهم» تعني دون شك مطلع الخريف وعند ذلك يكون قمع الثورة في مطلع سنة ٢٢٨ لا في سنة ٢٢٧ أما ان شئنا ان نفهم من النص انه أول انصراف الفلاحين للعمل وهي أيام الحصاد فتكون الواقعة بين مطلع الصيف أي في مايس حزيران سنة ٨٤١ أو في شعبان من سنة ٢٢٧ .

عمارة الناس الأرضين وحراثتهم» (مطالع تشرين الأول سنة ٨٤١ ـ محرم سنة ٢٢٨) «وانصرف من كان من الحراثين مع ابي حرب الى الحراثة وأرباب الارضين الى أرضيهم وبقي أبو حرب في نفر زهاء ألف أو ألفين ...» .

عند ذلك وجد رجاء فرصة القتال الرابح . فناجزه الحرب فلما التقى العسكران قال رجاء : ما أرى في عسكره رجلا له فروسية غيره وسيظهر لأصحابه ما عنده من الرجلة فلا تعجلوا عليه ... وهجم أبو حرب على عسكر رجاء فأفسحوا له حتى خرق الصفوف الى ما وراءها ثم عاد وكرر ذلك مرة أخرى فلما كانت الثالثة اطبقوا عليه فأخذوه عن دابته .. ثم هاجموا أصحابه وقتلوا منهم الكثير .. يقول الطبري «قتل نحو عشرين ألفا» وهي مبالغة جسيمة إن لم تكن تضمن من قتل من قبل ومن بعد في الحملات الانتقامية التي وقعت دون شك على القرى بعد ذلك .

وتقول رواية الطبري إن رجاء قدم على الخليفة بالأسيرين : ابن بيهس المبرقع فألقيا معا في حبس المطبق بسامراء وتقول الرواية إن الخليفة لام قائده على تأخره وحبس رسوله فقال «وجهتني في ألف إلى مائة ألف فكرهت أن أعاجله فأهلك ويهلك من معي فتمهلت حتى خف من معه ووجدت فرصة .. فجئتك بالرجل أسيرا ! ومضى رجاء الحضاري بعد ذلك الى برقة يكمل المهمة التأديبية .. ولكن كوامن الثورة ظلت باقية كالجذور الملونة بأرض الشام لم تمضى عشر سنوات ونيف حتى أثبتت نباتا جديدا .

ففي سنة ٢٤٠ ، عاد أهل دمشق فوثبوا بأمير المتوكل عليها : وهو سالم بن حامد فقتلوه على باب قصر الخضراء مقر الحكم في يوم جمعة والسبب أنه «سيء السيرة . كثير التعدي والظلم والجور والغشم

والعتو والأذية» ــ حسب ألفاظ ابن عساكر ــ • وكان المتوكل قد ولى سالما ، وهو من العرب «فخرج من العراق في أربعة آلاف فارس وراجل من قومه وغيرهم حتى إذا صار بدمشق وملكها أذل قوما بها كان بين (قومه) وبينهم طائلة ودماء (ثارات) في أول أيام بني العباس وآخر أيام بني أمية وكان لبني بيهس ، ولجماعة من قريش دمشق ، وسائر العرب (من اليمن) قوة وعدة ونجدة وكلمة مقبولة «فلم يطيقوا ماأخذهم به من العدوان فقتلوه «وقتلوا من قدروا عليه من أصحابه • وسلطوا الموالي على رحالهم وأموالهم فنهبوها • وبلغ ذلك المتوكل فغضب وقال: من للشام وليكن في صولة الحجاج ؟ فقيل له أفريدون التركي «وهو غلام من الأتراك الذي كانوا في حرس المتوكل ••• شجاع ، سفاك الدماء» فدعا به وعقد له علم دمشق وولاه عليها • فسار إليها في سبعة آلاف فارس وثلاث آلاف راجل • وأطلق له المتوكل القتل بدمشق يوما إلى ارتفاع النهار وإباحة النهب ثلاثة أيام •• ونزل أفريدون في بيت لهيا ، (على مدخل دمشق الشرقي) وهي قرية يمانية •• ولكنه لم يدخل البلد لأن بغلته رفسته صباح دخولها فقتل «وصار حديثا ومثلا» في الشام «وانصرف العسكر راجعا الى العراق»[1] •

ولسنا ندري ما الذي تم بعد ذلك • سوى أن نجد المتوكل نفسه يترحل ثلاث سنوات إلى دمشق برجاله وحاشيته لعلها أن تكون العاصمة وكان هذا الاختيار من المفارقات الغريبة التي لا يمكن أن تستمر • وبالرغم من أن المتوكل نزل قصر المأمون بين داريا ودمشق وبنى قصرا لنفسه إلا إنه ترحل فجأة كما جاء فجأة •• وكأن المشروع كان نزهة عابرة

---

(١) ابن عساكر ــ تاريخ دمشق (التهذيب) ج ٦ ص ٤٧ ــ ٤٨ .

فكان ثاني وآخر خليفة عباسي رأته دمشق التي عادت بعده الى ديدنها القديم وسوف تثور كما تثور مثلها الأردن بعد سنوات ..

ثورات حمص على عمالها : سنة ٢٤٠ ثم سنة ٢٤١ وسنة ٢٥٠ والسنين التالية حتى حملت اسم الكوفة الصغرى لكثرة بوائقها وخروجها في رفض الظلم ولقي أهل حمص مر العذاب من صلب وهدم وقتل وجلد وتشريد في ذلك حتى لنستطيع أن نعد هذه السنوات في تاريخ حمص سنوات النضال والمأساة السوداء .

«ومدينة حمص ـ في ذلك الوقت ـ من أوسع مدن الشام ... وأهل حمص جميعا ـ يمن من طي وكندة وحمير وكلب وهمدان وغيرهم . وهي «كثيرة الزرع والضرع ولها مياه وأشجار» .. وجميع طرق حمص من اسواقها وسككها مفروشة بالحجارة مبلطة .. وبها بيعة بعضها مسجد الجامع وشطرها للنصارى فيه هيكلهم ومذبحهم وبيعتهم من أعظم بيع الشام ..» «وخراج حمص القانون القائم يبلغ سوى الضياع مائتي ألف وعشرين ألف دينار ..»[1] وقد ترتفع الى ٣٤٠ ألف دينار .

وتاريخ حمص في الثورة على العباسيين طويل . وقد سبق أن عرفت منهم القتل والصلب في عهد المنصور والرشيد والأمين فثوراتها في عهد المتوكل هي تتمة السلسلة التي سوف تستمر حلقاتها أيضا في عهود الخلفاء القادمين بعده .

والحادث الذي أثار حمص كان ممكنا أن يمضي دون أثر لولا

---

(١) النصوص مزيج من ابن حوقل ـ صورة الارض ١٦٢ـ١٦٣ ، ومن اليعقوبي ـ البلدان ص ٣٢٤ وابن خرداذبه ـ المسالك ص ٧٦ .

أن التذمر فيها كان على حوافي الانفجار : فقد قتل عامل المعونة[١] أبو المغيث موسى بن ابراهيم الرافعي بعض رؤساء البلد فوثب أهل حمص به (جمادى الآخرة سنة ٢٤٠ تشرين الثاني سنة ٨٥٤) وقتلوا جماعة من أصحابه ثم أخرجوه وأخرجوا عامل الخراج من مدينتهم • وهذا يعني أن القضية كانت تتعلق بالخلاف والقسوة في الضرائب •

وقد وجه المتوكل إليهم رسالة حملها بعض رجاله تقول : إن أمير المؤمنين قد أبدلكم رجلا مكان رجل فإن سمعوا فول عليهم محمد بن عبدويه كرادس الانباري • وإن أبوا فأقم مكانك لأرسل اليك الخيل لحربهم •• فلما رضي الحمصيون بالوالي الجديد وأطاعوا «فعل فيهم الأعاجيب»[٢] على قول الطبري •

وكان هذا سببا في وثوبهم في السنة التالية (في موعد الثورة السابقة) على ابن عبدويه ويظهر أنه شمل بظلمه وقسوته كافة عناصر السكان في البلد مما أقام بين أهلها في هذه المرة حلفا على الثورة فلما تحرك السكان العرب «اعانهم على ذلك قوم من نصارى حمص فكتب بذلك الى المتوكل» الذي أمره بالمقاومة وأمده بجند من راتبة دمشق مع عاملها ومن جند الرملة ••• وكانت عقوبة المدينة قاسية انصبت على رؤساء المدينة وعلى النصارى : جاء الأمر بالقبض على ثلاثة من الرؤساء يضربون بالسياط ضرب التلف ثم يصلبون على أبوابهم ويأخذ عشرين

(٢) يطلق اسم عامل المعونة احياناً على من يوزع الأموال على المقاتلين عند انتدابهم للحرب كما يطلق احياناً اخرى على من يجمع الضرائب (المعاون) التي تفرض لعون السلطان على الحرب . وكان السجن من أعمال هذا العامل الذي قد يشبه في ذلك قائد الشرطة . انظر :
DOZY , Sup. aux Dictionnaires Arabes Val II, P. 192

(٣) الطبري ج ٩ ص ١٩٧ (١٤٢١/٣) .

آخرين بعد ضربهم ثلاث مائة سوط ، فيساقون بالحديد الى سامراء . كما جاء الأمر بتخريب ما في حمص من البيع والكنائس وإدخال البيعة الكبرى في المسجد الجامع وإجلاء النصارى عن المدينة خلال ثلاثة أيام ...

ونفذت الأوامر الخليفية ولكن لم يصل سامراء من الرؤساء سوى سبعة مع رأس رجل ثامن مات في الطريق . فضربوا حتى الموت ثم صلبوا بينما كان على باب حمص مصلوبون آخرون منهم أحد رؤوس الثورة : عبد الملك بن اسحق بن عمارة الذي صلبت جثته على حصن تل العباس !(١) ..

اما ابن عبدويه والجند والوالي الجديد فقد أخذوا على هذه الأفاعيل منح المتوكل بعشرات ألوف الدراهم كما منحوا الخلع ..

على أن هذه التدابير الساحقة لم تمنع ولعلها بالعكس زادت في النقمة فما مضت سبع سنوات عليها حتى تحركت المدينة تناضل من جديد. كان عليها عامل اسمه كيدر بن عبيد الله فأخرجه أهلها سنة ٢٤٨ فوجه إليهم الخليفة المستعين وهو في أول أيام خلافته أحد امراء منطقة طبرستان : الفضل بن قارن شقيق المازيار وجاء بالجيش فمكر بأهل حمص حتى أخذ البلد والناس ثم قتل منهم الخلق الكثير وحمل مائة من أعيانهم الى سامراء(٢) ... ليلاقوا دون شك مصير أصحابهم الذين سبقوا قبل سنوات ... بينما كان سور المدينة يهدم وحجارة طرقاتها تقلع ...

---

(١) الطبري ج ٩ ص ١٩٩ - ٢٠٠ (٣/١٤٢٢ - ١٤٢٤) .
(٢) ابن الأثير ج ٧ ص ١١٩ (حوادث سنة ٢٤٨) والطبري ج ٩ ص ٢٥٩ (٣/١٥٠٨) .

واتنقمت حمص بسرعة من الأمير الطبري استنجدت بأحياء كلب وأقامت حلفا مع زعيمها عطيف بن نعمة ووثبوا بابن فارن «فتحصن منهم بقصر خالد بن يزيد بن معاوية وقد كان جدده فحاصروه . وغاله من كان معه وأسلمه فأخذوه وذبحوه وصلبوه على باب الرستن» «ونهبوا ماله ونساءه» وأعادوا رصف الطرق ... ولكنهم «خافوا عامل دمشق فزحفوا إليه وهو نوشري بن طاجيل التركي . فوجه إليهم بعسكر من البابكية وغيرهم فهزموهم وانصرفوا الى حمص» ظافرين ..

غير أن المستعين أرسل عليهم بالقائد «موسى بن بغا الكبير في ستة آلاف من الموالي» ولم يكن بالمدينة سور يحميها فخرج أهل حمص والبدو معهم لمنازلته قبل وصوله في السهل الممتد بينها وبين الرستن «وفيهم خلق من نصارى المدينة ويهودها» متضامنين معهم وتزعم الحملة «رجل يقال له دابر العفار في خلق عظيم من كلب .. ولكنهم هزموا في المعركة .. فلحقهم موسى وكانت المدينة بعد ذلك هي الضحية الكبرى .. دخلها «عنوة وأباحها ثلاثة أيام فأنتهبت وطرحت النار في منازلها وانتهبت أموال التجار » وقتل من الناس مقتلة عظيمة وأسر جماعة من رؤساء أهلها بينما لحق عطيف بن نعمه بالبدو والبادية ...

هل ماتت الثورة بهذه الضربة الساحقة ؟ ماتت في الواقع الى حين لأننا سوف نشهد حمص بعد سنوات قليلة سنة ٢٦٦ تقتل من جديد عاملها موسى الكرخي ، قبل ان ينقطع ارتباطها بالعراق ويتصل بمصر وتصبح جزءاً من دولة ابن طولون . أما بادية حمص فلم تهدأ واتصلت

---

(٣) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٩٦ .
(٤) انظر الطبري ج ٩ ص ٢٧٦ (٣/١٥٣٣ — ٤) والبلاذري — فتوح ص ١٥٩ ، واليعقوبي ج ٢ ص ٤٩٦ — ٤٩٧ .

ثورتها بمنطقة أخرى في شمال الشام تحركت إثر همود الثورة بحمص وما كانت من قبل من التمرد من قليل أو كثير هي:

المعرة : ولم تكن في ذلك الوقت اكثر من « مدينة قديمة خراب ، ــ على قول اليعقوبي ــ » وسوف تكون بعد فترة قريبة « مدينة كثيرة الخير والسعة من التين والفستق وما شاكل ذلك من الكروم والأزربة[1] ..» وأهلها من تنوخ نزلوها قبل الاسلام كما يقول البلاذري وقد اضطربت هذه القبائل بسبب نجهله حوالي الوقت الذي ثارت حمص سنة ٢٥٠ « ووثب بالمعرة ... يوسف بن ابراهيم التنوخي المعروف بالقصيص . فجمع جموعاً من تنوخ وصار الى مدينة قنسرين فتحصن بها فلم يزل بها حتى قدم محمد المولد ، مولى الخليفة المستعين ويكشف نص تاريخي نقله ابن العديم المؤرخ الحلبي ان لهذه الثورة علاقة برفض المنطقة الشمالية من الشام تحت تأثير من فيها من العباسيين وهم بنو صالح بن عبد الله ، بيعة المعتز وميلهم الى الخليفة المستعين وكان الاثنان في فتنة هي نسخة مصغرة عن فتنة الامين والمأمون كما يكشف أنه كان ثمة ثائررئيسي هو محمد بن خالد أطلقت عليه سامراء قائدين من قوادها فانتهبوا أمواله وضياعه ، وأحدهما هو محمد (أو أحمد المولد) الذي مضى بعد حلب الى قنسرين ثم الى حمص وقتل في طريقه خلقاً كثيراً ...

وانهزم مأام المولد زعما ءحمص وبدوهـا وهما المؤمل وعطيف الكلبي ثم استسلما بالامان وبايعا المعتز لكن استطاع المولد بعد إقامة أيام بحمص أن يقبض على عطيف فيضرب عنقه صبراً ويوجه رأسه الى

---

(١) انظر اليعقوبي ــ البلدان ص ٣٢٤ ثم ابن حوقل ــ صورة الارض ص ١٦٤ .

سامراء ... ثم يعود الى الشمال فيحارب المدن مدينة مدينة ويأخذ منها البيعة للمعتز وكانت حلب ومنبج وانطاكية آخر المدن استسلاما للبيعة[1] .. أما القصيص الثائر بالمعرة فقد استطاع الهرب وصار الى الجبل الأسود فلما اجتمعت قبائل كلب على المولد وهزمته وقتلت خلقا عظيما من أصحابه وانصرف بهزيمته الى حلب عاد القصيص الى قنسرين ..

وجاءت أوامر الخليفة بعزل المولد وتعيين ابي الساج الاشروسني ولم يكن بإمكانه أن يحكم منطقة تنوخ وهي على العداء له ولنظامه فكتب الى القصيص يعطيه الأمان ثم صير إليه الطريق والبذرقة (أي حراسة قوافل المسافرين والتجار وأمن الطريق) ثم ولاه اللاذقية ونحوها[2] .. وصار الرجل من سيوف السلطان !

ـ ولم تكن مناطق الشام الأخرى ، في هذه الفترة أقل نقمة وثورة وإن تكن الاسباب الخلفية لثوراتها مختلفة بعض الاختلاف .

فقد تحرك المردة هناك في جبل لبنان تحركا يذكر باضطراباتهم السابقة قبل حوالي القرن ولعلها كانت للأسباب نفسها ، أو لعلها كانت بتحريض من الروم الذين كانوا في تلك الفترة بالذات يلحون على السواحل الشامية بالضرب ، وقد ضربوا قبل سنوات انطاكية مرات عديدة حتى بنى المعتصم حصنا لمينائها وسوف يضربون بعد سنوات ايضا دمياط ضربة فاجعة . فليس غريبا إذن تكون للروم يد في حركة الجبل

---

(١) انظر النص لدى ابن العديم ـ بغية الطلب (مخطوطات احمد الثالث) ج ٢ الورقة ١٦٤ ظهر الورقة ١٦٥ وجه وهو يسمى القائد باسم احمد وليس محمد وينقل عن تاريخ ضائع للمؤرخ ابي جعفر ابن الازهر أن احمد المولد جاء الى ......

(٢) انظر اليعقوبي ج ٢ ص ٤٩٧ وانظر للاضافة ـ ابن العديم بغية الطلب ج ١ ص ٧٣ .

إن لم تكن اليد الأولى هي يد الخراج الظالم والجزية ، والولاة الأظلم. وهكذا نجد سنة ٢٣١ وحولها عددا من الحروب تقوم ما بين الأمير هانيء ، ولعله عامل بعلبك ، وبين المردة ينتصر فيها عليهم ويمنحه الناس لقب الغضنفر ابي الاهوال[1] . وقد بلغ خبره الى خاقان التركي خادم الرشيد وكان في الأصل من ناشئة الثغر كما كان قد انسحب من الحياة العامة ، مع خدمه ومواليه ، إلى ثغر طرسوس للجهاد منذ زمن وحضر هذه السنة نفسها إلى الواثق في نفر من وجوه أهل طرسوس لشكوى صاحب المظالم عندهم .. ويبدو أن خاقان كان معجبا بفعال هانيء فكتب كتابا يشكره على جهاده ويخبره أنه أبلغ حسن عمله الى مسامع الخليفة ...

ونكاد نرى أن سيرة الشام في هذه الفترة الثالثة من العصر العباسي الأول كانت نسخة من سيرتها في السابق الماضي من أيام ونكاد نقول إنها نسخة مكرورة لولا حرمة الثورة والاحترام الذي ينبغي لحقوق وعواطف المظلومين والمضطهدين ..

رابعاً ـ ثورات الاعراب في البادية العربية (في الحجاز واليمامة) :

وهذه بادرة جديدة في الدولة تدل على ضعف هيبة الحكم في النفوس دلالتها على إهماله الناس . كما انها تسجل بدء ذلك الدور الهام الذي لعبه البدو في شؤون الدولة العباسية وافريقية الشمالية منذ هذه الفترة حتى سقوط العباسيين . ولعل السبب العميق وراء هذه الظاهرة من التحرك البدوي هو التكاثر الديموغرافي وزيادة عدد أبناء البادية مما ... كان لا بد معه من تحرك مجموعاتهم الى الفتن الناهبة أو

---

(١) محمد كرد علي ـ خطط لشام ج ١ ص ١٩٣ .

الهجرة • والواقع أن الجزيرة العربية بعد هجرة المجموعات العربية التي رافقت الفتح العربي وما بعده حتى نهاية القرن الأول الهجري سوف تشهد منذ أوائل القرن الثالث تحرك مجموعات بدوية جديدة سوف تتجه اتجاهات شتى أول الأمر نحو العراق والجزيرة ثم تتجه كتلتها الكبرى نحو الغرب فيما يعرفه التاريخ باسم : تغريبة بني هلال • منذ هذه الفترة حتى سقوطها : فقبل خلافة الواثق بفترة طويلة كانت بطون قيس وبنو سليم خاصة ، يفرضون نفوذهم على ما حول المدينة ،ويأخذون من الأسواق ما يريدون بالسعر الذي أحبوا • ثم اعتدوا على بني كنانة وباهلة • ومزقوا حملة بعثها عليهم عامل المدينة • وشعروا بقوتهم ، فقطعوا طريق الحج بين الحرمين • وبايعوا بالخلافة رجلا منهم يدعى عزيزة بن قطاب الخفاقي •• فارسل الواثق سنة ٢٣٠ بغا الكبير إليهم في الشاكرية[1] والاتراك والمغاربة • فهزمهم وصلبهم على الشجر • ثم دعاهم للأمان فأجابوه • وأبقى لديه منهم زهاء الف من الرهائن في الاغلال ، عرفوا بالشر والفساد فسجنهم ، وكان بنو هلال قد أعانوا بني سليم ، فدعاهم بغا الى الهدوء فاجابوه ، وأخذ منهم زهاء (٣٠٠) رجلا سجنهم في المدينة مع السجناء الاخرين في دار معروفة ليزيد بن معاوية • ولما نقبوا

(١) الشاكري الاجير والمستخدم والحارس معرب جاكر الفارسية ولعله أطلق على فرق الحرس الخاصة في العصر العباسي وثمة خبر يورده ابن العديم عن برمك جد البرامكة انه قدم دمشق على هشام بن عبد الملك في ٤٠٠ من الشاكرية وقد يدل الخبر على أن هذا النوع من الحرس الخاص وجد منذ العصر الاموي ولكن بشكل غير رسمي وإنما صار فرقة من الجيش الرسمي وأخذ تسميته في العصر العباسي . ويبدو أن هذا الحرس كان يركب البراذين وقد أعطى اسمه الى أحسن أنواعها فصارت تدعى بالشاكرية أيضاً .

وحاولوا الهرب ، فتك بهم أهل المدينة[1] وقتلوهم أجمعين ومن بينهم عزيزة نفسه . ومن الطريف أن عبيد المدينة وسودانها اشتركوا سواء في المعارك الأولى مع بني سليم أو في هذه الفتكة الأخيرة بجانب أسيادهم.

وفي سنة ٢٣١ تغلبت فزارة وبنو مروة على فـدك . فبعث إليهم بغا بحملة . فزعوا منها الى الشام . ثم جاءته جموع من بطون غطفان وفزارة واشجع وثعلبة ، فاستحلفهم الا يتخلفوا عنه متى دعاهم . ثم اخمد حركة بني كلاب وحبس منهم في المدينة نحوا من الف وثلاثمائة رجل .. فلما دعا الذين استحلفهم لم يجد منهم احـدا لأنهم تفرقوا مهاجرين ... ولم يلحق منهم بأحد !

وفي تلك السنة نفسها ، شـكا الشاعر عمارة . حفيد جرير الخطفي، للخليفة الواثق من بني نمير وفسادهم في البادية ، واغارتهم على اليمامة، وما جاورها . فسير الواثق اليهم بغا نفسه من المدينة فانتصر عليهم سنة ٢٣٢ بعد معارك عنيفة هزم في بعضها وكاد يقضي فيها . ولما قدم بعضهم بالامان ، قيدهم وضربهم بالسياط بين ٤٠٠ و ٥٠٠ جلدة . وأقام حين وصلته النجدات يتتبعهم في البوادي حتى جاءه بعض ساداتهم يطلبون الأمان فبسطهم وآنسهم ولكنه أبقى منهم حوالي (٨٠٠) رجل ، ساقهم من مساجين المدينة ، مثقلين بالحديد الى سامراء[2] .

خامساً ـ ثورات برقـة :

كانت حدود الدولة العباسية قـد تقلصت منذ عهـد الرشيد في

---

(١) انظر تفاصيل ذلك لدى الطبري ج ٩ ص ١٢٩ ـ ١٣٥ (١٣٣٦ ـ ١٣٤٣) ولدى اليعقوبي ج ٢ ص ٤٨٠ .
(٢) انظـر تفاصـيل الحملة لـدى الطبري ج ٩ ص ١٤٦ ـ ١٥٠ (٣/١٣٥٨ ـ ١٣٦٣) .

افريقية فلم يعد نفوذ بغداد وحكمها المركزي يجاوز منطقة برقة بالرغم من بقاء اسم الخليفة يصدح على منابر افريقية • كان الأغالبة قد أقاموا ، برضى الرشيد وبمنشور منه الدولة الحاجزة بين الأراضي العباسية وأرض الخوارج والأدارسة والأمويين في المغرب والاندلس •

وكانت برقة فيما يبدو «عملا» (أو ولاية) صغيرة مستقلة[1] عن ولاية مصر في الشرق استقلالها عن طرابلس التي كانت تتبع أصحاب القيروان في الغرب غير أن مركزها الجغرافي جعلها همزة الوصل ما بين المشرق ، بعد مصر ، وبين المغرب فهي ممر التجارات الاسلامية كما أنها معبر الجيوش ، وهي طريق الحجاج كما هي طريق العلماء والتيارات الثقافية الاسلامية ولهذا كان «فيها ــ على قول ابن حوقل ــ من التجار وكثرة الغرباء في كل وقت مالا ينقطع طلابا لما فيها من التجارة وعابرين عليها مشرقين ومغربين وذلك أنها تنفرد بالتجارة بالقطران (الذي لا مثيل لـه) والجلود •• والتمور • ولها أسواق حادة حارة من بيوع الصوف والفلفل والعسل والشمع والزيت وضروب المتاجر الصادرة من المشرق والواردة من المغرب •• وأسعارها في اكثر الأوقات فائضة بالرخص في جميع الأغذية ••» • كما أن «وجوه أموالها جمة»[2] •

واما سكانها فكانوا من بعض قبائل البربر لأنها «أول منازل البربر» ومعهم اقوام من العرب من الأزد ولخم وجذام (اليمن) ومن غسان وتجيب

---

(١) كان يزيد بن حاتم والي مصر سنة ١٤٨ أيام المنصور أول من ضم برقة الى عمل مصر في تلك السنة (انظر الكندي ــ الولاة والقضاة ص ١١٦) ولكنها عادت فانفصلت بعد ذلك وربما كان انفصالها أيام فتنة الأمين والمأمون •

(٢) ابن حوقل ــ صورة الارض ص ٦٩ •

موزعين جميعا على جبليها الشرقي والغربي ــ على حد قول اليعقوبي ــ وفي أقاليمها . كما كان فيها حول المدن أرباض يسكنها أخلاط من الناس وأكثرهم جند قدم قد صار لهم الأولاد والاعقاب وفيها في بعض المرافىء قوم من أبناء الروم القدم أيضا[1] ويعرف أهل برقة في فسطاط مصر من بين أهل المغرب ، بحمرة ثيابهم .. فأرضها حمراء خلوقية التربة ثياب أهلها أبدا محمرة »[2] .

«ومدينة برقة في مرج واسع وتربة حمراء شديدة الحمرة» « وهي مدينة وسط ليست بالكبيرة الفخمة ولا بالصغيرة الزرية» ... ولم يكن عليها فيما يظهر سور حتى نهاية العصر العباسي الأول إذ أمر المتوكل ببناء السور وله أبواب حديد وخندق . وأبرز آلاء الخلفاء والأمراء الذين تولوا عليها أنهم بنوا البرك العظام على طريق الأودية ليشرب أهل المدينة من مياه الأمطار المتجمعة فيها[3] والمدينة «برية بحرية جبلية» . وفي المنطقة عدة بلدان أخرى برنيق وهي على الساحل «ولها ميناء عجيب في الاتقان والجودة تحوز فيه المراكب» ومدينة أجداية «على صحصاح من حجر . بناؤها بالطين والأجر وبعضها بالحجارة .. ويطيف بها من أحياء البربر خلق كثير . ولها زرع بالبخس .. وواليها القائم بما عليها من وجوه الأموال وصدقات بربرها وخراج زروعهم وتعشير خضرهم وبساتينهم هو أميرها وصاحب صلاتها وله من وراء ما يقبضه للسلطان لوازم على القوافل الصادرة والواردة من بلاد السودان ... وهي

---

(١) اليعقوبي ــ البلدان ص ٣٣٤ وقد آثرنا نقل وصفها عن الجغرافيين القدامى لأنه وصف شهود .

(٢) ابن حوقل ص ٦٩ .

(٣) انظر اليعقوبي وابن حوقل معاً في المصدرين المذكورين .

أيضا قريبة من البحر المغربي وشقة الصوف ..» وهناك أوجلــة ، في الصحراء ولها «غلات من التمر جسيمة» وهناك سرت «ولها سور صالح كالمنيع .. ومزارع .. ولها من وجوه الأموال والغلات والصدقات في سائمة الابل والغنم ما يزيد على حال أجدابية ...» وهي المركز الجمركي العباسي الأكبر وإليها جميع مجاري الأمــر .. «فيما ورد وصــدر في استيفاء ضرائبه ولوازمه واعتبار السجلات والمناشير بمواجب ما على الأمتعة وتصفحها خوف الحيلة الواقعة دون الأداء عنه بأفريقية ودخلها أوفر من دخل اجدابية لما ذكرت ...»(١) .

أما خراج برقة للدولة فهو «قانون قائم كان الرشيد وجه بمولى له يقال له بشار فوزع خراج الأرض بأربعة وعشرين ألف دينار على كل ضيعة شيء معلوم سوى الأعشار والصدقــات والجوالي ومبلغها .. خمسة عشر ألف دينار ربما زاد وربما نقص . والأعشار للمواضع التي لا زيتون بها ولا شجر ولا قرى مقراة ...»(٢) وقد ذكر الجهشياري في قائمة عن موارد الدولة أيام الرشيد أن خراج برقة مليون درهم وهو رقم يقارب رقم اليعقوبي وإن كان بينهما بعض الفرق باعتبــار أن ثمن الدينار هو في ذلك الوقت ٢٢ درهما . ولعل رقم اليعقوبي هو الأصح

---

(١) هذه النصوص من ابن حوقل ـ صورة الارض ص ٧٠ ـ ٧١ ومن الهام أن نلاحظ ما ورد فيها متعلقاً بموارد الحكومــة : الصدقــات (الزكاة) . خراج الزرع . عشر الخضار . لوازم (ضرائب) على القوافل . وبرد في النص كذلك وجود «سجلات» و «مناشير» أي بيانات جمركية رسمية تنتقل مع البضاعة وتسجل وتجري مراقبتها . . .

(٢) اليعقوبي ـ البلدان ص٣٤٤ ـ ٣٤٥ ولنذكر للمقارنة أن خراج مصر كان قرابة مليوني دينار .

لأن التعامل في غرب الدولة الاسلامية كان بالدينار ولعل رقم الجهشياري كان تقريبيا فقد أشار اليعقوبي الى أن الرقم ربما زاد وربما نقص •

أما من الناحية السياسية فقد قضت برقة ، بعد الفتح الاسلامي ، دهرا طويلا من الهدوء السياسي استمر حتى مطالع القرن الثالث الهجري وعهد المأمون على الأقل • يقول البلاذري «كان اهل برقة يبعثون بخراجهم الى والي مصر من غير أن يأتيهم حاث أو مستحث • فكانوا أخصب قوم بالمغرب • ولم يدخلها فتنة» ثم روي عن عبد الله بن عمرو ابن العاص أنه قال «لولا مالي بالحجاز لنزلت برقة فما أعلم منزلا أسلم ولا أعزل منها ••»[1] •

غير أن هذا المنزل «المسالم» «المعزول» الهادىء ما لبث ، في أعقاب فتنة الأمين والمأمون ، وما قام في دلتا مصر ما بين أواخر القرن الثاني ومطالع القرن الثالث من الفتن و الحركات ، أن أصابته العدوى بدوره • وقامت فيه الفتنة والعصيان على المأمون حوالي سنة ٢١٤ • ولسنا ندري السبب في ذلك هل كان سياسيا يتعلق بحركة عربية ، أو خارجية أو استقلالية أم كان اقتصاديا ماليا يتعلق بالخراج وأمواله ــ وهو الأرجح ــ • وكل ما نعلمه أن «أهل برقة» «خالفوا» وتزعم الثورة مسلم بن نصر بن الأعور فأمر المأمون أخاه أبا اسحق (المعتصم) وكانت البلاد في ولايته أن يرسل عليهم قائده الأفشين ووصل الرجل بجيشه عبر الدلتا المصرية التي لم تكن قد هدأت بعد ففتح البلد ــ على حد قول اليعقوبي ــ وأسر صاحب الثورة وانصرف عائدا الى مصر سنة ٢١٦[2] •• بعد

---

(١) البلاذري ــ فتوح ص ٢٦٤ .
(٢) اليعقوبي ــ التاريخ ج ٢ ص ٤٦٥ .

أن ولي على البلد والي مصر السابق نفسه ، عبدويه بن جبلة وكان قد اصطحبه معه إليها(١) •

ولكن البلد لم يعد ، من بعد، الى هدوئه التقليدي فقد عادت إليه الثورة مرة أخرى بعد عشر سنوات ونيف يوم اتفقت كلمة بعض البربر ، في برقة ، مع قوم من قريش، من بني أسيد بن أبي العيص(٢) فوثبوا بعاملهم محمد بن عبدويه بن جبلة ••• وإذا كانت هذه الثورة بنت الثورة الأولى أو تتمة لها أو تتصل بها ببعض السبب فلقد يدل اتفاق كلمة البربر والعرب والوثوب بالعامل ــ وهو على الخراج ــ على أن الأسباب متصلة بهذا الخراج •

وقد عهد الواثق الى قائده رجاء بن أيوب الحضاري ، يوم أرسله في حملة تأديبية الى الشام وفلسطين ، أن ينهي حملته هذه في ليبيا فصار بعد ان انتهى من الشام الى مصر ونزل الجيزة سنة ٢٢٨ ولكنه ما كاد يتوجه الى برقة حتى هرب من كان فيها من الثائرين • وظفر بجماعة منهم فعاد بهم الى سجون المتوكل •••

لكن برقة فيما بين هذا وذاك فقدت استقلالها الاداري فما كادت دولة ابن طولون تظهر في مصر منذ سنة ٢٥٤ حتى كانت برقة بعض امتداداتها •

(١) انظر الكندي ــ الولاة والقضاة ص ١٩٠ •
(٢) اليعقوبي ــ ج ٢ ص ٤٨٠ •

الفصل العاشر

العلاقات الخارجية

ظلت العلاقات الخارجية في أواخــر العصر العباســي الأول ـ ى عهدها السابق وعلى إطارها الذي كانت عليه في عصر الرشيد . غير أن تطور الأحوال الداخلية نحو القلق وضعف المركز جعــل معظم مناطق الحدود أميل الى الهدوء كما جعل الحروب عليها دفاعية في الغالب وأقام في النهاية عليها أو مهد لأن يقوم عليها مجموعة من الدول الحاجزة ذات الاستقلال الذاتي تشكل مناطق انتقال بين أراضي النفوذ العباسي الخاصة وبين ما وراءها من «دار الحرب» . . .

ولما كانت العلاقات والأحداث الأساسية إنما جرت في هذه الفترة مع الروم فقد نستطيع لذلك أن نقسم الموضوع قسمين نرى فيهما أولا العلاقات مع كافة الأمم على مختلف الحدود وما طرأ عليها من تطورات ثم نقف بصورة خاصة عند العلاقات مع الروم .

١ ـ العلاقات مع الأمم المختلفة :

وتتضمن النظر في قطاع الهند والشرق الصيني والمحيط الهندي ، ثم في ممالك الترك والخزر ثم جبهة البجة والنوبة في جنوب مصر ثم صراع القوى البحرية في البحر المتوسط وأخيرا العلاقة مع دول الحوض الغربي لهذا البحر .

أ ـ قطاع الهند والمحيط الهندي والشرق الصيني :

قصة الحدود مع الهند في هذه الفترة هي قصة تحول ولاية السند الاسلامية إلى إمارات وراثية مستقلة لبعض المتنفذين في ذلك الثغر . صحيح أنها كانت قد تحولت منذ عهد الرشيد الى نوع من الولاية الوراثية . وبعد أن توارثها أثنان من بيت المهلب ورثها أثنان من الأسرة البرمكية وقد تولى أولهما موسى بن يحيى في عهد المعتصم سنة ٢٢١ فاستخلف ابنه عمران على الثغر وكتب إليه المعتصم بالولاية ... لكن ضعف السلطة المركزية أنهى السيرة الأولى التي سارها ولاة العباسيين جميعا خلال القرن العباسي الأول لتبدأ بدلا منها سيرة جديدة يظهر فيها، في السند ، نوع من «الراجات» والمهراجات العرب المسلمين الذين يقيمون ولاياتهم على الأسس التي تقوم عليها الامارات الهندية الاخرى المتنوعة والكثيرة من حولهم .

آخر الأمراء على الطريقة القوية التي بدأت في الغياب هو عمران بن موسى البرمكي فقد «أ ـ خرج الى القيقان ـ وهم زط ـ فقاتلهم وغلبهم وبنى مدينة سماها البيضاء وأسكنها الجند» .

ب ـ «ثم أتى المنصورة وصار منها الى قندابيل وهي مدينة على جبل وفيها متغلب يقال له محمد بن الخليل فقاتله وفتحها وحمل رؤساءها الى مقعدار» .

حـ ـ «ثم غزا الميد (وهم شعب آخر من منبوذي الهند) وقتل منهم ثلاثة آلاف وسكر سكرا يعرف بسكر الميد ..» .

ء ـ «وعسكر عمران على نهر الرور ثم نادى بالزط الذين بحضرته فأتوه فختم أيديهم وأخذ الجزية منهم وأمرهم بأن يكون مع كل رجل منهم إذا اعترض عليه كلب فبلغ الكلب خمسين درهما ..» .

هـ ـ «ثم غزا الميد ومعه وجوه الزط • فحفر من البحر نهرا أجراه في بطيحتهم حتى ملح ماؤها وشن الغارات عليهم •••»[1] •

ولا شك أن هذه الأعمال إنما كانت أعمالا تأديبيـــة تقصـــد الى عقوبتهم على أعمال القرصنة البحرية ضد التجار العرب • في خليج البصرة والمحيط الهندي •

على أن العصبيات القبلية التي ثارت بين النزارية واليمانية ذهبت بعمران ضحية لها • إذ مال الرجل إلى اليمانية فزحف إليه عمر بن عبد العزيز الهباري فقتله وهو غار سنة ٢٤٠ وكتب الى الخليفة المتوكل معلنا ولاءه •• فكافأه باعطائه ولاية السند ••

ومنذ ذلك الوقت بدأ تاريخ آخر للمنطقة التي توزعت ما بين ثلاثة إمارات إسلامية مستقلة من حولها كذلك امارات صغرى •••

فإن أولاد عمر الهباري لم يحالفهم التوفيق في تأمين أحوال البلاد وما لبثوا أن دب الخلاف بينهم وبين رجالهم من قريش حتى اقتصر سلطانهم على ولاية المنصورة نفسها وكانت أرضها محصورة ما بين منطقة الرور وشاطىء البحر في حين حكم اقليم الملتان منذ سنة ٢٧٩ أسرة قرشية أخرى من بني معنه (أو بني سامة) بقيت حتى انتزع الحكم منها الاسماعيليون الشيعة في القرن الرابع •

وإذا لم تستطع القوة العباسية أن تكسب شيئا على الجبهة الهندية في هذه الفترة وانتهت بالعكس من الضعف الى تكوين إمارات صغرى متناحرة فإن الدين الاسلامي كدين كسب مقاطعة هندية هي العسيفان بين كشمير والملتان وكابل • وقصة إسلام ملكها تشبه القصص التي تروى

(١) البلاذري ـ فتوح البلدان ص ٥٤٤ •

منذ عهد إبراهيم الخليل عن الأصنام التي لا تستطيع أن تفعل شيئا فيكفر بها الوثني • وملك العسيفان حين رأى ابنه يموت بدلا من أن يشفى بعد أن دعا كهانه الاصنام ، هدم المعبد والأصنام وقتل السدنة وأسلم •• يقول البلاذري «وكان ذلك في زمن المعتصم»[1] ••

ونأتي الى الطريق البحري نحو الهند وهو ما كان يدعى بحرالبصرة ثم الخليج الاخضر والبحر الهندي[2] فنجد أن هذه البحار قد عرفت فترة أمن وهدوء من القراصنة على ما يبدو بعد تلك الهجمة الواسعة التي عرفتها في عهد المنصور ما بين سنتي ١٤١ وسـنة ١٥٣ • وأن لا تقدم الحوليات أي خبر في هذا المجال قد يعني أن الاساطيل التجارية كانت بصورة عامة تنطلق آمنة مطمئنة • على أن أخبار القرصنة تعود للظهور كرة أخرى ، أيام المعتصم والواثق ••• ولقد نجد تفسير ذلك إذا تذكرنا أن فتنة الأمين والمأمون التي شلت بغداد والسلطة المركزية فيها بالحصار والحروب في منطقة السواد خمس سنوات قد تركت دون شك آثارها السيئة على تجارة البصرة ثم أعقب ذلك مباشرة ثورة الزط التي هددت ممرات التجارة في البر والنهر نحو بغداد عشرين سنة ولم يكن ثمة من يمنع الثغر ، أو يحمي التجارة بشكل جدي ولهذا بدأت التجارة التي هددت اكثر من ربع قرن في التحول بالتدريج إلى مرفأ آخر أكثر أمنا هو سيراف على الساحل الايراني جنوب شيراز •

---

(١) البلاذري ـ فتوح ص ٥٤٥ .

(٢) يستعمل المؤرخ خليفة بن خياط الاسم الأول لتسميته للخليج العربي ويستعمل ابن رسته الاسمين الثاني والثالث لتسميته المحيط الهندي (انظر تاريخ خليفة ص ٥١٧ ، ٥٢٠ وغيرها ، وانظر ابن رسته ـ الاعلاق النفيسة ص ٨٤ وص ٨٦ وص ٨٧) .

وكان هذا المرفأ أكثر عمقا وقابلية لاستقبال السفن الكبيرة الواردة من الصين ، وهذا ما أضاف إليه ميزة أخرى إذ لم تكن تلك المراكب تستطيع وصول البصرة من قبل فكانت تفرغ حمولتها في الأبلة ... وهكذا صارت سيراف بسرعة المرفأ الأول في بحر البصرة . ويحدثنا تاجر معاصر اسمه سليمان أن البضائع كانت تشحن عامة في السفن الصغيرة من البصرة وغيرها إلى سيراف ليجري نقلها هناك في المراكب الكبيرة[1] والمنسوجات الغالية من التيل والقطن والصوف والسجاجيد الصغيرة والمصنوعات المعدنية وخام الحديد وسبائك الذهب والفضة.. ونمت سيراف فيما بعد نموا انعكس في تلك الأوصاف التي وصفها الجغرافيون العرب لدورها المترفة ذات الطوابق من خشب الساج ومراكبها وبضائعها المكدسة ...

على أن ضعف الحركة التجارية سمح لجماعات القرصنة باصطياد المراكب الصغيرة على ما يظهر ومعظمها من مراكب البصرة وجرأهم على التوسع في اعمالهم ويبدو أنه المراكب كانت في العادة ــ وهي تجارية ــ تحمل معها بعض الجند المدربين على رمي النار الاغريقية يقول المقدسي : «ولا بد في كل مركب من مقاتلة ونفاطة»[2] ولعل هذه العادة إنما اتخذت منذ هدد القراصنة توسع التجارة زمن المنصور ولكن هذه الحراسة

---

(١) هو مؤلف مجهول ترك لنا كتاب « أخبار الصين والهند » وقد نشر مرتين آخرهما بالعربية والفرنسية (باريس سنة ١٩٤٨) (ترجمة سوفاجيه) ، انظر الاقسام ١١ و ١٣ حتى ١٦ منه :

Relation de la Chine et de l'Inde

وانظر كذلك ــ حوراني ــ العرب والملاحة ص ٢٠٦ ــ ٢٠٧ .

(٢) المقدسي البشاري ــ أحسن التقاسيم ص ١٢ (طبعة دي غويه ١٩٠٦) .

الذاتية ضعفت دون شك مع ضعف الحركة التجارية بالإضافة الى ما قد يكون لدى الشعوب العاملة بالقرصنة وهي الميد والكيرك والزط من تكاثر عددي وفقر يلجئانهم الى اللصوصية في البحر والى الجرأة فيها.. كل ذلك قد أسهم دون شك في اضعاف البصرة بحريا لحساب سيراف من جهة وفي السماح بعودة القراصنة الى تهديد طرق البحر من جهة أخرى في مطالع القرن الثالث الهجري ، والى أن يهاجموا ببوارجهم مراكب البصرة اكثر مما يهاجموا مراكب سيراف الكبيرة ...

ونسمع منذ سنة ٢١٠/٨٢٥ في عهد المأمون بدء سلسلة الحملات البحرية ضد القرصنة : نسمع أن قوة بحرية كبيرة أرسلت تلك السنة من البصرة لتأديب قراصنة جزيرة البحرين الذين كانوا يغيرون على السفن القادمة من الهند والصين(١) .

ونسمع في سنة ٢١٣ أيضا «بعزل محمد بن عباد بن عباد عن البحر وجعله إلى غسان بن عباد ..»(٢) مما قد يعني بدء العناية ببحر البصرة والاتجاه لدعمه ثم يأتي بعد سنوات سنة ٢٢٥ خبر مماثل عن عزل أحمد ابن عبيد الله العنبري(٣) عن بحر البصرة أيضا في عهد المعتصم وربما أعيد تعيينه مرة أخرى لأننا نراه يغزو ذلك البحر في السنة التالية سنة ٢٢٦(٤) وهذا الغزو معروف الاتجاه : فإما الى الجزر التي يلجأ إليها القراصنة في خليج البصرة وإما الى مساكنهم الأولى في غرب نهر السند ..

ويبدو أنه كان في الهدفين معا وأما نتائجه فقد أورد المسعودي

---

(١) حوراني ـ العرب والملاحة ص ٢٠١
(٢) خليفة بن خياط ـ التاريخ ج ٢ ص ٥١٣ .
(٣) المصدر نفسه ص ٥١٧ .
(٤) المصدر نفسه ص ٥١٨ .

تتيجة حملات المعتصم في البحر بقوله إنه «أسر البوارج وهي مراكب الهند وكان فيها منهم عسكر عظيم قد غلبوا على ساحل فارس وعمان وناحية البصرة ..»[1] وهي صورة تبين الى أي مدى بلغت قوة هؤلاء القراصنة وعلى أي المناطق كانوا يسطون حتى كانوا يسطون على البصرة نفسها أيضا ... ثم تتكرر الأخبار كثيرا في عهد الواثق على الوتيرة نفسها ويقوم قائد بحري اسمه ابراهيم بن هاشم بغزو بحر البصرة بأمر من واليها أحمد بن رباح ثلاث مرات في ثلاث سنوات متوالية : ما بين سنة ٢٢٨ وسنة ٢٣٠ ويبلغ في الغزوة الأخيرة أداني بلاد سرشت (غرب حوض السند) فيحرق بعض قراها ويصيب سبيا ..[2] .

ولا شك أن حمى القرصنة وتوسعها هما اللذان كانا السبب في هذه الحملات المتتالية المتوسعة يدل على ذلك أن الناس في البصرة بلغ من حماستهم لتأمين الطريق أن كان يخرج منهم المتطوعة مع المقاتلين . ولدينا خبر عن كسر مراكب هؤلاء المطوعة سنة ٢٣١ في بحر البصرة بين جنابة وسينيز وقد أصيب في هذا الحادث ناس منهم[3] وهذه الاحداث كانت دون شك وراء القرار الذي أصدره الواثق في تلك السنة سنة ٢٣١ ، حسب رواية الطبري واليعقوبي بترك جباية أعشار السفن الواردة في بحر الصين[4] لقد كان الخليفة يريد الاسهام في التخفيف من أزمة البصرة وتجارها بفتح أبواب التشجيع لهم والتعويض عن خسائرهم المحتملة بالقرصنة ...

---

(١) المسعودي ـ التنبيه والاشراف ص ٣٠٧ . وخليفة بن خياط ج ٢ ص ٥١٨ و ٥١٩ .

(٢) خليفة بن خياط ـ التاريخ ج ١ ص ٥٢٠ .

(٣) الطبري ج ٩ ص ١٥٠ (٣/١٣٦٣) واليعقوبي ج ٢ ص ٤٣٨ .

ولا شك أنه كان لهذا التبرير أثره في دعم البصرة وتجارتها لكنا لا ندري متى توقفت الاعمال التأديبية في البحـــر ولا مدى نجاحها في ايقاف عدوان القراصنة ... فالمؤرخ ابن الخياط البصري الذي حفظ لنا هذه الأخبار ينهي تاريخه سنة ٢٣٢ .. على أن ما رواه التاجرسليمان المعاصر له والذي ترك لنا كتاب أخبار الصين والهند يكشف أن القرصنة ظلت قائمة وإن كانت قــد اصبحت «أمور البحر مستقيمة مع كثرة اختلاف التجار الى الهند والصين» على حد قول التاجر الآخر ابي زيد السيرافي[1] سنة ٨٥١/٢٣٦ .. وهذا يعني أنه كان على السفن الهابطة في بحر البصرة والخليج الأخضر محاذرة القراصنة الذي كانوا يأوون إلى الشعاب المختلفة على السواحل سواء في هذه المناطق أو بعدها في خليجي كنتش وكاثيوار ثم سواحــل المالابار وحتى جزيــرة سرنديب (سيلان) وأن يحرضوا بين الآونة والأخرى سلطان المناطق الاسلامية وغيرها لمكافحتها ...

وأما العلاقة مع الصين فإن ما تركه الجغرافيون المعاصرون كابن خرداذبة والتجار كسليمان وغيرهما من وصف مفصل للطريق البحري يدل على أن الطريق أضحى مطروقا معروفا ولكنا نجهل إن كان قد عبرته علاقات سياسية بين الخلفاء وابناء السماء . لقد كان العرب المسلمون قد وصلوا منذ زمن طويل ميناء خانفو (كانتون) وكانت منهــم هناك جالية واسعة ويبدو أنهم تخطوه وعرفوا المناطق في شماله وابن خرداذبة يذكر الموانيء التي وراءه نحو الشمال مما قد يعني وصول التجار المسلمين إليها حتى كوريا . على أن مركزهم الأكبر بقي في خانفو حيث كان لهم المسجد والقاضي والرعاية . ويصف سليمان التاجر في أخبار الصين والهند تنظيم

---

(١) حوراني ــ العرب والملاحة ص ٢٢٤ .

التجارة الدقيق لدى الصينيين فيقول : «•• وإذا دخـل البحريون من البحر قبض الصينيون متاعهم وصيروه في البيوت (مستودعات الجمرك) وضمنوا الدرك الى ستة أشهر الى أن يدخل آخرالبحريين ثم يؤخذ من كل عشرة ثلاثة ويسلم الباقي الى التجار وما احتاج إليه السلطان أخذه بأغلى الثمن وعجله ولم يظلم فيه ••»[1] وكان ثمة مفتش صيني للتجارة البحرية يسجل التجار اسماءهم عنـده ويفحص لاستيفاء الضرائب ما يقدمون من بيانات عن بضائعهم النادرة ••• ورحلة التجارة إلى الصين كانت تقتضي من صاحبها عاما ونصف العام على الأقل تبدأ في العادة من البصرة أو سيراف في خريف السنة لتعود في ربيع السنة الثالثة بعدها[2] لأن الطريق كان يقتضي ستة أشهر في الذهاب ومثلها في الاياب •••

ومع هذا البعد الشاسع فقد أمكن أن يتجمع في كانتون ، في وقت واحد ، سنة ٨٧٨/٢٦٤ أكثر بكثير من ١٢٠ ألف رجل من المسـلمين واليهود والنصارى والمجوس (الفرس) • والتاجر أبو زيد السيرافي هو الذي أورد هذا الرقم وذكر أنه معروف على وجه الدقة لأن الصينيين كانوا يحصون الأجانب لجباية الضريبة منهم • وقد انتهى وجود هـذه الجماعة تلك السنة نهايـة عنيفة في مجزرة دمويـة حين حاصر الثائر الصيني هوانغ ـ تشاو Hueng Ch'Ao مدينة كانتون وأعمل فيها النهب والسلب وقتل فضلا عن الصينيين ذلك العدد الضخم من الأجانب وبقي من هؤلاء بعد ذلك بقية ظلمها بالمصادرة والتعدي على الاموال والمتاع••

---

(١) انظر اخبار الصين والهند ـ القسمين ١٢و٣٤ وانظر حوراني ـ العرب والملاحة ص ٢١٧ .

(٢) حوراني ـ العرب والملاحة ص ٢٢١ .

في الوقت الذي كان فيه الوباء يأخذ على الطرف الآخر ، العربي ، من الطريق أي في سيراف وعمان ، جماعة واسعة من الربابنة والأدلاء[1] .. وإذا كانت هذه المصائب قد ألحقت بالخط التجاري البحري أفدح الخسائر وتكشفت الارقام الواسعة للعاملين عليه وبالتالي مدى النشاط الحيوي للتجارة العباسية وسعة العلاقات التي أقامتها مع أقصى الأرض، إلا إنه لا يبدو في الوقت نفسه أن تلك المجزرة في الصين قد أثارت أي ردود فعل لدى السلطات العباسية التي كانت في تلك الفترة مشغولة كل الشغل بمجزرة أخرى هي ثورة الزنج في البصرة ، الرأس الثاني للطريق ...

ب ـ العلاقات مع الترك والخزر :

ساهمت عوامل عدة في جعل العلاقات مع الجبهة العريضة التي يحتلها الاتراك في أقصى الشرق الشمالي الدولة الاسلامية مختلفة عن أي علاقات أخرى مع شعوب الحدود الاسلامية . وبدلا من ذلك العداء العنيف الذي كان يميز العلاقات معهم قبل قرن (في عهد نصر بن سيار حتى المنصور) حلت منذ مطالع القرن الثالث علاقات الصداقة والود والترابط المتزايد التي دفعت بخط العداء بعيدا جدا الى الشرق ليقع لا بين الاتراك الغربيين وبلد الاسلام كما كان من قبل ولكن بين الأتراك الشرقيين والغربيين ... بالرغم من أن الغربيين لم يكونوا قد اعتنقوا نهائيا وفي كثرتهم الكاثرة الاسلام .

ولعل أهم العوامل التي أدت الى ذلك هي :

أولا انسحاب الصين النهائي من تلك المناطق وتغلغل التاجر المسلم

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ .

والعالم المسلم والمطوعة للجهاد بدلا منها فيها مما نجم عنه انتشار الاسلام بين الترك الانتشار السلمي الحثيث .

ثانيا : عناية العباسيين بخراسان وارتكاز المأمون خاصة ، في انطلاقته الى الخلافة ، على هذه المنطقة وحاجته الى استقرارها مما دعا بصورة طبيعية الى العناية بالممالك التركية الخطرة المجاورة لها وقد برزت هذه العناية خاصة في ولاية آل طاهر .

ثالثا : وربما كان أهم من كل أولئك عملية التجنيد . وتحويل القوى التركية المضادة الى قوى مرتزقة في خدمة الدولة الاسلامية . وقد توسع المأمون في هذه السياسة وإن لم يكن هو الذي ابتدأها فكان «يوجه رسله فيفرضون ـ كما قال البلاذري ـ لمن رغب في الديوان وأراد الفريضة من أهل تلك النواحي وأبناء ملوكهم ويستميلهم بالرغبة فإذا وردوا بابه شرفهم وأسنى صلاتهم وأرزاقهم » (١)

رابعا : انتهاء الثورات الخارجية أو الدينية الايرانية أو ثورات المغامرين في خراسان وما وراء النهر وبدء الاستقرار وإذا كان قد نجم عن هذه العوامل ان أصبح عدد من أمراء الترك الكبار يرون في البلاط العباسي في خدمة الخلفاء كالأفشين وماوند السجستاني وأن أصبح عدد من غلمان الترك أسياد القوة العسكرية العباسية مثل إيتاخ وأشناس وبغا واستطاعوا بصفتهم العسكرية أن يسيطروا على منصب الخلافة نفسه حتى قتلوا المتوكل وحتى كان المؤتمر الثلاثي الذي عين الخليفة المستعين سنة ٢٤٨ مؤلفاً من ثلاثة من الأتراك هم : بغا الكبير وبغا الصغير وأوتامش .. إذا كان ذلك وما أعقبه من النتائج هو حصيلة تلك السياسة بالنسبة

---

(١) البلاذري ـ فتوح البلدان ص ٥٢٨ـ٥٢٩

للدولة العباسية فإن حصيلته بالنسبة للاتراك كانت أمرا آخـر مختلفاً جـداً :

ـ تراخت العنجهيات والعصبيات الملكية لدى أمراء الترك فكانوا يتركون بلادهم ليردوا باب الخليفة العباسي • وإذا كان هذا قد بدأ على نحو محدود زمن المأمون فقد توسع جدا أيام المعتصم حتى قال الصولي: «إنه لم يجتمع الملوك بباب أحد قط اجتماعها بباب المعتصم • ولا ظفر ملك قط كظفره • أسر ملك أذربيجان وملك طبرستان وملك استيسان وملك الشياصح وملك فرغانة وملك طخارستان وملك كابل •• »[1] وهذا يعني التسليم بالتبعية السياسية نهائيا للخليفة الاسلامي •

ـ سحبت من بلاد الترك القوى التي يمكن أن تحارب المسلمين وجندت لتحارب بالعكس معهم وقد توسع المعتصم في ذلـك « •• حتى صار جل شهود عسكره من جند أهل ما وراء النهر من السغد والفراغنة والاشروسنية وأهل الشاش وغيرهم ، وحقر ملوكهم بابه ••»[2] •

ـ «غلب الاسلام على من هناك (بتركستان) وصار أهل تلك البلاد (في حماسهم للدين الجديد) يغزون من وراءهم من الترك • وأغزى عبد الله بن طاهر (والي خراسان) ابنه طاهر بلاد الغوزية (أي الغز) ففتح مواضع لم يصل إليها أحد قبله ••»[3] والهام من هذا الأمر أن قوام قوى الغزو لم تكن الجيوش الرسمية أي جيوش الدولـة ولكن المرابطين والمطوعة الذين كانوا يفدون للغزو وجهاد الاتراك الشرقيين احتسابا لوجه الله •••

وهكذا صار الترك في هذه الفترة بالذات ، وبسرعة ، أحد العناصر

(١) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص٣٣٧
(٢) البلاذري ـ فتوح ص٥٢٩
(٣) البلاذري ـ فتوح ٥٢٩

الاساسية في مجموعة الشعوب الاسلامية • غزاهم الاسلام دينا وغزوه جندا وسياسة في دورة من التأثير العميق المتبادل • ولعل ما أوصل هذا الخط إلى نهايته وساعد على نجاحه الكامل :

ـ تمكن الجماعات التركية التي دخلت أرض الاسلام من أن تصل بسرعة وسهولة الى قمة المجتمع الاسلامي •

ـ استقرار خراسان وما وراء النهر في تلك الفترة والسياسة التي اتبعها آل طاهر ، ولاة المنطقة المتتالون فيها : فقد انتهت الثورات الدينية الايرانية - أو الخارجية ، أو ثورات الاستياء والتذمر فيها ، وصرف آل طاهر همهم إلى زيادة الانتاج الزراعي وانفقوا الأموال الطائلة بالملايين في تنظيم الري ووضع القوانين الفقهية له • وكسبوا ولاء الطبقات الفقيرة بالرعاية ونشر الثقافة العربية الاسلامية مما أوجد في البلاد نوعا من النهضة الثقافية الاسلامية الواسعة تركزت خاصة في ثالوث : نيسابور بخارى سمرقند • وكان من النتائج المباشرة لهذه النهضة أن شهد العالم الاسلامي ، في نهاية القرن الثالث ، طبقة كاملة هامة من ألمع علماء الاسلام ترد عليه مما وراء النهر : فيها البخاري ، والترمذي ، والفرغاني والبلخي والسمرقندي ، معلمة للدين لا متعلمة ! وكتب التراجم تغص من اسمائهم بالمئات كما تغص المكتبة العربية بمؤلفاتهم •

ونستطيع القول إن هذه الفترة من العصر العباسي كانت الفترة الانقلابية الكبرى في تاريخ علاقات الترك لا بالعباسيين فحسب ولكن بالاسلام أيضا •

أما الخزر فقد انتهت عملياتهم العدوانية ضد المسلمين منذ عصر الرشيد • ولكن يبدو أنهم ظلوا يحتفظون ، على أي حال ، بموقف العداء السلبي ، أو على الأقل لم يحاولوا كسر الجليد الحقدي بينهم وبين المنطقة الاسلامية ولهذا ورد اسم الخزر مرتين في مشاريع ضد الدولة العباسية :

ورد مرة في خاطر الأفشين أن يمر ببلادهم وهو هارب فيتحالف معهم لغزو بلاد الاسلام كما ورد مرة أخرى في مخطط الأرمن الثائرين ضد الدولة حين سحقت مقاومتهم على يد بغا الكبير فكاتبوا الخزر كما كاتبوا الصقالبة والروم • ولكن لم يقيض لأي من المشروعين أن يتحول الى عمل عدواني راهن ونجد بالعكس أن بعض الغلمان الخزر يبرزون في جيوش العباسيين وأن بعض الخزر الذين انفتحوا للإسلام يقدمون سنة ٢٤٠ على بغا وهو في أرمينيــة يرجون الاستقرار في الأرض الاسلامية فيبنى له مدينة ، يسكنونها مع بعض الجماعات الأخرى باسم المتوكلية •

ولم يمض على ذلك سوى سنوات حتى نشأت دولة أرمينية محلية لتكون نوعا من الحاجز الصدامي بين الدولة الاسلامية والخزر •

جـ ـ العلاقات مع البجة والنوبة (جنوب مصر)

كان المأمون قد أنهى ، قبل موته ، مشاكل الحدود مع البجة باتفاقية هدنة وأمان تحدد علاقات تلك المنطقة وملكها مع الدولة الاسلامية • غير أن هذه الاتفاقية لم تعش طويلا • فما جاء عهد المتوكل سنة ٢٣٢ حتى نقضت ذلك أن تطورات كثيرة في المنطقة دفعت البجة الى التمرد • فامتنعت عن أداء الإتاوة السنوية سنين متوالية • بل خرجت من بلادها فقتلت في مناطق التخوم حيث توجد مصانــع سبك الذهب «عددا من المسلمين العاملين في تلك المصانع وسبوا عدة من ذراريهم ونسائهم وذكروا أن المعدن لهم في بلادهم وأنهم لا يأذنون للمسلمين في دخولها» «وأوحش ذلك جميع من يعمل في المعادن من المسلمين فانصرفوا عنها خوفا على أنفسهم وذراريهم فانقطع بذلك ما كان يؤخذ للسلطان بحق الخمس من الذهب والفضة والجوهر الذي يستخرج من المعادن •••»[1] وفتحوا

(١) انظر ابن خلدون ـ العبر ج٢ ص٢٢٧

سنة ٢٣٢ نفسها بلدة انبوا (كوم امبو) وسبوا مافيها وقتلوا ماشاء لهم القتل[١] •

وكتب عامل بريد مصر بذلك الى المتوكل فاشتد انكاره وشاور في الأمر فأفهمه العارفون أن البلاد مفاوز وصحاري بعيدة وأرض قفر وجبال وعرة ولا بد في حربها من الميرة الكثيرة فإن طالت المدة على الجند فيها هلكوا • فأمسك الخليفة بينما كان أمر البجة يتزايد وجرأتهم على المسلمين تشتد حتى خاف أهل الصعيد كله منهم •••

أما السبب في انتقاض البجة فلا شك أنه سبب اقتصادي كشفه ابن حوقل : إذ «اتفق في تلك الفترة أن آلافا كثيرة من العرب تركت أرض اليمامة هاربة من جور الأخيضر محمد بن يوسف الحسني الذي تغلب هناك فنزلت أرض المعدن» وغلبت على من كان بها في شمالها خاصة «وتكامل بالعلاقي (وهو وادي تصفية الذهب) قبائل ربيعة ومضروهم جميع أهل اليمامة في سنة ٢٣٨[٢]» مع بطون أخرى من اليمن أيضا • وفي الوقت نفسه كان والي أسوان عبيد (أو عبد الله) بن الجهم مولى المأمون قد أراد الانتقام لتدمير انبوا فركب النيل إلى ما وراء اسوان سنة ٢٣٢ نفسها ثم دخل أرض البجة واثخن فيهم قتلا وسبيا واسترد ما سبوا ولكن جنده الذين «عاينوا آثار بعض المناجم أو بعض المسابك التي كانت في المنطقة للروم» طمعوا في ذهبها فعادوا في تلك السنة نفسها إليها • ولا شك أن الضغط السكاني العربي القادم من الشرق والشمال يزاحم البجة على أرزاق منطقتهم قد أثارهم ودفعهم إلى العدوان • ولا شك أن خصومات كثيرة قامت بينهم وبين العرب الوافدين دفعتهم الى التكاثر عليهم وطردهم ••

(١) ابن حوقل — صورة الارض ص ٥٧
(٢) المصدر نفسه ص٥٨

ولم يكن بإمكان الخليفة المتوكل أن يقف مكتوف الأيـدي بعد انقطاع الخمس عنه وطرد العرب المسلمين من رعاياه وتهديد جنوب مصر كلها من قبل هذه القبائل ويروي ابن حوقل أن بعض العرب كتب له أن رجلا من البجة شتم الرسول ... ولعلها كانت نوعا من الإثارة فقد كان لدى المتوكل من الأسباب ما يدفعه للتحرك فاختار رجلا من القواد يعرف بمحمد بن عبد الله القمي من ولد أبي موسى الأشعري[1] . وولاه سنة ٢٣٨ القلزم ومعاون تلك الكور مـا بين قفط حتى شمال أرض المعدن وطريق الحجاج الى الحجاز .

وجاء محمد القمي في ألف رجل نصفهم من الفرسان وأطلق له في مصر عشرة آلاف دينار «فوجه الى القلزم فحمل في البحر سبعة مراكب موفرة بالدقيق والزيت والتمر والسويق والشعير وأمر قوما من أصحابه أن يلجوا بها في البحر حتى يوافوه في ساحل .. أرض البجـة (عند عيذاب) ..»[2] .

وانضم الى القمي حين وصل العلاقي «ثلاثة آلاف من ربيعة ومضر واليمن من كل بطن ألف» بعد أن كان انضم إليه في مصر بأمر المتوكل بعض الجند والشاكرية وبعض المطوعة فصار جيشه في حوالـي سبعة آلاف[3] بين فارس وراجل . دخل بهم أرض البجة من وادي العلاقي

---

(١) انظر البلاذري – فتوح البلدان ص٢٨٢ . وابن حوقل (ص٥٨) يذكر أن القمي كان في السجن مطالباً ببعض الدماء فأطلقه المتوكل لهـذا الجهاد .

(٢) يذكر الطبري تفاصيل تلك الحملة ج٩ ص٢٠٣–٢٠٦ (١٤٢٨/٣–١٤٣٣) كما يذكره ابن حوقل (ص٥٧–٥٩) .

(٣) يذكر ابن خلدون (ج٢ ص٢٢٨) أن جيشه بلغ عشرين ألفاً وقد فضلنا الرواية الأقل بسبب صعوبة تموين الآلاف العشرين في تلك المناطـق الجرداء وصعوبة حركتها .

وأوغل إيغالا كبيرا حتى جاوز المعادن التي يعمل فيها الذهب وصار الى حصونهم وقلاعهم» والى «قلعة ملك البجة»[1] وعاصمته : هجر في أقاصي الوادي البعيدة •

ويذكر ابن حوقل أن ملك البجة كان يدعى علي بابا وأنه كان في مائتي ألف معهم ثمانون ألف نجيب • ولا شك أن الرقم مبالغ فيه وأنه يعكس الخوف الذي أصاب جنود القمي أكثر مما يصور الواقع لأنه حين «عاين ذلك المسلمون هالهم وعظم عليهم» ويبدو أن علي بابا أقام خطته على أساس مطاولة الجندالاسلامي وتركه دون قتال مدة طويلة كي تنفذ مؤنه • فجعل يحاوره من مختلف الجهات ويناوشه دون قتال • وعسكر القمى يشجع أصحابه ورمي حول عسكره حسكا من الحديد[2] جعله سورا لجنده • «ولما توهم عظيم البجة أن أزواده نفذت وجمع جيشه للحرب وصلت القسى ميرة المراكب فتقوى بها وأصحابه • فلما بدأ القتال • احتال حيلة بارعة إذ رفع على الأسنة في الصباح المبكر كتبا في طوامير كتان بالذهب وجعلها بخط جليل ونادى : هذه كتب أمير المؤمنين • فلما رأت البجة ذلك وهم صافون للحرب استطرفته وتحللت من المصاف وقصدته وكان القمى قد حمل البنود على الفوالج والطبول فلما التفت البجة بالطوامير ضربت الطبول الزنجية فاضطربت صفوفهم فحمل عليهم وقد التفت جمالهم وشردت فهلك بتلك الغرة عامتهم ووطئتهم الجمال فقتل وأسر وسبي •••» ويروي البلاذري وابن خلدون ان الحيلة كانت بتعليق الأجراس على الخيل فلما سمعت إبل البجة أصواتها تقطعت

---

(١) ابن خلدون ج٢ ص٢٢٩ والبلاذري — فتوح البلدان ص٢٨٢
(٢) ذكر ابن حوقل أن بقية ذلك الحسك موجود في أسوان ، في عهده مع خزانة القمي ولعله نقل هناك للذكرى . انظر ص ٥٨

بالبجويين في الأودية والجبال» وكانت النتيجة هزيمة البجة فأما ملكها علي بابا فيروي البلاذري أنه قتل وقام بالملك من بعده ابن أخته «على قاعدتهم في توارث العرش فطلب الهدنة وأبى المتوكل ذلك عليه إلا أن يطأ بساطه في سامراء •• وأما ابن حوقل فيذكر أن علي بابا استقر على ربوة وحلف ألا يزول أو تنقلع الربوة فأخذ أسيرا (أو استسلم بالأمان) وقدم به القمي الى أسوان مع الغنائم التي غنم فباع ذلك وكان مبلغه خمسين ألف أوقية تبرا ••»(1) وكان ذلك سنة ٢٤١ وكان في الغنائم تاج الملك ومتاعه وخراج السنوات الأربع التي امتنع فيها عن دفع الاتاوة •••

ويبدو أن ملك البجة كان قد تحالف مع ملك النوبة ، على وادي النيل ، ضد المسلمين لأن القمي بعث إلى هذا الملك واسمه يركي فأتاه طائعا الى أسوان فانحدر بالملكين الى العراق فوصل سامراء أواخر سنة ٢٤١ ويروي ابن حوقل أن المتوكل أمر فنودي على الملكين للبيع في السوق • فاوقفا عند باب العامة مع قوم من البجة نحو من سبعين غلاما على الإبل بالرجال ومعهم الحراب وعليها رؤوس قتلاهم ، فبلغ ملك البجة سبعة دنانير وملك النوبة تسعة فأجرى المتوكل لكل منهما راتبا يوميا بمقدار ثمنه وخلع عليهما وصولح الاثنان على أداء الإتاوة (من البجة) والبقط (وهو مثل الجزية) من النوبة بمعنى أن معاهدة المأمون مع البجة جدد العمل بها من جديد كما جدد العمل بالبقط • وعهد المتوكل بولاية

---

(1) انظر البلاذري – فتوح ص ٢٨٢ وابن حوقل (ص٥٨) وهو يجعل المعركة وانحدار الملكين الى العراق في سنة ٢٣٨ . وقد آثرنا مع المنطق التاريخي رواية ابن خلدون (ج٢ ص٢٢٨–٢٢٩) وهو يروي أيضاً ان علي بابا استخلف على البجة أثناء زيارته للعراق ابنه لعيس .

المنطقة الى سعد الايناخي فولى عليها القمى نفسه فارتد إليها والملكان معــه •

غير أن هذا الوالي قتل سنة ٢٤٥ من قبل بعض أصحابه «فزال منذ ذلك أمر السلطان العباسي في العلاقى وهلك المتوكل (سنة ٢٤٧) فعادت البجة «••• فضبطت أطرافها (بلادها وحدودها) والاسلام في بعضهـا مريض ••» ولم يعد التجار يجاوزون في التوغل في تلك الأرض المناطق الشمالية يحملون إليها الصوف والقطن والحيوان من الرقيق والابل حتى استطاع بعض العرب المسلمين إقامة ممالك لهم في داخلها من بعد •

أما العلاقات مع **النوبة** فقد كان ينظمها منذ عهد المهــدي البقط القديم الذي تم تجديده على يده وقد كشف عنه عبد الله بن طاهر . حين جاء مصر واليا سنة ٢١٠ من قبل المأمون ، ليحكم بموجبه معهم ووجد نسخته في الديوان بالفسطاط[1] • على أنه يبدو من الأخبار أن الإتاوة كانت تعتبر رمز خضوع وولاء سياسي وأن تأخر النوبة في تقديم الإتاوة السنوية كان يؤدي الى شن الغارة عليهم ومنع إخراج المؤن إليهم •ويذكر المقريزي ان ابن ملك النوبة أيام المعتصم أنكر على أبيه بذله الطاعة للدولة الاسلامية واستعجزه فيما يدفع من الخراج السنوي فأرسله يزور تلك الدولة قبل أن يقرر الطاعة أو العصيان ويقول الخبر إن هذا الابن المسمى فيرقي بن الملك زكريا بن بحنس زار الخليفة المعتصم رسولا من قبل أبيه فكانت البلاد تزين لــه وبهره ما لقي من عظمة الخلافة ومالها وما أهداه الخليفة له وخيره المعتصم أن يطلب ما يشاء فطلب إطلاق المساجين فكبر في عين الخليفة ووهبه الدار التي نزلها بالعراق وأمر ببناء دار له في كل منزل على طريقه تصبح دارا لرسل النوبة وأجرى لــه في ديوان مصر

---

(١) المقريزي ـ الخطط (ط بيروت) ج١ ص٣٥٤

سبعمائة دينار وخلعا ومركوبا . وجعل دفع البقط كل ثلاث سنوات وكتب لهم كتابا بذلك . وأمضى له طلبات عديدة أخرى[1] .

ويظهر أن هذا الوفد النوبي كان مهمته الاساسية أو الظاهرة حل الخلاف حول دفع البقط كل ثلاث سنوات او كل سنة فقد أشار البلاذري المؤرخ الذي كان يعاصر المعتصم والمتوكل الى ذلك بقوله : «... وقد ادعوا به حديثا أنه ليس يجب عليهم البقط لكل سنة وأنهم كانوا طولبوا بذلك في خلافة المهدي فرفعوا إليه (الاعتراض) فأمر أن يؤخذ منهم كل ثلاث سنوات بقط سنة ... ولم يوجد لهذه الدعوى ثبت في ديوان الحضرة (في سامراء) ووجد في الديوان بمصر ..»[2] .

على أنه يبدو من جهة أخرى أن النوبة لم يكونوا خالصي الولاء المدولة الاسلامية وإن سادت علاقاتهم طابع الهدوء والسلام معها . ويبدو أنهم حاولوا الاتفاق اكثر من مرة مع البجة ضدها أو حاول هؤلاء الاتفاق معهم فكان النوبة يتخذون من البجة كبش صدام لكنهم لايجهرون للإسلام بالعداء ولعل أول محاولة نعرفها من هذا النوع كانت أيام تحرك البجة في عهد المأمون سنة ٢١٢ ــ سنة ٢١٦ ثم كانت المحاولة الثانية في عهد المتوكل بين سنة ٢٣٢ ــ سنة ٢٤١ ولهذا ما إن انتصر محمد القمي على البجة وأسر ملكهم حتى بعث إلى ملك النوبة يستقدمه إليه . ولم يجد هذا الملك محيصا من المسير الى أسوان . ومن تلبية طلب المتوكل بالمسير الى سامراء . وتتضح مؤامرته مع البجة لا من تصرف القمي معه ولكن من تصرف المتوكل الذي عرضه للبيع عند باب العامة مع صاحبه البجوي فبلغ ثمنه تسعة دنانير . ولم يكن هذا التصرف من الخليفة سوى

---

(١) المصدر نفسه .
(٢) البلاذري ــ فتوح البلدان ص ٢٨١

محاولة أخيرة في إذلال الرجل وإرهابه لأن المتوكل عاد فخلع عليه الخلع وأجرى له الجراية اليومية مدة مقامه . وجدد الرجل الاعتراف بالبقط قبل أن يعود إلى قاعدة ملكه ..

د ـ صراع القوى البحرية في المتوسط

كان عهد جديد قد بدأ في تاريخ البحر المتوسط منذ أوائل القرن الثالث بنزول الأغالبة في صقلية وسقوط كريت بين المسلمين سنة ٢١٢ وإذا كان من أولى نتائج تلك الأحداث كسر رقابة بيزنطة على تجارة هذا البحر وإلغاء السيطرة المطلقة للبيزنطيين عليه فقد كان من تلك النتائج أيضا إجبارهم على توجيه قواهم البحرية إلى بحر اليونان وبحار صقلية بدلا من استخدامها ضد العباسيين في الشرق . ومقابل ذلك فان بني العباس تنبهوا بسبب عوامل عديدة إلى ضرورة العناية بالقوى البحرية في حوض المتوسط الشرقي أي في سواحل الشام ومصر لا نتيجة ما أعطاهم النجاح الاسلامي الكريتي ـ الصقلي من تشجيع ولكن نتيجة عدد من الضربات التأديبية التي وجهها البيزنطيون الى اثنين على الأقل من أهم المدن الساحلية الاسلامية في الشام ومصر وهما : انطاكيةودمياط ... ولكن هذه العناية العباسية مع ذلك ظلت محدودة نسبيا لأن الطابع القاري الآسيوي لخلافة بغداد كان قد غلب عليها تماما منذ تغلب المأمون على العرش . وبالرغم من المشاريع التي خطرت في بال هذا الخليفة آخر حياته، وفي بال المعتصم ثم المتوكل بضرب القسطنطينية فانهم جميعا كانوا يفكرون بريا وليس في مخططاتهم مكان للبحر ، عدا المكان المحدود الذي خصصه له المعتصم . كما انهم جميعا لم يحاولوا الاستفادة من تينك الاستطالتين البحريتين الهامتين اللتين كانتا على أي حال تابعتين لهم من الناحية الاسمية وهما كريت وصقلية الأغالبة كان يخطب لهم على

منابرهما ، وهما رأس جسر متقدم جدا لتطويق الامبراطورية البيزنطية بحرا ومن الجنوب والغرب ، وتحاربان بيزنطة ولكن بمبادرتهما الذاتية لا بأوامر ولا بتدخل من خلافة بغداد التي كانت ـ إلا فيما ندر ـ تقف موقف المتفرج البعيد • بل لقد كتبت قوى أخرى اسلامية من ايطاليا لبني العباس فلم يجد هؤلاء الوقت للرد عليها !

وعلى أي حال فإن صراع القوى البحرية خلال معظم القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي كان ، رغم خبرة بيزنطة وسعة أسطولها وقوته صراعا بين قوتين متكافئتين تتنازعان السيطرة على طرق التجارة ومواقع النفوذ في هذا البحر • البيزنطية والاسلامية ، وإذا تركنا جانبا القوى البحرية الايطالية والقوى الفرنجية والاندلسية وهي بعيدة عن ميدان الصراع الذي يهمنا وهو الحوض الشرقي للمتوسط • فإن ذلك التكافؤ الذي استمر أقل قليلا من قرن لم يتحول في مرة من المرات لمصلحة القوى البحرية الاسلامية لا بسبب العجز في القوى ولكن نتيجة عدم التنسيق• كانت القوى البحرية العباسية تمتد من الناحية النظرية من صقلية إلى كريت والشام ومصر • ولكنها من الناحية العملية كانت مكونة من ثلاث قوى منفصل بعضها عن بعض وقلما تعاونت أو اتفقت مشاريعها في العمل وضرباتها في الزمن وفي المواقع الاستراتيجية الأساسية • ولم يفكر العباسيون لحظة في أخذ المبادرة لجمعها ولتنسيقها لأن البحر المتوسط لم يكن ضمن الدولة بالنسبة إليهم كما كان لدى الأمويين ولكن على نهاية حدودها •••

وقد كانت القوى البحرية العباسية في الشام ومصر ، أضعف القوى الثلاث وربما زاد في ضعفها أن الحصار الاقتصادي البزنطي حرم تجار الشام ومصر من الحركة البحرية في حوض المتوسط الشرقي ومن الوصول

الى الحوض الغربي • وقد أصدر ليو الخامس امبراطور بيزنطة (بين سنتي ٨١٣ ـ ٨٢٠) قرارا «يحذر رعاياه ولا سيما البنادقة من الاتجار مع الشام ومصر •• ويحتمل وجود محـاولات مشابهـة لوقف التعامل التجاري المحظور بين جزر بحر ايجه وشواطىء آسيا الصغرى وبين مصر وسورية»[١] •

ومن المحتمل أن يكون السبب في هـذا الأمـر ، بجانب معناه الاقتصادي هو رغبة ليو الخامس في معاقبة انصار تومـاس الصقلبي الثائر الأيقوني الذي يبدو أنه هيأ ثورته وجمع رجاله من العرب والفرس والأرمن والكرج اثناء وجوده في الشام مـا بين سنتي ٨٠٣ ـ ٨١٣ كما اتفق ، بعد الثورة مع السلطات الاسلامية (أو على حد قول بيوري مع المأمون) وأقام معها معاهدة تحالف كان من نتيجتها أن أمدته بالعون وتم تتويجه امبراطورا لبيزنطة على يد البطريق أيوب بطريق انطاكية برضى الخليفة نفسه[٢] ولا شك أن البطريق وهو يتوجه كان يرمي الى رفض الهرطقة اللاأيقونية التي تسير عليها سياسة ليو الخامس وسياسة من خلفه من بعده وهو ميخائيل الثاني العموري •

وبالرغم من أن المصادر العربية لا تتحدث عن معونـة المسلمين لتوماس الصقلبي فيبدو أن ولاة الشام ومصر وجهـوا قواهم البحرية لمعونته معونة سلبية أو استغلال شغل الدولة به وتمرد أساطيلها عليها • ووقوفها بجانبه «للقيام بإجراءات انتقامية» ضد الحصار الاقتصادي الذي فرضه • وقد تسبب عن هذا الحصار «هجـرة كثير من المسيحيين من

---

(١) ارشيبالد لويس ـ القوى البحرية ص ١٧٩ (الترجمة العربية) •
(٢) انظر
Bury, A. His. of the east. Rom. Emp. p, 88

الشام وفلسطين الى قبرص والأناضول في سنة ٨١٣ » وما بعدها[1] لا سيما بعد أن تحولت ثورة توماس إلى ثورة «بروليتارية» فلاحية ــ تماما كثورة بابك المعاصرة لها ــ وأعلن الرجل نفسه مدافعا عن الفقراء والمظلومين حتى «رفع العبد يده في وجه سيده وخرج الجندي على طاعة قائده» ...

وقد ألح البيزنطيون في الهجمات على انطاكية بين سنتي ٢١٣ ــ ٨٢٨/٢٢٦ ــ ٨٤١ ونهبوا هذه المدينة[2] ودمروا سكانها لموقفها المعادي دينيا (في الأيقونية) وسياسيا (في تتويج توماس) ضد بيزنطة حتى لقد أمر المعتصم إثر الهجوم ونهب التجار في الميناء وأسر الناس ببناء حصن بمنطقة الميناء المسماة سلوقية[3] ويبدو أن هذه الهجمات ، أقنعت خليفة سامراء بضرورة وجود قوة بحرية تحمي الشواطىء الشامية والمصرية وتتعاون في الوقت نفسه إن لم يكن مباشرة فبشكل غير مباشر مع اسطولي كريت وصقلية الناجحين في غزو القسطنطينية ... وهكذا أمر المعتصم اثر عودته من فتح عمورية سنة ٨٣٨/٢٢٣ ببناء السفن في الشام . ويبدو أن مراكز بناء هذه السفن كانت ثلاثا : دمياط ، وصور وطرسوس . وإذا كانت دمياط قديمة في الصناعة فإن هشام بن عبد الملك هو الذي نقلها في الشام من عكا الى صور «واتخذ بها فندقا ومستغلا . ثم توسع الاهتمام يوم أمر المتوكل بعد ذلك بترتيب المراكب بعكا وجميع السواحل وشحنها بالمقاتلة[4] سنة ٨٦٢/٢٤٧ وأما طرسوس فنعرف

---

(١) ارشيبالد لويس ــ القوى البحرية ص ١٧٩
(٢) انظر تاريخ ميخائيل السرياني (الكبير) بالفرنسية (ترجمة شابو) ج٣ ص ١٠١
(٣) المرجع السابق نفسه وقد ذكر البلاذري ــ فتوح ص ١٩٨
(٤) البلاذري ــ فتوح ص١٤٠ و ص١٩٣

بناء السفن بها مما سيكون لأساطيلها من شأن حربي عما قريب .

وكانت أولى نتائج هذه العملية بعد أربع سنوات من العمل تحرك أسطول اسلامي سنة ٨٤٢/٢٢٧ مكون من ٤٠٠ سفينة الى بحر ايجه يقوده قائد عربي يعرف بأبي دينار[١] ... على أن الخليفة المعتصم والامبراطور البيزنطي تيوفيل كلاهما توفيا معا في شهر واحد من تلك السنة بينما كانت القسطنطينية تأخذ أهبتها لمواجهة العاصفة المنتظرة ودفعها وهي لم تعرف مثلها منذ قرن وعشر سنوات كان الاسطول الاسلامي نفسه يصطدم بالعواصف فتشتت شمله عند رأس كيبربوت (خلدونية) فلم يعد منه الى الشام سوى سبع سفن[٢] .

ولم يأبه الواثق بعد هذه المأساة البحرية بمعاودة البناء والعمل لأنه لم يكن يحمل مشاريع أخرى غير مشاريع ابيه وبعيدة عن الحرب في الأناضول أو البحر . حتى إذا جاء المتوكل بعده جاءت ضربة فاجعة لتفتح عينيه من جديد على البحر وكانت أقسى وأعنف ما شهدت الموانىء الشامية المصرية منذ العهد الأموي من ضربات وهي : تدمير دمياط سنة ٨٥٣/٢٣٨ : وكان هذا البلد هو دار الصناعة للاسطول الذي يشكل قوة كريت البحرية . والذي بث الرعب في بحر ايجه وهدد المواصلات التجارية والعسكرية لبزنطة . كما كانت كريت تعتمد في المؤن اللازمة وفي التسلح على دمياط والاسكندرية . فأراد البيزنطيون قطع

---

(١) يحيط الغموض باسم أبي دينار هذا وقد ظن بعض الباحثين انه قد يكون جعفر بن دينار الخياط والي طرسوس ولكن جعفرا قد جاء طرسوس والصائفة في وقت لاحق متأخر سنة ٢٤٧ كما كان واليا على اليمن ايام الواثق .

(٢) انظر Bury, A. Hist. of the East R. E. P 274 Vasilier, Byzancel et les Arabes, I, 192-193 .

كريت عن منابع قوتها البحرية وتموينها ولعل الخطة البيزنطية كانت تتضمن خطوة تالية هي الهجوم على كريت بعد عزلها وقطع اتصالها مع مصر .

على أن هجوم دمياط كان يعكس بما رافقه من قسوة همجية وتدمير مدى الحقد الذي ملأ قلب البيزنطيين على كريت . فقد جمعوا للحملة ثلاث مائة سفينة تشكل ثلاثة اساطيل ، وهي قوة ندر أن جمعتها بيزنطة لهجمة واحدة منذ الفتح العربي . وقد كلف اثنان منهما على مايبدو بمراقبة سواحل الشام وببعض الاعمال الحربية في بحر ايجه حول كريت ونزل الثالث في ٨٥ سفينة تحمل كل منها خمسة آلاف محارب[١] على دمياط . قاد الهجوم قائد دعته المصادر العربية ابن قطونا[٢] وتسميه المصادر البيزنطية نيقيتاتوس[٣] ودخل الروم البلد (في ٢٢ مايس سنة ٨٥٣) فلم يجد بها أحدا من الجند المدافعين لأن صاحب المعونة بالفسطاط كان قد استدعاهم لحفل عيد الأضحى ...

وبالرغم من أن السكان قاوموا ببطولة قبل أن يهجروا المدينة هاربين إلا ان الجند البيزنطي انزل الدمار والحريق بالمدينة وفيها الكثير من الأخصاص القصبية « واحتملوا سلاحا كان فيها . لأبي حفص صاحب

---

(١) يذكر الطبري(٩ ص ١٩٣-٣/١٤١٧) أن قوادالاساطيل الثلاثةهم: «عرفا وابن قطونا وامردناقه وهم كانوا الرؤساء في البحر مع كل واحد منهم مائة مركب ..» ويقول اليعقوبي ان قائد الهجوم يدعى قطوباريس .

(٢) هذه رواية اليعقوبي واحدى روايات الطبري الا انه يذكر رواية أخرى تجعل عدد المراكب ١٠٠ في كل منها مابين ٥٠-١٠٠ محارب . انظر الطبري ج٩ ص٩١٤ (٣/١٤١٦) وانظر اليعقوبي ج٢ ص٤٨٨

(٣) انظر فازيلييف - العرب والروم ص١٨٩ (تعليق١) وانظر اسد رستم - الروم ج١ ص ٣٣٥

اقريطش نحوا من ألف قناة وآلتها ••• وأخذوا من الأمتعـة والقند والكتان ما كان عبيء ليحمل الى العراق ••• وقتلوا من أمكن قتله من الرجال وسبوا من المسلمات والقبطيات واليهوديات نحوا من ٦٠٠ امرأة (منهن ١٢٥ مسلمة)[١] وأحرقوا خزانة القلوع (أشرعة السفن) ومسجد الجامع وأحرقوا كنائس» ••• وقد «غرق في بحيرة دمياط من النساء والصبيان اكثر مما سباه الروم ••• ثم رحل الروم» بعد يومين من التدمير وقد أوقروا «الشلنديات» بالمتاع والأموال والنساء •

وانتقلت الحملة إثر ذلك الى تنيس فلم يستطيعوا الاقتراب منها لكثرة كثبان الرمل وضحالة الماء حولها فهاجموا مرساها أشتوم (على اربعة فراسخ منها) وكان له سور وبابان من الحديد كان المعتصم أمر بعملها له فخربوه وأحرقوا ما فيه من المجانيق والعرادات وأخذوا بابيه الحديد ••• ثم توجهوا لبلادهم لم يعرض لهم أحد ••• »[٢] •

ويبدو أنهم كرروا الهجوم كرة أخرى في السنة التالية سنة ٢٣٩ /٨٥٤ على ما يروي المقريزي: «جاؤوا في نحو مائتي مركب فأقاموا يعبثون في السواحل شهرا وهم يقتلون ويأسرون» فلم يحصلوا على[٣] نجاح آخر كالأول •• ثم انتظروا خمس سنوات أخرى ليعاودوا الهجوم

---

(٤) انما ذكرنا الرقم للدلالة على نسبة المسلمين والقبط بين السكان واليعقوبي يذكر انهن ١٨٢٠ مسلمة وألف من القبط ومائة يهودية والمبالغة في أرقامه واضحة لان سفن الاسطول لا تحمل فوق الجند والبضائع المنهوبة هذا العدد .

(٥) تفصيل الهجوم كله لدى الطبري ج٩ ص١٩٣–١٩٥ (١٤١٧/٣–١٤١٩) •

(١) المقريزي ـ الخطط ص٣٧٧

ولكن على الفرما[1] (بلوزيوم) في هذه المرة ... ولم يكن الاسطول بالقوة الأولى فكانت هجمة عابرة ... ويرى المؤرخ فازيليف أن كان لهذه الهجمات الرومية أثرها البعيد في نمو البحرية العربية إذ دفعت إلى التفكر الجدي في إنشاء اسطول بمصر[2] وهو يتابع في ذلك رأي المقريزي الذي يذكر أنه « أنشيء من حينئذ الاسطول بمصر»[3] ويضيف فازيلييف أنه «صبح أمر البحر اكبر الأمور شأنا إذ بنوا السفن الحربية وجعلوا للبحارة مثل عطاء الجند وأنزلوا الأمراء الرماة في الاسطول .. حتى اضحى الانخراط فيه من دواعي الاحترام . وهذا هو نفسه الأسطول الذي سيكون له اكبر الشأن في النصف الثاني من القرن الرابع ــ العاشر، أيام الفواطم خاصة» ويظهر أن في هذا الرأي بعض المبالغة فإن العباسيين حين احتاجوا بعد حوالي عشرين سنة (سنة ٨٧٧) الى حملة بحرية أمروا ببناء السفن في مصر والشام مما يدل على عدم وجودها وبذلك أنشيء الاسطول الطولوني وقد احرقت مراكز هذه الصناعة في ثورة سنة ٣٢٣ وهرب الثوار بعد ذلك بالاسطول الى برقة ... وأما الفاطميون فإنهم أعادوا انشاء الاسطول من جديد .. وعلى أي حال فقد كانت النتيجة المباشرة لمأساة دمياط تحصين سواحل مصر وغيرها والأمر ببناء اسطول قالوا : «أمر المتوكل بترتيب المراكب بعكا وجميع السواحل وشحنها بالمقاتلة » وإذا كان البلاذري يذكر أن ذلك كان سنة ٢٤٧/٨٦٢ فيظهر أن الأمر كان قبل ذلك بسنوات لأنا نجد الأسطول الشامي أو الطرسوسي

---

(١) الكندي ــ الولاة والقضاة ص٢٠٣

(٢) فازيلييف ــ العرب والروم (بالفرنسية) ج١ ص٣١٧ والترجمة العربية ص ١٩٢

(٣) المقريزي ــ الخطط ج١ ص ٣٧٨

يشارك القوى البرية المحاربة سنة ٢٤٦ في الهجوم على الروم إذ يقوم عشرون مركبا يقودها الفضل بن قارن (شقيق المازيار اصبهبذ طبرستان وهو الذي قتل بحمص بعد أربع سنوات) فيهاجم القاعدة البحرية البزنطية الأناضولية في أضالية (حصن انطاكية)[1] ...

ويبدو أن العناية بالأسطول العباسي تركزت بعد ذلك في سواحل الشام وفي ثغر طرسوس لأن مصر استقلت بنفسها مع ابن طولون الذي اصبح له سياسته وأسطوله . أما الأسطول الشـامي الطرسوسي فسوف يغير على جزيرة ايوبيا في بحر ايجه سنة ٢٥٩/٨٧٣ وربما كانت معه في هذا الهجوم سفن كريتية وذلك قبل أن يقع الشام وتقع طرسوس نفسها في يد ابن طولون ويصبح الأسطول فيها جميعا بيد مصر والطولونيين .

وإذا انتقلنا بعد هذا إلى كريت وجدناها اكثر اعداء بيزنطة خطرا وتصميما في تلك الفترة ولعل سقوط كريت هو الذي جعل بيزنطة تخسر صقلية بعدها . وقد حاولت بيزنطة عبثا إما استرداد الجزيـرة أو على الأقل كف عاديتها وهجماتها فلم تفلح لا في هذه ولا في تلك .

أرسلت عليها كراتيراس حاكم اقليم كبير هايوت العسكري على رأس ٧٠ سفينة ففشل وأجاب مسلمو كريت على هذه الهجمة بغارات عديدة على مختلف الجزر والسواحل حتـى أصابوا سنة ٢٢٤/٨٣٩ نصرا باهرا دمروا فيه الاسطول البزنطي قرب جزيرة تاسوس .واستطاعوا بمؤامراتهم الناجحة أن يشلوا مسيرة اسطول ضخم جمعته بيزنطة في العاصمة وعينت لـه القائد تيوكسيتـوس . فلم يبحر الاسطول من موانيـه ...

---

(١) الطبري ج٩ ص٢١٩ (١٤٤٩/٣)

واستمرت كريت في غاراتها في أنحاء بحر ايجه كما اشتركت في الاعمال البحرية في ايطاليا والبحر الأدرياتي دون أن تستطيع بيزنطة إيقاف فعاليتها القوية إلى أن قررت بيزنطة ضرب كريت في دمياط ... لكن حتى هذه الضربة لم تؤثر على كريت في شيء ... على أن هذا النشاط الواسع الناجح كان في الواقع ضائعا لأنه اقتصر على الهجوم الدفاعي ولم يكن لها لا اتساع الأرض ولا كثرة الرجال والموارد والصناعات التي تسمح لها بالمقاومة الطويلة يضاف إلى ذلك أنها لم تنسق أعمالها مع القوى الاسلامية الأخرى . ولم تقبل في حرصها على استقلالها الذاتي أن تكون على أي علاقة سوى الشكل الظاهري في الخطبة مع بني العباس الذين كانوا بدورهم على أي حال مشغولين بمشاكلهم الداخلية عن التفكير بمصير البحر المتوسط .

ولعل صقلية وقوى الأغالبة فيها كانت أبعد أثرا في انهاك القوى البزنطية وزعزعتها بحريا في هذه الفترة . فإن نزول بني الأغلب في تلك الجزيرة جعلهم ، مرغمين جزءا من تلك القوى المتعددة التي تلعب بمصير ايطاليا في الوقت الذي أجبر فيه بيزنطة على تحويل اسطولها الشرقي الى الغرب .

واستطاع الأغالبة تحقيق انتصارين أحدهما استراتيجي باحتلال جزيرة قوصره وهي منتصف الطريق البحري إلى صقلية والثاني سياسي بكسب صداقة نابولي والتحالف معها حتى استطاعوا بمعونة اسطولها احتلال مسينا سنة ٢٢٨/٨٤٣ المسيطرة على المضيق بين ايطاليا وصقلية(١) .

---

(١) ارشيبالد لويس ـ القوى البحرية ص٢١٣

وتدعم مركز الأغالبة ، معنويا على الأقل ، اثناء ذلك ، باتنصارات اسلامية تحققت على الأرض الايطالية بشكل متتابع سريع أوقعت البحر الادرياتي كله تحت رحمة الاساطيل الاسلامية :

ــ حقق الانتصار الأول مسلمو كريت حين استطاعوا الاستيلاء على مدينة تارانت بجنوب ايطاليا سنة ٢١٩/٨٣٤ •

ــ ثم قاموا هم أنفسهم مع بعض القوى الافريقيــة بفتح مدينة برنديزي سنة ٢٢٣/٨٣٨ وبتحطيم أسطول البندقية الذي جاء لنجدتها مع أنه كان يضم ستين قطعة حربية •

ــ ثم وقعت مدينة باري ، في يد بعض الجنود المسلمين الذين كانوا يعملون في خدمة بعض الدوقات فاستولوا عليها سنة ٢٢٩/٨٤١ مــع الأراضي المجاورة لها وسرعان ما أصبحت ماالتقت هذه البلدان بعضها مع بعض تحت زعامة قائد أغلبي يدعى مفرج بن سليمان فأضـــاف إليها فتح مدن أوترنت وكالياري وغيرها حتى أضحى جنوب ايطاليا (شــبه جزيرة كالابريا) كله في يده فأعلن استقلاله ••• وتأسست بذلك دولة اسلامية قادها مفرج حتى قتل ثم تسلمها قائــد آخر من بعــده يدعى سودان ••• وقد دامت هذه الدولة اكثر من ثلاثين عاما ••• والمهم في الأمر أنها اعتبرت نفسها ولاية عباسية • وبعثت الــى سامــراء تطلب الاعتراف بها •

وقد ذكر البلاذري هذه الدولة • ونقرأ لديه من خبرها ما يقول فيه : « وبالمغرب أرض تعرف بالأرض الكبيرة (ايطاليا) وبينها وبين برقة مسيرة خمســة عشر يوما (في البحر) أو أقل من ذلك قليلا واكثر قليلا • وبها مدينة على شاطىء البحر تدعى باره (باري) وكان أهلهــا نصارى وليسوا بروم (يقصد كاثوليك) • غزاهــا جبلة مولى الأغلب فلم يقدر عليها •

ثم غزاها حلفون البربري ويقال إنه مولى لربيعة ففتحها في أول خلافة المتوكل على الله (الواقع أن ذلك تم في آخر خلافة المعتصم) •وقام بعده رجل يقال له المفرج بن سلام ففتح أربعة وعشرين حصنا واستولى عليها وكتب الى صاحب البريد بمصر يعلمه خبره وأنه لا يرى لنفسه ومن معه من المسلمين صلاة إلا بأن يعقد له الإمام على ناحية ويوليــه إياها ليخرج من حدا لمتغلبين وبني مسجدا جامعا • ثم إن أصحابه شغبوا عليه فقتلوه • وقام بعده سوادن فوجه رسوله الى امير المؤمنين المتوكل على الله يسأله عقدا وكتاب ولاية • فتوفي (المتوكل) قبل أن ينصرف رسوله إليه وتوفي المنتصر بالله وكانت خلافته ستة أشهر وقام المستعين بالله أحمد ابن محمد بن المعتصم بالله فأمر عامله على المغرب وهو أوتامش مولى أمير المؤمنين بأن يعقد له على ناحية • فلم يشخص رسوله من سر من رأى حتى قتل أوتامش وولي الناحية وصيف مولى أمير المؤمنين فعقد له وأنفذه •••»[1] وبهــذا الشكل ولدت ولايــة عباسية جديدة في الساحل الايطــالي الشرقي على مدخــل البحر الادرياتي هي ولاية باري ! •••

على أن ملاحظة المواقع المتعددة التي اخذت تتوضع فيها رؤوس الجسور الاسلامية عبر البحر ، في ايطاليا تكشف طابعها الاقتصادي التجاري وأنها مراكز ومنافذ تجارية غايتها كسر طوق الحصار البحري البزنطي المفروض على البحر المتــوسط الشرقي •• ورؤوس الجسور الاسلامية هذه كانت تتوزع مع وجود المسلمين في صقلية ، على البحر الأدرياتي والإيوني والتيراني على السواء إلا إنها كانت اكثر سيطرة على

(١) البلاذري ــ فتوح البلدان ص٢٧٧

مدخل البحر الأدرياتي مما مكن باري وبرنديزي والأساطيل الاسلامية الأخرى من توجيه الغارات على موانىء هذا البحر ومن احراز عدد من الانتصارات على اساطيل البندقيــة خاصة • ولــم ينج البحر التيراني (الشاطىء الغربي الايطالي) من السيطرة البحرية الاسلامية التي حاولت تهديد نابولي ونزلت أرض البابا في روما •

غير أن هذا النشاط البحري المتنامي أصابه بعض الركــود نتيجة الخلاف بين مسلمي كريت والقوى الأغلبية وهذا ما شجع ـ على مـا يظهر ـ بيزنطة على قيادة حملة واسعة سنة ٢٤٥/٨٥٩ قوامهـا ٣٠٠ سفينة (شلندية) تسترد بها المواقع الصقلية المفقــودة ولكن الاسطول العربي دمر مائة من هذه السفن على الساحل وألجأ البقيــة للفرار في هزيمة ما عرفت بيزنطة منذ زمن طويل أشنع منها[١] • وبينما استطاع الأغالبة استكمال فتح صقلية تدريجيا استمرت القوى البحريةالاسلامية والبزنطية في توازن مستمر وصدام مستمر معا حتى أواخر القرنالثالث

هـ ـ العلاقة مع دول الحوض الغربي للبحر المتوسط

كان ذلك الحوض غير موجود بالنسبة لخلفاء سامراء • ولولا أن عليه الأغالبة من جهة والأمويين من جهة أخرى لما وجدنا لدولة من دوله ذكرا في البلاط العباسي •

وإذا كان الرشيد قد سلم افريقية لبني الأغلب مقابل خراج معلوم واسم يذكر في الخطبة والسكة رمزا للولاء فنحن واثقون مــن أن هذا الخراج انقطع وشيكا ولعله انقطع منذ فتنة الأمين والمأمون فإن الرقم المتعلق به لا يظهر في قوائم الخراج التي حفظها لنا قدامة بن جعفر في

---

(١) انظر بعض التفاصيل لدى ابن الاثير ج ٧ص ٦٣ (حــوادث سنة ٢٣٧)

كتاب الخراج ولا ابن خرداذبة في المسالك والممالك . وقد سجل الأول قائمة تعود إلى عهد المأمون والمعتصم وكتب الثاني كتابه حوالي سنة٢٣٢ بين عهدي الواثق والمتوكل . وما ندري إن كان انقطاع الخراج قد لحقه قطع الخطبة أم لم يلحقه والأرجح أن الأغالبة أبقوا عليها رمزا لموقفهم السني من جهة واعتزازا بالشرعية من جهة أخرى مقابل دولتي الخوارج والأدارسة المجاورتين .

ولعل الخبر الذي يكشف نوع العلاقة التي كانت بينهم وبين الخلافة العباسية أن التقليد بالإمارة وصل الى زيادة الله بن الأغلب من قبل المأمون إثر وفاة أبيه ابراهيم سنة ٢٠١ ويبدو أن ابراهيم بن المهدي حين استخلف في بغداد بعث إليه يطلب ولاءه فأبى . فلما دخل المأمون بغداد وخلصت له الخلافة شكر له ذلك[1] ثم قلد المأمون ولاية الشام ومصر والمغرب لقائده عبد الله بن ظاهر فكتب الى زيادة الله بالدعاء لابن طاهر على منابر افريقية فغضب زيادة الله غضبا شديدا وبعث مع رسول الخليفة إليه كيسا به ألف دينار مضروبة بأسماء بني إدريس[2] . واكتفى المأمون بهذا التهديد فأمسك . وهكذا كانت علاقة افريقية بسامراء مجرد كلمة شكلية تسبك على الدرهم أو تقال على المنبر ولا شيءوراء ذلك.. ويبدو أن العلاقات فترت بينهم وبين سامراء في عهد المعتصم ولعل السبب فيها انقطاع الخراج أو تلكؤ الخلفاء في إرسال مناشير التعيين .

وطبيعي أن **الاندلس** لم تعد منذ زمن طويل من هموم بني العباس ومع ذلك فقد كانت بالنسبة إليهم جرحا ناغرا على ما يظهر يدل على ذلك

---

(١) ابن الخطيب ــ أعمال الاعلام (القسم الثالث) ص ١٦

(٢) ابن خلدون ــ العبر ج٤ ص٤٢٢ ــ وابن الخطيب المصدر السابق ص ١٧

أن مشروعا لغز الاندلس قد خطر في بال المعتصم لمجرد أن فكر في اولئك الأمرين هناك يروي الصولي فيما نقل السيوطي(١) عنه قوله : «٠٠ وكان المعتصم قبل موته قد عزم على المسير الى أقصى المغرب ليملك البلادالتي لم تدخل في ملك بني العباس لاستيلاء الأموي عليها ٠ فروى الصولي قال : قال لي المعتصم : إن بني أميـة ملكوا وما لأحد منا ملك ٠ وملكنا نحن ولهم بالاندلس هذا الأموي ٠ فقدر ما نحتاج إليه لمحاربته ٠وشرع في ذلك ٠ فاشتدت عليه علته ومات ٠٠٠» ومات معه آخر مشروع مر في خاطر عباسي للوصول إلى الاندلس ٠٠٠

ويبدو أن الروم كانوا يدركون مدى الحقد العباسي على أمويي الاندلس وقد حاولوا في عهد المعتصم بالذات اللعب بهذه الورقة ٠٠٠ لا سيما حين توالت عليهم الهزائم قبل عمورية وبعدها ٠ ففي تلك الفترة كانوا قد هزموا أمام مسلمي كريت مرات في بحر ايجـه وفي الأراضي الايطالية حيث استطاع المسلمون احتلال عدد من المدن منذ سنة ٢١٩ وهزموا مرات أمام القوى البحرية والبرية الأغلبية في صقليـة وجنوب إيطاليا وبخاصة بعد أن تسلم ولاية تلك البقاع ابراهيم بن عبد الله الأغلبي سنة ٢٢١/٨٣٤ واستسلم لـه عدد من الحصون الصقليـة بينمـا رد الاسطول الرومي إلى القسطنطينية مهزوما هزيمة شنيعة ووصف ابن الأثير ذلك بأنه « كان فتحا عظيما »(٢) وفرض نفوذ أسطوله في ذلك البحر كله مهددا بذلك الطرق الحيوية للتجارة البزنطية التقليدية مع أوروبا ٠

ويبدو أن تراكم الهزائم على الامبراطـور البيزنطي جعله يكتب ويرسل السفارات المتعددة في وقت واحد الى لويس التقى ملك الفرنجة

---

(١) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص ٣٣٧
(٢) ابن الأثير ج٧ ص ٤٩٤ (حوادث سنة ٢٢٣)

والي البندقية والى عبد الرحمن الثاني في قرطبة سنة ٢٢٥/٨٣٩ ومع الوفود الهدايا الامبراطورية • وبعض المصادر تفسر هذه الوفود على أنها استنجاد بهؤلاء الملوك بعد هزيمة عمورية التي أصيب امبراطور الروم على أثرها بالحمى الشديد حسب رواية المصادر الرومية[١] ويبدو أن هذا الهزيمة وإن كانت بين الأسباب فإنها لم تكن السبب الأساسي فهذا السبب هو في الأرجح محاولة إقامة تحالف من دول غرب المتوسط البحرية ضد التوسع الاسلامي الكريتي ــ الأغلبي في قلب البحر المتوسط • صحيح أن هدف هذا التحالف هو مقاومة «العباسيين» ولكن ليس عباسيي الشرق وليس خلافة سامراء التي قد يكون من المبالغة أن تصور إمكان وصول «جيوش» الفرنجة والبندقية والاندلس لحربها ولكن هذه الاستطالة البحرية العباسية التي ظهرت في أهم جزيرتين استراتيجيتين في وسط البحر المتوسط وهددت النظام التجاري الوطيد الذي تعبت بيزنطة قرونا في إقامته بينها وبين أوروبا وبين الشرق • ولا ننسى أن كريت والأغالبة أصحاب صقلية ودولة باري الثالثة التي نشأت قبل هذا الاستنجاد بسنوات معدودة إنما ترتبط برابطة الولاء والتبعية مع خلفاء بني العباس •

ولا شك أن الوفود الثلاثة والرسائل الثلاثة معا لم تتحدث بحديث واحد مع دوق البندقية ولويس فرنسا وأموي الأندلس • فإذا كان الحديث مع البندقية تجاريا ومن عل وقد دفعت ثمنه فيما بعد هزيمة بحرية منكرة ذهب لها فيها ستون سفينة[٢] وكان الحديث مع لويس التقى تجاريا ــ سياسيا ــ مسيحيا معا وقد طلب فيه تيوفيل الروم

---

(١) انظر فازيلييف ــ العرب والروم ص ١٥٧

(٢) انظر خبر هذه الهزيمة لدى فازيلييف ــ العرب والروم ص ١٦١ ــ ١٦٢ •

«الهجوم على أملاك العرب في افريقية لشغل اتبــاه المعتصــم وتفريق جموعه ...»[1] « وعقد سلم وحلف أبديين » ضد المسلمين فإن الحديث مع عبد الرحمن الثاني كان على وجه آخر مختلف بالطبع . يثير حساسية ذلك الأموي ضد العباسيين وعملائهم الاغالبــة وهي حساسية بلغ من إرهافها أن الأمير الأغلبي محمد بن الأغلب ويلقب بأبي العباس بنى مدينة بالقرب من تاهرت ، في لب المغرب ، سماهــا العباسية سنة ٢٧/٨٤٢. فقام الامام الرستمي أفلح بن عبد الوهاب (إمام الاباضيــة) باحراقها بتدميرها فكافأه عبد الرحمن بمائة ألف درهم[2] ...

ونستطيع أن نعرف مضمون الرسالة البيزنطية من خلال الجواب الذي بعث به عبد الرحمن الى تيوفيل مع موفده الخاص يحيى بن الحكم الغزال ، الشاعر العالم الذي حمل مع الجواب الهدايا . ورسالة تيوفيل تؤكد الصداقة القديمة بين أباطرة بيزنطة والأمويين . واتفاق المصالح الحالية باعتبار أن العباسيين واتباعهم هم العدو المشترك وتعرض التحالف ضدهم وتحرض الامير الاموي على استرداد عرشــه ممن قتلوا آباءه وظلموا الناس لا سيما وان دولتهم توشك أن تنقض . ويعــد الأمير بالعون الصادق إن هو حاول ذلك. ويذكر بأن الربضيين (أصحاب كريت) المطرودين من الأندلس لفتنهم قد أصبحوا رعايا الخليفة العباسي . كما

---

(١) أورد ذلك فازيلييف (ص ١٦٣) نقلا عن مصادر بيزنطية وعلى أي حال فان لويس رغم وعوده بالمعونة لم يقم بها لانه توفي سنة ٨٤٠ .

(٢) انظر ابن خلدون ج ٤ ص ٤٢٩ وابن الأثير ج٦ ص ٥١٩ وهو يجعل بناءها سنة ٢٣٩ .

(٣) نشر هذه الجواب ليفي بروفنســال في مقالة ترجمت مع غيرها من المقالات الى العربية في كتاب بعنوان : الاسلام في المغرب والاندلس ـ (ترجمة محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي ـ القاهرة ١٩٥٦) .

يحرض الأمير الأندلسي على مكافحة الأغالبة ويهون من شأنهم ويشير الى وجود الشقاق بينهم وبين العباسيين ...

وكان رد الأمير الأموي أنه قبل الصداقة ولكنه رفض في حذر ودبلوماسية واضحة قضية التحالف ضد مسلمين آخرين . وكشف في الرد عن عدم انقطاع رغبته في استرداد عرش أجداده في المشرق ويطلب من الله العون لأن النقمة سوف تنزل بالعباسيين من المغرب وعلى يد الأمويين أنفسهم ويصف أهل كريت بأنهم ليسوا جميعا من الربض ولكنهم السفلة والسواد والفساق والأباق . وفي الوقت الذي يعتذر فيه عن تأديبهم لا يجد غرابة في ارتباطهم بالعباسيين ولكن يبدي استغرابه أن لا يستطيع الامبراطور البيزنطي إخراجهم من بلده ويرجو أن يقدم العون على إخراجهم إذا استطاع استرداد ملك أجداده ... غير أن الرسالة لا تذكر شيئا عن الوعد الذي تذكر بعض المصادر أن الأموي وعده بإرسال الاسطول الأموي عند الانتهاء من المشاغل الداخلية ... وهذا الوعد ، ـولو صح قولا ـ فإنه على اي حال لم ينفذ ... وبقي الأمويون والحوض الغربي للمتوسط في معزل عن العباسيين وعن احداث المشرق !

٢ ـ العلاقات مع الروم

كانت العلاقات الخارجية الاساسية والأهم في هذه الفترة التي تلت عصر الرشيد والمأمون مقصورة على الروم . ولم يكن فيها جديد . فهي فصول أخرى من قضية الحدود ، التي ستمتد قرنين آخرين دون طائل. وبالرغم من أن الرشيد قضى سنواته الأخيرة على جبهة الروم وكذلك فعل المأمون حتى مات في تلك الجبهة وبالرغم من أن المعتصم بعدهما قاد

(١) الطبري ج ١١ ص ٥٢ .

جيوشه حتى عمورية في قلب الأناضول فإنه لم يكن لكافة تلك الأعمال من غد ولا نتائج جديدة وبقيت الجبهة على حالها الذي استقرت عليه منذ العصر الأموي قبل قرن ونيف •

عاصر هذه الفترة من آباطرة بيزنطة الامبراطور تيوفيل (٨٢٩ ـ ٨٤١ م) وخلفه من بعده ابنه ميخائيل الثالث (السكير) وكان عمره ست سنين فقامت بالوصاية عليه امه تيودورا حتى سنة ٨٥٦ م ثم تسلط على الامبراطور منذ سنة ٨٦٢ م عمه بارداس الذي حمل لقب قيصر ووكيل للامبراطور وولي العهد حتى قتل سنة ٨٦٩ م ••

ا ـ في عهد المعتصم :

بدأت سنوات المعتصم الاولى (منذ سنة ٨٣٣ م الى سنة ٨٣٧ م) بهدوء على الجبهة البيزنطية ، دون صلح رسمي • فا نابا اسحق ـ كما نعلم ـ بويع بالخلافة في تلك الجبهة نفسها • وعاد مسرعا الى بغداد ، بعد أن امر بجمع الجيش والعودة ، وطي الخطة الحكيمة ، التي كان وضعها أخوه المأمون ، لدرء الروم • اذ أمر بهدم مـا بدىء ببنائه من الحصون ، وصرف من كان المأمون أسكنه هناك ، إلى بلادهم •

وسبب الهدوء يرجع الى انشغال الطرفين بما لديهما من مشاكل : فالمعتصم كان عليه التخلص من بابك ومن الزط ، أولا عن شماله وجنوبه وتيوفيل كان مشغولا بحرب صقلية الفاشلة • ولهذا ما كاد امبراطور بيزنطة ينتصر مؤقتا انتصاره الهام سنة ٢٢٢/٨٣٧ م تحت اسوار قصريانة في صقلية ، على عبد السلام بن عبد الوهاب قائد بني الاغلب ، ويأسره ، حتى التفت للجبهة الشرقية • فاتصل ببابك ، أو أن بابك هو الذي اتصل به ، لما اشتد عليه الحصار • فكتب يحرضه على غـزو العرب ، ليخف الحصار عليه ، قائلا انه لم يبق على باب الخليفة أحد ، ولا قوة ، لأنه

وجه كل جيوشه ضد الخرمية ، حتى انه اشرك فيها طاهيه ، وحائك ملابسه[1] • (ويستغل بابك هنا لقبي القائدين جعفر الطباخ وايتاخ الخياط) وتظاهر بابك ــ في قول فازيلييف ــ بانه مسيحي ووعد باعتناق المسيحية[2] من قبل اتباعه من بعد •

مشى تيوفيل في نيف وسبعين الفا من الجند وثلاثين ألفا من الاتباع، بينهم البرغر (البلغار) والصقالبة ، وغيرهم ، وبينهم فرقة من اصحاب بابك الفرس والاكراد ، الذين هربوا من مواقعة اسحق بن ابراهيم (في منطقة همذان) ويسمي العرب رئيسهم (برسيس)[3] ولعله في الاصل نرسيس ويسمى في بعض المصادر (نصرا) أيضا • وربما كان هو نفسه تيوفوب ــ في رأي فازيلييف ــ ••• اتجه امبراطور الروم بجيشه الى أعالي الفرات ليفتح الطريق ــ فيما يظهر بينه وبين بابك للاتصال به ولم ينس أن يرسل الى أمراء ارمينية يطالبهم بالإتاوة • ثم هاجم الروم حصن زبطرة[4] الحصين • وهو من ثغور الجزيرة الهامة • « وتميز أكراد نصر بفظائعهم في البلدة ، ووحشيتهم • فاحرقت المدينة ، وقتل الذكور من أهلها (أو أتى عليهم بالسمل والجدع والصلم) • وأسر النساء والاطفال • وشمل القتل المسيحيين أيضا • ثم تركت سميساط رمادا •

---

(١) الطبري ج٩ ص ٥٦ (٣/١٢٣٤) .

(٢) فازيلييف ــ العرب والروم ص ١١٤ وانظر كذلك
Bury, A. Hist. of the East. Rom. Emp. P 259.

(٣) انظر الطبري ج٩ ص ٥٦ (٣/١٢٣٥) وانظر فازيلييف ــ العرب والروم (بالعربية) ص ١١٤ .

(٤) «اختلف العلماء طويلا في تعيين مكانها . ولكنه تحدد اليوم تحديدا جازما في موقع بلدة (فيران شهر) الحالية على نهر سلطان صو ــ جنوب غرب ملاطية» فازيلييف ــ العرب والروم ص ١٢٥ .

(ونهبت بعض أراضي ارمينية أيضا) ولم تلاق ملاطية نفس المصير ، لأنها فتحت أبوابها ، واطلقت اسرى الروم فيها»[1] . ولا شك أن هذه العملية الانتقامية الرهيبة إنما كانت السبب فيها فشل الحملة الضخمة في تأدية مهمتها . فقد وصلت أعلى الجزيرة متأخرة ... كان بابك إذ ذاك قد انهزم وهرب ثم أسر فانصب الانتقام على أهل الثغور الجزرية التيوقعت تحت يد الجيش الضخم ليرجع على الأقل بالظفر والغنائم لا صفر اليدين بينما كان بابك نفسه يقبع في الأسر . وفي الوقت الذي كان فيه الامبراطور يعود خوف هجوم عربي عليه ، ليستقبل في القسطنطينية استقبالا رائعا ويبني قصرا وقناة لتخليد نصره ... كان الهاربون من زبطرة يصلون سامراء[2] بالانباء المروعة . فاهتز الخليفة ، واهتز الناس ، لأنبائهم . ودخل الخليفة المعزول ، ابراهيم بن المهدي على المعتصم ، فأنشده بعض ماحرضه . ورويت له قصيدة استفزته . فأمر بعمامة الغزاة ، فاعتم بها ونادى لساعته ، «بالنفير» وبالاستعداد للحرب . على انه لم يكن يستطيعها قبل ان ينتهي لا من امر التعبية ــ كما قال الطبري ــ[3] ولكن من أمر الشتاء في الواقع فلم يكن ممكنا قيادة حملة ضخمة والشتاء على الابواب كما ان بابك نفسه لم يقع في الأسر بعد وإن كان قد هزم[4] . وهكذا لم يبعث المعتصم على الفور بغير نجدة

---

(١) فازيلييف ــ العرب والروم ص ١٢٧ .

(٢) الفخري ص ٢٠٩ يذكر القصة المشهورة : وامعتصماه ! التي هزت المعتصــم .

(٣) الطبري ج ٩ ص ٥٦ وهو يضع زبطرة في أخبار سنة ٢٢٣ وكذلك يفعل اليعقوبي (ج٢ ص ٤٧٥) .

(٤) ثمة مشكلة توقيت تتعلق بحملة زبطرة وحملة المعتصم الجوابية على عمورية . فمعظم المصادر العربية تضع الحملتين إحداهما وراء الأخرى مباشرة وتجعل زبطرة في سنة ٢٢٣ للايحاء بردة الفعل السريعة والمباشرة

لأهل زبطرة ، بقيادة عجيف بن عنبسة استطاعت ان ترد اليها الهاربين من اهلها ، وتطمئنهم وإن مزقها البزنطيون[1] ، لقلتهـا • وقـد قبض الأفشين في تلك الفترة على بابك فبقي لديه[2] في معسكره بالجبال قرابة أربعة أشهر انسحبت خلالها الجيوش العباسية وأعيدت تعبئتها ، للحملة الانتقامية التي توجهت الى عمورية في نيسان من السنة التالية سنة ٨٣٨ ،

لدى المعتصم والواقع كما يتبين من التوقيت ان بينهما ثمانيـة اشهر على الأقل وإن لم يكن اكثر لأن بينهما شتاء كاملا . وبالرغم من أن المصادر لم تذكر موعد هجوم زبطرة الا إن التوقيت يكشفها على الشكل التالي :

هزم بابك في البذ في ٢٦ آب سنة ٨٣٧ (٢٠ رمضان سنة ٢٢٢) . استلمه الأفشين اسيرا في ١٦ إيلول سنة ٨٣٧ (١٠ شوال) . وصل بابك سامراء في ٤ كانون الثاني سنة ٨٣٨ (٣ صفر سنة ٢٢٣) . خرج المعتصم لحرب عمورية في أول نيسان سنة ٨٣٨ (٦ جمادى الأولى سنة ٢٢٣) وبدأ الحرب في أواخر تموز سنة ٨٣٨ (شعبان سنة ٢٢٣) . ولما كانت الأشهر بين ايلول سنة ٨٣٧ ونيسان سنة ٨٣٨ هي أشهر الشتاء والثلج في تلك الجبال ولا تحتمل الحروب ولا سيما الحملات الضخمة فلا بد أن زبطرة كانت في أيلول سنة ٨٣٧ في ارجح التوقيت .

(١) تسهب المصادر العربية في ذكر فظائع حملة تيوفيل هـذه : الطبري ج٩ ص ٥٥ ، ٥٦ المسعودي ج٤ ١ ابن العبري ص ٢٤٢ .

(٢) يرى فازيلييف ان خبر زبطرة وصل قبيل هزيمة بابك . ويرى مثل ذلك «بروك» في مجموعة كامبردج . وربما كان هذا غير صحيح إذ يفهم من الطبري قوله : «.. واتفق من لطف الله تعالى أن المعتصم ظفر ببابك الخرمي عند ورود الخبر بخروج ملك الروم» ان سقوط بابك سابق لوقعة زبطرة حتما . ولعل خبرها وصل في الفترة ما بين هزيمـة بابـك ، وبين القبض عليه ، ووقوعه في الأسر او وصل بعد اسره بقليـل . ولكن قدوم الشتاء حال دون التحرك المباشر الفوري . ولنلاحظ أن الاخبار عن زبطرة لا تذكر أي شيء عن وجود شتاء وثلج في وقتها وهذا يعني انها لا يمكن أن تكون وقعت بعد ايلول سنة٨٣٧ حتى نيسان سنة ٨٣٨ .

بعد شتاء ثقيل من الانتظار أمضاه المعتصم ــ على ما يبدو ــ «معسكرا بموضع يعرف بالعيون غربيّ دجلة»[١] وتتبين لهفة الخليفة وسرعته في المسير ، من خروجه المبكر في الحملة ولم تكن من عادة الحملات ، لاسيما الكبرى الخروج في نيسان ومن رفضه قبــول توقيت المنجمين للخروج وكانوا يتنبأون بالفشل إن خرجت في هذا الموعد وينصحون بالانتظار حتى مطلع الخريف «ونضج التين والعنب»[٢] . ويروي الطبري في سبب استهداف عمورية بالذات ، «ان المعتصم سأل : أي حصون الروم أمنع وأقوى ؟ فقيل له عمورية ! فانه لم يقصدها مسلم ، منذ ظهور الاسلام . وهي عين المسيحية وابنائها . وهي عندهم أشرف من القسطنطينية!»[٣] . وقد يفهم من الخبر ان المعتصم قرر قصد عمورية ، وهو في سامراء . وقد يكون هذا صحيحا لكن من المحتمل ان هذا القرار تم خلال الحملة ،كما يستنتج من الفخري . ويظهر ان اختيار عمورية كان لأنها مسقط رأس الأسرة المالكة البيزنطية . وهي إذ ذاك ، « في أزهر أيامها .. والراجح أن ميخائيل الثاني قد رفعها إلى أسقفية رئيسية مستقلة . ثــم رفعت بعد المعركة إلى مطرانية تمجيدا لضحاياها ...» وكانت ذات «حصن قوي ، وسور عليه أربعة وأربعون برجا»[٤] والمصادر الرومية تزعم أن زبطرة مسقط رأس المعتصم أيضا لايجاد التقابل بين فتحي زبطرة وعمورية .

وقد مشى المعتصم في جيش متجهز ــ كمــا يقول الطبري ــ[٥]

---

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٧٥ .

(٢) هذا ما ردده بيت ابي تمام المشهور في فتح عمورية :

عشرون الفا كآساد الشرى نضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب

(٣) الطبري ٩ ص ٥٧ (١٢٣٦/٣) .

(٤) فازيلييف ــ العرب والروم ص ١٤٤ .

(٥) انظر الطبري ج ٩ ص ٥٧ (١٢٣٦/٣) .

«جهازا لم يتجهز مثله قبله خليفة قط من السلاح والعدد والآلة وحياض الادم والبغال والروايا والقرب (والجواشن ، والزرديات) وآلة الحديد والنفط ...» وأما عدد الجيش فكان ضخما فالمكثر يقول خمسمائة الف والمقل مائتي الف[1] ويبدو أنه كان يحوي بجانب العرب والترك والمغاربة (عرب مصر) فرقة من الأرمن يقودها إما بقراط بطريق البطارقة أو أمير البسفرجان (الفاسبوراكان) حسب الروايات البيزنطية .

وكان قد أمر المعتصم أن يكتب على الألوية والتروس اسم عمورية .

وعند سبسطية (سروج) قسم المعتصم جيشه إلى فرقتين : بعث أولاهما بقيادة الافشين ، عن طريق الحدث ، إلى أنقره . وسار بالثانية فبعث (٢٢ رجب ــ ٩ حزيران قسما آخر منها ، مع أشناس من الدرب ، ثم تبعه الباقي بعد يومين ليلتقي الجميع عند أنقرة . وعلم المعتصم من المخبرين والجواسيس ــ وكانوا يستخدمون استخداما واسعا لدى الطرفين ــ أن الامبراطور بعد أن كمن له شهرا ذهب لمفاجأة الأفشين وبالرغم من أن الخليفة فشل في ايصال الخبر لقائده . فقد اصطدم الافشين بامبراطور بيزنطة عند (دزمون) وهزمه (٢٥ شعبان ــ ٢٢ تموز) في الضباب والمطر الكثيف وشاع أن الأمبراطور فقد والواقع أنه هرب إذ بلغه ائتمار الفرس والموجودين معه ، ومحاولتهم تنصيبهم تيوفوب

---

(١) انظر المصدر السابق والمسعودي ج٤ ١٤ ـ ١٥ والمصادر السريانية (ميخائيل السرياني ــ ج٣ ص ٩٥) تجعل مع المعتصم خمسين الفا ومع الافشين ثلاثة وثلاثين الفا معهم التجار والباعة واتباع الجيش ومعهم خمسون ألف بغل . . .

امبراطورا . أو بلغه خبر مؤامرة في القسطنطينية إذ بلغها أنه مات[1] ، وهذه هي على الأقل الأعذار التي تقدمها المصادر البيزنطية والأجنبية لهزيمة الامبراطور الرومي وارتداده ، بدل متابعة الدفاع ، الى العاصمة أو إلى مدينة دوريليوم أو نيقية القريبة منها ، بعد أن ركـز جيشه في عمورية ، بقيادة خاله ياطس حاكم اناتوليا وحشد معها جمهرة من كبار القـادة .

وقد دمرت جيوش المعتصم انقرة التي كانت أخليت ، حين وردت أخبار معركة الأفشين . ثم جاء الأفشين نفسه وتوجهت القوى العباسية الى عمورية في ثلاثة أقسام ، تخرب وتحرق القرى في الطريـق حتى إذا وافتها بعد عشرة أيام ضربت الحصار عليها .

ويذكر المؤرخون هنا أن هزيمة امبراطور الروم الأولى تركت في نفسه أبلغ الأثر «وانكسرت شجاعته ونسي حملته الظافرة في العامالماضي وبعث الى المعتصم رسلا أمرهم بالشرح وبذل الوعود المذلة ...»[2] وادعى تيوفيل «أن الذين فعلوا بزبطرة ما فعلوا تعدوا أمري (وقد يكون هذا صحيحا لحد ما) وأنا أبنيها بمالي ورجالي وأرد من أخـذ من أهلها وأخلي جملة في بلد الروم من الأسارى وأبعث إليكم بالقوم الذين فعلوا بزبطرة على رقاب الأباطرة ...»[3] (ويقصد جماعة المحمرة والاكراد في جيشه بالطبع) . ولكن المعتصم «هزيء بهذا العرض واتهم الروم بالجبن»

---

(١) يفترض فازيلييف من عنده ان الثورة التي اوشكت على الظهور في القسطنطينية هي ثورة الفرس جماعة تيوفوب (انظر العـرب والروم ص ١٤٢) .

(٢) فازيلييف ـ العرب والروم ص ١٤٣ .

(٣) اليعقوبي ج٢

ثم لم يأذن لرسول الروم في العودة الى الامبراطـور حتى تـم فتح عمورية[1] .

بدأ حصار عمورية في أول آب سنة ٨٣٨ ومات الالاف من الناس في الأيام الثلاثة الأولى من المعركة وكان ممكنا أن تستمر طويلا لولا أن أسيرا عربيا كان قد تنصر لدى الروم دل المعتصم على جانب ضعيف في السور فركز الهجوم عليه حتى انهار وانهارت معه قوى المدافعين ... فاستسلم قائد الحامية ياطس وأعوانه[2] وفتحت البلدة (١٦ رمضان سنة ٢٢٣ آب ٨٣٨) وفي الطبري والمسعودي تفاصيل الانتقام الرهيب فيهـا لزبطرة[3] . وقد كانت الغنائم من الوفرة بحيث أمر المعتصم ـ حسب رواية الطبري ـ لكثرة السبي والغنائم ، «ان لا ينادي على السبي إلا ثلاثة اصوات ليتروج البيع ... وكان ينادي على الرقيق خمسة خمسة وعشرة عشرة والمتاع الكثير جملة واحدة» واحتجز المعتصم البارزين من الأسرى بعد ذلك ثم أمر بقتل الباقين وهم حوالي ستة آلاف ثم هدمت أسوار عمورية وأبوابها ...

ويبدو أن امبراطور بيزنطة حاول انقاذ المدينة أو معونـة جيشه

---

(١) انظر فازيلييف ـ العرب والروم ص ١٤٣ والطبري ج ٩ ص٦٩ (١٢٥٤/٣) .

(٢) يذكر فازيلييف (ص ١٤٩) أن العرب اتبعوا في دخول المدينة خطة الغدر وانه بينمـا كان القائد المدافع عن الموضع المثلم من السور يفاوض المعتصم دخل الجنود العرب المغاربة والأتراك الى المدينة . وإنما كان ذلك القائد يحاول إنقاذ ما يمكن انقاذه في قضية خاسرة سلفا : «ومكروا ومكر الله ...» .

(٣) انظر الطبري ج ٩ ص ٦٨ ـ ٧٠ (١٢٥٢/٣ ـ ١٢٥٥) ؛ المسعودي ج ٤

بالأسطول الحربي • فبعث بحملة بحرية إلى انطاكية ــ على مــا يذكر ميخائيل السرياني ــ نزلت ميناء سلوقية ، ونهبت التجار • وأسرت ركب الاسطول وفرت • ولكنها كانت ضربة جانبية لا قيمة كبيرة لها ولم تترك في المعركة أي أثــر •

ولقد أشفق الامبراطور الرومي بالعكس أن يذهب المعتصم بأسراه الكبار والكثيرين ، وفيهم من هو من أصحاب الامبراطور أو من أقربائه أو من خاصته أو من كبار قواده فأراد قبل أن يبرح ميدان المعركة أن يصفي الأمر مع الخليفة لا بالحرب التي لم يعد يستطيعها ولكن بالمال • ويذكرون أنه أرسل الى المعسكر الاسلامي «بوفد عليه البطريق باسيل فعرض على المعتصم مائتي قنطار فداء لأسرى عمورية وخص منهم بعض أقربائه وخاصته • ولكن الخليفة رفض العرض ذاكرا أن نفقات الجند في الحملة بلغت ألف قنطار واشترط تسليم نصر الكردي الذي تنصرودخل في خدمــة الروم هو ومنويــل»(١) ••• وفشــل مشروع الفــداء الفــوري •

وكان من النتائج المباشرة للفتح أن قــرر المعتصــم المسير الى القسطنطينية «والنزول على خليجها والحيلة في فتحها برا وبحرا» بمعنى أن المشروع الذي كان وضعــه المأمون • وانطوى بموتــه السريع قد استيقظ الآن في رأس المعتصم ، وأصبح مشروعه هو أيضا • ولكن لم يقيض له أن يتحول إلى التنفيذ لأنه اكتشف مؤامرة في الجيش للتخلص منه ومن أتراكه وتولية العباس ابن أخيه المأمون ••• وهذا هو على الأقل العذر الذي يقدمه المسعودي تبريرا لعدم متابعة المعتصم الطريق الذي كان مفتوحا أمامه حتى القسطنطينية • والواقع أنه كان في الأصل قد

صمم على إنهاء الحملة عند عمورية لأنه إنما اكتشف تلك المؤامرة وهو عائد بالفعل ونكل بأصحابها أبشع التنكيل على طريق العـودة ذاتها • ولكنه أدرك بعد عمورية ــ وهو المحارب المجرب ــ أن جيشه البري لن ينفعه كثيرا في أخذ مدينة لا بد في أخذها من أسطول بحري لا يملكه في ظروفه القائمة وأن المشروع الذي نبت في خاطره إثر النصر قد يسبب له كارثة عسكرية هو في غنى عنها مع طول خطوط مواصلاتـه ونضوب التموين • فلا بد من تأجيل المشروع في تلك السنة على الأقـل ليحكم الاستعداد له • وربما استطعنا على ضوء هذا الواقع فهم الأمر الذيأمره إذ ذاك ببناء الاسطول في الشام ومصر • وهو الاسطول الذي لم ينفعه شيئا لأنه حين انتهى بناؤه بعد أربع سنوات توفي المعتصم نفسه وصاحبه تيوفيل في شهر واحد معا بينما أكلت العواصف السفن الأربعمائة التي بنيت ، في أول مشروع حربي قامت به •

وما من شك بالمقابل في أن تيوفيل خشي أن يتابع المعتصم الطريق وإذا لم تأته عيونه بأخبار النوايا التي ينويها الخليفة فلقد كان ممكنا أن يقدر بنفسه ولنفسه الأخطار التي يمكن أن تتعرض لها امبراطوريته لو جرى ذلك لا سيما وأن القوى الامبراطورية المهزومة لم تكن من القوة في تلك الفترة بحيث تحمي العاصمة المهددة • وثمة احتمال كبير في أن يستطيع المعتصم تجنيد أسطول كريت ، وهي عباسية بالاسم ، وأسطول الأغالبة أيضا في جبهة واحدة ضده ومن هنا فإن تيوفيل وضع الخطـة المقابلة فما إن أدار المعتصم ظهره للعودة بعد أن مشى مرحلة في الطريق الامبراطورية نحو القسطنطينية (وهي مسيرة كان الغرض منها التأكد من أن الروم لن يلحقوا بالجيش العائد فيضربوا مؤخرته وجوانبه) حتى قرر إثارة القوى البحرية الأخرى في المتوسط ضد القوى الاغلبيةوالكريتية• أما العباسية في المشرق فكان هو المتكفل بها • وعلى هذا الأساس أرسل

بوفوده الى دوق البندقيـة وملك الفرنج وأمير الانـدلس ليقيم جبهة تحالف تجاري سياسي ، أو جبهة متوسطية بحرية تظل بيزنطة أول وأهم المستفيدين منها •

وإذا لم يتحول انتصار عمورية الى مشروع لإنهاء الدولة البيزنطية فإنه أيضا لم يتحول إلى فتح • أي أن المعتصم لم يفكر ــ وهنا نقطة التساؤل الأساسية ــ في الاحتفاظ بالمناطق التي دخلها • لقد يكون شعراء ومؤرخو تلك الفترة أعطوا ذلك النصر اسم الفتح ولكن ثمة فارقا أساسيا بين «فتوح» العهد الأموي وهذه الحملة التي لم يفكر المعتصم في استغلالها لتوسيع الدولة • لقد أعادها برأيه وعمله ورغم كل الدماء التي بذلت فيها والجهود والأموال التي انفقت من أجلها الى مجرد «عملية حدود» وهكذا تقلصت من الناحية الواقعية لتصبح هجوما دفاعيا محدود الغرض والأثر او بكلمة أخرى حملة تأديبية كبيرة ! وما من شك في أن عملية عمورية تصبح لهذا واحدة من أندر المواقف الكاشفة لمدى الطموح العباسي في هذا المجال •

وكل ما نجم عن عمورية في الجانب العربي هو الأسرى[1] والغنائم ومجموعة من قصائد الشعراء • وأما على الجانب البيزنطي فيذكرون أن الامبراطور بلغ من تأثير الكارثة فيه أن مرض واشتد مرضه وأصابته حمى شديدة أكثر من أجلها من شرب الماء البارد فأصابه زحار أدى فيما بعد الى موته ••• هذا على الأقل ما كان يروى في القرن العاشر[2] بعد قرن من عمورية •

---

(١) قتل أسرى عمورية الباقون فيما بعد في ٨ آذار سنة ٨٤٥وصاروا عند الروم يعرفون باسم «شهداء عمورية الاثنين والاربعين» .

(٢) فازيلييف ــ العرب والروم ص ١٥٧ .

ومع ذلك فقد استبدت قصة عمورية بالخيال الشعبي ، لا في القرن التاسع وحده ، ولكن في القرون التالية • وبقي ذكرها فيما عرفه الروم باسم «الملحمة العربية» • كما حفظ البيزنطيون قصص المدافعين باسم «اخبار شهداء عمورية الـ ٤٢» وسجلت اسماء الذين اسلموها بعنوان « الخونة الذين سلموا عمورية » أما أصداء النصر بالمقابل لدى العرب فكانت قوية لدرجة أصبح معها اسم المعتصم نموذجا دائما للمرؤة والدفاع المشرف عبر القرون • على أن الغزوات بين العرب وبيزنطة عادت فورا الى سابق عهدها ، بعد عمورية ، من هجمات محلية محدودة وعمليات محدودة •

ـ وشهدت سنة ٢٢٤/٨٣٩ هجوم أبي سعيد محمد بن يوسف أمير الشام والجزيرة مع بشير أمير المصيصة مرة بعد مرة على أرض الروم • وقد أتيح لهما في إحدى هذه الغزوات أن يتمما انتصار عمورية بالظفر بصاحب قصة زبطرة ••• وهو تيوفوب أو نصر • كان على الثغور وتعقب بشيرا في بعض حملته ففاجأه أبو سعيد وهزمه وذبح الخرمية الذي كانوا معه عن آخرهم وقتل نصر نفسه فوضع الملح في رأسه وأرسله الى المعتصم مع رؤوس أصحابه(١) وقد تسربت قصة هذا الرجل الى ملحمة سيد بطال الشعبية والتي نرى فيها اسماء بشير وبابك ••

ـ غير أن الروم عادوا في السنة التالية سنة ٢٢٥/٨٤٠ ـ ٨٤١ فتعقبوا أبا سعيد واستطاعوا هزيمته هزيمة احتلوا على أثرها عدة ثغور : الحدث ومرعش وأرض ملطية • وأرسل الروم عقب ذلك وفدا يطلب

---

(١) ذكر ذلك ميخائيل السرياني ـ ج ٣ ص ٩٦ وانظر فازيلييف ص ١٥٦ •

المهادنة فتقبله المعتصم لما كان على يديه من الثورات الداخلية • وبعض المؤرخين المعاصرين يتصور أنه قد جرى اثناء هذه الزيارة بعض التبادل للأسرى •••

وهدأت الجبهة بعد ذلك واستمر هدوءها حتى عهد الواثق •••

ب ـ في عهد الواثق :

إذ نحن استثنينا الحملة البحرية الفاشلة التي قام بها أبو دينار في مطلع عهد الواثق والمأساة التي انتهى بها الاسطول ، ثم غزوة شتوية فاشلة بدورها قام بها في أواخر عهده أحمد بن سعيد حفيد قتيبة الباهلي فمات من البرد مائتا انسان وغرق مثلهم في النهر وأسر مثلهم بيد الروم ، فإنا نستطيع أن نعد فترة خلافة الواثق فترة هدنة طويلة استمرت سنتين قبله ثم استمرت خمس سنوات بعده • وقد توجت هذه الهدنة بعمل سلمي انساني له معناه الكبير بالنسبة للعلاقات العربية ـ الرومية في هذه الفترة وإن لم يكن بالجديد وهو فداء الأسرى • ولئن سبق اكثر من فداء قبله فهذا أول فداء كامل لكافة من لدى العرب والروم من الاسرى • ونحن نسميه على منهج المؤرخين القدامى فداء وهو في الواقع تبادل أسرى • وقد كان لدى كل من المسلمين والروم من الدواعي ما يدفعه لقبول مثل هذا العرض الذي لم يكن القصد منه الفداء نفسه بقدر ماكان القصد منه تهدئة الجبهة نفسها وإبداء حسن النية فيها فالروم كانوا في غمرة الانشغال والفشل المستمر أمام عرب صقلية وكريت معا ، والواثق كان في تلك الفترة نفسها يواجه الأزمات الداخلية الخطيرة التي أثارها فساد الإدارة حوله وسوء سمعتها بالرشوة ، بجانب تسلط الجند الترك على الدولة واستئثارهم بحكمها في المشرق والمغرب ، عدا ما أثاره اصرار الواثق على قضية خلق القرآن من رد فعل سني عنيف فبدا الواثق وكأن

الجهاد والروم هم آخر همومه . ولهذا ما إن جاءه العرض بفداء الأسرى من قبل الروم حتى قبله واتخذت له من المظاهر والمراسم ما جعله حدثا تاريخيا بارزا على الجبهة الرومية[1] .

وصل رسول ملك الروم الى سامراء بهذا العرض سنة ٢٣٠/٨٤٥ فأرسل الواثق معه احمد بن أبي قحطبة رسولا من عنده الى البلاط البيزنطي ليعلم بالضبط عدد من بأيديهم من اسرى المسلمين ، وتبين أن العدد يبلغ أربعة آلاف وثلاث مائة واثنين وستين انسانا ...[2] وتقرر الفداء وحدد مكانه على نهر اللامس على مسيرة يوم من طرسوس وزمانه في عاشوراء سنة ٢٣١ منتصف ايلول سنة ٨٤٥ وبينما كلف بعض البطارقة والقادة من الجانب الرومي عهد الواثق برئاسة العملية الى خاقان الخادم، خادم الرشيد المرابط في الثغور . وجرى الفداء بحضور قوة عربية كبيرة بلغ عددها أربعة آلاف وعقدت هدنة أربعين يوما لاتمام الفداء في أمان.. ويبدو أن الأسرى العرب كانوا اكثر عددا من أسرى الروم لأن الواثق وجه الى الأسواق يبتاع الرقيق الرومي وأخرج من قصره النساء الروميات العجائز حتى استوفى العدة المطلوبة . وكان بين الاسرى رجل من أكابر طرسوس أمضى في الأسر ثلاثين عاما وكان بين المفتدين أسرى زبطرة

---

(١) نجد تفاصيل هذا الفداء ودقائق الطريقة التي تم بها لدى الطبري ج ٩ ص ١٤٢ – ١٤٦ (١٣٣٩/٣ ، ١٣٥١ – ١٣٥٦) كما نجد قائمة كاملة بالأفدية التي جرت في الاسلام حسب ما تحقق لدى المسعودي وذلك في كتابة : التنبيه والاشراف ص ١٦٠ – ١٦٦ .

(٢) الرقم الذي يذكره فازيلييف (ص ١٧٦) هو ٣٠٠٠ رجل و ٥٠٠ امرأة وولد اما اليعقوبي فيجعل العدد ٥٠٠ رجل و ٧٠٠ امرأة فقط (ص ٤٨٢) والرقم الذي ذكرناه مأخوذ عن الطبري والمسعودي يتفقان فيه . ويذكر الطبري أن عدد النساء والأولاد كانت ثمان مائة .

وعمورية من الجانبين وكانت مفاجأة الفداء التي فرضها الواثق امتحان من يفتدي بخلق القرآن أمام لجنة من القضاة • فمن قال به افتدوه ومن رفض ردوه لأنه زائغ عن الدين لا يجوز فداؤه • كأنما أضحت العقيدة المعتزلية لا عقيدة رسمية فحسب ولكن دليل الرعوية ورمز المواطنة في بلد الاسلام • وقد رفض بعض الأسرى بالفعل أن يقولوا بخلق القرآن فردوا الى الأسر والطريف في الأمر أن المسلمين افتدوا في الوقت نفسه أيضا مائة أو اكثر من أهل ذمة المسلمين(١) • وهو أمر يدل على تغلب روح المواطنة في نظرة المسلمين الى هؤلاء على التعصب الديني وهو ما حرم منه اولئك الذين رفضوا الاعتزال •••

جـ ــ في خلافة المتوكل : ولا يأتي عهد المتوكل في سنواته الأولى بجديد على الجبهة الرومية حتى سنة ٢٣٦/٨٥١ ••• ففي تلك السنة والسنتين التاليتين برز على الجبهة محارب استرعى الأنظار بجرأته وبالصوائف الثلاث التي قادها ضد الروم تلك السنوات هو : علي بن يحيى الارمني بينما كانت صقلية من جهة وكريت خاصة من جهة أخرى تكيل الضربات والهزائم للجيش الرومي وللاسطول ••• و لايبدو أن الروم اهتموا بهزائمهم البرية أمام علي بن يحى قدر اهتمامهم بهزائمهم البحرية أمام كريت كما لا يبدو أنهم أرادوا جواب سامراء بقدر ما أرادوا ضرب المعين الحيوي لكريت حين خططوا ونفذوا ضربتهم البحرية القاسية في دمياط سنة ٢٣٨/٨٥٣ • لقد ضربوا بدمياط دار صناعة كريت ومصدر تغذيتها بالسلاح ومركز تزويدها بالمؤن • ولكن الضربة في الواقع انعكست في معناها السياسي والعسكري على الواثق وعلى

---

(٣) الطبري ج ٩ ص ١٤٣ (١٣٥٥/٣) •

العباسيين • ولقد آذت أصحاب كريت فعلا ولكن أذيتها المعنوية الكبيرة إنما أصابت سامراء وصاحبها المتوكل • ومن الغريب أن هذا الخليفة لم يجب على هذه الفتكة الهجومية بغير بعض التدابير الدفاعية وقد أورد المستشرق غروهمان نص وثيقة بردية يرجع تاريخها الى سنة ٢٤١ تعطي فكرة عن تهديد الروم لسواحل مصر في تلك الفترة وشدة اهتمام الولاة بدفعهم وما عاناه المصريون في ذلك •

ولقد عاد الروم سنة ٨٥٥/٢٤٠ فهاجموا فجأة مدينة عين زربة فأسروا قبائل الزط التي زرعها العرب هناك قبل خمس عشرة سنة • أخذوهم بنسائهم وأطفالهم ودوابهم عبر الأرض البيزنطية فوضعوهم على الطرف الثاني من التخوم في اقصى البلقان • وقد تتساءل عن السبب في هذا التصرف الذي حملت به بيزنطة على عاتقها مثل هذا العبء ويبدو أنا نجد التفسير إذا تذكرنا ما كان يقوم به هؤلاء الزط أنفسهم في السواد من نهب وسلب وعدوان • ولعلهم مارسوا مثل ذلك ضد الأراضي والاقطاعيات المعروفة للقواد الروم • أو لعل العرب استخدموهم في التجسس والتخريب في أرض العدو • فوجودهم في الحالين ضار كثير الأذى والطريقة المثلى استخدامهم لمصلحة بيزنطة ضد شعوب أخرى •• ويبدو أن هذه العملية السكانية المحدود قد تركت أثرها الاثنوغرافي في أوروبا فما يزال فيها إلى اليوم شعب من الغجر يعتقدون أن اجدادهم هم هؤلاء الزط ••• المنقولون بالعصا من حدود لحدود •

ولم يكن لهذا الأمر أي شأن لدى العباسيين بدليل أنهم اتفقوا في تلك السنة نفسها سنة ٨٥٥/٢٤٠ على إقامة فداء جديد يكرس حدود الجبهة وهدوؤها • وكانت مبادرة الفداء في هذه المرة أيضا من قبل امبراطورة الروم تيودورا • أرسلت رسلا الى الخليفة بالهدايا فأرسل المتوكل نصر بن الأزهر الشيعي الى بلاط القسطنطينية لينظر في عدد الأسرى

والشروط • وقد ترك لنا هذا السفير صورة كاملة جميلة لمراسم استقباله وتقريرا طريفا عما جرى له في مقابلة الامبراطور بعد أن ذهب إليه ثلاث مرات في الأفدية الثلاثة المتتالية التي جرت في هذه الفترة(١) • ويذكر ابن الأزهر أن عدد أسرى المسلمين لدى الروم كان عشرين ألفا وهو لا شك رقم غريب مبالغ به لا سيما بعد فترة الهدوء الطويل التي سبقت مشروع الفداء الجديد وتظهر المبالغة فيه إذا قورن بأعداد الفداء التي اعقبت زبطرة وعمورية والتي لم تتجاوز كثيرا أربعة آلاف كما تظهر إذا عرفنا أن عدد من فودي بهم فعليا إنما كان فقط ــ ٧٨٥ ــ رجلا و ١٢٥ امرأة حسب قول الطبري(٢) • ويبدو أن الرقم الأصح هو ألفان لا عشرون وإنما ارتفع الرقم لتبرير الحكاية الأخرى التي قد يكون أساسها صحيحا وقد يكون ذهب ضحيتها عدة مئات من الأسرى ولكنها بالرقم الكبير الذي تورده قد تكون لعبت بها المبالغة • والحكاية هي أن تيودورا ــ تحت تأثير الخصي المسيطر على العرش في عهدها ويسميه الطبري قنقلا (ويقصد تيوكتيست المعروف يومئذ بنفوذه الواسع) قد عرضت بعد خروج نصر من القسطنطينية على الاسارى لديها التنصر فمن رفض قتلته • وهكذا قتلت اثني عشر ألفا(٣) •••

وعلى أي حال فقد جرى الفداء سنة ٢٤٠/٨٥٥ في المكان نفسه

---

(١) انظر الطبري ج ٩ ص ٢١٩ ــ ٢٢١ (٣/١٤٤٩ ــ ١٤٥١) •

(٢) الطبري ج ٩ ص ٢٠٣ (٣/١٤٢٨) والمسعودي يذكر رقمين آخرين هما ٢٢٠٠ رجل و ١٠٠ امرأة ولكن المقريزي الذي ينقل عنه يكتب ٢٠٠ رجل و ١٠٠ امرأة وهو الرقم الذي يظهر في بعض طبعات مروج الذهب للمسعودي .

(٣) انظر الطبري ج ٩ ص ٢٠٢ (٣/١٤٢٧) .

الذي جرى فيه الفداء السابق وبالمراسم نفسها ولكن ... دون امتحان طبعا بقضية خلق القرآن • وبإجراءات احتياطية أقل صرامة وعقدت من أجله هدنة استمرت وقتا أطول امتد عدة أشهر (من تشرين الثاني سنة ٨٥٥ حتى آذار سنة ٨٥٦) • واستمرت عملية الفداء هذه المرة سبعة أيام ذكر المسعودي أن فيها قد تم افتداء المائة ذمي ...

غير أن الهجمات المتبادلة عادت بسرعة ، بعد الفداء • إلى الجبهة ولم يكن السبب فيها هذه المرة عسكريا أو سياسيا ولكنه كان ناجما عن أزمة من التعصب الديني الداخلي في بيزنطة ، اجتاحتها ونجم عنها ، هرب جماعة البيالقة (البوليسيين ، وهم فرقة مسيحية خاصة كانت تؤدي اجل الخدمات للروم على الجبهة) من جانب الروم لجانب العرب، بسبب محاولة الحكومة البيزنطية اعادتهم الى الارثوذكسية واضطهادهم ، وشنقهم بالآلاف • فادى ذلك الى «هدم الحدود الشرقية البيزنطية» بينما بنى البوليسيون مدينتين في منطقة سيواس الجبلية (على حدود ارمينيــة) وجعلوا بعد اليوم ، يساعدون المسلمين ضد الروم[1] وقد كان ممكنا أن يكونوا أكثر معونة للمسلمين وأشد خطرا لولا الخلافات الداخلية العباسية •

وقد نجم عن هرب البيالقة الى العرب أن قام الروم بهجوم عنيف على الجبهة العربية ، على اثر الصائفة التقليدية التي قام بها علي بن يحيى الأرمني سنة ٢٤١/٨٥٦ فاخترقوها على شكل سهم وصل بهم عبر أرض سميساط حتى قرب آمد ثم اتجهوا شمالا نحو الأرض التي نزلها البيالقة فأحرقوا القرى وأسروا في الحملة عشرة آلاف أسير ثم قفلوا عائدين...

---

(١) فازيلييف ـ العرب والروم ص ٢٠١ ـ ٢٠٣ •

وكان قد برز على الجبهة اسم قائد آخر هو عمر بن عبد الله الأقطع فلحق بهم ولكنه لم يدركهم[1] ...

وارتفعت حرارة الجبهة في شتاء تلك السنة وفي الصوائف التالية بالرغم من أن المتوكل كان مشغولا عمليا بمناورة الاتراك عنده ومحاولة الهرب من سيطرتهم : تارة الى دمشق وتارة الى عاصمة أخرى . وكان على الجبهة من جهة ابن يحيى وابن الاقطع والبيالقة ، ومن الجهة الأخرى امبراطور الروم الشاب وعمه المتسلط على العرش .

وبالرغم من أن أحداث صقلية وسقوط قصريانة في تلك الفترة قد أثرت على الروم واضطرتهم للتفرغ لها ولتهيئة أسطول كبير أرسلوه فعلا لاستردادها فلا يبدو أن ذلك هو الذي دعاهم إلى طلب تبادل الفداء في تلك السنة . هذه الطريقة المستحدثة في طلب الهدنة بشكل غير مباشر عن طريق تبادل الأسرى فرغت بسرعة من معناها الودي السلمي وأصبحت فيما يظهر مجرد إجراء حربي عادي أو تقليدي للتخلص من عبث الأسرى . وهذا على الأقل ما يفسر تحرك الامبراطور نفسه مع عمه لقتال العرب في الوقت الذي كان فيه رسوله في سامراء يفاوض للفداء ويجيبه عليه المتوكل بإرسال رسوله المعروف نصر بن الأزهر . وقد يكون من الأسباب الدافعة للامبراطور في الهجوم رغبته في كسب نصر سريع على الجبهة العربية يسنده ويسند عمه في موقفهما الداخلي دينيا وسياسيا بعد أن بلغ الامبراطور رشده وسلم مقاليد الأمور لهذا العم وقد تحرك الاثنان في مطلع صيف سنة ٨٥٩ وقبل أن يصل رسول المتوكل إليهما في هجمة مفاجئة مع الجيش ، وصلا بها حتى منابع الفرات . ويبدو أن الروم قتلوا في هذه الهجمة الكثير وخربوا من القرى الكثير وعادوا بخمس مائة

---

(١) الطبري ج ٩ ص ٢٠٧ (١٤٣٤/٣) .

أسير ... وسجل الامبراطور نصره في نقوش نقشها على أسوار أنقرة التي رممها فورا خوفا من هجمة انتقامية على منوال هجمة عمورية وثار في خيال الجند أن تلك الحملات إن هي إلا انتقام رائع لخزي عمورية[1] فغنتها الأناشيد على قلة شأنها ، في الوقت الذي كان فيه الاسطول الرومي يعود كرة ثالثة الى مصر فيهاجم دمياط والفرما سنة ٢٤٥ (حزيران تموز سنة ٨٥٩) ...

وبالرغم من هذه الهالة التي أحيطت بها غزوة ميخائيل الشاب الأولى هذه فإن بعض المصادر الرومية تتحدث عن فشله أمام سميساط . ولئن كان هذا الخبر — كما يرى فازيلييف — من أعمال الدعاية ضده فإن قائد الجبهة العربي علي بن يحيى قد غزا الصائفة فعلا هذه السنة وقد استطاع شرذمة الحامية في حصن لؤلؤة وكانت متمردة على الامبراطور فاستلم منها الحصن وقائده الذي يسميه الطبري لغثيط (ولوغوتيت لقب عسكري) ويذكر أنه أرسل الى المتوكل الذي حوله الى الفتح بن خاقان فعرض عليه الاسلام وكتب ملك الروم يبذل مكانه ألف رجل من المسلمين[2] .

ويظهر أن مشكلة لؤلؤة هذه جعلت هذا الملك ، وإن استقبل رسول المتوكل عنده : نصرا بن الأزهر ، «يتغافل عنه نحوا من أربعة أشهر»[3] لكن شعوره بفشل حملته من جهة ورغبته في الخلاص من الاسرى عنده وفي تخليص هذا اللوغوتيت دعته في نهاية الأشهر الأربعة الى استدعاء نصر إليه ومفاوضته في قضية الفداء .

---

(١) فازيلييف — العرب والروم ص ٢٠٧ وانظر كذلك التعليق في الصفحة نفسها .

(٢) الطبري ج ٩ ص ٢١٨ (١٤٤٨/١) .

(٣) الطبري ج ٩ ص ٢٢٠ (١٤٥٠/٣) .

«وكان الأسرى في أيدي الروم اكثر من ألفين منهم عشرون امرأة معهن عشرة من الصبيان» فاتفق على الفداء • الذي تم في مكان الأفدية ذاته سنة ٢٤٦/٨٦٠ وأطلق العرب للروم اكثر من ألف أسير ••

على أن هذا الفداء الذي لم يكن يحمل أي معنى سياسي لم يعقب بالطبع أي هدنة وما كادت عمليته التقاليدية تنتهي حتى تحرك الامبراطور الشاب لقتال العرب على الطريقة السنوية المعهودة على أنه لم يتنبه ، إلى الورطة التي أوقع نفسه بها في هذا الهجوم السريع خاصة إلا حين ورد عليه خبر من القسطنطينية يبلغه أن الروس الصقالبة قد ظهروا فجأة ولأول مرة أمام أسوارها يحاصرونها • وإذا ارتد الامبراطور الى عاصمته ليدافع عنها فإنه ترك جيشه لضربات الجيش الاسلامي • وقد انتهز القادة المسلمون دون شك وجود الخطر الروسي على أبواب بيزنطة فقادوا ضد الجبهة الرومية هجوما رباعيا إن يكن ينبىء عن تخطيط معين فإنه لم ينبىء عن أي قوة تحركت ثلاثة جيوش اسلامية غازية في البر على ثلاثة محاور يقودها ابن الأقطع وابن يحيى وبلكاجور التركي وتحرك البيالقة أيضا بجيش رابع في الشمال بينما تحرك أسطول عربي صغير بقيادة الفضل بن قارن[1] (شقيق اصبهبذ طبرستان) نحو الساحل الجنوبي للاناضول • ومن الغريب أن هذه الجيوش اكتفت بسبب قصر النظر السياسي بالغنائم : عاد عمر بن الاقطع من صائفته بسبعة آلاف أسير وابن يحيى بخمسة آلاف مع بعض البهائم، وقرباص البيالقة بخمسة آلاف • وكانت غزوة بلكاجور «موفقة» بينما ضرب ابن قارن ميناء أنطاكية (أضالية)[2] ••• وكان ذلك كله في الصيف سنة ٢٤٦ تموز سنة ٨٦١ •

---

(١) الفضل هو نفسه الذي قتل فيما بعد في حمص سنة ٢٥٠ .
(٢) انظر الطبري ج ٩ ص ٢١٩ (٣/١٤٤٩) .

على أن هذا الهجوم بقي دون غد أيضا ••• ولم يتكرر حتى في السنة التالية سنة ٨٦١ التي قتل في نهايتها المتوكل ••• وبالرغم من أن ابنه المستنصر أراد أن يغطي على جريمة قتله لأبيه بالجهاد وأمر وصيفا قائده التركي بمباشرة القتال على الثغور أربع سنوات واعطاه جيشا من عشرة آلاف مع عدة الحرب إلا إنه لم يمتع بالخلافة غير ستة أشهر ••• وتلا موته وقائع خطيرة في جبهة الروم هزت الناس هزا :. استطاع ابن الاقطع أن ينفذ الى الشمال فيحتل ميناء (أميسوس (سمسون) على البحر الأسود ولكنه بعد هذا التألق وقع في كمين فقتل (٣ ايلول سنة ٨٦٣) ونهض علي بن يحيى حين سمع الخبر لقتال الروم مع أهل ميافارقين وجوارها فقتل بدوره بعد شهر (١٨ تشرين الأول سنة ٨٦٣) مع اربع مائة من أصحابه ••• واهتزت بغداد والناس جميعا أعنف الاهتزاز لهذه الفاجعة المزدوجة التي اختطفت في شهرين متتالين «نابين من أنياب المسلمين» كما قيل وأعظم قائدين مجاهدين على الجبهة • وأقبل العامة يثورون واندفع المطوعة من كل ناحية في الجبال والأهواز والعراق والشام يتطوعون للجهاد ولكنها كانت ثورة فارغة وغثاء أجوى ••• وكان مصرع القائدين الرائعين في واقعه رمزا لوهن دولة بني العباس الوهن النهائي لا في الداخل فحسب ولكن على الجبهة الخارجية أيضا •



واخيرا

فهذه معالم من دولة بني العباس • ولئن كانت لهم بعدها «خلافة» استمرت أربعة قرون أخرى فإنه لم يكن لهم بعدها «دولة» حتى سحق الخلافة السيل المغولي سنة ٦٥٦/١٢٥٨ • وقد اقتصرت هذه المعالم على المدى السياسي فأما في آفاق الحضارة الواسعة فلذلك قصة أخرى لا تتم المعالم بدونها ولعلها هي الأهم والأبقى •

وإذا أنشأ العرب المسلمون منذ أواسط القرن السابع الميلادي (الأول الهجري) دولة عظمى كانت دولة العالم الأولى والكبرى والوحيدة التي تنظم السلم والحرب وتسيطر على الفكر والفن والانتاج والتجارة والمال والمستوى المتقدم والمتطور من الحياة ما بين قلب آسيا الصغرى في التيبت حتى أمواج المحيط الأطلسي وظلماته ، فقد تقاسم الأمويون والعباسيون حكم هذه الدولة : تولاها الأولون أقل قليلا من قرن وتولاها الآخرون اكثر قليلا من قرن وارثين بذلك أمجاد وآلام ومهمات الامبراطوريتين الرومانية (بما فيها البيزنطية) والفارسية (حتى آخر الساسانيين) في العالم المتمدن • ومتابعين قيادة الحضارة الانسانية خطوات جديدة في مسيرتها الطويلة • وإذا كان عهد الأولين اكثر ألقا وعظمة في الميدان السياسي فقد كان عهد الآخرين اكثر انتاجا في الميدان الحضاري • ثم انتهت قصة الدولة الكبرى في أواسط القرن الثالث الهجري (٩ م •) لتبدأ بدلا منها قصة الدول المتعددة التي تتابع السير بالحضارة والفكر قرونا أخرى ضمن الإطار الاسلامي الأوسع الذي طبع المنطقة كلها بطابعه الواضح العميق الخالد منذ ذلك الوقت الى اليوم •

ولو استعرضنا الوضع السياسي للدولة العباسية في نهاية عصرها الأول وقارنا ذلك الوضع بايام مطلعها أو أواخر أيام بني أمية لوجدنا أن خلفاء بني العباس قد تسلموا من الناحية السياسية امبراطورية اسلامية واحدة تشمل المسلمين كافة ثم انتهى العصر العباسي الأول وهناك خلافة عباسية في بغداد ولكن هناك أيضا : إمارة أموية اندلسية ودولة علوية ادريسية في المغرب ودولة خارجية رستمية معها وثلاثتهم خارج النفوذ العباسي • وهناك على أطراف المنطقة التي يشملها نفوذ بني العباس : الدولة الأغلبية في افريقية ودولة بني عبدون في الواحات • وإذا تركنا مملكتي النوبة والبجة فإنا سنجد أن مصر سوف تستقل بعد سنوات (منذ سنة ٢٥٥ هـ) • وتقوم فيها دولها الخاصة مع الطولونيين وهناك إمامة علوية (زيدية في اليمن وأخرى خارجية في عمان وإمارات اسلامية شتى في السند ودولة بني الصفار في سجستان ودولة آل طاهر فيخراسان إذا لم نذكر الدول التركية وراء خراسان ودولة علوية مستقلة فيطبرستان (منذ سنة ٢٥٠) ودولة أرمينية للبقارطة في أرمينية) •••

ولعل النص الطريف الذي أورده ابن العديم نقلا عن ابي الفوارس ابن الخازن ، المؤرخ المعاصر لنهاية دولة بني العباس في أواسط القرن الثالث يعطي صورة اكثر واقعية عن تفكك تلك الدولة حوالي سنة ٢٧٢ التي سموها في أيامها سنة الافتتاح : يقول : «قال (الخليفة) الموفق لصاعد يعني ابن مخلد ذي الرياستين (وهو المسيطر على الدولة) : هذه السنة يعني سنة اثنتين وسبعين ومائتينهي سنة الانغلاق لا سنةالافتتاح • مصر وساير الشامات في يد خمارويه بن طولون • والجزيرة مع اسحق لافضل فيها عنه • وقنسرين والعواصم مع ابي الساج • وخراسان وما وراء النهر في يد نصر بن أحمد • وطخارستان وبلخ وسمرقند في يد

داوود بن هاشم بن كيجور • ونيسابور في يد رافع ــ وسجستان وكرمان والسند وفارس واصفهان في يــد عمرو بن الليث ••• وذكــر البلاد بأسرها وأسمى من هي في يده وقال : ليس في الدنيا (لنــا) غير سقي الفرات !»[1] •

ومع ذلك فإن الحكم على العصر العباسي من خلال السياسةوحدها حكم ظالم لأن إنتاجه الحقيقي ومجده الحقيقي إنما هما في إنشاء ودعم وتكوين وبلورة الحضارة الاسلامية والثقافة العربية الاسلاميــة التي ما يزال العرب المسلمون ــ وغيرهم من الشعوب الاسلامية ــ يعيشون حتى اليوم على آلائها •

وكما بقي في ذاكرة البشرية أسماء عدد من أسياد الدنيا في فتراتها المختلفة واسماء عدد من المدن العالمية وعــدد من رواد الفكر الانساني وبناة الحضارة فقد بقي من عهد الدولــة العباسية كدولة عظمى أسماء الرشيد وبغداد وابن سينا والرازي والخوارزمي والكندي وابن الهيثم والمتنبي وهم حصيلة ما قدم العرب ــ بعد الرسالة المحمدية ــ من خير الى سوق الانسانية •

---

(١) ابن العديم ــ بغية الطلب مخطوط احمد الثالث ج٥ ورقة ٣٠٣ ظهر ٣٠٤ وجــه .

المصادر والمراجع العربية المختارة

١ ــ المصادر العربية الاولى

١ ــ ابن الأبار ابو عبد الله محمد بن أبي بكر القضاعي(٦٥٨هـ/١٢٦٠)
١ ــ الحلة السيراء (تحقيق الدكتور حسين مؤنس) القاهرة ١٩٦٣ (جزءان) .
٢ ــ الاتليدي محمد دياب المصري (فرغ من تاليفه سنة ١١٠٠ هـ)
٢ ــ اعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس . مخطوط المتحف البريطاني رقم ٣١٤٥ Or وط . البابي الثانية القاهرة سنة ١٩٥١
٣ ــ ابن الأثير عز الدين علي بن احمد بن محمد الجزري الشيباني (٦٣٠هـ/١٢٣٣) .
٣ ــ الكامل الأجزاء ٤ ــ ٧ (ط . بيروت نقلا عن تورنبرغ ١٩٦٥) .
٤ ــ اللباب في معرفة الانساب (القاهرة ١٣٥٧/١٣٦٩) .
٥ ــ اسد الغابة في معرفة الصحابة (القاهرة ١٢٨٠ــ١٢٨٦).
٤ ــ الاربلي ابو محمد عبد الرحمن سنبط قنيتو (سنة ٧١٧ هـ).
٦ ــ خلاصة الذهب المسبوك (مطبعة الروم الارثوذكس ــ القدس ١٨٥ وط . بغداد ــ المثنى دون تاريخ) .
٥ ــ الاربلي ابو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح (٦٩٣/١٢٩٣).
٧ ــ كشف الغمة في معرفة الائمة ــ النجف ١٣٨٥
٦ ــ الأزدي ابو زكريا يزيد بن محمد بن أياس (سنة ٣٣٤/٩٥٤).
٨ ــ تاريخ الموصل (تحقيق علي حبيبة) القاهرة ١٩٦٧
٧ ــ ابن الازرق احمد بن يوسف الفارقي (المتوفى بعد سنة ٥٧٦/١١٨٠) .
٩ ــ تاريخ ميافارقين مخطوط المتحف البريطاني رقم ٥٨٠٣ OR
٨ ــ الاسفراييني ابو المظفر طاهر بن محمد (سنة ٤٧١/١٠٧٨) .
١٠ ــ التبصير في الدين وتمييز الفرق الناجية من فرق الهالكين (ط . الكوثري ــ القاهرة ١٩٥٥) .

٩ ــ الأشعري القمي سعد بن عبد الله بن أبي خلف (سنة ٣٠١ هـ)
١١ ــ المقالات والفرق (صححه محمد جواد مشكور ــ مطبعة حيدري ، طهران ١٩٣٦) .
١٠ ــ الأشعري أبو الحسن علي بن اسماعيل بن ابراهيم (سنة ٣٢٤ هـ) .
١٢ ــ مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين (استامبول ١٩٢٩)
١١ ــ الاصبهاني أبو الفرج (٣٥٦/٩٦٧)
١٣ ــ مقاتل الطالبيين (تحقيق احمد صقر ــ دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٤٩) .
١٤ ــ الأغاني (ط . دار الكتب ــ القاهرة ١٩٢٥ ــ ١٩٧١) اجزاء متفرقة .
١٢ ــ الاصطخري أبو القاسم ابراهيم (القرن الرابع)
١٥ ــ مسالك الممالك (المجلد الاول ــ ط . ليدن ١٨٧٠ ــ ١٨٩٣) .
١٣ ــ ابن اصفنديار بهاء الدين محمد بن الحسن البوشنجي (سنة ٦٢٥/١٢٢٨) .
١٦ ــ تاريخ طبرستان (تحقيق عباس إقبال ــ طهران ١٩٤٢) جزءان والطبعة الانكليزية المختصرة ــ لندن ١٩٠٥
١٤ ــ الأصفهاني ــ حمزة بن الحسن (توفي قبل سنة ٣٦٠ هـ) .
١٧ ــ تاريخ سني ملوك الارض والانبياء (ط . بيروت ١٩٦١) .
١٥ ــ ابن أبي أصيبعة موفق الدين ابو العباس احمد بن القاسم الخزرجي (٦٦٨/١٢٧٠) .
١٨ ــ كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء (القاهرة ١٢٩٩ ــ ١٣٠٠) و (ط . بيروت ١٩٦٥) .
١٦ ــ ابن اعثم الكوفي (سنة ٣١٤/٩٢٦) .
١٩ ــ كتاب الفتوح ــ الجزء الثاني فقط مخطوط احمد الثالث رقم ٢٩٥٦ (ترجمته الفارسية ــ طبع بومباي سنة ١٣٠٠) .
١٧ ــ الباقلاني أبو بكر محمد بن الطيب (سنة ٤٣٠ هـ) .
٢٠ ــ التمهيد في الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة (ط . القاهرة ١٩٤٧) .
١٨ ــ البغدادي الخطيب ابو بكر أحمد بن علي (٤٦٣/١٠٧٠) .

٢١ ـ تاريخ بغداد (اجزاء متعددة من ١٤ جـزءا) . ط. القاهرة ١٩٣١/١٣٤٩
١٩ ـ البغدادي ابو منصور عبد القاهر بن طاهر الأشعري (سنة٤٢٩)
٢٢ ـ الفرق بين الفرق (القاهرة ١٩٢٤) وهـو اختصار الرسفي .
٢٠ ـ ابن البطريـق سـعيد (افتيشيوس أو يوتيخا) (سـنة ٩٢٩/٣١١) .
٣٢ ـ التاريخ المجموع على التحقيق والتصـديق (بيروت ١٩٠٩) .
٢١ ـ البكري ابو عبيـد الله بن عبد العزيز (١٠٩٧/٤٨٧) .
٢٤ ـ كتاب المغرب في ذكر بـلاد افريقية والمغـرب (ط. دي سلان ـ باريس ١٩١١) .
٢٢ ـ البلاذري احمد بن يحيى بن جابر (٨٩٢/٢٧٩) .
٢٥ ـ فتوح البلدان (تحقيق صلاح الدين المنجد) القاهرة ١٩٥٦
٢٦ ـ انساب الأشراف مخطوط السليمانية (رئيس الكتاب) استامبول رقم ٥٩٧ ـ ٥٩٨ مجلدان .
٢٧ ـ انساب الأشراف الجزء الاول (تحقيق محمد حميد الله ـ القاهرة ١٩٥٩) .
٢٨ ـ انساب الأشراف الجزء الرابع (القسم الثاني) نشـر شلوسنجر القدس ١٩٣٨
٢٩ ـ انساب الأشراف الجزء الخامس (نشر غوتين) القدس ١٩٣٦
٢٣ ـ البلوي ابو محمد عبد الله (من القرن الرابع الهجري) .
٣٠ ـ سيرة احمـد بن طولون (نشـر محمد كرد عـلي ـ دمشق ١٣٥٨) .
٢٤ ـ البياسي يوسف بن محمد بن ابراهيم الانصاري (١٢٥٦/٥٦٤)
٣١ ـ الاعلام بالحروب الواقعة في صدر الاسلام مخطوط دار الكتب ـ القاهرة رقم ٣٩٩ تاريخ .
٢٥ ـ البيروني ابو الريحان محمد بن احمد
٣٢ ـ الآثار الباقية عن القرون الخالية (ليبزيغ ١٨٧٨ ـ ٩) أعادت الطبع مكتبة المثنى ـ بغداد .
٣٣ ـ تحقيق ما للهند من مقولة (ليبزيغ ١٨٨٧) .

٢٦ ــ ابن تغري بردي جمال الدين يوسف الاتابكي (١٤٩٦/٨٧٤) .
٣٤ ــ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (الجزء الثاني والثالث ــ طبعة دار الكتب) .
٢٧ ــ التنوخي ابو علي المحسن بن علي بن محمد (٩٩٤/٣٨٤) .
٣٥ ــ جامع التواريخ المسمى نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة ج ١ (القاهرة ١٩٢١ ــ وغليوث) .
٣٦ ــ نشوار المحاضرة ج٨ (دمشق ١٩٣٠ ــ المجمع العلمي العربي) .
٣٧ ــ نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة (٤ أجزاء) نشر عبود الشالجي بيروت ١٩٧١ ــ ١٩٧٢
٣٨ ــ المستجاد من فعلات الأجداد تحقيق كرد علي (دمشق ١٩٥٠) .
٢٨ ــ الثعالبي ابو منصور عبد الملك بن محمد (سنة ٤٢٩) .
٣٩ ــ لطائف المعارف (ط . ليدن ١٨٦٨) .
٢٩ ــ الجاحظ ابو عثمان عمرو بن بحر (٨٦٩/٢٥٥)
٤٠ ــ التاج في اخلاق الملوك (القاهرة ١٩١٤/١٣٣٢) و (ط . بيروت ١٩٦٨) .
٤١ ــ البيان والتبيين ٤ أجزاء (ط . بيروت ١٩٦٨ وط . القاهرة سنة ١٣٢٣) .
٤٢ ــ آثار الجاحظ (رسائل جمعها عمر ابو النصر ــ بيروت ١٩٦٩) .
٤٣ ــ رسائل الجاحظ (دار النهضة ــ بيروت ١٩٧٢) .
٤٤ ــ كتاب التبصر بالتجارة (الطبعة الثانية ــ القاهرة ١٩٣٥/١٣٥٤) .
٤٥ ــ المحاسن والأضداد (ط . ليدن ١٨٩٨) .
٣٠ ــ الجهشياري ابو عبد الله محمد بن عبدوس (٣٣١ هـ) .
٤٦ ــ الوزراء والكتاب (ط . القاهرة ١٩٣٨) .
٣١ ــ ابن الجوزي ابو الفرج عبد الرحمن (١٢٠١/٥٩٧) .
٤٧ ــ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (ج٥ ــ ٧) ط . حيدر آباد ١٣٥٧ ــ ١٣٥٩ .
٤٨ ــ مناقب بغداد (ط . بغداد ١٣٢٤) .
٣٢ ــ ابن أبي الحديد عز الدين ابو حامد عبد الحميد (١٢٥٧/٦٥٥) .

٤٩ ـ شرح نهج البلاغة (ط . القاهرة ١٣٢٩ البابي الحلبي) ٤ مجلدات .

٣٣ ـ ابن حزم ابو محمد علي بن أحمد الظاهري (سنة٤٥٦/١٠٦٣).

٥٠ ـ كتاب الفصل في الملل والنحل (القاهرة ١٣١٧ـ١٣٢٠).

٣٤ ـ الخطيب البغدادي أبو بكر أحمد بن علي (٤٦٣/١٠٧٠) .

٥١ ـ تاريخ بغداد ١٤ مجلدا . الجزء الاول خاصة وأجزاء متفرقة منه (القاهرة ١٩٣١) .

٣٥ ـ ابن الخطيب لسان الدين محمد الوزير (سنة٧٧٦/١٣٧٤) .

٥٢ ـ كتاب أعمال الاعلام (طبعةبروفنسال ـ بيروت١٩٥٦).

٥٣ ـ كتاب أعمال الأعلام القسم الثالث (تحقيق العبادي والكتاني) الدار البيضاء ١٩٦٤ .

٣٦ ـ ابن حمدون ابو المعالي محمد بن الحسن (سنة ٥٦٢/١١٦٦).

٥٤ ـ التذكرة ـ الجزء الثاني عشر فقط ـ مخطوط احمد الثالث ـ استامبول رقم ٢٩٤٨

٥٥ ـ تذكرة ابن حمدون (جزء منها) ط . القاهرة ١٩٢٧ .

٣٧ ـ ابن حوقل ابو القاسم محمد بن علي البغدادي الموصلي (القرن الرابع) .

٥٦ ـ صورة الأرض (نشر دار الحياة ـ بيروت) .

٣٨ ـ ابن خرداذبة ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله (القرن الرابع) .

٥٧ ـ المسالك والممالك (المجلد السادس من المكتبة الجغرافية ـ ليدن ١٨٨٩) .

٣٩ ـ الحسني تاج الدين محمد بن حمزة بن زهرة (بعد سنة٧٥٣).

٥٨ ـ غاية الاختصار في أخبار البيوتات العلوية المحفوظة من الغبار (المطبعة الحيدرية ، النجف ١٩٦٣) .

٤٠ ـ الحنفي أبو محمد عثمان بن عبد الله العراقي (حوالي سنة ٥٠٠/١١٠٧) .

٥٩ ـ الفرق المفترقة بين اهل الزيغ والزندقة (تحقيق بشار قوتلواي ـ انقرة ١٩٦١) .

٤١ ـ ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨/١٤٠٥) .

٦٠ ـ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ المجلد الثالث ـ بيروت ١٩٦٦

٦١ ـ المقدمة ط . بولاق سنة ١٣٢٠ وطبعات أخرى .

٤٢ ـ ابن خلكان شمس الدين ابو العباس أحمد بن ابراهيم .

٦٢ ـ وفيات الاعيان (ط احسان عباس ـ بيروت ١٩٦٦ ـ ١٩٧٢) ٨ اجزاء .

٤٣ ـ خليفة بن خياط ابو عمرو المعروف بشباب العصفري (سنة ٢٤٠) .

٦٣ ـ كتاب الطبقات ـ تحقيق اكرم ضياء العمري ـ بغداد ١٩٦٧

٦٤ ـ تاريخ خليفة بن خياط ـ تحقيق العمري ـ بغداد ١٩٦٧ (جزءان) .

٤٤ ـ الخوانساري الميرزا محمد باقر الموسوي (القرن ١٢ هـ) .

٦٥ ـ روضات الجنات في احوال العلماء السادات (ط . طهران على الحجر سنة ١٣٤٧) .

٤٥ ـ الدميري كمال الدين ابو البقاء محمد بن موسى (١٤٠٥/٨٠٨)

٦٦ ـ حياة الحيوان الكبرى (بولاق ١٣٢٤) .

٤٦ ـ الدينوري احمد بن داوود أبو حنيفة (٨٩٥/٢٨٢) .

٦٧ ـ الأخبار الطوال (ط . عامر ـ النيال ـ القاهرة ١٩٦٠)

٤٧ ـ الذهبي شمس الدين محمد بن احمد (سنة ١٣٤٧/٧٤٨) .

٦٨ ـ مختصر تاريخ دول الاسلام (حيدرآباد ١٩١٨/١٣٣٨) .

٦٩ ـ تاريخ الاسلام (الأجزاء الستة الاولى) ـ القاهرة ١٣٦٧ فما بعد .

٧٠ ـ سير اعلام النبلاء (٣ اجزاء مطبوعة) القاهرة ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ .

٤٨ ـ الرازي فخر الدين محمد بن عمر التميمي البكري (سنة ٦٠٦/ ١٢٠٩) .

٧١ ـ اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (القاهرة ١٩٣٨ ـ تحقيق سامي النشار) .

٤٩ ـ ابن رسته ابو علي احمد بن عمر (سنة ٩٧١/٣٦٠) .

٧٢ ـ الاعلاق النفيسة (ليدن ١٨٩١ ـ اعادة طبع مكتبة المثنى بغداد) .

٥٠ ـ الرسغي عبد الرزاق بن ابي بكر بن خلف (بعد سنة ٦٤٧) .

٧٣ ـ مختصر الفرق بين الفرق (ط . الهلال ـ القاهرة ١٩٢٤) .

٥١ ـ الروذراوري ابو شجاع محمد بن الحسين الوزير (سنة٤٨٨) .

٧٤ ـ ذيل تجارب الأمم ـ ط . القاهرة ١٩١٦

٥٢ ـ الزبيري ـ ابو عبد الله مصعب بن عبد الله (سنة ٢٣٦) .
٧٥ ـ كتاب نسب قريش ـ القاهرة ١٩٥٣
٥٣ ـ ابن الساعي (منسوب إليه) .
٧٦ ـ مختصر اخبار الخلفاء (المطبعةالاميرية ـ القاهرة ١٣٩٠)
٥٤ ـ سبط ابن الجوزي يوسف بن قز أوغلو (سنة ١٢٥٦/٦٥٤).
٧٧ ـ تذكرة الخواص (المطبعة العلمية ، النجف ١٣٦٩) .
٥٥ ـ ابن سعد ابو عبد الله محمد كاتب الواقدي (سنة ٨٤٥/٢٣٠)
٧٨ ـ الطبقات الكبرى (ط . سخاو ـ ليدن ١٩٠٥ ـ ١٩٢١)
٥٦ ـ ابن سلام أبو عبيد القاسم بن سلام .
٧٩ ـ كتاب الاموال (القاهرة ١٣٥٣) .
٥٧ ـ ابن سليمان ـ ماري (نهاية القرن السابع هـ) .
٨٠ ـ اخبار بطاركة كرسي المشرق . (رومية ١٨٩٩) .
٥٨ ـ السيوطي عبد الرحمن بن ابي بكر جمال الدين (١٦٠٥/٩١١).
٨١ ـ تاريخ الخلفاء (ط . القاهرة ١٣٥١) .
٥٩ ـ الشابشتي أبو الحسن علي بن محمد (سنة ٩٩٨/٣٨٨) .
٨٢ ـ كتاب الديارات . تحقيق كوركيس عواد (الطبعة الثانية بغداد سنة ١٩٦٦) .
٦٠ ـ ابن شاكر محمد الكتبي الداراني (سنة ٧٦٤).
٨٣ ـ فوات الوفيات ٣ اجزاء القاهرة ١٩٤٧ .
٦١ ـ ابن شداد عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم (سنة ٦٨٤) .
٨٤ ـ الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة (قسم الجزيرة) مخطوط البودليان (اكسفوردرقم٣٣٣ مارش) .
٨٥ ـ الاعلاق الخطيرة نفسه (قسم حلب) (تحقيق سورديل ـ دمشق ١٩٥٣
٨٦ ـ الاعلاق الخطيرة نفسه (قسم دمشق وقسم فلسطين ـ جزءان) تحقيق سامي الدهان ، دمشق ١٩٥٦ و١٩٦٣
٦٢ ـ ابن شهراشوب ابو جعفر محمد بن علي المازندراني (٥٨٨/ ١١٩٢) .
٨٧ ـ مناقب آل ابي طالب المطبعة العلمية ـ قم (دون تاريخ) .
٨٨ ـ معالم العلماء (ط . عباس اقبال ـ طهران ١٣٩٤/١٣٥٣) و (ط . النجف ١٩٦١) .

٦٣ ـ الشهرستاني أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (سنة٥٤٨/١١٥٣)
٨٩ ـ كتاب الملل والنحل (ط . محمد سيد كيلاني ـ القاهرة ١٩٦١ وعلى هامش ابن حزم ـ القاهرة ١٣٤٧) .
٦٤ ـ الصابىء هلال بن ابراهيم بن هلال (سنة ٤٤٧/١٠٥٥) .
٩٠ ـ رسوم دار الخلافة (بغداد ١٩٦٤) .
٩١ ـ تحفة الامراء بتاريخ الوزراء ـ بيروت ١٩٠٤ (نشرة أمدروز) .
٦٥ ـ ابن الصباغ : علي بن محمد بن أحمد المالكي (سنة ٨٥٥ هـ) .
٩٢ ـ كتاب الفصول المهمة في معرفة الأئمة ـ مخطوط المكتبة الاهلية في باريس رقم ٥٨٣٢ .
٦٦ ـ الشيخ الصدوق ابو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي (٣٨١/٩٩١) .
٩٣ ـ الأمالي (ط . طهران ١٣٨٠ هـ) .
٦٧ ـ الصفدي صلاح الدين خليل بن أيبك الدمشقي (سنة ٧٤٧).
٩٤ ـ الوافي بالوفيات (٨ اجزاء مطبوعة حتى الآن . تحقيق ريتر وغيره ـ طبع استامبول ودمشق الطبعة الثانية ١٩٦١ ـ ١٩٧٠) .
٩٥ ـ الوافي بالوفيات مخطوط مصور للاجزاء المختلفة في مكتبة المجمع العلمي العربي بدمشق .
٦٨ ـ الصولي : ابو بكر محمد بن يحيى (٣٣٥/٩٤٦) .
٩٦ ـ أخبار الراضي والمتقي (من كتاب الاوراق) أو تاريخ الدولة العباسية (نشر هيوارثدن ـ القاهرة ١٩٣٦).
٦٩ ـ ابن الصيرفي ابو القاسم علي بن منجب المصري (بعد سنة ٥٥٠ أو سنة ٥٤٢) .
٩٧ ـ الاشارة إلى من نال الوزارة (طبع القاهرة ١٩٢٤) .
٧٠ ـ ابن طاهر أبو الفضل أحمد بن طاهر المعروف بابن طيفور (سنة ٢٨٠هـ) .
٩٨ ـ بغداد في تاريخ الخلافة العباسية (جزء من تاريخ ابن طاهر ، ط . بغداد ١٩٦٨) .
٧١ ـ الطبرسي أبو علي الفضل بن الحسن (سنة ٥٤٨/١١٥٣) .
٩٩ ـ اعلام الورى بأعلام الهدى (مطبعة حيدري ـ طهران ١٣٣٨) .
٧٢ ـ الطبري ابو جعفر محمد بن جرير (٣١٠/٩٢٢) .

١٠٠ ـ تاريخ الرسل والملوك ١٠ اجزاء (طبعة محمد ابو الفضل ابراهيم ـ القاهرة ١٩٦٧ وما بعد) وطبعة ليدن .

٧٣ ـ ابن الطقطقي . محمد بن علي بن طباطبا (٧٠٥ هـ)

١٠١ ـ الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية(القاهرة ١٩٢٧) .

٧٤ ـ ابن طولون شمس الدين محمد بن علي (١٠٤٦/٩٥٣) .

١٠٢ ـ الأئمة الاثنا عشر (تحقيق صلاح الدين المنجد ـ ط . صادر ـ بيروت ١٩٥٨) .

٧٥ ـ ابن ظافر أبو الحسن علي بن ابن منصور الخزرجي الاسدي (سنة ١٢١٧/٦١٣) .

١٠٣ ـ كتاب اخبار الدول المنقطعة ـ مخطوط المتحف البريطاني رقم ٣٦٨٥ .

٧٦ ـ ابن عبد الحكم ابو القاسم عبد الرحمن القرشي المصري (٢٧٦/ ٨٨٩) .

١٠٤ ـ فتوح مصر والمغرب القاهرة ١٩٦١ وطبعة ماسية ـ القاهرة ١٩١٤ في جزءين .

٧٧ ـ ابن عبد ربه شهاب الدين احمد (سنة ٩٤٠/٣٤٩) .

١٠٥ ـ العقد الفريد ٧ أجزاء (ط . دار الكتب . القاهرة) .

٧٨ ـ ابن العبري ابو الفرج غريغوريوس بن هارون الملطي (سنة ١٢٨٥/٦٨٥) .

١٠٦ ـ تاريخ مختصر الدول . ط . بيروت ١٩٥٨

٧٩ ـ ابن العديم كمال الدين عمر من آل ابي جرادة (سنة ٦٦٠/ ١٢٦٤) .

١٠٧ ـ زبدة الحلب من تاريخ حلب ٣ اجزاء (نشر المعهد الفرنسي ـ تحقيق سامي الدهان ـ دمشق ١٩٥٤ـ١٩٥٦

١٠٨ ـ بغية الطلب في تاريخ حلب ٨ اجزاء مخطوطة مكتبة احمد الثالث استامبول رقم ٢٩٢٠

١٠٩ ـ بغية الطلب في تاريخ حلب ١ جزء آخر مخطوط مكتبة فيض الله رقم ١٤٠٤

١١٠ ـ بغية الطلب في تاريخ حلب ١ جزء آخر مخطوط مكتبة اياصوفيا رقم ٣٠٣٦

٨٠ ــ ابن عذارى ابو عبد الله محمد المراكشي (توفي أواخر القرن السابع) .
١١١ ــ البيان المغرب في حلي المغرب ط. دوزي (ليدن ١٨٤٨ ١٨٥١) وط. باريس سنة ١٩٣٠.
٨١ ــ عريب بن سعيد القرطبي (٣٣٦/٦٧٦)
١١٢ ــ صلة تاريخ الطبري ط . بيروت ١٨٩٠ وط . القاهرة ١٣٠٢
٨٢ ــ ابن عساكر ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي (سنة ٥٧٢/١١٧٦) .
١١٣ ــ تاريخ مدينة دمشق مخطوط المكتبة الظاهرية بدمشق رقم ٣٣٦٧ حتى رقم ٣٣٨٣ عام. ورقم ٣٤٥٠ (١٩ جزءا)
١١٤ ــ تهذيب تاريخ دمشق (بدران ــ طبع دمشق ١٣٣٣ ــ ١٣٤٥) .
٨٣ ــ عمرو بن متى (القرن الثامن الهجري) .
١١٥ ــ اخبار بطاركة كرسي المشرق (من كتاب المجدل ــ رومية ١٨٩٦) .
٨٤ ــ ابن عنبة ابو الياس أحمد بن علي (سنة ٨٢٨) .
١١٦ ــ عمدة الطالب في أنساب آل ابي طالب (النجف ــ المطبعة الحيدرية ١٩٦١) .
٨٥ ــ غرس النعمة محمد بن هلال الصابيء (سنة ٤٨٠/١٠٨٧) .
١١٧ ــ الهفوات النادرة (تحقيق الأشتر ــ طبع المجمع العلمي بدمشق ١٩٦٧) .
٨٦ ــ أبو الفداء الملك اسماعيل بن عماد الدين علي صاحب حماة (٧٣٢/١٣٣١) .
١١٨ ــ المختصر في أخبار البشر ٤ أجزاء (القاهرة ١٣١٥) .
٨٧ ــ الفراء أبو يعلي الحنبلي (سنة ٤٥٦) .
١١٩ ــ الاحكام السلطانية (القاهرة ١٩٣٨) .
٨٨ ــ ابن الفراء .
١٢٠ ــ رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة (تحقيق صلاح الدين المنجد ــ القاهرة ١٩٤٧) .
٨٩ ــ ابن الفقيه الهمذاني : ابو بكر احمد بن محمد (القرن الرابع) .
١٢١ ــ البلدان (ط. ليدن ١٨٨٥) .

٩٠ ــ ابن قتيبة ابو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (٨٨٩/٢٧٦) .
١٢٢ ــ الامامة والسياسة (القاهرة مطبعة النيل) .
١٢٣ ــ المعارف (القاهرة ١٣٥٣) .
١٢٤ ــ عيون الاخبار (القاهرة ١٣٤٣ ــ ١٣٤٨) ٤ أجزاء .
٩١ ــ قدامة بن جعفر ابو الفرج الكاتب البغدادي (٣٣٧ هـ) .
١٢٥ ــ كتاب الخراج وصنعة الكتابة (ليدن ١٨٨٩) (قسم من الكتاب) .
١٢٦ ــ كتاب الخراج نفسه بقيته الموجودة ــ النصف الثاني منه مخطوط المكتبة الاهلية في باريس رقم ٥٩٠٧ .
٩٢ ــ القزويني زكريا بن محمد بن محمود .
١٢٧ ــ آثار البلاد واخبار العباد بيروت ١٩٦٠ .
٩٣ ــ القلقشندي ابو العباس احمد (١٤١٨/٨٢١) .
١٢٨ ــ صبح الأعشى في صناعة الانشاء (بعض الأجزاء منه) طبعة دار الكتب .
١٢٩ ــ مآثر الانافة في معالم الخلافة الكويت ١٩٦٤، ٣ اجزاء .
٩٤ ــ القفطي الوزير جمال الدين (سنة ١٢٤٩/٦٤٧) .
١٣٠ ــ اخبار العلماء باخبار الحكماء (مختصر الزوزني ــ ليبزيغ ١٣٢٠) .
٩٥ ــ ابن القوطية ابو بكر محمد بن عبد العزيز (القرن الثالث) .
١٣١ ــ تاريخ افتتاح الاندلس (ط . مجريط ١٨٦٨ وبيروت ١٩٥٨) .
٩٦ ــ ابن قيم الجوزية (شمس الدين ابو عبد الله محمد بن أبي بكر (سنة ٧٥١) .
١٣٢ ــ احكام أهل الذمة (تحقيق صبحي الصالح) دمشق ١٩٦١ مجلدان .
٩٧ ــ ابن كثير ابو الفداء اسماعيل بن عمر القرشي (٧٧٤)
١٣٣ ــ البداية والنهاية ، الاجزاء ٧ ــ ١٢ (القاهرة ١٩٣٢) .
٩٨ ــ الكشي الطوسي أبو عمرو محمد بن عمر (من القرن الرابع) .
١٣٤ ــ معرفة اخبار الرجال (النجف ١٩٦٤) .
٩٩ ــ الكليني : محمد بن يعقوب (٩٣٩/٣٢٩) .
١٣٥ ــ أصول الكافي (الروضة من الكافي) ط . مكتبة الصدوق ــ طهران ١٩٦١/١٣٨١ ــ ٢

١٠٠ ــ الكندي ابو عمر محمد بن يوسف (٩٦١/٣٥٠) .
١٣٦ ــ كتاب الامراء والولاة وكتاب القضاة (ط . ليدن ١٩١٧)
١٠١ ــ الماوردي ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب .
١٣٧ ــ الاحكام السلطانية (القاهرة ١٢٩٨) .
١٠٢ ــ المبرد محمد بن يزيد بن عبد الاكبر (سنة ٢٨٥ هـ) .
١٣٨ ــ الكامل (القاهرة ١٩٥٦) .
١٠٣ ــ مجهول (من القرن الثالث أو الرابع) .
١٣٩ ــ اخبار العباس وولده (نشره عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي بعنوان اخبار الدولة العباسية ــ بيروت ١٩٧١) .
١٠٤ ــ مجهول (من القرن الخامس) .
١٤٠ ــ تاريخ سستان (بالفارسية ــ ط . طهران ١٣١٤) .
١٠٥ ــ مجهول (من القرن السابع أو الخامس) .
١٤١ ــ تاريخ الخلفاء (لعله مختصر اخبار العباس وولده مع زيادات) (نشر غرياز نيويج ــ موسكو ١٩٦٧) .
١٠٦ ــ مجهول (من القرن الثالث) .
١٤٢ ــ اخبار مجموعة في فتح الاندلس وامرائها (تحقيق الكنترا ــ مدريد ١٨٦٧) .
١٠٧ ــ مجهول (من القرن السابع) .
١٣٤ ــ كتاب العيون والحدائق في اخبار الحقائق الجزء الثالث (نشر دي غويه ــ ليدن ١٨٧١) .
١٤٤ ــ كتاب العيون والحدائق في اخبار الحقائق الجزء الرابع ــ ١ (تحقيق نبيلة عبد المنعم داوود ــ النجف ١٩٧٢).
١٠٨ ــ ابن المرتضى المهدي لدين الله احمد بن يحيى (٩٣٦/٣٢٥).
١٤٥ ــ طبقات المعتزلة (بيروت ١٩٦١) .
١٠٩ ــ المسعودي ابو الحسن علي بن الحسين بن علي (سنة ٣٤٦/ ٩٥٦) .
١٤٦ ــ مروج الذهب ومعادن الجوهر (ط . بلا ــ بيروت ١٩٦٦ ــ ١٩٧٣) ٤ أجزاء وطبعة القاهرة ١٩٣٨ .
١٤٧ ــ التنبيه والاشراف (القاهرة ١٩٣٨)
١٤٨ ــ كتاب اثبات الوصية (طبع المطبعة المرتضوية ــ النجف).
١١٠ ــ مسكويه ابو علي احمد بن محمد (سنة ٤٢١) .

١٤٩ ـ تجارب الامم الجزء الاول والثاني (نشر آمدروز ـ القاهرة ١٩١٤ ـ ١٩١٥) .

ـ تجارب الامم جزء ملحق بكتاب العيون والحدائق (نشر دي غويه ـ ليدن ١٨٧١) .

١١١ ـ الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان العكبري (٤١٣/ ١٠٢٢) .

١٥٠ ـ الفصول المختارة من العيون والمحاسن (جزاءن) ط .

١٥٨ ـ الارشاد (ط . اصبهان ١٣٦٤) .

١١٢ ـ المقدسي شمس الدين ابو عبد الله محمد البشاري (سنة ٣٨٧/٩٩٧) .

١٥٢ ـ أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (ليدن ١٩٠٦) .

١١٣ ـ المقدسي المطهر بن طاهر (القرن الرابع) .

١٥٣ ـ البدء والتاريخ (ط . باريس ١٨٩٩ ـ ١٩٠٦) .

وينسب الكتاب الى ابي زيد البلخي (٣٢٢/٩٤٢) .

١١٤ ـ المقري أحمد بن محمد التلمساني (سنة ١٠٤١ هـ) .

١٥٤ ـ نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب (القاهرة ١٩٤٩) ١٠ أجزاء .

١١٥ ـ المقريزي تقي الدين احمد بن علي (٨٤٥/١٤٤١) .

١٥٥ ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (ط . بيروت ١٩٦٢ وط . القاهرة ١٣٢٦) .

١٥٦ ـ المقفى مخطوط المكتبة الاهلية في باريس رقم ٢١٤٤

١٥٧ ـ المقفي مخطوط المكتبة السليمية باستامبول رقم ٤٩٦

١٥٨ ـ المقفى مخطوط ليدن رقم ١٣٦٦ .

١٥٩ ـ النزاع والتخاصم فيما بين بني امية وبني هاشم ـ النجف ١٩٦٦ (ط . محمد بحر العلوم ـ الحيدرية) .

١٦٠ ـ شذور العقود في ذكر النقود (نشرة بعنوان النقود الاسلامية محمد بحر العلوم ـ النجف ١٩٦٧) .

١٦١ ـ اتعاظ الحنفا في اخبار الأئمة الفاطميين الحنفا (تحقيق الشيال ـ القاهرة ١٩٦٧) .

١٦٢ ـ الكشف والاعراب عما بديار مصر من الأعراب ـ القاهرة

١١٦ ـ ابن المقفع ، ساويرس .

١٦٣ ـ سير الآباء البطاركة تحقيق Evettes طبع باريس ١٩٠٧

١١٧ ــ ابن المقفع عبد الله (سنة ١٤٢ او سنة ١٤٣/٧٦٠ أو ٧٦١).

١٦٤ ــ رسالة الصحابة (ضمن كتاب رسائل البلغاء ــ نشر محمد كرد علي ــ القاهرة ١٩٤٦) .

١٥٦ ــ الأدب الكبير (نشر أحمد زكي باشا ــ القاهرة ١٩١٢).

١٦٦ ــ الأدب الصغير (نشر احمد زكي باشا القاهرة ١٩١١).

١١٨ ــ النجاشي احمد بن علي الأهوازي (سنة ٤٥٠) .

١٦٧ ــ كتاب الرجال (ط . بومبي ١٩١٧) .

١١٩ ــ ابن النديم محمد بن اسحق (سنة ٣٨٣/٩٩٣ ــ ولعله توفي بعد سنة ٤٠٠) .

١٦٨ ــ الفهرست (ط. فلوجل ــ هاله ١٨٧٢ ــ اعادة طبع خياط ــ بيروت) .

١٢٠ ــ النرشخي ابو بكر محمد بن جعفر (القرن الرابع أوالخامس)

١٦٩ ــ تاريخ بخارى (معرب عن الفارسية بقلم امين عبدالمجيد بدوي ونصر الله مبشر الطرازي ــ القاهرة ١٩٦٥) .

١٢١ ــ النوبختي ابو محمد الحسن بن موسى (سنة ٣٠٠) .

١٧٠ ــ كتاب فرق الشيعة (النجف ١٩٥٩) .

١٢٢ ــ النويري أحمد بن عبد الوهاب (سنة٧٣٣) .

١٧١ ــ نهاية الأرب الجزء ٢٠ مخطوط أياصوفيا ــ استامبول رقم ٣٥٢٣

١٧٢ ــ نهاية الأرب الجزء ٢٢ مخطوط دار الكتب بالقاهرة رقم ١٨٦٦٨

١٧٣ ــ نهاية الأرب الجزء ٢٣ مخطوط دار الكتب أيضا رقم ٦٩٩ تاريخ تيمور .

١٢٣ ــ وكيع القاضي محمد بن خلف بن حيان (سنة ٣٠٦) .

١٧٤ ــ أخبار القضاة (القاهرة ١٩٧٤) ٣ اجزاء .

١٢٤ ــ اليافعي عبد الله بن اسعد (سنة ٧٦٨ هـ) .

١٧٥ ــمرآة الجنان وعبرة اليقظان (حيدر آباد ١٣٢٧ــ١٣٢٩)

١٢٥ ــ ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (سنة ٦٢٧/١٢٣٠) .

١٧٦ ــ معجم البلدان (ط. ليبزيغ ١٨٦٦ ــ ١٨٧٣ . وطبعة بيروت ١٩٦٢) .

١٧٧ ــ ارشاد الاريب (معجم الادباء) (ط. ليدن ١٩٠٧ ــ ١٩٣١) وطبعة القاهرة ــ مرغليوث) .

١٢٦ ـ يحيى بن آدم القرشي (سنة ٢٠٣) .
١٧٨ ـ كتاب الخراج (ليدن ١٨٩٥ والقاهرة ـ المطبعة السلفية ١٣٤٧) .
١٢٧ ـ اليعقوبي احمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن واضح (سنة ٨٩٥/٢٨٢) .
١٧٩ ـ تاريخ اليعقوبي (بيروت ١٩٦٠ ـ جزءان وطبعة النجف ١٩٣٩ ـ ٣ اجزاء) .
١٨٠ ـ كتاب البلدان (النجف ١٩٣٩ وطبعة القاهرة ١٩٣٧) .
١٨١ ـ مشاكلة الناس لزمانهم (تحقيق وليم ملورد ـ بيروت ١٩٦٢) .
١٢٨ ـ أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم قاضي الرشيد (سنة ١٩٢/ ٨٠٧) .
١٨٢ ـ كتاب الخراج (المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٦) .

٣ ـ المراجع العربية الحديثة والمترجمة :

١ ـ أحمد ، محمد حلمي
١ ـ الخلافة والدولة في العصر العباسي ـ القاهرة ٩١٥٩
٢ ـ فجر الاسلام طبعة دار المعارف ـ القاهرة ١٩٣٦
٣ ـ ضحى الاسلام طبعة دار المعارف ـ القاهرة ١٩٣٦
٤ ـ ظهر الاسلام .
٥ ـ المهدية والمهدوية ـ القاهرة ١٩٥٣
٣ ـ أحمد محمود حسن
٦ ـ الاسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى ـ القاهرة ١٩٦٨ ، وبالاشتراك مع احمد ابراهيم الشريف : العالم الاسلامي في العصر العباسي ـ القاهرة ١٩٦٦
٤ ـ ارسلان ، شكيب
٧ ـ تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا ـ بيروت ١٩٦٦
٥ ـ آرنولد ، توماس
٨ ـ الدعوة الى الاسلام (ترجمة حسن ابراهيم حسن) الطبعة الثانية ١٩٦٤
٩ ـ الخلافة ، ترجمة جميل معلى ، دمشق ١٩٤٨
١٠ ـ تراث الاسلام (مع جمهرة من المستشرقين) معرب ـ القاهرة ١٩٤٧

٦ ـ امير علي ، سيد
١١ ـ مختصر تاريخ العرب ، والتمدن الاسلامي، ترجمةرياض رافة ، ط . القاهرة .
٧ ـ بارتولـد . ف
١٢ ـ تاريخ الحضارة الاسلامية ترجمة حمزة طاهر ـ القاهرة ١٩٥٢
١٣ ـ تاريخ الترك في آسيا الوسطى ترجمة احمد السعيد ـ القاهرة ١٩٥٨
٨ ـ الباروني ، ابو الربيع سليمان بن عبد الله
١٤ ـ مختصر تاريخ الإباضية ـ تونس ١٩٣٨
٩ ـ الباشا ، محمود حسين
١٥ ـ الالقاب الاسلامية في التاريخ والوثائق ـ القاهرة ١٩٥٧
١٠ ـ برانق ، محمد احمد
١٦ ـ الوزراء العباسيون ـ القاهرة دون تاريخ .
١١ ـ بروكلمان كارل
١٧ ـ تاريخ الأمم والشعوب الاسلامية (ترجمة منير البعلبكي بيروت ١٩٤٨) .
١٢ ـ ترتون
١٨ ـ أهل الذمة في الاسلام ترجمة حسن حبشي ، القاهرة ١٩٤٩
١٣ ـ ثابت ، نعمـان
١٩ ـ الجندية في الدولة العباسية ـ بغداد ١٩٥٦
١٤ ـ جوزي ، بندلي
٢٠ ـ من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ـ القدس ١٩٢٨ وبيروت دون تاريخ .
١٥ ـ الجومرد ، عبد الجبار .
٢١ ـ هارون الرشيد (جزءان) ـ بيروت ١٩٥٦
٢٢ ـ المنصور بيروت ١٩٦٣
١٦ ـ حتي ، فيليب
٢٣ ـ تاريخ العرب (مطول) ٣ اجزاء ـ الطبعة الرابعة ـ بيروت ١٩٦٥

١٧ ـ حسن ، ابراهيم
٢٤ ـ تاريخ الاسلام السياسي ٤ أجزاء الطبعة الخامسة ـ القاهرة ١٩٦٧
حسن ابراهيم (وبالاشتراك مع علي ابراهيم حسن)
٢٥ ـ النظم الاسلامية القاهرة ١٩٣٨
١٨ ـ الحسني ، علي الجزائري
٢٦ ـ تاريخ سورية الاقتصادي دمشق ١٣٤٢
١٩ ـ حوراني ، جورج فضلو
٢٧ ـ العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ترجمة يعقوب بكر ـ القاهرة ١٩٥٨
٢٠ ـ حي الصيني ، بدر الدين
٢٨ ـ العلاقات بين العرب والصين ، القاهرة ١٩٥٠
٢١ ـ الحسيني ، محمد جابر عبد العال
٢٩ ـ حركات الشيعة المتطرفين (الطبعة الثانية) القاهرة ١٩٦٧
٢٢ ـ خدابخش ، صلاح الدين
٣٠ ـ حضارة الاسلام ترجمة علي حسن خربوطلي ـ بيروت ١٩٧١
٢٣ ـ الدبس ، المطران يوسف
٣١ ـ تاريخ سورية ، ١٠ اجزاء بيروت ١٩٠٠
٢٤ ـ الدوري ، عبد العزيز
٣٢ ـ العصر العباسي الأول ـ بغداد ١٩٤٥
٣٣ ـ مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ـ بغداد ١٩٤٩ ـ بيروت ١٩٦٠
٣٤ ـ دراسات في العصور العباسية المتأخرة ـ بغداد (مطبعة السريان) ١٩٤٥
٣٥ ـ مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ـ بيروت١٩٦٩
٣٦ ـ الجذور التاريخية للشعوبية ـ بيروت ١٩٦٠
٣٧ ـ تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ـ بغداد ١٩٤٨
٢٥ ـ دينيث ، دانيال
٣٨ ـ الجزية والاسلام ترجمة فوزي فهيم جاد الله ، بيروت ١٩٦٠

٢٦ ـ رستم ، أسد
٣٩ ـ الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم مع العرب (جزءان) بيروت ١٩٥٦
٢٧ ـ الرفاعي ، أحمد فريد
٤٠ ـ عصر المأمون ، (جزءان) القاهرة ١٩٢٧
٢٨ ـ رودنسون ، مكسيم
٤١ ـ الاسلام والرأسمالية ـ ترجمة نزيه الحكيم ، بيروت ١٩٦٨
٢٩ ـ الريس ، محمد ضياء الدين
٤٢ ـ الخراج في الدولة الاسلامية ـ القاهرة ١٩٥٧
٣٠ ـ زامباور
٤٣ ـ معجم الانساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ـ القاهرة ١٩٥١
٣١ ـ الزرو ، خليل داوود
٤٤ ـ الحياة العلمية في الشام ـ بيروت ١٩٧١
٣٢ ـ زيدان ، جرجي
٤٥ ـ تاريخ التمدن الاسلامي خمسة أجزاء ـ الطبعة السادسة ، القاهرة ١٩٥٩
٣٣ ـ سالم ، عبد العزيز
٤٦ ـ المغرب الكبير (العصر الاسلامي) ، القاهرة ١٩٦٦
٣٤ ـ سوسة أحمد
٤٧ ـ ري سامراء ـ بغداد ١٩٤٨
٣٥ ـ سيديو
٤٨ ـ تاريخ العرب العام (مترجم) ـ القاهرة
٣٦ ـ شلبي ، أحمد
٤٩ ـ التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية الجزء الثالث خاصة الطبعة الرابعة ـ القاهرة
٣٧ ـ الصالح ، صالح
٥٠ ـ النظم الاسلامية ، بيروت ١٩٦٨
٣٨ ـ طرخان ، ابراهيم علي
٥١ ـ المسلمون في اوروبا في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٦

٣٩ ـ عبـاس ، احسـان
٥٢ ـ العرب في صقلية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٨
٤٠ ـ عبد الحميد ، سعد زغلول
٥٣ ـ تاريخ المغرب العربي ـ القاهرة ١٩٦٠
٤١ ـ عثمان ، فتحي
٥٤ ـ الحدود الاسلامية البيزنطية ٣ أجزاء القاهرة ١٩٦٦
٤٢ ـ العدوي ابراهيم أحمد
٥٥ ـ المسلمون والجرمان ـ الاسلام في غرب المتوسـط ـ القـاهرة ١٩٦٠
٥٦ ـ قوات البحرية العربية في مياه المتوسط ـ القاهرة ١٩٦٣
٥٧ ـ الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ـ القاهرة ١٩٥٠
٥٨ ـ الأمويون والبيزنطيون ـ القاهرة ١٩٥٣
٥٩ ـ السفارات الاسلامية الى أوروبا في العصور الوسطى القاهرة ١٩٦٠
٤٣ ـ العلي ، صالح أحمد
٦٠ ـ التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية في البصـرة ، بغداد ١٩٥٣
٦١ ـ استيطان العرب في خراسان ، مجلة كليـة الآداب بجامعة بغداد ١٩٥٩
٦٢ ـ بغداد في عهد المنصور ، مؤتمر المـدن الأسلاميـة ، اكسـفورد ١٩٦٥
٤٤ ـ عمر فوزي فاروق
٦٣ ـ طبيعة الدعوة العباسية ـ بيروت ١٩٧٠
٦٤ ـ العباسيون الأوائل الجزء الأول ـ بيروت ١٩٧٠
٦٥ ـ العباسيون الاوائل الجزء الثاني بيروت ١٩٧٣
٤٥ ـ غرونباوم ج . ا .
٦٦ ـ حضارة الاسلام ترجمة عبد العزيز جاويد (الالف كتاب) ـ القاهرة
٤٦ ـ فـازيلييف
٦٧ ـ العرب والروم ترجمة عبد الهادي شعيرة ـ القاهرة ١٩٥٤

٤٧ ـ فامبري ارمينيوس
٦٨ ـ تاريخ بخارى (ترجمة التساداني ـ الخشاب) القاهرة ١٩٥٦
٤٨ ـ فان فلوتن
٦٩ ـ السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات (ترجمة حسن ابراهيم حسن) الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٦
٤٩ ـ فيصل ، شكري
٧٠ ـ المجتمعات الاسلامية في القرن الأول ـ بيروت ١٩٦٦
٧١ ـ حركة الفتح الاسلامي في القرن الاول ـ بيروت ١٩٦٧
٥٠ ـ فيلهاوزن ، يوليوس
٧٢ ـ تاريخ الدولة العربية ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة (الطبعة الثانية ـ القاهرة سنة ١٩٦٨)
٧٣ ـ الخوارج والشيعة ـ ترجمة عبد الرحمن بدوي ، القاهرة ١٩٦٨
٥١ ـ فيلبي ، جون
٧٤ ـ هارون الرشيد (مترجم)
٥٢ ـ كاشف ، سيدة اسماعيل
٧٥ ـ مصر في فجر الاسلام ـ القاهرة ١٩٤٧
٥٣ ـ كـاهن ، كلود
٧٦ ـ تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، ترجمة بدر الدين القاسم المجلد الأول ـ بيروت ١٩٧٢
٥٤ ـ كتابجي ، زكريا
٧٧ ـ الترك في مؤلفات الجاحظ ، بيروت ١٩٧٢
٥٥ ـ كرد علي محمد
٧٨ ـ خطط الشام الاجزاء ١ ، ٢ ، دمشق ١٩٢٢
٧٩ ـ الادارة الاسلامية في عز العرب ـ القاهرة ١٩٣٤
٨٠ ـ رسائل البلغاء ط . القاهرة ١٩١٣ و ط . القاهرة ١٩٥٧
٨١ ـ امراء البيان ـ القاهرة ١٩٣٧
٥٦ ـ كريستنسن
٨٢ ـ ايران في عهد الساسانيين (ترجمة يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٥٧)

٥٧ ـ كريمــر
٨٣ ـ الحضـارة الاسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الاجنبية ترجمة مصطفى بدر ، القاهرة
٥٨ ـ لسـترانــج ، غي
٨٤ ـ بلدان الخلافة الشــرقية ترجمــة بشير فرنسيس وكوركيــس عواد ، بغداد ١٩٥٤
٨٥ ـ بغداد في عهد الخلافة العباسية ترجمة بشير فرنسيس بغداد ١٩٣٦
٥٩ ـ لويس ، ارشيبالد
٨٦ ـ القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، مترجم ، القاهرة ١٩٦٠
٦٠ ـ لين بول ، استانلي
٨٧ ـ طبقات سلاطين الاســلام (مترجم عن الفارســية) بغداد ١٩٦٨
٦١ ـ مؤنس ، حسين
٨٨ ـ فتوح العرب للمغرب القاهرة ١٩٤٧
٦٢ ـ متز ، آدم
٩٨ ـ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري (جزءان) ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة ، القاهرة ، ١٩٤٠
٦٣ ـ المدني ، احمــد توفيق
٩٠ ـ المسـلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا، الجزائر ـ صقلية ١٩٦٩
٦٤ ـ مورينو ، مارتينو ماريو
٩١ ـ المسلمون في صقلية ـ بيروت ١٩٥٧
٦٥ ـ المنجد ، صلاح الدين
٩٢ ـ المنتقى من دراسات المستشرقين ـ القاهرة ١٩٥٥
٦٦ ـ النجار ، محمد الطيب
٩٣ ـ الموالي في العصر الأموي ـ القاهرة ١٩٤٩
٦٧ ـ هــل ، يوســف
٩٤ ـ الحضارة العربية ترجمــة ابراهيم احمد العــدوي (الألف كتاب) القاهرة ١٩٥٦

٦٨ ـ فلهاوزن ، يوليوس
٩٥ ـ تاريخ الدولة العربية (ترجمة ابو ريدة ، مؤنس)
ط . الألف كتاب القاهرة ١٩٥٨

٦٩ ـ اليوزبكي ، توفيق سلطان
٩٦ ـ الوزارة ونشأتها وتطورها في الدولة العباسية ـ
بغداد ١٩٦٩

٧٠ ـ دائرة المعارف الاسلامية
٩٧ ـ الترجمة العربية (١٤ مجلدا) مواد مختلفة منها .

* *

٣ ــ مراجع باللغات الاجنبية

1 — **Bagdad** : Volume spécial publié a' l'occasion du mille deux centiéme anniversaire de la fondation, Leyden 1962 .

2 — **Barthold, W.**

2 — Turkestan down to the Mongol invasion (2 = me ed, London 1928) .

3 — **Bouvat**

3 — Les Barmécides d'aprés les auteurs arabes et persans. Paris 1909, 1912.

4 — **Buchler,**

4 — Harun al Rashid and Charles the great, Massachusetts, 1931.

5 — **Brooks,** E. W. . chabot et guidi.

5 — Chronica Minora (Tome IV du Corp. Scrip. Chris. Or.) texte et traduction française, Paris 1907.

6 — **Cahen, Claude,**

6 — Points de vue sur la Revolution Abbaside, R. H. 1963.

7 — **Chabot, J. B.**

7 — Littérature Cyriaque, Paris 1934.

8 — **Dennett, D. C.**

8 — Marwan Ibn Muhammad, Harvard University 1939.

9 — **Frye, R. N.**

9 — The Role of Abu Muslim, Mus. world, 37, 1947.

10 — The Abbaside Conspiracy, Imdo - Iranica, III, 1952-1953.

10 — **Ghévond.**

11 — Histoire des Guerres et des conquétes des Arabes en Arménie. (Tr. française d'aprés la russe) par Chahnazarian, Paris 1856.

11 — **Gibb, H. A. R.**

12 — The Arab Conquests in Cental Asia, London 1923.

13 — Studies on the Civilization of Islam, London 1962.

12 — **Gibb and Kramers,**

14 — Shorter Encyc, of Islam, (Brill 1916) .

13 — Graber, O.,

15 — Umayyad Palace and the Abbassi de Revolution. Stu. Isl. 1963.

14 — Heyd

16 — Histoire du Commerce du Levant (2 vols.) 2-me éd. - Paris 1936.

15 — Khuda Bukhsh, S.

17 — Contri butions ta the Study of islamic Civilization. (2 vols.) Calcutta, 1929-1930 .

16 — Lane - Pool, Stanley,

18 — Mohammadan Dynasties, London 1893 (rep. in Beyrouth) .

17 — Loekkegaard, F.

19 — Islamic Taxation in the Classical périod, Copenhagen 1930.

18 — Mihel le Syrien

20 — Chronique de M. le S. (Trad Fran. en 3 vole. par. J. B. Chabot) Paris 1909-1910.

19 — Muyldermans, J.

21 — La Domination Arabe en Arménie, (extrait de l' His, Univ. de Vardan) Paris 1927.

20 — De Nisibe, Elie

22 — Chronographie d' Elie de Nisibe, (Texte et trad. fran.) Ire Partie par Brooks 2=me Partie Par Chabot, Paris 1900-1902 (Tome VII et VIII du Corp. Scrip. Chris. Or.)

21 — Sadighi, Gh. H.,

23 — Les Mouvements Religieux Iraniens du II° and IIIeme siécle de l' Hégire, Paris 1938.

22 — Sha'ban, M. Abdelhay

24 — The Social and Political Background of the Abbasid Revolution Harvard, 1960.

23 — Sourdel, Dominique

25 — Le Vezirat Abbaside de 749 à 936 (132 à 324 de l' Hégire) Damas, 1959-1960 (2 vols) .

24 — De Tell Mahré, Denys (attribué à)

26 — Chronicon Anonymum Pseudo-Dionysianum (Tome I et II du Corp. Scrip. Chris. Or.) Publié Par J. B. Chabot (Trad. latine) Paris, 1895.

استدراكات

طبع الجزء الأول خاصة من هذا الكتاب في دمشق خلال حرب تشرين ١٩٧٣ وما أعقبها . وكان لا بد في هذه الظروف الاستثنائية من أن يتسرب بعض الاضطراب الى الرقابة الواجبة على طباعته . وهكذا اسقطت عند الطبع فقرات هامة ، في بعض المواضيع منه وجدنا أن لا مناص من استدراكها في هذه الصفحات التالية ، معتذرين عن ذلك بجانب اعتذارنا عن الأخطاء المطبعية الكثيرة التي أفردناها للتصحيح في أوراق منفصلة .

الاستدراك الاول

يضاف الى الصفحة ٥١ فيما بين الفقرة الأولى منها والثانية الأسطر التالية :

ومن الضروري هنا أن نتناول بالتحليل السريع هذه « العصبية » التي تصور على أنها مجرد عاطفة قبلية عمياء وظاهرة بدوية تحيي عصبيات الجاهلية الأولى . والواقع أنها ، في الأعماق ، مشكلة اقتصادية معاشية نجمت عن نزول القبائل العربية واستيطانها للأراضي المفتوحة سواء في الشام أو في خراسان أو في مصر أو الأندلس وعن الزحام فيما بينها على المناطق الأشد خصباً واحتجازها لذوي قرباها . فقد كانت الجموع النازحة من الجزيرة نتيجة الفيض الديموغرافي (السكاني) والتطوع في الجيوش تفضل عند الاستيطان ، في أي مكان ، منازل القبائل العربية ذات القربى أو الجوار السابق معها فعرب الجنوب يجتذبون أمثالهم ليقووا بهم وعرب الشمال من قيس يفضلون بدورهم النزول قرب أصحابهم . ولا تستوى الأرضون في الخصب ولهذا يتزاحمون على

المنازل الأكثر خصباً ويتعصب بعضهـم لبعض عند النزاع أثناء هـذا الانتقال من الطور البدوي في الحياة الى الطور الزراعـي • وكان ميل الخلفاء الى قبيل دون آخر يعني توفـر الرزق الأوفى والأرض لذلك القبيل • وإنما أخذ هذا النزاع القبلي شكله الحاد في الشام لأن الزحام فيهـا لم يكن على الأرض وحدهـا ولكن على القيادات أيضاً والولاية ووظائف الدولة والبروز في البلاط ••• مما كان يجعل الدولة باستمرار تعتمد على قسم من العرب لا على كل العرب •

فلما جاء مروان وحاول الخلاص من هذا الانقسام وعبر عن ذلك بالغاء الشكل القبلي للجيش شعر الطرفان بالخسارة وبضياع المصالح التي كانوا يؤمنونها عن طريق التعصب القبلي •

الاستدراك الثاني

ومكانه في الصفحة ١٧٥ فيما بين الفقرة ٢ و ٣ :

على أن البنى الاجتماعية قد تطورت تدريجياً خلال العصر العباسي الأول حتى إذا شارف نهايته وجدنا شيئاً كثيراً من التباين قد ظهر ما بين المجتمع الأموي الأخير والمجتمع العباسي في أواسط القـرن الثالث • فالارستقراطية الاقطاعية الآحادية العنصر وشبه المغفلة التي كانت قوام الحكم الأموي أضحت متعددة العناصر منفتحة لكل متمول ومغامـر بدخول مختلف الأقـوام في الاسلام وأخذها مكانها ضمن نطاقـه • والفروق الطبقية ازدادت وضوحاً مما نجم عنه ظهور طبقات من المعدمين واسعة العدد في المدن خاصة ، في الوقت الذي ازدادت فيه أعدادالأرقاء من جميع الأجناس من هذه المدن كما كان بعضهم يستخدم في الزراعة بأعداد واسعة في الريف • واتسعت بجانب الطبقة الاقطاعية ــ العسكرية طبقة البورجوازية التجارية وشكلت القمم العليا منها طبقة مالية غنية جداً

لم تكن أقل تأثيراً من الاقطاعية العسكرية في توجيه سياسة الدولة من جهة وفي تعميق الهوة الاجتماعية بين الطبقات العليا الموسرة والطبقات الدنيا المحرومة من جهة أخرى •

وقد عبرت هذه التناقضات عن نفسها في عدد من الثورات والانتفاضات والأفكار الاجتماعية الثورية والتنظيمات السرية • ولئن ارتدى بعضها الرداء الديني فان بعضها الآخر لم يخف شكله الطبقي أو الطائفي أو العنصري والقومي •

الاستدراك الثالث

ومكانه في الصفحة ٢٧٠ بعد الفقرة الثانية التي تنتهي بكلمة : أو قليل منها •

الرابعة : أن استعراض اسماء القواد والزعماء في هذه الثورات يبين أنها أسماء ايرانية خالصة تقريبا (به آفريد ، سنباذ ، أستاذسيز ، بابك ••• الخ) كما ان مراقبة الأخبار التي ذكرت عن أنصارها تكشف بالمقابل أنه لم يكن بينهم جماعات من الطبقة الارستقراطية وأن الذي كان يستجيب للثوار هم الجماهير الدنيا والعامة • وهذا وذاك انما يعنيان على الأقل أن هذه الجماهير قد استشعرت في مواقف الطبقات الايرانية العليا المتحالفة مع النظام الاسلامي والمتعاونة معه نوعاً من التخلي عنها فأطلعت من بينها الجماعات والحركات التي تعبر عن رفضها لذلك النظام الذي تعاديه ويعاديها دينياً والمتحكم سياسياً في شؤونها بالرغم منها والمرهق لها مالياً ــ بالاتفاق مع الموابذة والجهابذة والدهاقين والمرازبة ــ بالضرائب والذي ما ينفك يجتذب أنصارها الى جانبه باعتناق الاسلام ، وهكذا فهي لحد كبير حركات طبقية اكثر بكثير منها حركات قوميـة •

الاستدراك الرابع

ومكانه في الصفحة ٢٧١ بعد الفقرة الثانية المنتهية بكلمة : اشتراكية النساء .

وإذا تذكرنا حركة خداش المبكرة سنة ١١٦ ثم حركة بهافريد سنة ١٢٩ وتستر الدعوة العباسية على الحركتين وقبولها لهما قبل أن يفتضح علناً أمر مخالفتهما لعمود الدين الاسلامي أمكننا أن نتصور أن الدعاة العباسيين استثاروا وجندوا لمصلحة الدعوة في خراسان تلك الأفكار الدينية بين الناس ، وإذا حملت حركتهم اسم « الهاشمية » فان فرعاً هاماً منها قد اندفع الى التطرف وحمل اسم « الراوندية » ويبدو أن بعض الدعاة من قرية راوند (ومنهم عبد الله الراوندي أحد الدعاة السبعين) هم الذين قالوا أو كانوا أول من قال ببعض الآراء المتطرفة ومنها رفع الإمام الى مقام النبوة أو الألوهية والاعتقاد بأنه عالم بكل أمر وله « العلم الإلهي » . وإذا لم يعرف عن العباسيين ادعاء النبوة أو ما هو أعلى منها فانا نعرف أن المنصور كان يدعي معرفة « العلم الإلهي » وأن لديه صحفه التي كانت تمثل « ارث الكيسانية » الحقيقي المادي .

ومن الصعب وضع الراوندية وحركتها في إطار واضح لا بسبب تعدد فرقها ولكن أيضاً بسبب تطور أفكارها ودعوتها وإضافة الكثير اليها مع مرور الأيام ومع تطور الأحداث في العصر العباسي الأول . على أننا نستطيع مع ذلك أن نسجل حولها الملاحظات التالية :

١) هي في الأصل حركة شيعية عباسية ولكنها مغالية . وقد اشتقت من الشيعة الهاشمية ويسميهم ابن النديم « أبناء الدولة العباسية »(١)

---

(٢) ابن النديم ــ الفهرست ص ٢٠٤ (ط . فلوجل) .

وقد مشت الحركة في دروب الغلو درجة بعد درجة مفترقة ، عند كل إضافة فكرية جديدة إليها ، الى فروع متعددة متناثرة .

٢) احتفظت بالولاء العباسي بعد قيام العباسيين ولكن معظم فروعها إنما تعلقت بأبي مسلم وذكرى أبي مسلم . وتغيرت أفكارها وآراؤها من بعد نتيجة للظروف .

٣) تساهل العباسيون أيام الدعوة ثم بعد قيام الدولة مع هذه الفرقة الداعية لهم . لم يتبرأوا منها إلا حين أضحى السكوت عنها اتهاماً للعباسيين بالكفر . وهكذا تبرأ محمد الامام من خداش بعد هزيمته . وسحق أبو مسلم ثورة أبي اسحق الراوندي بعد سيطرته على خراسان وتوطد أمره فيها . ثم سحق الثورة الأخرى التي قام بها ثائر آخر اسمه أبو خالد وألجأه الى الفرار الى ما وراء النهر بعد أن تقبل حركته في خراسان ورضي بها . وتسامح أبو جعفر مع الراوندية فلم يقتلهم الا حين هدده هجومهم على قصره بالقتل .

٤) بلغت الراوندية أوج نشاطها وحركتها ما بين أواخر العهد الأموي حتى أواخر عهد المهدي ثم اضمحل شأنها بالتدريج بعد ذلك مع توطد الصفة الدينية للخلفاء العباسيين واستقرار الدولة في أيديهم . لم يعد للأفكار الراوندية من وظيفة تقوم بها فاندمج أنصارها ــ على ما يظهر ــ في الفرق الشيعية الغالية الأخرى واقتصر نشاط الباقين على الفكر الراوندي ، في مجال الفكر الفلسفي التشيعي والتأليف فيه .

٥) ظل المركز الرئيسي للتحرك الراوندي في خراسان ، حيث قامت الدعوة العباسية الأولى وإذا لم يظهر لها من أثر أو من أثر واضح في العراق ــ فيما عدا بغداد ــ فيبدو أن ...

الاستدراك الخامس

ومكانه في الصفحة ٤٣٤ بعد الفقرة الثانية التي تنتهي بكلمة : بدلا منه .

ولا بد لنا من الاشارة أخيراً هاهنا الى أمر خطير هو صلة هذه المشكلة العهدية مع المشكلة البرمكية . فالذي يبدو من التدقيق في الكتاب الذي أصدره الرشيد ووزعه على الناس عقب البيعة في الكعبة لولديه ، وقبيل أسبوع واحد من مصارع البرامكة أن قضية العهد والكعبة والايمان كلها إنما كانت « لحسم كيد أعداء النعم » البرامكة الذين كانوا يتآمرون للايقاع بين الأخوين ولسلبهما ـ كما يقول الكتاب نفسه ـ حقهما في الخلافة.وربما كان البرامكة يعملون لمصلحة عبدالملك ابن صالح العباسي كما سوف نرى عند بحث المشكلة البرمكية .

الاستدراك السادس

ومكانه في الصفحة ٨٦؛ بعد المقطع الأول في منتصف الصفحة :

حادي عشر : ويلاحظ بجانب هذا كله أن الرشيد سبق نكبته للبرامكة بتنظيم قضية ولاية العهد لولديه الأمين والمأمون ، ونجد سواء في نصوص الوثائق المتعلقة بذلك أو في توقيت الأحداث وتواليها نوعاً من العلاقة الأكيدة بين الحادثين تكشف أبعاد النكبة وتلقي الضوء الحقيقي عليها وعلى الطريقة التي كان المتآمرون من البرامكة مع عبدالملك ابن صالح العباسي يدبرونها لسحب العرش من تحت الرشيد أو أولاده:

فقد كتب الرشيد الى العمال في الآفاق كتاباً بتوطيد ولاية العهد للأخوين الأمين والمأمون وطلب الى العمال « قراءته على الناس وإفهامهم إياه وإثباته في الديوان ولدى قواد أمير المؤمنين ... » . وفي الكتاب

المؤرخ لست ليال بقين من المحرم سنة ١٨٧ نص هام يقول : « ... ولم يزل أمير المؤمنين منذ اجتمعت الأمة على عقد العهد لمحمد ... ولعبد الله من بعده يعمل فكره ورأيه ونظره ورؤيته فيما فيه الصلاح لهما ولجميع الرعية والجمع للكلمة واللم للشعث والدفع للشتات والفرقة والحسم لكيد أعداء النعم من أهل الكفر والنفاق والغل والشقاق والقطع لآمالهم من كل فرصة يرجون إدراكها وانتهازها بانتقاص حقهما . ويستخير الله أمير المؤمنين في ذلك ويسأله العزيمة له على مافيه الخيرة لهما ولجميع الأمة والقوة في أمر الله وحقه وائتلاف أهوائهما وصلاح ذات بينهما وتحصينهما من كيد أعداء النعم ورد حسدهم ومكرهم وبغيهم وسعيهم بالفساد بينهما . فعزم أمير المؤمنين على الشخوص بهما الى بيت الله وأخذ البيعة منهما لأمير المؤمنين بالسمع والطاعة والانفاذ لأمره ... والأخذ لكل واحد منهما على صاحبه بما التمس به أمير المؤمنين اجتماع إلفتهما ومودتهما ومؤازرتهما ومكاتفتهما ... والجهاد لعدو المسلمين من كانوا وحيث كانوا وقطع طمع كل عدو مظهر للعداوة ومسر لها . وكل منافق ومارق وأهل الأهواء الضالة المضلة من تكيد بكيد توقعه بينهما ... وما يلتمس أعداء الله وأعداء النعم وأعداء دينه من الضرب بين الأمة والسعي بالفساد في الأرض والدعاء الى البدع والضلالة ... نظراً من أمير المؤمنين لدينه ورعيته ... وذبا عن سلطان الله الذي قدره ... »[١] .

وهذه الوثيقة لا تكشف فقط عن مخاوف الرشيد القديمة وتفكيره الدائم في صيانة العرش له ولأولاده ولكن تكشف أيضاً الأمر

---

(١) انظر النص الكامل لدى الطبري ج ٨ ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥ (٦٦٤/٣ ـ ٦٦٥) وانظر ص ٢٨٦ .

الأهم وهو وجود « جماعة » معينة وصفها الرشيد ثلاث مرات بأنها « أعداء النعم » كما وصفها بأنها من أهل الكفر والنفاق والغل والشقاق و « من أهل الأهواء الضالة المضلة » وأشار الى أن هؤلاء أعداء المسلمين وأن بعضهم يظهر العداوة وبعضهم يبطنها . كما ذكر أن هؤلاء كانوا يكيدون ويحسدون ويمكرون ويبغون ويسعون بالفساد بين الولدين . وأنه كان لهم « آمال » و « فرص » يرجون ادراكها وانتهازها من الولدين لانتقاص حقهما .. » .

وهذا كله يعني أن الرشيد كان مدركاً أن ثمة مؤامرة كاملة تدبر وأنها تستهدف ازاحة الأخوين معا لمصلحة مرشح مكتوم لا شك أن الرشيد عرف من يكون .

وفي الوثيقة الى هذا وذاك ربط ما بين « كيد أعداء النعم » وبين الخطوات التي اتخذها الرشيد لمقاومتهم وهي الخطوات التي بدأت بمسير الرشيد بولديه الى الكعبة والبيعة الموثقة لهما هناك في بيت الله المعظم وإشهاد تلك الجماعة الواسعة التي حضرها الرشيد معه عامداً الى الحج من أهل بيته ومن البرامكة ومن القضاة والقواد والناس وأخيراً إشهاد الرعية جميعاً في كل مكان وذلك بنية « قطع طمع كل عدو مظهر العداوة أو مسر لها » وبنية إضفاء الطابع الديني والجماعي معا لا على مراسم العهد وحدها فقط ولكن على ما سوف يتلوها من أعمال ... لا شك أن منها الفتك باعداء النعم هؤلاء . وقد ألح الرشيد في الوثيقة نفسها الى أنه « كان يستخير الله ويسأله العزيمة في أمر الله وحقه ... » لتخلص من هؤلاء الذين تكشف الوثيقة نفسها أنهم كانوا كابوس الرشيد وهاجسه المرعب .

ويستبين أمر هذه العزيمة من التوالي الزمني للأحداث : فقد علقت العهود في الكعبة في موسم الحج سنة ١٨٦ (حوالي عيد الأضحى العاشر

من ذي الحجة) ثم أرسلت الكتب الى العمال (بنص الوثيقة الذي ذكرنا بعضه) في ٢٣ من المحرم سنة ١٨٧ أي بعد شهر ونصف من الحج هي مسافة طريق العودة من الحج مابين الحجاز والعراق . ثم قتل جعفر البرمكي وبدأت النكبة بعد سبعة أيام من ذلك في أول ليلة من صفر سنة ١٨٧ وهذا التوالي الزمني يرجح وجود العلاقة الأكيدة بين الحادثين .

ولم يكن الشق الآخر من أصحاب المؤامرة المفترضة وهو عبدالملك ابن صالح العباسي بالبعيد في ذلك الوقت نفسه لا عن ظنون الرشيد ولا عن رقابته فان الطبري يورد في هذا الصدد خبرا نقله عن زيد بن علي بن الحسين العلوي يقول ان عبد الله بن مالك صاحب شرطة الرشيد دخل عليه لما حبس عبد الملك (اثر نكبة البرامكة) يقول له : لا ! والله العظيم يا أمير المؤمنين ما علمت عبد الملك إلا ناصحاً فعلام حبسته ؟ قال : ويحك بلغني عنه ما أوحشني ولم آمنه أن يضرب بين ابني هذين (يعني الأمين والمأمون[1] ...) ونستطيع أن نضيف الى هذا خبرين آخرين أوردهما الطبري أيضاً :

الأول : أن الرشيد قبيل القبض على عبد الملك فاتحه فيما بلغه عنه من قبل ابنه ومولاه ثم قال : أما أمرك فقد وضح ! ولكني لا أعجل حتى أعلم الذي يرضي الله فيك . ثم دخل عبد الملك عليه في مجلس آخر وسلم فلم يرد عليه السلام فلما طالبه برد التحية (وهو فرض) قال الرشيد : السلام عليك اقتداء بالسنة . ثم التفت نحو سليمان بن أبي جعفر فقال وهو يخاطب بكلامه عبد الملك :

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٣٠٥ (٦٩٢/٣) .

أريد حياته ويريد قتلي ... (البيت)[1] .

الثاني : سؤال الرشيد ليحيى بن خالد البرمكي وهو في السجن عن عبد الملك بن صالح الذي ــ كما قال ــ « أراد الخروج ومنازعتي في الملك . وقد علمت ذلك . فأعلمني ما عندك ... » .

وإذا أضفنا الى هـذا في النهاية أن الرشيد نفسه كان مريضاً بالسرطان . وكان يداري علته ويخفيها ويحملها في جلده صابراً مكابراً ، وضح التسلسل المنطقي كله للنكبة : فقد كان الرشيد يرى شبكة واسعة من « أعداء النعم » البرامكة وعبد الملك العباسي . الأوائل « أهل الكفر والنفاق والعداوة المستترة والمكر والبغي والدعاء الى البدعة والضلالة والأخير صاحب الغل والشقاق والحسد والمكر المنافق المارق وصاحب الأهواء الضالة المضلة . وكان الطرفان يكيدان ــ بالاتفاق فيما بينهما على الأرجح ــ ويسعيان بالفساد بين الأخوين ويعللان الآمال « بفرصة يرجون إدراكها منهما بانتقاص حقهما » ولا شك أن هذه الفرصة المنتظرة هي موت الرشيد الوشيك (بالمرض أو بالقتل) ثم ضرب الأخوين أحدهما بالآخر لإزاحة الاثنين وتولية عبد الملك بدلا منهما . وكان جواب الرشيد على هذه المخططات التآمرية أنه نظم أولا ولاية العهد للولدين وربطهما بمقدسات المسلمين في الكعبة ثم بالشرعية العامة عن طريق البيعة أمام القضاة والشهود والناس وفي الأمصار ولدى القواد . ثم ضرب ضربته بعد ذلك بالشكل المفاجيء العنيف ليقطع الطريق على كل ردة فعل ويقطع « طمع كل عدو » وأعطى هذه الضربة صورة الجهاد باعتبارها « ذباً عن سلطان الله الذي قدره ... » .

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٣٠٤ (٣/٦٩٠) والبيت معروف يقول :

أريد حياته ويريـد قتلي   عذيرك من خليلك من مراد

ولعلل للمفاجأة وللعنف تفسيرهما أيضاً فانه لم يكن ليغيب بكل تأكيد عن خاطر الرشيد ، على أي حال ، أن أخاه وأباه قد قتلا في مؤامرات بلاطية كان هو نفسه مع والد البرامكة ضالعين فيها • ولم يكن ليغيب عنه سعة نفوذ البرامكة وكثرة أعوانهم المخلصين ومن حقه إذن أن يخشى الوقوع بدوره ضحية لمؤامرات من مثلها أو اغتيالات قد تدبر ضده • هذا الى أن مرضه المميت من شأنه أن يعطي تصرفاته صفـة القسوة والانتقام الرهيب المتطرف • وهذا كله مما يفسر أنه ضرب ضربته وهو خارج بغداد ، في الأنبار ، ويفسر السرعة المفاجئة فيها ويفسر أخيراً هربه الدائم من بغداد الذي نذكره في البند التالي •

ثاني عشر : فثمة أمر هام ••••

* * *

كشاف الأعـلام

للجزء الأول

ـ ب ـ

ث

ج

ح

خ

د

ز

س

ق

ك

ل

م

ن

— هـ —

*

ت

ث

ج

ز

س

ش

غ

ي



الفهرس

الفصل الأول :

الفصل الثاني :

الفصل الخامس :

الفصل السادس:

الفصل السابع :

الفصل الثامن :

الفصل التاسع :

الفصل العاشر :

* * *

تصويب

الجزء الثاني من دولة بني العباس

مرة اخرى نضطر آسفين الى تصويب بعض الاخطاء المطبعية التي لم يكن مناص من ان تتسرب الى الكتاب في جزئه الثاني ايضاً وليس بالامكان التغاضي عنها. ونرجو ان تصحح قبل القراءة ولم نسجل على اي حال سوى الهام منها .

الصفحة	السطر	الخطأ	التصويب
٨	بين ٧ و٨	تنقص الفقرة التالية :	٤ ـ توطيد المذهب السني وتبنيه كمذهب رسمي للجماعة الاسلامية لمقابلة الاتجاهين الفكريين العلوي والخارجي بمذهب فكري متكامل .
٩	٢	من اهل الرسول	من حق أهل الرسول
٩	٦	٦ـ المستخدمتين	المستمدتين
١١	١٤	الحكم من	الحكم عن
١٢	١٦	وارثة وموروثة	وارثه ومورثه
١٢	١٨	فادركنا من ما	فادركنا منه ما ...
١٦	٥	من دون يتم	من دون تيم
١٦	٨	ولا تقدمكم	ولا تقدكم
١٦	١٠	يصحح بيت الشعر كما يلي:	إن الخلافة مذ كانت ومذ بدات موسومة بفتى من آل عباس
١٩	١١	الناس اجبتوك	الناس اجتبوك
٢١	٥	وحضنا	وخصنا
٢٦	٤	المقرنة	المقرونة
٢٨	٥	بدا	بـدا

الصفحة	السطر	الخطأ	التصويب
٣٠	٥ هامش	المنصور قبل	المنصور وهو خليفة قبل
٣٤	١١	يتقرب	تقرب
٣٥	١٤	ولو لم يكن	ولم يكن
٣٨	١٣	اسمه مقلاصا	اسمه مقلاص
٤١	٢١	المتوكل	المعتصم
٤٨	١٠	وعرفنا	عرفنا
٤٨	١٧	وصفها	وضعها
٥٢	٢	سياسته	سياسة
٥٣	١٤	الجمض	الجمفى
٥٣	٢٠	الخض	الخفى
٥٤	٥	تخرجهم	تحرجهم
٥٦	السطر الاخير	الله إن	والله إني لأعلم أن
٥٨	١٢ و ١٣		تحذف الكلمات المكررة حتى كلمة : للنصيحة
٦٥	١	وتذخر	وتزخر
٦٧	١	الواشحة	الواشجة
٦٧	١٠	انجم	الجم
٦٧	قبل الآخر	ضعف	صنف
٦٨	١١	المغزلي	المعتزلي
٧٠	١	وإذا كان من مذهب	وإذا كان مذهب
٧٢	١٦	انطلق	انطلقا
٧٥	١	وكان	وكان
٧٦	١٣	السطر مكرر ويكتب بدلا عنها	العقلية ضمن إطار الاسلام لمختلف القضايا التي يثيرها الايمان لأن القرآن ...
٨٠	٧	كان	كأن
٨٠	١٨	الفرصة	الفرضية
٨١	٣	ومى ذلك	ومع ذلك
٨١	٦	السياسي عن	السياسي غير

الصفحة	السطر	الخطأ	التصويب
٨٢	٣	او يقول	أو القول
٨٢	١٢	البراهن	البراهين
٨٥	٧	كانوا يشغبوا	كانوا يشغبون
٩٧	١	كتابة خفيفة	كتابة ضعيفة
١٠٢	١٤	إنما في ذلك للنصراني	إنما تستعمل في ذلك العصر للنصراني
١٠٣	٨	ونماذج	وتمازج
١٠٤	٩ و١٠	التطبيق العملي التطبيق العملي	مكررة ولذلك تحذف وتتصل الجملة
١٠٧	الاخير	عبدة الرقوس	عبدة الرؤوس
١٠٩	قبل الأخير	مرغمة التطبيق	مرعية التطبيق
١١١	٣	وبديهي انه	وبدهي أن
١١١	٦	بل تعد هذه	بل تعد هذه الفترة
١١٣	١	فان الذميين كانوا	فان الذميين الذين كانوا
١١٩	٦	من النصارى	من النصارى بهذا
١٢٥	١٤ و١٦	حنانيشوع	حنا نيشوع
١٣٧	١٢	وشال البطريق	وسال البطريق
١٣٧	١٣	ادخل عليم افرام	ادخل عليه افرام
١٤٢	٢	لأن لم تسمع	لأنا لم نسمع
١٤٣	١٣	اي خطر	اي حظر
١٤٣	٨	لهم بغداد	لهم في بغداد
١٤٨	١٥	الصور القائمة	الصبور القائمة
١٤٩	٣	تكون القيمة هي	تكون القيمة الأولى هي
١٦٦	قبل الأخير	الصلبان	رفع الصلبان
١٦٨	قبل الأخير	من قلانسهم	في قلانسهم
١٧٣	١٢	واساسه	واسامه
١٧٣	٧	الاقطاث	الاقطاع
١٧٩	١٨	مسألة اياي	مسألته إياي
١٨١	٤	كتاج	كتاب

الصفحة	السطر	الخطأ	التصويب
١٨١	٦	المقتطفات في	المقتطفات وكتب في
١٨٢	قبل الأخير	وكتاب في	وكتاباً في
١٨٨	٤	البغن	الغبن
١٩١	٢	التكوين الهدف	التكوين والهدف
١٩٣	٧	مغبنان	معتبان
١٩٣	الأخير	اذا أضحت	إذ أضحت
١٩٤	قبل الأخير	كان يعزو	كان يغزو
٢٠١	١٧	عبد القدوس ولنذكر	عبد القدوس والجعد بن درهم ولنذكر
٢٠٩	١٩	اسكن النار	اسكن النارا
٢١٣	٨	بكتاب على	بكتاب الرد على
٢١٤	١١	سبع سنوات (١٦٣ــ	اربع سنوات (١٦٧ ــ
٢٢٣	قبل الأخير	سنوات رؤساء	سنوات ثلاثة رؤساء
٢٢٤	١٧	الزائفة	الزائغــة
٢٢٥	الأول	الشكاك ...	يضاف بعد هذه الكلمة ما يلي : كما اهتم الشيعة بالرد عليهم وقد كتب أبو محمد هشام بن الحكم الكوفي مولى شيبان وهو من أصحاب جعفر الصادق ومن متكلمي الشيعة (سنة ١٩٠ وسنة ٢٠٠) كتاباً في الرد على الزنادقة وكتاباً في الرد على أصحاب الاثنين .
٢٢٥	١٨	السطر مكرر	يحذف السطر ويكتب بدلاً عنه: بجانب بغداد أو في خراسان وما وراء النهر ولم تشمل المكافحة المانويين وإلا انتهت
٢٢٧	الاول	بعرض	يعرض

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٢٧	٥	العصري	البصري
٢٢٩	٩	جعلت الله عهداً	جعلت لله عهداً
٢٢٩	١٧	وبطة	ربطة
٢٣١	١٦	كالذي من أمر	كالذي كان من أمر
٢٣١	١٧	ابنه	ابنة
٢٣٢	٣	انتهى	انتهت
٢٣٢	٨	تفرح بها	تفرح بحكا فحتها
٢٣٣	١٧	المجاورة	المحاورة
٢٣٤	١٧	ملاحظة	ملاحقة
٢٣٥	١٨	من الكبت	من الكتب
٢٤٤	١٥	الى الجس	إلى الحبس
٢٤٥	١٢	وحيثا	وحيثما
٢٤٧	١٧ و١٨	مكانهما غير صحيح يوضع السطر ١٧ بعد السطر ١٨	
٢٥٣	قبل الأخير في الهامش	بطريق	بطريق البطارقة انطاكية
٢٥٥	٢	والصبيان لهم	والصبيان جعلت لهم
٢٥٦	قبل الأخير	منها	بينهما
٢٥٦	الهامش ١	ينقصه اسم المرجع Bury صفحات ٢٣١ ، ٢٥٣ ـ ٢٥٤	
٢٥٨	١٣	المصحفان	المصمفان
٢٦٠	٨	الجبلية لم	الجبلية ولم
٢٦٠	١٨	فانقطوا	فانقطعوا
٢٦١	٣	سلام	سلم
٢٦٦	قبل الأخير	منبوذين محرم	منبوذين محرماً
٢٧٢	٦	وطولا الهند	وطولا وكاتب الهند
٢٧٤	١٣	والقصة لو	والقصة ولو
٢٧٥	٧	بالتوجد	بالتوحيد
٢٧٦	٦	وصل سنة	وصل أحدها سنة
٢٧٩	٩	الخزلخية	الخرلخية

الصفحة	السطر	الخطـأ	التصويب
٢٧٩	١٠	جيفونة	جيغوية
٢٧٩	١١	بيفو	يبغو
٢٨٠	١٠	(الاتراكوالايرانيون)	(الاتراك والايرانيين)
٢٨٤	٧	اومينية منطقة	ارمينية في منطقة
٢٨٧	٧	تهور . . . التهور	تهود . . . التهود
٢٨٨	١	وحزامة	وصرامة
٢٨٨	٨	حلت بالاـمن	حلت بالأرمن
٣٠٠	١	مناظر	عناصر
٣٠١	١١	مع الروم هي	مع الروم هو
٣٠٤	٨	الثغرالأولسنة١٧٥	الثغر الأول سنة ٧٨٥/١٦٨
٣٠٨	السطر الأخير	(١٧٠ – ١٨٠)	(١٧٠ – ١٨٦ هـ)
٣١٩	١٣	بن آلين . . . الصانفة	بن اعين . . . الصائفة
٣١٩	٢١	شاهن	شاهك
٣٢٠	١٢	العمودية	العمورية
٣٢١	١٠	فلم يجد	فلم يجبه
٣٢٥	١٥	قلى نهر	على نهر
٣٣٠	٤	الهارونة	الهارونية
٣٣٧	١٤	بيزنطة دوماً	بيزنطة دوماً وقد شكلوا لديهم فرقة حربية حاربت بجانب الروم .
٣٤٥	١٠	موار المنايا	موارد المنايا
٣٤٥	١٥	ولثاروا المعارضة	واثاروا المعارضة
٣٦٩	٧	مهمل هذه	مهمل هو
٣٧٣	٢	يرمغون	يرفعون
٣٧٦	١١و١٢	ولم تتبدل . . . ولم تتبدل	تحذف إحدى الجملتين
٣٨٢	الأخير	واذا انقسم	وقد انقسم
٣٨٧	٥	ونلفت النظر	ويلفت النظر
٣٨٧	١٢	تناصر	تناحر

الصفحة	السطر	الخطأ	التصويب
٣٩٣	٩	إن انه	الا انه
٣٩٦	الأول	عرضته فليه	عرضته عليه
٤١٢	١٥	في طرطوس	في طرسوس
٤١٩	٣	الواثق إلم	الواثق الى
٤١٩	١٨	خيطئة	خطيئة
٤٢١	٤	طالب ما احسن	طالب مثل ما احسن
٤٢٣	٣	بالتحدث	بالتحديث
٤٢٨	عنوان الفصل	الفصل التاسع عشر	الفصل السابع
٤٣٠	٣	سكة النجارية	سكة البخارية
٤٤٩	١	الفى الفى	الفي الف
٤٥٢	١٥	النبوية	البنوية
٤٥٥	الاخير	النبوي	البنـوي
٤٥٩	١٢	الفراعنة	الفراغنة
٤٦٣	١٢	ولعل ما يفسر	ولعل هذا ما يفسر
٤٦٧	١٧	مخلف	مخلـد
٤٧٦	٤	محاكمة	محاكمته
٤٧٧	١٣	السطر مكرر	يحذف ويكتب بدلا منه ما يلي : يعزو هذه النصيحة الى حقد القاضي على الأفشين لكلام بلغه عنه فانها ....
٤٧٩	٢٠	فأبقي	فأبى
٤٨٠	٣	سامهم ... آخرين	سهامهم ... آخرين
٤٨١	١٣	على الشكل ورد	على الشكل الذي ورد
٤٨١	السطر الأخير	على وجها	على وجهها
٤٨٦	٢	فجاء من المدينة	فجاء به من المدينة
٤٨٦	٦	وامره بهدم	وأمر بهدم
٤٩٠	٧	تحولا متقطع	تحولا متقطعا
٤٩٦	٤	اسواق النحاسة	اسواق النخاسة
٤٩٦	السطر الأخير	ولكن حدد	ولكن جدد
٤٩٧	٣	بلدة برعة	بلدة بردعة

الصفحة	السطر	الخطـأ	
٤٩٩	١٩	رغم ما يلقيهم	رغم ما يلقيهم ذلك
٥٠١	٣	وان حروف	وان صروف
٥٠٣	١٦	سنة ٦٢٩	سنة ٢٢٦
٥٠٥	٥	ثم صنع السيف	ثم وضع السيف
٥٠٦	١٥	بيهس المبرقع	بهيس والمبرقع
٥٠٦	٢١	ابتت نياتا	انبتت نباتا
٥٠٧	١٧	سوى أن نجد	سوى أنا نجد
٥٠٧	١٨	يترحل ثلاث	يترحل بعد ثلاث
٥١٢	٢	التمرد من قليل	التمرد في قليل
٥١٢	٨	حمص سنة	فيه حمص سنة
٥١٥	٥و٦	منذ هذه الفترة حتى سقوطها	جملة زائدة . تحذف
٥١٨	١٣	اخرى برنيق	اخرى منها برنيق
٥١٨	١٤	اجداية	اجدابية
٥٢٦	١٤	يبدو أنه المراكب	يبدو أن المراكب
٥٢٩	الاول	لهذا التبرير	لهذا التدبير
٥٣٣	١٣	وحقر ملوكهم	وحضر ملوكهم
٥٤٤	الأخير	فرضه	فرضته
٥٦٢	٣	السبب فيها فشل الحملة	السبب في فشل هذه الحملة
٥٦٥	الأخير	تنصيبهم	تنصيب
٥٧١	١٥	فوضح الملح	فوضع الملح
٥٧٥	١٧	المخدود	المحدودة
٥٧٩	١١	شراذمة	شراء ذمة
٥٨١	١٥	غشاء أجوى	غشاء احوى
٥٨٢	٩	آسيا الصغرى	آسيا